التفسير المظهري

تأليف

الشيخ القاضي محمد ثناء الله
العثماني الحنفي المظهري الپاني پتي
المتوفى ١٢٢٥هـ

وضع حواشيه وخرج آياته وأحاديثه
إبراهيم شمس الدين

الجزء الثالث

المحتوى:
من أول سورة الأعراف - إلى آخر سورة هود

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: AL-TAFSĪR AL-MAẒHARI
(The exegesis of the Holy Qur'an)

Author: Al-qāḍi Muḥammad Ṯanā'ullāh al-Maẓhari

Editor: Ibrāhīm Šamseddīn

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 3784 (7 volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: التفسير المظهري

المؤلف: الشيخ القاضي محمد ثناء الله العثماني المظهري

المحقق: إبراهيم شمس الدين

الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت

عدد الصفحات: 3784 (7 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-4069-8

9 782745 140692 90000

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م ـ ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢/ ١١/ ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة الأعراف

مكية وبعضها مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا
فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ
﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾
قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾
قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ
ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا
رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا
رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ سبق الكلام في مثله في سورة البقرة ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب أو خبر للحروف المقطعة إن كان المراد به السورة أو القرآن ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ صفة للكتاب ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ الحرج في الأصل الضيق، قال مجاهد: المراد ههنا الشك فإن ضيق الصدر سبب للشك وشرح الصدر سبب لليقين، وقد مرت مسألة شرح الصدر وضيقه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] الآية، وقال أبو العالية: المراد منه مخافة الناس في تبليغ القرآن من

أن يكذبوه ويؤذوه فإن الخائف في أمر لا ينشط له ولا ينشرح صدره في الإتيان به، وقيل: المراد المخافة في القيام بحقه والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة كقولهم لا أرينك، يعني لا تشك في أنه منزل من الله تعالىٰ أو لا تخف أحدًا من الناس ولا تبال بهم فنحن الحافظون لك أو لا تخف ترك القيام بحقوقه فنحن نيسر لك ونوفقك، والفاء تحتمل العطف والجواب، كأنه قيل: إذا أنزل إليك فلا تحرج صدرك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلق بأنزل أو لا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار وكذا إذا لم يخفهم أو علم أنه موفق للقيام به ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عظة لهم مرفوع عطفًا على كتاب أو خبر المحذوف أو منصوب بإضمار تذكر أي تذكر ذكري أو مجرور عطفًا على محل تنذر ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ بتوسط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وحياً جليًا أو خفياً فيعم السنة أيضًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي دون الله تعالىٰ حال من قوله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ من الجن والإنس تطيعونهم في معصية الله تعالىٰ خرج بقوله تعالىٰ من دونه من كان ولايته من جهة الله تعالىٰ كالأنبياء والعلماء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا وما مزيدة لتأكيد القلة وليست بمصدرية وإلا لم ينتصب قليلًا بتذكرون، قرأ أبو عمرو يتذكرون بالياء التحتانية على صيغة الغيبة والخطاب مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والباقون بغير ياء على صيغة الخطاب بحذف إحدى التاءين على أنه خطاب مع الناس، قلت: نسبة قلة التذكر إلى جميع الناس مبني علىٰ كثرة تذكر قليل منهم وهم المؤمنون.

﴿وَكَم﴾ خبرية مبتدأ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تميز لها ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ خبر للمبتدأ أي أردنا إهلاكها أو خذلناها ﴿فَجَآءَهَا﴾ أي جاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا وجاز أن تكون الفاء للبيان والتفسير كما في قوله أحسنت إليّ فأعطيني فيكون قوله فجاءها بأسنا بدلًا من قوله أهلكناها ﴿بَيَٰتًا﴾ أي بائتين ليلاً كقوم لوط مصدر وقع موقع الحال ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي نائمون في الظهيرة كقوم شعيب والقيلولة استراحة نصف النهار وإن لم يكن معه نوم، والجملة معطوفة علىٰ بياتًا عطف الجملة على المفرد حال من القرية بمعنى أهلها، وإنما حذفت واو الحال استثقالًا لاجتماع حرفي العطف فإنها واو عطف استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير فإنه غير فصيح، ومعنى الآية أنه جاءهم العذاب وهم غافلون غير متوقعين له ووجه تخصيص الوقتين بالذكر المبالغة في بيان غفلتهم وأمنهم من العذاب ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي قولهم ودعائهم وتضرعهم، قال سيبويه: يقول العرب اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يعني إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه والمعنى أنهم لم يقدروا على رد العذاب بل اعترفوا بذنبهم حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: نسأل الناس جميعًا عما أجابوا المرسلين ولنسألن المرسلين عما بلغوا، وأخرج ابن المبارك عن وهب قال: إذا كان يوم القيامة دُعِيَ إسرافيل ترعد فرائصه فيقال: ما صنعت فيما أدي إليك اللوح؟ فيقول: بلغت جبرائيل فيدعى جبرائيل ترعد فرائصه فيقال: ما صنعت فيما

بلغك إسرافيل؟ فيقول: بلغت الرسل فيؤتى بالرسل فيقال: ما صنعتم فيما أدى جبرائيل؟ فيقولون: بلغنا الناس، وهو قوله تعالىٰ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ وأخرج مسلم عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال في خطبته في حجة الوداع: «أنتم تسألون عني فهل أنتم قائلون، قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: اللهم اشهد»[(١)] وأخرج أحمد عن معاوية بن حيدة أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن ربي داعي وإنه سائلي هل بلغت عبادي وإني قائل قد بلغتهم فليبلغ منكم الشاهد الغائب، ثم إنكم تدعون مقدمة أفواهكم بالغداة إن أول ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه»[(٢)] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي سنان قال: أول من يحاسب يوم القيامة اللوح يُدعىٰ به ترعد فرائصه فيقال له: هل بلغت؟ فيقول نعم، فيقول ربنا: من يشهد لك؟ فيقول: إسرافيل، فيدعى إسرافيل ترعد فرائصه فيقول: هل بلغك اللوح؟ قال: نعم، قال اللوح: الحمد لله الذي نجاني من سوء الحساب. وأخرج ابن المبارك في الزهد عن أبي حبلة قال: أول من يدعىٰ يوم القيامة إسرافيل فيقول الله هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم قد بلغته جبرائيل فيدعىٰ جبرائيل فيقال: هل بلغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم فيخلى عن إسرافيل، فيقول لجبرائيل: ما صنعت في عهدي؟ فيقول: يا رب بلغت الرسل فيدعى الرسل فيقول للرسل هل بلغكم جبرائيل عهدي؟ فيقولون: نعم فيقال لهم: ما صنعتم في عهدي؟ فيقولون: بلغناه الأمم، فيقال لهم: هل بلغكم الرسل؟ فمكذب ومصدق فيقول الرسل: لنا عليهم شهداء فيقول من؟ فيقولون: أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتدعى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيقال لهم: تشهدون أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فيقولون: نعم فتقول الأمم: يا ربنا كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله: كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولًا وأنزلت علينا كتابًا وقصصت علينا أن قد بلغوا فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية، وقد ذكرنا حديث أبي سعيد الخدري في الشهادة في سورة البقرة في تفسير تلك الآية، وجاز أن يكون المراد ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجابتهم الأمم نظيره قوله تعالىٰ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [المائدة: ١٠٩] وقد مر تفسير الآية في سورة المائدة.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي على الرسل والمرسل إليهم حين يقول الرسل لا علم لنا أو حين أنكر الأمم التبليغ وشهد عليهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي بمعلومنا منهم أو المعنىٰ عالمين بظواهرهم وبواطنهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن الرسل فيما بلغوا أو عن الأمم فيما أجابوا وفيما شهد عليهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما كان السؤال

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٥٦، وابن ماجه في المناسك باب ٨٤، والدارمي في المناسك باب ٣٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤.

لتوبيخ الكفرة وتقريعهم وإظهار شرف الأنبياء والمسلمين وتفضيل أمة محمد ﷺ بالشهادة، ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾ أي وزن الأعمال بالميزان مبتدأ خبره ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ أي كائن يوم إذا تحقق السؤال من المرسلين والمرسل إليهم ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ صفة للمبتدأ ومعناه العدل السويّ أو خبر لمحذوف أي هو الحق لا شبهة فيه يجب الإيمان به، أخرج البيهقي في البعث عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في حديث سؤال جبرائيل عن الإيمان قال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: فإذا فعلت هذا فأنا مؤمن؟ قال: نعم، قال: صدقت» وأخرج ابن المبارك في الزهد والآجري في الشريعة عن سلمان وأبو الشيخ في تفسيره عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكفتان. واختلفوا في كيفية الوزن؟ فقال بعضهم: يوزن صحائف أعمالهم لما روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححهُ والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجاء برجل من أمتي على رؤوس الأشهاد يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر فيقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالىٰ شيء»(١).

وأخرج أحمد بسند حسن عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصي عليه فتمايل به الميزان فيبعث به إلى النار فإذا أدبر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن: لا تعجلوا فإنه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيها لا إلٰه إلا الله فيوضع مع الرجل حتى يميل به الميزان»(٢) وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن عمرو قال: إن لآدم من الله موقفًا عليه ثوبان أخضران كأنه نخلة سحوق(٣) ينظر إلى من ينطلق به من ولده إلى النار فبينما آدم علىٰ ذٰلك إذ نظر إلىٰ رجل من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ينطلق به إلى النار، فينادي آدم يا أحمد فأقول لبيك يا أبا البشر فيقول: هٰذا رجل من أمتك ينطلق به إلى النار فأشد المئزر أسرع في إثر الملائكة وأقول يا رسل ربي قفوا فيقولون: نحن الغلاظ الشداد الذين لا نعصي الله ما أمرنا ونفعل ما نؤمر، فإذا أيس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبض على لحيته بيده اليسرى واستقبل العرش بوجهه، فيقول: رب قد وعدتني أن لا تخزيني في أمتي فيأتي النداء من عند العرش

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ١٧، وابن ماجه في الزهد باب ٣٥.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢١٣، ٢٢٢.
(٣) النخلة السحوق أي الطويلة بعد ثمرها على المجتني.

أطيعوا محمدًا وردوا هٰذا العبد إلى المقام، فأخرج من حجرتي بطاقة بيضاء كالأنملة فألقيها في كفة الميزان اليمنى، وأنا أقول بسم الله فترجح الحسنات على السيئات فينادى سَعِدَ وسَعِدَ جده وثقلت موازينه انطلقوا به إلى الجنة فيقول: يا رسل ربي قفوا حتى أسأل هٰذا العبد الكريم على ربه، فيقول: بأبي وأمي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك من أنت فقد أقلتني ورحمت عزتي. فأقول: أنا نبيك محمد وهذه صلواتك التي كنت تصليها عَلَيَّ وأفتك أحوج ما تكون إليها. وقال بعضهم: يوزن الأشخاص لما روىٰ الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ثم قرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾(١)» [الكهف: ١٠٥] وأخرج أبو نعيم والآجري في قوله تعالىٰ قال: القوي الشديد الأكول الشروب يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة يدفع الملك عن أولئك سبعين ألفًا دفعة واحدة في النار، وقال بعضهم: توزن الأعمال أنفسها يعني تُجسَّدُ الأعمال وتوزن لما روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان عند الرحمٰن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده»(٢) وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان»(٣) وروى الأصبهاني في الترغيب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «سبحان الله نصف الميزان والحمد لله تملأ الميزان»(٤) وروىٰ ابن عساكر من حديث أبي هريرة مثله وروىٰ البزار والحاكم عن ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن نوحًا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه، فقال: آمركما بلا إله إلّا الله فإن السماوات والأرض وما فيها لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إلٰه إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منها»(٥) وروىٰ أبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قال الله تعالىٰ: «يا موسى لو أن السماوات وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إلٰه لا الله في كفة لمالت بهن لا إلٰه إلا الله»(٦) وروى الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسمٰوات والأرض

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٨، باب ٦، ومسلم في المنافقين حديث ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان باب ١٩، والتوحيد باب ٥٨، والدعوات باب ٦٦، ومسلم في الذكر حديث ٣٠.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ١، وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٦٠، ٥/ ٣٦٥، ٣٧٠، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٢.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢١٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٤٢.

(٦) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعت في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إلٰه إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن»[١] وروى أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»[٢] وروى البزار والطبراني وأبو يعلى وابن أبي الدنيا والبيهقي بسند حسن أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟» قال: بلىٰ يا رسول الله، قال: «عليك بحسن الخلق وطول الصمت فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما»[٣] وأخرج أحمد في الزهد عن رجل يقال له حازم أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نزل عليه جبرئيل وعنده رجل يبكي، فقال: من هذا؟ قال: «فلان» قال جبرائيل: إنما توزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء، فإن الله يطفىء بالدمعة بحورًا من نار» وأخرج البيهقي عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أذرفت[٤] عين إلا حرم الله سائر الجسد على النار ولا سالت قطرة على خدّها فترهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة ولو أن باكيًا بكى من أمة من الأمم وما من شيء إلا وله مقدار وميزان إلا الدمعة فإنها تطفيء بها بحار من نار»[٥].

قلت: هذه الأحاديث وإن كانت ظاهرة في أنه توزن الأعمال أنفسها لكنها يحتمل فيها وزن سجلات كتبت فيها الأعمال أو أشخاص صدرت منهم، وأخرج في أنها تُجَسَّدُ وتوزن ما رواه البيهقي في شعب الإيمان من طريق السدي الصغير عن الكلبي: عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات والسيئات فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان فيثقل على السيئات[٦] فيؤخذ فيوضع في الجنة عند منازله، ثم يقال للمؤمن الحق بعملك فينطلق إلى الجنة فيعرف منازله بعمله ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان فتخفف والباطل خفيف فتطرح في جهنم إلى منازله منها ويقال له الحق بعملك النار فيأتي النار فيعرف منازله بعمله وما أعد الله فيها من ألوان العذاب» قال ابن عباس: فلهم أعرف بمنازلهم في الجنة والنار بعملهم من القوم ينصرفون يوم الجمعة راجعين إلى منازلهم لكن الحديث ضعيف لأجل السدي الصغير وما رواه ابن المبارك عن حماد بن أبي سليمان قال: جاء رجل يوم القيامة

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢٥٤.
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٧، والترمذي في البر باب ٦١.
(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٨٤٠٥.
(٤) أذرفت العين يعني أجري دمعها.
(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٦) لعل المراد بالسيئات العقائد الفاسدة التي يزعمها صاحبها حقة ومن الأعمال ما يزعمها صاحبها عبادة وهي عند الله باطلة غير معتد بها ـ ١٢ نهاية ـ.

فيرى عمله مختصرًا فبينما هو كذٰلك إذ جاءه مثل السحاب حتى يقع في ميزانه فقال: هٰذا ما كنت تُعَلِّم الناس من الخير فورثت بعدك فأجِرْتَ فيه» وأخرج ابن عبد الرزاق عن إبراهيم النخعي نحوه، وما روى الطبراني عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من تبع جنازة يوضع في ميزانه قيراطان مثل أحدٍ»(١) وما روى الأصبهاني عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن للصلاة المكتوبة عند الله وزنًا من انتقص منها شيئاً حوسب فيها علىٰ ما ينقص»(٢) وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا عند أبي داود قال: «إن انتقص من فريضته شيء قال الرب تبارك وتعالىٰ: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها من انتقص من الفريضة»(٣) ومن الأحاديث ما يدل على أن الأجسام التي لها تعلق بالأعمال توضع في الميزان منها ما روى الطبراني في الأوسط عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أول ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة النفقة علىٰ أهله»(٤) وما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا وتصديقًا بوعده كان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»(٥) وما روى الطبراني عن علي رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «من ارتبط فرسًا في سبيل الله فعلفه وأثره في ميزانه يوم القيامة»(٦) وما في حديث عليّ عند الأصفهاني بسند حسن أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة: «قومي فاشهدي أضحيتك فإن لك بأول قطرة تقطر من دمها مغفرة لكل ذنب أما إنه يجاء بدمها ولحمها فيوضع في ميزانك سبعين ضعفًا»(٧) قال أبو سعيد: يا رسول الله هذا لآل محمد خاصة؟ فقال «لآل محمد وللمسلمين عامة» وما أخرج البيهقي عن ابن مسعود موفوفاً وابن حبان في صحيحه عن أبي ذر موفوعاً وابن عساكر بسند ضعيف عن أبي هريرة أنه قال عليه الصلاة والسلام: «من توضأ فمسح بثوب نظيف فلا بأس به ومن لم يفعل فهو أفضل لأن الوضوء يوزن يوم القيامة مع سائر الأعمال»(٨) . . . .

---

(١) أخرجه بنحوه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٢٣٢٠.

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٣٨.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٤٥، والترمذي في الصلاة باب ١٨٨.

(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٦٤، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧١.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٥، والنسائي في الخيل باب ١١، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٤.

(٦) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٦٠.

(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢٣٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٣٩٢، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٦٦، والقرطبي في تفسيره ٧/ ١٥٥.

(٨) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٧١.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن سعيد بن المسيب أنه كره المنديل بعد الوضوء وقال: هو يوزن، وأخرج الطبراني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أعطيت ناقة في سبيل الله فأردت أن أشتري من نسبها فسألت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «دعها لتأتي يوم القيامة هي وأولادها جميعًا في ميزانك»(١) وأخرج الذهبي عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»(٢).

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون يعني أعماله التي توزن والمراد بها حسناته كذا قال مجاهد: فإنها هي المقصود بوجودها أو هو جمع ميزان، وعلىٰ هذا أيضًا المراد كفة الحسنات من ميزانه، وعلى هذا التأويل تدل الآية علىٰ أن لكل أحد ميزان على حدة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزن بالنجاة والثواب ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي أعماله الحسنة أو كفة حسناته، وهذا وإن كان يعم الكافر الذي لا حسنة له أصلًا والمؤمن الذي ترجحت سيئاته على حسناته لكن المراد به هٰهنا هم الكفار جرياً على عادة القرآن غالباً حيث يذكر الكفار في مقابلة الأبرار، وقيل: ذكر الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا من المؤمنين فالكفار هم المحكوم عليهم بقوله تعالىٰ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها وارتكاب موجبات العذاب ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فيكذبون بالآيات بدل التصديق وقد ذكرنا تفسير الآية وما يتعلق به في سورة القارعة في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩] فليرجع إليه، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: حين حضره الموت في وصيته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلًا وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان أن يوضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا. قلت: لعل المعنى وحق لميزان أي كفة الحسنات أن يوضع فيه الباطل يعني العقائد والأعمال التي يراها العامل حسنات وهي عند الله كفريات وبدعات وقبائح أن يكون خفيفًا فإنها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله أعلم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أقدرناكم على سكناها وزرعها والتصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة أي أسبابًا تعيشون بها أيام حياتكم من الزرع والضرع والمأكل والمشارب والتجارات والمكاسب ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ أي شكراً قليلًا أو في زمان قليل ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعت لكم.

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠٩، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧١.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٤١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٩٠١، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧٢.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ يعني قدرناكم في العلم في المرتبة الأعيان الثابتة ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ يعني أباكم آدم نزل تصويره منزلة تصوير الكل وابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن قدرنا آدم وصورناه وذٰلك ابتداء تقديركم وتصويركم، وقال ابن عباس: خلقناكم أي أصولكم وآباءكم ثم صورناكم في أرحام أمهاتكم كذا قال قتادة والضحاك والسدي، وقال مجاهد: خلقناكم يعني آدم ذكره بلفظ الجمع لأنه أبو البشر فخلقه خلق من يخرج من صلبه ثم صورناكم في ظهر آدم، وقيل: صورناكم يوم الميثاق حين أخرجكم كالذر، وقال عكرمة: خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء، وقال يمان: خلق الإنسان في الرحم ثم صوره فشق سمعه وبصره وأصابعه وقيل: كلمة ثم بمعنى الواو والمعنٰى خلقكم وصوركم فإن بعض المخلوقات كالأرواح لا صورة لها ﴿ثُمَّ قُلْنَا﴾ إن كان المراد بضمير الخطاب آدم وحده فلا كلام فيه وإن كان المراد الذرية فقيل كلمة ثم بمعنى الواو وقيل: معناه ثم أخبرناكم أنا قلنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد ذكرنا شرح الآية في سورة البقرة ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال الله تعالىٰ: يا إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يعني أي شيء منعك ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي من أن تسجد ولا زائدة كما في ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] مؤكدة لمعنى الفعل الذي دخلت عليه ومنبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود، وقيل: الممنوع من الشيء مضطر إلى خلافه فكأنه قيل: ما اضطرك إلى أن لا تسجد، وجاز أن يكون تقدير الكلام ما منعك من الامتثال وبعثك علىٰ أن لا تسجد ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ بالسجدة فيه دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والسؤال عن المانع من السجود مع العلم به للتوبيخ وإظهار معاندته وكفره واستكباره، ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواب من حيث المعنى، استأنف به استبعادًا لأن يكون مثله مأمورًا بالسجود لمثله كأنه قال: المانع منه كوني خيرًا منه ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فلا يحسن أن يؤمر به، ففي الكلام اعتراض على الله سبحانه في الأمر بالسجود ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ جوهر نوراني مستعلٍ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ جوهر ظلماني مستسفل، قال ابن عباس: أول من قاس إبليس فأخطأ في القياس فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس، وقال ابن سيرين: ما عبدت الشمس إلا بالمقايس، قلت: وليس في هٰذين القولين إبطال القياس بل تخطئته لقياسه فإنه قياس في مورد النص ولذٰلك قال: من قاس الدين بشيء من رأيه يعني علىٰ خلاف النصوص الواردة وأيضاً تعليل الفضل والخيرية بالإضاءة والاستعلاء باطل إنما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وقد فضل الله تعالىٰ آدم على جميع خلقه حيث خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وجعله مستعدًا لتعلم أسمائه كلها ومهبطًا لتجلياته ومتقربًا من الله تعالىٰ بالفرائض والنوافل بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه ومتحملًا لأمانته التي أشفقت عنها السمٰوات والأرض والجبال. فإن قيل: الخطأ في الاجتهاد معفو؟ قلنا: إنما ذٰلك إذا كان القائس طالبًا للحق باذلًا جهده في طلبه لا إذا كان متعنتًا باغيًا استعلاء نفسه وإلزام الخصم ألا ترى أن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] أيضًا قياس فيه خطأ، ولذا رد

الله تعالىٰ قولهم بقوله ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] ولم يردهم أنفسهم حيث لم يصدر ذلك القول منهم استكبارًا وتعنتًا بل لطلب الحق واستعلام الحكمة، ولذلك قالوا عند ظهور الحكمة ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] قالت الحكماء للطين فضل على النار من وجوه فإن من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع فأورثه الاحتباء والتوبة والهداية، ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع وهو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار فأورثه اللعنة والشقاوة، ولأن الطين سبب لجمع الأشياء والنار سبب لتفرقها ولأن الطين سبب لحياة النبات والنار سبب لهلاكها وإضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب وتلك الإضافة تدل على أن العمدة في أجزاء الإنسان إنما هو عالم الخلق دون عالم الأمر وعالم الأمر تابع له ويتصف بالخيرية والشرية بتبعيته ويتلون بلونه، ألا ترى أن الروح تعلق بجسد الإنسان كما تعلق بجسد الشيطان فتلون في كل على هيئة ومثله كمثل الشمس تجلت في المرأة فتصورت بصورتها وتلونت بلونها قال المجدد رضي الله عنه: كمال الترقي بعالم الأمر إلى ظلال الصفات إلا الأخفى منها فإنها ترتقي إلىٰ بعض الصفات وكمال الترقي للنفس المنبعث من لطائف عالم الخلق إلى ظاهر الصفات وكمال الترقي للعناصر الثلاثة إلىٰ باطن الصفات أي من حيث قيامها بالذات والترقي إلىٰ مرتبة الذات مختصة بعنصر الطين كما أن نور الشمس لا يظهر إلا على أكثف الأشياء دون ألطفها والله أعلم.

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ لإبليس لما استكبر ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ أي من الجنة وقيل: من السماء والفاء جواب لقوله أنا خير منه يعني إن كنت متكبراً فاهبط منها فإنه كان للمتواضعين المطيعين ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي لا يصح لك التكبر فيها ففيه تنبيه علىٰ أن التكبر لا يليق بأهل الجنة فإنه من خصائص الكبير المتعال، وإنه تعالىٰ إنما طرده وأهبط لتكبره عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر»(١) رواه مسلم، وفي رواية لمسلم فقال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا قال عليه السلام: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر(٢) الحق وغمط(٣) الناس»(٤) وعن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار؟ كل

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٤٨، ١٤٩.

(٢) بطر الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقًا من توحيده وعبادته باطلًا.

(٣) الغمط: الاستهانة والاستحقار.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧.

عتل[١] جواظ[٢] مستكبر»[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما أدخلته في النار»[٤] رواه مسلم وفي رواية له «قذفته في النار» ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي أهل الصغار والذل والهوان على الله وعلىٰ أوليائه يذمك كل إنسان ويلعنك كل لسان، وفي القاموس الصاغر الراضي بالمنزلة الدنية وكذا في غيره من كتب اللغة، ومن ههنا يعلم أن الصغار والذل لازم للاستكبار، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر وضعه الله لهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير حتى لهو أهون عليهم من كلب وخنزير»[٥] رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عمرو، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بئس العبد تخيل واختال[٦] ونسي الكبير المتعال»[٧] رواه الترمذي من حديث أسماء وقال: حديث غريب وليس إسناده بالقوي.

﴿قَالَ﴾ إبليس عند ذلك ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾ أي أمهلني ولا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي الناس من قبورهم يعني إلى النفخة الأخيرة، أراد أن لا يذوق الموت ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ وبين الله سبحانه مدة هٰذه النظرة والمهلة في موضع آخر فقال ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ إلىٰ يوم الوقت المعلوم وهو النفخة الأولىٰ حين يموت الخلق كلهم أو وقت يعلمه الله انتهاء أجله فيه، وفيه دليل على أن إجابة الدعاء غير مختص بأهل الإسلام والطاعة وأنه لا يدل مطلقًا على كون الداعي من المقبولين بل قد يكون استدراجًا وفي إجابة دعائه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ الفاء للتعقيب والباء للسببية متعلق بفعل قسم مقدر وما مصدرية يعني بعدما أمهلتني فبسبب إغوائك إياي بواسطتهم تسمية أو حملًا على الغنى أو تكليفًا بما غويت لأجله أقسم بك لأجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني، وليست الباء متعلقة بأقعدن فإن اللام تصد عنه، وقيل: الباء للقسم أي أقسم بإغوائك إياي يعني بقدرتك على نفاذ سلطانك في ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾ جواب للقسم أي اجلس مترصدًا بهم كما يقعد القطاع للسابلة ﴿صِرَٰطَكَ﴾ أي طريق الإسلام ونصبه على الظرف كقوله كما عسل[٨] الطريق الثعلب، وقيل: بنزع الخافض تقديره على صراطك كقولهم ضرب زيدٌ

---

(١) العتل: الشديد الجافي. (٢) الجواظ: الجموح المنوع.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٦، ومسلم في الجنة حديث ٤٦، ٤٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر حديث ١٣٦، وأبو داود في اللباس باب ٢٥، وابن ماجه في الزهد باب ١٦.

(٥) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٥٦٠، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٨٢.

(٦) تخيل واختال أي تكبر، والخيلاء الكبر والعجب.

(٧) أخرجه الترمذي في القيامة باب ١٧، وأحمد في المسند ٥/ ٤٤٥.

(٨) عسل: أي مشى سريعًا.

الظهر والبطن والقعود على الطريق كناية عن كمال اجتهاده في صدهم عن السلوك عليه ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ من جميع الجهات مَثَّلَ قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أي جهة يمكن بإتيان العدو من الجهات الأربع ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم قال الله تعالىٰ: ﴿فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] من لابتداء الغاية وفي الأخريين عن لأن عن تدل على الانحراف، وقيل: لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه توحش، قال البغوي: قال علي بن طلحة عن ابن عباس: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي من قبل الآخرة فأشككهم فيها ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من قبل دنياهم فأرغبهم فيها ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي أشهى لهم المعاصي، وروى عطية عنه من بين أيديهم أي من قبل دنياهم أي أزينها في قلوبهم ومن خلفهم أي من قبل الآخرة فأقول لا بعث ولا جنة ولا نار وعن أيمانهم من حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم، وقال قتادة نحوه ثم قال: أتاك يا ابن آدم من كل جهة غير أنه لم يأتك من فوقك ولم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله كذا ذكر السيوطي قول ابن عباس، وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم أي من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم أي من حيث لا يبصرون قال ابن جريج: معنى قوله حيث يبصرون حيث يعلمون أنهم يخطئون وحيث لا يبصرون أي لا يعلمون أنهم يخطئون ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي مؤمنين قاله ظنًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿مَذْءُومًا﴾ محقرًا في القاموس ذأمه كمنعه حقره وذمه وطرده وخزاه، وقال الجوهري: ذأمه ذأمًا يعني مهموز العين وذمته أذيمه يعني الأجوف اليائي وذممته أذمه يعني المضاعف معنى كل واحد قال البغوي: الذيم والذام يعني المهموز والأجوف أشد العيب ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي مبعدًا مطرودًا ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من بني آدم اللام توطئة للقسم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ أي منك وممن تبعك فغلب المخاطب والجملة جواب للقسم وساد مسد جواب الشرط ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ تقديره وقلنا يا آدم ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ حواء ﴿ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب أي فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مر شرح الآية في سورة البقرة ﴿فَوَسْوَسَ﴾ الوسوسة حديث النفس والشيطان بما لا نفع فيه كذا في القاموس، وقال البغوي: الوسوسة حديث يلقيه الشيطان في قلبه وأصله صوت الحلي والهمس الخفي يعني فعل الوسوسة ﴿لَهُمَا﴾ أي لأجلهما ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾ أي ليظهر لهما واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضًا بوسوسة أن يسوءهما بكشف ﴿مَا وُۥرِىَ﴾ ما غطي ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ من عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع لم يزل مستقبحًا شرعًا وعقلًا ثم بين الوسوسة فقال ﴿وَقَالَ﴾ إبليس لآدم وحواء ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾ أي إلا لئلا تكونا أو كراهة أن تكونا ﴿مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الباقين الذين لا

يموتون كما قال في موضع آخر: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [طه: ١٢٠] واستدل به علىٰ فضل الملائكة على الأنبياء، والجواب أنه إنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما ما للملائكة من الكمالات والاستغناء عن الأطعمة والأشربة وذٰلك لا يدل على الفضل الكلي فإن الفضل الكلي عبارة عن كثرة الثواب والأقربية إلى الله سبحانه لا غير.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي فأقسم لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ جواب للقسم ذكر القسم على زنة المفاعلة للمبالغة وقد ذكرنا القصة في سورة البقرة، قال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله، وقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فأتبعاني أرشدكما وإبليس أول من حلف بالله كاذبًا فلما حلف ظن آدم أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا فاغتر به ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ الشيطان، قال البغوي: يعني خدعهما يقال ما زال فلان يدلي لفلان بغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف القول ﴿بِغُرُورٍۚ﴾ أي باطل، وقيل: معنىٰ دلّاهما أنزلهما من درجة عالية إلى منزلة سافلة أي من مقام الطاعة إلىٰ مقام المعصية ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها يعني لم يستوفا الأكل حتى أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية وتهافت عنهما لباسهما أخرج عبد بن حميد عن وهب بن منبه أنه كان لباسهما من النور، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس قال: كان لباس آدم وحواء كالظفر فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر فلما وقع منهما الذنب ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ فاستحيا ﴿وَطَفِقَا﴾ أي أخذا ﴿يَخۡصِفَانِ﴾ يلزقان ﴿عَلَيۡهِمَا﴾ أي على عوراتهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ وهو ورق التين حتَّى صار شبيه الثوب، كذا أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس، قال الزجاج: يجعلان على ورقة ليسترا سوآتهما روى أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كان آدم رجلًا طوالًا كأنه نخلة سحوق شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها أحد فانطلق هاربًا في الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته لشعره فقال: أرسليني فقالت: لست بمرسلك فناداه به ربه تبارك وتعالىٰ يا آدم أتفرّ منّي قال: لا يا رب ولكني استحييتك»(١).

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني عن الأكل منها ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي بيّن العداوة حيث أقر علىٰ نفسه، وقال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ عتاب على مخالفة النهي وتوبيخ على الاغترار بقول العدو، وفيه دليل علىٰ أن مطلق النهي للتحريم. قال محمد بن قيس: ناداه ربه يا آدم لِمَ أكلت منها وقد نهيتك؟ قال: يا رب أطعمتني حواء قال لحواء: لم أطعمته؟ قالت: أمرتني الحية قال للحية: لم أمرتها قالت:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٤٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٥١٤٠.

أمرني إبليس، فقال الله تعالىٰ أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين علىٰ وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا إبليس فملعون مدحور.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ
﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى
ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ
هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ
رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن
تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ
قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج عن الجنة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي الهالكين، فيه دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر، وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ قيل: الخطاب لآدم وحواء لأن إبليس هبط قبلهما ولعل إيراد صيغة الجمع لأن هبوطهما سبب لهبوط ذريتهما، وقيل: الخطاب لهما ولإبليس كرر له الأمر تبعًا ليعلم أنهم قرنًا أبدًا أو خبر عما قال لهم متفرقًا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي استقرار أو موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي تمتع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء قرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان منها تخرجون وفي الزخرف كذلك تخرجون بفتح التاء وضم الراء فيهما على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول، قال البغوي: كانت العرب في الجاهلية تطوف بالبيت عراة يقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها

فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة فنزلت ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ وقال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه لا أحله فأمر الله تعالىٰ بالستر فقال: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ يعني عوراتكم واحدتها سوءة سميت بها لأنها يسوء صاحبه انكشافها، ومعنى أنزلنا خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الرمز: ٦] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] قلت: ويمكن أن يقال معناه أنزل عليكم أن تلبسوا لباسًا يواري سوءاتكم ولعله ذكر قصة آدم تمهيدًا للنهي عن كشف العورة حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أي لباسًا فاخرًا كذا في القاموس، يعني أنزلنا لباسًا يواري سوءاتكم وأنزلنا لباسًا فاخرًا تتجملون فيها، قال البيضاوي: الريش الجمال وقيل: مالًا ومنه تَرَيَّشَ الرجل إذا تمول كذا قال ابن عباس: ومجاهد والضحاك والسدي ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب عطفًا على ريشًا يعني وأنزلنا لباس التقوى والباقون بالرفع على الابتداء وخبره ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أو ذلك صفة للمبتدأ وخير خبره. واختلفوا في لباس التقوى؟ قال قتادة والسدي: لباس التقوىٰ هو الإيمان، وقال الحسن: هو الحياء لأنه يبعث على التقوى، وقال عطية عن ابن عباس: وهو العمل الصالح وعن عثمان بن عفان هو السمت الحسن، وقال عروة بن الزبير: لباس التقوى خشية الله، وقال الكلبي: هو العفاف والمعنى لباس التقوىٰ خير لصاحبه إذا أخذ به مما خلق له من اللباس والتجمل، وقال ابن الأنباري: لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخباراً أن ستر العورة خير من التعري في الطواف وأن اللباس سبب للتقوى عن معصية التعري، وقال زيد بن علي: لباس التقوى اللباس التي يتقي بها في الحرب من الدرع والمغفر والساعدين والساقين، وقيل: لباس التقوى هو الصوف والثياب الخشنة التي يلبسها الزهاد ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إنزال اللباس ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون نعمته ويتورعون عن القبائح.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ أي لا يخدعنكم ولا يضلنكم ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بأن لا تدخلوا الجنة ﴿كَمَآ﴾ فتن و﴿أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم﴾ آدم وحواء ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ والنهي في الظاهر للشيطان وفي المعنىٰ لبني آدم لا تفتتنوا ولا تختدعوا ولا تضلوا باتباع الشيطان ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ أي ليرى كل واحد منهما سوءة الآخر والجملة حال من فاعل أخرج أو من مفعوله إسناد نزع إلى الشيطان للتسبب ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني الشيطان ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾ يا بني آدم ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده قال ابن عباس: ولده وقال قتادة: قبيلة الجن ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ والجملة فقيل للنهي وتأكيد للتحذير من فتنة وقبيله فإن عدوًا يرانا ولا نراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله فحينئذ كيده ضعيف، قال ذو النون: إن كان هو يراك من حيث لا تراه فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه وهو الله القهار الستار ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب في اتباع الباطل والتنافر من الحق أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما

سولوا لهم ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً﴾ أي أمرًا بالغًا إلى النهاية في القبح وذٰلك هو الشرك، وقال ابن عباس ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عريانًا والظاهر أنه يعم كل كبيرة ﴿قَالُوا﴾ إذا نهوا عن فعل الفاحشة ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعني احتجوا بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله فأعرض عن الأول لظهور فساده وقد ردَّه في موضع آخر ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] ورد الثاني فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فإن الأمر بالقبيح قبيح والله تعالىٰ منزه عن القبائح، وفيه دليل على أن الحسن والقبح وإن كانا بخلق الله تعالىٰ لكنه يدرك بالعقل أيضًا والمراد بالقبيح هٰهنا ما يتنفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم، وقيل: هما جواباً سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم لم فعلتم فقالوا وجدنا عليه آباءنا فقيل: ومن أين أخذ آباؤكم، فقالوا: الله أمرنا بها، وعلى الوجهين يمنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقًا ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من غير دليل يوجب العلم اليقيني فيه إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالىٰ.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ قال ابن عباس بلا إلٰه إلا الله، وقال الضحاك: بالتوحيد، وقال مجاهد: والسدي بالعدل وهو الوسط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَأَقِيمُوا﴾ تقديره وقال: أقيموا وهو مقولة للقول المذكور يعني وقل أقيموا أو معطوف علىٰ معنى بالقسط يعني أقسطوا وأقيموا أو معطوف على مقدر تقديره فاقبلوا وأقيموا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أي أخلصوا له تعالىٰ سجودكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي عند كل وقت صلاة وسجود أو كل مكان سجود، وقال مجاهد والسدي: وجّهوا وجوهكم حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال الضحاك: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي وبه قال أبو حنيفة رحمه الله غير أنه قال من كان إمامًا لمسجد آخر أو رجل يختل بفقده جماعة مسجد آخر جاز له الخروج من المسجد بعد الأذان، وقيل: معناه توجهوا إلىٰ عبادة الله مستقيمين غير عادلين إلى غيره ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه تعالىٰ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعة والعبادة من الشرك براء من الرياء والسمعة فإنه خلقكم وإليه المصير ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أي خلقكم أول مرة من تراب ثم من نطفة ﴿تَعُودُونَ﴾ إحياء بإعادته بعد الموت فيجازيكم على أعمالكم، شبه الإعادة بالإبداء تقريرًا لإمكانها والقدرة عليها وقيل: كما بدأكم حفاة عراة غرلاً تعودون لحديث عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تحشرون يوم القيامة حفاة عراة»، فقلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة الأمر يومئذ أشد من ذلك»(١) متفق عليه، وفي الصحيحين وسنن الترمذي عن ابن عباس قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «يا أيها الناس تحشرون إلى الله حفاة مشاة عراة غرلاً ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [المائدة: ١٠٤]

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٥٦، وابن ماجه في الزهد باب ٣٣.

الآية، وأول من يكسى من الخلائق إبراهيم عليه السلام»[١] وفي الباب أحاديث كثيرة صحيحة وما رواه أبو داود والحاكم وصححه وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أنه لما احتضر دعا بثياب جدد فلبسها ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها»[٢] وأخرج ابن أبي الدنيا بسند حسن عن معاذ بن جبل أنه دفن أمه فأمر بها فكفنت في ثياب جدد وقال: أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها، وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن عمر بن الخطاب قال: أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يبعثون فيها يوم القيامة فليس في القوة مثل ما ورد في الحشر عراة، قال أكثر العلماء: هذه الأحاديث محمولة على الشهيد وأن أبا سعيد سمع الحديث في الشهيد فحمله على العموم، وقال البيهقي: تجمع الأحاديث بأن بعضهم: يبعث عاريًا وبعضهم بثيابه، وقال بعضهم: يخرجون من قبورهم بثيابه ثم تتناثر عنهم عند ابتداء المحشر فيحشرون عراة وقال بعضهم حديث أن الميت يبعث في ثيابه محمول على العمل الصالح كقوله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] وقال جابر: معنى الآية «يبعثون على ما ماتوا عليه»[٣] رواه مسلم في صحيحه وابن ماجه والبغوي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يبعث كل عبد على ما مات عليه المؤمن على إيمانه والكافر على كفره»[٤] وقال ابن عباس: في تفسير الآية: إن الله تعالىٰ بدأ خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرًا، وقال أبو العالية: عادوا إلى علمه فيهم، وقال سعيد بن جبير: معناه كما كتب عليكم تكونون، قال محمد بن كعب: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل بعمل أهل السعادة كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بعمل أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا يعملون بعمل أهل الشقاوة فصاروا إلى السعادة. عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم»[٥] متفق عليه، ويناسب هذا التأويل آخر الآية حيث قال: ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ﴾ أي أراد بعلمه القديم هدايتهم فوفقهم الإيمان والأعمال

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨، و٤٨، وتفسير سورة ٥، باب ١٤، ومسلم في الجنة حديث ٥٨، والترمذي في القيامة باب ٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز باب ١٤.

(٣) انظر الحاشية التالية.

(٤) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٨٣.

(٥) أخرجه البخاري في القدر باب ٥، والرقاق باب ٣٣، والترمذي في القدر باب ٤، وأحمد في المسند ٥/ ٣٣٥.

الصالحة ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾بمقتضى القضاء السابق وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي أضل فريقًا حق عليهم الضلالة ﴿إِنَّهُمُ﴾ أي الفريق الثاني ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ أي الكفار من الجن والإنس ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أنصارًا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه دليل على أن الجهل ليس بعذر وأن الكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذم والله أعلم.

روى مسلم عن ابن عباس قال: كانت امرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة وعلى فرجها خرقة وهي تقول:

اليوم يبدوا بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فنزلت ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ونزلت ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ الآيتين[1]، والمراد بالزينة ما يواري العورة من الثياب بإجماع أهل التفسير، قال مجاهد: ما يواري عورتك ولو عباءة وكذا قال الكلبي: وروى البيهقي في هذه الآية عن ابن عباس أن المراد بها الثياب والمراد بالمسجد قيل: موضع السجود ولذا قيل: معناه خذوا ثوبكم عند كل مسجد لطواف أو صلاة، وعلىٰ هذا قال ابن الهمام: الآية نزلت في الطواف تحريمًا لطواف العريان والعبرة وإن كان لعموم اللفظ لا لخصوص السبب لكن لا بد أن يثبت الحكم في السبب أولًا وبالذات لأنه المقصود به قطعًا ثم غيره على ذلك الوجه، والثابت عندنا في الستر في الطواف الوجوب يعني لا علىٰ سبيل الاشتراط لصحة الطواف حتى لو طاف عرياناً أثم وحكم بسقوطه وفي الصلاة الافتراض يعني الاشتراط حتى لا تصح بدونه، فالأوجه الاستدلال بالإجماع على الافتراض في الصلاة كما نقله غير واحد من أئمة النقل إلى أن حدث بعض المالكية فخالف كالقاضي إسماعيل وهو لا يجوز بعد تقرر الإجماع، والحديث عن عائشة يرفعه: «لا يَقبل الله صلاة حائض إلا بخمار»[2] رواه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن خزيمة في صحيحه والظاهر عندي أن المسجد مصدر ميمي بمعنى السجدة أطلق على الصلاة تسمية الجزء على الكل كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّـٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] يعني صلوا مع المصلين وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠] يعني صلوا ما تيسر من الصلاة فهذه الآية بعبارتها توجب ستر العورة عند كل صلاة خاصةً، والبحث في سبب النزول أن قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الاعراف: ٢٦] إلى قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الاعراف: ٣٣] الآيات كلها نزلت حين كانت العرب في الجاهلية تطوف بالبيت عراة يقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها وطافت المرأة عريانة واضعة يدها علىٰ فرجها بل ذكر قصة آدم أيضًا توطئة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان.

---

(١) أخرجه مسلم في التفسير حديث ٢٥، والنسائي في الحج باب ١٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة باب ١٦٠، وابن ماجه في الطهارة باب ١٣٢، وأحمد في المسند ٦/ ١٥٠، ٢١٨، ٢٥٩.

والآيات كلها ناطقة أن خلق اللباس للإنسان لأجل ستر عورته نعمة من الله تعالىٰ وذٰلك هو التقوٰى، وكشف العورة وترك الستر فتنة وإضلال من الشيطان قد عمل أولًا بأبيكم آدم وثانيًا بكم وأنه فاحشة تفعله العرب تقليدًا بآبائهم وافتراء على الله تعالىٰ والله تعالىٰ لا يأمر بالفحشاء لكن فريقًا من الناس هداهم الله وفريقًا حق عليهم الضلالة، فهٰذه الآيات تدل على أن كشف العورة فاحشة حرام مطلقًا قبيح مستهجن طبعًا وعقلًا وشرعًا فارتكابها في الطواف وغير ذٰلك من العبادات أقبح وأفحش وأشد حرمة بالطريق الأولىٰ موجب للإثم، وما كانت العرب يدعون أن لبس الثياب في الطواف حرام وأكل اللحم والدسم في الحج حرام فهو باطل أنكر عليه سبحانه بقوله ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ﴾ الآية، وقوله ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ومنها كشف العورة لكن شيء من هذه الآيات لا تدل على اشتراط ستر العورة في الطواف ومن ثم قال أبو حنيفة رحمه الله لو طاف عريانًا ثم ويحكم بسقوطه، وقال أكثر الأئمة: لا يحكم بسقوطه لحديث أبي هريرة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنهما بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل حجة الوداع بعام يوم النحر في رهط يؤذن في الناس أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[١] متفق عليه، قالوا الطواف عريانًا منهي عنه فلا يتأدى به الواجب كما لا يجوز قضاء الصوم في يوم النحر وقضاء الصلاة في وقت الطلوع والاستواء والغروب، وأما هذه الآية خذوا زينتكم عند كل مسجد يقتضي اشتراط ستر العورة في الصلاة وعدم جواز الصلاة بدونها لما ذكرنا أن كونه فرضًا واجبًا مطلقًا وكون كشف العورة فاحشة حرامًا مطلقًا ثبت قبل ذلك من الآيات، ولا مساس لهذه الآية بالطواف إلا إذا ضم معها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام»[٢] رواه الترمذي والحاكم والدارقطني من حديث ابن عباس وصححه ابن خزيمة وابن حبان، ونزول هذه الآية في ضمن آيات نزلت في استقباح كشف العورة مطلقًا وكون سبب نزولها طواف العرب عريانًا لا تقتضي كون هذه الآية أيضًا في الطواف فإن ما ورد في حادثة أو بعد سؤال يجب أن يفيد حكم تلك الحادثة وجواب ذلك السؤال ولا يجب أن لا يذكر حكمًا زائدًا على ما ورد فيه ولا شك أن حكم الطواف عريانًا ظهر بغير تلك الآية من الآيات فما أورده ابن الهمام من الإشكال غير وارد.

مسألة: ذكر في رحمة الأمة أن ستر العورة شرط الصلاة عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد، واختلف أصحاب مالك، فمنهم من قال: كما قال الجمهور إنه من الشرائط مع القدرة على الستر فمن صلّى مكشوف العورة مع القدرة على الستر فصلاته باطلة، ومنهم من قال: إنه واجب في نفسه ليس شرطًا للصلاة فمن صلى مكشوف العورة مع القدرة على الستر

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٦٧، والمغازي باب ٦٦، ومسلم في الحج حديث ٤٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الحج باب ١١٢، والنسائي في المناسك باب ١٣٦، والدارمي في المناسك باب ٣٢.

عامدًا كان عاصيًا لكن يسقط عنه الفرض، والمختار عند متأخري أصحابه أنه لا تصح الصلاة مع كشف العورة بحال وقد ذكر ابن الهمام إجماع الأمة على ذلك والخلاف المتأخر لا يرفع الإجماع المقدم.

فصل: أفادت الآية على وجوب ستر العورة في الصلاة لكنه مجمل في مقدار العورة التي وجب سترها وجاء بيان ذلك من الأحاديث فنقول.

مسألة: عورة الرجل بين السرة والركبة عند أبي حنيفة والشافعي، وعن مالك وأحمد روايتان، إحداهما ما قال أبو حنيفة والثانية أنها القبل والدبر. احتجوا بحديث أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غزا خيبر» وذكر الحديث بطوله وفيه «ثم حَسَر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإزار عن فخذه حتى لأني أنظر إلى بياض فخذ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم»[١] رواه البخاري، وروى مسلم «بلفظ انحسر الإزار»[٢] على البناء للمفعول وكذا عند أحمد، وحديث عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مضطجعًا في بيته كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو علىٰ تلك الحال فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذٰلك فتحدث ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسوى ثيابه»[٣] الحديث رواه مسلم، وهذا الحديث ليس بحجة لمكان الترديد بقوله فخذيه أو ساقيه، لكنه عند أحمد بلفظ كاشفًا عن فخذيه من غير ترديد، وكذا عند أحمد من حديثاً حفصة وأخرج الطحاوي والبيهقي عن حفصة بنت عمر قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندي يومًا وقد وضع ثوبه عن فخذيه فدخل أبو بكر فذكر الحديث نحوه، وحديث أبي موسى «أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان قاعدًا في مكان فيه ماء قد انكشف عن ركبته أو ركبتيه فلما دخل عثمان غطاها»[٤] رواه البخاري. واحتج الجمهور بحديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تبرز فخذك ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت»[٥] رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والبزار، وصحح بعض العلماء هٰذا الحديث وهو من حديث ابن جريج عن حبيب بن ثابت عن عاصم بن ضمرة عنه، قال الحافظ: فيه انقطاع بين ابن جريج وحبيب، وقال أبو حاتم: في العلل أن الواسطة بينهما الحسن بن ذكوان وهو ضعيف وقال: لا يثبت لحبيب رواية عن عاصم فهٰذه علة أخرىٰ، وقال ابن معين: إن حبيبًا لم يسمع من عاصم وأن بينهما رجلًا ليس بثقة وبَيَّن البزار

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح حديث ٨٤.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٦.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٧، وأحمد في المسند ٦/ ٤٠٥.

(٥) أخرجه أبو داود في الجنائز باب ٢٨، والحمام باب ١، وابن ماجه في الجنائز باب ٨، وأحمد في المسند ١/ ١٤٦.

أن الواسطة هو عمرو بن خالد الواسطي، وحديث ابن عباس قال: مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ رجل فخذه خارجة فقال: «غط فخذك فإن فخذ الرجل من عورته»(١) رواه الترمذي وأحمد والحاكم وصححه بعض العلماء وفي إسناده أبو يحيىٰ القتات ضعيف، وحديث جرهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر على جرهد وفخذ جرهد مكشوفة في المسجد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يا جرهد غط فخذك فإن الفخذ عورة»(٢) رواه أحمد وفيه زرعة مجهول، وحديث محمد بن جحش عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه مر على معمر محتبياً كاشفاً عن طرف فخذه فقال له النبي ﷺ «خمر فخذك يا معمر فإن الفخذ عورة»(٣) رواه أحمد والبخاري في التاريخ والحاكم في المستدرك، قال الحافظ: رجاله رجال الصحيح غير أبي كثير وقد روىٰ عنه جماعة لكن لم أجد فيه تصريحًا بتعديل أو جرح وحديث أبي أيوب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما فوق الركبتين من العورة وما أسفل السرّة من العورة»(٤) رواه الدارقطني وفي إسناده سعيد بن راشد وعباد بن كثير متروكان، وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا زوج الرجل منكم عبده» الحديث بطوله وفيه «فإنما تحت السرة إلى الركبة من العورة»(٥) رواه الدارقطني وفيه سوار بن داود لينه العقيلي لكن وثقه ابن معين، ولا شك أن هٰذه الأحاديث لا يصادم شيئًا منها ما تقدم من حديث كشف الفخذ لكن لما تعاضد بعضها ببعض وتلقته الأمة بالقبول أخذناه احتياطًا، ومن ههنا قال البخاري حديث أنس أسند وحديث جرهد أحوط، ولأجل قوة حديث أنس وما في معناه قال أبو حنيفة: العاري يصلي قاعدًا واضعًا يديه على قبله يومىء للركوع والسجود حيث قال: بترك القيام والركوع والسجود مع القدرة عليها إلى القعود.

والإيماء رعاية لستر العورة الذي هو فرض مطلقًا في الصلاة وخارجها والله أعلم.

مسألة: الركبة عورة عند أبي حنيفة وقال الشافعي وأحمد: ليست بعورة لما تقدم من حديث أبي أيوب وعمرو بن شعيب، واحتج أصحابنا بحديث علي رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الركبة من العورة»(٦) وفيه عقبة بن علقمة ضعفه أبو حاتم الرازي والنصر بن منصور، قال أبو حاتم الرازي: مجهول يروي أحاديث مناكير، وقال ابن حبان: لا يحتج به، قلنا: الركبة ملتقى عظم العورة وغيرها فاجتمع الحرام والحلال فقدمنا الحرمة احتياطًا.

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب باب ٤٠، في الترجمة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة باب ١٢، وأحمد في المسند ٣/ ٤٧٨، ٤٧٩.

(٤) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ٢٣١.

(٥) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ٢٣١.

(٦) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ٢٣١.

مسألة: المرأة الحرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها عند مالك والشافعي وأحمد وفي رواية عنهم إلا وجهها فقط وكفاها من العورة، وأما القدمان فليستا من العورة عندهم وقال أبو حنيفة: إلا وجهها وكفيها وقدميها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقبل صلاة حائض إلا بخمار» وقد مرّ، وقال عليه السلام: «المرأة عورة»[١] رواه الترمذي من حديث ابن مسعود، وروى أبو داود مرسلاً «أن الجارية إذا حاضت لم يصلح يرى منها إلا وجهها ويديها إلى المفصل» وروى الدارقطني عن أم سلمة أنها سألت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أتصلي المرأة في درع وخمار وليس لها إزار؟ قال: «إذا كان الدرع سابغًا يغطي ظهور قدميها»[٢] وفيه عبد الرحمن بن عبدالله ضعفه يحيىٰ، وقال أبو حاتم: لا يحتج به، والظاهر أنه غلط في رفع الحديث ورواه مالك وجماعة عن أم سلمة من قولها.

مسألة: قال في النوازل: نغمة المرأة عورة ولهذا قال عليه السلام: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء»[٣] قال ابن الهمام: وعلى هٰذا لو قيل إن المرأة إذا جهرت بالقراءة في الصلاة فسدت كان متجهًا.

مسألة: عورة الأمة كعورة الرجل مع بطنها وظهرها عند أبي حنيفة، وقال مالك والشافعي هي كعورة الرجل وبه قال أحمد، وقال بعض أصحاب الشافعي كلها عورة إلا مواضع التقليب منها وهو الرأس والساعدان والساق، روى البيهقي عن نافع أن صفية بنت أبي عبيد حدثته قالت: خرجت امرأة متخمرة بتحلية فقال عمر: من هذه، فقيل له جارية لفلان رجل من بنيه، فأرسل إلىٰ حفصة فقال ما حملك أن تخمري هذه الأمة وتجلببيها تشبيهًا بالمحصنات حتى هممت أن أقع بها لا أحسبها إلا من المحصنات؟ لا تشبهوا الإماء بالمحصنات، قال البيهقي: الآثار عن عمر بذلك صحيحة.

مسألة: يجب عند أحمد ستر المنكبين في الفرض وفي النفل عنه روايتان لحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يصلي أحدكم في الثوب الواحد ليس على منكبيه منه شيء»[٤] رواه أحمد، وفي الصحيحين نحوه لٰكن لفظ البخاري «ليس على عاتقه منه شيء»[٥] وفي حديث مسلم «عاتقيه»[٦] وحمل الجمهور على التنزيه، قال

---

(١) أخرجه الترمذي حديث ١١٧٣، بلفظ: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان».

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٦٤٠، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٣٣، والدارقطني في سننه ٢/ ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة باب ٥، والأذان باب ٤٨، والسهو باب ٩، ومسلم في الصلاة حديث ١٠٧.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ٧٧، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٣.

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٥.

(٦) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٤.

الكرماني: ظاهر النهي يقتضي التحريم لكن الإجماع منعقد على جواز تركه، قال الحافظ قد غفل الكرماني عما ذكره بعد قليل عن النووي من حكاية مذهب أحمد ونقل ابن المنذر عن محمد بن علي عدم الجواز وعقد الطحاوي له بابًا في شرح معاني الآثار ونقل عن ابن عمر ثم عن طاوس والنخعي ونقل غيره عن ابن وهب وابن جرير، ونقل الشيخ تقي الدين السبكي وجوب ذلك عن نص الشافعي واختاره لكن المعروف في كتب الشافعية خلافه.

مسألة: يستحب أن يصلي الرجل في ثياب الزينة كما تشير إليه هذه الآية فإن الله سبحانه سمى الثوب زينة وأمر باتخاذه في الصلاة فالواجب وإن كان أدنى منها وهو ما يستر العورة فما زاد عليه يستحب، روى الطحاوي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبيه فإن الله أحق أن يزين له»[(١)] الحديث، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن الصلاة في الثوب الواحد؟ فقال: «أو كلكم يجد ثوبين؟»[(٢)] ثم سأل رجل عمر فقال له: إذا وسع الله فأوسعوا جمع رجل عليه ثيابه صلى رجل في إزار ورداء في إزار وقميص في إزار وقباء في سراويل ورداء في سراويل وقميص في سراويل وقباء في تبان وقميص قال: وأحسبه في تبان ورداء» والله أعلم.

قال البغوي: قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم من الطعام إلا قوتًا ولا يأكلون دسمًا يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله فأنزل الله تعالىٰ ﴿وَكُلُوا﴾ يعني اللحم والدسم ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم ما أحل الله لكم من اللحم والدسم وزينة اللباس وغير ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين يفعلون ذلك أي لا يرتضي فعلهم، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله تعالىٰ ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ قال: نزلت في الخميس من قريش إلىٰ أن قال: وبني عامر بن صعصعة وبطون كنانة بن بكرة كانوا لا يأكلون اللحم ولا يأتون البيوت إلا من أدبارها، قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد في تفسيره، وعن ابن عمر[(٣)] مرفوعًا «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة» رواه أحمد بسند صحيح وابن ماجه والحاكم،

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧٩، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٥١، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٩١٢٠، ١٩١٣٨.

(٢) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الصلاة باب ٣، و٤، ٩، ومسلم في الصلاة حديث ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠ ـ ٢٨٣.

(٣) عن الحسن قال دخل عمر على ابنه عبد الله إذا عندهم لحم فقال ما هذا اللحم فقال اشتهيته فقال وكلما اشتهيت شيئاً أكلته كفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كل ما اشتهى.

روي[١] أنه كان للرشيد طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسن بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان فقال له عليّ: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ وَلَا تُسۡرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٢٦] فقال النصراني ولم يرو من رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة وهي قوله عليه السلام: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته» فقال النصراني ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًا.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد إنكارًا عليهم ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ أي الثياب وسائر ما يتجمل به ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ﴾ أصولها كالقطن والكتان من الأرض والصوف من ظهر الغنم والقز من الدود ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ أي لأجل انتفاعهم وتزينهم وتجملهم وأخرج ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي المستلذات ﴿مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ من المأكل والمشارب يعني لم يحرمها الذي هو خالقها ومالكها ولا يقدر أحد غيره على التحريم والتحليل فما لهؤلاء الكفار يحرمون الثياب في الطواف واللحم والدسم في الحج والسوائب ونحو ذلك، وبهذه الآية يثبت أن الأصل في المطاعم والمشارب والملابس الحل ما لم يثبت تحريمها من الله تعالىٰ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿هِيَ﴾ أي الزينة والطيبات كائنة مخلوقة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حتى يتمتعون بها ويشكرون الله تعالىٰ عليها ويتقوون بها علىٰ عبادته وليست للكفار إلا تبعًا للمؤمنين شاركهم الله تعالىٰ فيها ابتلاء واستدراجًا ﴿خَالِصَةً﴾ قرأ نافع بالرفع على أنه خبر بعد خبر لهي والباقون بالنصب على أنه حال مقدرة يعني مقدرين الخلوص من التنغيص والغم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وأما في الدنيا فهي مشوبة بالغم والتنغيص أو المعنى مقدرين الخلوص لهم لا يشاركهم الكفار ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يعني ميّزنا الحلال من الحرام هٰهنا حيث أمرنا بإتيان الحلال وترك الحرام ونهينا عن الإسراف وإتيان الحرام كذلك نفصل سائر الأحكام ﴿لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ أنه لا شريك لله تعالىٰ أحد.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ أي ما تزايد قبحه ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ كطواف الرجل بالنهار عريانًا ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ كطواف النساء بالليل عريانًا، وقيل: الزنا سرًا وعلانيةً، عن ابن مسعود يرفعه قال: «لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدحة من الله فلذلك مدح نفسه»[٢] ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ أي ما يوجب الإثم يعني الذنب والمعصية تعميم بعد تخصيص، وقال الضحاك: الإثم الذنب الذي لا حَدَّ فيه وقال الحسن: الإثم الخمر قال الشاعر:

---

(١) وعن عمر بن الخطاب قال إياكم والبطنة في الطعام والشراب فإنها مفسدة للجسد مورثة للسقم مكسلة عن الصلاة وعليكم بالقصر فيها فإنه أصلح للحمد وأبعد من السرف وإن الله ليبغض الجسد السمين وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٦، باب ٧، والنكاح باب ١٠٧، والتوحيد باب ١٥، ٢٠، ومسلم في اللعان حديث ١٧، والتوبة حديث ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥.

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذلك الإثم يذهب بالعقول

﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾ الظلم أو الكبر أفرده بالذكر مبالغة أو المراد البغي على سلطان عادل ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ متعلق بالبغي مؤكد له معنى ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ﴾ أي بإشراكه ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ حجة فيه تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ في تحريم الحرث والأنعام والطواف عريانًا وغير ذٰلك، وقال مقاتل: هو عام في تحريم القول في الدين من غير يقين ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ﴾ يعني لكل أمة من الكفار مدة ووقت معين في علم الله تعالىٰ لنزول العذاب بهم وعيد لأهل مكة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ أي حان وقت عذابهم ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ﴾ عنه ساعة أي لا يتأخرون أقصر وقت وأن طلبوا الأمهال ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ ولا يتقدمون ذٰلك وان سألوا العذاب لقولهم ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1] [الأنفال: ٣٢].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ ما زائدة زيدت لتأكيد الشرط ولذلك أكد فعلها بالنون ذكر الله سبحانه بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل جائز غير واجب ولا يجب على الله شيء ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي من بني آدم ﴿يَقُصُّونَ﴾ أي يقرؤون ﴿عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ من الكتب صفة لرسل وجواب الشرط ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ منكم يعني من الشرك وتكذيب الرسل ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ عمله أي أخلصه لله تعالىٰ وأتى به كما أمره ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ حين يخاف الناس في القبر ويوم القيامة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ إذا حزنوا في النار ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ منكم ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ أي عن الإيمان بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أدخل الفاء في الجزاء الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي جعل له شريكًا أو قال: اتخذ الله صاحبة وولدًا أو قال: الله أمرنا بتحريم السوائب والطواف عريانًا ونحو ذلك، واللفظ يشتمل الروافض الذين يفترون على الله وعلى رسوله ويقولون أنزل الله في القرآن آيات كثيرة ألقاها الصحابة من القرآن ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ المنزلة والترديد لمنع الخلو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ أي حقهم مما كتب لهم في صحف الملائكة الموكل بهم من الأرزاق والتمتعات والأعمال والأكساب والمصائب والآجال، وقيل: الكتاب اللوح المحفوظ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ يعني ملك الموت وأعوانه ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يقبضون أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب إذا يعني قالت الرسل للكفار ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ

---

(١) وعن ابن المسيب قال لما طعن عمر قال كعب لو دعا الله عمر لأخر في أجله فقيل له أليس قد قال الله تعالى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال كعب وقد قال الله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب مبين فإن الله يؤخر ما يشاء وينقص ما يشاء فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ولا يستقدمون وعن ابن أبي مليكة قال لما طعن عمر جاء كعب فجعل يبكي ويقول والله لو أن أمير المؤمنين يقسم على الله أن يؤخره لأخره فدخل ابن عباس عليه فقال يا أمير المؤمنين هذا كعب يقول كذا وكذا فقال إذا والله لا أسأله.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما موصولة وصلت بأين الاستفهامية في خط المصحف وكان حقها الفصل، والاستفهام للتوبيخ يعني أين الذين كنتم تعبدونها من دون الله من الأصنام وغيرها ﴿قَالُوا۟﴾ أي الكفار ﴿ضَلُّوا۟﴾ أي غابوا ﴿عَنَّا وَشَهِدُوا۟﴾ يعني الكفار اعترفوا عند معاينة العذاب ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ
لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟
ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن
فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ
ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ
وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا
وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ
كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ
تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ
أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا
خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ يوم القيامة أو ملك الموت حين التوفي ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي كائنين في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني الكفار الأمم الماضية من الفريقين ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ متعلق بادخلوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾ النار ﴿أُمَّةٌ﴾ كافرة من الأمم ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ في الدين التي ضلت هذه الأمة باقتدائها فيلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى ويلعن الأتباع القادة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟﴾ أي تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا ﴿فِيهَا﴾ أي في النار ﴿جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ دخولًا وهم الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ دخولًا وهم القادة فإنهم يدخلون النار أولًا، وقال ابن عباس: آخر كل أمة لأولها زمانًا الذين شرعوا ذلك الدين الباطل ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني القادة ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفًا يعني مثلي ما نحن فيه ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعْفٌ﴾ ما يرى الآخر فإن للعذاب ظاهرًا وباطنًا وكل يدرك من الآخر الظاهر دون الباطن فيقدر أنه

ليس له العذاب الباطن أو المعنى لكل ضعف ما يقتضيه ضلاله، أما القادة فبكفرهم وتضليلهم وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم أهل الباطل دون أهل الحق ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلم أحد منكم ما لغيره من العذاب قرأ أبو بكر عن عاصم بالياء للغيبة على الانفصال والباقون بالتاء على الخطاب.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ عطفوا كلامهم على جواب الله تعالىٰ لأخراهم ورتبوا عليه ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يعني فقد ثبت بقول الله تعالىٰ أن لا فضل لكم علينا وأنه كل متساوون في استحقاق العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يحتمل أن يكون من قول القادة أو من قول الله تعالىٰ للفريقين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي عن الإيمان بها ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ قرأ أبو عمرو بالتاء لتأنيث الفاعل لكونه جمعًا بالتخفيف من المجرد وحمزة والكسائي بالياء لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي ومفعول من المجرد أيضًا، والباقون بالتاء كأبي عمرو والتشديد من التفعيل لكثرة الأبواب ﴿لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لأدعيتهم ولا لأعمالهم ولا لأرواحهم، وقال ابن عباس: لأرواحهم لأنها خبيثة لا يصعد بها بل يهوي بها إلى سجين. عن البراء بن عازب في حديث طويل رواه مالك والنسائي والبيهقي في البعث والنشور قوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذكر العبد الكافر «أن الملائكة سود الوجوه إذا قبضت نفسه جعلوها في المسوح ويخرج منها كنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾»(١) [الحج: ٣١] الحديث وفي حديث أبي هريرة عند ابن ماجه نحوه.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجُثة وهو البعير فيما هو مثل في ضيق المنفذ وهو ثقبة الإبرة وذلك لا يكون فكذا ما علق به بدل ذٰلك علىٰ تأكيد المنع يعني لا يدخلون أبدًا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء القطيع يعني اليأس من رحمة الله تعالىٰ ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُم﴾ أي للمجرمين ﴿مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ لحف منها والتنوين عوض من الياء المحذوفة عند سيبويه وللصرف عند غيره، يعني النار محيط بهم من كل جانب نظيره قوله تعالىٰ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهًا علىٰ أنه أعظم من الإجرام ثم أورد الله سبحانه وعد المؤمنين بعد وعيد الكفار كما هو عادته فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ ولما

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٨٨.

كان الجمع المحلى باللام من صيغ العموم موهمًا لاختصاص الوعد بمن عمل جميع الصالحات أورد معترضًا بين المبتدأ والخبر لدفع ذلك التوهم قوله ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي بقدر طاقتها بحيث لا تحرج ولا يشق عليها ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبر للمبتدأ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي أخرجنا صيغة ماض وضع موضع مستقبل تحقيقًا لوقوعه ﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي حسد وعداوة كانت بينهم في الدنيا حتى لا يكون بينهم إلا التواد لا يحسد بعضهم على بعض على شيء خص الله به بعضهم، أخرج سعيد بن منصور وأبو نعيم في الفتن وابن أبي شيبة والطبراني وابن مردويه عن علي رضي الله عنه أنه قال: إني أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، قلت: قال ذلك علي رضي الله عنه لما وقع بينهم فساد ظن في فتنة شهادة عثمان رضي الله عنه. أخرج البخاري والإسماعيلي في مستخرجه واللفظ له عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالىٰ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧] قال: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هذبوا وقفوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا»[(١)] قال قتادة: راوي الحديث كان يقال ما يشبه بهم إلا أهل الجمعة انصرفوا عن جمعتهم، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يحبس أهل الجنة بعدما يجوزون الصراط يؤخذ لبعضهم من البعض ظلماتهم في الدنيا ويدخلون الجنة ليس في قلوب بعضهم علىٰ بعض غل»[(٢)] قال القرطبي: هذا في حق من لم يدخل النار أما من دخلها ثم أخرج منها فإنهم لا يحاسبون بل إذا خرجوا ذهبوا على أنهار الجنة، قال ابن حجر: قوله يخلص المؤمنون من النار أي ينجون من السقوط بمجاوزة الصراط.

واختلف في القنطرة المذكورة؟ فقيل: إنها من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل: الصراط آخر وبه جزم القرطبي، وقال السيوطي: والأول هو المختار، قلت: وذٰلك لأن القصاص إنما يكون بالحسنات والسيئات فإنه ليس ثمة دينار ولا درهم إن كان له يعني للظالم عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمة وإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه، كذا روى البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعًا وعند مسلم والترمذي عنه مرفوعًا «فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فتطرح عليه ثم طرح في النار»[(٣)] قلت: والطرح في النار لا يتصور بعد مجاورة الصراط بتمامه والله

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٨، وأحمد في المسند ٣/ ١٣، ٥٧، ٦٣، ٧٤.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٩٣٩١، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٥، ٤/ ١٠١.

(٣) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧٢.

أعلم، قلت: وليس نزع الغل من الصدر منحصرًا في صورة القصاص، ودفع الحسنات والسيئات من البعض إلى البعض بل قد يكون بغير ذٰلك، كما قال البغوي، قال: السند في هٰذه الآية الكريمة أن أهل الجنة إذا سبقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من أحدهما فينزع ما في صدورهم من غل وهو الشراب الطهور ومن الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم أن يشعثوا ولن يشحبوا بعدها أبدًا ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾ من تحت منازلهم بعدما دخلوا الجنة ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حال من هم في صدورهم فيها بمعنى الإضافة ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي أهل الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي إلى هٰذا يعني الجنة، وقال سفيان الثوري: معناه هدأنا لعمل ثوابه هذا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ اللام للجحود لتأكيد النفي كما في قوله تعالىٰ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] بعدها أن المصدرية مقدرة والمصدر بمعنى الفاعل أو بتقدير المضاف خبر لكان تقديره ما كنا ذا اهتداء أو مهتدين ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله يعني لولا هداية الله ما كنا مهتدين، قرأ ابن عامر ما كنا بغير واو على أنها صبية للأولىٰ والباقون بالواو على أنه حال من مفعول هدانا ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم يقولون ذٰلك تبجحًا حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانًا ﴿وَنُودُوٓا۟﴾ أي أهل الجنة قيل: هذا النداء إذا رأوا الجنة من بعيد، وقيل: هذا النداء يكون في الجنة واختاره السيوطي في البدور السافرة ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ أن في المواضع الخمسة هي المفسرة لأن المناداة والتأذين بمعنى القول وجاز أن تكون مخففة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالكم الجملة حال من الجنة والعامل فيه معنى الإشارة أو خبر والجنة صفة تلكم، قال صاحب المدارك: سماها ميراثًا لأنها لا تستحق بالعمل بل هي محض فضل الله تعالىٰ وعده على الطاعات كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة خالصة، أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا وإن لكم أن تنعّموا فلا تبأسوا[1] أبدًا فذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] [الأعراف: ٤٣] وأخرج ابن ماجه والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالىٰ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[3] [المؤمنون: ١١٠]».

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا﴾ متحققًا في الواقع حال ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾ قالوا ذلك تبجحًا بحالهم وشماتة

---

(١) بئس يبئس بالضم فيها بأساً اشتد والمبتئس الكاره والحزين.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٩.

بأصحاب النار تقديره وعدكم حذف كم لدلالة وعدنا ربنا عليه أو يقال لم يقل وعدكم كما قال: وعدنا لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأمره وعده مخصوصًا بهم كالبعث والحساب ونعيم الجنة ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾ قرأ الكسائي بكسر العين حيث وقع والباقون بفتحها وهما لغتان ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى مناد قيل: هو صاحب الصور ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الفريقين بحيث أسمع الفريقين ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ قرأ البزي عن ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد أنَّ ونصب اللعنة والباقون بتخفيفها والرفع ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي يمتنعون أو يمنعون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي دينه صفة للظالمين مقررة أو ذم مرفوع أو منصوب ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيغاً وميلًا عما هو عليه مفعول ثان ليبغون أي يطلبون لها الاعوجاج والتناقض، قال ابن عباس: يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله، قلت: تقديره الذين كانوا يصدون عن سبيل الله لأن ذلك كان منهم في الدنيا لا حين يقال لهم ذٰلك والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم تكن منتصبة كالذين والأرض وبالفتح في الأعيان المنتصبة كالحائط والرمح ونحوهما، ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾ بالله أو الآخرة ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي بين الجنة والنار وقيل: بين أهل الجنة وأهل النار ﴿حِجَابٌ﴾ وهو سور الذي ذكره الله تعالىٰ في سورة الحديد ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣] وقد ذكر هناك تفسيره ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي علىٰ أعراف الحجاب يعني على أعالي السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس، أخرج هناد من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: الأعراف سور كعرف الديك، وقيل: العرف ما ارتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره ﴿رِجَالٌ﴾ اختلفت الأقوال في هٰؤلاء الرجال أوجهًا أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم منعت حسناتهم من دخول النار وتقاصرت من دخول الجنة كذا أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرج ابن جرير والبيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأعراف سور بين الجنة والنار وأصحابه رجال كانت لهم ذنوب عظام حبسهم أمر الله يقومون على الأعراف يعرفون أهل النار لسواد الوجوه وأهل الجنة ببياض الوجوه فإذا نظروا إلى أهل الجنة طمعوا أن يدخلوها وإذا نظروا إلى النار تعوذوا بالله تعالىٰ منها فأدخلهم الله الجنة»(١) فذلك قوله تعالىٰ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يعني أصحاب الأعراف ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وأخرج هناد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في تفاسيرهم من طريق عبدالله بن الحارث عن ابن عباس قال: الأعراف السور الذي بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف المحبوسون بذلك حتى إذا بدأ الله تعالىٰ أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له الحياة حافتاه الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى يصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تعالىٰ، فقال: تمنوا ما شئتم فيتمنون حتى إذا

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله وسبعون ضعفًا فيدخلون الجنة في نحورهم شامة[١] بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة. وأخرج أبو الشيخ من طريق ابن المنكدر عن رجل من مزينة أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: سئل عن الأعراف فقال: «هم قوم خرجوا عصاةً بغير إذن آبائهم فقتلوا في سبيل الله وهم لآبائهم عاصون فمنعوا الجنة بمعصية آبائهم ومنعوا النار لقتلهم في سبيل الله»[٢] وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف؟ فقال: «هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار حتى تذبل[٣] لحومهم وشحومهم حتى يفرغ الله من حساب خلقه ولم يبق غيرهم تغمد الله برحمته فأدخلهم الجنة برحمته»[٤] وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو الشيخ في تفاسيرهم والطبراني والحارث بن أسامة في مسنده والبيهقي من عبد الرحمٰن المزني قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحاب الأعراف؟ فقال: «هم أناس قتلوا في سبيل الله»[٥].

قلت: لعل المراد بهذا الذين قتلوا في سبيل الله الذين هم عصاة لآبائهم جمعاً بين هذا وبين ما سبق وليعلم أن الذين قتلوا في سبيل الله عصاة لآبائهم أفراد ممن استوت حسناتهم وسيئاتهم فذكرهم على وجه التمثيل لا على وجه الحصر لما مر من الأحاديث، ولما أخرج ابن أبي داود وابن جرير عن ابن عمر بن حزم بن جرير قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة وأنتم عتقاء فارعوا من الجنة حيث شئتم»[٦] قال السيوطي: مرسل حسن وأخرج ابن مردويه وأبو الشيخ من طريقين عن جابر بن عبدالله قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمن استوت حسناتهم وسيآتهم؟ فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[٧] وأخرج البيهقي عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجمع الله الناس بينهم يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة الجنة وبأهل النار النار ثم قال لأصحاب الأعراف: ما

---

(١) الشامة الخال في الخسد.

(٢) أخرجه بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٨.

(٣) ذبلت بشرته أي قل ماء جلده وذهبت نضارته.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١/ ٢٣٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣.

(٥) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٤، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٨.

(٦) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٥، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧٨.

(٧) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤١٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٥، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٧.

تنتظرون قالوا ننتظر أمرك فيقال لهم أن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتي ورحمتي»[1] وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وأبو الشيخ والبيهقي وهناد وحذيفة قال أصحاب الأعراف: قوم قصرت سيآتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار جعلوا هناك حتى يقضي الله تعالىٰ بين الناس فبينما هم كذلك إذا طلع عليهم ربهم فقال لهم: قوموا فادخلوا الجنة فإني غفرت لكم، وأخرج عبد الرزاق عن حذيفة قال أصحاب الأعراف: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم على سور بين الجنة والنار وهم على طمع من دخول الجنة وهم داخلون، وروى البغوي بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قال: الله عــز وجــل ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٧ ـ ٨] ثم قال: إن الميزان يخف حسناته وسيئاته بمثقال حبة ويرجح قال: ومن حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا يمشون به أيديهم وبأيمانهم ويعلى كل عبد يومئذ نورًا فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة ما بقي المنافقون قالوا ربنا أتمم لنا نورنا، فأما أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من بين أيديهم ومنعهم سيئاتهم أن يمشوا فبقي في قلوبهم الطمع إذ لم ينزع من بين أيديهم، فهناك يقول الله عز وجل لم يدخلوها وهم يطمعون وكان الطمع للنور الذي بين أيديهم ثم ادخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً، وأما ما أخرج هناد عن مجاهد قال أصحاب الأعراف: قوم صالحون فقهاء علماء والأعراف سور بين الجنة والنار، فلعل المراد من القوم الصالحين المؤمنين الفقهاء العلماء ارتكبوا السيئات بحيث تساوت حسناتهم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم، وأما ما أخرج البيهقي عن أبي مجلز أنه قال: الأعراف مكان مرتفع عليه رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة بسيماهم وأهل النار بسيماهم فليس بشيء إذ لا يقال للملائكة رجال وقد سماهم الله تعالىٰ برجال وأيضًا يرده ما روينا من الأحاديث.

وأما ما قال بعضهم: إنهم رجال من الأنبياء أو الأولياء أو الشهداء فيطلعون على أهل الجنة وأهل النار جميعًا ويطلعون أحوال الفريقين فيرده ما روينا من الأحاديث وما سيتلى عليك من الآيات، وأما ما قال بعضهم: إنهم أطفال المشركين يرده قوله تعالىٰ رجال وما ذكرنا من الأحاديث ﴿يَعْرِفُونَ﴾ أي أصحاب الأعراف ﴿كُلًّۢا﴾ أي كل فريق من المؤمنين والكافرين ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلامتهم يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم وأهل النار بسواد

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٥، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٧.

وجوههم مشتق من سام إبله إذا أرسلها في المرعىٰ معلمة أو من وسم على القلب كالجاه من الوجه ﴿وَنَادَوْا﴾ أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني سلّموا عليهم إذا نظروا إليهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ يعني أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ دخولها حيث خلصوا من النار، قال الحسن: لم يطمعهم إلا للكرامة يريدها بهم، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب كأنّ سائلًا سأل عن أصحاب الأعراف فقال لم يدخلوها وهم يطمعون، وجاز أن يكون حالًا من الضمير المرفوع في نادوا أو صفة لرجال، ومن قال: إن أصحاب الأعراف الأنبياء والملائكة قال: هذه الجملة حال من مفعول نادوا يعني أصحاب الجنة.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي أبصار أصحاب الأعراف فيه إشارة إلى أن صارفًا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيدوا ﴿تِلْقَآءَ﴾ ظرف أي إلى جانب ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب تعوذوا بالله وفزعوا إلى رحمته ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني لا تجعلنا في النار مع الكافرين، سياق الآية تدل على أن أصحاب الأعراف في خوف ورجاء وذلك مقتضى استواء حسناتهم ولا يتصور ذٰلك في الأنبياء والشهداء والصلحاء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ كانوا عظماء في الدنيا من الكفار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟﴾ أي أصحاب الأعراف بيان لنادى، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي كثرتكم وأعوانكم وأولادكم وجمعكم المال ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق أو على الخلق قال الكلبي: ينادون على السور يا وليد بن مغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لهؤلاء الكفار ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني هؤلاء الضعفاء ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ وحلفتم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة ثم يقال لأهل الأعراف ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ قلت: وجاز أن يكون هذا من تتمة كلام أصحاب الأعراف يعني هٰؤلاء الضعفاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة وقد قيل لهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية، قال البغوي: وفيه قول آخر وهو أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار قالوا قال لهم أهل النار إن دخل أولئك الجنة فأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم ويقسمون أنهم يدخلون النار فتقول الملائكة الذين حبسوا أصحاب الأعراف على الصراط لأهل النار أهٰؤلاء يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم يا أهل النار أنه لا تنالهم رحمة الله ثم قالت الملائكة لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون فيدخلون الجنة، قال البغوي: قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج وقالوا: يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذنْ لنا حتى نراهم ونكلمهم فنظروا إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم ولم يعرفوا أهل الجنة أهل النار بسواد وجوههم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بأسمائهم وأخبروهم بقراباتهم ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟﴾ أي صبوا ﴿عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإضافة أو من طعام

الجنة فهو من قبيل علفتها تبنًا وماء باردًا ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني أصحاب الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي الماء والطعام ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال البيضاوي: معناه منعهما عنهم منع المحرم على المكلف، وقال في المدارك: هو تحريم منع كما في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] قلت ومنه قوله تعالىٰ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: ٩٥] وأخرج ابن أبي الدنيا والضياء كلاهما في صفة النار عن زيد بن رفيع أن أهل النار إذا دخلوا النار عكوا الدموع زمانًا ثم بكوا الفيح زمانًا فتقول لهم الخزنة: يا معشر الأشقياء تركتم البكاء في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به فيعرفون به أصواتهم يا أهل الجنة يا معشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشًا وكنا طول الموقف عطاشًا ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيدعون أربعين لا يجيبهم ثم يجيبهم أنتم ماكثون فييأسون من كل خير، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: ينادي الرجل أخاه فيقول يا أخي أغثني فإني قد أحرقت فيقول إن الله حرمهما على الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ مجرور وصفاً للكافرين أو مرفوع أو منصوب على الذم ﴿دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ بتحريم البحيرة وأخواتها والمكاء والتصدية حول البيت والطواف عريانًا وأكل الميتة والاستقسام بالأزلام وغير ذٰلك من الأمور التي كانوا يفعلونها في الجاهلية وقيل: معناه اتخذوا عيدهم لهوًا ولعبًا، قال البيضاوي: اللهو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف به واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ونسوا الآخرة وزعموا أن لا حياة إلا الحياة الدنيا ولا الخير ولا الشر إلا فيها ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ نتركهم ترك الناسي في النار ﴿كَمَا نَسُواْ﴾ أي نسيانًا كنسيانهم ﴿لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ حتى تركوا العمل بما ينفعهم يومهم هذا ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ كما كانوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعني ككونهم جاحدين بآياتنا منكرين أنها من عند الله.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ
يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ
نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ
تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ
نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا
كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ

مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي
وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ
لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي
وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ يعني القرآن ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بينّا معانيه وميّزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه وأوضحنا العقائد الحقة من الباطلة ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيمًا أو عالمين بمصالحهم فهو حال من فاعل فصلناه أو مشتملًا على علم فهو حال من مفعوله ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حال من مفعول فصلناه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي هل ينتظرون في الإيمان بالقرآن ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ يعني إلا ما يؤول إليه أمره من تبين صدقة وظهور ما ينطق به من الوعد والوعيد، قال مجاهد: جزاءه ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي جزاءه وما يؤول إليه أمرهم وذٰلك يوم موتهم أو يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي تركوه ترك الناسي ولم يؤمنوا به ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ قد تبين لهم أنهم جاؤوا بالحق فاعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾ عطف على جملة قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل: فهل لنا من شفعاء أو هل نرد، ورافعه وقوعه موقعًا يصلح للاسم كقولك ابتداء هل يضرب زيد أو عطف على تقديرها، يعني هل يشفع لنا شافع أو هل نرد إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ﴾ جواب للاستفهام الثاني ﴿غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ نوحد الله ونترك الشرك والمعاصي ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر ﴿وَضَلَّ﴾ وبطل واضمحل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أن الله تعالىٰ أمرهم به أو في ادعاء الشريك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وقيل: ستة أيام كأيام الآخرة كل يوم ألف سنة، قال سعيد بن جبير: كان الله عز وجل قادرًا علىٰ خلق السمٰوات والأرض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليمًا لخلقه التثبت والتأني في الأمور وقد جاء في الحديث «التأني من الرحمٰن والعجلة من الشيطان»(١) رواه

(١) روي الحديث بلفظ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان». أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في =

البيهقي في شعب الإيمان مرفوعًا عن أنس ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال البغوي: أولت المعتزلة الاستواء بالإستيلاء وأما أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة لله تعالىٰ بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل، سأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوٰى فأطرق رأسه مليًا ثم قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا ضالًا ثم أمر به فأخرج. وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعيد وسفيان بن عيينة وعبدالله وغيرهم من علماء أهل السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة أمروها كما جاءت بلا كيف، والعرش في اللغة سرير الملك، وهو جسم عظيم من عظائم المخلوقات كريم على الله تعالىٰ لاختصاصه بأنواع من التجليات ولذا سمي بعرش الرحمن وأضيفت إليه تعالىٰ تشريفًا وتكريمًا كما أضيفت إليه الكعبة وسمي بيت الله، وقد ذكرنا بعض ما ورد فيه من الأخبار في آية الكرسي في سورة البقرة ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطيه به ولم يذكر عكسه للعلم به أو لأن اللفظ يحتملهما، وقال البغوي: فيه حذف ويغشي النهار الليل ولم يذكر لدلالة الكلام عليه، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب يغشي بالتشديد هٰهنا وفي سورة الرعد للدلالة على التكرير والباقون بالتخفيف ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾ أي يعقبه فإن أحدهما إذا كان يعقب الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه ﴿حَثِيثًا﴾ أي سريعًا بلا مهلة وهو صفة مصدر محذوف أي طلبه حثيثًا أو حال من الفاعل بمعنى حاثًا أو المفعول بمعنى محثوثًا ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ أي مذللات ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بقضائه وتصريفه قرأ ابن عامر برفع الأربعة على الابتداء والخبرية والباقون بنصب الثلاثة بالعطف على السمٰوات ونصب مسخرات على الحال، وكذٰلك في سورة النحل ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ جميعًا لا خالق غيره ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ كله بيده يحكم ما يريد لا يجوز لأحد الاعتراض عليه، قالت الصوفية: المراد بالخلق والأمر عالم الخلق يعني الجسمانية العرش وما تحته من السمٰوات والأرض وما بينهما وأصولها العناصر الأربعة النار والهواء والماء والتراب ويتولد منها النفوس الحيوانية والنباتية والمعدنية وهي أجسام لطيفة سارية في أجسام كثيفة، وعالم الأمر يعني المجردات من القلب والروح والسر والخفي والأخفى التي هي فوق العرش سارية في النفوس الإنسانية والملكية والشيطانية سريان الشمس في المرآة سميت بعالم الأمر لأن الله تعالىٰ خلقها بلا مادة بأمره كن، قال البغوي: قال سفيان بن عيينة: فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تعالىٰ الله بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية مشتق من البركة بمعنى النماء والزيادة ومن لوازمه العظمة، قيل: معناه أن البركة تكتسب وتناول بذكره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما معناه قال: جاء بكل بركة، وقال الحسن: البركة من عنده،

= السنن الكبرى ١٠/ ١٠٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٦٧٥، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٢، ٦/ ٦٩.

وقيل: تبارك أي تقدس والقدس الطهارة، وقيل: تبارك الله تعالىٰ أي باسمه تبرك في كل شيء، قال المحققون: معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال وأصل البركة الثبوت ومنه البركة ويقال تبارك الله ولا يقال على الله المبارك والمبارك توفيقًا على السمع.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ يعني اذكروه واعبدوه واسألوا منه حوائجكم ﴿تَضَرُّعًا﴾ حال من فاعل ادعوا أي ذوي تضرع أو متضرعين تفعل من الضرع من ضرع الرجل ضراعة ضعف وذل فهو ضارع وضرع وتضرع أظهر الضراعة، في القاموس ضرع إليه يثلث ضرعًا محركة وضراعة خضع وذل واستكان، ﴿وَخُفْيَةً﴾ قرأ أبو بكر بكسر الخاء والباقون بالضم أي ذوي إخفاء أو مخفين فإن الإخفاء دليل الإخلاص وأبعد من الرياء اعلم أن الذكر مطلقًا عبادة سواء كان جهرًا إذا لم يخالطه الرياء أو سرًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(١) متفق عليه، فإن هذا الحديث يفيد ذكر الجهر والخفي كليهما، وزعم بعض الناس أن هٰذا الحديث يدل على أفضلية الجهر من الخفي وليس بشيء إذ لا مزية لذكر الله عبده في ملأ على ذكره إياه في نفسه بل الأمر على العكس ويدرك ذوق هٰذا الكلام من ذاق كأس العشق وقوله تعالىٰ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] ليس فيه التشبيه في الجهر بل في إكثار الذكر، ثم أجمع العلماء على أن الذكر سرًا هو الأفضل والجهر بالذكر بدعة إلا في مواضع مخصوصة مَسَّت الحاجة فيها إلى الجهر به كالأذان والإقامة وتكبيرات التشريق وتكبيرات الانتقال في الصلاة للإمام والتسبيح للمقتدي إذا ناب نائبة والتلبية في الحج ونحو ذٰلك، ذكر ابن الهمام في حواشي الهداية أن أبا حنيفة أخذ في تكبيرات التشريق بقول ابن مسعود «أنه كان يكبر من صلاة الفجر يوم عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر» الحديث رواه ابن أبي شيبة والصاحبان أخذًا بقول علي رضي الله عنه أنه كان يكبر بعد الفجر يوم العرفة إلىٰ صلاة العصر من آخر أيام التشريق رواه ابن أبي شيبة، وكذا روى محمد بن الحسن عن أبي حنيفة بسنده عنه، فقال ابن الهمام: من جعل الفتوى على قولهما فقد خالف مقتضى الترجيح فإن الخلاف فيه مع رفع الصوت لا في نفس الذكر، والأصل في الأذكار الإخفاء والجهر بدعة فإذا وقع التعارض في الجهر يرجح الأقل، ويدل على كون ذاكر السر أفضل ومجمعًا عليه من الصحابة من تبعهم قول الحسن إن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوتًا إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأن الله ذكر عبدًا صالحًا ورضي فعله، فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣] وأيضًا يدل على فضل الذكر الخفي حديثُ سعد بن أبي وقاص

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي»[١] رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي في شعب الإيمان، وحديث أبي موسٰى قال: لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أربعوا[٢] على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا»[٣] رواه البغوي، قلت: هذا الحديث وإن كان دالًا على أفضلية الذكر الخفي لكن قوله «اربعوا على أنفسكم» يدل على أن النهي عن الجهر والأمر بالإخفاء إنما هو شفقة لا لعدم جواز الجهر أصلًا وكذا حديث «خير الذكر الخفي».

فصل: اعلم أن الذكر على ثلاثة مراتب: أحدها الجهر ورفع الصوت بها وذٰلك مكروه إجماعًا إلا إذا دعت إليه داعية واقتضته حكمة فحينئذ قد يكون أفضل من الإخفاء كالأذان والتلبية ونحو ذٰلك، ولعل الصوفية الجشتية قدس الله تعالىٰ أسرارهم اختاروا الجهر للمبتدئ لاقتضاء حكمة وهي طرد الشيطان ودفع الغفلة والنسيان وحرارة القلب واشتغال نائرة الحب بالرياضة ومع ذٰلك يشترط لذٰلك الاحتراز عن الرياء والسمعة، ثانيها الذكر باللسان سرًا وهو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»[٤] رواه الترمذي وابن ماجه، وروىٰ أحمد والترمذي قيل: «أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[٥] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ما يقولون عبادي؟ قال: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول هل رأوني؟ قال: فيقولون لا والله ما رأوك، قال: فيقول كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وأكثر لك تسبيحًا، قال: فيقول فما يسألون؟ قالوا: يسألونك الجنة، قال: فيقول وهل رأوها؟ قال: فيقولون لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا وأشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة، قال: فممَ يتعوذون؟ قال: يقولون من النار، قال: فيقول فهل رأوها؟ قال: يقولون لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فاشهدوا أني قد غفرت لهم، قال: يقول

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٧٢، ١٨٠، ١٨٧.

(٢) أربعوا أي أرفقوا واقتصروا.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٣١، والمغازي باب ٣٨، والدعوات باب ٥١، ومسلم في الذكر حديث ٤٤، ٤٥.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٤.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٨٨، ١٩٠.

ملك من الملائكة فيهم فلان ليس بينهم إنما جاء لحاجة قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم»[١] رواه البخاري ومسلم نحوه. ثالثها الذكر بالقلب والروح والنفس وغيرها الذي لا مدخل فيه للسان وهو الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة، أخرج أبو يعلى عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لفضل الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة سبعون ضعفًا إذا كانت يوم القيامة وجمع الله الخلائق لحسابهم وجاءت الحفظة بما حفظوا وكتبوا قال لهم: انظروا هل بقي له من شيء؟ فيقولون: ما تركنا شيئًا مما علمناه وحفظناه إلا وقد أحصيناه وكتبناه فيقول الله تعالىٰ إن له حسناً لا تعلمه وأخبرك به هو الذكر الخفي»[٢].

قلت: وهذا الذكر هو الذي لا انقطاع لها ولا فتور فيها ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالىٰ ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ قيل: المعتدين في الدعاء كمن سأل منازل الأنبياء أو الصعود إلى السماء أو دخول الجنة قبل أن يموت ونحو ذٰلك مما يستحيل عقلًا أو عادة أو يسأل أمورًا لا فائدة فيها معتدًا بها، روى البغوي: بسنده من طريق أبي داود السجستاني عن أبي نعامة أن عبدالله بن مغفل يسمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بُنَيَّ سَلِ الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنه سيكون في هٰذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»[٣] كذا روىٰ ابن ماجه وابن حبان في صحيحه. وروى أبو يعلى في مسنده من حديث سعد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء حسب المرء أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل»[٤] قال أبو يعلى: لا أدري قوله وحسب المرء أن يقول اللهم إلى آخره هو من قول سعد أو من قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقال عطية: هم الذين يدعون على المؤمنين ما لا يحل فيقولون اللهم العنهم اللهم العنهم والبالغ في هذا الاعتداء الروافض الذين يلعنون الصحابة وبعض أهل البيت، وقال ابن جريج: الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح لما مر في حديث أبي موسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم «اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا» قلت: الاعتداء التجاوز عن حدود الشرع فيعم جميع أقسام الاعتداء منها ما ذكر ومنها غير ذٰلك نحو أن يدعو ما فيه ثم أو قطيعة رحم أو يقول دعوت فلم يستجب لي أو يدعو الله بأسماء لم يرد الشرع بها أو يدعو قائلًا أنه يستجاب له.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي والبغي والدعاء إلى غير طاعة الله ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي إصلاح الله سبحانه إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله عز

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٦، والترمذي في الدعوات باب ١٢٩.
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨١.
(٣) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٣، والطهارة باب ٤٥، وابن ماجه في الدعاء باب ١٢.
(٤) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

وجل وبالنهي عن الاعتداء في الدعاء، قال البغوي: هٰذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي، وقال عطية: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم، فعلى هٰذا معنى قوله تعالىٰ بعد إصلاح الله تعالىٰ إياها بالمطر والخصب ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا﴾ أي خائفين من رد الدعاء لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم ﴿وَطَمَعًاۚ﴾ أي طامعين في الإجابة تفضلا وإحسانًا لفرط رحمة ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع وتنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة وإشارة إلى أن رد الدعاء من الكريم الجواد ليس إلا لشؤم أعمالكم وترك إحسانكم، ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنىٰ يستجاب لذلك»[1] رواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة، وروىٰ مسلم والترمذي عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يزال يستجاب العبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم وما لم يستعجل» قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟ قال: «يقول فلم تستجاب لي فيستحسر عند ذٰلك ويدع عند ذٰلك»[2] وروىٰ أحمد عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»[3] وعند الترمذي من حديث أبي هريرة نحوه.

فإن قيل: قد ذكرت أنه لا يجوز لقائل أن يقول يستجاب دعائي البتة وقد ورد في الحديث فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فكيف التوفيق؟ قلت: معنى أنتم موقنون في الإجابة أن الله تعالىٰ جواد كريم لا يتصور منه البخل وليس عدم الإجابة إلا لأجل غفلتكم ومعصيتكم، فالطمع في الإجابة واليقين بها نظر إلى رحمته وجوده تعالىٰ وعدم التيقن بالإجابة وخوف الرد لأجل شؤم أنفسنا فلا منافاة. وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم الثواب فيرجع النعت إلى المعنى أو لأنه صفة محذوف أي أمر قريب أو للإضافة إلى المذكَّرِ أو على التشبيه بالفعيل الذي هو المصدر كالنقيض أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره، قال أبو عمرو بن العلا القريب يكون بمعنى القريب من حيث النسب ومن حيث المسافة فيقول العرب هٰذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة وقريب منك إذا كان بمعنى المسافة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على الوحدة والباقون على الجمع ﴿بُشۡرَۢا﴾ قرأ عاصم بالباء التحتانية الموحدة المضمومة وإسكان الشين حيث وقع وهو تخفيف بُشُر بضم الشين جمع بشير يعني أنها تبشر بالمطر، قال الله تعالىٰ ﴿ٱلرِّيَاحَ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٦٥، والترمذي في تفسير سورة ٢، باب ٣٦، والدارمي في الرقاق باب ٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٩٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٧٧.

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالنون مضمومة وضم الشين جمع نشور حيث وقع بمعنى ناشر، قال: الله تعالىٰ ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ [المرسلات: ٣] وقرأ حمزة والكسائي بالنون مفتوحة وإسكان الشين حيث وقع على أنه مصدر في موضع الحال بمعنى ناشر أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدام نعمته يعني المطر فإن الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الريح من روح الله يأتي بالرحمة والعذاب فإذا رأيتموه فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها»(١) رواه البخاري في الأدب وأبو داود والحاكم وصححه، ورواه البغوي: من طريق الشافعي وعبد الرزاق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي حملت الرياح واشتقاقه من القلة فإن المقل للشيء يستقله ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء جمعه لأن السحاب بمعنى السحائب ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي السحاب أفرد الضمير نظرًا إلى لفظه ﴿لِبَلَدٍ﴾ أي لأجله أو لإحيائه أو لسقيه وقيل: معناه إلى بلد ﴿مَّيِّتٍ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بالتشديد والباقون بالتخفيف والمراد بالميت ما لا نبات فيه ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي بالبلد والباء للسببية أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح والباء للإلصاق ﴿ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح أو بالماء فإذا كان الضمير للبلد فالباء للظرفية وإلا فللسببية ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ﴾ أي كإخراج الثمرات أو كإحياء البلد الميت ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبور ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتستدلون بقدرته تعالىٰ على خلق ما خلق في الدنيا على قدرته على إعادة ما يريد إعادته في الآخرة قال البغوي، قال أبو هريرة وابن عباس: إذا مات الناس كلهم بالنفخة الأولى أرسل الله عليهم مطرًا كمني الرجال من ماء تحت العرش يدعىٰ ماء الحيوان فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقىٰ عليهم نومة فينامون في قبورهم ثم يحشرون بالنفخة الثانية، وهم يجدُونَ طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم فعند ذلك يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: أبيت قالوا أربعون شهرًا؟ قال: أبيت قالوا: أربعون عامًا؟ قال: أبيت، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»(٢) وأخرج ابن أبي داود في البعث هذا الحديث وفيه بين النفختين أربعون عامًا فيمطر الله في تلك الأربعين، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عامًا فينبت منه كل خلق بَلِيَ من

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٩، باب ٣، وسورة ٧٨، باب ١، ومسلم في الفتن حديث ١٤١.

الإنسان أو طير أو دابة ولو مر عليهم مارٌّ قد عرفهم قبل ذٰلك لعرفهم على وجه الأرض فينبتون ثم ترسل الأرواح فتزوج بالأجساد فذٰلك قول الله تعالىٰ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير نحوه قال الحليمي: اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعون سنة، كذا أخرج ابن المبارك عن الحسن مرسلًا.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يعني الأرض الكريمة التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيته وتيسيره وهو في موضع الحال عبر به عن كثرة نباته وحسنه وجلالة نفعه كما يدل عليه ما يقابله فكأنه قال: يخرج نباته حسنًا وافيًا بإذن ربه، وَالبلد ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ يعني الأرض الخبيثة السبخة والحرة أو نحو ذلك ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعًا مستترًا ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ إلا قليلًا لا منفعة فيه، في القاموس النكد بالضم قلة العطاء وبفتح وعطاء منكود قليل، يقال نكد عيشهم كفرح اشتد وعسر والبئر قل ماؤها ونكد زيد حاجة عمر ومنعه إياه وفلانًا منعه ما سأله أو لم يعطه إلا أقله ورجل نكد شؤم عسر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي تصريفًا مثل ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ نرددها ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله وهم المؤمنون لما كانت الآيات السابقة لبيان كمال قدرته تعالىٰ على ما أراد وعموم فيضه ورحمته عقبها بهٰذه الآية لبيان تفاوت الاستعدادات في قبول الفيض من المبدأ الفياض ليظهر أن النقصان إنما هو من جهة المتأثر كما أن نبات الأرض تتفاوت بتفاوت استعداد الأرض مع اتحاد فيضان المطر، كذٰلك تصريف الآيات ونصب الدلائل وبعث الرسل وإن كان رحمة للعالمين عامة لكن الانتفاع بها مختص بالمؤمنين الشاكرين فإنهم لحسن استعداداتهم المستفادة من ظلال اسم الله الهادي يهتدون بها ويتفكرون فيها ويعتبرون بها، روىٰ الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذٰلك رأسًا لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(١).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا ولا تكاد تطلق هذا اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع فإن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهو نوح بن لامك وقيل: لمك بن متشولخ وأمه عونة وقيل: قينوس بنت براليك بن قشولخ، وعند بعضهم متوشخ بن خنوخ، وقيل: أخنوخ وهو إدريس عليه السلام وهو أول نبي خط بالقلم ابن مهليل وقيل: مهلائيل بن قينن، وقيل: قينان، وقيل: قانن بن أنوش

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ٢٠، ومسلم في الفضائل حديث ١٥، وأحمد في المسند ٤/ ٣٩٩.

وقيل: مانيش بن شيث عليه السلام ابن آدم عليه السلام، وفي المستدرك عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كذا روى الطبراني عن أبي ذر مرفوعًا، ومما ذكرنا من سلسلة النسب يظهر أن نوحًا بعد إدريس عليهما السلام كذا ذكر البغوي، واسم نوح سكن لأن الناس سكنوا إليه بعد آدم، وقيل: اسمه شاكر وقيل: يشكر، وذكر السيوطي في الإتقان نقلًا عن المستدرك للحاكم أن اسمه عبد الغفار وأكثر الصحابة على أنه قيل: إدريس، وإنما سمي نوحًا لكثرة نوحه على نفسه وقومه قيل: كان نوحه لهول القيامة، وقيل: إنه رأى كلبًا سيىء المنظر فقال له زنم إقليما أي كلب السوء فأنطقه الله تعالىٰ وقال: العيب مني أو من خالقي فلما سمعه من الكلب أغمي عليه فلما أفاق كثر النوح على نفسه وذكر البغوي: أنه مر بكلب مجذوم فقال: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالىٰ أعبتني أم عبت الكلب، وقيل ناح لدعوته على قومه بالهلاك، وقيل: لمراجعة ربه في شأن ابنه كنعان والله أعلم. بعث الله تعالىٰ نوحًا وهو ابن أربعين سنة كذا قال ابن عباس: في المستدرك عنه مرفوعًا «بعث الله نوحًا وهو ابن أربعين سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا».

وقيل: بعث وهو ابن خمسين سنة وعاش بعد الطوفان أربعمائة وخمسين فجميع عمره ألفًا وأربعمائة وخمسين وقيل: بعث وهو ابن أربعمائة وخمسين أو ستين، كذا في شرح خلاصة السير، وقيل: بعث وهو ابن مائتي وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتي وخمسين سنة وكان عمره ألفًا وأربع مائة وخمسين سنة، وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة، وذكر ابن جرير أن تولد نوح كان بعد وفاة آدم بثمانمائة وستة وعشرين سنة، قلت: فعلىٰ هٰذا وفاة نوح من بدو خلق آدم بعد ألفين وثمانمائة وست وخمسين سنة لما في الحديث أن آدم عمره ألف سنة إلا أربعين عامًا التي وهبها لابنه داود عليهم السلام كما سيذكر في حديث في قصة إخراج ذرية آدم من صلبه، وفي تهذيب النووي أنه أطول الأنبياء عمراً ﴿فَقَالَ﴾ نوح لقومه ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي بخفض غيره حملًا على لفظ الإلٰه إذا كان قبله جارة حيث وقع ووافقها حمزة في سورة فاطر هل ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ والباقون بالرفع حملًا على المحل كأنه قيل: ما لكم إله غيره فلا تعبدوا معه غيره ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن لم تعبدوا الله وحده ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي يوم القيامة أو يوم الطوفان ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ أي الأشراف فإنهم يجتمعون على رأي فيملأون العيون رواء والنفوس جلالة ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي زوال عن الحق ﴿مُّبِينٖ﴾ بيّن.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ لم يقل ضلال حتى يكون أبلغ في نفي الضلال عن نفسه أي ليس في شيء من الضلال، وبالغ في النفي لما بالغوا في الإثبات وعرض لهم به يعني بل أنتم في ضلال عن الحق ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استدراك لتأكيد نفي الضلال لأن كونه رسولًا من الله مبلغًا لرسالاته في معنى كونه على أقصى الغايات من الهدى والصراط

المستقيم ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو بالتخفيف من الإبلاغ والباقون بالتشديد من التبليغ حيث كان ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ جمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواعظ والأحكام أو لأن المراد بها ما أوحي إليه وإلى الأنبياء كصحف شيث وإدريس عليهم السلام، قوله أبلغكم كلام مستأنف لبيان كونه رسولًا من الله ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح وخير لصاحبه، قال البغوي: أن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه وهو متعدي بنفسه وباللام لكن في زيادة اللام دلالة على إمحاض النصح لهم ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ذاته وقدرته على الثواب والعذاب وهذه بطشة بحيث لا يطاق من أحد رده أو من جهته بالوحي ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أشياء لا علم لكم بها ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف يعني أكذبتموني وعجبتم من ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس: موعظة، وقيل: بيان وقيل: رسالة ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ أي منزلًا على رجل ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من جملتكم أو من جنسكم فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال الله تعالىٰ البشر ويقولون ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي ليخوفكم عاقبة الكفر والمعاصي ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ من عذاب الله الموعود على الكفر والمعاصي بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتقوى أورد حرف الترجي للدلالة على أن التقوى غير موجب للترحم بل الترحم من الله تفضل وأن المتقي لا ينبغي أن يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله، أخرج أبو نعيم عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالىٰ أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عند الحساب يوم القيامة أشاء أن أعذبه إلا عذبته قل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديكم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني نوحًا من الطوفان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وهم أربعون رجلًا وأربعون امرأة، وقيل: ثمانية وقيل: عشرة وقيل: اثنان وسبعون وقيل: ثلاثة بنيه سام وحام ويافث وثلاث أزواجهم وقيل: ثلاثة أبنائه وستة من آمن به ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ متعلق بمعه أو بأنجينا أو حال من الموصول أو الضمير في معه ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي كفارًا عميت قلوبهم عن معرفة الله وعن إدراك الحق حقًا والباطل باطلًا أصله عميين فخفف.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ قبيلة وهم عاد بن عوص بن أدم بن سام بن نوح وهو عاد الأولىٰ ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب لا في الدين عطف على نوحًا إلى قومه ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم وهو هود بن عبدالله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص المذكور، وقال ابن إسحاق: هو ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، قال الشيخ أبو بكر في شرح خلاصة السير: إن هودًا عليه السلام اسمه عابر بفتح الباء الموحدة وقيل: بكسرها على وزن ناصر وقيل: عيبر بالعين المفتوحة والياء التحتانية المثناة الساكنة والباء الموحدة المفتوحة، وقيل: بالغين المعجمة بدل المهملة ابن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام كذا في جميع التواريخ والأنساب إلا ما شذ عن بعض أن هودًا هو هود بن خالد بن الخلود بن العيص بن

العمليق بن عاد بن عوض بن أرم بن سام والله أعلم وأم هود مكعبة بنت عويلم بن سام بن نوح، وكان نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم ساطعًا في جبين هود فلما رأوا ذلك النور في جبينه قالوا إن هٰذا رجل تعبد الله تعالىٰ وحده وتكسر الأصنام وعظموه ولم يكن بعده نبي مائة سنة إلى زمان صالح عليه السلام وكان ذٰلك الزمان ملوك وأقوام يعبدون الأصنام وبعضهم يعبدون الشمس وآخرون يعبدون النار إلى أن بعث الله صالحًا عليه السلام إلى ثمود. وكان هود على شريعة نوح عليهما السلام وبلغ من العمر أربعمائة سنة وقيل: أربعمائة وستين سنة، وفي التاريخ الشامي أنه قال ابن حبيب: إنه عاش مائة وأربعًا وثلاثين سنة، وقال الكلبي: أربعمائة وثلاثًا وستين وأمه مرجانة وكانت من الطاهرات وقبره بحضرموت وقيل: بمكة انتهى كلام الشيخ أبي بكر. قال البغوي: روي عن علي أن قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر، وقال عبد الرحمن بن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيًا وأن قبر هود وصالح وشعيب في تلك البقعة، ويروى أن نبيًّا من الأنبياء إذا هلك قومه جاء هو والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله فيها حتى يموتوا والمراد بالأخ على ما ذكر ابن إسحٰق في نسب هود، وذكر الشيخ أبو بكر واحدًا من جنسهم وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استأنف به ولم يعطف كما في قصة نوح حيث قال: فقال كأنه جواب سائل قال: فما قال لهم حين أرسل وكذلك جوابهم ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وكان قومه أقرب من قوم نوح ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وصف الملأ بالذين كفروا للتقييد فإن من أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي خفة عقل حيث تهجر دين قومك وتدعي أمرًا مستحيلًا يعني رسالة الله تعالىٰ جعلت السفاهة ظرفًا مجازًا يعني أنك متمكن فيها غير منفك عنها ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في إدعائك الرسالة ﴿قَالَ﴾ هود ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على الرسالة ذكر ههنا صيغة اسم الفاعل لقولهم إنا لنظنك من الكاذبين ليقابل الاسمية الاسمية، قال الكلبي: معناه كنت فيكم قبل اليوم أمينًا فلا وجه لكم لسوء الظن فيَّ بالكذب، وفي إجابة الأنبياء الكفرة عن كلماتهم المسبّة بالحلم وحسن الأدب والإعراض عن مقابلتهم بمثل ما قالوا مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة وجذب القلوب إلى الهداية وأخبار الله تعالىٰ ذٰلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء أكذبتموني.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ من ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ﴾ إهلاك ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ في الأرض ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي طولًا وقوة، قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير منهم سبعون ذراعًا، وقال أبو حمزة اليماني: سبعون ذراعًا وعن ابن عباس ثمانون ذراعًا، وقال مقاتل: كان

طول كل رجل اثنا عشر ذراعًا، قال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل ليفرخ فيه الضباع وكذلك مناخرهم ﴿فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي نعمه واحدها إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي يفضي بكم ذكر النعمة شكرها المؤدي إلى الفلاح.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام ومعنى المجيء أما المجيء من مكان اعتزل من قومه أو من السماء على التهكم أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبني ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب المدلول عليه في قوله أفلا تتقون أو يكون مذكورًا صريحًا في كلامه عليه السلام ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه قال هود ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ أي قد وجب أو حق عليكم أو نزل عليكم على أن المتوقع المعلوم كالواقع ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ أي عذاب مشتق من الارتجاس وهو الاضطراب، وقيل: السين مبدلة من الزاء، وفي الصحاح رجس ورجز الصوت الشديد، ﴿وَغَضَبٌ﴾ أي إرادة انتقام ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ أي أشياء مسميات ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ آلهة يعني الأصنام أو يقال في أسماء سميتموها لا حقيقة لها، وليس تحتها مسميات، كما تقول الفلاسفة بالعقول العشرة وأهل الهند ديبي وبهواني ونحو ذٰلك يزعمون الأصنام حاكية عنها أو يزعمونها حالة الأصنام ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بدل من الضمير المرفوع في سميتموها ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ من حجة وبرهان تدل على أنها آلهة أو مستحقة للعبادة، ومبنى هذا القول إنهم كانوا يعتقدون لوجود الله سبحانه وكونه خالقًا للسمٰوات والأرض، وكانوا يزعمون الأصنام شركاء لله في الألوهية والخالقية أو في استحقاق العبادة لكونها شفعاء عند الله، فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا الذي تزعمون أمره دليل عليه إنما هو من مخترعاتكم أو مخترعات آبائكم الجهال ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب الذي وعدتكم وتطلبونه ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ كذٰلك ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني هودًا من العذاب الذي نزل بقومه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الدين يعني المؤمنين به ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ عليهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدابر الأصل أو الكائن خلف الشيء وقطع الدابر عبادة عن الاستئصال وإهلاك كلهم بحيث لا يبقى منهم أحد ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ تعريض بمن آمن منهم وتنبيه على أن الفارق بين من نجا ومن هلك هو الإيمان وقصة عاد على ما ذكر محمد بن إسحٰق وغيرهم أنهم كانوا ينزلون اليمن وكانت مساكنهم بالأحقاف وهي رمال بين عمان وحضرموت وكانوا قد أفسدوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله عز وجل وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها يقال لها صدا وسمود والهبا، فبعث الله تعالىٰ إليهم هودًا عليه السلام نبيًا وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم حسبًا فأمرهم أن يوحدوا الله ويكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذٰلك فكذبوه وقالوا من أشد منا قوة بنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين، فلما فعلوا ذٰلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذٰلك وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وطلبوا منه الفرج أنابوا إلى الله عز وجل عند بيته الحرام بمكة مسلمهم ومشركهم فيجتمع بمكة ناس كثير مختلفة الأديان كلهم معظمين لمكة وأهل مكة يومئذ العماليق أبناء عمليق بن

لاود بن سام بن نوح وكان سيدهم معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخير رجل من عاد، فلما قحط المطر عن عاد وجهدوا قالوا جهزوا وفداً منكم إلىٰ مكة فليستقر لكم، فبعثوا له قيل بن عنز ويقيم بن هزال بن هزيل وعتيل بن ضد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلمًا يكتم إسلامه وجثيمة بن الجيثر خال معاوية بن بكر ثم بعثوا لقمان بن عاد الأصغر بن هاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلًا، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر ويغنيهم الجرادتان[١] قينتا لمعاوية بن بكر فكان مسيرهم شهرًا ومقامهم شهرًا، فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوثون بهم من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال: هلك أخوالي وأصهاري وهٰؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي والله ما أدري كيف أصنع بهم أستحيي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه فيظنون أني ضيق من مقامهم وقد هلك من ورائهم من قومهم جهدًا وعطشًا، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينته[٢] الجرادتين فقالتا قل شعرًا نغنيهم لا يدرون من قاله لعل ذلك يحركهم، فقال معاوية بن بكر شعراً[٣]:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا ما يبيتون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم غياما[٤]
وإن الوحش يأتيهم جهارا ... ولا يخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلام

فلما غنتهم الجرادتان بهذا، قال بعضهم لبعض يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال مرثد بن مسعود بن عفير: وكان قد آمن بهود عليه السلام سرًا أنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم فأظهر إسلامه عند ذٰلك فقال شعر[٥]:

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشاً ما يبلهم السماء

(١) في النهاية الجرادتان هما مغنيتان كانتا بمكة في الزمن الأول مشهورتان بحسن الصوت والغناء.
(٢) القينة المغنية.
(٣) الأبيات من الوافر، والبيت الأول بلا نسبة في كتاب العين ٤/ ٦٠.
(٤) الغيمة شدة العطش.
(٥) الأبيات من الوافر والبيت الأول ليزيد بن سعد في تاج العروس (حمد).

لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد فأبصرنا الهدى وجلى العماء
وإن إلٰه هود هو إلٰهي على الله التوكل والرجاء

فقالوا لمعاوية بن بكر: احبس عنا مرثد بن سعد فلا يقدمن معنا مكة، وخرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعو الله فيجابوا بشرّ مما خرجوا له، فلما انتهى إليهم قام يدعو الله ووفد عاد يدعون، فقال اللهم أعطني سؤالي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفد عاد وكان قيل بن عنز رأس وفد عاد فقال وفد عاد: اللهم أعط قيلًا ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤله، وقد كان تخلف عن وفد عاد حين دعوا لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال: اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي وسأل الله طول العمر فعمر عمر سبعة أنس، وقال: قيل بن عنز حين دعا يا إلٰهنا إن كان هود صادقًا فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السحاب يا قيل اختر لنفسك وقومك من هذا السحائب، فقال قيل: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادًا رمدًا لا يبقى من آل عاد أحد، وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا، و﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] يقول الله عز وجل ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥] أي كل شيء مرت به، وكان من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدر فلما تبينت ما فيها صاحت ثم ضعفت فلما أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قالت رأيت ريحًا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخر الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك، واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة[١] ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما يلين عليه الجلود وتلتذ الأنفس وإنها لتمر من عاد بالظعن[٢] فتحملهم بين السماء والأرض فتدمغهم بالحجارة، وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذا أقبل رجل على ناقته في ليلة مقمرة هي ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر، فقالوا له: فأين فارقت هود وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به، فقالت هرملة بنت بكر: صدق ورب مكة وذكروا أن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل: لهم قد أعطيتم مُناكم فاختاروا لأنفسكم إلا أنه لا سبيل إلى الخلود ولا بد من الموت، فقال مرثد: اللهم أعطني صدقًا وبرًا فأعطي ذٰلك، وقال لقمان: أعطني يا رب عمرًا فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسُرٍ وكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضة فيأخذ الذكر منها لقوته حتى إذا مات أخذ غيره

(١) حظيرة الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الغنم والإبل يقيها البرد والحرّ.
(٢) الظعينة الراحلة التي ترحل ويقال للهودج وللمرأة.

فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان آخرها لُبَدٌ فلما مات لُبدٌ مات لقمان معه، وأما قيل: فإنه قال: أختار إن لقني ما أصاب قومي فقيل له: إنه الهلاك فقال: لا أبالي لا حاجة في البقاء بعدهم فأصابه الذي أصاب عاداً من البلاء والعذاب فهلك، قال السدي: فبعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطيرهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادر والبيوت فدخلوها وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح فقلعت أبوابهم فدخلت عليهم فأهلكتهم فيها ثم أخرجتهم عن البيوت فلما أهلكهم الله أرسل عليهم طيرًا سوداء فحملتهم إلى البحر فألقتهم فيه وروي أن الله تعالىٰ أمر الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم ورمت بهم في البحر ولم يخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم
بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ
ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ
بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى
مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ

عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب أبناء ثمود بن عاثر بن أرم بن سام، قال أبو عمرو بن العلا: سميت ثمود لقلة مائها وثمد الماء القليل وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿صَٰلِحًا﴾ عليه السلام عطف بيان وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح وقيل ابن رباح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ حجة ظاهرة الدلالة على صدقي لكونها معجزة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كأنه قيل: ما تلك البينة؟ فقال: استئنافاً ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها إليه تعالىٰ لتعظيمها ولأنها جاءت في الوجود من الله تعالىٰ بلا وسائط الأسباب المعهودة، ولذلك كانت آية مبتدأ أو خبر وجاز أن يكون ناقة الله بدلًا أو عطف بيان والخبر ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة على تقدير كون ناقة الله خبرًا وعلى التقدير الثاني لكم عامل فيه ﴿فَذَرُوهَا﴾ يعني الناقة ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب(1) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في النهي وإزاحة للعذر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ أسكنكم الله تعالىٰ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض حجر ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا﴾ أي تبنون في سهول الأرض أو سهولة الأرض بما تعملون منها كاللبن والآجر ﴿قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾ أي تثقبون في الجبال وتجعلونها ﴿بُيُوتًا﴾ كانوا يسكنون في الصيف في بيوت الطين وفي الشتاء في بيوت الجبال المنقورة، فانتصاب بيوتًا على المفعولية لتضمين تنحتون معنى تجعلون، وجاز أن يكون منصوبًا على الحال المقدرة كما في قوله خطت هذا الثوب قميصًا، فإن الجبل لا يكون بيتًا حال النحت ولا الثوب قميصًا حال الخياطة.

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ العثو أشد الفساد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ قرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو والباقون بلا واو ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يعني الأشراف والقادة الذين يتعظمون عن الإيمان بصالح عليه السلام ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يعني الأتباع الذين استضعفوهم ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بدل الكل إن كان الضمير لقومه وبدل البعض إن كان للذين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قالوه استهزاء

(1) العشب: الكلأ الرطب ـ ١٢ ـ.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني المؤمنين المستضعفين ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ عدلوا عن قولهم نعم للإشعار بأن كونه مرسلًا ليس مما يشك فيه عاقل أو يخفى على ذي رأي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ على المقابلة ووضعوا آمنتم به موضع أرسل به ردًا لما جعلوا معلومًا مُسَلَّمًا ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي نحروها، قال الأزهري: العقر هو قطع عرقوب[١] البعير ثم جعل النحر عقرًا لأن الناد من البعير يعقر ثم ينحر، وفي القاموس العقر الجرح وأثر في قوائم الفرس والإبل، وفي الصحاح عقر الدار والحوض أصلها ومنه عقرت النخل قطعته من أصلها وعقرت البعير نحرته، أسند العقر إلىٰ جميعهم وإن كان العاقر قذار بن سالف لأنه كان برضاهم وقد كان قذار أحمر أزرق قصيرًا كما كان فرعون كذٰلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: «أشقى الأولين عاقر ناقة صالح وأشقى الآخرين قاتلك»[٢] ﴿وَعَتَوۡاْ﴾ العتو الغلو في الباطل يقال عتى يعتو عتوًا إذا استكبر، في القاموس عتوًا وعُتيًا وعِتيًا استكبر، وجاوز الحد والمعنى استكبر ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أي عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح عليه السلام بقوله فذروها ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي زلزلة الأرض وحركتها وأهلكوا بالصيحة والرجفة ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ قيل: أراد الدنيا وقيل: أراد أرضهم وبلدتهم ولذٰلك وحّد الدار ﴿جَٰثِمِينَ﴾ خامدين ميتين، في القاموس جثم الطائر والإنسان لزم مكانه فلم يبرح، وقيل: معناه ميتين قعودًا يقال الناس جثم أي قعود لا حراكة بهم ولا يتكلمون، قيل: سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾ صالح ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فإن قيل: كيف خاطبهم بقوله أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم بعدما أهلكوا بالرجفة؟ قيل: كما خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قتلى بدر بعد ما ألقوا في القليب. روىٰ الشيخان في الصحيحين عن أبي طلحة أنه قال: لما كان من يوم بدر الثالث أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم براحلة فشد عليها رحلها ثم مشى ومعه أصحابه وقالوا ما نرى لينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفير القليب فجعل يناديهم يا أبا جهل بن هشام ويا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة أيسرّكم أنكم أطعتم الله ورسوله هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقًا فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا؟ بئس عشيرة التي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس فجزاكم الله عني من إصابة شر أخوفتموني أمينًا وكذبتموني صادقًا»، فقال عمر: يا رسول الله أتناديهم بعد ثلاث كيف تكلم أجسادًا لا روح فيها؟ فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إنهم الآن

(١) هو الوتر الذي خلف الكعبين من مفصل القدم والساق من ذوات الأربع وهي من الإنسان موضع العقب.
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ٢٥ (طبعة دار الكتب العلمية).

يسمعون ما أقول لهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علينا شيئًا»[١] وقيل: خاطبهم ليكون عبرة لمن خلفهم، وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها فتولى عنهم فقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي الآية فأخذتهم الرجفة وكانت قصة ثمود علىٰ ما ذكره محمد بن إسحاق: ووهب وغيرهما كذا أخرج ابن جرير والحاكم من طريق حجاج عن أبي بكر بن عبدالله عن شهر بن حوشب عن عمرو بن خارجة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن عادًا لما أهلكت عَمَّرت ثمود بلادهم وخلفوهم وكثروا وعُمّروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حيّ فلما رأوا ذٰلك اتخذوا من الجبال بيوتًا وكانوا في سعة من معاشهم فعتوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله فبعث الله إليهم صالحًا وكانوا قومًا عربًا وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسبًا وموضعًا فبعثه الله إليهم غلامًا شابًا فدعاهم إلى الله عز وجل حتى شمط[٢] لا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقًا لما تقول فقال لهم: أي آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا غدًا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلٰهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا تتبعنا فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن جواس وهو يومئذ سيد ثمود يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرةٍ منفردةٍ في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء ـ والمخترجة ما شاكلت البخت من الإبل ـ فإن فعلت صدقناك وآمنا بك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنني ولتؤمنن بي قالوا نعم فصلى صالح ركعتين دعا ربه، فتمخضت[٣] الصخرة تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالىٰ وهم ينظرون ثم نتجت ولدًا مثلها في العِظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا ويصدقوه فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صيمعر وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة مع ولدها في أرض ثمود ترعى الشجرة وتشرب الماء وكانت ترد الماء غبًا، فإذا كان يومها وضعت الناقة رأسها في بئر في جحر يقال لها بئر الناقة فلا ترفع رأسها حتى تشرب كل ماء فيها فلا تدع قطرة ثم تتفجح[٤] فيحلبون ما شاؤوا من لبن فيشربون ويدخرون حتى تملأ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٨، ومسلم في الجنة حديث ٧٦، ٧٧.

(٢) الشمط: الشيب.

(٣) تمخضت: أي أخذها المخاض، وهو الطلق عند الولادة.

(٤) تتفجح: أي تتباعد فخذيها، والفجح: تباعد ما بين الفخذين.

أوانيهم كلها ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر أن تصدر من حيث ترد تضيق عنها، حتى إذا كان الغد كان يومهم فيشربون ما شاؤوا من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة فهم من ذلك، وكانت الناقة تصيف إذا كانت الحر بظهر الوادي فتهرب منها المواشي أغنامهم وبقورهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادي في حرة وجد به وتشتد ببطن الوادي إذا كان الشتاء فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذٰلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود إحداهما يقال لها عنيزة بنت غنم بن مجلذ تكنى أم غنم وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزة مسنة وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم، وامرأة أخرى يقال لها صدوف بنت المختار وكانت جميلة ذات مواش كثيرة وكانتا أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرتهما من مواشيهما فحملتا في عقر الناقة، فدعت صدوف رجلًا من ثمود يقال له الحباب قالت له اعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المختار وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالًا فأجابها إلى ذٰلك، ودعت عنيزة بنت غنم قذار بن سالف وكان رجلًا أحمر أزرق قصيرًا يزعمون أنه كان لزينة وأنه لم يكن لسالف لكنه ولد على فراشه، فقالت: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة وكان قذار عزيزًا منيعًا في قومه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير قوله تعالىٰ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] انبعث رجل عزيز عازم منيع في قومه مثل أبي زمعة رواه البخاري من حديث عبدالله بن زمعة فانطلق قذار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستتبعوا بأعوان ثمود فأتبعهم سبعة نفر وكانوا تسعة رهط فانطلق قذار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قذار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في طريق آخر فمرت على مصدع فرمى بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فأسفرت لقذار ثم زمرته فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فحزت ورغت واحدة تحذر ولدها ثم طعن في لبتها فنحرها، وخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه فلما رأى ولدها ذلك انطلق حتى أتى جبلًا منيعًا يقال له صور وقيل اسمه فازه فأتى صالح، وقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا، فقال صالح: انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوا على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالىٰ الجبل فتطاول في السماء حتى ما يناله الطير، وجاء صالح فلما رآه الفصيل بكىٰ حتى سالت دموعه ثم رغى ثلاثاً وانفجرت الصخرة فدخلتها، فقال صالح: لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذٰلك وعد غير مكذوب. قال ابن إسحاق: اتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه ذأب بن مهرج فرماه مصدع

بسهم فالتقم قلبه ثم جره برجله فأنزلوه فألقوا لحمه مع لحم أمه، فقال لهم صالح انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته، قالوا: وهم يستهزئون به ومتى ذلك يا صالح؟ وما آية ذٰلك؟ وكانوا يسمون الأيام فيهم الأحد الأول والاثنين العون والثلاثاء دبار والأربعاء حبار والخميس مونس والجمعة العروبة والسبت شيار، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين قالوا ذٰلك تصبحون غداة يوم المونس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شيار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحًا فإن كان صادقًا عجلناه قتلاً وإن كان كاذبًا قد كنا ألحقناه بناقته فأتوه ليلًا ليبيتوه في أهله فدفعتهم الملائكة بالحجارة. فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم لا تقتلونه أبدًا فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقًا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبًا وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون فانفرقوا عنهم ليلتهم، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوف صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم وأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن قد صدقهم فطلبوا ليقتلوه وخرج صالح هاربًا منهم حتى جاء إلى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له نُفيل ويكنى بأبي هدُب وهو مشرك فغيَّبه ولم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له ميدع بن هرم يا نبي الله إنهم ليعذبوننا لندلهم عليك أفندلّهم قال: نعم قل عندي صالح وليس لكم عليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغله عنه ما أنزل الله بهم من عذابه فجعل بعضهم يخبر بعضًا بما يرون في وجوههم.

فلما أمسوا صاموا بأجمعهم ألا وقد مضى من الأجل يوم فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء فصاحوا وبكوا إنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا وقد مضٰى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعًا ألا وقد حضركم العذاب، فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم إلى الأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وأتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك إلا جارية مقعدة يقال لها ذريقة بنت سلف، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فانطلق الله رجليها بعدما عاينت العذاب فخرجت كأسرع ما يرى شيء قط حتى أتت فرخ وهو وادي القرٰى فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصابت ثم استسقت من الماء فسقيت فلما أشربت ماتت وذكر السدي في عقر الناقة قال: فأوحى الله

تعالىٰ إلى صالح أن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك فقالوا: ما كنا لنفعل فقال صالح: إنه يولد في شهركم هذا غلام فسيعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا: لا يولد لنا ولد في هذا الشهر إلا قتلناه، فولد عشرة قتلوا منها تسعة وبقي واحد أزرق أحمر فنبت نباتًا سريعًا، فكان إذا مر بآباء التسعة ورأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا، فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، قالوا نخرج فيرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم رجعنا إلى الغار وكنا فيه ثم انصرفنا إلى رحالنا فقلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا ويظنون أنا قد خرجنا إلىٰ سفر، وكان صالح لا ينام معهم في القرية كان يبيت في مسجد يقال له مسجد صالح فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكرهم فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فانطلقوا فدخلوا الغار فسقط عليهم فقتلهم قال الله تعالىٰ ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل: ٥٠] فانطلق ممن قد اطلع علىٰ ذلك منهم فإذا هم رضخ فرجعوا يصيحون في القرية أي عباد الله أما رضي صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على قتل الناقة.

وقال ابن إسحٰق: إنما تقاسم التسعة على تبيت صالح بعد عقرهم الناقة كما ذكرنا، قال السدي وغيره: فلما ولد ابن العاشر يعني قذار شب في اليوم شباب غيره في الجمعة وشب في الشهر شباب غيره في السنة فلما كبر جلس مع الناس يصيبون من الشراب فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذٰلك عليهم وقالوا ما نفعل باللبن لو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيرًا لنا فقال ابن العاشر هل لكم في أن أعقرها لكم قالوا: نعم فعقرها. روى البخاري في الصحيح من حديث عبدالله بن دينار عن ابن عمه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يسقوا منها فقالوا: قد عجنا واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذٰلك العجين، ويهريقوا ذٰلك الماء» قال البغوي: وقال نافع عن ابن عمر: فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يسقوا من البئر التي كانت تردها الناقة، قال: وروىٰ أبو الزبير عن جابر قال: لما مر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: لا يدخلن أحد منكم هٰذه القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا علىٰ هٰؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خائفين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم ثم قال: أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات هٰؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم وردها فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأهلك الله سبحانه من تحت أديم السماء من مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلًا واحدًا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه الحرام من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم قبر أبي رغال فنزل

القوم فابتدروا بأسيافهم وحفروا عنه فاستخرجوا ذلك الغصن، وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت فلما دخلها مات صالح فسمى حضرموت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال له حاصور وقال قوم من أهل العلم: توفي صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة.

﴿وَلُوطًا﴾ يعني وأرسلنا لوطًا وهو لوط بن هارمن بن تارخ ابن أخي إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي وقت قوله ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم، وقيل: معناه واذكر لوطًا وعلى هذا إذ بدل منه ﴿أَتَأْتُونَ﴾ إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني إتيان الرجال في أدبارهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ بتلك الفعلة الباء للتعدية ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من زائدة لتأكيد النفي والاستغراق ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من للتبعيض والجملة استئناف مقرر للإنكار أو حال من الفاحشة كأنه وبخهم أولا بإتيان الفاحشة ثم ما اختراعها فإنه أسوء، قال عمرو بن دينار، ما يرى ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان من قوم لوط عليه السلام ﴿إِنَّكُمْ﴾ قرأ نافع وحفص بهمزة واحدة مكسورة على الخبر على الاستئناف، والباقون بهمزتين على الاستفهام بيان لقوله أتأتون الفاحشة وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أتجامعونهم في أدبارهم يقال أتى المرأة إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾ منصوب على العلية أي للشهرة لا حامل لكم على ذلك إلا لمجرد الشهوة من غير حكمة، أو مصدر في موقع الحال يعني لشهوتهم شهوة ردية غير مفيدة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي من غير النساء يعني لا تأتونهن مع ما فيه من الحكمة من انتفاء الولد وبقاء النوع ولا ذم أعظم منه لأنه وصف لهم بالبهيمة الصرفة، قلت: ومن هذه الآية ثبت حرمة إتيان النساء في أدبارهن بدلالة النص لأنه مثل إتيان الرجال خبيثة غير مفيد أصلًا وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢] الآية وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم الذي يوجب ارتكاب أمثال تلك القبائح يعني أنتم عادتكم الإسراف والتجاوز عن الحدود المعقولة والمشروعة في الشيء حتى تجاوزتم في النكاح عن المعتاد المفيد إلى غير المعتاد الذي لا خير فيه أصلًا، أو إضراب عن الإنكار في ما ذكر إلى الذم على جميع أوصافهم أو عن محذوف تقديره لا عذر لكم بل أنتم قوم عادتكم الإسراف.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي ما جاؤوا بما يصلح جوابًا عن كلام ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ استثناء منقطع يعني لكنهم قابلوا النصيحة بقول بعضهم لبعض ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ يعني لوطًا ومن معه من المؤمنين ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من الفواحش قالوا ذلك استهزاء ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ يعني أتباعه من المؤمنين وقيل ابنتاه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ وأهله استثناء من الأهل فإنها كانت منافقة تستر الكفر ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا، وقيل: معناه كانت من الباقين في العذاب، وقيل: معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل قبل ذلك فهلكت مع من هلك من قوم لوط والتذكير لتغليب الذكور

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على قوم لوط ﴿مَّطَرًا﴾ أي نوعًا من المطر عجيبًا يعني حجارة من سجيل مسومة، قال وهب: الكبريت والنار، قال أبو عبيدة يقال في العذاب أمطر وفي الرحمة مطر ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين روي أن لوطًا لما هاجر مع عمه إبراهيم عليهما السلام من الأرض بابل إلى الشام نزل بالأردن فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوا من الفاحشة فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا أخرجه إسحٰق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس نحوه، وقيل: خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم، قال محمد بن إسحٰق: كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم إبليس في صورة فقال إن فعلتم بهم كذا نجوتم فأبوا فلما ألح أي لزم الناس إياهم الح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانًا صبياناً فأخبثوا فاستحكم ذٰلك فيهم، قال الحسن كانوا لا يناكحون إلا الغرباء، قال الكلبي: إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فتمثل لهم إبليس في صورة شاب ثم دعا إلى دبره فنكح في دبره فأمر الله السماء أن تحصبهم وأمر الأرض تخسف بهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ يعني وأرسلنا إلى أولاد مدين بن إبراهيم خليل الرحمن، قال البغوي: هم أصحاب الأيكة ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ قال عطاء: هو شعيب بن توبة بن إبراهيم خليل الرحمٰن وقال ابن إسحٰق: هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام وله ميكيل بنت لوط عليه السلام، قيل: هو شعيب بن يثرون بن نوس بن مدين، وكان شعيب عليه السلام أعمٰى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان، أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكر شعيبًا يقول: «ذٰلك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني معجزة كانت لشعيب عليه السلام ولم يذكر في القرآن ما هي، وقيل: أراد بالبينة مجيء شعيب عليه السلام بالحكمة والموعظة وفصل الخطاب ﴿فَأَوْفُوا﴾ يعني أتموا ﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ مصدر بمعنى الوزن كالميعاد بمعنى الوعد أو المضاف محذوف يعني وزن الميزان أو المراد بالكيل آلة الكيل على الإضمار أو أطلق الكيل على المكيال كالعيش على المعاش ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم حقوقهم البخس يتعدى إلى مفعولين وهما الناس وأشياءهم يقال بخست زيدًا حقه أي نقصته إياه، وإنما قال: أشياءهم للتعميم تنبيهًا على أنهم كان يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير، وقيل: كانوا مكاسين لا يدعون شيئًا إلا مكسوه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ يعني بعدما بعث الله نبيًا يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، والإضافة إلى مكر الليل والنهار ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت لكم وأمرتكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما كنتم عليه من الظلم والبخس فإن ذلك وإن كان فيه نوع منفعة في الدنيا لكنه يجلب مضرة عظيمة في الدارين وما أمرتكم

فيه صلاح الدنيا والآخرة جميعًا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي فافعلوا ما أمرتكم وكانوا يعلمون أن شعيبًا عليه السلام يكذب قط قبل كانوا يجلسون على الطريق فمن جاء إلىٰ شعيب عليه السلام ليؤمن به منعوه وقالوا إن شعيبًا كذاب فلا يفتنك عن دينك كانوا يتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم، كذا أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه، فقال الله تعالىٰ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ مع ما عطف عليه في موضع الحال من فاعل تقعدوا ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الإيمان بالله ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بالله تعالىٰ تنازع فيه الفعلان في المفعولية توعدون وتصدون فأعمل الثاني ولذا لم يقل وتصدونهم ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ أي تطلبون سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ بإلقاء الشبه أو وصفها للناس بأنها معوجة، وقيل: معنى قوله تعالىٰ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي بكل طريق من طرق الدين كالشيطان وسبيل الحق وإن كان واحدًا لكنه تنشعب إلى معارف وحدود وأحكام وكانوا إذا رأوا واحدًا يسعى في شيء منها وعدوه بالقتل والتعذيب وعلىٰ هذا ففي قوله تعالىٰ ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير بيانًا لكل صراط ودلالة على عظيم ما يصدون عنه وتقبيحًا لما كانوا عليه، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عددكم أو عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ الله بالبركة في النسل والمال ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم قبلكم قوم لوط وغيرهم فاعتبروا بهم.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ به ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أي فتربصوا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بنصر المحقين على المبطلين فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا معقب لحكمه ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي والله ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر وشعيب لم تكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر لكن غلبوا الجماعة الذين آمنوا معه عليه مخاطبة مع قومه بخطابهم وعلى ذلك أجرى الجواب، وقيل: معناه أو لتدخلن في ملتنا وعاد بمعنى صار ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ الهمزة للإنكار والواو للحال بل للعطف على محذوف والجملة في موضع الحال تقديره أتعيدوننا في ملتكم لو كنا طائعين ولو كنا كارهين، فحذف أحد المعطوفين اللذين هما حالان من فاعل كنا وعلق الحكم بأبعد النقيضين ليدل على عدم الحكم ثم قال شعيب ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا﴾ أي اختلقنا ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بإثبات الشريك له تعالىٰ ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ شرط حذف جوابه بدليل ما سبق، وكلمة افترينا ماض بمعنى المستقبل جعل كأنه الواقع للمبالغة وأدخل عليه قد لتقربه من الحال أي قد افترينا الحال إن أردنا العود بعدما أنقذنا الله تعالىٰ وبيّن لنا أن ما كنا عليه كان باطلًا وما صرنا عليه حق، وقيل: إنه جواب قسم بحذف اللام تقديره والله لقد افترينا ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي ما يثبت لنا أبدًا ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ بيان عزم على الاستقامة على الإسلام والاجتناب عن الكفر، ولما كان في الكلام شائبة تزكية النفس وعدم خوف ما يؤول إليه الأمر، قال: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ خذلاننا

وارتدادنا ويكون سبق في مشيئة ذٰلك وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله وقيل: أراد به حَسمُ طمعهم في العود بالتعليق بما لا يكون ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو يعلم ما يؤول إليه أمر عباده من الإيمان إلى الكفر أو من الكفر إلى الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي لا إلٰه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد اليقين، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء»(٢) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»(٣) رواه مسلم.

ثم دعا عليهم شعيب عليه السلام بعدما أيس من فلاحهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ أي احكم من الفتاحة بمعنى الحكم والفتاح القاضي يفتح الأمر المتعلق أو المعنى أظهر الأمر حتى ينكشف الحق من المبطل من فتح المشكل إذا بينه ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ للسفلة ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ في دينه وتركتم دينكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ لاستبدال ضلالته بهديكم أو لفوات ما يحصل لكم المنفعة بالبخس والتطفيف، وهو ساد مسد جواب الشرط والقسم الذي وطأته اللام في ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قال الكلبي: الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي مدينتهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ ميتين، قال ابن عباس وغيره: فتح الله عليهم بابًا من جهنم فأرسل عليهم حرًا شديدًا فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء وكانوا يدخلون الأسراب لِيَتَبرَّدوا فيها فإذا دخلوها وجدوها أشد حرًا من الظاهر، فخرجوا هربًا إلى البرية فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم وهي الظلة فوجدوا لها بردًا ونسيمًا فنادٰى بعضهم بعضًا، حتى اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونسائهم وصبيانهم، فألهب الله تعالىٰ عليهم نارًا وجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وقال يزيد الجريري: سلط الله عليهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر ورفع عليهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون، فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك يوم الظلة، قال قتادة: بعث الله شعيبًا إلى أصحاب الأيكة وأهل مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أصحاب مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبرئيل صيحة فهلكوا جميعًا.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي استوصلوا كأن لم يقيموا ولم ينزلوا فيها من قولهم غنيت بالمكان إذا أقمت به والمغاني المنازل واحدها مغنى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، والقدر باب ١، والتوحيد باب ٢٨، وأحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في القدر حديث ١.

(٢) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٧، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٨.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دنيا ودينًا إلا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا فإنهم الرابحون في الدارين، وللتنبيه على وجه الاختصاص والمبالغة فيه كرر الموصول ولم يكتف بالعطف واستأنف بالجملتين وآتى بهما اسميتين ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾ شعيب شاخصًا بين أظهرهم حين أتاهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ قال ذٰلك تأسفًا بهم بشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه فقال ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزن ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ فإنهم ليسوا أهلًا لأن يحزن عليهم لاستحقاقهم ما نزل بهم، أو قاله اعتذارًا عن شدة حزنه عليهم يعني بعدما بلغت في الإبلاغ والنصيحة لما لم يتبعوني وآثروا لأنفسهم العذاب فكيف آسى عليهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فيه إضمار يعني فكذبوه ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي المرض كذا قال البغوي: عن ابن مسعود، وقيل: البأساء الحرب والضراء الجدب ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ لكي يتوبوا إلى الله يتضرعوا، من ههنا يظهر بطلان قول من قال: إن عسى وكاد ولعل من الله واجبة الوقوع ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي البأساء والضراء ﴿ٱلۡحَسَنَةَ﴾ السعة والأمن والخصب استدراجًا وابتلاء لهم بالأمرين ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي كثروا عددًا ومالًا يقال عفت النبات إذا كثرت ومنه إعفاء اللحية ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي هكذا كانت عادة الدهر قديمًا يعاقب في الناس بين الضراء والسراء ونسوا خالق الأرض والسماء ومنشئ النعمة والبلاء ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ
فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ
أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ (١٠٠) تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ
(١٠١) وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ
يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم
بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ
ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ (١١٠) قَالُوٓاْ
أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ
إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن
تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ (١١٥) قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو

بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ اللام للعهد الخارجي يعني أهل القرى التي أرسلنا فيها الأنبياء ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالأنبياء ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ عذاب الله بالطاعة وترك المعاصي ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد للتكثير والباقون بالتخفيف، ﴿عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لوسعنا عليهم الخير من كل جانب وداومناه لهم وقيل: بركات السماء المطر وبركات الأرض النبات والزرع وأصل البركة الزيادة والمواظبة على شيء ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الرسل ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ بالعقوبة ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ عطف علىٰ قوله فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون وما بينهما اعتراض، والمعنى أبعد ما أخذنا أهل القرى من الكافرين السابقين أمن أهل القرٰى من الكافرين بنبوة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعني أهل مكة وما حولها ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتٗا﴾، أي تبييتاً أو وقت بيات يعني ليلًا أو مبيتًا أو مبيتين، وهو في الأصل بمعنى البيتوتة ويجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ غافلون عنه حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتًا ﴿أَوَ أَمِنَ﴾ قرأ نافع وابن عامر أو بسكون الواو على الترديد، والباقون بفتح الواو على أن الهمزة للاستفهام للتوبيخ والواو للعطف والجمع ﴿أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى﴾ أي نهارًا وقت الضحى وقت انبساط الشمس ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أي غافلون مشتغلون بما لا ينفعهم ﴿أَفَأَمِنُواْ﴾ تقرير لقوله أفأمن أهل القرى ﴿مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ أي استدراجه إياهم بما أنعم عليهم في الدنيا إلى حين ثم أخذهم من حيث لا يحتسبون بالعذاب بغتة كما فعل بأشياعهم من قبل ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم بالكفر والمعاصي، وتركوا النظر والاعتبار.

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ﴾ قرأ قتادة ويعقوب نهد بالنون على التكلم والتعظيم والباقون بالياء على الغيبة، والهمزة في المواضع الأربعة للتوبيخ ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالسكنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ هلاك أهلها الذين قبلهم عدي الهداية باللام لأنه بمعنى البيان ﴿أَن﴾ مخففة من المثقلة اسمه ضمير الشأن فاعل ليهد على تقدير الغيبة ومفعوله على تقدير التكلم، يعني أو لم يبين للذين

ورثوا السابقين أنه ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ أي أخذناهم بالعذاب والعقوبة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على ما دل عليه أو لم يهد أي يغفلون عن الهداية ونختم علىٰ قلوبهم، وقال الزجاج: هو منقطع مما قبله يعني ونحن نطبع ولا يجوز عطفه علىٰ أصبناهم على أنه بمعنى وطبعناهم لأنه لو كان في سياق جواب لو لزم نفي الطبع عنهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الإنذار ولا يقبلون الموعظة ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ قرى الأمم الماضية قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب الموصوف مع الصفة مبتدأ خبره ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ يعني نقص عليك بعض إخبار أهلها لكي تعتبروا لأكلها، وجاز أن تكون القرى خبرًا ونقص خبرًا ثانيًا أو حال من القرى، والعامل فيه معنى الإشارة ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالآيات والمعجزات الشاهدة علىٰ رسالتهم ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ منصوب بأن مقدرة بعد لام الجحود لتأكيد النفي والمصدر إما بمعنى الفاعل أو محمول بتقدير ذي أي ما كانوا مؤمنين أو ذا إيمان عند مجيئهم بها ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي بما كذبوه من قبل الرسل يعني التوحيد بل كانوا مستمرين على التكذيب والإشراك أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولًا يعني بالرسالة والشرائع كلها حين جاءتهم الرسل بها ولم يؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، وقال البغوي: قال ابن عباس والسدي: يعني فما كان هٰؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذهم ميثاقهم حين أخرجوا من ظهر آدم فأقروا باللسان وأضمروا بالتكذيب، وقال مجاهد: معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم كقوله تعالىٰ ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقال يمان بن ذباب: هذا على معنى أن كل نبي أنذر قومه بالعذاب فكذبوه فأهلكناهم فلما جاء بعدهم من رسول بالبينات ما كانت الأمم اللاحقة ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية بل كذبوا بما كذب به أوائلهم نظيره قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد الذي طبعنا على قلوب الذين أهلكناهم من قبل ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين كتبنا عليهم من قومك أن لا يؤمنوا فلا تلين قلوبهم بالآيات والنذر ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي لأكثر الناس والآية اعتراض أو لأكثر الأمم المذكورين ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي من وفاء بالعهد الذي عاهدناهم يوم الميثاق حين أخرجوا من صلب آدم عليه السلام أو ما عهدوا إليه حين كانوا في ضر ومخافة لئن أنجيتنا من هٰذه لنكونن من الشاكرين ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ قال الكوفيون: إن نافية واللام بمعنى إلا يعني ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين ناقضين للعهد، وقال البصريون: إن مخففة من المثقلة واللام فارقة وعلى هذا وجدنا بمعنى علمنا لأن أن المخففة من المثقلة لا تدخل إلا على الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الضمير للرسل في قوله ولقد جاءتهم رسلهم والمراد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام أو للأمم والمراد أقوامهم ﴿مُّوسَىٰ﴾ بن عمران عليه السلام ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني المعجزات التي تذكر بعد ذٰلك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو لقب لملك مصر

ككسرى لملك فارس وكان اسمه قابوس وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي شرفاء قومهم ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي بالآيات والظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولما كانت الآيات لوضوحها من حقها الإيمان بها وهم كفروا بها مكان الإيمان، قال الله تعالىٰ ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ مكان كفروا بها ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ حيث أغرقوا في اليم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما دخل علىٰ فرعون ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىَّ﴾ قرأ نافع عليَّ بفتح الياء مشددة يعني واجب علي فهو مستأنفة في جواب تكذيبه إياه في دعوى الرسالة وإنما لم يذكر تكذيبه لدلالة قوله ظلموا بها عليه، وقرأ الباقون على مقصورة كأنَّ أصله حقيق عليّ كما قرأه نافع فقلب لا من اللبس، أو يقال على ههنا جارة وضع مكان الباء لإفادة التمكن كقولهم رميت على القوس مكان رميت بالقوس يدل عليه قراءة أبي والأعمش حقيق بأن لا أقول، أو يقال عدي حقيق بعلى لتضمين معنى حريص وعلى هذا حقيق إما خبر مبتدأ محذوف يعني أنا حقيق أي جدير والجملة مستأنفة أو صفة لرسول ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهد على رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلق عنهم وخلّهم يرجعون إلى الأرض المقدسة هي وطن آبائهم وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب وغيرها.

﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبًا لموسى عليه السلام ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند الله ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ بتلك الآية ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك شرط استغنى من الجزاء بما مضى ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، الثعبان الذكر العظيم من الحيَّة وكان يتحرك كأنها جان أي حيَّة صغيرة ولهٰذا قال: في موضع آخر ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] قال ابن عباس والسدي: إنه لما ألقىٰ العصا صارت حيّة عظيمة صفراء شعراء عرفاء فاغرةً فاها بين لحييها ثمانون ذراعًا وارتفعت من الأرض قدر ميل وأقامت على ذنبها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى علىٰ سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه، وروي أنها أخذت قبة فرعون بين نابيها فوثب فرعون هاربًا وأخذت أخذة البطن في ذٰلك اليوم أربعمائة مرة وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا ودخل فرعون البيت وصاح يا موسٰى أنشدك بالذي أرسلك خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت كذا أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق معمر عن قتادة، ثم قال فرعون هل معك أخرىٰ قال: نعم ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من تحت جيبه بعدما أدخلها فيه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة لها شعاع غلب نور الشمس يعجب الناظرين لحسن منظره ثم أدخلها في جيبه فصارت أدماً كما كانت.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ ماهر في السحر يأخذ أعين الناس حتى يخيل إليهم العصا حية والأدم أبيض ويرى الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع،

أسند القول المذكور ههنا إلى الملأ وفي سورة الشعراء إلى فرعون فالظاهر أن القول صدر منه ومنهم جميعاً على سبيل التشاور فحكى قوله ثمة وقولهم ههنا، وقاله فرعون ابتداء فتلقته منه الملأ فقالوه فيما بينهم ولأتباعهم ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ يا معشر القبط ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعني مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يحتمل أن يكون هذا بقية الكلام السابق الذي قال: الملأ لفرعون وخاصته فيكون الأمر على حقيقته أو قالوه فيما بينهم أو لأتباعهم فيكون تأمرون بمعنى تشيرون والمستشار من حيث إنه معلم ومرشد أمير على المسترشد، ويحتمل أن يكون قوله فماذا تأمرون كلام المخاطبين في جواب قولهم هذا ساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فعلى هذا إما أن يكون كلام لفرعون أو لغيره، ثم بعد ما قال فرعون وملئه ما ذكر اجتمع رأي الملأ أجمعين على أن ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون ﴿أَرْجِهْ﴾ قرأ ابن كثير وهشام هذا وفي الشعراء أرجئه بالهمز وضم الهاء بعدها ووصلها بواو الإشباع وأبو عمرو كذلك لكن من غير صلة، وابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء ولا يصلها بياء وهذه القراءة على خلاف القياس لأن الهاء لا تكسر إلا إذا كان قبلها كسرة أو ياء ساكنة لكن الهمزة كانت تقلب ياء أجريت مجراها، وقرأ قالون بغير همز باختلاس الكسرة وورش والكسائي نحوه لكن يشبعان الكسرة ياء وعاصم وحمزة بغير همز وإسكان الهاء، والهاء في الوقف ساكنة بلا خلاف إلا في مذهب من ضمها سواء وصلها أو لم يصلها فإن الروم والإشمام جائزان فيها التشبيه المنفصل بالمتصل، ومعناه أخر أمره يعني لا تعجل في الإيمان به ولا في قتله وعقوبته حتى يظهر أمره، في القاموس أرجأ الأمر أخره ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون عليه السلام ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ مدائن الصعيد من نواحي مصر كان هناك رؤساء السحرة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي: شرطاً ورجالاً جامعين السحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ جواب لقوله أرسل يعني أن ترسل إليهم حاشرين يجمعون إليك من فيها من السحرة فإن غلبهم موسى صدقناه وإن غلبوا عليه علمنا أنه ساحر.

قرأ حمزة والكسائي هنا وفي سورة يونس ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ [الشعراء: ٣٧] بالألف بعد الحاء على المبالغة كما اتفق عليه القراء في الشعراء والباقون في هاتين ساحر على وزن فاعل.

قال البغوي: قال ابن عباس والسدي وابن إسحاق: لما رأى فرعون سلطان الله في العصا ما رأى قال: إنا لا نغالب موسى إلا بمن هو منه فاتخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بها إلى قرية يقال لها الغرماء يعلمونهم السحر فعلموهم سحراً كثيراً، وواعد موسى موعداً فبعث إلى السحرة فجاؤوا ومعهم معلمهم فقال لهم ماذا صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحراً إلا أتى به. قال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط هما رأس القوم أحدهما شمعون وسبعون من بني إسرائيل، وقال الكلبي: كان الذين يعلمونهم رجلين محبوسين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم، وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفاً، وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً، وقال عكرمة: سبعين ألفاً وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ﴾ مع الحاشرين بعدما أرسلهم في طلبهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني السحرة، استئناف كأنه في جواب سائل قال: ما قالوا إذ جاؤوا ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحفص إن لنا بهمزة واحدة على الخبر وايجاب الأجر كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر والتنكير للتعظيم وقرأ الباقون أإن بهمزتين على الاستفهام وهم على مذاهبهم المذكورة في الهمزتين المفتوحتين ولم يختلفوا في الشعراء أنه بالاستفهام ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عطف على جملة سد مسدها نعم يعني إن لكم أجراً وإنكم لمن المقربين في المنزلة الرفيعة عندي زادَ على الجواب لتحريضهم، قال مقاتل: قال موسى: لكبير السحرة تؤمن بي إن غلبتك قال: لآتين بسحر لا يغلبه ساحر ولئن غلبتني لأؤمنن بك وفرعون ينظر ﴿قَالُواْ﴾ أي السحرة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ عصينا وحبالنا، خيروا موسى إظهاراً للجلادة ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبل موسى يدل عليه تغير النظم إلى ما هو أبلغ وتعريف الخبر وتوسيط الفصل أو تأكيدهم الضمير المتصل بالمنفصل فلذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ ازدراء بهم وثوقاً على شأنه ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ السحرة حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي صرفوها عن إدراك حقيقة ما ألقوه وتخيل للناس حبالهم وعصيهم حيات وأفاعي أمثال الجبال قد ملأ الوادي في ميل يركب بعضها في بعض ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ أي خوفوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ في فنه.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ حين أوجس في نفسه خيفة ﴿أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ ولا تخف إنك أنت الأعلى إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ حية عظيمة قد سدت الأفق تسعى، قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالإسكندرية ويقال بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً ﴿تَلۡقَفُ﴾ قرأ حفص ههنا وفي طه والشعراء بإسكان اللام وتخفيف القاف من المجرد والباقون بفتح اللام وتشديد القاف من التفعل بحذف إحدى التاءين أصله تتلقف أي تبتلع ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ أي ما يزورونه من الإفك بمعنى قلب الشيء من وجهه، ويجوز أن تكون ما مصدرية والمصدر بمعنى المفعول، روي أنها تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعها بأسرها ثم أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت فقالت السحرة لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا فلما نفدت علموا أن ذلك من الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي ثبت وظهر أمره ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ السحرة ﴿فَغُلِبُواْ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ﴾ أي رجعوا إلى المدينة ﴿صَٰغِرِينَ﴾ أذلاء مقهورين ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ألقاهم الله تعالى ﴿سَٰجِدِينَ﴾ لله تعالى، لم يقل سجدوا لله تنبيهاً على أن ظهور الحق اضطرهم إلى السجود حيث لم يبق لهم تمالك، وقيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا، وقال الأخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أبدلوا الثاني بالأول لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون، قال ابن عباس: لما آمنت السحرة اتبع

موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي بالله أو بموسى، قرأ قنبل وآمنتم به في حال الوصل يبدل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة ومد بعدها مدة في تقدير ألفين، وقرأ في طه على الخبر بهمزة واحدة وألف، وقرأ في الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة في تقدير ألفين، وحفص في الثلاثة بهمزة وألف على الخبر وأبو بكر وحمزة والكسائي فيهن على الاستفهام بهمزتين مخففتين بعدهما ألف، والباقون على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة بعدها في تقدير ألفين، ولم يدخل أحد منهم ألفاً بين الهمزة المخففة والملينة في هذه المواضع الثلاثة كما أدخلها في أأنذرتهم وبابه لكراهة اجتماع ثلاث ألفات بعد الهمزة، فالاستفهام للإنكار والاستبعاد والخبر على التوبيخ.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي في مصر قبل أن يخرجوا للميعاد ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ يعني القبط ويخلص مصر لكم ولبني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم تهديد مجمل تفصيله ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ من كل شق طرفاً و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في جذوع النخل على شاطىء نهر مصر تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، قيل: إنه أول من سن ذلك أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني السحرة لفرعون ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بالموت لا محالة نرجو ثوابه فلا نبالي بوعيدك أو المعنى مصيرنا ومصيركم إلى ربنا فيحكم بيننا ﴿وَمَا تَنقِمُ﴾ أي ما تنكر ﴿مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب لا يجوز عليها الإنكار ولا يجوز لنا العدول عنها لابتغاء مرضاتك أو خوف وعيدك، ثم فزعوا إلى الله فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي اصبب علينا صبراً كما يصب الماء كيلا يمنعنا وعيد فرعون عن الإيمان ويطهرنا من الآثام ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، وذكر الكلبي: أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، وذكر غيره أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بتغير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف على يفسدوا أو جواب للاستفهام بالواو كقولهم هل عندكم ماء وأشربه والمعنى أيكون منك ترك موسى ويكون تركه إياك ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ أي معبوداتك فلا يعبدون لك ولها، قال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها وكانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها ولذلك أخرج السامري لهم عجلاً، وقال الحسن: كان قد علق على عنقه صليباً يعبده، وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً وأمرهم بعبادتها وقال لقومه: هذه آلهتكم وأنا ربكم وربها ولذلك قال: أنا ربكم الأعلى، وقيل: كانوا يعبدون الكواكب. وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك ويذرك وآلهتك بكسر الألف على وزن عبادتك ومعناه، وقيل: أراد بآلهتك الشمس وكانوا يعبدونها.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ قرأ نافع وابن كثير بفتح النون وضم التاء مخففاً من المجرد والباقون بضم النون وكسر التاء مشدداً من التفعيل على التكثير ﴿أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي

نتركهن أحياء كما نفعل من قبل ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا، قال ابن عباس: كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل له يولد مولود يذهب به ملكك فقال فرعون: أعيد عليهم القتل ليعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم أحد أن موسى هو المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه فلما أعاد عليهم القتل شكت ذلك بنو إسرائيل إلى موسى فحينئذٍ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ بالتضرع إليه والدعاء والتوكل عليه ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على ما يصيبكم من فرعون وقومه فإن ذلك بإرادة الله ومشيئته وابتلائه ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ كافراً كان أو مسلماً لا يجوز الاعتراض عليه تعالى ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني جزاء الحسنات والسعادة الأبدية التي لا تنقطع والجنة للمتقين فابتغوا الدار الآخرة الباقية واصبروا على ما أصابكم في الدنيا الفانية، سمي جزاء الفعل العقبىٰ والعاقبة لأنه يعقب العمل لكنهما مختصان بالثواب وخير الجزاء على الحسنات كذلك العقب مختص بالثواب كما أن العقوبة والمعاقبة والعقاب مختصة بالعذاب وسوء الجزاء قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢] ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]، وقال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤] ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] وجاز أن يكون قوله إن الأرض لله إلى آخره وعداً لبني إسرائيل بأن يرثوا أرض مصر بعد فرعون ويكون لهم النصر والظفر عاقبة الأمر كالآية الثانية ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني قوم موسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادة القتل علينا، وقيل: إن المراد منه أن فرعون كان يسخرهم قبل مجيء موسى إلى نصف النهار فلما جاء موسى استسخرهم جميع النهار بلا أجر، وذكر الكلبي: أنهم كانوا يضربون اللبن بطين فرعون فلما جاء موسى عليه السلام أجبرهم أن يضربوه من طين من عندهم ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ أي يسكنكم بعد هلاكه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ من شكر وطاعة أو كفران ومعصية وعدهم الله تعالى بالنصر والظفر وأشار إلى إيجاب الشكر عند ابتلائه بالخير وإيجاب الصبر على الابتلاء بالشر فأنجز الله وعده حتى أغرق فرعون واستخلفهم في ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل، وروي أن مصر فتح لهم في زمن داود عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ

ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا
لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ
ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا
مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ
ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ
أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾
وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟
بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟
كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ
حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾
وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ
وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ
بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أتباعه ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ بالجدوب والقحوط والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به ثم اشتق منه فيقال سنت القوم إذا قحطوا ويقال مستهم السنة أي جدب السنة، وقيل: أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بكثرة الآفات والعاهات، قال قتادة: أما سنين فلأهل البوادي وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ يعني الخصب

والسعة والعافية ﴿قَالُواْ﴾ أي آل فرعون ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي لأجلنا ونحن مستحقوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا ولم يروها تفضلاً من الله تبارك وتعالى ليشكروا عليها.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء يكرهونه ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ أي يتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ قالوا يصيبنا بلاء حتى رأيناهم فهذا من شؤم موسى وقومه، وقال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: وكان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لا يرى مكروهاً ولو كان له في تلك المدة جوع يوم أو حمى يوم أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط، ولم يكن هذا القول منهم إلا لكمال إغراقهم في الغباوة والقساوة فإنهم بعد مشاهدة الآيات لم ينتبهوا على أنه ما كانت الحسنة إلا تفضلاً من الله تعالى وابتلاء فلما لم يشكروها ودعاهم الرسول المؤيد بالمعجزات الباهرة إلى الشكر والطاعة فلم يطيعوه وتمادوا في العصيان أخذتهم السنة لشؤم أعمالهم عقوبة من عند الله تعالى كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ أي شؤمهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي من عنده بكفرهم ومعاصيهم كذا قال ابن عباس: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لفرط غباوتهم أن الذي أصابهم عقوبة من الله تعالى، وقيل: معنى الآية أن طائرهم أي أنصبائهم من الخير والشر كله من عند الله، وفي القاموس الطائر ما تيمنت به أو تشاءمت والحظ وعمل الإنسان ورزقه أو سبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمه ومسببه أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم، وقيل: معناه الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار، قال البيضاوي: إنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق يعني إذ الكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بها بالذات لسعة رحمة الله تعالى ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك يعني أن لندرتها وعدم تعلق القصد بها إلا بالتبع.

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني فرعون وآله لموسى عليه السلام ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي معجزة وعلامة على صدقك في دعوى النبوة إنما سموها آية على زعم موسى عليه السلام أو استهزاء به لا على اعتقادهم ولذلك قالوا: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ أعيننا وتشبه علينا وتلفتنا عما نحن عليه من الذين والضمير في به وبها لما ذكره قبل التبيين أي كلمة مهما ذكره باعتبار اللفظ وأنثه باعتبار المعنى ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فدعا موسى عليهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ﴾ نصب على الحال من الأسماء المذكورة ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات لا يخفى على العاقل أنها من الله تعالى ونقمته أو منفصلات لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها ثلاثون يوماً أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وكان امتداد كل منها أسبوعاً أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس بلفظ يمكث فيهم سبتاً إلى سبت ثم يرفع عنهم شهراً، وقيل: إن موسى لبث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل، قال البغوي: قال ابن عباس: وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق: دخل كلام بعضهم في بعض لما آمنت السحرة ورجع فرعون وقومه مغلوباً إلى مصر وقومه لا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات فلما عالج منهم بالآيات الأربع العصا واليد والسنين

ونقص من الثمرات فأبوا أن يؤمنوا، فدعا عليهم موسى عليه السلام فقال يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وطغى وعتى وإن قومه قد نقضوا عهدك فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة، فبعث عليهم الطوفان وهو الماء أرسل الله عليهم المطر وبيوت بني إسرائيل وبيوتهم مشتبكة مختلطة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء وركد الماء على أراضيهم لا يقدرون على أن يحرثوا ولا يزرعوا شيئاً ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت، وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت كذا أخرج ابن جرير عن عائشة عن النبي ﷺ، وقال: وهب الطوفان الطاعون بلغة اليمن، وقال أبو قلابة: الطوفان الجدري وهم أول من عذبوا به فبقي في الأرض، وقال مقاتل: الطوفان الماء طفا فوق حروثهم، وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم ثم قرأ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: ١٩].

قال نحاة الكوفة: الطوفان مصدر لا يجمع كالرجحان والنقصان وقال أهل البصرة: هو جمع واحدها طوفانة، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف الطوفان فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الكلأ والزروع والثمار وأخصبت بلادهم فقالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً فلم يؤمنوا وقاموا شهراً في عافية، فبعث الله عليهم الجراد وأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقف البيت والخشب والنبات والأمتعة ومسامير الأبواب من الحديد حتى يقع دونهم وابتلي الجراد بالجوع فكانت لا تشبع ولا يصيب بني إسرائيل شيء من ذلك فعجوا[١] وضجوا[٢] وقالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك وأعطوا عهد الله وميثاقه، فدعا موسى فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت، وفي الخبر مكتوب على صدر كل جراد جند الله الأعظم ويقال إن موسى برز إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت وكانت قد بقيت من زروعهم وغلاتهم بقية فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا فلم يفوا بما عاهدوا وعادوا إلى أعمالهم السوء فأقاموا شهراً في عافية ثم بعث الله عليهم القمل.

واختلفوا في القمل؟ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: القمل السوس الذي يخرج من الحنطة، وقال مجاهد: والسدي وقتادة والكلبي وقال الدباء قالوا الجراد الطيارة التي لها أجنحة والدباء صغارها التي لا أجنحة لها، وقال عكرمة: هي بنات الجراد، وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القراد، وقال عطاء الخراساني: هو القمل وبه قرأ الحسن والقمل بفتح القاف وسكون الميم، قالوا: أمر الله تعالى موسى أن يمشي إلى

---

(١) العج: رفع الصوت.

(٢) الضج: الصياح عند المشقة والمكروه.

كثيب[١] أعفر[٢] بقرية من قرى مصر تدعى عين الشمس فمشى موسى إلى ذلك الكثيب وكان أهيل[٣] فضربه بعصاه فانهال عليهم بالقمل فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء قملاً، قال سعيد بن المسيب: القمل السوس الذي يخرج من الحبوب وكان الرجل يخرج عشرة أقفزة إلى الرحىٰ فلم يرد منها إلا ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأنحزت أشعارهم وأبصارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كالجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى إنا نتوب فادع الله لنا ربك يكشف عنا البلاء فدعا موسى فرفع الله القمل عنهم بعدما ما أقام سبعة أيام من السبت إلى السبت، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا قط أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الوصل دواباً فدعا موسى عليهم بعدما أقاموا شهراً في عافية. فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد إناء ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى ذقنه ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه وكانت تثب في قدورهم فيفسد عليهم طعامهم وتطفىء نيرانهم، وكان أحدهم يضطجع فتركبه الضفادع فتكون عليه ركاماً حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر ويفتح فاه لأكله فيسبق الضفادع أكلته إلى فيه ولا يعجن عجيناً إلا تشدخت فيه ولا يفتح قدراً إلا امتلأت ضفادع فلقوا منها أذى شديداً.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله على أهل فرعون سمعت وأطاعت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور فأثابها لحسن طاعتها ترد الماء، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقاموا سبعاً من السبت إلى السبت فأقاموا شهراً في عافية. ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم فسال النيل عليهم دماً وصارت مياههم دماً فما يستسقون من الآبار والأنهار إلا وجدوا دماً عبيطًا[٤] أحمر، فشكوا إلى فرعون فقال إنه قد سحركم فقال القوم من أين سحرنا ونحن لا نجد في أعيننا من الماء إلا دماً، كان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً ويقومان إلى جب فيه الماء فيخرج الإسرائيلي ماء والقبطي دم حتى تكون المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقيني من مائك فتصب لها من قربتها

(١) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب.

(٢) أعفر: أبيض ليس بناصع.

(٣) الأهيل: السايل من الرمل.

(٤) العبيط: الدم الطري.

فيعود في الإناء دماً حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ فإذا مجته في فيها صار دماً، وإن فرعون اعتراه العطش حتى أنه كان يضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغ يصير ماؤها في فيه ملحاً أجاجاً فمكثوا في ذلك سبعة أيام ولم يشربوا إلا الدم، قال زيد بن أسلم: الدم الذي كان سلط الله عليهم كان رعافاً فأتوا موسى وقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي نزل بهم جنس العذاب الذي ذكر من الطوفان وغيره، وقال سعيد بن جبير: الرجز هو الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس مات منهم سبعون ألفاً في يوم واحد فأمسوا وهم يتدافنون. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي والبغوي عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز أرسل على بني إسرائيل وعلى من كان قبلكم فإذا سمعتم به من أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»(١).

وروى أحمد والبخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء وإن الله جعله رحمة للمؤمنين فليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد»(٢) قلت: لكن الحديثين المذكورين لا يدلان على أن الطاعون أرسل على القبط بل يدلان على أنه أرسل على بني إسرائيل ولعل ذلك بعد فرعون، قلت: ولو صح قول سعيد بن جبير فحينئذٍ بعد السنين ونقص من الثمرات آية واحدة ثالثة بعد العصا واليد بعضها على أهل القرى وهو السنين وبعضها على أهل الأمصار هو نقص من الثمرات وبعدها ست آيات من الطوفان إلى الرجز فهي الآيات التسع المرادة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ﴾.

﴿قَالُوا﴾ يعني فرعون وأتباعه ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ كشف العذاب عنا آن آمنا أو بعهده عندك وهو النبوة كذا قال عطاء، أو بالذي عهده إليك من إجابة دعوتك، وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عندك أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل اسعفنا إلى ما نطلب منك بحق ما عهد عندك أو قسم جوابه ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ﴾ يعني أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت ﴿عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى أرض الشام وكان استعبدهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بدعاء موسى ﴿عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ أي حد من الزمان ﴿هُمْ بَالِغُوهُ﴾ يعذبون فيه أو يهلكون وهو وقت الغرق أو الموت وقيل: إلى أجل عينوه لإيمانهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب للمّا أي

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والطب باب ٣٠، ومسلم في السلام حديث ٩٢، ٩٤، ٩٨، ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والطب باب ٣١، وأحمد في المسند ٦/ ٦٤، ١٥٤، ٢٥٢.

فلما كشفنا عنهم الرجز فأتوا النكث ونقض العهد والإصرار على الكفر من غير توقف وتأمل فيه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يعني أخذناهم بالنقمة والعذاب بيانه ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي البحر الذي لا يدرك قعره وهو لجة البحر المالح ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم لأن المشفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا﴾ أي عن الآيات ﴿غَٰفِلِينَ﴾ يعني أنهم لم يتفكروا فيها حتى صاروا كالغافلين عنها، وقيل: الضمير للنقمة المدلول عليها بقوله فانتقمنا ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يعني بني إسرائيل بالاستعباد وذبح الأبناء واستخدام النساء ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالأنهار والأشجار والثمار والخصب وسعة العيش يعني أرض مصر والشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيث الأحسن صفة للكلمة أي مضت عليهم يقال تم الأمر إذا مضى عليه واتصلت بالإنجاز واستمرت عدته إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: ٥] إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] المذكور في القصص، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٢٩].

﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بسبب صبرهم على دينهم والشدائد من فرعون وقومه ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ خربنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من القصور والعمارات ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من الثمار والأعناب في الجنات كذا قال الحسن، أو ما كانوا يرفعون من البناء كصرح هامان وغير ذلك من القصور والبيوت كذا قال مجاهد. قرأ أبو بكر وابن عامر يعرشون بضم الراء هنا وفي النحل والباقون بكسرها. وهذا آخر قصة فرعون وقومه ويتلوه ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعدما من الله عليهم بالنعم الجسام وأراهم من الآيات العظام تسلية لرسول الله ﷺ فيما يرى منهم وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم، وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ حث على الصبر ودلالة على أن من قابل البلاء بالصبر فرجه الله عنه ودمر عدوه ومن قابله بالجزع وكله الله إليه والله تعالى أعلم.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ قال الكلبي: عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعدما هلك فرعون وقومه فصام شكراً لله عز وجل ﴿فَأَتَوْا۟﴾ فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ أي يقيمون قرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف والباقون بضمها وهما لغتان ﴿عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿أَصْنَامٍ﴾ أوثان ﴿لهم﴾ قال ابن جريج: وكانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل وكذا أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جبير وزاد من نحاس، والقوم قيل: كانوا من العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر إنهم لخم وجذام، وقال البغوي: قال قتادة: كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرقة فقالت بنو إسرائيل لما رأوا ذلك ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ أي مثالاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ما كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها، قال البغوي: ولم يكن ذلك شكاً من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ونتقرب إلى الله بتعظيمه وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة،

وكان ذلك لخفة عقلهم وشدة جهلهم ولذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى تعجباً من قولهم على إثر ما رأوا من الآيات ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفهم بالجهل وأكده بقوله ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ القوم ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي مهلك ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعني الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضاً﴿وَبَٰطِلٌ﴾ مضمحل ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها يعني ليس ذلك مقرباً إلى الله تعالى، بالغ في هذا الكلام بإيقاع هؤلاء اسم إن والإخبار عما هم فيه بالتبار وعما فعلوا بالبطلان، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لإن للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة لا يعدوهم وأن الإحباط الكلي لازم لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا ثم ﴿قَالَ﴾ موسى توبيخاً وتعجباً ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أطلب لكم معبوداً ﴿وَهُوَ﴾ أي الله سبحانه ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانكم يعني والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلاً بما قصدوا أن يشركوا به أحسن شيء من مخلوقاته وهو ليس كمثله شيء.

عن واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله ﷺ اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها فقال النبي ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن من قبلكم»[1] رواه البغوي: بسنده.

﴿و﴾ اذكروا صنيعه معكم الآن ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾ قرأ ابن عامر من الأفعال على الغيبة وهكذا في مصاحف أهل الشام والباقون انجيناكم على التكلم والتعظيم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منها ﴿سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ﴾ قرأ نافع بفتح الياء وإسكان القاف وضم التاء الفوقانية من المجرد والباقون بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشدداً من التفعيل للتكثير ﴿أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ جملة يقتلون مع ما عطف عليه بدل من يسومونكم مبين له ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ العذاب أو الإنجاء ﴿بَلَاءٌ﴾ محنة أو نعمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ قرأ أبو عمرو ووعدنا من المجرد والباقون من المفاعلة ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية يعني ذي القعدة وعشراً من ذي الحجة، قال السيوطي: وعد الله موسى أن يكلمه عند انتهاء ثلاثين ليلة، وقال البغوي: وعد موسى بني إسرائيل وهم بمصر أن الله إذا أهلك عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما فعل الله ذلك سأل موسى ربه الكتاب فأمر الله عز وجل أن يصوم ثلاثين يوماً فلما تمت ثلاثون وجد خلوفاً فتسوك بعود خروب، وقال أبو العالية: أكل من لحاء شجرة فقالت له الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمر الله أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة وقال: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك وكانت

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢١٨.

فتنتهم في العشر الذي زاده وكذا أخرج الديلمي عن ابن عباس معناه ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ أي وقت وعده بكلامه وإيتاء الكتاب ﴿أَرْبَعِينَ﴾ حال ﴿لَيْلَةً﴾ تمييز ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى﴾ أي كن خليفتي ﴿فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً أو أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله، وقال ابن عباس: يريد الرفق بهم والإحسان إليهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يعني لا تتبع من عصى الله ولا تطع من دعاك إلى المعصية والإفساد ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ﴾ إلى طور سيناء ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ اللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا أي وقتنا الذي وقّتنا له أن أكلمه فيه، قال أهل التفسير: إن موسى عليه السلام تطهر وطهر ثيابه لميعاد ربه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ في القصة أن الله أنزل ظلمة على سبعة فراسخ وطرد عنه الشياطين وطوّر هوام الأرض ونحىٰ عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً في الهواء ورأى العرش بارزاً فكلمه الله وناجاه حتى أسمعه وكان جبرئيل معه فلم يسمع ما كلمه ربه حتى سمع صرير القلم، قال البيضاوي: روي أن موسى كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، قلت: معناه أنه لا يسمع من جهة وكان كلما يتوجه إلى جهة من الجهات يسمع ذلك الكلام بلا جهة من غير تفاوت فاستجلى موسى كلام ربه واشتاق إلى رؤيته و﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ﴾ نفسك ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال الحسن: هاج به الشوق قال: الرؤية ظناً منه أنه يجوز أن يرى في الدنيا يعني قياساً على الرؤية في الآخرة.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ليس لبشر أن يطيق النظر إلي في الدنيا من نظر إلي في الدنيا مات فقال: إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إلي من أن أعيش ولا أراك، قال السيوطي: التعبير بلن تراني دون لا أرى يفيد إمكان الرؤية فقال الله تعالى ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ الآية وهو أعظم جبل بمدين يقال له زبير، قال السدي: لما كلم الله تعالى موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج بين قدمي موسى فوسوس إليه وقال: إن من كلمك شيطان فعند ذلك سأل الرؤية، وفي هذه الآية دليل على إمكان الرؤية في الدنيا لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال خصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى وقوله لن تراني فيه دليل على عدم الوقوع له ما دامت الدنيا لا على عدم الوقوع له ولغيره فضلاً من عدم الإمكان، والظاهر أن موسى من قبل نزول قوله لن تراني كان لا يعرف عدم الوقوع في الدنيا وليس هذا جهلاً بالله تعالى بل ببعض أحكامه كما أن نوحاً عليه السلام سأل ربه نجاة ابنه وإبراهيم عليه السلام سأل مغفرة لأبيه ومحمد ﷺ سأل مغفرة أبي طالب حتى نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية، وسأل مغفرة بعض المنافقين حتى نزلت: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وحتى نزل ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] كل ذلك لعدم اطلاعهم على عدم وقوع الاستجابة مع كفر المدعو لهم. واستدل نفاة الرؤية بقوله تعالى ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ قالوا لن للتابيد، قلنا ليس كذلك بل هي لتأكيد نفي الرؤية المسؤولة في الدنيا ألا ترى أن قوله تعالى ﴿وَلَن

يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] إخبار عن اليهود وقد أخبر عن الكفرة بتمنيهم الموت في الآخرة حيث قال: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وقال: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحاقة: ٢٧] ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] والقول بأن سؤال موسى عليه السلام الرؤية كان لتبكيت قومه حين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] خطأ فاحش فإن ذلك وقعة أخرى وقد عذبهم الله تعالى على ذلك القول فأخذتهم الصاعقة بظلمهم حيث لم يكونوا مستحقين لها ولم يكن أحد من قوم موسى معه حين كلمه الله تعالى وأعطاه التوراة وسأل ربه الرؤية ولم يعاتب على موسى على ذلك السؤال لاستحقاقه وإنما نفى الرؤية لعدم احتمالها للنية الدنيوية وقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الإسراء: ١٤٣] الآية.

وأيضاً لو كانت الرؤية ممتنعة وكان هذا السؤال لتبكيت قومه لوجب على موسى أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا اجعل لنا إلهاً وكيف يتبع موسى سبيلهم لو كان ممتنعاً وقد قال لأخيه ولا تتبع سبيل المفسدين وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقه كما لا يطيق الجبل، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن، قال وهب وابن إسحاق: لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب[١] والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى إلى أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى ملائكة السمٰوات أن يعترضوا على موسى فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران[٢] البقر تتبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال الأسود لهم لجب[٣] بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: لقد ندمت على مسألتي فهل يجنبني من مكاني الذي أنا فيه شيء، فقال خير الملائكة ورأسهم: يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت، ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا أمثال الأسود لهم قصف[٤] ورجف ولجب شديد وأفواههم تتبع بالتسبيح والتقديس كجلب[٥] الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد نفسه وأيس من الحياة، فقال له خير الملائكة: يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا واعترضوا على موسى بن عمران وكان لا يشبههم شيء من الذين مروا به

---

(١) الضباب أي السحاب الرقيق.

(٢) كثيران جمع ثور أي الذكر من البقر.

(٣) لجب الصياح واضطراب موج البحر.

(٤) قصف أي كسر وقصف الرعد أي صار صوته شديداً.

(٥) اختلاط الصوت.

قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت[١] ركبتاه وأرعد[٢] قلبه واشتد بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت، ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا واعترضوا على موسى فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره لما لم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه واشتد حزنه وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة: يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه.

ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي الذي طلب ليراني فاعترضوا عليه وفي يد كل ملك مثل النخلة الطويلة نار أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاؤوا بهم من كان قبلهم من ملائكة السمٰوات كلهم يقولون لشدة أصواتهم سبوح قدوس رب الملائكة والروح رب العزة أبداً لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح حين سبحوا وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك لا أدري أنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن مكثت مت، فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت، ثم أمر الله أن يحمل عرشه في ملائكة السماء السابعة فلما بدأ نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب جل جلاله فرفعت ملائكة السماء أصواتهم جميعًا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبدًا لا يموت فارتج الجبل بشدة أصواتهم واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقًا علىٰ وجهه ليس معه روحه فأرسل الله برحمته الروح فتغشاه وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسٰى وجعل كهيئة القبة لئلا يحترق موسٰى فأقامه الروح مثل الأم فقام موسٰى يسبح الله ويقول آمنت بك ربي وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيى من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وإله الآلٰهة وملك الملوك ولا يعد لك شيء ولا يقوم لك شيء رب تبت إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك وما أجلك رب العالمين.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ أي ظهر وانكشف بعض أنواره، قال السيوطي: أظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كذا في حديث صححه الحاكم ﴿لِلْجَبَلِ﴾ قالت الصوفية التجلي ظهور الشيء في المرتبة الثانية كظهور زيد في المرآة وليس هو رؤية الذات فإن الله سبحانه لما نفى الرؤية لموسٰى بالتأكيد مع كونه أقوى استعداد من الجبل لا يتصور حصوله للجبل، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] قال ابن عباس: ظهر نوره للجبل، وقال الضحاك: أظهر الله من نوره

(١) فاصطكت أي اضطربت.
(٢) أرعد أي اضطرب.

الحجب مثل منخر ثور، وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ما تجلى من عظمة الله للجبل الأمثل سم الخياط حتى صار دكًا، وقال السدي: ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ما روى أحمد والترمذي والحاكم وصححاه عن ثابت عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية وقال هٰكذا ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ[١] الجبل وخر موسى صعقا[٢] وأخرج أبو الشيخ بلفظ وأشار بالخنصر فمن نورها جعله دكا، وحكي عن سهل بن سعد الساعدي أن الله أظهر من سبعين ألف حجاب من نور قدر الدرهم فجعل الدرهم للجبل دكًا ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي دكاء بالمد والهمز بغير تنوين أي أرضاً مستوية ومنه ناقة دكاء التي لا سنام لها، وقرأ الباقون: دكًا بالتنوين بغير همز أي مدكوكًا مفتتًا والدك والدق أخوان، قال في القاموس: الدك والدق والهدم ما استوى من الرمل، قال ابن عباس: جعله ترابًا قال: ساخ الجبل في الأرض حتّى وقع في البحر فهو يذهب فيه، وقال عطية العوفي: صار رملًا هائلًا، وقال الكلبي: جعله دكًا أي كسرًا جبالًا صغارًا، قال البغوي: وقع في التفاسير صارت لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة أحدُ وورقان ورضوى ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء، قال السعاف في تخريج البيضاوي: أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: أسمع موسٰى قال له: إنني أنا الله قال: وذاك عشية عرفة وكان الجبل بالموقف فانقطع على سبع قطع قطعة أسقطت بين يديه وهو الذي يقوم الإمام عنده في الموقف وبالمدينة ثلاثة طيبة وأحد ورضوى وطور سيناء بالشام وإنما سمي الطور لأنه طار في الهواء إلى الشام، قلت: هذه الرواية غريبة جدًا فإن تكلم الله تعالىٰ بموسى عليه السلام وإعطائه التوراة كان بالشام على طور سيناء دون مكة والله أعلم ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال ابن عباس: والحسن مغشيًا عليه وقال قتادة: ميتًا، قال الكلبي: خر موسٰى صعقًا يوم الخميس يوم عرفة فأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر، قال الواقدي: لما خر موسٰى صعقًا قال ملائكة السمٰوات: ما لابن عمران وسؤال الرؤية ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسى من صعقته ﴿قَالَ﴾ تعظيمًا لما رأى ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن إيمان كل نبي مقدم على إيمان أمته.

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالإسكان ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ أي اخترتك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الموجودين في زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ قرأ نافع وابن كثير برسالتي على التوحيد والباقون على الجمع ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ أي بتكليمي إياك ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أعطيتك من الرسالة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) ساخ سوخاً وسواخاً وسوخاناً سار رويداً.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٧، باب ١.

وفي القصة أن موسى بعدما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشي وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات، وقالت له امرأته: أنا أيم منك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت لله ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة، قال: ذلك لكِ إن لم تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها. وروىٰ البغوي بسنده عن كعب الأحبار أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وبالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلون الأعور الدجال رب اجعلهم أمتي، قال: يا موسٰى هي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال: رب إني أجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمرًا قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال: رب إني أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفع لهم فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله وإذا هبط واديًا حمد الله الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيث ما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: رب إني أجد أمة إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة مثلها وإن عملها ضعف عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف وإذا هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم يكتب عليه وإن عمل كتبت له سيئة مثلها فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة أحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب من الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد منهم إلا مرحومًا فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة أحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار أحد منهم أبدًا إلا من بَرِي من الحسنات مثل ما برى الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة أحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلما عجب موسى من الخير الذي أعطىٰ الله محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم وأمته قال: يا ليتني من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأوحى الله عز وجل بثلاث يرضيه بهن ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ إلى قوله ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الإسراء: ١٥٩] قال: فرضي موسى عليه السلام كل الرضاء.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾ أي لموسى ﴿فِي ٱلْأَلْوَاحِ﴾ كانت سبعة أو عشرة، قال ابن عباس: يعني ألواح التوراة وفي الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثني عشر ذراعًا أخرجه أبو الشيخ من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، وجاء في الحديث «خلق الله عز وجل آدم

عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده»[١] وقال الحسن: كانت الألواح من خشب، وقال الكلبي: كانت من زبرجدة خضراء، وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوت أحمر وكذا أخرج الطبراني وأبو الشيخ عن كعب، وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من زبرجد، وقال ابن جريج: كانت زمردًا أمر الله تعالىٰ جبرائيل عليه السلام حتى جاء بها من عدن فكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج أنها كانت من زمرد أو زبرجد، قال وهب: أمر الله بقلع الألواح من صخرة صماء لينها الله تعالىٰ فقطعها بيده ثم شققها بيده وسمع موسى عليه السلام صرير القلم بالكلمات العشرة وكان ذٰلك في أول يوم من ذي القعدة وكانت الألواح عشرة أذرع على طول موسىٰ عليه السلام، وقال مقاتل ووهب: وكتبنا في الألواح كنقش الخاتم، وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأه إلا أربعة نفر موسىٰ ويوشع وعزير وعيسىٰ، وقال الحسن: هذه الآية في التوراة ألف آية يعني قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين ﴿مَّوْعِظَةً﴾ الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته، قال في القاموس: وعظه موعظة ذكره ما يلين قلبه من الثواب والعقاب ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تبيانًا لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام، بدل من الجار والمجرور أي كتبنا كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام ﴿فَخُذْهَا﴾ عطف على كتبنا بإضمار القول، أو بدل من قوله فخذ ما آتيتك، والضمير راجع إلى الألواح أو إلى كل شيء فإنه بمعنى الأشياء أو للرسالات ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد واجتهاد وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة لأنه إذا أخذه بضعف النية رده إلى الفتور ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بما هو بالغ في الحسن مطلقًا، وليس أفعل للتفضيل بالإضافة فإن كل ما هو في كتاب الله حسن بالغ في الحسن لا يحتمل النقيض ولا يجوز أن يكون شيء أحسن منه فهو كقولهم الصيف أحر من الشتاء كذا قال قطرب، وقال عطاء عن ابن عباس: يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا ويتعظوا بأمثالها ويعملوا بحكمها ويقفوا عند متشابهها، وقيل: المراد بأحسنها الفرائض والنوافل يعني ما يستحق عليه الثواب وما دونها المباح لأنه لا يستحق عليها الثواب، وقيل: بالعزيمة دون الرخصة وبأحسن الأمرين في كل شيء كالعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن من الانتصار ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ تحذيرًا من أن لا تأخذ بكتاب الله تعالىٰ فتكونون مثلهم والمراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها كذا قال عطية العوفي، وقال السدي: مصارع الكفار، وقال الكلبي وقتادة: ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا، وقال مجاهد: والحسن وعطاء: دار الفاسقين مصيرهم في الآخرة يعني جهنم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها والمعنى

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

سأصرف عن التفكر في آياتي التي في الآفاق والأنفس وعن الاعتبار بها، وقيل: معناه سأصرفهم عن إبطال آياتي المنزلة والمعجزات وأن يطفئوا نور الله بأفواههم كما فعل فرعون فعاد عليه بإعلائها أو بإهلاكهم والله متم نوره ولو كره الكافرون أو المعنى سأصرف عن قبول آياتي المنزلة في الكتاب والتصديق بها بالحرمان عن الهداية لعنادهم الحق نظيره قوله تعالىٰ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] كذا قال ابن عباس: وقال سفيان: سأمنع عن فهم القرآن ودرك عجائبه ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ويتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل أو حال من فاعله فحكم الآية عام بجميع الكفار وقيل: حكم الآية خاص وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالىٰ موسى عليه السلام ﴿وَإِن يَرَوۡاْ﴾ هؤلاء المتكبرون ﴿كُلَّ ءَايَةٖ﴾ منزلة أو معجزة أو منصوبة لدرك الحق ﴿لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ لعنادهم أو اختلال عقلهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد وبما طبع الله علىٰ قلوبهم ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ أي الهدى والسداد بإراءة الأنبياء والعلماء ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ لأنفسهم ﴿سَبِيلٗا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم قرأ حمزة والكسائي الرشد بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان، وثالثهما الرشاد كالسَقَم والسُّقُم والسِّقام، وكان أبو عمرو يفرق بينهما فيقول الرشد بالضم الصلاح في الأمر وبالفتح الاستقامة في الدين ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي طريق الضلالة بإراءة النفس والشيطان ﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ لأنفسهم ﴿سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ﴾ الصرف محله الرفع بالابتداء والظرف المستقر بعده خبره أو محله النصب على المفعولية مفعولًا مطلقًا من قوله تعالىٰ سأصرف والظرف متعلق به ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة والمعجزات وعدم تدبرهم في خلق الأرض والسماوات ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا﴾ أي عن الآيات ﴿غَٰفِلِينَ﴾ لاهين ساهين أو غافلين غفلة عناد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لقائهم الدار الآخرة أو ما وعد الله في الآخرة من الثواب والعقاب ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الحسنة من إنفاق المال وصلة الرحم وغير ذٰلك، فهم لا ينتفعون بها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾ الاستفهام للإنكار أي ما يجزون في الآخرة ﴿إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا عملًا معتداً به عند الله تعالىٰ وهو ما كان لله تعالىٰ مخلصًا له الدين وهم لم يعملوا كذٰلك أو المعنى ما يجزون الإجزاء ما كانوا يعملون من السيئات فإن أعمالهم كلها سيئات ليس شيء منها حسنة، فإن العبادة إذا كانت لغير الله تعالىٰ فهي أسوء السيئات والإنفاق وصلة الرحم إذا لم يكن لله تعالىٰ كان إعانة للكفار على الكفر ومعاداة الله تعالىٰ أو خطأً لنفسه.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾ بنو إسرائيل ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي بعد ذهابه لميقات ربه بعد ثلاثين ليلة إذا زيدت في الميقات عشرًا ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ التي استعاروها من قوم فرعون بعلة عرس حين هموا بالخروج من مصر فبقي عندهم وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم وملكوها بعد هلاكهم، قرأ حمزة والكسائي بكسر الحاء بالإتباع كدلى، والباقون غير يعقوب بالضم وهو

جمع حَلي كثدي وثُدي بالفتح والضم، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وسكون اللام وكسر الياء مخففًا على الإفراد بإرادة الجنس ﴿عِجْلًا﴾ مفعول أول لاتخذ والمفعول الثاني محذوف يعني إلهًا يعبدونه ﴿جَسَدًا﴾ أي بدنًا بدل من عجلًا، قال ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة من المفسرين: صوغه السامري فألقى في فمه من تراب أثر فرس جبرائيل عليه السلام فصار ذا لحم ودم كما قال الله تعالىٰ حكاية عن السامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: ٩٦] الآية وسنذكر قصة السامري وسبب معرفته جبرائيل في سورة طٰه إن شاء الله تعالىٰ ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] أي صوت البقر قيل: ما خار إلا مرة واحدة، وقيل: كان يخور كثيرًا فكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم، وقال وهب: كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك، وقال السدي: كان يخور ويمشي، وقيل: كان جسدًا من الذهب لا روح فيه صاغه بنوع من الحيل، فتدخل الريح في جوفه فيسمع منه صوت كخوار البقر وهذا القول يرده ما تلونا ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ هٰؤلاء الحمقاء حين إتخذوه إلهًا وعبدوه ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يعني لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر فكيف حسبوه خالق السماوات والأرض وما فيهما من الأجسام والقوى ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلهًا ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أي واضعين الأشياء في غير مواضعها ومن ثم وضعوا العبادة للعجل في موضع الاستخدام ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ سقط مسند إلى الظرف وهو كناية من أن أشته ندمهم فإن النادم المتحسر يعض يده غمًا فتصير يده مسقوطةً فيه يقول العرب لكل نادم قد سقط في يده، وقال الزجاج: معناه سقط الندم في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وإن استحال أن يكون في اليد تشبيهًا لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين، والحاصل أنهم ندموا على عبادة العجل حين جاءهم وعاتبهم موسى عليه السلام ﴿وَرَأَوْا۟﴾ علموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ باتخاذ العجل تابوا ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول التوبة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة، قرأ حمزة والكسائي ترحمنا وتغفر لنا بالتاء الفوقانية على الخطاب ونصب ربنا على النداء، والباقون بالتحتانية على الغيبة والرفع على الفاعلية ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعد انقضاء أربعين ليلة الميقات ﴿غَضْبَٰنَ﴾ من جهتهم ﴿أَسِفًا﴾، قال أبو الدرداء: يعني شديد الغضب وقال ابن عباس: والسدي شديد الحزن، وفي القاموس الأسَف أشد الحزن وأسف عليه غضب.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ أي فعلتم فعلًا مذمومًا حيث عبدتم العجل والخطاب لعبدة العجل أو قمتم مقامي قيامًا مذمومًا حيث لم تكفوا العبدة من بني إسرائيل، والخطاب لهارون عليه السلام والمؤمنين معه وما نكرة موصوفة تفسير للمستكن في بئس والمخصوص بالذم محذوف أي بئس خلافة خلفتموني خلافتكم ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي بعد ذهابي لميقات ربي أو بعدما رأيتم مني من التوحيد والتنزيه والحمل عليه والكف عما ينافيه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها، ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يعني تركتموه غير تام ولما

تضمن عجل معنى سبق عدي تعديته أو المعنى أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الأمم بعد الأنبياء وأصل العجلة طلب الشيء قبل حينه ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي جاء بها فيها التوراة ألقاها على الأرض من شدة الغضب لربه، أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: أعطي موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان كل شيء وموعظة فلما جاء بها ورأى بني إسرائيل عكوفًا على عبادة العجل رمى بالتوراة من يده فتخطت يعني تكسرت فرفع الله تعالىٰ منها ستة أسباع وبقي سبع، قال البغوي: فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقي ما فيه الموعظة والأحكام والحلال والحرام عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الخبر كالمعاينة إن الله تعالىٰ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت» رواه أحمد والطبراني في الأوسط والحاكم بسند صحيح ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون أي بشعر رأسه، قال البغوي: بذوائبه ولحيته ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ توهمًا بأنه قصر في كفهم وهارون كان أكبر من موسٰى عليهما السلام بثلاث سنين وأحب إلىٰ بني إسرائيل من موسٰى لأنه كان لين الغضب، ﴿قَالَ﴾ هارون ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم لرفقه وكان من أب وأم، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بكسر الميم وأصله يا ابن أمي، حذف حرف النداء ثم حذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفًا كالمنادى المضاف إلى ياء المتكلم والباقون بفتحها زيادة في التخفيف لطوله وتشبيهًا بخمسة عشر ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ يعني عبدة العجل ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟﴾ وهموا وقاربوا أن ﴿يَقْتُلُونَنِى﴾ يعني بذلت سعيي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا أن يقتلونني فلا تتوهم التقصير في كفهم مني ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي لا تفعل بي ما يفرحوا به والشماتة الفرح ببلية العدو كذا في القاموس ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى﴾ في موجدتك عليّ والانتقام ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني عبدة العجل ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما صنعت بأخي ﴿وَلِأَخِى﴾ إن فرط في كفهم والظاهر أن المقصود الاستغفار لأخيه ضم إليه نفسه ترضية له ودفعًا للشماتة عنه، ولأن سنة الاستغفار لغيره أن يبدأ بالاستغفار لنفسه دفعًا لتزكية النفس ولأن الدعاء بعد الاستغفار قرب إلى الإجابة فإن الذنوب مانعة من الإجابة، ومن ثم ورد في دعاء الجنازة «اللهم اغفر لحينا وميتنا» قدم الاستغفار للأحياء لكونه منهم وفي الدعاء لأهل القبور يغفر الله لنا ولكم، وقال الله تعالىٰ لنبيه مع كونه معصومًا ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد: ١٩] حتى يبقى منه سنة في أمته ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ أي عصمتك في الدنيا ورحمتك في الآخرة وبمزيد الإنعام علينا في الدارين ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأنت أرحم إلينا من أنفسنا علينا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلٰهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي عذاب وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي خروجهم من ديارهم فعلى هذا السين في قوله سينالهم للاستقبال بالنسبة إلى زمان غضب موسٰى عليه السلام عليهم على سبيل الحكاية، وقال عطية العوفي: إن الذين اتخذوا العجل أراد به اليهود الذين كانوا في زمن النبيّ صلى

الله عليه وآله وسلم عيرهم بصنيع آبائهم، وقال بالنسبة إليهم سينالهم في الآخرة غضب من ربهم وينالهم ذلة في الدنيا يعني ما أصاب بني قريظة والنضير وغيرهم من القتل والإجلاء قال ابن عباس: هو الجزية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾، قال أبو قلابة: هو والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله تعالىٰ، قال: سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلىٰ يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ يعني الذين عبدوا العجل من قوم موسىٰ ثم تابوا وآمنوا وقتلوا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن كانت الذنوب عظيمة متكثرة أن مع اسمها وخبرها خبر للموصول ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي سكن ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ باعتذار هارون وندامة قومه وتوبتهم، وفي هذا الكلام مبالغة من حيث إنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغري عليه حتى عبر عن سكونه بالسكوت ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها وقد ذهب ستة أسباعها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ قيل: أراد بها اللوح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: إن موسىٰ لما ألقى الألواح تكسرت فنسخ منها نسخة أخرى وقيل: معناه فيما نسخ فيها أي كتب فهو فعلة بمعنى المفعول كالخطبة، وقال عطاء: فيما بقي منها، قال ابن عباس وعمرو بن دينار: ولما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يومًا فردت إليه في لوحين ﴿هُدًى﴾ من الضلالة وبيان للحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي يخافون ربهم اللام في لربهم زيدت للتأكيد كقوله تعالىٰ ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] وقال الكسائي: دخلت اللام لضعف الفعل بالتأخير كقوله للرؤيا تعبرون وقال قطرب: اللام بمعنى من يعني من ربهم يرهبون وقيل: أراد راهبون لربهم وقيل: اللام للتعليل والتقدير يرهبون من معاصي لربهم.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن
قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا
فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ
إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا
عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ
ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ
قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا

ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً
إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ
وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ
هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟
أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾».

«وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ» أي من قومه حذف الجار وأوصل الفعل إليه فانتصب بنزع الخافض «سَبْعِينَ رَجُلًا» ممن لم يعبدوا العجل «لِّمِيقَٰتِنَا» أي للوقت الذي وعدنا بإتيانهم روي أنه تعالىٰ أمر موسىٰ أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان، فقال: ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال: إن لمن قعد أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين فلما دنوا من الجبل غشيهم غمام فدخل موسىٰ بهم الغمام وخروا سجدًا فسمعوه يكلم موسىٰ يأمره وينهاه ثم انكشف الغمام فأقبلوا عليه فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها أي ماتوا كذا قال السدي، وقال ابن عباس: إن السبعين الذين قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة كانوا قبل السبعين الذين أخذتهم الرجفة وإنما أمر الله سبحانه موسىٰ عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلًا، فاختارهم وبرزهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا ولا تعطه أحدًا بعدنا فأنكر الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة، وقال وهب: لم تكن تلك الرجفة موتًا ولٰكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم.

«فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ» قال السيوطي: قال ابن عباس: أخذتهم الرجفة أي الزلزلة الشديدة لأنهم لم يزالوا قومهم حين عبدوا العجل، فلما رأى موسىٰ عليه السلام ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين

فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربه تبارك وتعالىٰ ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ تمنى هلاكهم وهلاكه قبل أن يرى ما رأى بسبب آخر أو عنى به أنك قد قدرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم أو بإغراقهم في البحر وغيرها فترحمت عليهم بالإنقاذ منها فإن ترحمت عليه مرة فارحم عليهم مرة أخرى فإنه لا مبعد من عميم إحسانك، قيل: معناه لو شئت أهلكتهم قبل خروجهم ليعاين بنو إسرائيل ذٰلك ولا يتهموني ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ من التجاسر على طلب الرؤية الذي فعله بعضهم أو عبادة العجل، قال المبرد: قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام استعطاف أي لا تهلكنا وقد علم موسى أن الله أعدل من أن يأخذ بجريمة أحد غيره ﴿إِنْ هِىَ﴾ يعني طلبًا لرؤية أو عبادة العجل ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك حين أسمعتهم كلامك فطمعوا رؤيتك أو إذا أوجدت في العجل خوارًا فزاغوا وخذلت أنفسهم وفيه إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥] فقال موسٰى: تلك الفتنة التي أخبرتني بها أضللت بها قومًا فافتتنوا وهديت قومًا عصمتهم حتى ثبتوا على دينك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ إضلاله بخذلانه حتى يتجاوز عن حده ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ هدايته فتقوي بها إيمانه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ناصرنا وحافظنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ أي أوجب لنا ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي توفيق الطاعة والنعمة والعافية ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المغفرة والرحمة والجنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾ من هاد يهود إذا رجع يعني تبنا ﴿إِلَيْكَ﴾ قال قتادة: وابن جريج ومحمد بن كعب: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم حين عبدوا العجل ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر والله أعلم ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ في جواب دعاء موسى ﴿عَذَابِى﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ من خلقي تعذيبه ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ﴾ عمت ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر بل المكلف وغيره وإنما انتفت في الآخرة عن الكفار لأنهم أبوا أن يرحمهم الله تعالىٰ وجعلوا له شركاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبٰى، قيل: له ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[1] رواه البخاري.

قال عطية العوفي: وسعت كل شيء ولٰكن لا يجب إلا للذين يتقون وذٰلك لأن الكافرين يرزقون ويدفع عنهم بالمؤمنين لسعة رحمة الله بالمؤمنين فيعيشون فيها فإذا صاروا إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي سأجعلها واجبًا في الآخرة منكم يا بني إسرائيل ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصها بالذكر لكونها أشق على النفوس ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بجميع كتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكفرون بشيء منها، ولما كانت شريعة موسى عليه السّلام في علم

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦١.

الله تعالىٰ منسوخة نبه الله تعالىٰ على ذٰلك وحثهم على اتباع خاتم النبيين وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ﴾ مبتدأ خبره يأمرهم أو خبر مبتدأ تقديره هم الذين أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل، سماه رسولًا بالإضافة إلى الله تعالىٰ ونبيًا بالإضافة إلى العباد ﴿ٱلْأُمِّىَّ﴾ يعني محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم منسوب إلى الأمر يعني هو على ما ولدته أمه لم يكتب ولم يقرأ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»(١) حديث متفق عليه عن ابن عمر، وصفه الله به تنبيهًا على أن كمال علمه مع حاله أحد معجزاته، وقيل: منسوب إلى الأمة لكثرة أمته، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة»(٢) رواه مسلم، أصله أمتي فسقطت التاء في النسبة كما في المكي والمدني وقيل: هو منسوب إلى أم القرى يعني مكة وبهٰذا الكلام خرج من هذا الحكم من بني إسرائيل الذين أدركوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولم يؤمنوا وبقي في الحكم من لم يدرك زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأنه ما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة، أخرج ابن حبان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لكل نبي يوم القيامة منبرًا من نور وإني على أطولها وأنورها فيجيء مناد ينادي أين النبي الأمي، فيقول الأنبياء: كلنا نبي أمي فإلى أينا أرسل؟ فيرجع الثانية فيقول أين النبي الأمي العربي فينزل محمد ﷺ حتىٰ يأتي باب الجنة فيقرعه فيقال مَن؟ فيقول محمد وأحمد، فيقول أو قد أرسل إليه فيقول نعم، فيفتح له فيتجلى له الرب ولا يتجلى بشيء قبله فيخر لله ساجداً ويحمده بمحامده لم يحمده بها أحد بعد، فيقال: ارفع رأسك وتكلم واشفع تشفع»(٣) هذا الحديث يدل على أن الأمي مشتق من الأمة حتّى يصح قولهم كلنا نبي أمي أي ذي أمة وخص النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الاسم لكثرة أمته.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ اسمًا وصفة. عن أنس أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فمرض فأتاه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة علىٰ موسٰى هل تجد في التوراة نعتي وصفتي ومخرجي؟» قال: لا، قال الفتى: بلى والله يا رسول الله إنا نجد لك في التوراة نعتك وصفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله، فقال رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم باب ١٣، ومسلم في الصيام حديث ١٥، وأبو داود في الصوم باب ٤، والنسائي في الصيام باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/ ١٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٣٠، ٣٣١، وابن ماجه في الزهد باب ٣٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٤١، ٤٥١.

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٤٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٩٠٨٦.

صلى الله عليه وآله وسلم: «أقيموا هذا من عند رأسه وولوا أخاكم»[١] وعن علي رضي الله عنه أن يهوديًا كان له على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دنانير فتقاضى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: «يا يهودي» ما عندي ما أعطيك، فقال: إني لا أفارقك يا محمد حتىٰ تعطيني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذاً أجلس معك»، فجلس معه فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتهددونه ويتواعدونه ففطن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالذي يصنعون به، فقالوا: يا رسول الله يهودي يحبسك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «منعني ربي أن أظلم معاهدًا وغيره»، فلما ترجل[٢] النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أنك رسول الله وشطر مالي في سبيل الله أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة محمد بن عبدالله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ[٣] ولا غليظ ولا سخاب[٤] في الأسواق ولا متزيي بالفحش ولا قوال للخنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله وهٰذا مالي فاحكم فيه بما أراك وكان اليهودي كثير المال[٥] روى الحديثين البيهقي في دلائل النبوة. وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة قال: «أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إلٰه إلا الله ونفتح بها أعينًا عمياء وآذانًا صماء وقلوبًا غلفاً»[٦] رواه البخاري.

وعن عطاء بن يسار عن ابن سلام نحوه رواه الدارمي، وعن كعب الأحبار يحكي عن التوراة قال: نجد مكتوبًا محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام وأمته الحمادون يحمدون الله في السراء والضراء يحمدون الله في كل منزله ويكبرونه على كل شرف رعاة للشمس يصلون الصلاة إذا جاء وقتها يتبارزون على اتصافهم ويتوضؤون على أطرافهم مناديهم ينادي في جو السماء صفهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء لهم بالليل

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٨٢، وابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ٢٠٠.
(٢) ترجل النهار أي ارتفع النهار شبيهاً بارتفاع الرجل من الصبي.
(٣) فظ سيىء الخلق.
(٤) السخب الصياح.
(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٨٣.
(٦) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٨، باب ٣، والبيوع باب ٥٠، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٤.

دوي كدوي النحل رواه البغوي بسنده في معالم التنزيل وذكره في المصابيح ورواه الدارمي مع تغيير يسير، وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: «مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه»[١] رواه الترمذي، قال أبو مودود: وقد بقي في البيت موضع قبر.

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني ما يعرف حسنه شرعًا ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يعني ما ينكره الشرع والعقل السليم والطبع المستقيم من الشرك وكفر المنعم وعصيانه وقطع الأرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ التي حرم الله عليهم في التوراة جزاء لبغيهم كالشحوم ولحوم الإبل والتي حرم أهل الجاهلية على أنفسهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كالدم والخمر والخنزير والميتة والربا والرشوة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر إصارهم على الجمع والباقون على الإفراد وأصل الأصر الثقل الذي يأصر أي يحبس صاحبه عن الحركة لثقله، قال ابن عباس: والحسن والضحاك والسدي ومجاهد: يعني العهد الثقيل الذي أخذ على بني إسرائيل للعمل بما في التوراة قال قتادة: يعني التشديد الذي كان عليهم في الدين ﴿وَالْأَغْلَالَ﴾ يعني الأثقال ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ في شريعة موسى عليه السلام مثل قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن الثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل العمد والخطأ وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت وعدم جواز الصلاة في غير الكنائس، وغير ذلك من الشدائد التي تشبه بالأغلال التي تجمع الأيدي إلى الأعناق ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي بالنبي الأمي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه بالتقوية ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ لي على الأعداء ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي مع نبوته يعني القرآن سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهرًا مرة مظهر غيره أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون معه متعلقًا باتبعوا النور المنزل مع اتباع النبيّ فيكون إشارة إلىٰ اتباع الكتاب والسنة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية إلىٰ هٰهنا جواب لدعاء موسىٰ عليه السلام قال البغوي، قال نوف البكائي الحميري: اختار موسىٰ قومه سبعين رجلًا قال الله تعالىٰ لموسىٰ: أجعل لكم الأرض مسجدًا وطهورًا تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مرحاض[٢] أو حمام أو قبر وأجعل السكينة في قلوبكم وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهور قلوبكم يقرأها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير، فقال ذٰلك موسىٰ لقومه فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس ولا نستطيع أن تقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظرًا فقال الله تعالىٰ ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلىٰ قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فجعلها الله لهذه الأمة. فقال موسىٰ عليه السلام: يا رب اجعلني نبيهم، فقال: نبيهم منهم قال: رب اجعلني منهم فقال إنك لن تدركهم، فقال موسىٰ: يا رب أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١.

(٢) مرحاضاً موضع بيت الغائط والرحض الغسل وذلك موضع اغتسال.

الله تعالىٰ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ فرضي موسٰى. وقول نوف هذا يأبى عنه سياق الآية ومنطوقه فإن قوله تعالىٰ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] صريح في أن الآية في حق مؤمني أهل الكتاب لا غير، وكذا ما ذكر البغوي: أنه قال ابن عباس وقتادة وابن جريج أنه لما نزلت ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قال إبليس: أنا من ذٰلك الشيء فقال الله تعالىٰ ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فتمناها اليهود والنصارٰى، وقالوا نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن فجعلها الله لهٰذه الأمة حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ الآية، فإن مقتضى هذا القول إن الآية خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسياق الآية يقتضي أنها خطاب لموسٰى عليه السلام في جواب دعائه وإنما نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حكاية والله أعلم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة للعهد الخارجي يعني الرسول النبيّ الأمي الذي مر ذكره وأخذ العهد على اتباعه ﴿إِلَيْكُمْ﴾ خطاب للناس كافة ولذٰلك أردفه بقوله ﴿جَمِيعًا﴾ حال من إليكم فإن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان مبعوثًا إلى الناس كافة بل إلى الجن والإنس عامة وسائر الأنبياء إلىٰ أقوامهم خاصة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبوة»(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة، وروى الطبراني في الكبير بسند صحيح عن السائب بن يزيد بلفظ «فضلت على الأنبياء بخمس بعثت إلى الناس كافة وذخرت شفاعتي لأمتي ونصرت بالرعب شهرًا أمامي وشهرًا خلفي وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» وروىٰ البيهقي بسند صحيح عن أبي أمامة فضلت بأربع ولم يذكر ذخرت شفاعتي، قلت: الخطاب وإن كان للناس عمومًا لكن سياق القصة تقتضي أن المقصود بهذا الخطاب العام يهود المدينة وبعض النصارٰى فإنهم داخلون في عموم الخطاب ومحجوجون عليهم بقوله تعالىٰ ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وإنكارهم ذٰلك عنادًا لا يفيدهم عند الله تعالىٰ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة الله جعل بينهما ما هو متعلق بالمضاف لأنه كالمتقدم عليه أو مدح منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو على الوجوه الأول بدل من الصلة بيان لما قبله فإن من ملك العالم كان هو الإلٰه لا غيره وفي ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية، وإعرابه كإعراب ما سبق وعلى تقدير كون الموصول مبتدأ وما بعده خبر الجملة الاسمية بيان لما أرسل به ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ الذي أخذ منكم العهد في الكتب السابقة على اتباعه ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ التي أنزلت عليه وعلى سائر المرسلين من كتب الله

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٣، ٥، والترمذي بالسير باب ٥.

ووحيه وقرئ وكلمته على إرادة الجنس، وقال مجاهد والسدي: يعني عيسى ابن مريم عليه السلام كلمته ألقاها إلىٰ مريم وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هٰذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهًا على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو بعد في حيز الضلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي محقين أو بكلمة الحق أي يُرشدون ويدعون إلى الحق أو بسبب الحق الذي هم عليه ﴿وبه﴾ أي بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم، قال الضحاك والكلبي والربيع: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر يجري الرمل يسمى نهر أوراق ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويضحون بالنهار ويزرعون لا يصل إليهم منا أحد وهم علىٰ دين الحق. وذكر أن جبرائيل عليه السلام ذهب بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسري به إليهم فكلمهم جبرئيل هل تعرفون من تتكلمون؟ قالوا: لا قال: هذا محمد النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم فآمنوا به فقالوا: يا رسول الله إن موسٰى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد صلى الله عليه وآله وسلم فليقرأ عليه مني السلام فرد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على موسٰى عليه السلام ثم قرأ عشر سور من القرآن نزلت بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت، وقيل: هم الذين أسلموا من اليهود في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال البغوي: والأول أصح، قال: والظاهر أن الأول قول غريب ولم يكن بمكة ليلة الإسراء الجمعة وليس في عشر سور مما نزلت بمكة أحكام الإسلام كلها والله أعلم، والأظهر عندي أن المراد المؤمنين الذين آمنوا بموسٰى من أهل زمانه والذين أدركوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود فآمنوا به كعبدالله بن سلام ونظرائه.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي فرقنا بني إسرائيل ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ تميزه محذوف يدل عليه قطعنا يعني اثنتي عشرة قطعة وهو مفعول ثان لقطع فإنه متضمن لمعنى صير أو حال ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل لا تمييز فإن تمييز ما فوق العشرة لا يكون جمعًا والسبط ولد الولد وكانوا اثنتي عشرة قبيلة أولاد اثني عشر ابن لإسرائيل يعني يعقوب عليه السلام ﴿أُمَمًا﴾ صفة لأسباط أو بدل بعد بدل، قال الزجاج: المعنى وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أمما وإنما قال: أسباطًا أمماً بالجمع وما فوق العشرة لا يفسر بالجمع فلا يقال اثنا عشر رجالًا لأن الأسباط في الحقيقة نعت للمفسر المحذوف وهو الفرقة أي قطعناهم اثنتا عشرة فرقة أسباطًا أممًا يعني كل فرقة أسباط، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديرها وقطعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرة، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ في التيه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي فضرب فانبجست حذفه للإيماء على أنَّ موسٰى لم يتوقف في الامتثال، وعلى أن ضربه لم يكن مؤثرًا يتوقف عليه الانبجاس في ذاته ومعناه انفجرت، وقال أبو عمرو بن العلا عرقت وهو الانبجاس ثم انفجرت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط عين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي كل

سبط أبناء ابن ليعقوب عليه السلام ﴿مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ في التيه ليقيهم حر الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بضم التاء المثناة الفوقانية وفتح الفاء على التأنيث والبناء للمفعول مسندًا إلىٰ ما بعده وهو مرفوع، والباقون بفتح النون وكسر الفاء على التكلم والبناء للفاعل وما بعده منصوب على المفعولية ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر على وزن الفعيلة بالهمزة على التوحيد وأبو عمرو خطاياكم على وزن قضاياكم على الجمع، والباقون خطيئاتكم على الجمع على وزن فعيلاتكم بالهمز ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالمغفرة والزيادة عليه بالإثابة وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنها تفضل محض ليس في مقابلة ما أمروا به.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ مضى تفسير هذه الآيات في سورة البقرة، غير أن قوله تعالىٰ ﴿فَكُلُوا﴾ في البقرة بالفاء أفاد تسبيب سكناهم للأكل منها ولم يتعرض له هٰهنا اكتفاء بذكره ثمة أو بدلالة الحال عليه كذا قال البيضاوي، قلت: ذكر في البقرة ادخلوا هذه القرية فكلوا ولا شك أن الأكل بعد الدخول ولذلك أورد هنا فاء التعقيب وذكر هٰهنا اسكنوا هٰذه القرية والسكنى بجامع الأكل ولا يستعقبه فلذٰلك أورد الواو للجمع، ولا أثر لتقديم قولوا على وادخلوا في المعنى ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ أي سل يا محمد اليهود للتقرير والتوبيخ على تقديم كفرهم وعصيانهم، والإعلام بما هو من علومهم التي لم يكن أهل مكة يعلمها حتّى يكون لك معجزة وحجة عليهم ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أي عن خبر أهلها وما وقع بهم ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ﴾ أي قريبة ﴿الْبَحْرِ﴾ قال ابن عباس: هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور على شاطىء البحر وقال الأزهري: طبرية الشام ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ الضمير راجع إلى المضاف المحذوف يعني أهل القرية كانوا يتجاوزون حد الإباحة بصيد السمك ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وقد نهوا عنه، إذ ظرف متعلق بكانت أو حاضرة أو للمضاف المحذوف أي خبر أهل القرية وقت عدوانهم أو بدل اشتمال من أهل القرية ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ أي يوم تعظيمهم أمر السبت مصدر من سبت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة، وقيل: اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيها ويؤيد الأول قوله تعالىٰ ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ﴿شُرَّعًا﴾ حال من الحيتان أي ظاهرة على الماء متكثرة جمع شارعَ علينا إذا أشرف ودنا، وقال الضحاك: متتابعًا وفي القصة أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السمان البيض ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي لا يعظمون السبت متعلق بقوله ﴿لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إتيانهم يوم السبت ﴿نَبْلُوهُم﴾ حال من الضمير المنصوب في لا تأتيهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ متعلق بيعدوا والمعنى مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم، قيل: وسوس إليهم الشيطان أن الله لم ينهاكم عن الاصطياد وإنما نهاكم عن الأكل

فاصطادوا، وقيل: وسوس إليهم أنكم إنما نهيتم عن الأخذ فاتخذوا حياضًا على شط البحر يسوقون الحيتان إليها يوم السبت ثم يأخذونها يوم الأحد ففعلوا ذٰلك زمانًا ثم جرؤوا على السبت وقالوا ما نرى السبت إلا قد أحل لنا فأخذوا وأكلوا وباعوا، فصار أهل القرية أثلاثًا وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا ثلث كانوا يعدون في السبت وثلث كانوا ينهونهم عن الاعتداء وثلث لم يفعلوا ولم ينهوا وهم الذين حكى عنهم الله سبحانه بقوله.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي الفرقة الساكتة للفرقة الواعظة الناهية عن المنكر ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة ﴿قَالُوا﴾ الناهون في جوابهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ الجمهور معذرة بالرفع علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف أي موعظتنا معذرة أي إبداء لعذرنا إلى الله تعالىٰ حتى لا نكون مفرطين في النهي عن المنكر، وقرأ حفص بالنصب على المصدرية أو العلية أي اعتذرنا معذرة أو عظناهم معذرة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإن اليأس لا يحصل إلا بعد الهلاك، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي ترك الفرقة العاصية ما ذكَّرهم الصلحاء الواعظون ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ يعني الفرقة الواعظة الصالحة ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني الفرقة العاصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد قرأ الجمهور بفتح الباء وكسر الهمزة بعدها ياء ساكنة على وزن فعيل من بؤس يبؤس بأساً إذا اشتد وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بئس على وزن فِعْل، وكأن في الأصل بَئِس مفتوح الفاء مكسور العين وزن حذِر فخفف عينه بنقل حركتها إلى ما قبلها فصار بِئْس بسكون الهمزة أو هو فعل ذم وصف به فجعل اسمًا، إلا أن ابن عامر يهمز ونافع وأبو جعفر لا يهمزان بل يقلبان الهمزة ياء ويقرآن بِيس وقرأ أبو بكر عن عاصم بخلاف عنه بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيْقل ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قال ابن عباس: رضي الله عنه: اسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة، قال عكرمة: قلت له جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا لم تعظون قومًا الله مهلكهم وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فأعجبه قولي فرضي وأمر لي ببردين فكسانيها وقال: نجت الفرقة الساكتة، كذا روى الحاكم وقال يمان بن رباب: نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون قومًا الله مهلكهم والذين قالوا معذرة إلىٰ ربكم وأهلك الله الذين أخذو الحيتان وهذا قول الحسن ومجاهد، وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهٰذه أشد آية في ترك النهي عن المنكر.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ أي تكبر الفرقة الخاطئة ﴿عَن مَّا نُهُوا﴾ أي عن ترك ما نهوا ﴿عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مبعدين أمر تكوين وتسخير، والظاهر يقتضي أن الله تعالىٰ عذبهم أولًا بعذاب شديد فعتوا بعد ذٰلك فمسخهم ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرًا وتفصيلًا للأولىٰ، وقيل: المراد بقوله تعالىٰ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ﴾ أن الفرقة الصالحة الواعظة قالت بعضهم لبعضهم لم تعظون مبالغة في أن الوعظ لا ينفع فيهم تحسرًا فأجابوا فيما بينهم وقالوا معذرة إلى ربكم أو قال: من ارعوى عن الوعظ منهم لمن لم يرعوا منهم، وقيل:

معنى الآية قالت أمة منهم يعني الهالكة للفرقة الصالحة الواعظة لم تعظون قومًا الله مهلكهم على زعمكم قالوا ذٰلك تهكمًا واستهزاء بهم فقالوا أي الصالحون معذرة إلى ربكم، لٰكن هذا المعنى يأبى عنه ضمير الغائب في قولهم لعلهم يتقون بل كان المناسب علىٰ هذا أن يقولوا لعلكم تتقون، روي أن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتهم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام وأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا: إن لهم لشأنًا فدخلوا عليهم فإذا هم قردة فلم يعرفوا أنسبائهم ولكن القرود تعرفهم فجعلت القرود تأتي أنسباءهم وتشمهم فتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم، فيقولون ألم ننهاكم فتقول القردة برأسها نعم فمكثوا ثلاثة أيام ينظر بعضهم إلى بعض وينظر إليهم الناس ثم ماتوا.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ تفعل من الإذن، ومعناه العزم المصمم الذي لا يتخلف لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله ولذٰلك أجري مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذٰلك أجيب بجوابه، وقال ابن عباس: معنى تأذن ربك قال ربك وقال مجاهد: أمر ربك، وقال عطاء: حكم ربك، وعلى الأقوال غير الأول ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ جواب قسم محذوف أي والله ليسلطن الله تعالىٰ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بالقتل والضرب والسبي وأخذ الجزية فبعث الله عليهم سليمان وبعده بخت نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم فكانوا يؤدونها إلى المجوس حتّى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم، فقتل بني قريظة وسبى نساءهم وذراريهم وأجلى بني نضير وبني قينقاع وأجلى عمر عن خيبر وفدك وأمر الله سبحانه بقتالهم إلى يوم القيامة حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ولذا عاقبهم في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ﴾ فرقناهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقًا فشتت أمرهم حتى لا يكون لهم شوكة قط ولا تجتمع كلمتهم ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كذا قال ابن عباس: ومجاهد، قلت: والظاهر أن المراد الذين على دين موسٰى صالحين قبل نسخه بقرينة قوله ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ تقديره ومنهم ناس دون ذلك أي منحطون عن الصلاح وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أو كانوا فساقًا قبل نسخ دين موسٰى وكفارًا لعيسٰى وداود وسليمان ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم﴾ أي اختبرناهم ﴿بِٱلْحَسَنَـٰتِ﴾ أي النعم ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي النقم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لكي ينتبهوا فيرجعوا عما كانوا عليه من الكفر والفسق بشكر المنعم عند النعمة وبالتوبة عند حلول النقمة، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي جاء بعد المذكورين الذين وصفناهم ﴿خَلْفٌ﴾ القرن الذي يجيء بعد قرن كذا في القاموس وقال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام الأولاد الواحد والجمع سواء والخلف بفتح اللام البدل سواء كان ولداً وغريباً، وقال ابن الأعرابي: الخلف بالفتح الصالح وبالسكون الطالح وقال النضر بن شميل الخلف بتحريك اللام

وإسكانها في القرن السوء وأما في القرن الصالح فتحريك اللام لا غير، وقال محمد بن جرير أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام وفي الذم بتسكينها وقد يحرك في الذم ويسكن في المدح، قال البيضاوي: هو مصدر نعت به ولذٰلك يقع على الواحد والجمع، وقيل: جمع والمراد به الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وآله سلم ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي انتقل إليهم الكتاب يعني التوارة من آبائهم يقرؤونها ويطلعون على ما فيها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني حطام هذا العالم الأدنى يعني الدنيا وهو من الدنو والدناءة والعرض المتاع، وكل شيء سوى النقدين أو ما كان من مال قل أو كثر وهو المراد هٰهنا، وقيل: العرض ما لا يكون له ثبات ومنه استعار المتكلمون العرض لما لم يكن له ثبات إلا بالجوهر كاللون والطعم ولذا قيل: الدنيا عرض حاضر يعني لا ثبات لها، والمراد به ما كان علماء اليهود يأخذون من جهالهم فيأكلون ولذٰلك كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَحَرَّفوا كلام الله تعالىٰ خوفًا من زوال مأكلتهم وما كانوا يأخذون من الرشى في الحكم والجملة حال من الضمير المرفوع في ورثوا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ يحتمل العطف والحال، والفعل مسند إلى الجار والمجرور أو إلى الضمير العائد إلىٰ مصدر يأخذون يعني يتمنون على الله المغفرة بلا توبة مع الإصرار على الذنب وهٰذا أمر شنيع قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم والبغوي بسند صحيح عن شداد بن أوس ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ حال من الضمير في يقولون يعني يرجون المغفرة مصرين على الذنب عامدين إلىٰ مثله غير تائبين، قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم فيقال له: ما لك ترتشي فيقول سيغفر لي فيطعن فيه الآخرون فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن يطعن عليه يرتشي أيضًا فيقول الله تعالىٰ وإن يأتهم يعني الآخرين منهم عرض مثله يأخذوه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أخذ عليهم العهد في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهٰذا غير الحق لأنه ليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقرير أو على ورثوا ودرس الكتاب قراءته وتدبره مرة بعد أخرى يعني يعلمون ما يعملون وهم ذاكرون أنه معصية ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالىٰ ويؤمنون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم مما يأخذون من حطام الدنيا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عطف على محذوف تقديره أيختارون الشر ويتركون الخير فلا يعقلون يعني فليس لهم عقل فإن مقتضى العقل اختيار الخير على الشر بل اختيار خير الخيرين وهم يستبدلون الأدنى المؤدي إلى العذاب بالنعيم المخلد، قرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ قرأ أبو بكر مخففًا من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل وقرأ

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٢٥، وابن ماجه في الزهد ٣١، وأحمد في المسند ٤/ ١٢٤.

أبي بن كعب والذين تمسكوا ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ على صيغة الماضي لما عطف عليه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، قال مجاهد: هم المؤمنون من أهل الكتب عبدالله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسىٰ عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكَلَةً بل عملوا بما فيه حتّى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقال عطاء هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذين يمسكون عطف على الذين يتقون وقوله ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ اعتراض أو مبتدأ خبره ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على تقدير منهم أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهًا علىٰ أن الإصلاح كالمانع من التضييع.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ متعلق باذكر وأصل النتق الجذب والمعنى قلعناه ورفعناه ﴿فَوْقَهُمْ﴾ أي فوق بني إسرائيل حين أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله عليهم الجبل ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ سقيفة وهي كل ما أظلك ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي أيقنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقه وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم ﴿خُذُوا۟﴾ بإضمار القول أي وقلنا ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزم على تحمل مشاقه حال من فاعل خذوا ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ بالعمل ولا تتركوه كالمنسي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ
شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ
وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾
وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ
تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ
مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ
ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ
أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى
لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟
فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ
بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ
مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً
يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فيه اختصار تقديره من آدم وبني آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من بني آدم بدل البعض والمعنى إذ أخرج ربك من ظهور آدم بنيه ﴿وَذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب ذرياتهم علىٰ صيغة الجمع والباقون على الإفراد ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أشهد بعضهم على بعض وقال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظَهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً[(١)] من نور ثم عرضهم علىٰ آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: ذريتك، فرأى منهم رجلًا فأعجبه وبيص عينيه فقال أي رب من هٰذا؟ قال داود، قال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: رب زده من عمري أربعين سنة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما انقضى عمر آدم إلا أربعين جاءه ملك الموت، فقال آدم: ألم يبق من عمري أربعين سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة ونسيت ذريته وخطأ آدم فخطأت ذريته»[(٢)] ورواه الترمذي عن أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذريته بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذريته سوداء كأنهم الحمم قال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي»[(٣)] رواه أحمد كذا ذكر مقاتل وغيره من أهل التفسير فذكروا نحوه، وفي آخره «ثم أعادهم جميعًا في صلبه فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء» قال الله تعالىٰ فيمن نقض العهد الأول ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢] وعن مسلم بن يسار قال: «سأل عمر بن الخطاب عن هٰذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية قال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فأخرج منه ذرية فقال خلقت هٰؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هٰؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتّى يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»[(٤)] رواه مالك وأبو داود والترمذي وأحمد في مسنده والبخاري في التاريخ وابن حبان والحاكم

(١) الوبيص: البريق.
(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٧، باب ٣.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤٤١.
(٤) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في تفسير سورة ٧، باب ٢، ومالك في القدر حديث ٢، وأحمد في المسند ١/ ٤٥.

والبيهقي، وقال الترمذي: حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، قال البغوي: قد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلًا.

وعن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلًا، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هٰذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون»(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه، وأخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية: «أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى قالت الملائكة: شهدنا»، قال البغوي: روي عن ابن عباس أيضًا أن الله أخرجهم وأخذ الميثاق بدهناء من أرض الهند وهو الموضع الذي هبط آدم عليه السلام، وقال الكلبي: بين مكة والطائف، وقال السدي خلق الله آدم ولم يهبط من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريته، وعن أبي بن كعب جمعهم فجعلهم أزواجًا يعني أصنافًا ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذهم العهد والميثاق وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم؟ قال الله تعالىٰ: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم آباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي، قالوا شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا بذلك ورفع عليهم آدم عليهم السلام ينظر إليهم فرأى الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذٰلك فقال رب لولا سويت بين عبادك قال: إني أحببت أن أشكر، ورأى الأنبياء فيهم مثل السرج عليهم النور خصوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة وهو قوله تعالىٰ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وعيسى ابن مريم كان في تلك الأرواح فأرسله إلى مريم فحدث عن أبي أنه دخل من فيها رواه أحمد زاد في بعض الروايات بعد قوله «لا تشركوا بي شيئًا» قوله «فإني سأنتقم عمن أشرك بي ولم يؤمن بي» وزاد بعد قوله «فأقروا بذٰلك» قوله «ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم» وبعد قوله «إني أحببت أن أشكر» أنه لما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم علىٰ بعض أعاد إلىٰ صلبه فلا تقوم الساعة حتّى يولد كل من أخذ ميثاقه، قال البغوي: ما معنى قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ وإنما أخرجهم من ظهر آدم؟ قلت: وبه نطق الأحاديث.

قيل: في جوابه إن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض علىٰ نحو ما يتوالدون فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه فأخرجوا من ظهره ولذٰلك لم يذكر ظهر آدم في الآية، قلت: وإخراج كلهم إلىٰ ظهر آدم إنما أسند في الحديث بناء علىٰ أنه لما كان

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٧٢.

بعضهم في ظهر بعض والأصول في ظهر آدم فكان كلهم في ظهره فصح إسناد إخراج كلهم إلىٰ ظهره، أو لأن المراد بآدم في الحديث آدم وبنيه اقتصر علىٰ ذكر آدم اكتفاء بذكر الأصل عن ذكر الفرع، قلت: ومعنىٰ قوله صلى الله عليه وآله وسلم «ضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء» أنه ضرب كتفه أو كتف أحد من أبنائه فأخرج منها ذرية بيضاء وكتفه أو كتف أحد منهم اليسرى فأخرج منها ذرية سوداء، ثم قال: «خلقت هٰؤلاء للجنة وهؤلاء للنار» قال البغوي: قال أهل التفسير: إن أهل السعادة أقروا طوعًا وأهل الشقاوة قالوا تقية وكرهًا وذلك معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] ﴿شَهِدْنَا﴾ قال السدي: هو خبر من الله تعالىٰ عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم، وقال بعضهم: هو خبر من قول بني آدم حين أشهد الله بعضهم على بعض فقالوا: بلىٰ شهدنا وقال الكلبي: ذٰلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره لما قالت الذرية بلىٰ قال الله تعالىٰ للملائكة اشهدوا ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ منصوب على العلية قرأ أبو عمرو يقولوا في الموضعين بالياء التحتانية على الغيبة تقديره أشهدهم كراهية أن يقولوا أو لئلا يقولوا والباقون بالفوقانية على الخطاب تقديره أخاطبكم بألست بربكم كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا، قلت والأولى[١] أن يقال تقديره علىٰ قراءة أبي عمرو ذكرهم يا محمد بالميثاق كراهة أن يقولوا إنا كنا عن هذا غافلين وعلى قراءة الجمهور أخبرتكم أيها الناس بالميثاق كراهة أن تقولوا ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ الميثاق أو الإقرار ﴿غَٰفِلِينَ﴾ فإن قيل: كيف يلزم الحجة واحد لا يذكر الميثاق؟ قيل: لما أخبر بذٰلك المخبر الصادق المؤيد بالمعجزة لزمهم الحجة ولا يسقط الاحتجاج بعدم حفظهم.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ اتباعًا لهم فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ أي تعذبنا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الأسلاف المشركون، يعني كراهة أن تعتذروا بالغفلة أو بالتقليد للآباء وليس شيء من ذٰلك مسقطًا للاحتجاج ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نبيّنها ليتدبر فيها العباد ويتذكروا ما نسوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ معطوف على مقدر تقديره لعلهم يتدبرون ويتذكرون ما نسوا ولعلهم يرجعون من الكفر إلى التوحيد، كذا قال السلف الصالح وجمهور المفسرين على ما يشهد به الأحاديث، وقال البيضاوي: ومن تبعه معنى الآية وإذ أخذ ربك أي أخرج من صلب آدم وأصلاب بنيه نسلهم علىٰ ما يتوالدون قرنًا بعد قرن وأشهدهم على أنفسهم أي نصب لهم دلائل على ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بالتوحيد حتى صاروا كأنهم، قيل: لهم ألست بربكم قالوا بلى فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم فيه منزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل، قال البيضاوي: ويدل عليه قوله قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا أي كراهة أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين

---

(١) وجه الأولوية أن تذكير الميثاق بلسان صاحب المعجزة يزيل الغفلة لا نفس الإشهاد والميثاق والله أعلم.

أي لم ننبّه بالدليل أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم فاقتدينا بهم لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم لا يصلح عذرًا، وقال: والمقصود من إيراد هٰذا الكلام الزام اليهود مقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم الميثاق المخصوص بهم في التوراة والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم عن التقليد وحملهم على النظر والاستدلال كما قال الله تعالىٰ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٤] عن التقليد واتباع الباطل، والقائل بهذا التفسير يؤول الأحاديث المذكورة أيضاً والله أعلم.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي اليهود ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها قال ابن عباس: هو بلعم بن باعور، وقال مجاهد: بلعام بن باعور قال عطية عن ابن عباس كان من بني إسرائيل، وروى أبو طلحة عنه أنه كان من الكنعانيين من مدينة الجبارين، وقال مقاتل من مدينة بلقاء. وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس وابن إسحٰق والسدي وغيرهم أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم إلى بلعم وكان عنده اسم الله الأعظم، فقالوا: إن موسىٰ عليه السلام رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه قد جاءنا يخرجنا من ديارنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة، فأخرج فادع الله أن يردهم عنا، قال: ويلكم نبي ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإن فعلت هٰذا ذهبت دنياي وآخرتي؟ فراجعوه وألحوا عليه، فقال حتّى أوامر ربي تبارك وتعالىٰ وكان لا يدعو حتّى ينظر ما يؤمر في المنام فأمّر في الدعاء عليهم فقيل له في المنام لا تدع عليهم فقال لقومه وأمرت ربي وإني قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقال حتّى أوامر، فأمر فلم يجىء له شيء فقال قد وامرت فلم يجىء إليَّ شيء فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولىٰ.

فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتاناً متوجهًا إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له حسان فلما سار عليها غير كثير ربصت[١] به فنزل عنها فضربها حتّى قامت فركبها فلم تسر به كثيرًا حتى ربصت فضربها حتّى أذن الله لها الكلام وكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب ألا ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هٰذا تذهب إلىٰ نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيلها فانطلقت حتّى إذا شرفت على جبل حسان جعل لا يدعو عليهم بشيء إلا صرف لسانه إلىٰ قومه: ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال قومه يا بلعم أتدري ما تصنع إنما تدعوهم وعلينا، قال: هذا ما لا أملك هٰذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع علىٰ صدره، فقال لهم: قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة فسامكر لكم واحتال جملوا النساء وزينوهن فاعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن

---

(١) ربصت: أي بركت.

لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى منهم رجل واحد كفيتموهم ففعلوا، فلما دخلت النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى بنت صور برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام، فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتّى وقف بها علىٰ موسىٰ عليه السلام فقال إني أظنك ستقول هٰذه حرام عليك، قال: أجل هي حرام عليك لا تقربها قال: فوالله لا أطيعك في هٰذه ثم دخل بها قبته فوقع عليها فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت، وكان الفنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسىٰ وكان رجلًا قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائبًا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون في بني إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ بحربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعًا إياهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته، وكان بكراً لعيزار وجعل يقول اللهم هٰكذا يفعل بمن يعصيك فرفع الطاعون فهلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين إن أصاب زمرى المرأة إلىٰ أن قتله فنحاص سبعون ألفًا في ساعة من النهار فمن هناك يعطى بنو إسرائيل أولاد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصره، وأخذه إياهما بذراعه وإسناده إياهما إلى لحيته والبكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار وفي بلعم أنزل الله عز وجل ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية.

وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام: ادع الله على موسى فقال إنه من أهل ديني لا أدعو عليه فتخشب خشبة ليصلبه فلما رأى ذٰلك خرج على أتان له وليدعو عليه فلما عاين العسكر قامت به الأتان ووقفت فضربها فقالت لم تضربني إني مأمورة وهٰذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع فأخبر الملك، فقال: لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا علىٰ موسىٰ بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع بنو إسرائيل في التيه بدعائه، فقال موسىٰ عليه السلام: يا رب بأي ذنب وقعنا في التيه فقال بدعاء بلعام قال: فكما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه فدعا موسىٰ عليه السلام أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان فنزع منه المعرفة وسلخه منها فخرجت منصورة كحمامة بيضاء فذٰلك قوله تعالىٰ ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وليث بن سعد: نزلت هٰذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولًا فرجى أن يكون ذلك الرسول فلما أرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حَسَده وكفر به وكان صاحب حكمة وموعظة حسنة، وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مر علىٰ قتلىٰ بدر فسأل عنهم فقيل قتلهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال لو كان نبياً ما قتل أقربائه فلما مات أمية أتت أخته فارعة رسول الله ﷺ فسألها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن وفاة أخيها فقالت بينما هو راقد قد آتاه آتيان وكشفا سقف البيت فنزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه أوعى قال:

وعى قال: أزكى قال: أبىٰ قالت فسألته عن ذلك فقال خير أريد بي فصرف عني فغشي عليه فلما أفاق قال:

كل عيش وإن تطاول دهرا صائر مرة إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنشديني من شعر أخيك فأنشدته بعض قصائده فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آمن شعره وكفر قلبه» فأنزل الله تعالىٰ وتقدس فيه ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ الآية، وفي رواية عن ابن عباس أنها نزلت في البسولس رجل من بني إسرائيل وكان أعطي له ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة له منها ولد فقالت اجعلني منها دعوة واحدة فقال لك منها واحدة فما تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا لها فجعلت أجمل النساء في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الزوج ودعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها وقالوا ليس لنا على هٰذا قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة والناس يعيروننا بها ادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات كلها، قال البغوي: والقولان الأولان أظهر، قلت: بل القول الثاني يرده قوله تعالىٰ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٢٤ ـ ٢٦] الآية، فإن تلك الآية تدل على أن وقوعهم في التيه لذلك القول لا لدعوة بلعام والله أعلم، وقال الحسن وابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله عز وجل لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله فذلك قوله تعالىٰ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ قال ابن عباس: والسدي يعني الاسم الأعظم، قال ابن زيد: كان لا يسأل شيئًا إلا أعطاه، وقال ابن عباس: في رواية أخرى أوتي كتابًا من كتب الله فانسلخ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يعني لحقه وقيل: استتبعه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ أي بسبب تلك الآيات، وقال مجاهد: لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مال إلى الدنيا وإلى السفالة كنى من الدنيا بالأرض لمناسبة الأسفلية أو لأن ما فيها من البلاد والعقار كلها أرض وسائر متاعها مستخرج من الأرض، قال الزجاج: خلد وأخلد واحد وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضيات الآيات أسند الله سبحانه الرفع إلى مشيئته والخلود إلى الأرض بمعنى الإقامة على الميل إلى الدنيا إلى العبد إشارة إلى أن هٰذا أمر

طبيعي يقتضيه ذاته لأجل إمكانه وعدمه الذاتي والرفع إلى الدرجات العلى أمر وهبي، إنما يستفاد من سبحانه بفضله، وقال البيضاوي: علق رفعه بمشيئة الله ثم استدرك عنه بفعل العبد تنبيهًا على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل على عدمها دلالة انتفاء المسبب علىٰ انتفاء سببه وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وإن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث إن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مبالغة وتنبيهًا علىٰ ما حمله عليه وعلىٰ أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهٰذا حديث مرفوع رواه البيهقي عن الحسن مرسلًا ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي صفته التي هي مثل في الخسة ﴿كَمَثَلِ﴾ كصفة ﴿ٱلۡكَلۡبِ﴾ في أخس أحواله وهو ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ أي يخرج لسانه من العطش أو من التعب والإعياء يعني يلهث دائمًا سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ولم يتعرض له لضعف فؤاده بخلاف سائر الحيوانات فإنه لا يلهث شيء منها إلا إذا حرك وأعيا أو عطش، والشرطية في موضع الحال والمعنى لاهثًا في الحالين ذليلًا دائم الذلة، قال مجاهد: هو مثل الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به والمعنى أن هذا الكافر إن زجرته ووعظته لم ينزجر وإن تركته لم يهتد فهو ضال أبدًا ذليل مثل ذلة الكلب لاهثًا أبدًا نظير هٰذه الآية في المعنى قوله تعالىٰ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣] ثم عم لهذا التمثيل جميع من كذب بآيات الله تعالىٰ فقال ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ من اليهود حيث قرأوا نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة وبشروا الناس باقتراب مبعثه فلما جاءتهم وأظهر المعجزات وقرأ القرآن المعجز وعرفوه كما يعرفون أبناءهم انسلخوا من آيات التوراة وكفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وصاروا أذلاء كالكلب لاهثًا لم ينفعهم الزواجر والمواعظ التي في التوراة ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكرًا يؤدي بهم إلى الاتعاظ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته وقيل: هذا مثال لكفار مكة وذٰلك أنهم كانوا يتمنون هاديًا يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله عز وجل فلما جاء بهم نبي لا يشكون في صدقه كذبوه فلم يهتدوا وادعوا أو تركوا.

﴿سَآءَ﴾ فاعله مضمر تميزه ﴿مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ أي مثل القوم حذف المضاف وإعراب المضاف إليه إعرابه ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ معطوف على كذبوا داخل في الصلة يعني الذين كذبوا وظلموا أنفسهم أو منقطع عما سبق، والمعنى وما يظلمون إلا أنفسهم فإن وباله لا يتخطاها ولذٰلك قدم المفعول ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ أفرد حملًا علىٰ لفظة من ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أورد لفظ الجمع حملًا على المعنى، فيه تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى وأن هداية الله تعالىٰ تختص ببعض دون بعض وأنها مستلزمة للاهتداء وليس معنى الهدى من الله البيان كما قالت المعتزلة، وفي إفراد لفظ المهتدي وجمع الخاسرين تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين،

والاقتصار في الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها عن عمر بن الخطاب أنه خطب بالجابية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له، فقال له: قس بين يديه كلمة بالفارسية فقال عمر لمترجم له ما يقول؟ قال: يزعم أن الله لا يضل أحدًا، فقال عمر: كذبت يا عدو الله بل الله خلقك وهو أضلك وهو يدخلك النار إن شاء الله تعالىٰ ولولا أن بيننا عقد لضربت عنقك فتفرق الناس وما يختلفون في القدر.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني المصرين على الكفر في علمه تعالىٰ عن عائشة عنه صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم»[1] رواه مسلم، ونحو ذلك فيما مر من حديث إخراج الذرية من صلب آدم، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي يديه كتابان فقال: «أتدرون ما هٰذان الكتابان؟» قلنا: لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا، فقال للذي في يده اليمنى «هٰذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا»، ثم قال للذي في شماله «هٰذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا»، فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ قال: «سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيّ عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيّ عمل» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيديه فنبذهما ثم قال: «فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير»[2] رواه الترمذي.

فإن قيل: كيف التوفيق بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قلنا: خلق الجن والإنس كلهم للعبادة من حيث نفس الخلق وأصل الحكمة في خلق العالم من غير ملاحظة علم الله فيهم اختيار الكفر وخلق كثيرًا من الجن والإنس لجهنم نظرًا إلى أنه تعالىٰ علم منهم اختيار الكفر وحق القول منه لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ولا منافاة بين الحيثيتين، وما قيل: إن قوله تعالىٰ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] وإن كان عامًا صيغة لكن أريد به الخصوص يعني من علم منهم الإيمان والطاعة فليس بشيء، وقول المعتزلة: بأن هٰذه لام العاقبة أي لتكون عاقبتهم جهنم، فلما كانت عاقبتهم جهنم جعل كأنهم خلقوا لها قرارًا عن إرادة الله المعاصي عدول عن الظاهر.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر حديث ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر باب ٨، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٧.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي ليس فيها استعداد معرفة الحق والنظر في دلائله ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ونظرًا لاعتبار في دلائله، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر وأن مشاعرهم وقواهم مقصورة على الأكل والشرب والجماع وأسباب التعايش ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام لأن للأنعام تميزًا بين الضار والنافع من وجه فتجتهد في جذب المنافع ودفع المضار غاية جهدها والكفار منهم من يقدمون على النار المؤبدة معاندة مع العلم بالهلاك قال الله تعالىٰ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ومنهم من كابر العقول وارتكب الفضول وضيّع ما أودع الله فيه من العقل والشعور فكيف يستوي المكلف المأمور والمخلي المعذور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ كمال الغفلة لا غيرهم بمثل تلك الغفلة هٰذه الجملة تدل علىٰ أن للأنعام والجمادات شعوراً ما بخالقهم ليسوا بغافلين كمال الغفلة ويشهد هٰذا قوله تعالىٰ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالىٰ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] قال مقاتل: إن رجلًا دعا الله في صلاة ودعا الرحمٰن، فقال بعض المشركين من أهل مكة: إن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربًا واحدًا فما بال هٰذا يدعو اثنين فأنزل الله عز وجل، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ دالة علىٰ معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ الدالة على الذات المتصفة بالصفات دون الصفات فحسب وبينهما بون بعيد ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي فسمّوه بتلك الأسماء، في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله تعالىٰ تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة» وفي رواية «وهو وتر يحب الوتر»[(١)] ولم يذكر الشيخان تعيين الأسماء التسعة والتسعين المذكورة في هٰذا الحديث لعدم ثبوته على شرطهما، وذكر الترمذي والبيهقي في الدعوات الكبير تعيينها عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله تعالىٰ تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٩، ومسلم في الذكر حديث ٥، ٦.

الجلال[١] والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور»[٢] واعلم أن أسماء الله تعالىٰ غير منحصرة في العدد المذكور ولعل الأسماء المذكورة في الحديث من خواصها أنه من أحصاها دخل الجنة ولذٰلك ضبطها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سلك واحد، واعلم أن من الأسماء التي وقعت في رواية الترمذي لم يقع سبعة وعشرون اسمًا منها في القرآن بصيغة الاسم الصريح وهو القابض والباسط والخافض والرافع والمعز والمذل والعدل والجليل والباعث والمحصي والمبدىء والمعيد والمميت والواجد والماجد والمقدم والمؤخر والوالي وذو الجلال والإكرام والمقسط والمغني والمانع والضار والنافع والباقي والرشيد والصبور، وقد وقع في القرآن بصيغة الاسم ما لم يقع في رواية الترمذي وهو خير وأبقى وإلٰه وشاكر ورب العالمين وأحَد ومالك يوم الدين والأعلى والأكرم وخفي وأعلم بمن ضل عن سبيله وأعلم بالمهتدين والقريب والنصير والقدير والمبين والخلاق والمبتلي والموسع والمليك والكافي وفاطر السمٰوات والأرض والقائم بالقسط وغافر الذنب وقابل التوب وشديد العقاب ونعم المولى والغالب على أمره وسريع الحساب وفالق الحب والنوى وفالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا وعلام الغيوب وعالم الغيب والشهادة وذو الطول وذو انتقام ورفيع الدرجات وذو العرش وذو المعارج وذو الفضل العظيم وذو القوة وذو المغفرة وجامع الناس ليوم لا ريب فيه ومتم نعمته ومتم نوره وعدو الكافرين وولي المؤمنين والقاهر فوق عباده وأسرع الحاسبين ومخرج الميت من الحي ومحيي الموتى وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وخير الرازقين وخير الماكرين وخير الفاتحين ومخزي الكافرين وموهن كيد الكافرين وفعال لما يريد والمستعان ونور السمٰوات والأرض وأهل التقوىٰ وأهل المغفرة ونعم الماهدون ورب الناس وملك الناس وإلٰه الناس وأقرب من حبل الوريد والقائم علىٰ كل نفس بما كسبت وأحق أن تخشاه الذي هو أغنى وأقنى والذي هو أمات وأحيٰى والذي هو أضحك وأبكى، والذي خلق الزوجين الذكر والأنثى والذي أهلك عاداً الأولى والذي لم يكن له ولد ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل والذي أنزل علىٰ عبده الكتاب والذي بيده ملكوت كل شيء والذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر والذي يبدأ الخلق ثم يعيده، والذي بيده الملك والذي بعث في الأميين رسولًا ونحو ذلك.

وقوله تعالىٰ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] في الحديث أنه الاسم الأعظم، وقد ذكرنا تحقيق الاسم الأعظم في أوائل سورة آل عمران ومنها ما وقع في الأحاديث سوى الحديث المذكور وليس في القرآن كالحنان والمنان والجواد والأجود والفرد والوتر والصادق والجميل والقديم والبار والوافي والعادل والمعطي والمغيث والطيب والطاهر والمبارك وخالق الشمس والقمر المنير ورازق الطفل الصغير

---

(١) هذا وقع في التنزيل في سورة الرحمن ـ ١٢ أبو الخير ـ.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعاء باب ٨٢.

وجابر العظم الكسير وكبير كل كبير والذي نفسي بيده وغير ذٰلك ثم اعلم أن أسماء الله تعالىٰ غير منحصرة فيما ورد في القرآن، والأحاديث فقد روي أنه تعالىٰ أنزل في التوراة ألفًا من أسمائه، وقد كان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم «اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك وأنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[1] فلا بد من الإيمان مجملًا بجميع أسماء الله تعالىٰ التي سمى الله تعالىٰ بها نفسه ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ قرأ حمزة هنا وفي فصلت بفتح الياء والحاء والباقون بضم الياء وكسر الحاء، ومعنى الإلحاد واللحد الميل عن القصد قال: يعقوب بن السكيت. الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ما ليس منه فيه يقال ألحد في الدين ولحد والذين يلحدون في أسمائه هم المشركون عدلوا بأسماء الله عما هي عليه فسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان، هٰذا قول ابن عباس ومجاهد وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة، روي عن ابن عباس معنًى يلحدون في أسمائه يكذبون، وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تعالىٰ تسميته تعالىٰ بما لم يتسم ولم ينطق به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والحاصل أن أسماء الله تعالىٰ توقيفية فإنه يسمى جوادًا ولا يسمى سخيًا ويسمى عالمًا ولا يسمى عاقلًا ويسمى رحيمًا ولا يسمى رقيقًا، وقال الله عز وجل: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال عز وجل ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] ولا يقال يا خادع يا مكار ويقال يا قائم بالقسط ولا يقال يا قائم ولا يقال يا خالق القردة والخنازير ويا كبير من زيد وإن كان زيد أكبر من ملوك الدنيا بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على أوجه التعظيم.

ولا يجوز لنا أخذ اسم من أسماء الله تعالىٰ التي وردت في التوراة من اليهود لعدم الاعتماد علىٰ قولهم لكفرهم لكن من أسلم من أحبارهم وحسن إسلامه فلابأس بالأخذ منه، فإن عمر رضي الله عنه وابن عباس وأبا هريرة وغيرهم من الصحابة كانوا يسألون أبناء التوراة من كتب الأحبار وعبدالله بن سلام من غير نكير فمعنى الآية على هذا وذروا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لم يرد به الشرع، أو المعنى ذروا الملحدين يعني لا تبالوا بإنكارهم فيما سمى به نفسه كقولهم ما نعرف إلا رحمٰن اليمامة، أو المعنى ذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات ولا توافقوهم عليه أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ قال البغوي: قال عطاء عن ابن عباس: يريد أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، وقال قتادة: بلغنا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ هٰذه الآية قال: «هٰذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسٰى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»، وقال الكلبي: هم من جميع الخلق، وعلى كلا التقديرين ذكر الله

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٩١، ٤٥٢.

تعالىٰ في هٰذه الآية بعد ما بيَّن أنه خلق للنار طائفة ظالمين ملحدين عن الحق أنه خلق للجنة أمة هادين عادلين في الأمر، والاستدلال بهذه الآية علىٰ صحة إجماع كل عصر ضعيف إذ لا دلالة فيها على أن في كل فرقة طائفة بهٰذه الصفة فلا مساس لهذه الآية بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتّى يأتي أمر الله وهم علىٰ ذٰلك» متفق عليه من حديث معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني كفار مكة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ يعني سنقربهم إلى الهلاك قليلًا قليلًا وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون، وقال الكلبي تزين لهم أعمالهم فنهلكهم وقال الضحاك كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وقال سفيان الثوري نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ عطف على سنستدرجهم يعني أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم وأزين أعمالهم السوء وأمهلها ليتمادوا في المعاصي المفضية إلى الهلاك ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي أخذي شديد وإنما سماه كيدًا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان قال ابن عباس: إن مكري شديد، قيل: نزلت في المستهزئين فقتلهم الله في ليلة واحدة والله أعلم أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قام على الصفا ليلًا فجعل يدعو قريشًا فخذاً فخذاً يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح فأنزل الله تعالىٰ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ سكته ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿جِنَّةٍۚ﴾ أي جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ موضح إنذاره بصورة جلية بحيث لا يخفى علىٰ أحد.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ نظر استدلال ﴿فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ يعني ما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يحصى الدلالة على كمال قدرة صانعها ووحدته ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ﴾ عطف علىٰ ملكوت وأن مصدرية أو خفيفة عن الثقيلة واسمه ضمير الشأن وكذا اسم يكون، والمعنى أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها حتّى يسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل حلول آجالهم، والاستفهام في أو لم يتفكروا ولم ينظروا للإنكار والتعجب والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يؤمنوا بالقرآن والنبيّ ورموه بالجنون ولم يتفكروا ولم ينظروا ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد القرآن العربي المعجز المشحون من العلم والحكمة علىٰ لسان رجل منهم أمي غير متهم قط بالكذب ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بالقرآن يعني لعل آجالهم قريبة فما بالهم لا يتبادرون الإيمان بالقرآن وما يطلبون أوضح دليل منه فإذا لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به.

ثم ذكر علة إعراضهم فقال، ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الله والباقون بالنون على التكلم، وقرأ حمزة والكسائي يذرهم بالجزم عطفًا على محل فلا هادي له كأنه قال: فلا

يهده أحد غيره ويذرهم، والباقون بالرفع على الاستئناف، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون متحيرين يعمهون حال من الضمير المنصوب في يذرهم، أخرج ابن جرير عن قتادة وغيره أنه قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن بيننا وبينك قرابة فأشر إلينا متى الساعة، وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال: قال حمل بن أبي قشير وسمول بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم ما هي فأنزل الله تعالىٰ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي القيامة وهي من الأسماء الغالبة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها عند الله كساعة، ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿مُرْسَاهَا﴾ مصدر ميمي يعني إرسائها أي إثباتها واستقرارها ورسو الشيء ثباته واستقراره ومنه رسا الجبل وأرسى السفينة، قال ابن عباس: معناه منتهاها، وقال قتادة: قيامها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ استأثر بعلمها لا يعلمها إلا هو لم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاءها ﴿لِوَقْتِهَا﴾ أي في وقتها ﴿إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ثقل علمها وخفي أمرها بأعلىٰ أهل السمٰوات والأرض وكل خفي ثقيل أو يقال كل من أهل السمٰوات والأرض من الملائكة وغيرهم أهمه شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاءها أو ثقلت فيها لأنهم يخافون شدائدها وأهوالها، وقال الحسن: معناه إذا جاءت ثقلت علىٰ أهلها من الملائكة والثقلين وعظمت كأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة على غفلة، في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبًا بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبًا بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمها، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلىٰ فيه فلا يطعمها»(١) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: لينفخن في الصور والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم حتى ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أحدهما من يده حتّى ينفخ في الصور فيصعق به قال: وهي التي قال الله تعالىٰ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩] قال: تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح وفي حوائجهم فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، وأخرج عبدالله بن أحمد في رواية الزهد عن زيد بن العوام قال: إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب والرجل يحلب الناقة ثم قرأ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [يس: ٥٠] الآية، وأخرج الطبراني بسند جيد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس فلا تزال ترتفع في السماء تنتشر حتى تملأ السماء ثم ينادي منادٍ يا أيها

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٠، والفتن باب ٢٥، ومسلم في الفتن حديث ١٤٠، وأحمد في المسند ٢/٣٦٩.

الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه» قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده إن الرجلان ينشران الثوب فلا يطويانه وإن الرجل ليمدَد حوضه[١] فلا يسقى منه شيئًا والرجل يحلب ناقته فلا يشربه»[٢] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ فعيل من حفى الشيء إذا سأل عنه وبالغ في السؤال، والمعنى كأنك عالم بها فإنه من بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحكم علمه فيه ولذلك عديَ بعن، وقيل: عنها متعلق يسألونك تقديره يسألونك عنها كأنك حفي أي عالم، وقيل: هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشًا قالوا إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى يسألونك عنها كأنك شفيق بقريش تخصهم بالاطلاع عليها لأجل قرابتك بهم ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرره لتكرير يسألونك لما نيط به قوله كأنك حفي للمبالغة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها مما استأثره الله ولم يؤته أحدًا من خلقه ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي جلب منفعة ولا دفع مضرة دينية ولا دنيوية وهو إظهار للعبودية والتبري عن دعوى العلم بالغيب ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من ذلك فيعلمني به وحيًا جليًا أو خفيًا ويعطني قدرة على جلب النفع أو دفع الضرر ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ يعني لاستكثرت من جلب المنافع ودفع المضار حتّى لا يمسني سوء ولم أكن مغلوباً في الحروب تارة وغالباً أخرى وقيل معناه لو كنت أعلم الغيب يعني متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح وما مسني السوء يعني أجتنب عما يكون من الشر والفتنة، وقيل: معناه لو كنت أعلم الغيب أي متى الساعة لأخبرتكم حتّى تؤمنوا وما مسّني السوء بتكذيبكم، وقيل: ما مسني السوء كلام مبتدأ لقولهم إنك مجنون يعني ما مسني جنون ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ للكافرين ﴿وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون، وجاز أن يكون ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ متعلقًا لبشير ونذير كليهما على سبيل تنازع الفعلين فإن النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ
حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ
ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ
يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ
عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

(١) امدد الحوض طينه لتستلب منه الماء ـ ١٢ ـ.
(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٠٠٤.

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ
بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ
يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي من جسدها من ضلع من أضلاعها ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليأنس بها ويطمئن إليها ذكر الضمير ذهابًا إلى المعنى ليناسب قوله ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها ﴿حَمَلَتْ﴾ حواء ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خف عليها ولم تلق منه ما تلقى الحوامل غالبًا من الأذى أو محمولًا خفيفًا وهو النطفة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي فمضت به إلىٰ وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق أو فاستمرت به وقامت وقعدت ولم يثقلها ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي صارت ذات ثقل إذا كبر الولد في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي دعا آدم وحواء ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ يا ربنا ﴿صَٰلِحًا﴾ سويًا قد صلح بدنه مثلنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك علىٰ هٰذه النعمة المجددة، قال البغوي: قال المفسرون لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل وقال لها ما الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري، قال: أخاف أن يكون بهيمة أو كلبًا أو خنزيرًا وما يدريك من أين يخرج من دبرك فيقتلك أو من فيك أو ينشق بطنك فخافت حواء من ذٰلك وذكرت ذٰلك لآدم عليه السلام فلم يزالا في همّ من ذٰلك ثم عاد إليها فقال إني من الله بمنزلة فإن دعوت الله أن يجعله خلقًا سويًا مثلك ويسهل عليك خروجه أتسميه عبد الحارث؟ وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث فذكرت لآدم عليه السلام فقال: لعله صاحبنا الذي قد علمت، فعاودها إبليس فلم يزل بهما إبليس حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحارث قال الكلبي: قال لها: إن دعوت الله فولدت إنسانًا أتسميه بي قالت نعم فلما ولدت قال: سميه بي قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث ولو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحارث، وروي عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد وآدم يسميه عبدالله وعبيدالله وعبد الرحمٰن فيصيبهم الموت فسمياه عبد الحارث فعاش. وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وقال: غريب والحاكم وصححه عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته فعاش فكان ذٰلك من وحي الشيطان وأمره»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٧، باب ٤، وأحمد في المسند ٥/ ١١.

قال البغوي: جاء في الحديث أنه خدمهما إبليس مرتين مرة في الجنة ومرة في الأرض وقال ابن زيد: ولد لآدم فسماه عبدالله فأتاها إبليس فقال ما سميتما ابنكما؟ قالا: عبدالله وكان قد ولد لهما قبل ذٰلك ولد فسمياه عبدالله فمات، فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما؟ والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمياه عبد الشمس، قال البغوي: والأول أصح.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ بشرًا سويًا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ قرأ أبو بكر شركًا بكسر الشين والتنوين أي شركة، قال أبو عبيدة: يعني حظًا نصيبًا، وقرأ الآخرون بضم الشين وفتح الراء والمد والهمز جمع شريك، قال البغوي: أخبر عن الواحد بلفظ الجمع أي جعلا له شريكًا إذ سمياه عبد الحارث، وقال: لم يكن هٰذا إشراكًا في العبادة ولا في اعتقاد أن الحارث ربهما فإن آدم كان نبيًا معصومًا من الشرك ولٰكن قصد أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما يطلق اسم الرب علىٰ من لا يراد به أنه معبود وهٰذا كالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف علىٰ وجه الخضوع لا علىٰ أن الضيف ربه ويقول للغير أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] ولم يرد به أنه معبوده كذٰلك هٰذا، وقال الحسن وعكرمة معنى قوله تعالىٰ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] أنه جعل أولادهما يعني كفار مكة وغيرهم له تعالىٰ شركاء فيما آتى أولادهما علىٰ حذف المضاف في الموضعين وإقامة المضاف إليه مقامه نظيره قوله تعالىٰ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة: ٥١] ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسًا﴾ [البقرة: ٧٢] خطابًا للذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود وكان ذٰلك من فعل آبائهم والمعنى ثم اتخذ آباؤكم العجل وإذ قتل أسلافكم نفسًا، ويؤيد هٰذا القول إيراد شركاء بصيغة الجمع.

وقوله تعالىٰ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، يعني الأصنام وكذا ما بعدها من الآيات، وقال البغوي: قيل: هٰذا ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكة ولئن أراد ما سبق فمستقيم من حيث إنه كان الأولىٰ بهما أن لا يفعلا ما فعلا من الإشراك في الاسم، وقال السيوطي: هٰذا معطوف علىٰ خلقكم وما بينهما اعتراض، وقال البغوي: وقيل: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهوّدوهم ونصروهم، وقال ابن كيسان: هم الكفار سموا أولادهم عبد العزى وعبد اللات وعبد المناف وعبد الشمس وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي من أبيه وجعل منها أي من جنسها زوجها، قال البغوي: وهٰذا قول الحسن والأول قول السلف ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وجماعة من المفسرين أنه آدم وحواء، قلت: ذكر الله سبحانه من آدم قصة أكل الشجرة بعد ما نهىٰ عنه وأشنع عليه في القرآن في عدة مواضع حيث قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وذكر أنه ندم علىٰ ذٰلك كثيرًا حيث قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فتاب الله سبحانه عليه وقال: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢] ومع ذٰلك ندم آدم علىٰ تلك الزلة أبدًا حتّى أنه ورد في الصحيحين في حديث طويل عن أنس أن النبيّ صلى

الله عليه وآله وسلم قال: «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتّى يهموا بذٰلك فيقولون: لو استشفعنا إلىٰ ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك فيريحنا من مكاننا هٰذا فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهي عنها»(١) ولم تذكر هٰذه الخطيئة من آدم عليه السلام ولو كانت تلك الخطيئة من آدم عليه السلام لكانت أغلظ من الأولىٰ في هذا المقام تأويل النصوص على ما قال الحسن وعكرمة، ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ به تعالىٰ ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني إبليس والأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هم ضمير للأصنام جيء به بناء علىٰ تسميتهم آلهة ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعون عن أنفسهم مكروه من أرادهم بكسر أو نحو ذٰلك ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي المشركين ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي الإسلام ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ قرأ نافع هٰهنا وفي الشعراء ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] بسكون التاء المثناة من فوق وفتح الموحدة من المجرد والباقون بتشديد المثناة وكسر الموحدة من الافتعال، وهما بمعنًى يقال تبعه واتبعه اتباعًا، وقيل: الخطاب للمشركين والضمير المنصوب في تدعوهم للأصنام أي أن تدعوا أيها الكفار الأصنام إلى أن يهدوكم لا يتبعوكم أي لا يجيبوكم إلىٰ مرادكم كما يجيب الله ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ لم يقل أم صمتم لرعاية رؤوس الآي وللمبالغة في عدم إفادة الدعاء من حيث إن الدعاء مستوٍ بالثبات على الصمات أو لأنهم ما كانوا يدعونها لحوائجهم فكأنه قيل: سواء عليكم إحداثكم دعائهم واستمراركم على الصمات عن دعائهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي مخلوقة مملوكة مذللة مسخرة لما أريد منهم قال مقاتل: أراد به الملائكة والخطاب مع قوم يعبدون الملائكة والأول أصح، ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنها آلهة ويحتمل أنهم لما نحتوا الأصنام بصور الأناسي قال لهم: إن منتهى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحقها بعضكم من بعض ثم بين أنها دونكم منزلة فقال ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ قرأ أبو جعفر هٰهنا وفي القصص والدخان بضم الطاء والباقون بكسرها ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ كما هي لكم فكيف تعبدون ما هي أدون منكم منزلة ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ قرأ هشام بخلاف عنه بإثبات الياء في الحالين وأبو عمرو بإثباتها في الوصل خاصة، والباقون بحذفها في الحالين يعني بالغوا فيما تقدرون أنتم وشركاؤكم في المكر وإصابة المكروه ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تمهلوني فإني لا أبالي بكم لوثوقي علىٰ ولاية الله تعالىٰ وحفظه.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ﴾ أي حفيظي ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من عباده

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤.

فضلًا من أنبيائه قال ابن عباس: الذي لا يعدلون بالله شيئًا فالله يتولاهم بنصره ولا يضرهم عداوة من عاداهم ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ﴾ يعني الأصنام ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ أيها المخاطب ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني أنهم يشبهون الناظر إليك لأنهم صوروا الصورة الإنسان، وقال الحسن: معنى الآية إن تدعوهم يعني المشركين على الإسلام لا يسمعوا أي لا يعقلون ذلك بقلوبهم وتراهم ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرون بقلوبهم والله أعلم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال عبدالله بن الزبير ومجاهد: أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم وما يسهل عليهم وذٰلك مثل قبول اعتذار والعفو والمساهلة وترك البحث عن الأشياء والتجسس ونحو ذٰلك ولا تطلب ما يشق عليهم فالعفو هو ضد الجهد وقيل: معناه خذ العفو عن المذنبين، أخرج البخاري عن ابن عباس قال: «قدم عيينة بن حصين بن حذيفة فدخل على ابن أخيه الحر بن يقيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل قال: يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتّى هم أن يوقع به فقال الحسن: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإن هٰذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل. عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا وقف العباد للحساب جاء قوم» فذكر الحديث وفيه «ثم نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل: ومن ذا الذي أجره على الله؟ قال: «العافون عن الناس فقام كذا وكذا ألفًا فدخلوها بغير حساب»(١) رواه الطبراني بإسناد حسن، وروي أنه نزلت هٰذه الآية قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبرئيل «ما هٰذا؟ قال: لا أدري حتّى أسأل ربي، ثم رجع فقال: إن ربك أمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك» رواه ابن مردويه عن جابر وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي مرسلًا، وعن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من سره أن يشرف له البنيان ويرفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه»(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد كذا قال: لكنه منقطع، وعن ابن عمر قال:

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٩، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٩٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٣٠٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٩، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٧٣، وابن كثير في تفسيره ٢/ ١٠٣.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الواصل بالمكافئ ولٰكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[١] رواه البخاري.

وعن أبي هريرة أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئوا إلي وأحلم عنهم ويجهلون عليّ؟ فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم الملّ[٢] ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذٰلك»[٣] رواه مسلم، قال ابن عباس: والضحاك والكلبي معنى الآية خذ ما عفا لك من الأموال وهو الفضل من العيال وذلك معنى العفو في قوله تعالىٰ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم نسخت هذه بالصدقات المفروضات ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بما هو معروف حسنة من الأفعال شرعًا وعقلًا، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذٰلك أضعف الإيمان»[٤] رواه مسلم، وعن حذيفة أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسم قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابًا من عنده ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم»[٥] رواه الترمذي ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يعني إذا سفِه عليك الجاهلون فلا تقابلهم بالسفه ولا تكافيهم بمثل أفعالهم نظيره قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] قال جعفر الصادق رضي الله عنه: أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هٰذه الآية، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال»[٦] رواه البغوي، وعن عائشة أنها قالت: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحشًا ولا متفحشًا ولا سخابًا في الأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة ولٰكن يعفو ويصفح[٧] رواه الترمذي والبغوي.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ما زائدة بعد أن الشرطية والنزغ النخس وهو الضرب برؤوس

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٥، وأبو داود في الزكاة باب ٤٥، والترمذي في البر باب ١٠، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٣، ١٩٠، ١٩٣.

(٢) الملّ: الرمل الحار الذي يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج، أراد إنما تجعل الملّ سفوفًا يستفونه، حتى أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار في بطونهم.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٢٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٠، ٤١٢، ٤٨٤.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٧٨، وأبو داود في الملاحم باب ١٧، والترمذي في الفتن باب ١١.

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٩.

(٦) أخرجه البغوي في تفسيره ٢/ ٣٢٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٧٧٠.

(٧) أخرجه الترمذي في البر باب ٤٧، ٦٩.

الأصابع والمراد هٰهنا التحريك إلى الشر والإغواء والوسوسة والمعنى أن يصيبك ويعتريك ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد لما نزل قوله تعالىٰ ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: كيف يا رب والغضب فنزل ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ أي استجر به جواب الأمر محذوف أي يدفعه عنك ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لقولك ﴿عَلِيمٌ﴾ بالتجائك وبما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع لأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها مغنيًا إياك عن الانتقام واتباع الشيطان، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة على وزن فاعل من طاف يطوف والمراد به لمة كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم يقدر أن يؤثر فيهم أو من طاف به الخيال يطيف طَيفًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب طيف بغير همز على أنه مصدر على وزن ضرب أو مخفف طيّف علىٰ وزن ليّن وهيّن ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ المراد به الجنس ولذٰلك جمع ضميره[1] ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما أمر الله به ونهى عنه وثوابه وعقابه وأن هذه لمة من الشيطان ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي الذين اتقوا ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ مواقع الخطأ مكائد الشيطان بسبب التذكر فيتحرّزون عنها ولا يتبعونه فيها، قال السدي: المتقي إذا زل تاب، وقال مقاتل: إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية فأبصر ونزع عن مخالفة الله تعالىٰ والآية تأكيد وتقرير لما قبلها وكذا قوله ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ أي إخوان الشياطين يعني الفساق وجاز أن يكون المراد بالإخوان الشياطين ويعود الضمير إلى الجاهلين قال الكلبي: لكل كأفراخ من الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والباقون بفتح الياء وضم الميم من المجرد يعني يمدهم الشياطين أي يعينونهم بالتسهيل والإغواء، أو هم يمدون الشياطين بالاتباع والامتثال ﴿فِي ٱلۡغَيِّ﴾ أي الضلال ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ أي لا يكفوا الفساق عن الضلالة ولا يبصرون بخلاف المؤمنين تذكروا فإذا هم مبصرون كذا قال الضحاك: ومقاتل، أو المعنى ثم لا يكفون الشياطين عن إغوائهم حتّى يردونهم، قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسكون عنهم.

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم﴾ يا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ من القرآن أو معجزة مما اقترحوه ﴿قَالُواْ﴾ يعني الكفار ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ أي هلا جمعتها تقولاً من نفسك يقول العرب اجتبيت الكلام إذا اختلقته أو هلا أخذتها من الله، قال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الآيات تعنتًا فإذا تأخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها أي هلا أنشأتها من عندك ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أي لست بمختلق للآيات أو لست بمقترح لها ﴿هذا﴾ القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾ للقلوب بها تبصر الحق من الباطل والصواب من الخطأ أو حجج وبرهان يظهر بها صدق دعواي ﴿مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه من طريق أبي

(١) في وإخوانهم ـ ١٢ أبو الخير ـ.

عياض عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت هذه الآية، وفي رواية عنه أنها نزلت في رفع الأصوات خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي فلم يرد وكان الرجل قبل ذٰلك يتكلم في صلاته ويأمر لحاجته فلما فرغ رد عليه وقال: إن الله يفعل ما يشاء وإنها نزلت ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: كنا نسلم بعضنا علىٰ بعض في الصلاة فنزلت فاستمعوا له وأنصتوا، وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن عبدالله بن مغفل قال: كان الناس يتكلمون في الصلاة فأنزل الله هذه الآية فنهى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن الكلام في الصلاة، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو الشيخ وابن جرير والبيهقي عن قتادة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة أول ما أمروا بها كأن الرجل يجيء وهم في الصلاة فيقول لصاحبه كم صليتم فيقول كذا وكذا فأنزل الله هٰذه الآية فأمروا بالاستماع والإنصات، وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فأنزل الله هٰذه الآية. فهٰذه الروايات تدل على أن الآية نزلت للنهي عن الكلام في الصلاة، فقال أبو حنيفة رحمه الله: وهو رواية عن أحمد أن الكلام في الصلاة عامدًا كان أو ناسيًا أو ساهيًا أو مكرهًا أو جاهلًا بالتحريم قل أو كثر ينقض الصلاة، غير أن السلام ناسيًا غير مبطل للصلاة، وعند الأئمة الثلاثة إذا تكلم في صلاته أو سلم ناسيًا أو جاهلًا بالتحريم أو سبق لها لسانه لا تبطل صلاته وإن طال، والأصح عند الشافعي أن الكلام ناسيًا ونحو ذٰلك إن طال يبطل، وعن مالك أن كلام العامد فيما فيه مصلحة وإن لم يكن عائدة إلى الصلاة كإرشاد الضال وتحذير الضرير لا يبطل الصلاة. ٱحتج الأئمة الثلاثة بحديث ابن سيرين عن أبي هريرة قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إحدى صلاة العشاء فصلى ركعتين ثم سلم فقام إلىٰ خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنه غضبان ووضع يده اليمنى على اليسرى وشبك بين أصابعه ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى وخرجت السرعان من أبواب المسجد، فقالوا: قصرت الصلاة وفي القوم أبو بكر وعمر فهاباه أن يكلماه وفي القوم رجل في يديه طول يقال له ذو اليدين فقال: يا رسول الله نسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: «لم أنس ولم تقصر»، فقال «أكما يقول ذو اليدين؟» فقالوا: نعم فتقدم فصلى ما ترك ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر فربما سألوه ثم سلم، فيقول يعني ابن سيرين نبئت أن عمران بن حصين قال: ثم سلم»[1] متفق عليه، وبحديث عمران بن حصين أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سَلَّمَ في ثلاث ركعات من العصر ثم دخل منزله فقام إليه رجل يقال له الخرباق وكان في يديه طول، فقال يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٨٨، والسهو باب ٥٧، والمغازي باب ٥٤، والأدب باب ٤٥، ومسلم في المساجد حديث ٩٧.

الله فذكر به فخرج كأنه غضبان يجر رداءه حتّى انتهى إلى الناس فقال أصدق هذا؟ قالوا نعم فصلى ركعة ثم سلم ثم سجد سجدتين ثم سلم رواه مسلم.

وجه الاحتجاج أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تكلم معتقدًا أن صلاته قد تمت وأنه ليس في الصلاة وكذلك ذو اليدين لإمكان النسخ. واعترض علىٰ هذا الحديث بوجوه: أحدها أن أبا هريرة أسلم في سنة سبع وذو اليدين قتل يوم بدر فكيف يصح قوله صلى بنا، وثانيها أن ألفاظه تختلف فتارة يروىٰ فسلم من ركعتين وتارة من ثلاث، وثالثها أن هذا كان حين كان الكلام مباحًا في الصلاة ولهٰذا تكلم أبو بكر وعمر والناس عامدين، وأجيب بأنه اتفق الأئمة على صحة الحديث واسم ذي اليدين الخرباق كما ذكر في حديث عمران بن حصين وهو عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما المقتول يوم بدر ذو الشمالين اسمه عمير، وإنما وقع اعتراضهم على رواية الزهري لهٰذا الحديث فإنه قال في رواية: فقام ذو الشمالين، قال أبو داود السجستاني: وهم الزهري في هذا الحديث فرواه عن ذي الشمالين ظنًا منه أن ذا الشمالين وذا اليدين واحد، وأما اختلاف ألفاظه فجوابه أن حديث أبي هريرة لم يختلف وإنما يروىٰ الثلاث من عمران وهو من أفراد مسلم وحديث أبي هريرة أصح وأن الشك في العدد لا يضر مع حفظ أهل الحديث وثبوت الكلام ناسيًا، وأما تحريم الكلام فقال أبو حاتم بن حبان: إنما كان الكلام بمكة فلما بلغ المسلمون بالمدينة سكتوا، وقال زيد بن أرقم وهو من أهل المدينة: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فأمرنا بالسكوت، وقال أبو سليمان الخطابي: نسخ الكلام بعد الهجرة بمدة يسيرة وعلى القولين كأن تحريم الكلام قبل إسلام أبي هريرة بيقين. وأما كلام أبي بكر وعمر الناس فأجيب عنه بوجهين أحدهما أن في رواية حماد بن زيد عن أيوب أنهم أومؤوا أي نعم فدل ذٰلك أن رواية من روى أنهم قالوا نعم فيه تجوز والمراد أنهم أومؤوا ثانيهما أنه لم ينسخ من الكلام ما كان جوابًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحديث أبي سعيد بن المعلى قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم أجبه حتّى أتيته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال «ألم يقل الله ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾»[1] [الأنفال: ٢٤]» رواه البخاري، واحتج أبو حنيفة بحديث معاوية بن الحكم قال: بينا نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ عطس رجل من القوم فقلت له يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أماه ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتوني لكني سكت، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعاني فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه والله ما لهزني[2] ولا شتمني ولا ضربني ثم قال: «إن هٰذه الصلاة لا يصلح فيها

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٨، باب ٣.
(٢) اللهز الضرب بجميع الكف في الصدر.

شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[١] رواه مسلم، وبحديث جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكلام ينقض الصلاة ولا ينقض الوضوء»[٢] رواه الدارقطني، وأجيب بأن حديث معاوية حجة على أبي حنيفة لا له حيث لم يأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإعادة الصلاة وإنما علمه أحكام الصلاة، وقال له: لا يصلح لأنه محظور في الصلاة، وأما حديث جابر فهو من رواية أبي شيبة عن يزيد بن خالد عن أبي سفيان وأبو شيبة اسمه عبد الرحمٰن بن إسحٰق ضعيف، كذٰلك قال يحيى بن معين وقال أحمد: ليس بشيء منكر الحديث ويزيد لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد كذا قال ابن حبان والله أعلم وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد: إن الآية في الخطبة أمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة واختار السيوطي هذا القول وقد ذكرنا مسألة الإنصات في الخطبة في سورة الجمعة، وقال عمر بن عبد العزيز الإنصات لقول كل واعظ وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار يعني بالدعاء والتعوذ وقال قوم: نزلت الآية في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام، قال البغوي: روىٰ زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة، وذكر البغوي: عن المقداد أنه سمع ناسًا يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفقهوا إذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله، قال البغوي: وهٰذا قول الحسن والزهري والنخعي أن الآية في القراءة في الصلاة خلف الإمام، قال البغوي وهذا أولىٰ ممن قال: إنها نزلت للإنصات في الخطبة لأن الآية مكية والجمعة وجبت بالمدينة، وقال ابن همام: أخرج البيهقي عن الإمام أحمد قال: أجمع الناس على أن هذه الآية في الصلاة وأخرج عن مجاهد كان عليه السلام يقرأ في الصلاة فسمع قراءة فتى من الأنصار فنزل ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الإسراء: ٢٠٤] وقد ذكرنا مسألة القراءة خلف الإمام في سورة المزمل في تفسير قوله تعالىٰ ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠] وأخرج ابن جرير عن الزهري قال: نزلت هٰذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلما قرأ شيئًا قَرَأَه، قلت: يعني خارج الصلاة، وقال سعيد بن منصور في سننه حدثني أبو معشر عن محمد بن كعب قال: كانوا يتلقون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ شيئًا قرأوا معه حتّى نزلت هذه الآية في الأعراف، قال صاحب لباب النقول في أسباب النزول ظاهر تلك الرواية أن الآية مدنية.

فصل: اختلف العلماء في وجوب الاستماع والإنصات علىٰ من هو خارج الصلاة يبلغه صوت من يقرأ القرآن في الصلاة أو خارجها؟ قال البيضاوي: عامة العلماء على استحبابها خارج الصلاة، وقال ابن همام: وفي كلام أصحابنا ما يدل علىٰ وجوب الاستماع في الجهر

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٣٣، بلفظ: «... ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني..».

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ١٧٤.

بالقراءة مطلقًا، قال في الخلاصة: رجل يكتب الفقه وبجنبه يقرأ القرآن فلا يمكنه استماع القرآن فالإثم على القارئ وعلىٰ هذا لو قرأ على السطح في الليل جهرًا والناس نيام يأثم، وهذا صريح في إطلاق الوجوب ولأن العبرة لعموم اللفظ دون خصوص السبب، قلت: وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ القرآن بالليل جهرًا بحيث يسمع من وراء حجرته وربما يسمعه الجيران، روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أم هانئ قالت كنت أسمع قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالليل وأنا علىٰ عريشي[(١)]، قال البغوي: في شرح السنة: العريش السقف سميت بيوت مكة عروشًا لأنها عيدان تنصب وتظلل، وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس، قال: كانت قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على قدر ما يسمعه من في الحجرة وهو في البيت[(٢)]، وروى الطحاوي بلفظ كان يصلي بالليل فيسمع قراءته من وراء الحجرة وهو في البيت وقد كانت في بيوت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نساؤه وربما كانت إحداهن نائمة وهو يصلي، روىٰ البخاري في الصحيح عن عائشة قالت: «كنت أنام بين يدي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتها قالت والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح»[(٣)].

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤون القرآن بالليل والنهار ورافعي أصواتهم من غير نكير، روي مسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «لقد رأيتني وأنا أسمع لقراءتك البارحة»[(٤)]، وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين حين يرحلون وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»[(٥)] ولا شك أن بعض الناس في العسكر كانوا نيامًا وقت قراءة الأشعريين وروىٰ ابن أبي داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سمع ضجة ناس في المسجد يقرؤون القرآن فقال طوبى لهٰؤلاء كانوا أحب الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهٰذه الأحاديث تدل على فساد ما أفتى به صاحب الخلاصة، وأخرج ابن مردويه في تفسيره قال: ثنا أبو أسامة عن سفيان عن أبي المقدام هشام بن زيد عن معاوية بن قرة قال: سألت بعض مشايخنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسبه قال عبدالله بن مغفل: كل من سمع القرآن وجب عليه الاستماع والإنصات، قال: إنما نزلت هٰذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ

---

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح باب ٨١، وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٩، وأحمد في المسند ٦/ ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٤.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ التبريزي في مشكاة المصابيح ١٢٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٢٢، ١٠٤، ومسلم في الصلاة حديث ٢٧٢.

(٤) أخرجه بنحوه مسلم في المسافرين حديث ٢٢٥.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي باب ٣٨، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٦٦.

﴿ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ في القراءة خلف الإمام، قلت: واللام في قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ للعهد دون الجنس والمراد به القرآن المقروء لاستماعكم كالإمام يقرأ حتى يسمع من خلفه والخطيب يقرأ للتخاطب والمقري يقرأ على التلميذ والله أعلم.

فصل: لا يجوز الدعاء والتعوذ للسامع إذا قرأ القارئ في القرآن ذكر الجنة والنار لما ذكرنا من قول الكلبي، قال ابن همام: إن الله وعده بالرحمة إذا استمع حيث قال: فاستمعوا وأنصتوا لعلكم ترحمون ووعده حتم وإجابة دعاء المتشاغل عنه به غير مجزوم به وكذا الإمام.

مسألة: وكذا المنفرد لا يشتغل بغير القراءة في الفرض وفي النفل يسأل الجنة ويتعوذ من النار عند ذكرهما ويتفكر في آية المثل لحديث حذيفة قال: «صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الليل فما مر بآية فيها ذكر الجنة إلا وقف وسأل الله الجنة وما مر بآية فيها ذكر النار إلا وقف وتعوذ من النار» رواه ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾، قال ابن عباس: يعني بالذكر القراءة في الصلاة يريد يقرأ سرًا في نفسه في صلاة السر ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي متضرعًا وخائفًا مني ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي متكلمًا كلامًا فوق السر ودون الجهر أراد في صلاة الجهر ولا تجهر جهرًا شديدًا بل في خفض وسكون يسمع من خلفك كذا قال ابن عباس: في تفسير الآية، فقوله ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ عطف علىٰ قوله في نفسك، قلت: وجاز أن يكون المراد اقرأ القرآن فوق السر دون الجهر جهرًا متوسطًا نظيره قوله تعالىٰ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] ويؤيده حديث أبي قتادة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج ليلة فإذا هو بأبي بكر يصلي يخفض صوته ومر بعمر وهو يصلي رافعًا صوته قال: فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك» قال: قد أسمعت من ناجيت يا رسول الله، وقال: لعمر «مررت بك وأنت تصلي رافعًا صوتك» قال: يا رسول الله أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئًا وقال: لعمر اخفض من صوتك شيئًا»(١) رواه أبو داود، وروىٰ الترمذي نحوه من حديث عبدالله بن رباح الأنصاري، وجاز أن يكون المعنى اقرأ القرآن سرًا وجهرًا دون الجهر الشديد يعني علىٰ كلا الوجهين تارة كذا وتارة كذا، روى أبو داود عن أبي هريرة قال: كانت قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالليل يرفع طورًا ويخفض طوراً، وروىٰ الترمذي عن عبدالله بن أبي قيس قال: سألت عائشة عن قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يسر بالقراءة أو يجهر؟ قالت كل ذلك قد كان يفعل ربما أسر وربما جهر، قلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

فصل: اختلف العلماء في كيفية القراءة في الصلاة ليلًا وخارج الصلاة؟ فقال قوم: لا بد من الجهر وكرهوا المخافة اتباعًا لحديث أم هانيء وابن عباس المذكورين أنه صلى الله

---

(١) أخرجه أبو داود في التطوع باب ٢٥، والترمذي في المواقيت باب ٢١٢.

عليه وآله وسلم كان يسمع قراءة من وراء الحجرة وهو في البيت وسمعته أم هانىء على عريشها، والجمهور على أن القارئ مخير إن شاء جهر وإن شاء أخفت لما ذكرنا من حديث أبي هريرة، وعائشة أنه صلى الله عليه وآله وسلم يرفع طورًا ويخفض طورًا، قال الطحاوي في حديث أم هانىء وابن عباس ذكر رفعه صلى الله عليه وآله وسلم صوته وهو لا ينفي الخفض أحيانًا وحديث أبي هريرة يبين أن للمصلي أن يخفض إن أحب ويرفع إن أحب فهو أولىٰ وبه يقول أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله تعالىٰ، ثم القائلون بالتخيير منهم من قال: الإخفات أفضل بحديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي قال الترمذي: حديث حسن، ولا شك أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية قال الله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١] وبه أخذ جماعة من السلف، روي عن الأعمش قد دخلت على إبراهيم رضي الله عنه وهو يقرأ في المصحف فاستأذن عليه رجل فنظاه(٢) وقال: لا يرى هٰذا أني أقرأ كل ساعة، وعن أبي العالية رضي الله عنه قال: كنت جالسًا مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال رجل: قرأت الليل كذا وقالوا هٰذا حظك منه، وقال كثير من العلماء: الجهر أفضل لما ذكرنا في ما سبق من الأحاديث في الجهر ولما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»(٣) ومعنى أذن استمع وهو إشارة عن الرضا والقبول، وفيهما عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «أوتيت مزمارًا(٤) من مزامير آل داود»(٥) ورویٰ ابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الله أشد أذنًا(٦) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر بها من صاحب القينة(٧) إلىٰ قينته»(٨) وروى أبو داود والنسائي وغيرهما عن

---

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب ٢٠، والنسائي في الزكاة باب ٦٨، وأحمد في المسند ٤/١٥١، ١٥٨.

(٢) نظّاه أي بعّده.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب ١٩، والتوحيد باب ٣٢، ومسلم في المسافرين حديث ٢٣٢، ٢٣٤.

(٤) المزمار الآلة التي يزمر بها والزمارة التغني يقال زمر إذا غنى، شبه رسول الله ﷺ حُسن صوت أبي موسى وحلاوة نغمته بصوت مزمار داود النبي عليه السلام وإليه المنتهى في حسن الصوت بالقراءة ولفظ آل مقحمة وقيل معناه هاهنا الشخص.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب ٣١، ومسلم في المسافرين حديث ٢٣٥، ٢٣٦.

(٦) أشد أذناً أي أشد استماعاً.

(٧) القينة المغنية.

(٨) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ١٧٦، وأحمد في المسند ٦/١٩، ٢٠.

البراء بن عازب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «زينوا القرآن بأصواتكم»[(١)] قال أبو حامد الغزالي وغيره من العلماء طريق الجمع بين الأخبار أن الإسرار أبعد من الرياء فهو أفضل فيحق من يخاف ذٰلك فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته متعد إلى غيره فهو أفضل ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همته إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط ويوقظ غيره من نائم أو غافل وينشطه فمهما حضر شيء من هٰذه النيات، فالجهر أفضل وإن اجتمعت النيات تضاعف الأجر ولهٰذا قلنا القراءة في المصحف أفضل، قلت: لا شك أن في الجهر بالقرآن أحاديث كثيرة والآثار من الصحابة والتابعين أكثر من أن تحصى لكن فيمن لا يخاف رياء ولا إعجابًا ولا غيرهما من القبائح ولا يؤذي جماعة يلبس عليهم صلواتهم ويخلطها عليهم فمن خاف شيئًا من ذٰلك فلا يجوز له الجهر وإن لم يخف استحب الجهر، فإن كانت القراءة في جماعة مجتمعين مستمعين تأكد استحباب الجهر لٰكن لا يجوز كمال الجهر وأن يجهد الرجل نفسه في الجهر لقوله تعالىٰ ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] روى محمد في موطئه عن مالك عن عمه أبي سهيل عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يجهر بالقراءة في الصلاة وأنه كان يسمع قراءة عمر بن الخطاب عند دار أبي جهيم فقال محمد: الجهر بالقرآن في الصلاة فيما يجهر بالقراءة حسن ما لم يجهد الرجل نفسه والله أعلم.

فإن قيل: الجهر بالذكر والدعاء بدعة والسنة فيهما الاخفاء كما مرت المسألة في تفسير قوله تعالىٰ ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فما وجه الفرق بين الذكر وقراءة القرآن مع أن القراءة أيضًا ذكر؟ قلنا: القرآن مشتمل على الوعظ والقصص الموجبة للعبرة والأحكام ونظمه معجز جاذب للقلوب السقيمة إلى الإسلام، ولذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقراءته باللسان عبادة زائدة على الذكر الذي هو عبادة عن طرد الغفلة عن الجنان وإسماعه غيره عبادة أخرىٰ مرغوبة عند الرحمٰن بخلاف الذكر والدعاء فإن المقصود من الدعاء الإجابة ومن الذكر النسيان عما يشغله من العزيز المنان حتى يسقط عن بصيرته نفس الذكر بل الذاكر أيضًا ولا يبقى في بصيرته إلا الواحد القهار.

فائدة: قال شعبة: نهاني أيوب أن أحدث بهٰذا الحديث «زينوا القرآن بأصواتكم» قال أبو عبيدة: وإنما كره فيما نرى أن يتأول الناس بهٰذا الحديث الرخصة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هٰذه الألحان المبتدعة، ثم ذكر أبو عبيدة أحاديث كثيرة في تحسين الصوت بالقرآن ثم قال: ومجمل هذه الأحاديث طريق الحزن والتخويف والتشويق لا الألحان

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٥٢، وأبو داود في الوتر باب ٢٠، والنسائي في الافتتاح باب ٨٣، وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٦، والدارمي في فضائل القرآن باب ٣٤، وأحمد في المسند ٤/ ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤.

المطربة الملهية وقد روي في ذلك أحاديث مفسرة مرفوعة وغير مرفوعة، منها عن طاوس قال: سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الناس أحسن صوتًا بالقرآن أو أحسن قراءة؟ فقال: «الذي إذا سمعته رأيته يخشى الله»(١) وعن طاوس أحسن الناس صوتًا بالقرآن أخشاها لله تعالىٰ رواه الدارمي عن طاوس مرسلاً، وعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ورزين في كتابه والله أعلم. وقال مجاهد: معنى الآية أنه تعالىٰ أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع إليه في الدعاء والاستكانة دون رفع الصوت والصياح بالدعاء فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص، قلت: وعلىٰ هٰذا قوله ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ عطف تفسيري لقوله في نفسك وقد ذكرنا مسألة الذكر الخفي والجهر في تفسير قوله تعالىٰ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [التوبة: ٦٣] وما قال البيضاوي: أو هو أمر للمأموم بالقراءة سرًا بعد فراغ الإمام عن قراءته كما هو مذهب الشافعي رحمه الله فليس بشيء فإنه خطاب مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان إمامًا ولم يكن مأمومًا ولو كان الخطاب للمأمومين لكان بصيغة الجمع دون المفرد على نسق قوله تعالىٰ ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وأيضًا القراءة سرًا ينافي الاستماع والإنصات كالقراءة جهرًا، وقوله بعد فراغ الإمام عن قراءته غير مستفاد من الآية فيلزم حينئذ التعارض بين الآيتين، وأيضًا القراءة بعد فراغ الإمام لا يتصور فإن الإمام بعد الفراغ من القراءة يركع ولا قراءة للمأموم بعدما ركع الإمام إجماعًا ولو قام الإمام ساكتًا حتّى يفرغ المأموم عن قراءته لزم قلب موضوع الإمامة والله أعلم، ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي بأوقات الغدو وهو مصدر غدًا يغدو غدوًا إذا دخل في وقت البكرة يعني أول النهار، في القاموس الغدوة بالضم البكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ جمع أصيل وهو العشي يعني آخر النهار، وقال البغوي: هو ما بين العصر والمغرب خص هذين الوقتين بالذكر لفضلهما والمراد أمة الذكر كما يدل عليه قوله تعالىٰ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ يعني لا تغفل من الله أصلًا في وقت من الأوقات، قلت: وتذييل قوله تعالىٰ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ بقوله ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ يدل علىٰ أن المراد بالذكر أعم من القراءة وغيره والمقصود طرد الغفلة بأي وجه كان والله أعلم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية وقربًا غير متكيف بالفضل والكرامة لامتناع العندية الجسمانية في جنابه تعالىٰ والمراد بالموصول الأنبياء والملائكة وصالحو المؤمنين، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لا يتكبرون بأنفسهم ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ قلت بل يستكبرون

(١) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٥٢٢، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ١/ ٣٠٣.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٦٩، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٢٠٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٧٧٩.

أنفسهم بعبادته ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه عما لا يليق به ويذكرونه يقولون سبحان ربي الأعلىٰ ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ أي يخصونه بالسجود والعبادة ولا يشركون به غيره.

عن معدان بن طلحة قال: لقيت ثوبان مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: «أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة فسكت ثم سألته الثانية فسكت ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذٰلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال «عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» قال: معدان: ثم لقيت أبا الدرداء فسألته فقال لي مثل ما قال: ثوبان»[(١)] رواه مسلم، وفي رواية عن ثوبان بلفظ «ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة»[(٢)] رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والبغوي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[(٣)] رواه مسلم، وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»[(٤)] رواه مسلم، وعن ربيعة بن كعب قال: «كنت أبِيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآتيه بوضوئه وحاجته فقال لي «سل»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذٰلك قال: «فأعني علىٰ نفسك بكثرة السجود»[(٥)] رواه مسلم، وقد ذكرنا مسائل سجود التلاوة في سورة انشقت والله أعلم.

تمت سورة الأعراف وتتلوها سورة الأنفال إن شاء الله تعالىٰ

سادس عشر من المحرم من السنة الأولىٰ من المائة

الثانية عشر سنة ١٣٠١ هـ فقط

تمت

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢٢٤، ٢٢٥، وأبو داود في التطوع باب ٢٢، والترمذي في الصلاة باب ١٦٩، والنسائي في التطبيق باب ٨٠، ٨٩، وأحمد في المسند ٣/ ٥٠٠، ٤/ ٥٩، ٥/ ٢٧٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ٢٠١، وأحمد في المسند ٥/ ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٣.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢١٥.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٣٣، وابن ماجه في الإقامة باب ٢٠١، وأحمد في المسند ٢/ ٤٤٣.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢٢٥، وأبو داود في التطوع باب ٢٢، والنسائي في التطبيق باب ٧٩، وأحمد في المسند ٤/ ٥٩.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنفال

آياتها خمس وسبعون وهي مدنية

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ
زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ (٥) يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ
يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ (٨)﴾.

روى ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والحاكم وابن حبان وعبد الرزاق في المصنف وعبد بن حميد وابن عابد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً فله كذا أو كذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا[1]» وفي رواية ابن مردويه من طريق فيه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن عطاء عن ابن عجلان عن عكومة عنه بلفظ «من قتل قتيلاً فله سلبه»[2] فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقال: المشيخة للشبان أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء لجئتم إلينا فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، وجاء أبو اليسر بأسيرين فقال: يا رسول الله قد وعدتنا، فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله ﷺ أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو ولا ضعن بالحياة أن نصنع ما صنع إخواننا ولكنا رأينا قد أفردت فكرهنا أن تكون بمضيعة وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك أن يأتوك من ورائك فتشاجروا فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٤.

(٢) روي الحديث بلفظ: «من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه»، أخرجه البخاري في الخمس باب ١٨، والمغازي باب ٥٤، ومسلم في الجهاد حديث ٤٢.

﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ يعني أن الغنائم لمن هي، والنفل الغنم لأنها من فضل الله وعطائه ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ ملكاً ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ تصرفاً يقسمها الرسول على ما يأمره الله تعالى يعني أمرها مختص بهما، قال ابن عباس: فيما رواه الأئمة المذكورون: فنزعه الله تعالى من أيديهم فجعله إلى رسول ﷺ فجعله رسول الله ﷺ بين المسلمين على بواء أي سواء فكان ذلك تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ وإصلاح ذات البين كما قال: الله تعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يعني الصفة التي بينكم من المواساة والألفة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتسليم أمره إلى الله تعالى ورسوله، قال الزجاج: يعني ذات بينكم حقيقة وصلكم والبين الوصل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرطِ استغنى عن الجزاء بما مضى، يعني إن كنتم مؤمنين كاملي الإيمان فافعلوا ذلك فإن مقتضى كمال الإيمان الإطاعة في الأوامر والاتقاء عن المعاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان والإيثار، وذكر البيضاوي الحديث بلفظ شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلاً فقال: الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردءاً لكم وفئة تتحاذون إليها فنزلت فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء.

ثم قال البيضاوي: ولهذا لا يلزم الإمام أن يفيء بما وعدهم وهو قول الشافعي رحمه الله. وروى ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد شفاني الله تعالى اليوم من المشركين فنفلني هذا السيف فأنا من قد علمت حاله، قال: «هذا السيف لا لك ولا لي ضعه» فوضعته ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائي فرجعت فقال: اذهب فاطرحه في القَبَض[1] فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلبي فرجعت به حتى إذا أردت أن ألقيه لامتني نفسي فرجعت إليه، فقلت: أعطنيه فشد بي صوته فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال فقال رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك» وفي رواية فجأني الرسول إنك سألتني وليس لي وإنه قد صار لي وهو لك؛ وروى البخاري في تاريخه عن سعد بن جبير أن سعداً ورجلاً من الأنصار خرجا ينتفلان فوجدا سيفاً ملقى فخرا عليه، فقال سعد: هو لي وقال الأنصاري: هو لي لا أسلمه حتى أتي رسول الله ﷺ فأتياه فقص عليه القصة، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لك يا سعد ولا للأنصاري» فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: الأنفال المغانم كانت

(١) القبض بالتحريك: ما أخذ من أموال الناس ـ ١٢ ـ.

لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه فمن حبس إبرة أو سلكاً فهو غلول فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ﴾ لي جعلتها لرسولي ليس لكم منها شيء ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم أنزل الله ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وجعل أربعة أخماسه للناس فيه سواء للفرس سهمان ولصاحبه سهم وللراجل سهم.

قال محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد: ولما أمر رسول الله ﷺ أن يقسم الغنائم على السواء قال: سعد بن معاذ: يا رسول الله أتعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف؟ فقال رسول الله ﷺ: «ثكلتك أمك وهل تنصرون إلا بضعفائكم» ونادى مناديه ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه ومن أسر أسيراً فهو له» ـ كان يعطي من قتل قتيلاً سلبه ـ.

وروى سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن حبان والحاكم والبيهقي في السنن عن عبادة بن الصامت قال: التقى الناس فهزم الله العدو وانطلقت طائفة إلى آثارهم يأسرون ويقتلون وأكبت طائفة على العسكر يجوزونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وأفاء الناس بعضهم إلى بعض قال: الذين جمعوا الغنائم نحن جمعناها وحويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ حفظنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ خافت وفزعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ استعظاماً وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه، وقيل: هو الرجل يهم بالمعصية فيقال له اتق فينزع منه خوفاً من عقابه فالمعنى إذا ذكر وعيد الله بحذف المضاف ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لاطمئنان النفس بنزول البركات عند تلاوة القرآن ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون أمورهم إليه تعالى ولا يخشون ولا يرجون أحداً إلا إياه ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يأتونها بحقوقها ويقيمونها كما يقام القداح ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بمكارم أعمال القلوب من الإخلاص والخشية والتوكل واطمئنان الأنفس بذكر الله ومحاسن أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف أي إيماناً حقاً أو مصدر مؤكد يعني إيمانه حقاً لا شبهة فيه.

عن الحسن أن رجلاً سأله أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية فلا أدري أمنهم أنا أم لا.

قلت: مراد الحسن أن كمال الإيمان بالإخلاص وتصفية القلب وتزكية النفس وتحلية

الجوارح بالطاعات وترك المعاصي وذلك أمر نادر لا أدري اتصاف نفسي به وأما نفس الإيمان فموجود بفضل الله فليس هذا من قبيل أنا مؤمن إن شاء الله، وقال علقمة: كنا في سفر فلقينا قوماً من هؤلاء قالوا: نحن المؤمنون حقاً فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فأخبرناه بما قالوا: قال: فما رددتم عليهم؟ قلنا: لم نرد عليهم، قال: هلا قلتم أمن أهل الجنة أنتم؟ إن المؤمنين أهل الجنة.

وقال الثوري: من زعم أنه مؤمن حقاً أو عند الله ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف، وبهذا يتشبث من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله يعني المراد بالاستثناء عدم الجزم بحسن الخاتم الموجب لكونه من أهل الجنة لا الشك في إيمانه الحالي ذات الشك ينافي الإيمان الاعتقاد الجازم، وكان أبو حنيفة رحمه الله يكره هذا القول لكونه موهماً للشك المنافي للاعتقاد الجازم يقول: أنا مؤمن حقاً باعتبار حصول الاعتقاد الجازم في الحال لا بمعنى الجازم بحسن الخاتمة فالنزاع إنما هو في اللفظ دون المعنى لكن الأحوط قول أبي حنيفة.

قال أبو حنيفة لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٨٢] فقال له هلا اقتديت به في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وعن إبراهيم التميمي قال: قل أنا مؤمن حقاً فإن صدقت أثبت عليه وإن كذبت فكفرك أشد عليك من ذلك.

وعن ابن عباس من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقاً. ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ كرامة وفضل وعلو منزلة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ نظيره قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍۘ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال عطاء: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم.

عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله فاسألوا الفردوس»(١) رواه الترمذي، وقال البغوي قال الربيع بن أنس: سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر(٢) الفرس المضمر(٣) سبعين سنة ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا يخطر ببال أحد ولا ينقطع أبداً ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ الذي بالمدينة أو المراد بالبيت المدينة نفسها لأنها مهاجره ومسكنه فهي مختصة به كاختصاص البيت بصاحبه ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بأخرج أي إخراجاً متلبساً بالحكمة والصواب لقتال الكفار ببدر، وقوله كما أخرجك إما مبتدأ محذوف تقديره هذا الحال يعني كون الأنفال لله والرسول

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٤.

(٢) حضر الفرس: أي عدا ـ ١٢ ـ.

(٣) تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن ثم لا تعلف إلا قليلاً ليتخفف ـ نهاية ١٢ ـ.

وتقسيم رسول الله ﷺ الأنفال بين الناس على السواء وكراهة بعض الناس يعني الشبان المقاتلة ثابت كحال إخراجك الله للحرب وكراهتهم به، أو صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله لله والرسول أي الأنفال ثبت لله والرسول مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك كذا، قال: المبرد: وقيل: تقديره امض لأمر الله تعالى في الأنفال وإن كرهوا كما مضيت أمر الله في الخروج من البيت.

قصة غزوة بدر

والسبب في خروج النبي ﷺ أنه سمع أبا سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في ألف بعير لقريش فيها أموال عظام ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير فيقال: إن فيها خمسين ألف دينار وفيها سبعين رجلاً كذا ذكر ابن عقبة وابن عابد.

قال البغوي: قال ابن عباس: وابن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي أقبل أبو سفيان من الشام في أربعين راكباً من كبار قريش فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري فندب رسول الله ﷺ للخروج معه وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا لعل الله أن يغنمكوها» فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وتخلف عنه بشر كثير وكان من تخلف لم يلم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً ولم يحتفل لها رسول الله ﷺ احتفالاً بليغاً فقال: من كان ظهره حاضراً فليركب معنا فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في علو المدينة قال: لا إلا من كان ظهره حاضراً.

وبعث رسول الله ﷺ قبل خروجه من المدينة بعشر ليال طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان خبر العير، فبلغا أرض خوار فنزلا على كشد بن مالك الجهني فأجارهما وأنزلهما وكتم عليهما حتى مرت العير ثم خرجا وخرج معهما كشد حتى أوردهما ذا المروة[1]، فقدما ليخبرا رسول الله ﷺ فوجداه قد خرج فلما أخذ رسول الله ﷺ ينبع[2] أقطعها الكشد، فقال: يا رسول الله إني كبير لكن أقطعها لابن أخي فأقطعه إياها فابتاعها منه عبد الرحمٰن بن سعد بن زرارة رواه عمر بن شيبة. وأدرك أبا سفيان رجل من خدام بالرزقا فأخبره أن رسول الله ﷺ ينتظر رجوع العير فخرج أبو سفيان ومن معه خائفين للرصد ولما دنا أبو سفيان من الحجاز جعل يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمد ﷺ قد استنفر لك ولعيرك فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً فبعثه إلى مكة وأمره أن يجدع بعيره ويحول رحله ويشق قميصه قبله ومن دبره إذا يأتي مكة ويأتي قريشاً ولستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم مسرعاً إلى مكة وفعل ما أمره به أبو سفيان.

---

(١) قرية بينها وبين المدينة ثمانية برد.
(٢) قرية جامعة بين مكة والمدينة.

ذكر منام عاتكة

روى ابن إسحاق والحاكم والبيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس وموسى بن عقبة وابن إسحاق عن عروة والبيهقي عن ابن شهاب قالوا: رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم على قريش بثلاث ليال رؤيا فأصبحت عاتكة فأعظمتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقال له: يا أخي لقد رأيت رؤيا أفظعتني[١] ليدخلن على قريش منها شر وبلاء، فقال: ما هي؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أنك لا تذكرها فإنهم إن يسمعوها آذونا وأسمعونا ما لا نحب فعاهدها العباس، فقال: رأيت أن رجلاً أقبل على بعير فوق الأبطح فصاح بأعلى صوته انفروا يا آل عذر إلى مصارعكم في ثلث ثلث صيحات ما رأى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ثم مثل به بعيره فإذا هو على رأس الكعبة فصاح ثلاث صيحات فقال: انفروا[٢] يا آل عذر[٣] إلى مصارعكم في ثلاث، ثم أرى بعيره مثل على رأس أبي قيس فقال: انفروا يا آل عذر إلى مصارعكم في ثلاث ثم أخذ صخرة عظيمة فنزعها من أصلها فأرسلها من أصل الجبل فأقبلت الصخرة تهوي لها حس شديد حتى إذا كانت في أسفل رفضت[٤] فما بقيت دار من دور قومك ولا بيت إلا دخل فلقه.

فقال العباس: والله إن هذه لرؤيا فاكتميها لئن بلغت هذه قريشاً ليؤذوننا فخرج العباس من عندها فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد الشمس وكان صديقاً له فذكرها له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة فتحدث بها وفشى الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش.

قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآني قال: يا أبا فضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية، قلت :وما ذاك؟ قال: رؤيا عاتكة، قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب ما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساءكم ولفظ ابن عقبة أما رضيتم يا بني هاشم بكذب الرجال حتى جئتم بكذب النساء إنا كنا وإياكم كفرسي رهان[٥] فاستبقنا المجد منه فلما تحاكت الركب قلتم منا نبي بقي إلا أن تقولوا منا نبية فما أعلم في قريش أهل بيت أكذب امرأة ولا رجلاً منكم وآذاه أشد الإذاء، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقاً ما تقول فسيكون وإن تمضي الثلاث ولم يكن كتبنا عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

---

(١) أفظعتني: يقال فظع الأمر فظاعة فهو فظع أي شديد شنيع.
(٢) أي سارعوا.
(٣) عذر: بضم العين معدول عن عاذر.
(٤) رفضت: تقطعت.
(٥) أي يتسابقان.

قال العباس فوالله ما كان مني إليه كثيراً إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً. وعند أبي عقبة في هذا الخبر أن العباس قال: لأبي جهل: هل أنت منته فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك فقال: من حضرهما: ما كنت جهولاً يا أبا الفضل ولا أحمق خرقاً، وكذلك قال: ابن عابد وزاد مهلاً يا مصفر إسته[١].

ولقي العباس عاتكة أذى شديداً حين أفشى حديثها لهذا الفاسق، قال العباس: فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني قالت: أقررتم لهذا الخبيث الفاسق أن يقع في رجالكم ثم قد تناول نساءكم وأنت تسمع ثم لم يكن عندك كبير شيء مما سمعت، قلت: قد والله قد ما فعلت ما كان مني إليه كبير شيء مما سمعت ولهم الله لا تعرض له فإن عاد لأكفيكنه، قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا جديد مغضب أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته والله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال: فأقع به وكان رجلاً خفيفاً[٢] حديد الوجه[٣] جديد اللسان حديد النظر إذ خرج نحو باب المسجد يشتد[٤]، قلت: في نفسه ما له لعنه الله أكل هذا فرقاً[٥] مني أن أشاتمه قال: وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمر يصرخ في بطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدع بعيره وحول رجله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش يا آل لؤي بن غالب اللطيمة اللطيمة[٦] أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى تدركوها الغوث الغوث والله ما أرى أن تدركوها ففزعت قريش أشد الفزع وأشفقوا[٧] من رؤيا عاتكة فشغله ذلك عني وشغلني عنه ما جاء من الأمر وقالت عاتكة شعر:

ألم تكن رؤيا بحق وجاءكم بتصديقها فل[٨] من القوم هارب
فقلت ولم أكذب كذبت وإنما يكذبنا بالصدق من هو كاذب

فتجهز الناس سراعاً وقالوا: يظن محمد وأصحابه أن يكون كعير ابن الحضرمي كلا والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وكان جهازهم في ثلاثة أيام ويقال يومين وأعان قويهم ضعيفهم ولم يتركوا كارهاً للخروج يظنون أنه في صف محمد وأصحابه ولا مسلماً يعلمون إسلامه ولا أحداً من بني هاشم إلا من لا يتهمونه

---

(١) رماه بالأبنة: وهي تهمة الفاحشة.
(٢) خفيفاً: سريعاً.
(٣) حديد الوجه: قويه.
(٤) يشتد: يعدو.
(٥) فرقاً: خوفاً.
(٦) الجمال التي تحمل العطر والبز.
(٧) وأشفقوا: خافوا.
(٨) الفل: القوم المنهزمون.

إلا أشخصوه معهم وكان ممن أشخص العباس بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث وطالب وعقيل ابني أبي طالب في آخرين، ولم يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعثاً إلا أبا لهب مشوا إليه فأبى أن يخرج أو يبعث أحداً ويقال: إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وأسلم بعد ذلك وكان قد لاط[١] له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه فاستأجره بها على أن يجري عنه بعثه فخرج عنه، وتخلف أبو لهب منعه من الخروج رؤيا عاتكة فإنه كان يقول: رؤيا عاتكة تأخذ باليد واستقسم أمية بن خلف وعتبة بن شيبة وزمعة بن الأسود وعمير بن وهب وحكيم بن حرام وغيرهم عند هبل بالآمر والناهي من الأزلام فخرج القدح الناهي من الخروج فأجمعوا المقام حتى أزعجهم[٢] أبو جهل، ولما أجمع أمية بن خلف القعود وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً أتى عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه فيها نار ومجمر حتى وضعها بين يديهم ثم قال: يا أبا علي فإنما أنت من النساء، فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به ثم جهز وخرج مع الناس.

قال ابن إسحاق وغيره ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا السير وخرجوا على الصعب[٣] والذلول معهم القيان[٤] والدفوف ذكروا ما بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الدماء فقالوا: إنا نخشى أن يأتينا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم[٥]، فبدى لهم عدو الله إبليس في صورة سراقة بن مالك الكناني وكان من أشراف بني كنانة فقال: أنا جار لكم من أن يأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا في خمسين وتسعمائة مقاتل وقيل: في ألف، وكان معهم مئتا فرس وستمائة درع ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي فلم يخرج معهم منهم أحد فقال: ابن عقبة وابن عابد وأقبل المشركون ومعهم إبليس يعدهم أن بني كنانة وراءهم قد أقبلوا لنصرهم وأنه لا غالب لكم من الناس وإني جار لكم.

قال في الامتناع: فلما نزلوا بمر الظهران نحر أبو جهل عشر جزور فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها ورأى ضمضم بن عمرو أن وادي مكة يسيل دماً من أسفله وأعلاه ونحر لهم أمية بن خلف بعسيف تسعاً ونحر سهيل بن عمرو بقديد عشراً وأسلم بعد ذلك ثم ذلك ثم مالوا من قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا فيها فأقاموا بها فنحر لهم يومئذٍ عقبة بن ربيعة عشراً ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج عشراً عشراً ثم أكلوا من أزوادهم.

---

(١) أربى، واللياط الربا.

(٢) أزالهم عن رأيهم.

(٣) من الإبل الذي لا ينقاد والذلول ضده.

(٤) قيان جمع قينة، يقال للأمة المغنية.

(٥) أي: يصرفهم عن السفر.

فلما وصلوا الجحفة عشاء نزلوا هناك، روى البيهقي عن ابن شهاب وابن عقبة وعروة بن الزبير قالوا: لما نزلت قريش بالجحفة فيهم رجل من بني المطلب بن عبد مناة يقال له جهيم بن الصلت بن مخرمة وأسلم بعد ذلك في حنين فوضع جهيم رأسه فأغفا فقال لأصحابه: هل رأيتم الفارس الذي وقف عليَّ آنفاً؟ قالوا: لا إنك مجنون، قال: قد وقف عليَّ فارس آنفاً، فقال: قتل أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة وزمعة وأبو البختري وأمية بن خلف وعد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش ثم رأيته ضرب في لبة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه فقال أصحابه: إنما لعب بك الشيطان، ودفع الحديث إلى أبي جهل فقال: قد جئتم بكذب بني المطلب مع كذب بني هاشم. فخرج رسول الله ﷺ من المدينة واستخلف ابن أم مكتوم على الصلاة ورد أبا لبابة من الروحاء واستخلفه على المدينة، قال ابن سعد: خرج رسول الله ﷺ يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال ابن هشام لثمان وضرب عسكره ببئر أبي عتبة على ميل من المدينة فعرض أصحابه ورد من استصغر منهم فرد عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن حضير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعمير بن أبي وقاص فبكى عمير، فأجازه فقتل يوم بدر وهو ابن ستة عشرة سنة، وأمر أصحابه أن يستقوا من بئر السقيا وشرب من مائها وصلى عند بيوت السقيا وأمر قيس بن أبي صعصعة حين فصل من السقيا أن يعد المسلمين فوقف بهم عند بئر أبي عتبة فعدَّهم ثم أخبر رسول الله ﷺ بأنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ففرح بذلك، وقال: عدة أصحاب طالوت، ودعا يومئذٍ للمدينة فقال: «اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعا لأهل مكة وإني محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في متاعهم ومدهم وثمارهم اللهم حبب إلينا المدينة واجعل ما بها من الوباء بخم[1]، اللهم إني حرمت ما بين لابيتها[2] كما حرم إبراهيم خليلك مكة» وكان حبيب بن أساف ولم يكن أسلم خرج منجداً[3] لقومه من الخزرج طالباً للغنيمة، فقال رسول الله ﷺ: لا يصحبنا إلا من كان على ديننا فأسلم وأبلى بلاء حسناً راح عشية الأحد من بيوت السقيا، وقال ﷺ حين فصل منها: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم وعراة فاكسهم وجياع فأشبعهم وعالة فأغنهم بفضلك» وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ سبعين بعيراً فاعتقبوها.

روى أحمد وابن سعد عن ابن مسعود قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلي زميلي رسول الله ﷺ قالا: اركب يا رسول الله نحن نمشي عنك فقال: «ما أنتم بأقوى مني على المشي وما أنا أغنى عن الأجر منكما» قال: في البداية والعيون هذا قبل أن

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من الجحفة.
(٢) لابتين تثنية لابة وهي أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار.
(٣) يعني ناصر.

يرد رسول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء ثم كان زميلاه علياً وزيداً وكان معهم فرسان فرس للمقداد بن الأسود وفرس للزبير بن العوام، وعند ابن سعد في رواية كان معهم ثلاثة أفرس فرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي، قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص وهو بتربان(١) انظر إلى الظبي فعوق(٢) له سهم، وقام رسول الله ﷺ فوضع ذقنه بين منكب سعد وأذنه ثم قال: «ارم اللهم سدّد رميته» فما أخطأ سعد عن نحر الظبي فتبسم رسول الله ﷺ وخرج سعد يعدو فأخذه وبه رمق فذكاه وحمله فأمره رسول الله ﷺ فقسم بين أصحابه ونزل رسول الله ﷺ ذا سنجسج وهي بين الروحاء، ثم ارتحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين النازية يريد بدراً فسلك في ناحية منها حتى إذا جزع(٣) وادياً يقال زحفان بين النازية وبين مضيق السفراء ثم على المضيق ثم انصب به حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن أبي الرغباء حليف بني النجار إلى بدر يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان، ولما سار رسول الله ﷺ من الصفراء بيسار وسلك ذات اليمين على واد يقال له ذفران وجزع فيه ثم نزل أتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم فاستشار الناس فتكلم المهاجرون فأحسنوا فاستشارهم، فقام أبو بكر فقال: فأحسن ثم قام عمر فقال فأحسن ثم قام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قال: قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون عن يمينك وشمالك وبين يديك وخلفك والذي بعثك بالحق لو سرت بنا برك الغماد لجالدنا(٤) معك من دونه حتى نبلغه، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وقال له خيراً ودعا له ثم استشارهم ثالثاً ففهمت الأنصار أنه يعنيهم وذلك أنه عدد الناس، فقام سعد بن معاذ جزاه الله خيراً فقال: يا رسول الله كأنك تعرض بنا؟ قال: أجل، فقال سعد: يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أردت ولعلك يا رسول الله تخشى أن يكون الأنصار لا ينصروك إلا في ديارهم وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وصلْ حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فنتبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ برك من عمدان، وفي رواية برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك ووالله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن نلقى عدونا غداً إنا بصير في الحرب لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله غيره فسر بنا على بركة الله فنحن عن يمينك وشمالك

---

(١) واد على ثمانية عشر ميلاً من المدينة.

(٢) عوق أو فوق بسهم: أي وضع السهم في الوتر ليرميه به.

(٣) جزع واديًا: أي قطع.

(٤) المضاربة بالسيوف.

وبين يديك وخلفك ولا نكونن كالذين قالوا: لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، فأشرق وجه رسول الله ﷺ بقول سعد رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعد إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» وكره جماعة لقاء العدو كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

قال البيضاوي وغيره هذه الجملة في محل النصب على الحال من كاف أخرجك أي أخرجك من بيتك في حال كراهتهم خروجك، قلت: والظاهر أنه استئناف ولا يجوز أن يكون في موضع الحال لوجوب اتحاد زمان الحال وصاحبه، ولا شك أنهم إنما كرهوا الخروج إذا اتفق لهم القتال مع النضير وأما وقت الخروج فكانوا راغبين في الخروج إلى العير طمعاً في المال مع عدم القتال.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: لما سرنا يوماً أو يومين قال رسول الله ﷺ: «ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا: والله ما لنا طاقة بقتال القوم ولكن أردنا العير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد إظهاراً للحق لإيثارهم تلقي العير عليه، وجدالهم قولهم: ما لنا طاقة لقتال القوم ولكنا أردنا العير ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم بإعلام رسول الله ﷺ أنهم ينصرون، وذلك أنه نزل جبرائيل عليه السلام حين كان رسول الله ﷺ بالروحاء وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ متعلق بقوله ﴿لَكَٰرِهُونَ...﴾ يعني يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه وذلك بقلة عددهم وعدم تأهبهم، وقال ابن زيد هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف يعني اذكر إذ يعدكم الله ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ إما العير وإما قريش وهذا ثاني مفعولي يعدكم وقد أبدل عنها ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل الاشتمال ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أي الشدة والقوة والحدة مستعار من الشوك يعني العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ لكثرة المال وعدم القتال، روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الله تعالى وعدهم إحدى الطائفتين وكانوا أن يلقوا العير أحب إليهم لكونهم أيسر شوكة فلما سبقت العير وفاتت رسول الله ﷺ سار رسول الله ﷺ بالمسلمين يريد القوم فكره القوم مسيرهم لكثرة القوة ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يظهره ويعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ للوحي بها في هذه الحال يعني بأمره إياكم بالقتال أو بأوامره للملائكة بالإمداد، وقيل: بمواعدة التي سبقت من إظهار الدين وإعزازه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يستأصلهم حتى لا يبقى أحد من كفار العرب إلا يقتل أو يسلم، يعني أنكم تريدون أن تصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ متعلق بيقطع أو بمحذوف تقديره فعل ما فعل ليثبت الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ يعني الكفر وليس في الكلام تكرير فإن الأول لبيان

المراد وبيان ما بين مراده تعالى ومرادهم من التفاوت والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول إلى اختيار ذات الشوكة ونصرة عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يعني المشركين ذلك.

رجعنا إلى القصة: ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران فسلك ثنايا يقال له الأصافر[١] ثم الخط منها إلى بلد يقال له الدية وترك الحنان عن يمين وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم، ثم نزل قريباً من بدر فركب هو وأبو بكر الصديق حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم قال الشيخ: بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا للمكان الذي فيه رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا فإن كان الذي أخبرني صدق فهم اليوم في مكان كذا للمكان الذي فيه قريش، ثم قال من أنتما؟ قال رسول الله ﷺ: نحن من ماء[٢]. قال ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وأبو يسار غلام بني العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاط قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما فلما أذلقوهما[٣] قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين وسلم وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش أخبراني عن قريش، قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي يرى بالعدوة[٤] القصوى والكثيب العقنقل، فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال رسول الله ﷺ: ما بين التسعمائة والألف، ثم قال: لهما رسول الله ﷺ من فيهم من الأشراف؟ قالا: عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وربيعة الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهل بن عمرو وعمرو بن عبد ود، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم فلاذ كبدها»[٥] قال: ابن عابد: وكان مسيرهم وإقامتهم حتى بلغوا الجحفة عشر ليال وكان بسيس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء قد مضيا إلى بدر فأناخا إلى تل قريب من الماء ثم أخذ أشنانهما[٦] يستقيان فيه ومجدي بن عمر الجهني

(١) جمع أصفر جبال قريب من الحجفة عن يمين الطريق إلى مكة.
(٢) قاله تورية أراد من ماء دافق و أوجه أنه من ماء.
(٣) أذلقوهما يعني بالغوا في ضربهما.
(٤) العدوة الجانب المرتفع من الوادي.
(٥) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٤/ ١١، والبداية والنهاية ٣/ ٢٦٥. وفي هامش المخطوط جمع فلاذ وهي القطعة يعني صميم قريش ولبابها.
(٦) الشن: القربة.

على الماء فسمع عدي وبسيس جاريتين من جوار الحاضر[١] يتلازمان على الماء والملزومة تقول بصاحبتها إنما يأتي العير غداً أو بعد غد فاعمل لهم ثم أعطيك الذي لك، قال: مجدي صدقت وسمع ذلك عدي وبسيس فجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا.

قال: ابن إسحاق وغيره: وأقبل أبو سفيان بالعير وقد خاف خوفاً شديداً حين دنوا المدينة واستبطأ ضمضم بن عمرو النضير حتى ورد بدراً وهو خائف وتقدم أبو سفيان أمام العير حذراً حتى ورد الماء فرأى مجدي بن عمرو الجهني فقال له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره إلا أني رأيت راكبين يعني بسيساً وعدياً قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان إلى مناخهما فأخذ من أبعار بعيرهما ففته فإذا فيه النوى فقال: هذه والله علائف يثرب فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل[٢] بها وترك بدراً بيسار وانطلق وأسرع فسار ليلاً ونهاراً فرقاً من الطلب، فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش قيس بن أمراء القيس إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله تعالى فارجعوا فأتاهم الخبر وهم بالحجفة، فقال: أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدراً وكان بدراً موسماً من مواسم العرب يجتمع به سوق كل عام فنقيم عليه ثلثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف[٣] علينا القينات ويسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها وكره أهل الرأي المسير ومشى بعضهم إلى بعض، وكان ممن أبطأهم عن ذلك الحارث بن عامر وأمية بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وحكيم بن حزام وأبو البختري وعلي بن أمية بن خلف وأبو العاصي حتى بكتهم[٤] أبو جهل بالجبن وأعانه عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث والحارث بن كلدة وأجمعوا على المسير.

قال الأخنس بن شريق وكان حليف بني زهرة يا بني زهرة قد نجا الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فارجعوا إلى مكة وكانوا نحو مائة، ويقال: ثلاثمائة فلم يشهدها زهري الأرجلين هما عما مسلم بن شهاب الزهري وقتلا كافرين. قال ابن سعد: ولحق قيس بن امرؤ القيس أبا سفيان فأخبره بمجيء قريش فقال: واقوماه هذا عمل عمرو بن هشام يعني أبا جهل واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع، ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي خلف

---

(١) الحاضر، القوم النزول على ماء يقيمون عليه ولا يرحلون.

(٢) فساحل، يعني سلك طريق ساحل البحر.

(٣) يعني تلعب بالمعازف أي الملاهي.

(٤) بكتهم: عيرهم وقبح فعلهم.

العقنقل[١] وبطن الوادي ونزل رسول الله ﷺ بالعدوة الدنيا وغلب المشركون المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمىء المسلمون وأصابهم ضيق شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس إليهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم مصلون مجنبين فأنزل الله تعالى تلك الليلة المطر، وكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلا طهرهم الله تعالى به وأذهب عنهم رجز الشيطان وطابهم[٢] الأرض وصلب الرمل وثبت الأقدام ومهد بن المنزل وربط[٣] به على قلوبهم ولم يمنعهم عن المسير، وسال الوادي فشرب المؤمنون وملؤوا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقى عليهم فناموا حتى أن أحدهم وقفه بين يديه وما يشعر حتى يقع على جنبه.

روى أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي[٤] تحت شجرة حتى أصبح وكانت ليلتا الجمعة وبين الفريقين فوز[٥] من الرمل وبعث رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود فأطافا بالقوم ورجعا فأخبرا أن القوم مذعورون وأن السماء تسيح عليهم، وسار رسول الله ﷺ عشاء يبادرهم الماء فسبقهم إليه ومنعهم من السبق إليه المطر حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به.

فقال الحباب بن المنذر بن الجموح فيما رواه ابن إسحاق: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل نزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والمكيدة؟ قال: «بل الرأي والحرب والمكيدة»، قال: يا رسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور[٦] ما وراءه من القليب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون فقال ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» وذكر ابن سعد أن جبرائيل نزل على النبي ﷺ، فقال: الرأي ما أشار به الحباب، فنهض ﷺ ومن معه من الناس حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه نصف الليل ثم أمر بالقليب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملىء ماءاً ثم قذفوا فيه الآنية، فقال: سعد بن معاذ يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً[٧] تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أظهرنا الله على عدونا كان

---

(١) العقنقل: الكثيب العظيم المتداخل الرمل.
(٢) طاب الأرض: مهد.
(٣) ربط على القلب: قواه.
(٤) يصلي تحت شجرة حتى أصبح وكان ليلة الجمعة وبين الفريقين فوز ما في الرسل وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ١٢ ـ.
(٥) الفوز: العالي من الرمل كأنه جبل.
(٦) نغور: من رواه بغين معجمة فمعناه ندفنه ومن رواه بالمهملة فمعناه نفد.
(٧) العريش: شبه خيمة يستظل بها.

ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن أشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله عز وجل بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ثم بني لرسول الله ﷺ عريشاً على تل مشرف على المعركة فكان فيه هو وأبو بكر وليس معهما غيرهما وقام سعد بن معاذ على بابه متوشحاً بالسيف، ومشى رسول الله ﷺ في موضع المعركة وجعل يشير بيده هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان إن شاء الله فما تعدى منهم أحد موضع إشارته رواه أحمد ومسلم وغيرهما، وروى الطبراني عن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «والذي نفسي بيده لو أن مولوداً ولد من أهل الدين يعمل بطاعة الله كلها إلى أن يرد إلى أرذل العمر لم يبلغ أحدكم هذه الليلة، وقال: «إن الملائكة الذين شهدوا بدراً في السماء لفضلاء على من تخلف منهم» رجاله ثقات إلا جعفر بن معلاص فإنه غير معروف.

وأصبح رسول الله ﷺ ببدر وارتحلت قريش بحدها وحديدها تحاد(١) الله عز وجل وتحاد رسوله وجاؤوا على حرد(٢) قادرين وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه لما يريدون من أخذ عيرهم وقتل من فيها وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي والعير التي كانت معه وذلك ما ذكرنا قصته في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] فلما رآها رسول الله ﷺتصوب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي وكان أول من طلع زمعة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه، فاستجال(٣) بفرسه يريد أن يتبوأ للقوم منزلاً فقال ﷺ: «هذه قريش قد أقبلت بخيلائها(٤) وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أمتهم بالغداة». ولما رأى ﷺ عتبة بن ربيعة على جمل أحمر قال: «إن يك في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا» فقال: هو عتبة ينهى عن القتال ويأمر بالرجوع ويقول: يا قوم اعصبوها(٥) اليوم برأسي وقولوا جبن عتبة وأبو جهل يأبى وبعث خفاف بن أيما بن رحضة الغفاري أو أبوه وأسلم الثلاثة بعد ذلك إلى قريش بجزائر أهداها لهم مع ابنه، وقال إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا فأرسلوا إليه أن وصلتك رحم قد قضيت الذي عليك فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد ما لأحد بالله من طاقة.

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ منهم حكيم بن

---

(١) تحاد الله: تعاديه وتخالف أمره.

(٢) الحرد: الغضب.

(٣) استجال: أي طاف به غير مستقر.

(٤) الخيلاء: التكبر والإعجاب.

(٥) أي اجعلوا عارها متعلقًا برأسي.

حزام، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فما قرب منهم أحد إلا قتل إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني يوم بدر فلما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي وأسلم بعد ذلك فقالوا له احرز لنا أصحاب محمد فجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون لكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمين[١] مدد فضرب[٢] في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً فرجع إليهم، فقال: ما رأيت شيئاً ولكن رأيت يا معشر قريش البلايا[٣] تحمل المنايا نواضح[٤] يثرب تحمل الناقع[٥] قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم أما ترونهم حرساً يتكلمون يتلمظون[٦] تلمظ الأفاعي والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما في العيش خير بعد ذلك فرأوا آراءكم، فبعثوا أبا سلمة الحشمي فأطاف بالمسلمين على فرسه ثم رجع فقال: والله ما رأيت جلداً ولا عدواً ولا حلقة ولا كراعاً ولكن رأيتهم قوماً لا يرونهم يولوا إلى أهليهم قوماً مسلمين مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم زرق الأعين كأنهم الحصا تحت الحجف فرأوا آراءكم، فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فكلمه يرجع بالناس وقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك من الأمر لا تزال تذكر منه بخير إلى آخر الدهر، قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحتمل أمر حليفك عمرو الحضرمي، قال: قد فعلت أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعليّ عقله[٧] وما أصيب من ماله فأت ابن حنظلة فإني لا أخشى أن يسحر أمر الناس غيره يعني أبا جهل، ثم قام عتبة خطيباً في الناس فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تضعون فإن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً والله لئن أصبحتموه لا يزال الرجل في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألقاكم[٨] ولم تعرضوه منه بما تريدون إني أرى أقواماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا جبن عتبة وأنتم

---

(١) المستخفي في الحرب (حيلة).

(٢) سار فيه.

(٣) البلايا جمع بلية وهي الفاقة والدابة تخف بيدها حضرة ويشد رأسها إلى خلفها وتبلى أي تترك على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت وكان بعض العرب ممن يقر بالبعث يزعم أن صاحبها يحشر عليها راكباً وإذا لم يفعل بها ذلك يحشر ماشياً.

(٤) الناضح: الإبل تسقى عليها الماء.

(٥) الثابت.

(٦) التلمظ: إدارة اللسان في الفم لتتبع أثر ما كان فيه.

(٧) العقل: الدية.

(٨) أوجدكم.

تعلمون أني لست بأجبنكم فانطلقت حتى أتيت أبا جهل فوجدته قد نتل[١] درعاً له من جرامها فهو يهيئها، فقلت له يا أبا الحكم إن عتبة قد أرسلني لكذا وكذا للذي قال، فقال: انتفخ[٢] والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعتبة ما قال: ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلته جزور فيكم ابنه قد تخوفكم عليه، ثم بعث إلى عامر الحضرمي فقال: والله هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس فقم فانشد[٣] حفرتك ومقتل أخيك فقام عامر بن الحضرمي فكشف عن أسته ثم صرخ واعمراه فحميت الحرب وأحقب[٤] أمر الناس واستوسقوا[٥] على ما هم عليه من الشر وافسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، ولما بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ والله سحره قال: سيعلم مصفر استه من انتفخ سجره أنا أم هو، ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش تسعه من عظم هامته فلما رأى اعتجر ببرد على رأسه وسل أبو جهل سيفه فضرب متن فرسه، فقال: له إيما بن رحضة بئس الفأل هذا.

وذكر محمد بن عمر الأسلمي والبلاذري وصاحب الامتناع أن قريشاً لما نزلت بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إليهم يقول لهم ارجعوا فإنه إن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إليّ من أن تلوه مني فقال حكيم بن حزام: قد عرض نصحاً فاقبلوه فوالله لا تنصرون عليه بعدما عرض من النصف[٦]، فقال: أبو جهل والله لا نرجع بعدما أمكننا الله منهم، روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً واربطوهم في الجبال ولا تقتلوا منهم أحداً فنزل: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] الآية في سورة ن، يعني أنهم في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة. ولما أصبح رسول الله ﷺ صف أصحابه فكأنما يقوم بهم القداح ومعه يومئذٍ قدح يشير إلى هذا تقدم وإلى هذا تأخر حتى استووا ودفع رايته إلى مصعب بن عمير فتقدم حيث أمره رسول الله ﷺ أن يضعها ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس، ونزل رسول الله ﷺ بالعدوة الشامية ونزلوا بالعدوة اليمانية، ولما عدل رسول الله ﷺ الصفوف تقدم سواد بن غزية أمام الصف فدفع رسول الله ﷺ في بطنه وقال: «استوِ يا سواد» قال: يا رسول الله أوجعتني والذي بعثك بالحق نبياً أقِدني فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه قال: «استقد» فاعتنقه وقبله فقال: ماحملك على ماصنعت؟ قال: حضر من أمر الله ما قد ترى وخشيت أن أقتل فأردت أن

---

(١) أي استخرج.
(٢) كلمة تقال للجبان.
(٣) أي اطلب من قريش الوفاء بخفرهم لك أي عندهم وكان حليفاً لهم.
(٤) أي اشتد.
(٥) بسينين مهملتين أي اجتمعوا واستقر رأيهم.
(٦) النصف: العدل.

أكون آخر عهدي بك، وحينئذٍ قال رسول الله ﷺ: «إذا كثبوكم فارموهم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم» كذا روى أبو داود عن أبي أسيد وخطب رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وحث الناس على الصبر في القتال وابتغاء وجه الله وتعبأت قريش للقتال والشيطان لا يفارقهم فثبت المسلمون على صفهم وشد عليهم عامر بن الحضرمي فكان أول من خرج من المسلمين مهيجع بن عايش مولى عمر بن الخطاب فقتله ابن الحضرمي، وكان أول قتيل من الأنصار حارثة بن سراقة قتله حيان بن عرفة، وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعوا إلى المبارزة فخرج ثلاثة من الأنصار عوذ ومعوذ ابنا الحارث وأمهما العفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا: أكفاء كرام ما لنا بكم حاجة ثم نادوا يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث قم يا حمزة قم يا علي» فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فنفقا عليه واحتملا صاحبه وفي الصحيحين أن فيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] في سورة الحج. قال: ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر وليس معه غيره ورسول الله ﷺ يناشد ربه عز وجل ما وعده من النصر يقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض» وأبو بكر يقول يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ
ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ
يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ
سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ
وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ
ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟
نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

روى ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري أن عبد الله بن رواحة قال: يا رسول الله ﷺ إني أريد أن أشير عليك ورسول الله ﷺ أعظم من أن يشار إليه إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن ينشده وعده، فقال: «يا ابن رواحة لأنشدن الله

وعده إن الله لا يخلف الميعاد»[١] روى ابن سعد وابن جرير عن علي بن أبي طالب وقال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت مسرعاً إلى النبي ﷺ لأنظر ما فعل فإذا هو ساجد يقول: يا حي يا قيوم لا يزيد عليها ثم رجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذاك ثم ذهبت إلى القتال ثم جئت وهو يقول ذلك ثم ذهبت إلى القتال ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك ففتح عليه.

وروى البيهقي عن ابن مسعود حديث المناشدة قال: ثم التفت كأن وجهه القمر فقال: كأنما أنظر مصارع القوم العشية، وروى سعيد بن منصور عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين واستقلهم ركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال ﷺ وهو في صلاته «اللهم لا تخذلني اللهم أنشدك ما وعدتني»[٢].

وروى ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه عز وجل يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه عز وجل ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداءه عن منكبه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبي الله كذاك[٣] تناشدك لربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾[٤] بدل من إذ يعدكم أو متعلق بقوله ليحق أو على إضمار اذكر يعني يستجيرون به من عدوكم وتطلبون الغوث ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى﴾ أي بأني فحذف الجار وسلط عليه الفعل ﴿مُمِدُّكُم﴾ مرسل إليكم مدداً ورداً لكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

روى البيهقي عن ابن عباس وحكيم بن حزام وإبراهيم التيمي حديث دعائه ﷺ وقول أبي بكر نحو ما مر، وفيه وخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر هذا جبرائيل متعجر بعمامة صفراء آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة ثم طلع على ثناياه النقع يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته، وروى ابن إسحاق وابن المنذر عن حبان بن واسع عن أشياخ قومه نحوه بلفظ هذا جبرائيل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع.

وروى البخاري والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: يوم بدر: «هذا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٤/ ٢١٠، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٦٣.
(٢) أخرجه بنحوه ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٢٨٨.
(٣) كذاك: أي كفاك.
(٤) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٥٨، وأحمد في المسند ١/ ٣٠، ٣٢.

جبرائيل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»[1] ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قرأ نافع ويعقوب بفتح الدال أي أردفهم تعالى المسلمين وجاء بهم لهم مدداً والباقون بكسر الدال أي متتابعين بعضهم إثر بعض، وروى ابن جرير وابن المنذر عن اين عباس قال في تفسيره: يعني وراء كل ملك ملك، وروى عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: متتابعين أمدهم الله تعالى بألف ثم بثلاثة آلاف ثم أكملهم خمسة آلاف، وروى الطبراني عن رفاعة بن رافع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: أمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف وكان جبرائيل في خمسمائة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة الحديث.

وروى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: بلغ رسول الله ﷺ أن كرز المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥] فبلغ كرز الهزيمة فرجع ولم يأتهم فلم يمدهم الله بالخمسة آلاف وكانوا قد أمدوا بألف من الملائكة، وروى أبو يعلى والحاكم عن علي رضي الله عنه قال: بينما أنا من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها ثم جاءت ريح شديدة قال: وكانت ريح الأولى جبرائيل عليه السلام نزل في ألف من الملائكة إلى رسول الله ﷺ وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ وكان أبو بكر عن يمينه فكانت الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ وأنا في الميسرة الحديث وروى أحمد والبزار والحاكم برجال صحيح عن علي قال: قال لي ولأبي بكر يوم بدر قيل لأحدنا: معك جبرائيل، وقيل للآخر: معك ميكائيل وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل يكون في الصف وروى أبو يعلى عن جابر قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر إذ تبسم في صلاته قلنا يا رسول الله: رأيناك تبسمت؟ قال: «مر بي جبرائيل وعلى جناحه أثر الغبار وهو راجع عن طلب القوم فضحك إلي وتبسمت إليه» وروى ابن سعد وأبو الشيخ عن عطية بن قيس قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال بدر جاء جبرائيل على فرس أنثى أحمر عليه درعه ومعه رمحه فقال: يا محمد إن الله بعثني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى هل رضيت قال: «نعم رضيت» فانصرف.

فائدة: وقد ظهر بعض الملائكة لبعض الرجال في صورة الرجال، روى إبراهيم الحرثي عن أبي سفيان بن الحارث قال: لقينا ببدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، وروى البيهقي وابن عساكر عن سهل بن عمرو رضي الله عنه قال: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقتلون ويأسرون، وروى محمد بن عمر والأسلمي وابن عساكر عن عبد الرحمٰن بن عوف قال: رأيت يوم بدر رجلين عن يمين النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ١١.

أحدهما وعن يساره أحدهما يقاتلان أشد القتال ثم ثلثهما ثالث من خلفه ثم ربعهم رابع أمامه وروى محمد بن عمرو الأسلمي عن إبراهيم الغفاري عن ابن عم له بينا أنا وابن عم لي على ماء ببدر فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش قلنا إذا التقت الفئتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه، فانطلقنا نحو المجنبة اليسرى من أصحابه ونحن نقول هؤلاء ربع قريش فينا نحن نمشي في الميسرة إذا جاءت سحابة فغشتنا فرفعنا أبصارنا إليها فسمعنا أصوات الرجال والسلاح وسمعنا لرجل يقول لفرسه: أقدم حيزوم[1] فنزلوا على ميمنة رسول الله ﷺ ثم جاءت أخرى مثل ذلك فكانت مع النبي ﷺ وأصحابه فإذا هم على الضعف من قريش فمات ابن عمي وأما أنا فما سكت وأخبرت النبي ﷺ وأسلمت، وكذا روى إسحاق وابن جرير عن ابن عباس عن رجل من غفار وروى البيهقي عن السائب بن أبي حبيش أنه يقول والله ما أسرني أحد من الناس فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها فأدركني رجل أبيض طويل على فرس بين السماء والأرض فأورثني رباطاً وجاء عبد الرحمٰن بن عوف فوجدني مربوطاً فنادى في العسكر من ربط هذا فليس يزعم أحد أنه أسرني حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال: «من أسرك؟» قلت: لا أعرفه وكرهت أن أخبره بالذي رأيت فقال: أسرك ملك من الملائكة.

وروى أحمد وابن سعد وابن جرير عن ابن عباس والبيهقي عن علي قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر وكان رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا اليسر كيف أسرت العباس؟» قال: يا رسول الله ﷺ لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم»[2].

وروى ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه عن أبي أسيد الساعدي أنه قال بعدما عمي: لو كنت معكم ببدر الآن ومعي بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى.

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قال: أرسلوا في ظهورهم ويوم خيبر عمائم حمر، وروى ابن إسحاق عن ابن عباس نحوه وزاد إلا جبرائيل فإنه كانت عليه عمامة صفراء. وروى الطبراني بسند صحيح عن عروة قال: «نزل جبرائيل يوم بدر على سيما الزبير وهو معتمر بعمامة صفراء» وكذا روى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وروى الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] قال: معلمين وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ويوم أُحد عمائم حمر، قال ابن سعد: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم قدار خوابين أكتافهم خضر وصفر وحمر من نور والصوف في نواصي خيلهم

---

(١) أقدم بضم الدال والهمزة أو فتح الدال وكسر الهمزة أو عكسه ورجح النوري الثاني وهو في التقدم على الحرب والإقدام أو الشجاعة وحيزوم فيقول من الحزم والحيزوم يطلق أيضًا على الصدر يجوز أن يكون سمي به لأنه من صدر خيل الملائكة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٥٣.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن الملائكة قد سومت فسوموا» فأعلموا بالصوف في مفارقهم وقلانسهم وكانت الملائكة على خيل بلق» ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ الإمداد بالملائكة الذي دل عليه قوله ممدكم ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي سبباً لاستبشار ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ فيزول ما بها من وجل نظراً على جري عادة الله في غلبة الكثير على القليل، قلت: نظير حال النبي ﷺ هٰهنا في اضطراب قلبه ومناشدته ﷺ ربه بعد ما وعده بالنصر حال إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وكان حالهما عليهما السلام مبنياً على النزول الأتم كما حققناه في سورة البقرة في تفسير ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ولما لم يكن ابن رواحة رضي الله عنه في تلك المرتبة من النزول قال: إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم أن ينشد وعده ولما كان أبو بكر أقرب منزلة من النبي ﷺ لم يقل كما قال ابن رواحة بل قال: كذاك تناشدك لربك وكان اضطراب النبي ﷺ لحرصه على إشاعة الإسلام وهدم أساس الكفر ونظره على كمال استغنائه تعالى عن العالمين وعن عبادتهم والله أعلم. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوها وسائط في جري العادة لا تأثير لها في نفس الأمر والله أعلم.

فائدة: ولما فرغ رسول الله ﷺ من مناشدته ربه قاتل بنفسه الشريفة قتالاً شديداً، وكذلك أبو بكر وكانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع ثم نزلا فحرضا وحثا الناس على القتال وقاتلا بأبدانهما جمعاً بين المقامات، كذا قال: محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد، وروى ابن سعد والفريابي عن علي قال: «لما كان يوم بدر وحضر البأس أمَّنا رسول الله ﷺ واتقينا به وكان أشد الناس بأساً يومئذٍ وما كان أحداً أقرب إلى المشركين منه» ورواه أحمد بلفظ «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ»(١)، والنسائي بلفظ: «كنا إذا حمي البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ»(٢).

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ أي النوم الخفيف، قرأ ابن كثير وأبو عمرو إذ يغشاكم بفتح الياء والشين وألف بعدها ورفع النعاس كما في سورة آل عمران ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [يونس: ٢٧] ونافع بضم الياء وكسر الشين مخففاً ونصب النعاس كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [يونس: ٢٧] والباقون كذلك إلا أنهم فتحوا الغين وشدد والشين كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٤] والفاعل على القراءتين هو الله والظرف بدل ثانٍ من إذ يعدكم لإظهار نعمة ثالثة أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل أو بجعل أو بإضمار اذكر ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾(٣) أي أمناً كائناً من الله مصدر أمنت أمناً أو أمنة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٧٩، بلفظ: «كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به»، وأخرجه أحمد في المسند ١/١٥٦ بلفظ: «إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ».

(٣) يعني الأمن الذي هو ضد الخوف.

وأماناً مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله يغشيكم النعاس يتضمن معنى تنعسون ويغشاكم بمعناه، والأمنة فعل لفاعله ويجوز أن يراد به الإيمان فيكون فعل المغشى وأن يجعل على قراءة ابن كثير وأبو عمر فعل النعاس على المجاز لأنها لأصحابه أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف، فلما غشاهم فكأنه حصلت له أمنة من الله لولاها لم يغشهم، قال عبد الله بن مسعود: النعاس في القتال أمنة من الله عز وجل وفي الصلاة من الشيطان، روى عبد بن حميد عن قتادة قال: كان النعاس أمنة من الله وكان النعاس نعاسين نعاس يوم بدر ونعاس يوم أُحد وقد مر ذكر النعاس في القصة وذكر المطر الذي ذكره الله تعالى في كتابه فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد ﴿عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الحدث والجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني وسوسته إليهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم مصلون مجنبون، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يقويها بالوثوق على لطف الله بهم وإنزال السكينة عليها يقال فلان رابط الجأش إذا قوي قلبه وأصل الربط الشد وذلك يقتضي القوة والاستحكام ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ أي بالمطر ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ حيث صلب الرمل ولم يذهب الأقدام فيها أو بالصبر وقوة القلب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين أمد بهم المؤمنين بدل ثالث أو متعلق بيثبت ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في إعانة المؤمنين وثبتهم وهو مفعول يوحي ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحاربة أعدائهم وتكثير سوادهم وبشارتهم بالنصر قال مقاتل: كان الملك يمشي أمام الصف في صورة الرجل ويقول أبشروا فإن الله ناصركم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ هو امتلاء القلب من الخوف يعني الخوف من المؤمنين قرأ ابن عامر والكسائي بضم العين والباقون بسكونها وهذا بمنزلة التفسير لقوله إني معكم روى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لأبي: يا أبت كيف أسرك أبو اليسر ولو شئت لجعلته في كفك؟ فقال: يا بني لا تقل ذلك لقيني وهو في عيني أعظم من الخندق، قلت: وهذا لإلقاء الله الرعب في قلوبهم ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها التي هي المذابح والرؤوس وقال عكرمة يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق، وقال الضحاك معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة، وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق وفوق بمعنى على ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال عطية: يعني كل مفصل، وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعني الأطراف، والبنان جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين في القاموس الأصابع أو أطرافها، والخطاب للملائكة يقتضيه سياق الآية وفيه دليل على أن الملائكة قاتلوا، قال: ابن الأنباري كانت الملائكة لا تعلم كيف يقتل الآدميون فعلمهم الله تعالى.

روى البخاري والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: وهو في قبة يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم»فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله لقد ألححت على ربك، فخرج وهو يثبت في الدرع وهو يقول:

سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر»[١]، وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً وأنزل الله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] فأوحى الله تعالى إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» وروى مسلم وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوق وسمع صوت الفارس يقول: أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فأحضر ذلك الموضع أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة»[٢].

وروى الحاكم وصححه البيهقي وأبو نعيم عن سهل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر أن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه قبل أن يصل إليه، وروى البيهقي عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يعرفون قتل من قتلوه بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق، وروى ابن سعد عن حويطب بن عبد العزى قال: شهدت بدراً مع المشركين فرأيت عيراً رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض، وروى محمد بن عمر الأسلمي والبيهقي عن أبي بردة بن نيار رضي الله عنه قال: جئت رسول الله ﷺ بثلاثة رؤوس فقلت يا رسول الله أما رأسان فقتلتهما وأما الثالث فإني رأيت رجلاً أبيض طويلاً ضربه فأخذت رأسه فقال رسول الله ﷺ ذاك فلان من الملائكة، روى ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذٍ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه وتندر يد رجل لا يدري من ضربه وروى ابن إسحاق والبيهقي عن أبي واقد الليثي قال: إني لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أن غيري قتله، وروى البيهقي عن خارجة بن إبراهيم قال: قال رسول الله ﷺ لجبرئيل من القائل يوم بدر من الملائكة أقدم حيزوم فقال: جبرائيل: ما كل أهل السماء أعرف.

وروى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمت أم الفضل وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحابه بدر كبّه[٣] الله وأخزاه فوجدنا في أنفسنا قوة وعزة وكنت رجلاً ضعيفاً

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٨٩، وتفسير سورة ٥٤، باب ٥، ٦، وأحمد في المسند ١/٣٢٩.
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٥٨.
(٣) أي: أذله.

وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم فوالله إني لجالس أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب[1] الحجرة وكان ظهره إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب إليّ ابن أخي فعندك الخبر فجلس إليه والناس قيام عليه فقال: أخبرني ابن أخي كيف كان أمر الناس فقال: لا شيء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم[2] أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وايم الله مع ذلك قاتلت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض لا والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فثاورته[3] فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجة منكرة وقالت: استضعفته إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلاً في الله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله عز وجل بالعدسة فقتله.

قال ابن جرير والعدسة[4] قرحة كانت العرب يتشاءم بها ويرون أنها تعدو أشد العدو، فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه بعد موته ثلاث ولا تقرب جثته ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة[5] في تركه حفروا له ثم وضعوه بعصا في حفرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه، قال ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير: إنهم لم يحفروا له ولكنه أسندوه إلى حائط وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط حتى واروه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب والأمر به والخطاب للرسول ﷺ وهو مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني بسبب أنهم عاندوهما اشتقاقه من الشق لأن كلاً من المتعاندين في شق خلاف الآخر كالمعاد من العدوة والمخاصمة من الخصم وهو الجانب ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعاقبه الله عقاباً شديداً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعدما حاق بهم في الدنيا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب مع الكفار على طريقة الالتفات ومحله الرفع أي الأمر ذلكم أو ذلكم العقاب واقع والنصب بفعل دل عليه قوله تعالى ﴿فَذُوقُوهُ﴾ يعني ذوقوا ذلكم العذاب في الدنيا فذوقوه أو غير ذلك الفعل مثل باشروا أو عليكم ويكون الفاء حينئذٍ عاطفة ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة عطف على ذلكم أو الواو بمعنى مع والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب موجب للعذاب الآجل والجمع بينهما والمؤمن لو أصابه مصيبة في الدنيا بما

---

(١) الطنب: حبل الخيام وطرف الحجرة.

(٢) أي أعطيناهم.

(٣) ثاورته: أي قاتلته.

(٤) العدسة: بثرة شبيهة بالعدس تخرج في موضع من الجسد تقتل صاحبها غالباً.

(٥) السبة: طعن الناس وقولهم بالسوء.

كسبت يداه كانت له كفارة ولا يعذب في الآخرة إن شاء الله تعالى.

روى البغوي بسنده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] الآية عن علي رضي الله عنه قال: ألا أخبركم بأفضل آية من كتاب الله حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠] وسأفسرها لك يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبته أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله عز وجل أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة وما عفى الله عنه في الدنيا فالله أحكم من أن يعود بعد عفوه والله أعلم.

روى الترمذي وحسنه والحاكم عن عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس وهو أسير في وثاقه: لا يصلح فقال رسول الله ﷺ: لمَ؟ قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك قال: «صدقت»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ حال من فاعل لقيتم ومفعوله أي متزاحفين بعضكم إلى بعض مختلطين المسلمون بالمشركين والتزاحف التداني في القتال كذا قال: البغوي، قلت: وإنما سمي التداني في القتال تزاحفاً لأنه مأخوذ من زحف الصبي إذا دب على أسته قليلاً أو من زحف البعير إذا أعيى فيسير قليلاً يجر فرسه فإن مزاحمة العدو يمنعهم عن الإسراع في المشي فكأنهم يزحفون كما يزحف الصبي، فالزحف مصدر ولذلك لم يجمع كقولهم قوم عدل، وقال الليث الزحف جماعة يزحفون إلى عدولهم فهم الزحف بالفتح الإسكان والجمع الزحف بالضمتين، وفي القاموس الزحف الجيش يزحفون إلى العدو واختار البيضاوي هذا المعنى حيث فسر زحفاً بمعنى كثيراً فعلى هذا إما أن يكون حالاً من الذين كفروا يعني إذا لقيتم جماعة كثيرة من الكفار فضلاً من أن يكونوا مثلكم وقليلاً منكم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي لا تولوا ظهوركم بالانهزام، وإما من الفاعل والمفعول جميعاً، والمعنى إذا لقيتم متكثرين بجماعة كثيرة من الكفار وحينئذٍ يكون جريان الحال جرياً على العادة فإن الغالب قتال المتكثرين بالمتكثرين وإما من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا وهم اثنا عشر ألفاً وألا ظهر عندي في تفسير الآية ما قال البغوي، فإنه يقتضي عموم النهي سواء كان من الفريقين جماعات أو فرادى فإن مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد.

مسألة

الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر وعلى هذا أكثر أهل العلم وبه قال الأئمة الأربعة من الفقهاء لكنهم قالوا: إن المسلمين إذا كانوا على شطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا وإن

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٨، باب ٢، وأحمد في المسند ١/ ٣١٤.

كانوا أقل من ذلك، جاز لهم أن يولوا ظهورهم ويتجاوزا عنهم لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية، قال: عطاء بن رباح: هذه الآية يعني لا تولوهم الأدبار منسوخة بقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ وبحديث ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فحاص الناس حيصة فأتينا المدينة فاختفينا بها وقلنا هلكنا ثم أتينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون قال: «بل أنتم العكارون(١) وأنا فئتكم»(٢) رواه الترمذي وحسنه في رواية أبي داود نحوه.

وقال محمد بن سيرين لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر رضي الله عنهما فقال: لو انحاز إلي كنت له فئة وأنا فئة كل مسلم، ومجمل هذين الحديثين قلة المسلمين من شطر الكفار. قال: البغوي قال ابن عباس: من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر، وقال بعض الناس لا بأس بالفرار مطلقاً محتجاً بما ذكرنا من حديث ابن عمرو ومحمد بن سيرين، قال أبو سعيد الخدري: هذا يعني النهي عن التولي زحفاً في أهل بدر خاصة ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبي ﷺ كان هناك ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين فأما بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزاً إلى فئة فلا يكون فرارة كبيرة وهو قول الحسن وقتادة والضحاك، وقال يزيد بن أبي حبيب أوجب الله تعالى النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أُحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ثم كان يوم حنين بعد فقال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [التوبة: ٢٧] قلت: وهذا القول ردَّه إجماع الأئمة على ما ذكرنا وما ذكر من الآيات في يوم أُحد ويوم حنين فهي حجة لنا لا علينا حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥] والعفو يقتضي العصيان وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ يدل على وجود المعصية والله أعلم، وقد ذكر رسول الله ﷺ التولي يوم الزحف من السبع الموبقات»(٣) رواه الشيخان في الصحيحين في حديث أبي هريرة وأصحاب السنن عن صفوان بن عسال، وقد ذكرنا الكبائر في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فالوعيد عام بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ يعني الذين كفروا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا لقيتموهم زحفاً ﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ أي ظهره في أي حال كان ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي متعطفاً يريد أن يرى من نفسه الانهزام وقصده الغرة بالعدو وهو يريد الكر ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي منضماً صابراً إلى جماعة المسلمين إذا أعيى من القتال يريد العود بعد زوال

---

(١) العكارون: أي الكرارون إلى الحرب، يقال للرجل يولي عن الحرب: لم يكر راجعًا إليها.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٩٦، والترمذي في الجهاد باب ٣٦، وأحمد في المسند ٢/ ٧٠، ٨٦، ١٠٠، ١١١.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا باب ٢٣، والحدود باب ٤٤، (المحاربين باب ٣٠)، ومسلم في الإيمان حديث ١٤٤، وأبو داود في الجهاد باب ٩٦، والوصايا باب ١٠، والنسائي في الوصايا باب ١٢، والترمذي في الاستئذان باب ٣٣.

التعب ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم وفي القصة ما ذكره البغوي أنه قال: مجاهد فلما انصرف المسلمون عن القتال كان الرجل يقول أنا قتلت فلاناً ويقول الآخرمثله فنزلت ﴿ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾ بنصره إياكم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم وإمداد الملائكة لكم، والفاء جواب شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وهذا سبب أقيم مقام المسبب، والأصل في التقدير أن افتخرتم فقد أخطأتم إذ لم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم من غير تجشم منكم بإمداده على خلاف جري العادة ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد بالحصباء رمياً يوصلها إلى أعينهم أجمعين ولم تكن تقدر على ذلك ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أتيت بصورة الرمي ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ أتى هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا. قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف لكن في الموضعين ورفع ما بعده، والباقون بالتشديد ونصب ما بعده، روى ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس والأموي عن عبد الله بن ثعلبة بن صفير أن رسول الله ﷺ قال: يعني في مناشدته ربه: «إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال له: جبرائيل خذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوههم فما بقي من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه فولوا مدبرين فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: احملوا فلم يكن إلا الهزيمة فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر وأنزل الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾ الآية.

وروى الطبراني وأبو الشيخ برجال الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه «ناولني قبضة من حصباء» فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه الكفار فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء[1]، وروى أبو الشيخ وأبو نعيم وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن في طست فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن وجوه المشركين فانهزموا، وروى ابن أبي حاتم عن ابن زيد أن رسول الله ﷺ أخذ بثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم، وقال «شاهت الوجوه»[2] فانهزم القوم وروى محمد بن عمرو الأسلمي أمر رسول الله ﷺ فأخذ من الحصباء كفاً فرمى به المشركين وقال: «شاهت الوجوه اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم» فانهزم أعداء الله لا يلوذون على شيء والقواد روعهم والمسلمون يقتلون ويأسرون وما بقي منهم أحد إلا امتلأ وجهه وعينيه ما يدري أين يوجه والملائكة يقتلونهم.

وروى الطبراني وابن أبي حاتم وابن جرير بسند حسن عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض وكأنه صوت حصاة وقعت في طست

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ١٧٥.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٨١، والدارمي في السير باب ١٥، وأحمد في المسند ١/ ٣٠٨، ٣٦٨، ٥/ ٢٨٦، ٣١٠.

ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصاة وقال «شاهت الوجوه» فانهزمنا. وفي شأن نزول الآيات روايات أخر غريبة منها ما روى الحاكم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: أقبل أبي بن خلف يوم أُحد إلى النبي ﷺ فخلوا سبيله فاستقبله مصعب بن عمير ورأى رسول الله ﷺ ترقوة أبي من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة فطعنه بحربته فسقط من فرسه ولم يخرج من طعنه دم فكسر ضلعاً من أضلاعه فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور فقالوا ما أعجزك إنما هو خدش فذكر لهم قول رسول الله ﷺ بل أنا أقتل أبياً قال: «والذي نفسي بيده لو كان هذا بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين» فمات أبي قبل أن يقدم مكة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إسناده صحيح لكنه غريب، ومنها ما أخرج ابن جرير عن عبد الرحمٰن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم خيبر دعا بقوس فرمى الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ وهذا مرسل جيد لكنه غريب والله أعلم ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لينعم الله عليهم ﴿مِنْهُ﴾ أي ما فعل ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ نعمة عظيمة قوله تعالى ليبلي معطوف على محذوف يعني فعل ما فعل ليظهر دينه ويقهر أعدائه ويبلي المؤمنين أي يعطيهم نعمة عظيمة النصر والغنيمة وتقويته الإيمان بمشاهدة الآيات وأجر الجهاد والشهادة ودرجات القرب وغرفات الجنان ومرضاة الله تعالى، قلت: كأنه جواب سؤال مقدر وهو أن الله تعالى كان قادراً على أن يهلك الكفار أجمعين من غير مجاهدة المؤمنين وقتالهم حتى قتل بعضهم، ومن غير إمداد الملائكة وأيضاً كان ملك الملائكة كاف في إهلاكهم كما فعل بأشياعهم من قبل حيث قال: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٨ - ٢٩] فأي فائدة في إمدادهم بثلاثة آلاف من الملائكة وقتال الملائكة وغير ذلك فيقول الله سبحانه فعلنا هذا كله لإظهار دينه وإعطاء المؤمنين من الأنس والملائكة نعمة من الله من الأجر والثواب والنصر والغنيمة، ولو أهلك كلهم بقدرته أو بصيحة ملك واحد ولم يبق من المشركين أحد لم ينل أحد منهم فضل الإيمان بالله تعالى وقد آمن كثير ممن بقي منهم بعد ذلك ما نال المؤمنون أجر الجهاد والشهادة والغنيمة والفضل ما نال الملائكة ذلك الفضل.

فصل

فيما ورد في فضائل أهل بدر

روى البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: جاء جبرائيل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «أفضل المسلمين أو كلمة نحوها قال جبرائيل: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة»(١) وروى أحمد وابن ماجه عن رافع بن خديج نحوه، وروى أحمد بسند صحيح على شرط مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ١١، وابن ماجه في المقدمة باب ١١.

شهد بدراً والحديبية»(١) وروى أبو داود وابن ماجه والطبراني بسند جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلع الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(٢) وروى أحمد عن حفصة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية قالت: قلت أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] قال: أما سمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾(٣) [مريم: ٧١] وروى مسلم والترمذي عن جابر أن عبد الله بن حاطب جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو حاطباً إليه فقال: يا رسول الله ﷺ ليدخلن حاطب النار قال: «كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية»(٤) وفي الصحيحين عن علي قصة كتاب حاطب بن بلتعة وقول عمر: «يا رسول الله اضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ: «أليس من أهل بدر ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وقال: فقد وجبت لكم الجنة»(٥) وقد ذكرنا الحديث في سورة الفتح وسورة الممتحنة.

وروى البخاري عن أنس قال: أصيب حارثة بن زيد يوم بدر فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ﷺ قد عرفت منزلة حارثة مني فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب وإن يك الأخرى فترى ما أصنع؟ قال: «ويحك أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في الفردوس»(٦) وفي رواية عند غير البخاري عن أنس أن حارثة كان في النظارة وفيه: «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»(٧) ففيه تنبيه عظيم على فضل أهل بدر فإنه لم يكن في بحبحة القتال(٨) ولا في حومة الغوائل بل كان من النظارة من بعيد وإنما أصابه سهم غرب وهو يشرب من الحوض ومع هذا أصاب جنة الفردوس التي هي أعلى الجنة وأوسطها ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا كان هذا حاله فما ظنك بمن كان في نحر العدو ووهم على ثلاثة أضعافهم عَدداً وعدداً، واستشكل قوله ﷺ: «اعملوا ما شئتم» فإن ظاهره للإباحة وهو خلاف عقد الشرع فقيل: إنه إخبار عن مغفرة الذنوب الماضية يدل عليه قوله: «قد غفرت لكم» بصيغة الماضي ورد هذا القول بأنه لو كان للماضي لما صح الاستدلال في قصة حاطب بن بلتعة لأنه ﷺ خاطب عمر منكراً عليه ما قال: في أمر حاطب فإن هذه القصة كانت بعد بدر بست سنوات فدل على أن المراد مغفرة الذنوب المستقبلة وإنما أورد بلفظ

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٩٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٢٨٥.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ١٦٢.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي باب ٩، ٤٦، والأدب باب ٧٤، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٦١، وأحمد في المسند ١/ ٨٠.

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥١.

(٧) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٣٢٥.

(٨) بحبحة: أي وسط.

الماضي مبالغة في تحققه والصحيح أن قوله ﷺ: «اعملوا» للتشريف، والتكريم والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر عنهم وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيم التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة وتأهلوا لأن يغفر لهم للذنوب اللاحقة إن وقعت.

فائدة: اتفقوا على أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها والله أعلم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن أو القتل والرمي ومحله الرفع أي المقصود أو الأمر ذلكم أو ذلكم إلا بلاء حق ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ذلكم يعني المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر بفتح الواو وتشديد الهاء والباقون بإسكان الواو وتخفيف الهاء، وقرأ حفص موهن بغير تنوين مضافاً إلى كيد بالجر والباقون بالتنوين ونصب كيد روى ابن إسحاق وأحمد عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير بالمهملتين العذري وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعضهم، قال أبو جهل: اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة اللهم من كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره فكان هو المستفتح على نفسه فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ أي تستنصروا لأحب الناس وأرضاهم عند الله ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الذي طلبتم فقتل أبو جهل يوم بدر. وروى أحمد والشيخان وغيرهم عن عبد الرحمٰن بن عوف قال: إني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما سراً من صاحبه فقال: أي عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب النبي ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منهما قال: وغمزني الآخر من صاحبه فقال: مثلها فعجبت لذلك فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس وهو يرتجز. شعر:

ما تنقم الحرب العوان(١) مني بازل(٢) عامين حديث سني
لمثل هذا ولدتني أمي

فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى برد وانصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال: كلاكما قتله وقضى رسول الله ﷺ سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح والرجلان هو ومعاذ ابن عفراء. وروى البخاري عن أنس قال: قال: النبي ﷺ يوم بدر: «من ينظر ما فعل أبو جهل؟ قال: فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد فأخذ بلحيته، وقال: أنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو

---

(١) الحرب العوان التي قوتل بها مرة بعد أخرى.
(٢) البازل في الإبل الذي خرج نابه وهو في ذلك السن به قوته ـ ١٢ ـ.

قتلتموه» وفي مسند أحمد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أنه وجد أبا جهل يوم بدر وقد ضربت رجله وهو صريع وقد ندب الناس فيه بسيف له فأخذته فقتلته به فنفلني رسول الله ﷺ سيفه، قال الحافظ هو معارض لما في الصحيح أنه ﷺ أعطى سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ويمكن الجمع بأن يكون نفل ابن مسعود سيفه الذي قتله به فقط.

وروى ابن إسحاق عن معاذ بن عمرو بن الجموح، قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى وقال: «اللهم لا يعجزنك»، قال: فلما سمعتها جعلته من سابق فصمدت نحوه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي هذا وإني لأصحبها خلفي فلما آذتني وضعت قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، قال: ابن إسحاق وعاش بعد ذلك إلى زمن عثمان، قال: القاضي زاد ابن وهب في روايته فجاء معاذ يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ فلصقت كذا نقل عن القاضي في «العيون»، وفي الشفاء قطع أبو جهل يوم بدر يد معوذ بن عفراء فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ وألصقها فلصقت رواه ابن وهب. قال ابن إسحاق: ثم مر بأبي جهل وهو عفير معوذ ابن عفراء فضربه حتى أثبته وبه رمق وقاتل معوذ حتى قتل ثم مر عبد الله بن مسعود بأبي جهل، قال ابن مسعود: وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ هل أعمد[1] من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدابرة[2]؟ قلت: لله ولرسوله. وروي عن ابن مسعود أنه قال: قال لي أبو جهل: لقد ارتقيت يارويعي الغنم مرتقاً صعباً ثم أخررت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال: الله الذي لا إله غيره، قلت: ونعم والذي لا إله غيره ثم ألقيت بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله»، وفي رواية: خر رسول الله ﷺ ساجداً وفي رواية صلى ركعتين. وروى ابن عابد عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة فرعون وفرعون هذه الأمة أبو جهل قاتله الله قتله ابنا عفراء أو قتله الملائكة وتدافه ابن مسعود» يعني أجهز عليه وأسرع قتله وقال عكرمة قال المشركون: والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله تعالى ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ أي إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء، وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ أخذوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر على الجندين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت فعلى هذه الروايات الخطاب لكفار مكة، وقال أبي بن كعب هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ قال الله تعالى للمسلمين: إن تستفتحوا أي إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر والظفر.

---

(١) يعني زاد على رجل قتله قومه وهل كان إلا هذا يعني أنه ليس يعاب.

(٢) أي الظفر والنصر ـ ١٢ ـ.

روى البغوي بسنده عن قيس بن حباب، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تدعو الله لنا ألا تستنصر لنا فجلس محماراً لونه أو وجهه فقال لنا: «لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفروا له في الأرض ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه ثم يجعل بفرقتين ما يصرفه عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعا إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ولكنكم تعجلون» ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أيها الكفار عن الكفر بالله والقتال مع نبيه ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإن فيه صلاح الدارين لكم ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ الحرب ومعاداته ﴿نَعُدْ﴾ بمثل الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر ﴿وَلَن تُغْنِىَ﴾ أي لن يدفع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أي جماعتكم شيئاً من الإغناء أو شيئاً من المضار ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الهمزة وحينئذ عطف على محذوف يعني لن تغني عنكم فتتكم شيئاً لأجل شؤم كفركم ولأن الله مع المؤمنين وقيل: هو عطف على قوله ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين وأن الله مع المؤمنين.

وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف والعطف على لن تغني وإن كان قوله تعالى إن تستفتحوا خطاباً للمسلمين فالمعنى إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح النصر وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والمجادلة في الحق والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا بعد بالإنكار وتهيج العدو ولن تغني حينئذٍ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإن الله مع المؤمنين الكاملين ويناسبه قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ
وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ
وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ
وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا
مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ
فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي لا تعرضوا عن الرسول يعني عن إطاعته، أفرد الضمير لأن المراد من الآية الأمر بإطاعة الرسول الله ﷺ والنهي عن الإعراض عنه، وذكر الله تعالى للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله تعالى في طاعة الرسول الله ﷺ، وقيل: الضمير للجهاد أو للأمر الذي يدل عليه الطاعة ﴿تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ وتصدقونه ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ يعني المنافقين الذين ادعوا السماع والتصديق ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع اتعاظ وقبول ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ عن الحق لا يسمعه سماع قبول فلا ينطق به ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحق عدّهم من البهائم وجعلهم شرها لإبطالهم ما امتازوا به من البهائم وفضّلوا لأجله.

قال ابن عباس هم نفر من بني الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويط بن حرملة ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يعني استعداد قبول الحق وكانوا من أهل السعادة من مربيات اسم الله الهادي ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع قبول وتفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع انتفاع وتفهم وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ بعد الإيمان والتصديق والانتفاع وارتدوا لما سبق عليهم الكتاب ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بعد ظهور الحق عناداً، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل أهل النار فيدخلها»(١) الحديث متفق عليه عن ابن مسعود، قال: البغوي وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ أحي لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك فقال: الله تعالى ولو أسمعهم كلام قصي لتولوا وهم معرضون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ يعني أجيبوهما بالطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول أفرد الضمير لما ذكرنا ولأن دعوة الله يسمع من الرسول ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: السدي أي الإيمان لأن الكافر ميت، وقال قتادة: هو القرآن فيه الحياة وبه النجاة والعصمة في الدارين، وقال مجاهد الحق وقال ابن إسحاق هو الجهاد حيث أعزكم الله به بعد الذل.

وقال القتيبي هو الشهادة قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قلت: والأولى أن يقال: هو كل ما دعا له الرسول ﷺ والتقيد ليس للاحتراز بل للمدح والتحريض فإن طاعة الرسول في كل أمر يحيي القلب وعصيانه يميته، والمراد بحياة القلب طرد الغفلة عنه بخرق الحجب ودفع الظلمة.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٨، وبدء الخلق باب ٦، وأحاديث الأنبياء باب ١، والقدر باب ١، ومسلم في القدر حديث ١.

روى الترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ مرّ على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل أبي في صلاته ثم جاء فقال رسول الله ﷺ ما منعك أن تجيبني إذا دعوتك؟ قال: كنت في الصلاة، قال: أليس الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فقال: لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت مصلياً»[1] وهذا الحديث يؤيد ما قلت بوجوب الإجابة لكل ما دعا رسول الله ﷺ.

مسألة

قيل: إجابة الرسول لا يقطع الصلاة وقيل دعاؤه إن كان لأمر لا يحتمل التأخير فللمصلي أن يقطع الصلاة لأجله والظاهر هو المعنى الأول وإلا فقطع الصلاة يجوز لكل أمر ديني مهم يفوت بالتأخير كالأعمى يقع في البئر وهو يصلي لو لم يقطعها ولم يرشده والله أعلم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي يميته فيفوته الفرصة التي هو واجدها لطاعة الله تعالى فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لله وسارعوا إلى الخيرات.

أو المعنى أن الله يحول بين الإنسان وبين ما يتمناه قلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه فلا تسوّقوا في أمور الدين وقيل: هو تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلب ما عسى أن يغفل عنه صاحبه فعليكم بالإخلاص وقيل: هو تصوير وتخيل لتملكه على قلب العبد فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده يحول بينه وبين الكفر والعصيان إن أراد سعادته وبينه وبين الإيمان والطاعة إن أراد شقاوته فلا بد من دوام التضرع والالتجاء إليه وخوف الخاتمة.

عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ «يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا: يا رسول الله ﷺ آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»[2] رواه الترمذي وابن ماجه، وعن ابن عمر مرفوعاً: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[3] رواه مسلم، عن عمر بن الخطاب أنه سمع غلاماً يدعو: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه فحل بيني وبين الخطايا فلا أعمل بسوء منها فقال: رحمك الله ودعا له بخير ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ أي معصية ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ الضمير راجع إلى فتنة بتقدير حذف المضاف أي لا يصيبن وبالها ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لا تصيبن صيغة نهي مؤكد بالنون صفة لفتنة على إرادة القول، يعني اتقوا فتنة يقال فيها: لا تصيبن الذين

---

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب ١، والنسائي في الافتتاح باب ٢٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٨٩، ١٢٤، وابن ماجه في الدعاء باب ٢.

(٣) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٧، وأحمد في المسند ٢/١٦٨.

ظلموا منكم خاصة بل تعم الظالم وغيره أو صيغة نفي دخلها النون لتضمنها معنى النهي فمعنى الآية الأمر بالاتقاء عن فتنة موصوفة بعموم وبالها من ارتكبها ومن لم يرتكبها.

واختلفوا في ذلك الفتنة ما هي؟ فقال قوم: هي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم واستدلوا على ذلك بحديث أبي بكر الصديق قال: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[(١)] رواه أصحاب السنن الأربعة، وقال: الترمذي حسن صحيح وصححه ابن حبان، وحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم وقبل أن تستغفروه فلا يغفر لكم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدفع رزقاً ولا يقرب أجلاً وإن الأحبار من اليهود والنصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ثم عموا بالبلاء»[(٢)]. رواه الأصبهاني وله شاهد من حديث ابن مسعود وحديث عائشة. وعن عدي بن عدي الكندي قال: حدثنا مولى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة»[(٣)] رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة فصاروا بعضهم في أسفلها وبعضهم في أعلاها فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به، فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء فإن أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا بأنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم»[(٤)] رواه البخاري.

قلت: والاستدلال بهذه الأحاديث لا يصح فإن مقتضى الأحاديث أن معصية أحد لا يعذب بها غيره إلا إذا عمل بها بين أظهر الناس وهم قادرون على الإنكار فلم ينكروا، فحينئذٍ يعم عذاب تلك المعصية فاعلها ومن لم يفعلها بل ترك النهي عنها، ولا شك أن النهي عن المنكر فريضة تاركها ظالم فشموله عذاب المعصية إصابة عذاب الظالم وليس

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١٧، والترمذي في الفتن باب ٨، وابن ماجه في الفتن باب ٢٠، وأحمد في المسند ١/ ٢، ٥، ٧، ٩.

(٢) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع ٩٥٨٢، ٩٦٥٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٩٢، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٤٦.

(٤) أخرجه البخاري في الشهادات باب ٣٠، والترمذي في الفتن باب ١٢، وأحمد في المسند ٤/ ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٣.

ذلك العذاب شاملاً للظالم وغيره ألم تسمع قصة القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت يعني طائفة منهم وطائفة كانت ناهية عن المنكر وطائفة لم يأتوا بالمنكر لكنهم تركوا النهي عنه فقال الله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥] فهذا صريح في أن وبال ترك النهي لم ينل غير الظالم، وهذه الآية تدل على فتنة ينال وباله الظالم وغيره وقال قوم: هي البغي والفساد في الأرض فإنه ينال وباله في الدنيا رجال معصومون يعني يقتل الناس وينهب.

عن قتادة في الآية قال: علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ حين نزلت هذه الآية أنه ستكون فتن، ومن هٰهنا قال ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً، وقال الحسن نزلت الآية في علي وعمار وطلحة والزبير، عن مطرف قال: قلنا للزبير يا أبا عبد الله قد ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها يعني ما كان منه يوم الجمل من البغي على علي رضي الله عنه، وكذا قال: السدي والضحاك وقتادة، قلت: وعندي أن المراد بالفتنة المذكورة ترك الجهاد خصوصاً عند النفير العام إذا دعاهم الإمام إليه والتولي يوم الزحف بقرينة سياق القصة قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥] قال: عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ والمراد من إصابة الوبال للظالم وغيره وصول المكروه لجميعهم، ألا ترى أن ترك القتال يوجب غلبة الكفار وقتل المسلمين ونهب أموالهم من الصغار والكبار والنساء والفرار من الزحف يوجب قتل المجاهدين الصابرين ألا ترى أن المسلمين إذا استزلهم الشيطان يوم أُحد نال وباله سائر المسلمين حتى نال بعض المكروه للنبي المعصوم شج وجهه وكسر رباعيته والله أعلم.

وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نهياً بعد أمر باتقاء الذنب والمعنى اتقوا كل فتنة ولا يرتكبن أحد منكم فتنة ما فإن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه.

وفائدته أن الظالم منكم أقبح منه من غيركم وهذا معنى ما قال: البغوي ليس بجزاء محض ولو كان جزاء لم يدخل فيه النون لكنه نهي وفيه طرف من الجزاء كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨] تقديره واتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم خاصة، فلا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ومثله ادخلوا مساكنكم إن لم تدخلوها يحطمنكم سليمان وجنوده والله أعلم، وليس قوله تعالى: لا تصيبن جواباً للأمر لأن المعنى حينئذٍ اتقوا فتنة إن تتقوها لا يصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وليس المعنى إن تتقوها ألا يصيبنكم إذ نفي المقيد يرجع إلى القيد فالمعنى بل يعمكم وغيركم وفساده ظاهر، قال البيضاوي: جواب للأمر على معنى إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة، قلت: لا بد في جواب الأمر من تقدير شرط مأخوذ من الأمر كما في قول القائل أسلمْ

تدخل الجنة يعني إن تسلم تدخل الجنة وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ [النمل: ١٨] يعني إن تدخلوا لا يحطمنكم فتقديره إن أصابتكم لا يتصور إن كان جواباً للأمر بل يكون الشرطية صفة لفتنة ويؤول التأويل إلى ما ذكرنا أولاً وأيضاً لا يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ جواب قسم محذوف ويكون تقدير الكلام اتقوا فتنة والله لا يصيبن الفتنة الذين ظلموا منكم خاصة بل يعمكم لأن الفتنة المأمورة بالاتقاء عنها على هذا فتنة منكرة والنكرة إذا أضمرت في قوله تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ صارت عامة فيلزم عموم وبال كل معصية للظالم وغيره وفساده ظاهر لأنه خلاف الإجماع وخلاف منطوق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، اللهم إلا أن يقر المراد بالفتنة ما ذكرنا من ترك الجهاد والفرار من الزحف بقرينة السياق والمراد بإصابتها إصابة وبالها في الدنيا والله أعلم. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فاحذروا عقابه بالاتقاء من الفتنة ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ أيها المهاجرون ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ [الأنفال: ٢٦] في العدد ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مكة ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني كفار قريش وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قيل: يا رسول الله من الناس؟ قال: أهل فارس ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ يوم بدر ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ على الكفار ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المغانم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

وقيل: الخطاب للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم كانوا جميعاً معادين لهم متضادين فجعل لهم الله مأوى يتحصنون به عن أعدائهم، يعني جوار نبيه ﷺ وأيدهم بنصره على جميع أهل الملل والله أعلم. روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة وذكره البغوي أن النبي ﷺ حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأن ماله وعياله وولده كانت فيهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، وذكر في سبيل الرشاد أنه أرسل رسول الله ﷺ أبا لبابة فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقَّ لهم، فقال كعب بن أسد: يا أبا لبابة إنا قد اخترناك على غيرك إن محمداً أبى إلا أن ننزل على حكمه يعني حكم رسول الله ﷺ أفترى أن ننزل على حكمه؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال: أبو لبابة والله ما زالت قدماي مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فندمت فاسترجعت وإن لحيتي لمبتلة من الدموع والناس ينتظرون رجوعه إليهم حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً أخرى حتى جئت إلى المسجد ولم آت رسول الله ﷺ فارتبطت إلى اسطوانة المخلفة التي يقال لها: اسطوانة التوبة وقلت: لا أبرح من مكاني حتى أموت أو يتوب الله عليّ.

قال البغوي: قال: والله لا أنحل ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله

عليّ فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره قال: «أما لو جاءني لاستغفرت له فأما إذا فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه» فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه كذا قال: البغوي.

وفي سبيل الرشاد قال ابن هشام: أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه امرأته كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي ثم يرتبط، وقال ابن عقبة زعموا أنه ارتبط قريباً من عشرين ليلة، وقال في البداية وهذا أشبه الأقاويل، وقال ابن إسحاق خمساً وعشرين ليلة، وروى ابن وهب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر أنه ارتبط بسلسلة ربوض بضع عشرة ليلة حتى ذهب سمعه فما يكاد يسمع وكاد يذهب بصره وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجته فإذا فرغ أعادت الرباط والظاهر أن زوجته كانت تباشر حله مرة وابنته مرة، وأنزل الله تعالى في توبته: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢] قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة قالت أم سلمة فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك قالت فقلت يا رسول الله ممّ تضحك؟ أضحك الله منّك، قال: تيب علي أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده، فلما مر عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال السهيلي وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن فاطمة رضي الله عنها جاءت تحله فقال: إني حلفت أن لا يحلني إلا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني» وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف، ورواية علي بن الحسين مرسلة، ثم قال: أبو لبابة من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كلها فقال النبي ﷺ: «يجزئك الثلث إن تصدقت به» فنزل في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ وأصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فيما بينكم مجزوم بالعطف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو والظاهر هو الأول لأن في الثاني يشترط معنى الجمعية وكل واحد من الخيانتين محرمة برأسها لا الجمع بينهما كما في لا تأكل السمك وتشرب اللبن ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها أمانته أو أنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانته وأنتم علماء تتميزون الحسن من القبح، قال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم.

قال ابن عباس لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنته وأماناتكم هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والأعمال التي ائتمن الله عليها عباده، وقال قتادة اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه

أمانة فليؤد إلى من ائتمن عليها، قلت: حاصل قول ابن عباس وقتادة أن سبب نزول هذه الآية وإن كان ما فعل أبو لبابة لكن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص المورد، فيحرم الخيانة في دين الله من فرائضه وحدوده كلها ومنها ما فعل أبو لبابة والله أعلم.

فإن قيل: «المستشار مؤتمن»[١] حديث صحيح رواه أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً والترمذي عن أم سلمة وابن ماجه عن ابن مسعود، وقد استشار اليهود من أبي لبابة فلو لم يفعل أبو لبابة ما فعل لزمه الخيانة في المشورة فكيف كان له التقصي؟ قلت: كان له التقصي بالسكوت وبأن يقول لست أشير لكم قد بدا بيني وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله ورسوله والله أعلم.

وأخرج ابن جرير عن السدي قال: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت فيه، وروى ابن جرير وغيره عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله هذه الآية وهذا غريب جداً في سنده وسياقه نظر ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ أصل الفتن إدخال الذهب النار ليظهر جودته ومنه استعمل في الاختبار والامتحان قال الله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ويستعمل أيضاً في العذاب قال: الله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۝١٣﴾ [الذاريات: ١٣] يستعمل أيضاً في الكفر والمعصية والفساد وكل ما يفضي إلى العذاب قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وقال ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: ٤٩] والفتنة أشد من الكفر، وتسمية الأموال والأولاد بالفتنة لأنها سبب الوقوع في الإثم والعقاب أو لأنها امتحان من الله تعمّ فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، قيل: هذا أيضاً نزلت في أبي لبابة لأن أمواله وأولاده كانت في بني قريظة، فقال: ما قال خوفاً عليهم، عن عائشة أن النبي ﷺ أتي بصبي فقبله فقال: «أما إنهم مبخلة مجبنة[٢] وإنهم لمن ريحان الله»[٣] رواه البغوي، وروى أبو يعلى عن أبي سعيد: «الولد ثمر القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة»[٤] وروى الحكيم عن خولة بنت حكيم «الولد من ريحان الجنة»[٥] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن نصح لله ورسوله وأدى أمانته ورعى حدوده وآثر رضا الله تعالى على حبهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١١٤، والترمذي في الزهد باب ٣٩، والأدب باب ٥٧، وابن ماجه في الأدب باب ٣٧، والدارمي في السير باب ١٣، وأحمد في المسند ٥/ ٢٧٤.

(٢) أي سبب للجبن والبخل لا يتصدى الرجل لأجل حبهم على الجهاد وعلى إنفاق المال والولد محزن سبب للحزن.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب باب ٣، وأحمد في المسند ٤/ ١٧٢، ٥/ ٢١١.

(٤) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٠٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٥٥.

(٥) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٤٤٢٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بطاعته وترك معصيته ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ أي بصيرة في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل وهو المعنى بقوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[(١)] رواه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد والطبراني وابن عدي عن أبي أمامة وابن جرير عن ابن عمر، وقوله ﷺ: «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون»[(٢)] رواه البخاري في التاريخ عن وابصة بسند حسن، قلت: هذا بعد فناء القلب وتزكية النفس عن الرذائل وحينئذٍ يتحقق حقيقة التقوى، ويسمى هذا في اصطلاح الصوفية بالكشف، والمراد بالفرقان نصراً يفرق بين المحقق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين وقال مجاهد يجعل له مخرجاً في الدنيا والآخرة عما يحذرون، وقال مقاتل بن حبان: مخرجاً في الدين من الشبهات وهذا يناسب الأول، وقال عكرمة نجاة يفرق بينكم وبين ما تخافون، وقال الضحاك ثباتاً وقال ابن إسحاق فصلاً بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفي بطلان من خالفكم، والفرقان مصدر كالرجحان والنقصان ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي يمحو عنكم ويستر لكم ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ نعمائه روى البزار عن أنس عن النبي ﷺ: «يخرج لابن آدم ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله يقول الله لأصغر نعمه في ديوان النعم خذي منك من عمله الصالح فتستوعب العمل الصالح، فيقول: وعزتك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم وقد ذهب العمل الصالح كله، فإذا أراد الله أن يرحم عبداً قال: يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ووهبت لك نعمتي»[(٣)].

وأخرج الطبراني عن واثلة بن الأسقع يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول الله تبارك وتعالى أي الأمرين أحب إليك؟ أن أجزى بعملك أو بنعمتي عليك، قال: يا رب أنت أعلم أني لم أعصك قال: خذوا عبدي بنعمة من نعمي فما تبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة فيقول بنعمتك ورحمتك»، ومن هٰهنا قال رسول الله ﷺ: «إنه لا ينجي أحداً منكم عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(٤)] متفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا

---

(١) أخرجه الترمذي حديث ٣١٢٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٩٤، والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٢١، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ١٤٥، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ١٦٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٩٣٣٩.

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٩٧، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢٦، وابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٣٠.

(٤) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٨، والمرضى باب ١٩، ومسلم في المنافقين حديث ٧١ ـ ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٨. وابن ماجه في الزهد باب ٢٠، والدارمي في الرقاق باب ٢٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٥، ٣١٩، ٣٤٤، ٤٧٣، ٤٨٨، ٣/ ٥٢، ٣٣٧، ٦/ ١٢٥.

أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[١] وإليه أشار الله سبحانه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني ما وعدتكم على التقوى ليس مما يوجب ذلك علينا تقواكم بل إنما هو تفضل وإحسان كالسيد إذا وعد إنعاماً لعبده على عمل واجب عليه وإن لم ينعم السيد ذلك، وقيل: معنى يكفر عنكم سيئاتكم يعني الصغائر ويغفر لكم يعني ذنوبكم الكبائر.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على قوله إذ أنتم قليل يعني اذكر وإذ يمكر بك الذين كفروا وإذ قالوا: اللهم فإن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول كان بمكة.

روى ابن إسحاق وعبد الرزاق وأحمد وابن جرير وأبو نعيم وابن المنذر والطبراني عن ابن عباس وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة أن قريشاً لما أسلمت الأنصار رأت أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاباً من غير بلدهم ورأوا خروج أصحابه المهاجرين إليهم عرفوا أنهم نزلوا داراً وأصابوا جواراً ومنعة فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا يتشاورون فيها فاجتمعوا لذلك واتعدوا وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل[٢] عليه بت[٣] له فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا تعدموا منه رأياً ولا نصحاً، قالوا: أجل ادخل فدخل معهم واجتمع فيها أشراف قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث بن كلدة وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام ونبيه ومنبه ابنا حجاج وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام، وأسلم الثلاثة الأخيرة بعد ذلك وغيرهم من كان منهم ومن غيرهم ممن لا يعد من قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا فقال: قائل منهم ـ نقل السهيلي عن عبد السلام أنه أبو البختري بن هشام ـ احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدي لعنه الله: والله ما هذا لكم برأي والله لئن حبستموه في بيت ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم قالوا: صدق الشيخ، فقال: قائل منهم ـ ذكر السهيلي أنه أبو الأسود ربيعة بن عمر أخو بني عامر بن لؤي ـ نخرجه من بين أظهرنا فلا يضرنا ما صنع وأين وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا فقال:

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) أي: مُسِنّ.

(٣) أي: الكساء.

الشيخ النجدي لعنه الله: ما هذا لكم برأي ألم تروا إلى حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبة قلوب الرجال بما يأتي به والله لئن فعلتم ذلك فيذهب فيستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم به فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد فرأوا فيه رأياً غير هذا، فقال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقفتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً حسيباً وسطاً ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا عليه بأجمعهم فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا به بالعقل فعقلناه لهم، فقال: الشيخ النجدي: القول ما قال: هذا الرجل هذا الرأي لا رأي غيره وقال شعر:

الرأي رأيان رأي ليس يعرفه ... هاد ورأي كنصل السيف معروف
يكون أوله عز ومكرمة ... يوماً وآخره حمد وتشريف

فتفرق القوم على ذلك وهم مجتمعون له فأتى جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي تبيت عليه وأخبره بمكر القوم وأذن الله تعالى في الخروج، فلما كانت العتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيبيتون عليه فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي رضي الله عنه: نم على فراشي وتسجّ بردائي الأخضر الحضرمي فنم فيه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذاك إذا نام، فلما اجتمعوا قال أبو جهل إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن[1] وإن أنتم لم تفعلوا كان له فيكم ذبيح ثم بعثتم بعد موتكم فجعل لكم النار تحرقون فيها.

فخرج رسول الله ﷺ ومعه حفنة[2] من تراب ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك وأنت أحدهم» وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل يذري التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١ ـ ٢] إلى قوله ﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ٩] ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع رسول الله ﷺ على رأسه تراباً وانصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيّبكم الله عز وجل قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته فما ترون ما بكم ووضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يطّلعون فيرون علياً رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ متسجاً برداء رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا محمد نائم عليه برده فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن فراشه فقالوا: والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا وذهب

(١) الأردن موضع معروف من أرض الشام قريب بيت المقدس ـ ١٢ ـ.
(٢) الحفنة الكف ـ ١٢ ـ.

رسول الله ﷺ إلى غار ثور، وسيجيء باقي قصة خروجه ﷺ في سورة التوبة إن شاء الله تعالى.

روى الحاكم عن ابن عباس قال: شرى عليٌّ نفسه ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وجعل عليّ يتضور[١] فإذا هو عليّ فقالوا: إنك للئيم إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور ولقد استنكرناه فيك.

وروى الحاكم عن علي بن الحسين قال: إن أول من شرى نفسه ابتغاء رضوان الله عليّ وقال في ذلك (شعر)[٢]:

وقيت بنفسي خير من وطى الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول إلٰه أخاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر
وبات رسول الله في الغار آمناً موقى وفي حفظ الإلٰه وفي ستر
وبت أراعيهم وما يتهمونه وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

قال ابن إسحاق: وكان مما نزل في ذلك اليوم وما اجتمعوا له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي يحبسوك ويوثقوك كما قال به أبو الحقيق ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كما قال به أبو جهل وارتضى به إبليس لعنهما الله سبحانه ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ كما قال: به أخو بني عامر ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة وذلك ضربان مكر محمود وهو أن يتحرى بذلك فعل جميل ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح لكن إسناده إلى الله تعالى إنما يحسن للمزاوجة، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم والمعنى أنهم احتالوا لإبطال أمر محمد وإطفاء نور الله والله تعالى احتال لإتمام أمره ونوره وإهلاك أعدائه ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فإن فعله تعالى خير كله وحسن جميل.

وقيل: معنى مكر الله أنه يرد مكرهم، وقيل: معناه يجازيهم على المكر، وقال بعضهم من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا ولذلك قال أمير المؤمنين: من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر فهو مخدوع عن عقله.

وأخرج ابن جرير من طريق عبيد بن عمير عن المطلب بن وداعة أن أبا طالب قال: للنبي ﷺ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني» قال: من حدثك بهذا؟ قال: ربي، قال: نعمَ الرب ربك فاستوصِ به خيراً، قال: أنا أستوصي به بل هو يستوصي بي فنزلت ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، قال: ابن كثير ذكر أبي طالب فيه غريب بل منكر لأن القصة ليلة الهجرة وذلك بعد موت أبي طالب بثلاث سنين. أخرج

---

(١) أي يتقلب ظهراً لبطن.
(٢) الأبيات من البسيط، وهي في ديوان علي بن أبي طالب ص٨٤.

ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال: المقداد: يا رسول الله أسيري فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول» قال: وفيه أنزلت ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟﴾ يعني النضر بن الحارث وإسناد الفعل إلى جميعهم لكونهم راضياً بقوله كما أسند عقر الناقة إلى ثمود في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود: ٦٥] وكان العاقر أشقاها قذار بن سالف ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ يعني القرآن ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم فلم يعارضوه سورة مع الفهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصاً في باب البيان يعني ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني ما سطره وكتبه الأولون من أخبار الأمم الماضية جمع أسطورة وهي المكتوبة.

قال البغوي: كان النضر بن الحارث تاجراً إلى فارس وحيرة فيسمع أخبار رستم وأسفنديار وأحاديث العجم ويمر باليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون فجاء مكة فوجد محمد ﷺ يصلي ويقرأ القرآن فقال النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا الآية ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ يعني القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما فعلت بأصحاب الفيل وقوم لوط ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم على إنكاره قالوا: ذلك استهزاء وإيهاماً بأنهم على بصيرة وجزم ببطلانه، أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها نزلت في النضر بن الحارث وهو القائل بذلك، قال البغوي: قال ابن عباس: لما قصّ رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية قال: النضر لو شئت قلت مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين في كتبهم قال له عثمان بن مظعون: اتق الله فإن محمداً يقول الحق، قال: فأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمداً يقول: لا إله إلا الله، قال: فأنا أقول لا إله إلا الله ولكن هذه بنات الله يعني الأصنام ثم قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك إلخ وفيه نزل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: ١] ومعناه إن كان القرآن حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره أو أئتنا بعذاب أليم سواه.

والمراد منه التهكم وإظهار اليقين على كونه باطلاً، قال عطاء: لقد نزل في النضر بضعة عشر آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ اختلفوا في معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق: هذا حكاية عن المشركين إنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى، ذلك أنهم كانوا يقولون إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة نبيها معها فقال الله تعالى لنبيه ﷺ يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم، ثم قال رداً عليهم ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤] وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

وقال الآخرون هذا كلام مستأنف، روى البخاري عن أنس قال: قال أبو جهل بن هشام: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ إخباراً عن نفسه فاختلفوا في تأويلها؟ فقال: الضحاك وجماعة وكذا أخرج ابن جرير عن ابن أبزى تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم بيان لموجب إمهالهم والتوقف لإجابته دعائهم واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي بين أظهرهم خارج عن عادة الله تعالى غير مستقيم في قضائه خصوصاً حال كونك فيهم وقد بعثت رحمة للعالمين وفيه إشعار بأنهم يرصدون بالعذاب إذا هاجرت من بينهم، قالوا: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو مقيم بمكة ثم خرج من بين أظهرهم وبقيت بها بقية من المسلمين يستغفرون الله فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني فيهم من يستغفرون وهم المسلمون ثم خرج أولئك من بينهم فعذبوا وأذن الله في فتح مكة، وهو العذاب الأليم الذي وعدهم، ويدل على أن كون المؤمنين بينهم واستغفارهم منعهم من العذاب قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥] إلى قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

قال ابن عباس: لم يعذب الله قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا ويلحق بحيث يؤمر فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤] أي ما لهم مما يمنع تعذيبهم إذا زال ذلك وكيف لا يعذبون وهم يصدون الناس عن المسجد الحرام وحالهم ذلك، ومن صدهم إلجاء رسول الله ﷺ إلى الهجرة فعذبهم الله يوم بدر، قال أبو موسى الأشعري: كان فيكم أمانان وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فأما النبي ﷺ فقد مضى والاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة، وأخرج الترمذي وضعفه عن أبي موسى قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»[1] وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع إلى المشركين. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية، وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرم الله من بيننا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا: فقالوا غفرانك اللهم فقال الله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال قتادة والسدي: معنى ما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أن لو استغفروا لم

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٨، باب٤.

يعذبهم الله لكنهم لم يستغفروا ولو أقروا بالذنب واستغفروا لكانوا مؤمنين نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧] وقيل: معنى الآية أن الله تعالى يدعوهم إلى الإسلام ومصاحبة الرسول والاستغفار بهذا الكلام كالرجل يقول لغيره لا أعاقبك وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاتبك، وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أي يسلمون يقول لو أسلموا ما عذبوا.

وروى الوالبي عن ابن عباس أن معناه وفيهم من سبق له من الله أنه يؤمن ويستغفر وذلك مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمر وحكيم بن حزام وغيرهم.

وروى عبد الوهاب عن مجاهد وهم يستغفرون يعني وفي أصلابهم من يستغفر وقيل: أراد بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ عذاب استئصال وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤] العذاب بالسيف، وقيل: أراد بنفي العذاب عذاب استئصال في الدنيا وبوقوع العذاب عذاب الآخرة ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ قال الحسن: كان المشركون يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام فنصد من نشاء وندخل من نشاء فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي أولياء البيت ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي: البيت ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غير الله وقيل: الضمير لله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه كأنه نبّه بالأكثر أن منهم من يعلم ذلك ويعاند أو أراد بالأكثر الكل كما يراد بالقلة العدم[1] ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي دعائهم أو ما يسمونه صلاة ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾.

قال ابن عباس والحسن المكاء الصفير وهي في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له صفير كأنه قال: إلا صوت مكاء ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وتصفيقاً، قال البغوي: قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون وكذا أخرج الواحدي عن ابن عمر، قال البغوي: قال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهزئون ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون فالمكاء جعل الأصابع في الشدق والتصدية الصفير ومنه الصداء الذي يسمعه المصوت من الجبل.

وفي اللغة الصداء صوت يرجع من كل جانب، وأخرج ابن جرير عن سعيد قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزئون به يصفرون ويصفقون فنزلت هذه

---

(١) عن رفاعة بن رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله تعالى عنه اجمع لي قومك فجمعهم فلما حصروا باب النبي صلى الله عليه وسلم دخل عمر عليه فقال قد جمعت الآن قومي فسمع ذلك الانصار فقالوا قد نزل في قريش الوحي فجاء من المتمع والناظر ما يقال ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم فقام بين أظهرهم فقال هل فيكم من غيركم قالوا نعم حليفنا وابن أختنا وموالينا قال النبي صلى الله عليه وسلم حليفنا منا وابن اختنا منا وموالينا منا وأنتم تسمعون ان أولياؤنا إلا المتقون فان كنتم اولئك فذاك فانظروا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة ويأتون الأثقال فيعرض عنكم ـ ١٢ ـ.

الآية، وقال البغوي قال: جعفر بن أبي ربيعة سألت أبا سلمة بن عبد الرحمٰن عن قوله تعالى: ﴿مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيراً، وقال مقاتل كان النبي ﷺ إذا صلى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران ورجلان عن يساره فيصفقان ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته وهم من بني عبد الدار، وقال سعيد بن جبير: التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين وعن الصلاة فالتصدية مشتق من الصد بالدالين قلبت حرف التضعيف بالياء، وعلى هذه الوجوه معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ﴾ ما وضعوه موضع الصلاة فإنهم أمروا بالصلاة في المسجد فجعلوا ذلك مكانه ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ يعني القتل يوم بدر وقيل: عذاب الآخرة واللام يحتمل للعهد والمعهود العذاب المطلوب بقولهم: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً وهذه الآية متصلة بما قبلها لتقرير استحقاقهم العذاب وعدم ولايتهم للمسجد فإنها لا يليق بمن هذه صفته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةً ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٍ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا كَانَ مَفۡعُولًا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرًا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا كَانَ مَفۡعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ﴾ أي ليصرفوا الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني عن دين الله، قال البغوي: قال الكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثنا عشر رجلاً أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد الشمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزور، وقال ابن إسحاق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمٰن قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر

ورجعوا إلى مكة مشى عبد الله بن أبي وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباءهم وأبناءهم فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في ذلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم[١] وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأراً ففعلوا ففيهم كما ذكر ابن عباس أنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿يُحْشَرُونَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتبة قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين أربعين أوقية من ذهب، وأخرج ابن جرير عن أبزي وسعيد بن جبير قالا: نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أُحد ألفين من الأحابيش[٢] ليقاتل بهم رسول الله ﷺ عليهم، قلت: واللفظ عام يشتمل كلهم ومن فعل فعلهم ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، ندماً وغماً في الدنيا لفواتها من غير حصول مقصود جعل وإنها حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر وإن كان الحرب سجالاً[٣] قبل ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي ثبتوا على الكفر منهم إذا أسلم بعضهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح.

واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون من عداوة الرسول ﷺ مما أنفقه المسلمون في نصره واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب ليميز بالتشديد من التفعيل وهو أبلغ من الميز ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ﴾ أي يجمعه ويضم بعضه إلى بعض ومنه السحاب المركوم ﴿جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ كله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنافقين ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران حيث اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول وقتاله ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من الكفر والفساد والذنوب وقد أسلم جماعة كثيرة منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وغيرهم خلق كثير، وأسلم من أسارى بدر عباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن حارث وأبو العاص بن الربيع وأبو عزيز بن عمير العبدري والصائب بن أبي حبيش وخالد بن هشام المخزومي وعبد الله بن أبي السائب والمطلب بن حنطب وأبو وداعة السهمي وعبد الله بن أبي خلف ووهب بن عمير الجمحي وسهيل بن عمر العامري وعبد الله بن زمعة أخو أم المؤمنين سودة وقيس بن السائب مولى أمية بن خلف والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر بعد أن فدى نفسه وعدي بن خيار أسلم يوم الفتح والوليد بن الوليد بن المغيرة أفتكه هشام وخالد فلما افتدى

---

(١) وتركم: أي نقصكم.

(٢) أحابيش أحياء من القارة انضموا إلى بني الليث في محاربتهم وقيل التحبيش التجمع وقيل حالفوا قريشا تحت جبل يسمى حبشا.

(٣) سجالاً: أي مرة للمؤمنين ومرة للكافرين، مستعار من المستقين بالسجل، يعني الدلو.

أسلم فعاتبوه في ذلك فقال: كرهت أن يظن بي أني جزعت من الأسر ولما أسلم حبسه أخواله فكان عليه السلام يدعو له في القنوت ثم أفلت ولحق بالنبي ﷺ عام القضاء.

روى مسلم عن عمرو بن العاص قال: أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي فقال: مالك يا عمر؟ قال: أردت أن اشترط، قال: «تشترط ماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله»[1] ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ إلى قتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحادوا الأنبياء بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ يعني الكفار أيها المؤمنون ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: فساد في الأرض يعني حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ليس المراد بالدين ها هنا ملة الإسلام وما يتعبد الله به وإلا يلزم التعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩] بل المراد منه القهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم ذكر تلك المعاني للدين في القاموس..

عن المقداد بن أسود أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل، أما يعزهم الله فيجعلهم أهلها أو يذلهم فيدينون لها فيكون الدين كله لله»[2] رواه أحمد، ومعنى قوله عليه السلام: فيدينون لها أي يطيعون لأحكامها ويكونون من أهل الذمة ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على حسب أعمالهم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصم مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»[3] متفق عليه، إلا أن مسلماً لم يذكر «إلا بحق الإسلام».

ورواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة قال السيوطي حديث متواتر، والمعنى انتهوا عن القتال إما بالإسلام أو بإعطاء الجزية فإن الله بما يعملون بصير يعني لا تقاتلوهم أنتم لكن الله يجازيهم على إسلامهم وكفرهم وأعمالهم الحسنة والسيئة، وعن يعقوب أنه قرأ تعملون بالتاء على الخطاب للمؤمنين يعني اعملوا بهم ما تعاملون بالمؤمنين ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٩٢، والنسائي في البيعة باب ١٧، وأحمد في المسند ١/ ٥٦، ٥/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤.

(٣) روي الحديث بطرق وأسانيد متعدّدة، أخرجه البخاري في الإيمان باب ١٧، والاعتصام باب ٢٨، ومسلم في الإيمان حديث ٣٤، ٣٥، ٣٦، والترمذي في الإيمان باب ١، والنسائي في الجهاد باب ١، والتحريم باب ١، وابن ماجه في الفتن باب ١، وأحمد في المسند ١/ ١١، ١٩، ٤٨، ٢/ ٣١٤ـ ٤٢٣، ٥٠٢، ٣/ ٢٩٥، ٣٠٠، ٥/ ٢٤٦.

تظلموهم فإن الله يجازيكم على حسب أعمالكم، عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»(١) رواه أبو داود، هذا التأويل لقراءة يعقوب يصح على كلا التقديرين سواء كان المراد بالانتهاء الانتهاء عن الكفر بالإسلام أو الانتهاء عن القتال بأحد الأمرين إما بالإسلام أو بإعطائه الجزية، وقال البيضاوي. تأويل قراءة يعقوب أن الله بما تعملون أيها المؤمنون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير يجازيكم ويكون تعليقه بالانتهاء دلالة على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم بالتسبيب، وهذا التأويل يختص بما إذا كان الانتهاء بمعنى الانتهاء من الكفر ومع ذلك بعيد جداً فإن قوله بما تعملون يعم الحسنة والسيئة والله أعلم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ولم ينتهوا عن الكفر أو تولوا عن الانقياد ولم ينتهوا عن القتال ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم فثقوا به وقاتلوا الكفرة ولا تبالوا بمعاداتهم متكاثرين وإن كانوا ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ الله لا يضيع من تولاه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو لا يغلب من نصره.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ ما بمعنى الذي.......... وغنمتم صلته والعائد محذوف يعني الذي غنمتموه ولا يجوز أن يكتب ما موصولاً لأنه يكون حينئذ كافة والغنيمة مال حربي أخذ قهراً وغلبة، ومن ههنا قال أبو حنيفة: إذا دخل واحد أو اثنان في دار الحرب بغير إذن الإمام مغرين وأخذوا من مال أهل الحرب شيئاً لا يجب فيه الخمس وإن دخل أربعة يجب الخمس فيما أخذوا، وفي المحيط عن أبي يوسف أنه قدر الجماعة التي لا منعة لها بسبعة والتي لها منعة بعشرة.

ومذهب الشافعي ومالك وأكثر أهل العلم أنه يخمس ما أخذه واحد تلصصاً لأنه مال حربي أخذ قهراً فكان غنيمة فيخمس بالنص، وقال أبو حنيفة وأحمد في رواية عنه إنه ليس بغنيمة لأنه لم يؤخذ قهراً بل اختلاساً وسرقة والمتلصص إنما يأخذ بحيلة فكان اكتساباً مباحاً من المباحات كالاحتطاب والاصطياد، ومحل الخمس الغنيمة بخلاف ما لو دخل واحد أو ثنان بإذن الإمام فإنه غنيمة اتفاقاً لأن على الإمام أن ينصره حيث أذن له، كما أن على الإمام أن ينصر الجماعة الذين لهم منعة كالأربعة أو العشرة وإن دخلوا بغير إذنه تحامياً عن توهين المسلمين والدين فلم يكونوا مع نصرة الإمام متلصصين والله أعلم.

﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان لما الغرض منه التعميم يعني عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط، عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ كان يقول: «أدوا الخياط والمخيط وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيامة»(٢) رواه الدارمي، ورواه الشافعي عن عمرو بن شعيب عن أبيه

---

(١) أخرجه أبو داود في الإمارة باب ٣٣.

(٢) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٢١، والنسائي في الهبة باب ١، =

عن جده، وفي رواية لأبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده نحوه وفيه فقام رجل في يده كبة من شعر فقال: أخذت هذه لأصلح بها برذعة فقال: النبي ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فلك» ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ دخلت الفاء لما في ما من معنى المجازاة وما بعده في محل الرفع مبتدأ محذوف الخبر يعني فحق أن لله خمسه أو خبر مبتدأ محذوف يعني فالحكم أن لله خمسه أبقى الله سبحانه خمس الغنائم على ملكه ولم يجعلها في ملك الغانمين، ولذا قالت الحنفية إن خمس الغنيمة حق قائم بنفسه ليس واجباً في ذمة الغانمين كالزكاة فإنها وجبت في ذمة المكلفين حيث أمروا بإتيانها ولذلك صار الزكاة من أوساخ الناس ولم يحل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لشرافته وحل له الخمس، ثم بين الله سبحانه حيث يصرف خالص حقه تعالى فقال: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني أقارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختلفوا فيهم؟ فقال: قوم هم جميع قريش وقال مجاهد وعلي بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعي هم بنو هاشم وبنو المطلب ابني عبد مناف وليس لبني عبد الشمس وبني نوفل منه شيء مع أنهم كانوا ابني عبد مناف أيضاً.

روى الشافعي عن الثقة عن ابن أبي شهاب عن ابن المسيب عن جبير بن مطعم قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهم ذوي القرى بين بني هاشم وبني المطلب ولم يعط أحداً من بني عبد الشمس ولا بني نوفل شيئاً، وكذا روى البخاري عنه في «**صحيحه**»، وفي رواية للشافعي عنه قال: لما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله فيهم أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد. هكذا»، وشبك بين أصابعه[١].

وكذا روى أبو داود والنسائي، قال البرقاني: وهو على شرط مسلم، وفي هذا الحديث إشارة إلى شأن الصحيفة القاطعة التي كتبها قريش على أن لا تجالسوا بني هاشم ولا تبايعوهم ولا تناكحوهم وبقوا على ذلك سنة ولم يدخل في بيعتهم بنو المطلب بل خرجوا مع بني هاشم إلى شعب أبي طالب كذا في السنن والمغازي، وروى البيهقي في السنن والدلائل، قال: الخطابي وكان يحيى بن معين يرويه إنما بنو هاشم وبنو المطلب سِيّ واحد بالسين المهملة والياء المشددة أي مثل وسوام يقال سيان أي مثلان، قلت: هذا الحديث يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألحق بني المطلب ببني هاشم وعدهم منهم لكمال موافقتهم ومؤازرتهم في الجاهلية والإسلام لا لكونهم من بني عبد

=
وابن ماجه في الجهاد باب ٣٤، والدارمي في السير باب ٤٥، ومالك في الجهاد حديث ٢٢، وأحمد في المسند ٢/ ١٨٤، ٤/ ١٢٨، ٥/ ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٦، ٣٣٠.

(١) أخرجه أبو داود في الإمارة باب ٢٠، وابن ماجه في الجهاد باب ٤٦.

مناف وإلا فبني عبد الشمس وبني نوفل كانوا مثلهم في ذلك، وما قال: صاحب الهداية إن هذا الحديث يدل على أن المراد قرب النصرة لا قرب القرابة فليس بشيء لأنه لو كان المراد قرب النصرة لكان عثمان بن عفان أولى به من العباس فإن عثمان أسلم في بداية الإسلام وعباس بعد قتال بدر بل لزم أن يكون غير قرباء النبي من المهاجرين والأنصار مستحقين لذلك السهم.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم وهم صغير لا أب له وفي القاموس اليتيم فقدان الأب وإنما قيدنا بكونه صغيراً لما رواه أبو داود وعن عليّ في حديث: «لا يتم بعد الاحتلام» وقد أعله العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم وحسنه النووي، ورواه الطبراني بسند آخر عن علي ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وفي الباب حديث طلحة بن حذيفة عن جده وإسناده لا بأس به وهو في الطبراني الكبير وغيره وعن جابر رواه ابن عدي في ترجمة حزام بن عثمان وهو متروك وعن أنس.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين وسنذكر تحقيقه في مصارف الصدقات في سورة التوبة ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر البعيد عن منزله نسب إلى السبيل لممارسته إياه أجمع الأئمة على أن هذه الأصناف الثلاثة يستحقون لفقرهم وحاجتهم فلا يعطى للأغنياء من اليتامى وأبناء السبيل، وكذا قال: بعض الناس في ذوي القربى أنهم يستحقون لفقرهم وحاجتهم وهذا القول مردود لأن لفظ ذوي القربى لا يشعر بالفقر أصلاً بخلاف لفظ اليتيم وابن السبيل، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطي العباس وكان كثير المال، وأجمع الأئمة واتفقت الرواة على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسم الغنيمة على خمسة أسهم أربعة أخماسه للغانمين ويجعل الخمس على خمسة أسهم فيجعل سهماً لنفسه فينفق منه على نفسه وأهله ويعطي منه أهله نفقة سنة وما فضل جعله في السلاح والكراع عدة في سبيل الله وفي مصالح المسلمين، وسهماً يقسمها في بني هاشم وبني مطلب يعطي منها الغني والفقير والذكر والأنثى منهم وثلاثة أسهم يقسمها في اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، فلينظر هل كان هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه من الأصناف الخمسة هل كان كل واحد منهم مستحقاً لحصته منها لا يجوز منعه عنه ولا صرفه إلى غيره أو كأن الأصناف المذكورة مصرفاً لها جاز للإمام أن يصرفها إلى صنف واحد منها أو إلى شخص واحد منه ولا يجوز له التجاوز عنها إلى غيرها، وبالشق الثاني قال أبو حنيفة، قال ابن همام: إنه ذكر في التحفة أن هذه الثلاثة يعني اليتامى والمساكين وابن السبيل مصارف الخمس عندنا لا على سبيل الاستحقاق حتى لو صرف إلى صنف واحد منها جاز.

وقال الشافعي وجماعة من السلف والخلف بالشق الأول قالوا: لا يجوز للإمام أن يصرفها إلى صنف أو صنفين بل يجب صرفها إلى جميعها، فإن كان كل صنف منها جماعة محصورين لا يجوز منع واحد منها وسوى بينهم بالقسمة كما يقسم الأسهم الأربعة بين الغانمين لا يجوز منع واحد منهم إجماعاً، وألحق الشافعي سهم ذوي القربى بالميراث

الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد فقال: يفضل الذكر على الأنثى فيعطي للذكر سهمين والأنثى سهماً وإن كانوا غير محصورين لا يمكن استيعابهم لا بد عنده أن يعطي من كل صنف ثلاثة لأن الله تعالى ذكر لام الاختصاص وذلك يقتضي الملك أو استحقاق الملك وذكر كل صنف بلفظ الجمع وأقله ثلاثة، وقال أبو حنيفة ومن معه اللام لمطلق الاختصاص ومن الاختصاص أن لا يجوز الصرف إلى غير تلك الأصناف واللام ليس للاستغراق بل للجنس ولام الجنس يبطل الجمعية، والحجة لهذا القول إن الأصناف المذكورة متداخلة بعضها في بعض فإن من ذوي القربى اليتامى والمساكين وابن السبيل ومن اليتامى ذوو القربى والمساكين وابن السبيل ومن المساكين ذوو القربى واليتامى وأبناء السبيل ولو كان كل صنف منها مختص بسهم، ولا يجوز صرفها إلى صنف آخر لزم ذكر كل صنف منها بحيث لا يصدق عليه عنوان صنف آخر، وأيضاً إذا كان شخص واحد داخلاً في الأصناف كلها لزم حينئذٍ أن يعطي له لأجل كل وصف سهماً كما يعطي من الميراث للزوج إذا كان ابن عم لها لأجل الحيثيتين سهمين مختلفين فرضاً وعصوبة.

ومن المنقول ما في الصحيحين عن علي رضي الله عنه: «أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى وبلغها أن جاءه رقيق فلم تصادفه فذكرت ذلك لعائشة فلما جاء أخبرته عائشة، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم فقال: مكانكما فقعد بيني وبينها حتى وجدت برد قدمه على بطني فقال: «ألا أدلكما على خير ما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم»[(١)] وفي رواية لمسلم: «ألا أدلك على ما هو خير من خادم تسبحين الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدين ثلاثاً وثلاثين وتكبرين أربعاً وثلاثين عند كل صلاة وعند منامك»[(٢)].

وروى الطحاوي عن عليّ بلفظ أنه قال لفاطمة رضي الله عنهما ذات يوم: قد جاء الله أباك بسعة ورقيق فائتيه فاستخدميه فأتته فذكرت ذلك، فقال: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة ليطوون بطونهم ولا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيعها وأنفق عليهم ألا أدلكما على خير مما سألتما علمنيه جبرائيل كبر الله دبر كل صلاة عشراً وسبحا عشراً واحمدا عشراً وإذا أتيتما إلى فراشكما»[(٣)].

وروى الطحاوي عن الفضل بن حسن بن عمر بن الحكم أن أمه حدثته أنها ذهبت هي وأمها حتى دخلن على فاطمة فخرجن جميعاً فأتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أقبل من بعض غزواته ومعه رقيق فسألته أن يخدمهن فقال: «سبقكن يتامى أهل بدر»[(٤)] فإن

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٨٠، والترمذي في الدعوات باب ٢٤، وأحمد في المسند ١/ ٩٦، ١٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٨١.
(٣) أخرجه ابن حجر في فتح الباري ١١/ ١٢٠، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٢٣٣، ٢٩٨.
(٤) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٢٣٣، ٢٩٨.

هذه الأحاديث تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد يعطي بعض الأصناف ولا يعطي بعضاً آخر وإلا لما منع فاطمة عن حقها وقد كان لها حظ من الخمس ولما صرف حق فاطمة إلى فقراء أهل الصفة ويتامى أهل بدر فإن سهم ذوي القربى لا يجوز صرفها عند الشافعي إلى الفقراء واليتامى بل لكل من الصنفين عنده سهم من الخمس غير سهم ذوي القربى، ويؤيد ما قلت ما روى أبو يوسف في كتاب الخراج قال: حدثني أشعث بن سوار عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله أنه كان يحمل من الخمس في سبيل الله ويعطي منه نائبة القوم فلما كثر المال جعل في اليتامى والمساكين وابن السبيل، قلت: عندي معنى الآية أن لله خمسه يعني ملكاً حيث أبقاه سبحانه على ملك نفسه ولم يعطه أحداً غيره وأمر رسوله صرفه كما أمر وللرسول ذلك الخمس استحقاقاً وتصرف على نفسه وفي ما صرفه كيف يشاء ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل مصرفاً ولذلك ذكر الصنفين الأخيرين عطفاً على ذي القربى بلا لام وذكر الأصناف الأربعة بلام واحد لكون كلها من جنس واحد مختصاً باختصاص المصرفية ولم يعطفها على الرسول كما عطف الأخيرين وأورد اللام على الرسول ولم يعطف على الله لكون كل اختصاص منها نوعاً على حدة فالاختصاص بالله اختصاص الملك وليس بالرسول اختصاص الملك.

لما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم: أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: «لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود فيكم»(١) رواه أبو داود، ومن حديث عمرو بن عنبسة وكذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: «ليس لي من هذا الفيء شيء»(٢) ولا هذا يعني وبر البعير إلا الخمس والخمس مردود فيكم ولم يقل إلا خمس الخمس فاللام في الأنواع الثلاثة من الاختصاصات المذكورة كالمشترك أو كالحقيقة والمجاز ولا يجوز الجمع بين المشترك ولا بين الحقيقة والمجاز فلذلك أورد اللام ثلاث مرات والله أعلم.

مسألة

اختلف العلماء في سهم الرسول ﷺ بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال الشافعي هو اليوم لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام لأنه ﷺ كان يجعل ما بقي من نفقة في السلاح والكراع، قال البغوي: روى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الكراع والسلاح.

وقال قتادة هو لخليفة بعده لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يستحقه بإمامته، وقال أبو حنيفة إن سهم الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سقط بموته ولم يكن سهم لإمامته بل رسالته فإن الحكم إذا علق بمشتق دل على علية مأخذه ولا رسول بعده وقد كان لرسول الله

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٢١.
(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٩.

صلى الله عليه وآله وسلم حق الصفي، اصطفى ذو الفقار سيف منبه بن حجاج حين أتى به على يوم بدر بعد أن قتل منبهاً ثم دفعه إليه، واصطفى صفية بنت حيي بن أخطب من غنيمة خيبر رواه أبو داود في سننه عن عائشة والحاكم وصححه، وقد أجمعوا أن سهم الصفي ليس لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك خلاف حكم الإمام من بعده فكذا أسهمه من الغنيمة لا يكون لأحد بعده.

مسألة

واختلفوا في سهم ذوي القربى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال أبو حنيفة سهم ذوي القربىٰ أيضاً سقط بموت رسول الله ﷺ ذكر الحنفية لسقوطه وجوهاً، قال صاحب الهداية لأن النبي ﷺ كان يعطيهم النصرة لما مر من حديث جبير بن مطعم أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعطى بني المطلب ولم يعط بني نوفل وبني عبد الشمس، وقال: «إنهم يعني بني المطلب لم يزالوا هكذا في الجاهلية والإسلام» وشبك بين أصابعه، وبهذا يظهر أن المراد بالنص قرب النصرة لأقرب القرابة ولما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يبق النصرة وهذا التوجيه ضعيف وقد ذكرنا تضعيفه من قبل، وقال الطحاوي: وجه سقوطه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أعطى ذلك السهم بعض القرابة يعني بني المطلب وحرم من قرابتهم منه صلى الله عليه وآله وسلم كقرابتهم، يعني بني نوفل وبني عبد شمس ثبت بذلك أن الله عز وجل لم يرد بما جعل لذوي القربى كل قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما أراد خاصاً منهم وجعل الرأي في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضعه فيمن شاء منهم فإذا مات وانقطع رأيه انقطع ما جعل لهم من ذلك كما قد جعل الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصطفي من المغنم لنفسه سهماً أي سهم الصفي فكان ذلك ما كان حياً يختار لنفسه من المغنم ما شاء فلما مات انقطع ذلك.

وقال الطحاوي مرة أخرى كان الله عز وجل قد جعل كل قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ولذي القربى فلم يخص أحداً منهم دون أحد ثم قسم ذلك رسول الله ﷺ فأعطى منهم بني هاشم وبني مطلب خاصة وحرم بني أمية وبني نوفل، وكانوا محصورين معدودين وفيمن أعطى الغني والفقير وفيمن حرم كذلك فثبت أن ذلك السهم كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجعله في أي قرابته شاء فصار حكمه حكم سهمه والذي كان يصطفيه لنفسه فلما كان ذلك مرتفعاً بوفاته غير واجب لأحد بعده كان هذا كذلك أيضاً مرتفعاً بوفاته غير واجب لأحد من بعده.

قال: وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد، قلت: وهذين التوجيهين أيضاً ضعيفان لما ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما أعطى بني مطلب لما جعلهم تبعاً لبني هاشم وعدهم منهم لمؤازرتهم ومؤانستهم معهم كما حرم الصدقة على موالي بني هاشم تبعاً لهم لا لكونهم من بني عبد مناف قوله حرم من قرابتهم منه صلى الله عليه وآله وسلم كقرابتهم ممنوع فإن بني هاشم كانوا أقرب من غيرهم ولو نسلم أن الله سبحانه ذكر ذوي

القربى وأراد بعضها منهم لا كلهم ولم يذر منهم فحينئذٍ كان مجملاً فإذا ألحقه البيان من رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم حيث أعطى بني هاشم وبني المطلب دون بني أمية وبني نوفل زال الإجمال والإجمال لا يقتضي البيان كل مرة، ولو نسلم الله تعالى جعل الرأي في ذلك إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقوله إذا مات انقطع رأيه ممنوع إذ بعد موته الرأي لخلفائه كما في سهم المساكين واليتامى وأبناء السبيل في المغانم والصدقات كان تخصيص بعض دون بعض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم صار لخلفائه وأيضاً كون تخصيص بعض دون بعض من ذوي القربى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقتضي كون ذلك السهم له صلى الله عليه وآله وسلم فإن تخصيص بعض من المساكين واليتامى وأبناء السبيل أيضاً كان إليه صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن ذلك الأسهم له صلى الله عليه وآله وسلم إجماعاً ولم يسقط شيء منها بموته فكذا هذا والله أعلم.

ثم استدل كلا الفريقين بعمل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، قال صاحب الهداية لنا إن الخلفاء الراشدين قسموه على ثلاثة أسهم على نحو ما قلنا وكفى بهم قدوة، وقال أيضاً إنه لم ينكر عليهم أحد مع توافر الصحابة مع علمهم فكان إجماعاً، وقال البغوي: الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضل فقير على غني لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، فلا بد من الكلام في عمل الخلفاء فنقول: قال أبو يوسف في كتاب «**الخراج**»: إن الكلبي محمد بن السائب حدثني عن أبي صالح عن ابن عباس أن الخمس كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خمسة أسهم لله وللرسول سهم ولذي القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم، ثم قسمه أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين رضي الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى وقسمه الثلاثة على الباقين ثم قسمه علي بن أبي طالب على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان.

وقال أبو يوسف وحدثني محمد بن إسحاق عن الزهري أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذوي القربى لمن هو؟ فكتب إليه ابن عباس رضي الله عنه كتبت إلي تسألني عن سهم ذوي القربى لمن هو؟ وهو لنا وإن عمر بن الخطاب دعانا إلى أن ينكح منه أيّمنا ويقضي عنه عن مغرمنا ويخدم منه عائلنا فأبينا إلا أن يسلم لنا فأبى ذلك علينا. وقال أبو يوسف: وحدثنا قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال: اختلف الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوي القربى فقال قوم: سهم الرسول للخليفة من بعده.

وقال آخرون: سهم ذوي القربى بقرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالت طائفة: سهم ذي القربى لقرابة الخليفة بعده فأجمعوا على أن يجعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح وروى الطحاوي بسنده عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية نحوه وزاد دكان ذلك في أمارة أبي بكر وعمر.

وروى الطحاوي حدثنا محمد بن خزيمة قال حدثنا: يوسف بن عدي قال: حدثنا عبد الله بن المبارك عن محمد بن إسحاق قال: سألت أبا جعفر قال: أرأيت علي بن أبي طالب حيث ولي العراق ما ولى من أمر الناس كيف صنع في سهم ذوي القربى؟ قال: سلك به والله سبيل أبي بكر وعمر، قلت: كيف وأنتم تقولون ما تقولون؟ قال: إنه والله ما كان أهله يصدرون إلا عن رأيه قلت: فما منعه؟ قال: كره والله أن يدعى عليه خلاف أبي بكر وعمر.

قلت: وهذه الآثار لو ثبتت لثبت أن الخلفاء قسموا الخمس على ثلاثة أسهم ولم يعطوا ذوي القربى سهمهم ولما تقدم ما ذكرنا أنه يجوز للإمام أن يصرف الخمس إلى صنف واحد منها، وبه قال: أبو حنيفة رحمه الله، لا يثبت بعدم إعطاء الخلفاء سهم ذوي القربى سقوط سهمهم وعدم جواز إعطائهم كيف وقال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن أبيه قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول قلت: يا رسول الله إن رأيت أن توليتني حقنا من الخمس فاقسم في حياتك كيلا ينازعنا أحد بعدك فافعل ففعل قال: فولانيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقسمته حياته ثم ولانيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقسمته حياته ثم ولانيه عمر رضي الله عنه فقسمته حياته حتى إذا كانت آخر سنة من سني عمر فأتاه مال كثير فعزل حقنا ثم أرسل إلي فقال: خذه فاقسمه، فقلت: يا أمير المؤمنين بنا عنه العام غنىٰ وبالمسلمين إليه حاجة فرده عليهم ذلك تلك السنة ولم يدعنا إليه أحد بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى قمت مقامي هذا فلقيني العباس بن عبد المطلب بعد خروجي من عند عمر بن الخطاب فقال: يا علي لقد حرمتنا الغداة شيئاً لا يرد علينا أبداً وكذا روى أبو داود عنه.

فهذا الحديث يدل على أن أبا بكر وعمر كانا يعطيان ذوي القربى كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطيهم إلا أن عمر منعهم آخر خلافته بإشارة عليّ ولعل قول ابن عباس إن عمر دعانا إلى أن ينكح منه أيّماً ويقضي عنه مغرمنا ويخدم منه عائلنا فأبينا إلا أن يسلمه إلينا فأبى ذلك علينا حكاية عما بعد قول عليّ لعمر بنا العام عنه غنى وبالمسلمين حاجة، وهذا وجه توفيق الآثار وبهذا يثبت أن سهم ذوي القربى لم يسقط ويجوز دفعه إليهم غنيهم وفقيرهم لكن جاز للإمام أن يدفع ذلك السهم إلى غيرهم إن كان بهم عنه غنى وبالناس إليه حاجة كما فعل عمر بإشارة عليّ وسلك عليّ ذلك السبيل في خلافته وكره في ذلك مخالفتهم لما رأى فيه مصلحة، وقال أبو يوسف: حدثني عطاء بن السائب أن عمر بن عبد العزيز بعث سهم الرسول وسهم ذوي القربى إلى بني هاشم، قلت: ولعل ذلك لما رأى عمر بن عبد العزيز في بني هاشم حاجة كثيرة بعث إليهم سهمين والله أعلم.

وروى أبو داود عن سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقسم لبني عبد الشمس ولا لبني نوفل من الخمس شيئاً كما قسم لبني هاشم وبني المطلب، قال: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير أنه لم يكن يعطى قربىٰ رسول الله ﷺ كما كان يعطيهم النبي صلى الله عليه وآله

وسلم وكان عمر يعطيهم ومن كان بعده منه، وهذا الحديث يدل على أن الخلفاء منعوا تارة وأعطوا تارة فروى كل على ما علم وهذا يؤيد ما قلنا والله أعلم.

فصل

واعلم أن الآية كما تدل بعبارتها على أن ما غنمتم فخمسه خالص لله تعالى يصرف في سبيله في الأصناف المذكورة تدل بإشارتها على أن الباقي يعني الأخماس الأربعة جعلتها لكم أيها الغانمون فكون الأخماس الأربعة للغانمين مسكوت في حكم المنطوق كما أن قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١] تدل على أن الثلثين للأب وهو مسكوت في حكم المنطوق فهذه الآية بهذا الاعتبار ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] حيث لم يجعل الله فيها شيئاً لغيره إلا ما أراد رسوله كما ذكرنا من رواية البخاري في تاريخه عن سعيد بن جبير، قيل: هذه الآية نزلت في غزوة بني قينقاع بعد غزوة بدر بشهر للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن أبيه عن سعيد بن كعب ومن طريق سعيد بن المسيب نحوه، والصحيح أنها نزلت في غزوة بدر بعدما نزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١] والله أعلم.

مسألة

أجمعوا على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين لا يجوز للإمام منع واحد منهم عن نصيبه.

واختلفوا في سلب المقتول؟ فقال الشافعي وأحمد هو للقاتل وحده ولا يجب فيه الخمس بشرط أن يعرض نفسه على القتل في قتل مشرك وأزال امتناعه فإن رمى من بعيد وقتل السهم رجلاً من صف المشركين لا يجب للقاتل سلبه، ويشترط عند الشافعي كون القاتل من أهل السهم، وقال أحمد وإن كان من أهل الرضح أيضاً، وقال أبو حنيفة ومالك وهي رواية عن أحمد لا يستحق القاتل السلب إلا أن يشترط الإمام فحينئذٍ يحسب عند أبي حنيفة من أربعة الأخماس وعند مالك من الخمس.

عن أبي قتادة قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع فأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله ثم رجعوا وجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله، فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله، فقمت فقال: مالك يا أبا قتادة؟ فأخبرته فقال: رجل صدق وسلبه عندي فأرضه مني، فقال أبو بكر: لاها الله إذاً لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه، فقال النبي صلى الله

عليه وآله وسلم: «صدق فأعطه» فأعطانيه فابتعت منه مخرفاً في بني سلمة فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام»[(١)] متفق عليه، وفي رواية للطحاوي عن أبي قتادة أنه قتل رجلاً من المشركين فنفله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلبه ودرعه فباعه بخمس أواق، وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم حنين: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فقتل أبو طلحة يومئذٍ عشرين فأخذ سلبهم» رواه الدارمي والطحاوي وأبو داود، وعن سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هوازن قتلت رجلاً ثم جئت بجملة أقوده وعليه رحله وسلاحه فاستقبله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والناس معه فقال: من قتل هذا الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع فقال: «له سلبه أجمع» رواه الطحاوي، وعنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عين من المشركين فجلس يتحدث عند أصحابه ثم انسل فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اطلبوه فاقتلوه» فسبقتهم فقتلته وأخذت سلبه فنفلني إياه رواه الطحاوي، وروى الحاكم بإسناد فيه الواقدي ضرب محمد بن مسلمة ساقي مرحب فقطعهما ولم يجهز عليه فمر به عليّ فضرب عنقه وأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلبه محمد بن مسلمة، والصحيح أن علي بن أبي طالب هو الذي قتله لما ثبت في صحيح مسلم، وعن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «جعل السلب للقاتل» رواه الطحاوي.

وفي رواية له عنه وعن خالد بن الوليد نحوه، وكذا روى أحمد وأبو داود والطبراني، وروى أحمد عن عوف بن مالك وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يخمس السلب، وكذا روى أبو داود وابن حبان والطبراني بلفظ قضى بالسلب للقاتل ولم يخمس، وروى أحمد عن سمرة بن جندب مرفوعاً: «من قتل قتيلاً فله سلبه» وسنده لا بأس به، وروى الطحاوي عن ابن عباس قال: انتدب[(٢)] رجل من المشركين فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الزبير فخرج إليه فقتله فجعل له النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلبه، قال ابن همام: لا خلاف فيه فإنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: ذلك يعني قوله: «من قتل قتيلاً فله سلبه» إنما الكلام أن هذا منه نصب الشرع على العموم في الأوقات والأحوال كلها أو كان تحريضاً بالتنفيل قاله في تلك الواقعة، فعند الشافعي نصب الشرع لأنه هو الأصل في قوله لأنه إنما بعث لذلك قلت: سياق حديث أبي قتادة صريح في أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم ليس على سبيل التنفيل بل هو بعد أن قتل أبو قتادة مشركاً وكذا حديث سلمة بن الأكوع وما ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يخمس السلب حجة للشافعي وأحمد على مالك حيث قال: إن السلب يحسب من الخمس.

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٢١، والخمس باب ١٨، والبيوع باب ٣٧، والمغازي باب ٥٤، ومسلم في الجهاد حديث ٤٢، وأبو داود في الجهاد باب ١٣٦، ومالك في الجهاد حديث ١٨.

(٢) انتدب: أي طلب المبارزة.

فائدة

روى الطحاوي عن أنس بن مالك أن البراء بن مالك أخا أنس بن مالك بارز مرزبان الزارة فطعنه طعنة فكسر القربوس وخلصت إليه فقتلته فقوم سلبه ثلاثين ألفاً فلما صلينا الصبح غدا علينا عمر فقال لأبي طلحة: إنا كنا لا نخمس الأسلاب وإن سلب البراء قد بلغ مالاً ولا أرانا إلا خامسيه فقومناه ثلاثين ألفاً قدفعنا إلى عمر ستة آلاف.

وروى الطحاوي من وجه بلفظ أن البراء بن مالك بارز رجلاً من عظماء فارس فقتله فأخذ البراء سلبه فكتب فيه إلى عمر فكتب عمر إلى الأمير أن اقبض إليك خمسه وادفع إليه ما بقي فقبض الأمير خمسه، قلت: وهذين الأثرين يدلان على أن السلب للقاتل وأنه لا يخمس غير أنه يجوز للإمام إن استكثر المال أن يخمسه، واستدل أبو حنيفة على أن السلب ليس للقاتل خاصة إلا أن يكون الإمام قاله في وقت يحتاج إلى تحريضهم بما رواه الطبراني في الأوسط والكبير أنه بلغ حبيب بن سلمة أن صاحب قبرص خرج يريد طريق أذربيجان ومعه زمرد وياقوت ولؤلؤ وغيرهما فخرج إليه فقتله، فجاء بما معه فأراد أبو عبيدة أن يخمسه فقال له حبيب لا تحرمني رزقاً رزقنيه الله فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل السلب للقاتل فقال معاذ: يا حبيب إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: «للمرء ما طابت به نفس إمامه»(١) وهذا معلول فإن فيه عمرو بن واقد، ورواه إسحاق بن راهويه بسنده عن جنادة بن أمية قال: فذكر الحديث أنه بلغ حبيب بن سلمة إلى أن قال: فجاء بسلبه على خمسة أبغال من الديباج والياقوت والزبرجد فأراد حبيب أن يأخذ كله وأبو عبيدة يقول بعضه فقال حبيب لأبي عبيدة قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قتل قتيلاً فله سلبه» قال أبو عبيدة إنه لم يقل ذلك للأبد وسمع معاذ ذلك فأتى وعبيدة وحبيب يخاصمه، فقال: معاذ ألا تتقي الله وتأخذ ما طابت به نفس إمامك فإن مالك ما طابت نفس إمامك وحدث بذلك معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجتمع رأيهم على ذلك فأعطوه بعد الخمس فباعه حبيب بألف دينار وفيه رجل مجهول.

وبما في الصحيحين من حديث عبد الرحمٰن بن عوف في مقتل أبي جهل يوم بدر فإن فيه أن قال عليه السلام لمعاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء بعدما رأى سيفهما «كلاكما قتله»(٢) ثم قضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح وحده ولو كان للقاتل لقضي به لهما، وبما رواه مسلم وأبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي قال: «خرجت مع زيد بن حارثة غزوة مؤتة ورافقني مددي من أهل اليمن فلقينا جموع الروم وفيهم رجل على فرس أشقر على سرج مذهب وسلاح مذهب وجعل يغري بالمسلمين وقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه فخر فعلا فقتله فحاز فرسه وسلاحه فلما فتح الله على

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٤/ ٢٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٦٥٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في فرض الخمس باب ١٨، ومسلم في الجهاد حديث ٤٢.

المسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب، قال عوف: فأتيت خالداً فقلت له يا خالداً أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالسلب للقاتل قال: بلى ولكني استكثرته، قلت: لتردن أو لأعُرِّفُتَكُما عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأبى أن يعطيه قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد فقال عليه السلام: «يا خالد ردّ عليه ما أخذت منه» قال عوف قلت: دونك يا خالد ألم أوف لك فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وما ذاك؟ قال: فأخبرته، قال: فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «يا خالد لا ترد عليه هل أنتم تاركو لي أمراء لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره»[1] وجه الاستدلال أنه منع خالداً من رده بعدما أمره به ولو كان شرعاً لأن ما لم يمنعه من مستمقيه.

قال الخطابي إنما منعه أن يرد على عوف سلبه زجراً لعوف لئلا يجترىء الناس على الأئمة وخالد كان مجتهداً فأمضاه عليه الصلاة السلام والضرر اليسير يتحمل للنفع الكثير، قال ابن همام: وهذا غلط وذلك لأن السلب لم يكن للذي تجرأ وهو عوف وإنما كان للمددي ولا تزر وازرة وزر أخرى، فالوجه أنه صلى الله عليه وآله وسلم أحب أولاً أن يمضي شفاعته للمددي في التنفيل فلما غضب عليه رد شفاعته بمنع السلب لا أنه لغضبه وسياسته بزجره بمنع حق من لم يقع منه جناية فهذا يدل على أنه ليس شرعاً لازماً، قلت: حديث حبيب كما سمعت معلول وضعيف ولو ثبت للإمام حق التخميس من السلب لما أراد أبو عبيدة أن يخمسه ولا يثبت منه أنه لا حق للقاتل في السلب بل هو كسائر الغنائم وحديث سلب أبي جهل منسوخ، قال البيهقي: إن غنيمة بدر كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بنص الكتاب يعني بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] يعطي من يشاء وقد قسم لجماعة لم يحضروا ثم نزلت آية الغنيمة بعد بدر فقضى السلب للقاتل استقر الأمر على ذلك، وقول عوف أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالسلب للقاتل وقول خالد بلى، وتسليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك حتى أمر خالداً برد ما أخذ من سلبه دليل على التشريع عموماً وجرأة عوف كان لأجل المددي وكان المددي راضياً به، فهو يستحق الزجر والمنع، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل أنتم تاركو لي أمراء لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره» يدل على أن الإمام وإن ظلم ومنع أحداً حقه فعليه كدره لكن يجب على الناس إطاعته.

مسألة

التنفيل يعني إعطاء الإمام رجلاً فوق سهمه جائز إجماعاً إن شرط الإمام في حالة القتال قبل الإصابة لأنه نوع تحريض على القتال وهو مأمور به، قال: الله تعالى ﴿حَرِّضِ

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٤٣.

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: ٦٥] فجاز للإمام أن يقول من قتل قتيلاً فله عشرة دراهم أو من دخل هذا الحصن فله كذا وقال لسرية جعلت لكم النصف أو الربع بعد الخمس، أو قال: من أصاب جارية فهي له.

عن ابن عمر: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسمة عامة الجيش»[١] متفق عليه، لكن لا يجوز للإمام أن يقول من أصاب شيئاً فهو له لأنه يستلزم بطلان الخمس الثابت بكتاب الله تعالى وبطلان الأسهم المنصوصة للراجل والفارس في الأحاديث وبطلان حق من لم يصب من المجاهدين، وفي بعض روايات الحنفية لو نفل بجميع المأخوذ جاز إذا رأى الإمام المصلحة فيه، روى الحاكم من رواية مكحول عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين التقى الناس ببدر نفل كل امرأ ما أصاب، وأجيب بأن هذا منسوخ وآية الخمس نزلت بعد ذلك.

مسألة

ثم محل التنفيل أربعة الأخماس قبل الإحراز بدار الإسلام وبعد الإحراز لا يصح إلا من الخمس عند أبي حنيفة وأحمد، وعند مالك والشافعي لا يصح مطلقاً إلا من الخمس لأنه المفوض إلى رأي الإمام وما بقي للغانمين، روى مالك عن أبي الزياد عن سعيد بن المسيب كان الناس يعطون النفل من الخمس، وروى ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب ما كانوا ينفلون إلا من الخمس، وعن ابن عمر قال: «نفلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفلاً سوى نصيبنا من الخمس فأصابني شارف والشارف المسن الكبير»[٢] متفق عليه، وأبو حنيفة يحمل هذه الآثار على ما بعد الإحراز بدار الإسلام وأما قبل ذلك فيعطي النفل من أربعة أخماس الغانمين لأن المعطي له من الغانمين لا من المساكين واليتامى وابن السبيل، وقال البغوي: النفل من خمس سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعي: رحمه الله وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم» قلت إعطاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم النفل أحداً من خمس خمسه هبة منه صلى الله عليه وآله وسلم وذلك لا يستلزم عدم جواز النفل من أربعة الأخماس كيف وقد روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن عبادة بن الصامت أنه صلى الله عليه وآله وسلم نفل في البدأة الربع وفي الرجعة الثلث[٣] وكذا روى أبو داود عن حبيب بن سلمة الفهري، ومعنى الحديث على ما قال الخطابي: إن السرية إذا ابتدأت

---

(١) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٥، ومسلم في الجهاد حديث ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٣٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٦.

السفر نفلها الربع فإذا قفلوا ثم رجعوا إلى العدو ثانية نفلهم الثلث لأن نهوضهم بعد قفولهم أشق عليهم، قلت: وهذا الحديث يرد قول من قال: لا يجوز النفل إلا من الخمس أو من خمس الخمس لأن إعطاء الربع والثلث لا يتصور من الخمس بل لا يكون إلا من أصل الغنيمة كما قال بعضهم: أو من أربعة الأخماس. فإن قيل: جاز أن يكون معنى الحديث نفل في البدأة الربع من الخمس وفي الرجعة الثلث من الخمس كذا قال الطحاوي؟ قلنا: الحديث لا يدل على هذا التقييد وليس هو إلا تسوية الحديث على مدعاه وأيضاً قد روى حديث حبيب بن سلمة عند الطحاوي بلفظ الرابع بعد الخمس والثلث بعد الخمس، وكذا روى أحمد واستدل به ابن الجوزي على جواز إخراج النفل من أربعة الأخماس.

مسألة

جاز للإمام أن يعطي بعض الغانمين فوق سهمه بعد القتال بلا شرط سبق منه إن رأى اجتهاد منه فوق اجتهاد غيره، وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يجوز ذلك إلا من الخمس لأن بعد القتال تعلق به حق الغانمين فلا يجوز إبطال حقهم، والحجة عليه حديث سلمة بن الأكوع قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بظهره مع رباح غلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا معه فلما أصبحنا إذا عبد الرحمٰن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقمت على أكمة فاستقبلت المدينة فناديت ثلاثاً يا صاحباه ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز أقول.

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فما زلت أرميهم وأعقر لهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا خلفته وراء ظهري ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً يستخفون ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه أراماً من الحجارة يعرفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حتى رأيت من فوارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعبد الرحمٰن فقتله قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة» قال: ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهمين سهم الفارس وسهم الراجل فجمعهما إلي جميعاً ثم أردفني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة»[1] رواه مسلم.

والجواب لأبي حنيفة أن الحديث رواه ابن حبان وقال: كان سلمة بن الأكوع في تلك الغزاة راجلاً فأعطاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خمسه لا من سهمان المسلمين، ورواه القاسم بن سلام وقال: قال ابن مهدي: فحدثت به سفيان فقال: هذا خاص بالنبي ﷺ، قال القاسم وهذا عندي أولى من حمله على أنه أعطاه من سهمه وإلا لم يسم

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ١٣٢.

نفلاً بل هبة قلت: ولا وجه للحمل على ذلك ولا على القول بالتخصيص، وسنذكر حديث آخر لسلمة بن الأكوع أنه غزونا فزارة مع أبي بكر في مسألة جواز فداء أسارى المشركين بأسارى المسلمين وفيه نفل أبو بكر سلمة امرأة.

واستدل بعض العلماء في هذه المسألة بما ذكرنا من حديث عبادة بن الصامت وحبيب بن سلمة: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفل في بدأته الربع وفي رجعته الثلث على معنى أنه صلى الله عليه وآله وسلم نفل في رجعته يعني بعد الرجوع من القتال بالثلث، وحمل الطحاوي هذا الحديث بهذا المعنى على أنه صلى الله عليه وآله وسلم نفل في الرجعة الثلث مما يجوز له النفل وهو الخمس ليوافق مذهبه ومذهب أبي حنيفة والله أعلم.

وكان إعطاء بعض الغانمين شيئاً زائداً من الغنيمة على سبيل النفل أمراً معروفاً في الصحابة لكنهم كانوا مختلفين في محله، روى الطحاوي بوجوه عن أنس أنه كان مع عبيد الله بن أبي بكرة في غزوة غزاها فأصابوا سبياً فأراد عُبيد الله أن يعطي أنساً من السبي قبل أن يقسم فقال أنس: لا ولكن أقسم ثم أعطني من الخمس قال: قال عبيد الله لا إلا من جميع الغنائم فأبى أنس أن يقبل منه وأبى عبيد الله أن يعطيه من الخمس شيئاً، وروى الطحاوي عن سليمان بن يسار أنهم كانوا مع معاوية بن خديج في غزوة المغرب فنفل الناس ومعنا أصحاب النبي ﷺ فلم يرد ذلك غير جبلة بن عمرو وعن خالد بن أبي عمران قال: سألت سليمان بن يسار عن النفل في الغزو فقال: لم أرَ أحداً صنعه غير ابن جريج نفلنا بإفريقية النصف بعد الخمس ومعنا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين الأولين أناس كثير فأبى جبلة أن يأخذ منها شيئاً.

مسألة

يقسم الأخماس الأربعة بين الغانمين للراجل سهماً وللفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه، قال القاضي عبد الوهاب به قال من الصحابة: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ولا مخالف له من الصحابة وبه قال: من التابعين عمر بن عبد العزيز وابن سيرين ومن الفقهاء مالك والأوزاعي وليث بن سعد وسفيان الثوري والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور وأبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولم يخالف في هذه المسألة غير أبي حنيفة وحده حيث قال: للفارس سهمان وللراجل سهم، وقال ابن الجوزي: قال خالد الحذاء: لا يختلف فيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن للفارس ثلاثة أسهم.

احتج الجمهور بأحاديث منها: حديث المنذر بن الزبير بن العوام عن أبيه: «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطى الزبير سهماً وفرسه سهمين»(١) رواه أحمد، وكذا روى الدارقطني عن عبد الله بن الزبير عن الزبير والدارقطني أيضاً عن جابر، وأخرجه أيضاً من

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٦٦.

حديث أبي هريرة وأيضاً من حديث سهل بن حثمة، وفي حديث عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم من طريق ابن إسحاق في غزوة قريظة أنه صلى الله عليه وآله وسلم جعل للفارس وفرسه ثلاثة أسهم له سهم ولفرسه سهمان.

وفي الباب حديث ابن عمران صلى الله عليه وآله وسلم: «جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهماً»[١] رواه البخاري وأصحاب السنن إلا النسائي، وفي مسلم عنه قسم في النفل للفرس سهمين وللراجل سهماً وفي رواية بإسقاط لفظ النفل، وفي رواية أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وحديث ابن عباس نحوه رواه إسحاق بن راهويه، وكذا أخرج أبو داود من حديث ابن أبي عمرة عن أبيه وكذا أخرج البزار من حديث المقداد وحديث أبي كبشة الأنماري قال قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم عام الفتح: «إني جعلت للفرس سهمين وللفارس سهماً فمن نقصها نقصه الله عز وجل»[٢] رواه الدارقطني والطبراني.

قال ابن همام فيه محمد بن عمران العبسي أكثر الناس على تضعيفه، وحديث أبي دهم غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا وأخي ومعنا فرسان فأعطانا ستة أسهم أربعة أسهم لفرسينا وسهمين لنا رواه الدارقطني.

وروى أبو يوسف في كتاب الخراج بسنده عن أبي حازم قال أبو ذر الغفاري: شهدت أنا وأخي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين ومعنا فرسان لنا فضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بستة أسهم أربعة لفرسينا وسهمان لنا فبعنا ستة أسهم بحنين ببكرين.

واحتج أبو حنيفة بحديث مجمع بن جارية الأنصاري، قال: قسمت خيبر على أهل الحديبية فقسمها رسول الله على ثمانية عشر سهماً وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس فأعطى الفارس سهمين وللراجل سهماً[٣] رواه أبو داود، وقال أبو داود: وهذا وهم إنما كانوا مائتي فارس فأعطى الفرس سهمين والرجل يعني صاحبه سهماً كذا قال الشافعي، قلت: وكذا ذكرنا في سورة الفتح في قصة غنائم خيبر وحديث المقداد بن عمر: «أنه كان يوم بدر على فرسه يقال له سنجه فأسهم له النبي صلى الله عليه وآله وسلم سهمين لفرسه سهم وله سهم» رواه الطبراني وفي سنده الواقدي ضعيف، وأخرج الواقدي أيضاً في المغازي عن جعفر بن خارجة قال: قال الزبير بن العوام: شهدت بني قريظة فارساً فضرب لي بسهم ولفرسي بسهم، وأخرج ابن مردويه في تفسيره حدثنا محمد بن محمد السري حدثنا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٥١، والمغازي باب ٣٨، ومسلم في الجهاد حديث ٥٧.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/٣٢٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٣٤٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٠٩٨١.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٣، ١٤٧.

المنذر بن محمد حدثني أبي حدثنا يحيى بن محمد بن هانىء عن محمد بن إسحاق وحدثنا محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة قال: أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبايا بني المصطلق فأخرج الخمس منها ثم قسمها بين المسلمين فأعطى الفارس سهمين والراجل سهماً.

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه ومن طريقه الدارقطني حدثنا أبو أسامة وابن نمير، قال: حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل للفارس سهمين وللراجل سهماً، قال: الدارقطني قال: أبو بكر النيسابوري هذا عندي وهم من ابن أبي شيبة لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمٰن بن بشير وغيرهما رووه عن ابن نمير خلاف هذا على ما تقدم يعني ثلاثة أسهم للفارس، ثم أخرج الدارقطني عن نعيم حدثنا ابن المبارك عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر كما روى ابن أبي شيبة، قال ابن الجوزي: لعل الوهم من نعيم لأن ابن المبارك من أثبت الناس، قال ابن همام: ونعيم ثقة، وأخرج الدارقطني أيضاً عن يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسهم للخيل للفارس سهمين وللراجل سهماً وتابعه ابن أبي مريم وخالد بن عبد الرحمٰن عن عبد الله بن عمر العمري، ورواه القعنبي عن العمري بالشك في الفارس أو الفرس، ثم أخرج عن حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسم للفارس سهمين وللراجل سهماً وخالفه النضر بن محمد بن حماد، قال ابن همام وممن روى حديث عبيد الله متعارضاً الكرخي لكن رواية البيهقي عنه أثبت، قال: ابن الجوزي عبيد الله بن عمر ضعيف، وروى الدارقطني بسنده عن عبد الرحمٰن بن أمين عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسم للفارس سهمين وللراجل سهماً.

وروى أبو يوسف عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن مقسم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسم غنائم بدر للفارس سهمان وللراجل سهم، قال أبو يوسف في كتاب الخراج إنه كان الفقيه المقدم أبو حنيفة تغمده الله برحمته يقول للراجل سهم للفارس سهم وقال: لا أفضل بهيمة على رجل مسلم. ويحتج بما حدثناه عن زكريا بن الحارث عن المنذر بن أبي حمصة الهمداني أن غلاماً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم في بعض الشام للفرس سهم وللرجل سهم فرفع ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه فأجازه، وكان أبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويجعل للفرس سهماً وللرجل سهماً وما جاء من الآثار والأحاديث أن للفرس سهمين وللرجل سهماً أكثر من ذلك وأوثق والعامة عليه وليس هذا على وجه التفضيل وما كان ينبغي أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم لأنه قد سوى بهيمة برجل مسلم إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله، ألا ترى أن سهم الفرس يرد على صاحب الفرس ولا يكون للفرس دونه والمتطوع وصاحب الديوان في القسمة سواء، قال ابن همام: إذا تعارض

الروايات ترجح النفي بالأصل، ويحمل رواية الثلاثة على التنفيل، وما ورد في حديث جابر أعطى الفارس منا ثلاثة أسهم ونحو ذلك ظاهر في أنه ليس الأمر المستمر كذلك وإلا يقال كان عليه السلام وقضى عليه السلام وحديث أبي كبشة إني جعلت للفرس سهمين وللفارس سهماً فمن نقصهما نقصه الله لا يصح كما مر.

مسألة

لو كان مع رجل فرسان؟ فقال أبو حنيفة ومالك والشافعي: لا يسهم إلا لفرس واحد، قال مالك في الموطأ: لم أسمع بالقسم إلا لفرس واحد، وقال أبو يوسف وأحمد يسهم لفرسين ولا يسهم لأكثر من فرسين إجماعاً، والحجة لأبي يوسف ما رواه الدارقطني من حديث بشير بن عمر بن محصن قال: أسهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفرسي أربعة أسهم ولي سهماً فأخذت خمسة أسهم.

وروى عبد الرزاق أخبرنا إبراهيم بن يحيى السلمي عن مكحول أن الزبير حضر خيبر بفرسين فأعطاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أسهم وهذا منقطع، وقال الواقدي في المغازي حدثنا عبد الملك بن يحيى عن عيسى بن عمر قال: كان مع الزبير يوم خيبر فرسان فأسهم له النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أسهم وقال أيضاً حدثني يعقوب بن محمد عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أبي صعصعة عن الحارث بن عبد الله بن كعب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاد في خيبر ثلاثة أفراس لزاز والضرب والسكب وقاد الزبير بن العوام أفراساً وقاد حراس بن الصمت فرسين وقاد البراء بن أوس فرسين وقاد أبو عمرة الأنصاري فرسين فأسهم عليه الصلاة والسلام لكل من كان له فرسان أربعة أسهم وسهماً له وما كان أكثر من فرسين لم يسهم له، وروى ابن الجوزي بسنده عن سعيد بن منصور عن ابن عياش عن الأوزاعي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسهم للخيل ولا يسهم للرجل فوق فرسين وإن كان معه عشرة أفراس وقال: قال سعيد بن منصور ثنا فرج بن فضالة ثنا محمد بن الوليد عن الزهري أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن أسهم للفرس سهمين وللفرسين أربعة أسهم ولصاحبهما سهماً فذلك خمسة أسهم وما كان فوق الاثنين فهو جنائب، وقال أبو يوسف في كتاب «**الخراج**» حدثنا ابن يحيى بن سعيد عن الحسن في الرجل يكون في الغزو معه الأفراس قال: لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين، قال: وحدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن يزيد بن جابر عن مكحول قال: لا يقسم لأكثر من فرسين، قال صاحب الهداية ما روي حجة لأبي يوسف وأحمد محمول على التنفيل كما أعطى سلمة بن الأكوع سهمين وهو راجل، قلت: ما قال صاحب الهداية إن إعطاء سهمين لفرس وأربعة أسهم لفرسين محمول على التنفيل إنما يتصور صحته لو قيل: جاز للإمام أن يعطي بعض الغانمين فوق سهمه بعد القتال من غير شرط سبق منه وإلا فلم يروا في شيء مما ذكر من الأحاديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم شرط ذلك.

مسألة

إذا لحق المدد في دار الحرب قبل إحراز الغنائم بدار الإسلام بعد انقضاء القتال لا يسهم لهم عند الأئمة الثلاثة وعند أبي حنيفة يسهم لهم.

احتجوا بما رواه ابن أبي شيبة والطحاوي بسند صحيح عن طارق بن شهاب الأخمسي، أن أهل بصرة غزوا نهاوند فأمدهم أهل الكوفة وعليهم عمار بن ياسر فظهروا فأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة فقال رجل من بني تميم، وعند الطحاوي من بني عطارد أيها العبدُ الأجدع تريد أن تشاركنا في غنائمنا وكانت أذنه جدعت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عمار: خير أذني سبيت ثم كتب إلى عمر فكتب عمر أن الغنيمة لمن شهد الوقعة، وأخرج الطبراني: «الغنيمة لمن شهد الوقعة» مرفوعاً وموقوفاً وقال الصحيح الموقوف، وأخرجه ابن عدي من طريق بختري بن مختار عن عبد الرحمٰن بن مسعود عن عليّ موقوفاً.

وروى الشافعي من طريق زيد بن عبد الله بن قسيط أن أبا بكر بعث عكرمة بن جهل في خمسمائة من المسلمين مدداً لزياد بن لبيد فذكر القصة، وفيها فكتب أبو بكر أن الغنيمة لمن شهد الوقعة لكن في أثر أبي بكر انقطاع، وبحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بعث أبان بن سعيد بن العاص في سرية قبل نجد فقدم أبان بعد فتح خيبر فلم يسهم له»[١] رواه أبو داود وأبو نعيم موصولاً والبخاري في صحيحه تعليقاً، وأجاب الحنفية عن هذا الحديث أن خيبر بعدما فتحت صارت دار الإسلام فقدومهم بعد الفتح لحوق بعد إحراز الغنيمة بدار الإسلام ولا خلاف في أنه من لحق بعد الإحراز لا سهم له في الغنيمة فإنهم ملكوها بالإحراز قبل لحوقهم، وأما إسهامه لأبي موسى الأشعري على ما في الصحيحين عنه أنه قال: «وافينا رسول صلى الله عليه وآله وسلم حين افتتح خيبر فأسهم لنا ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر إلا لأهل سفينتنا»[٢]، فقال: ابن حبان إنما أعطاهم من خمس الخمس والله أعلم.

مسألة

ولا حق لأهل سوق العسكر ولا لسائسة الدواب عند أبي حنيفة رحمه الله إلا أن يقاتلوا، وقال الشافعي يسهم لهم لما مر من قوله صلى الله عليه وآله وسلم «إن الغنيمة لمن شهد الوقعة»[٣] وهم قد شهدوا الوقعة وقد مر أنه لم يصح رفعه بل هو حديث موقوف ومعناه لمن شهد الوقعة على قصد القتال، وذلك إنما يعرف بأحد أمرين إما بإظهار خروجه للجهاد والتجهيز له لا لغيره وإما بحقيقة قتاله ولو كان من شهد الوقعة على عمومه لزم أن

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٠.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود في الجهاد باب ١٤٠، وأحمد في المسند ٤/٤٠٦.

(٣) أخرجه الزيلعي في نصب الراية ٣/٤٠٨، والقرطبي في تفسيره ٨/١٦.

يسهم للنساء والأطفال والعبيد أيضاً، وقد أجمعوا على أنه لا سهم لهؤلاء.

روى مسلم وأبو داود عن ابن عباس أنه سأل عن النساء هل كن يشهدن الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهل كان يضرب لهن سهم؟ فقال: «كن يشهدن وأما أن يضرب لهن سهم فلا[(١)]».

وفي رواية لأبي داود وقد كان يرضخ لهن، فإن قيل: يعارضه حديث حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسهم لهن كما أسهم للرجال أخرجه أبو داود والنسائي، قلنا: حشرج مجهول.

مسألة

إن أطاق الصبي القتال وأجازه الإمام يكمل له السهم عند مالك وقال الجمهور: لا يسهم له بل يرضخ، روى أبو داود من طريق مكحول أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسهم للنساء والصبيان والخيل[(٢)] وهذا مرسل لو صح فلعل المراد بقوله: أسهم أعطى لهم شيئاً وهو الرضخ.

مسألة

اختلفوا في العقار التي استولى عليها المسلمون عنوة؟ فقال الشافعي: يجب أن يقسمها الإمام بين الغانمين بعد التخميس كالمنقول كما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر وهي رواية عن أحمد، لعموم هذه الآية إلا أن يطيب أنفس الغانمين ويسقطوا حقوقهم فحينئذٍ يوقفها على المسلمين كما فعل بسواد العراق.

وقال مالك: ليس للإمام أن يقسمها بل يصير بنفس الظهور عليها وقفاً، وهي رواية ثانية عن أحمد، وقال أحمد وهي رواية عن مالك أن الإمام مخير بين أن يقسمها على الغانمين بعد التخميس لله وبين إيقافها على جماعة المسلمين.

وقال أبو حنيفة: الإمام مخير بين قسمتها بين الغانمين بعد التخميس لله وبين إقرار أهلها بالخراج وبين أن يصرفها عنهم إلى قوم آخرين يضرب عليهم الخراج وليس له أن يقفها.

والحجة لأحمد حديث سهل بن حشمة قال: «قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر نصفين نصف لنوائبه وحاجته ونصف بين المسلمين قسمها بينهم على ثمانية عشر سهماً» رواه ابن الجوزي.

وروى الطحاوي عن ابن عباس قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر بالشطر ثم أرسل ابن رواحة فقاسمهم، وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وآله وسلم عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج من الزرع، وعن جابر قال: ما أفاء الله خيبر فأقرهم رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ١٣٧، ١٤٠، وأبو داود في الجهاد باب ١٤١.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٣.

صلى الله عليه وآله وسلم كما كانوا وجعل بينه وبينهم فبعث عبد الله بن رواحة عليهم، ثم قال الطحاوي: فثبت بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن قسم خيبر بكمالها لكنه قسم طائفة منها وترك طائفة فلم يقسمها، قلت: قد ذكرنا في سورة الفتح في قصة فتح خيبر قول ابن إسحاق كانت المقاسم على أموال خيبر على الشق والنطأة والكثيبة كانت الكثيبة في الخمس والشق والنطأة أسهم الغزاة ثمانية عشر سهماً النطأة خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر والوطيح والسلاليم كانت لنوائب المسلمين عامله فيها اليهود بالنصف وكان ابن رواحة يأتيهم كل سنة فيخرصهم، فأجلاهم عمر لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «نقركم على ذلك ما شئنا»[1] قلت: قد جرى الخلاف بين الصحابة في خلافة عمر حين افتتح العراق، قال: أبو يوسف في كتاب **«الخراج»** حدثني غير واحد من علماء المدينة قال: لما قدم على عمر جيش العراق من قبل سعد بن أبي وقاص شاور أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام، فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ما هذا برأي؟ فقال عبد الرحمٰن بن عوف: فما الرأي بالأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم؟ فقال عمر ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره وأن أهل الشام والعراق أكثروا على عمر، قالوا: تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا فكان لا يزيد على أن يقول هذا رأي، قالوا: فاستشر، قال: فاستشار المهاجرين الأولين فاختلوا فأما عبد الرحمٰن بن عوف فكان رأيه أن يقسم لهم حقوقهم، ورأى عثمان وعليّ وطلحة رأي عمر رضي الله عنهم أجمعين فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ومستحقه ثم قال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون الحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا الذي هو هواي معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أردت به إلا الحق.

قالوا: قد نسمع يا أمير المؤمنين قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم وإني أعوذ بالله أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأراضيهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا ورثة بين أهله وأخرجت الخمس ووجهته على وجهه

(١) أخرجه البخاري في الحرث باب ١٧، والخمس باب ١٩، ومسلم في المساقاة حديث ٦.

وأنا في توجيهه ورأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فيكون شيئاً للمسلمين للمقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم أرأيتم هذه الثغور بدلها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام والشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر بدمن أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضين والعلوج فقالوا جميعاً الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت إن لم يشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ويجري عليهم ما يقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم فقال: قد بان لي الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون، فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا له تبعثه إلى أهم ذلك فإن له بصراً وعقلاً وتجربة، فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مائة ألف ألف والدرهم كانت يومئذٍ وزن المثقال.

قال أبو يوسف وحدثني محمد بن إسحاق عن الزهري أن عمر بن الخطاب استشار الناس في السواد حين افتتح فرأى عامتهم أن يقسم، وكان بلال بن رباح من أشدهم في ذلك وكان رأي عمر أن يتركه ولا يقسمه قال: اللهم اكفني بلالاً ومكثوا في ذلك يومين أو ثلاثاً أو دون ذلك، ثم قال عمر: إني قد وجدت حجة قال: الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ [الحشر: ٦] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر: ١٠] الآيات من سورة الحشر قال: فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم فقد صار هذا ألفي على هؤلاء جميعاً فكيف تقسم هؤلاء وتدع من يخلف بغير قسم فأجمع على تركه وجمع خراجه، قال أبو يوسف: وحدثني الليث بن الليث بن سعد عن حبيب بن أبي ثابت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجماعة المسلمين أرادوا عمر بن الخطاب أن يقسم الشام كما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر وأنه كان أشد الناس في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح فقال عمر: إذن أترك من بعدكم من المسلمين لهم ثم قال: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه قال: ورأى المسلمون أن الطاعون الذي أصابهم لعمواس كان من دعوة عمر.

قال: وتركهم عمر ذمة يؤدون الخراج إلى المسلمين، قلت: فثبت انعقاد الإجماع على جواز ترك الأرض في أيدي أهلها يؤدون الخراج فإن قيل: كيف يجوز نسخ الآية بالإجماع والإجماع لا يكون ناسخاً ولا منسوخاً، وما استدل به عمر من قوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الحشر: ٧] ليس بحجة لأنه فيما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] وكلامنا فيما أوجف عليه المسلمون خيلاً وركاباً.

قلنا: أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يجتمع على الضلالة فإجماعهم على هذا يدل على أن قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٍ﴾ ليس على عمومه كيف وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصف وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السلب للقاتل ولم يخمس السلب وجاز أن يعلف العسكر في دار الحرب ويأكلوا ما وجدوه من الطعام، عن محمد بن أبي المجالد عن عبد الله بن أبي أوفى قال: هل كنتم تخمسون الطعام في عهد

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: أصبنا طعاماً يوم خيبر فكان الرجل يجيء فيأخذ منه مقداراً ما يكفيه ثم ينصرف، وعن ابن عمر أن جيشاً غنموا في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طعاماً وعسلاً فلم يؤخذ منهم الخمس، وعن القاسم مولى عبد الرحمٰن عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: كنا نأكل الجزور في الغزو ولا نقسمه حتى كنا لنرجع إلى رحالنا وأخرجتنا منه مملوءة روى الأحاديث الثلاثة أبو داود.

فائدة

حمل أصحاب الشافعي ما فعل في سواد العراق والشام على أنه وقف الأرض برضاء الغانمين وإسقاطهم حقوق أنفسهم، قلنا: لو كان كذلك لأخرج منها أولاً خمس الله تعالى إذ ليس الخمس للإمام ولا للغانمين ولا يسقط بإسقاطهم، وأيضاً وضع عمر على جريب الكرم شيئاً معلوماً وعلى جريب الحنطة شيئاً معلوماً فلا يجوز أن تكون الأرض مملوكة للمسلمين موقوفة ولا يلزم المعدوم وبيع ما ليس عندك بل يظهر بهذا أن الأرض مملوكة للكافرين عليهم خراج الأرض كما وضع عليهم الجزية وهم أحرار ولا يجوز أن يكونوا عبيداً للمسلمين ويكون الجزية ضريبة للمسلمين عليهم بعلة الملك لأنه أهمل نسائهم ومشايخهم وصبيانهم وإن كانوا قادرين على الاكتساب أكثر مما يقدر عليه بعض الرجال البالغين فظهر أنه ليس بعلة الملك على وجه الضريبة والله أعلم.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ﴾ عطف على بالله ﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الملائكة والنصر والآيات المعجزة منها: أن الله تعالى تحقق ما وعدهم إحدى الطائفتين وأنه أخبرهم بميلهم إلى العير دون الجيش وأنه جاء المطر بحيث كان للمسلمين نعمة وعلى الكافرين نقمة وأن أمر الله تعالى بالملائكة حتى سمعوا أصواتهم حين قالوا: أقدم حيزوم ورأوا الرؤوس تتساقط من الكواهل من غير قطع وأثر سياط في أبي جهل وأنه رمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشركين بالحصباء حتى عميت أبصار الكفار أجمعين، وإنه قلل المشركين في أعين المسلمين لتشجيعهم وإنه أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مصارع المشركين هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فرأى المسلمين ذلك على ما أشار وأنه تعالى حقق قوله صلى الله عليه وآله وسلم بعقبة بن أبي معيط: «إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبراً» وإنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر عمه العباس بما استودع أم الفضل فزالت شبهة العباس في نبوته وأن الله تعالى تحقق وعده للمؤمنين بقوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠] فأعطى لعباس بدل عشرين أوقية عشرين غلاماً يتجرون بماله وأن الله سبحانه اطلع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على أيتمار عمير بن وهب وصفوان بن أمية بمكة على قتله فعصم الله وجعله سبباً لإسلام عمير بن وهب وعاد داعياً إلى الإسلام ومنها: انقلاب العرجون سيفاً. روى ابن سعد عن زيد بن أسلم ويزيد بن رومان وغيرهما والبيهقي وابن عساكر عن عمر أن عكاشة بن محصن قاتل يوم بدر بسيفه حتى انقطع فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاه جزلاً من

حطب وقال: «قاتل بهذا يا عكاشة»[١] فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هزه فكان سيفاً في يده طويل القامة مديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين وكان ذلك السيف يسمى العيون ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قتل في أيام الورد قتله طلحة بن خويلد الأسدي.

وروى البيهقي عن داود بن الحصين عن رجال من بني عبد الأشهل عدة قالوا: انكسر سيف سلمة بن أسلم بن الحرش يوم بدر فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضيباً كان في يده من عراجين نخل بني طابة فقال: «اضرب به»[٢] فإذا هو سيف جيد فلم يزل عنده حتى قتل يوم خيبر أبي عبيدة. ومنها: ما روى البيهقي أنه ضرب حبيب بن عدي يوم بدر فمال شقه فتفل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأمه ورده فانطبق، ومنها ما روى البيهقي عن قتادة بن النعمان أنه أصيب عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: لا فدعاه به فغمز حدقته براحته فكان لا يدري أي عينه أصيب ومنها ما روى البيهقي عن رفاعة بن رافع قال: لما كان يوم بدر رميت بسهم ففقئت عيني فبصق فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا لي فما آذاني منها شيء، ومنها ما روى ابن سعد من طريق إسحاق عن عبد الله بن نوفل عن أبيه قال: أسر نوفل يوم بدر فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «افد نفسك برماحك التي بجدة»[٣] قال: والله ما علم أحد ليعلم أن لي بجدة رماحاً بعد الله غيري أشهد أنك رسول الله ففدى نفسه بها وكانت ألف رمح.

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل حيث أعز الله الإسلام ودفع الكفر وأهله ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ حزب الله وحزب الشيطان وكان يوم الجمعة بسبع عشرة مضت من رمضان بعد ستة عشر شهراً من الهجرة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنتُم﴾ بدل من يوم الفرقان يعني إذ كنتم أيها المسلمون نازلين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾ أي شط الوادي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ تأنيث الأدنى يعني العدوة الشامية القريبة إلى المدينة ﴿وَهُم﴾ يعني المشركين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ تأنيث الأقصى وكان قياسه قصياً بقلب الواو ياء كالدنيا والعليا تفرقة بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقود وهو أكثر استعمالاً من القصيا، يعني العدوة اليمانية البعيدة من المدينة، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر العين فيهما والباقون بضمها فيهما وهما لغتان ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ يعني العير يريد أبا سفيان وأصحابه ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر منصوب على الظرف مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ، والجملة حال من الظرف قبله، وفائدتها الدلالة على قوة العدو

---

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٢٩٠.
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٧٠، ٣/ ٩٩.
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٣١.

واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين واستبعاد غلبتهم عادة ولذا ذكر مركز الفريقين فإن العدوة الدنيا كانت رخوة تسوح فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء بخلاف العدوة القصوى ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أيها المؤمنون أنتم مع الكفار الاجتماع للقتال ثم علمتم قلتكم وكثرة عدوكم وقوتهم ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم ﴿فِي الْمِيعَادِ﴾ هيبة عنهم ويأساً من الظفر عليهم ﴿وَلَكِن﴾ الله تعالى جمعكم من غير ميعاد حيث خرجتم للعير وخرج الكفار ليمنعوا عيرهم فالتقوا على غير ميعاد ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ أي صار ﴿مَفْعُولًا﴾ من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ بدل من ليقضي الله أو متعلق بقوله مفعولاً.

والمعنى ليموت من مات منهم عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه ويعيش من عاش منهم عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فإن وقعة بدر من الآيات الواضحات وقال محمد بن إسحاق معناه ليكفره من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك استعارة للهلاك والحياة للكفر والإسلام يعني من لهذا حاله في علم الله وقضائه قرأ ابن كثير برواية البزي ونافع وأبو بكر ويعقوب حيي بفك الإدغام حملاً على المستقبل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدر باذكر أو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح أن يقللهم في عينك في رؤياك حتى تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه يوم بدر في أول الأمر: «لا تقاتلوا حتى أوذنكم وإن كثبوكم[1] فارموهم بالنبل ولا تسلوا السيف حتى يغشوكم» فنام في العريش نومة فقال أبو بكر: يا رسول الله قد دنا القوم وقد مالوا منا، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أراه الله عز وجل إياهم في منامه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه، وروى ابن إسحاق وابن المنذر عن حبان بن واسع عن أشياخ من قومه انتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبرائيل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع» قال الحسن: معنى في منامك في عينك لأن العين موضع النومة، ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أمر القتال وتفرقت أرائكم في الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي سلمكم المخالفة والفشل ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما يكون فيها وما يتغير أحوالها وقال ابن عباس علم ما في صدوركم من الحب لله ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

قال ابن مسعود لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم تسعين؟ قال:

---

(١) كثبوكم: أي قربوا منكم.

أراهم مائة فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ كيلا يهربوا قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور، روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً واربطوهم في الجبال ولا تقتلوا منهم أحداً فنزل ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] قال: وذلك قبل التحام الحرب فلما التحم أراهم إياهم مثليهم رأي العين كما في آل عمران ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لاختلاف الفعل به أو لأن المراد بالأمر ثمة الالتقاء على الوجه المحكي وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وحزبه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ
كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾
وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا
تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ حَكِيمٌ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ
﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي
ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا
ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ
ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ
لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ
هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ﴾ للمحاربة ﴿فِئَةً﴾ يعني جماعة كافرة ولم يصفها إشعاراً بأن المؤمنين لا يقاتلون إلا الكفار ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لقاتلهم فإن الفرار من الزحف كبيرة كما ورد في الصحاح من الأحاديث ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ داعين له بالنصر مستظهرين

بذكره مترقبين لنصره ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصر والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله وأن يلتجيء إليه عند الشدائد ويقبل عليه بشراً شره فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عن عبده المؤمن في شيء من الأحوال ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في قتال أعدائه وإعزاز دينه ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم يوم بدر في أول الأمر ويوم أُحد ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ أي تجبنوا منصوب بإضمار أن جواب للنهي، وقيل: عطف عليه ولذلك قرىء ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الجزم والريح استعير للدولة ونفاذ الأمر وجريانه على المراد وكذا قال الأخفش كأنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بالريح في هبوبها ونفوذها، وقال السدي: جرأتكم، وقال مقاتل: حدتكم، وقال النصر بن شميل: قوتكم، وقال قتادة وابن زيد: المراد به الحقيقة قالا لم يكن النصر قط إلا بريح يبعثها الله يصرف وجوه العدو، وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن أبي زيد، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[(١)] متفق عليه من حديث ابن عباس، وعن النعمان بن مقرن قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان إذا لم يقاتل أول النهار، انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر رواه ابن أبي شيبة ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على الموت والجراح ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والإثابة.

روى البخاري في صحيحه عن سالم أبي النصر مولى عمرو بن عبد الله وكان كاتباً له قال: كتب عبد الله بن أبي أوفى كتاباً، فقرأته أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس: لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال: «اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب هازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»[(٢)] ولما أمر الله سبحانه بالجهاد والصبر عليه أمر بإخلاص النية إذ لا عبرة بالأعمال إلا بالنيات.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(٣)] رواه مسلم، وفي «الصحيحين» في حديث ابن عباس قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكن جهاد ونية»[(٤)] فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في المجاهدة والقتال ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿بَطَرًا﴾ أي فخراً أو أشراً، قال: الزجاج: البطر الطغيان في النعمة وترك

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء باب ٢٦، والمغازي باب ٢٩، وبدء الخلق باب ٥، وأحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في الاستسقاء حديث ١٧، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٣، ٢٢٨، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٥٥، ٣٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١١٢، ١٥٦، ومسلم في الجهاد حديث ٢٠.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٣، وابن ماجه في الزهد باب ٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٨٥، ٥٣٩.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والمغازي باب ٥٣، ومسلم في الإمارة حديث ٨٥، ٨٦.

شكرها، قيل: البطر أن يشغله سكر النعمة عن شكرها ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو إظهار الجميل ليرى وإبطان القبيح، يعني متكبرين بكثرة العدد والمال ورياء الناس ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ويعترفوا لعظمتهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن الإيمان به وبرسوله، وذلك أنه لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش أنكم خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجاها فارجعوا، فقال: أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان ويسمع بها العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً فوافوها فسقوا كأس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القينان فنهى الله سبحانه أن يكون المؤمنين مثلهم بطرين مرائين وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مقدر باذكر ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرادة قتله وقتاله.

وقد ذكرنا في القصة حضور الشيطان عند قريش في دار الندوة وحين أرادوا المسير فذكرت التي بينهم وبين بني بكر من الحرب جاءهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾ ولكم خبر لا يعني لا غالب كائن لكم وليس صلته وإلا انتصب كقولك لا ضارباً زيد عندك.

﴿ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لكثرة عددكم ومالكم وأوهمهم أن ما يفعلون قربان مجيرة لهم حتى قالوا: اللهم انصر إحدى الفئتين وأفضل الدينين ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ من كنانة ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ المسلمون والمشركون ورأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنه لا طاقة له بهم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ولىٰ مدبراً هارباً. روى الطبراني عن رفاعة بن رافع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس، قال: أمد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بألف وكان جبرائيل في خمسمائة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة وجاء إبليس في جند من الشياطين معه رأيته في صورة رجال من بني مدلج والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم من الناس وأقبل جبرائيل إلىٰ إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته فقال: الرجل: يا سراقة ألست تزعم أنك جار لنا ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

فذلك حين رأى الملائكة فتشبث به الحارث بن هشام، وأسلم بعد ذلك وهو يزعم أنه سراقة لما سمع كلامه فضرب الشيطان في صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يلوي حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال يا رب وعدك الذي وعدتني اللهم إني أسألك نظرتك إياي وخاف أي يخلص إليه القتل، فقال أبو جهل: يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقة فإنه كان على ميعاد من محمد ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة فإنهم قد عجلوا فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالجبال ولا ألفين رجلاً منكم رجلاً منهم ولكن خذوهم أخذاً نعرفهم سوء صنيعهم، ويروى أنهم رأوا سراقة بمكة بعد ذلك

فقالوا يا سراقة أخرمت الصف وأوقعت فينا الهزيمة، فقال: والله ما علمت شيئاً من أمركم حتى كانت هزيمتكم وما شهدت وعلمت فما صدقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله فيه فعلموا أنه كان إبليس تمثل لهم.

قال البغوي: قال قتادة قال إبليس: إني أرى ما لا ترون وصدق وقال: إني أخاف الله وكذب والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة به ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم وتبرأ منهم، وقال عطاء: معناه إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك، وقال الكلبي: خاف أن يأخذه جبرائيل ويعرفهم حاله فلا يطيعوه، وقيل: إني أخاف الله أي: أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمر الله، وقيل: معناه أخاف الله عليكم والله شديد العقاب، وقيل: انقطع الكلام عند قوله إني أخاف الله ثم قال: الله شديد العقاب.

عن طلحة بن عبيد الله بن كريز رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما رأى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة وما ذلك إلا لما يرى من تنزل رحمة الله وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما كان يوم بدر فقيل: وما رأى من يوم بدر قال: أما إنه قد رأى جبرائيل عليه السلام وهو يزع الملائكة»(١) رواه مالك مرسلاً والبغوي في شرح السنة والمصابيح والمعالم، واذكر ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ بالمدينة حين خرج المسلمون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر وسمعوا خروج أبي جهل وغيره في زهاء ألف لقتالهم اغتروا بدينهم حيث خرجوا لمقاتلة من لا يدلهم بهم ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني الذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة، وقيل: هم المشركون. وقيل: المنافقون، والعطف لتغاير الوصفين، وقال البغوي: هؤلاء يعني الذين في قلوبهم مرض قوم كانوا بمكة مستضعفين قد أسلموا وحبسهم أقربائهم عن الهجرة فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرهاً فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني المؤمنين ﴿دِينُهُمْ﴾ فقتلوا جميعاً منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميات والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف الجمحي والعاص بن منبه بن الحجاج، وروى الطبراني عن أبي هريرة بسند ضعيف أنه قال: عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين غر هؤلاء دينهم فقال: الله سبحانه جواباً لهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذل من استجار به وإن قل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه ففعل بالكفار ما لم يكونوا يحتسبون، ولما ذكر الله سبحانه سوء عاقبة الكفار في الدنيا بالقتل والهزيمة أردفه بما صنع بهم بعد الموت فقال:

(١) أخرجه مالك في الحج حديث ٢٤٥.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد يعني ولو رأيت فإن لو نقيضه أن تجعل المضارع ماضياً ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ببدر وغير ذلك طرف لترى والمفعول محذوف يعني ولو ترى الكفرة أو حالهم حين يتوفهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فاعل يتوفى يدل عليه قراءة ابن عامر تتوفى بالتاء، وجاز على قراءة الجمهور أن يكون فاعل يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مبتدأ خبره ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ والجملة حال من الذين كفروا واستغنى فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ظهورهم بسياط النار ومقامع من حديد، أراد تعميم الضرب أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، وقال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد بأدبارهم استاههم ولكن الله حيي يكنى ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عطف على يضربون بإضمار القول أي يقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب النار المؤبدة فعلى هذا بيان لعذابهم في عالم البرزخ، وقال ابن عباس كان المشركون ببدر إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسملين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدركتهم الملائكة وضربوا أدبارهم فقتلوا من قتل منهم، وكانت تقول الملائكة ذوقوا عذاب الحريق، قيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم فذلك قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وقال ابن عباس يقولون لهم ذلك بعد الموت وجواب لو محذوف يعني لرأيت أمراً فزيعاً مهولاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وقع لكم في الدنيا والآخرة كائن ﴿بِمَا﴾ أي بسبب ما ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي كسبتم من الكفر والمعاصي عبر باليدين لأن عامة الأفعال يزاول بهما ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على ما كسبت للدلالة على أن سببية مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم لا أن لا يعذبهم بذنوبهم فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً بل هو رحمة ومغفرة فلا ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب، وظلام للتكثير لأجل العبيد وهذا بقية كلام الملائكة للكفار.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خبر مبتدأ محذوف يعني دأب هؤلاء الكفار يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه كدأب آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالعذاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يغلبه شيء ولا يدفع عذابه شيء ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي حل بهم ﴿بِأَنَّ﴾ أي بسبب إن ﴿ٱللَّهَ لَمْ يَكُ﴾ أصله يكون حذف الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً ﴿مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنعمة كما بدل نعمته بأهل مكة من الأمن والرزق والعزة وكف أصحاب الفيل عنهم بالقتل والأسر يوم بدر ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي يبدلوا ما بهم من حال إلى حال أسوأ منه كتغير قريش حالهم من اتباع دين إسماعيل وملة إبراهيم وصلة الرحم وسدانة البيت وإطعام الضيف وسقاية الحاج بمعاداة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه وصدهم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله والسعي في إراقة دماء من قال: لا إله إلا الله والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة.

قال أصحاب التاريخ: إن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي جد عبد مناف جد جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قبل كلاب كانوا على دين إسماعيل عليه السلام كابراً عن كابر وكان كل واحد منه ومن آبائه وصياً لأبيه قائماً مقامه في الرياسة بالوصية عن أبيه وموسوماً بالخير والجود وما ظهرت عبادة الأصنام، وتبديل دين إبراهيم عليه السلام في أولاد إسماعيل إلا في زمن قصي كلاب وكان كعب بن لؤي أول من جمع العروبة وكانت تجمع إليه قريش في هذا اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعلمهم بأنه ولده ويأمرهم بإتباعه والإيمان به وينشد أبياتاً منها قوله[1]:

يا ليتني شاهداً فحواي دعوته إذا قريش يبغي الحق خذلانا

وكان قصي يصنع طعاماً كثيراً للحاج أيام منى وعرفات، وهذه هي الرمادة، ويصنع حياضاً من آدم فيسقي فيها من المياه التي بمكة ومنى وعرفات ويقال لها: السقاية يجري ذلك بأمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ثم جرى في الإسلام على ذلك وأحدث قصي وقود النار بالمزدلفة حتى يريها من دفع من عرفة ولا يضل الطريق ولم يزل ذلك الوقود وكانت النار توقد بالمزدلفة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وأول من غير دين إسماعيل وعبد الأصنام وسيّب السوائب عمرو بن لحي الخزاعي، قال السدي: نعمة الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنعم الله تعالى على قريش وأهل مكة فكذبوه وكفروا به فنقله الله إلى الأنصار. وقيل: لم يكن لأهل مكة وآل فرعون حالة مرضية لكنهم تغيروا الحال المسخوطة إلى أسخط منها فإنهم كانوا قبل البعثة كفرة عبدة الأصنام وبعد البعثة كذبوا الرسول وسعوا في قتله وصدوا عن سبيل الله فغيروا حالهم إلى أسوأ مما كانوا عليه فغير الله الإمهال بتعجيل العذاب في الدنيا وليس السبب عدم تغير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جرى عادة الله على تغييره نعمائه بالنقمات إذا غيروا حالهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أهلكنا بعضهم بالغرق وبعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ وبعضهم بالريح ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ كذلك أهلكنا كفار بدر بالسيف لما كذبوا بآيات ربهم وكرر الله سبحانه قوله كدأب آل فرعون إلخ للتأكيد، وقيل: الأول بسببية الكفر والأخذ به والثاني: بسببية التغير في النعمة بسبب تغيرهم ما بأنفسهم.

ولأن الأول الأخذ بالذنوب بلا بيان وههنا بين أنه الهلال والاستئصال ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأولين والآخرين ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ احترز به عن الذين كفروا ثم آمنوا وحسن إسلامهم أو هو إخبار عن قوم طبعوا

---

(١) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة في لسان العرب (عرب)، (جمع)، وتاج العروس (عرب)، (جمع).

على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف يعني الذين كفروا واستقر في علم الله تعالى كفرهم فهم لا يؤمنون وهذا عام يشتمل كل من يموت على الكفر، وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية في ستة رهط من اليهود فيهم ابن التابوت وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ بدل من الذين كفروا إما بدل البعض للتخصيص بذمهم وإما بدل الكل على رواية سعيد بن جبير والمعنى عاهدتهم وكلمة من لتضمن المعاهدة معنى الأخذ، يعني أخذت منهم العهد ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ عاهدتهم وهم بنو قريظة كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه يهود وعاهدهم واشترط لهم وعليهم وأقرهم على دينهم وأموالهم لما امتنعوا عن الإسلام كذا قال ابن إسحاق وذكر نسخة الكتاب نحو ورقتين، ثم هم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم ثانياً فنقضوا العهد ومال الكفار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله حيث يكفرون برسوله بعد ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم وينقضون العهود منه كل مرة، روى عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم أنه قال لليهود معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداود بن سلمة يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك وتخبرون أنه مبعوث وتصفون بصفته جعلهم الله تعالى شر الدواب لأن شر الناس بل شر الخلائق الكفار وشر الكفار المصرون وشر المصرون الناكثون العهود فهم شر الدواب. ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ تدركنهم ﴿فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ ناسرتهم ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ أصل التشريد التفريق على اضطراب، قال ابن عباس: معناه فنكل بهم من ورائهم يعني أفعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك فعلاً من القتل والتنكيل تفرق منك ويخافك من خلفهم من أهل مكة واليمن، يقال شردت بفلان أي فعلت به فعلاً شرد غيره أن يفعل فعله، ومن هٰهنا لما أمكن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على بني قريظة قتل رجالهم كل من أنبت وسبي نسائهم وذراريهم وقسم أموالهم.

روى الطبراني عن أسلم الأنصاري قال: جعلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أُسارى بني قريظة فكنت أنظر إلى فرج الغلام فإن رأيته أنبت ضربت عنقه ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي لعل من خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يتذكرون ويتعظون فلا ينقضون العهد ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةٗ﴾ أي عهد يظهر لك منهم آثار الغدر ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على عدل وطريق قصد أو على سواء منك وهم في العلم بنقض العهد، يعني أعلمهم قبل الحرب أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى لا يكون خيانة منك، روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم فاخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة وأنزل فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الآية، قلت: وذلك بعد غزوة الأحزاب، وقال الحافظ محمد يوسف الصالحي في سبيل الرشاد: كانت قينقاع أول يهود نقضوا العهد وأظهروا البغي والحسد وقطعوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من العهد فبينما هم على ما هم من إظهار العداوة ونبذ العهد قدمت امرأة من العرب بجلب لها قناعها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها لحلي فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فلم تفعل، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها من ورائها فخله بشوكة وهي لا تشعر فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ونبذوا العهد واستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود وغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع وأنزل الله سبحانه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فقال: صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أخاف من بني قينقاع» فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الآية، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر فتحصنوا في حصنهم فحاصرهم أشد الحصار خمسة عشر ليلة حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أموالهم وأن لهم النساء والذرية وأمرهم أن يجلوا من المدينة فخرجوا بعد ثلاث فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صفية والخمس وقسم أربعة أخماسه على أصحابه وكان أول خمس بعد بدر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

روى البغوي بسنده عن رجل من حمير قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر فإذا عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم عهدهم على سواء» فرجع معاوية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ﴾ قرأ حفص وابن عامر وحمزة لا يحسبن بالياء التحتانية على أن الفاعل الموصول والمفعول الأول أنفسهم فحذف التكرار والفاعل ضمير من خلفهم، وقرأ الباقون بالتاء الفوقانية على الخطاب ومفعولاه الذين كفروا سبقوا يعني لا تحسبنهم سابقين فائتين من عذابنا، قال البغوي: نزلت الآية في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ ابن عامر بفتح الألف والمعنى لأنهم لا يعجزون، وقيل: لا زائدة والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنهم يعجزون وسبقوا حينئذٍ حال بمعنى سابقين أي مفلتين وقرأ الجمهور بكسر الألف على الابتداء ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ أي لنا قضي العهد أو للكفار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ إعدادها والإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ أي أسباب وآلات وأعمال يقويكم على حربهم من الخيل والسلاح والمصارعة ونحو ذلك واللهو بالرمي والبندقة وغير ذلك ومنه جمع المال عدة للجهاد، وقيل: هي الحصون.

عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي»[(١)] رواه مسلم، وعنه قال: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه»[(٢)] رواه مسلم، وعن أبي نجيح السلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة ومن رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر»[(٣)] رواه النسائي، وروى أبو داود الفصل الأول: وروى الترمذي الفصل الثاني، وزاد: «من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة»[(٤)] وروى البيهقي في شعب الإيمان الفصول الثلاثة غير أنه قال: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة» وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من علم الرمي ثم تركها فليس منا أو قد عصى»[(٥)] رواه مسلم، وعن أبي أسيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل»[(٦)] رواه البخاري، وعن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر في الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله فارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه بفرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق»[(٧)] رواه الترمذي وابن ماجه، وزاد أبو داود والدارمي: «ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنه نعمة تركها»[(٨)] أو قال: «كفرها» وفي رواية للبغوي: «إن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة صانعه والممد به والرامي به في سبيل الله»[(٩)] ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ يعني ربط الخيل واقتناءها للغزو فهو مصدر سمي به، قال البيضاوي: هو اسم للخيل الذي يربط في سبيل الله مصدر سمي به يقال: ربط ربطاً ورباطاً ورابط ورباطاً، أو فعال بمعنى مفعول، وأجمع ربيط كفصيل وفصال وعطفها على القوة كعطف جبرائيل وميكائيل على الملائكة.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٦٧، وأبو داود في الجهاد باب ٢٣، والترمذي في تفسير سورة ٨، باب ٥، وابن ماجه في الجهاد باب ١٩، والدارمي في الجهاد باب ١٤، وأحمد في المسند ٤/١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٦٨، وأحمد في المسند ٤/١٥٧.

(٣) أخرجه أبو داود في العتاق باب ١٤، وأحمد في المسند ٤/ ٣٨٤.

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد باب ٩، والنسائي في الجهاد باب ٢٦.

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٦٩.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٨.

(٧) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٢٣، والنسائي في الجهاد باب ٢٦، والخيل باب ٨.

(٨) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٢٣، وابن ماجه في الجهاد باب ١٩، والدارمي في الجهاد باب ١٤.

(٩) أخرجه البغوي في شرح السنة ٣/٤٦.

عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «البركة في نواصي الخيل»[١] متفق عليه، وعن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلوي ناصية فرس بأصبعه وهو يقول: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة»[٢] رواه مسلم ورواه البغوي من طريق البخاري من حديث عروة البارقي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصدقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[٣] رواه البخاري، وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الخيل ثلاثة هي لرجل وزر ولرجل ستر ولرجل أجر، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء على أهل الإسلام فهي له وزر، وأما التي هي له ستر فرجل ربطها في سبيل الله ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا في رقابها فهي له ستر، وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة[٤] من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أوراثها وأبوالها حسنات ولا يقطع طولها[٥] فاستنت[٦] شرفاً أو شرفين إلا كتب له عدد آثارها وأرواثها حسنات ولا مرّ بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات»[٧] رواه مسلم، وفي رواية البغوي في الصنف الثاني: «رجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر» وعن أبي وهب الجشمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ارتبطوا الخيل وامسحوا لنواصيها وأعجازها أو قال: أكفالها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار»[٨] رواه أبو داود والنسائي.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي تخوفون به، وعن يعقوب ترهبون بالتشديد والضمير لما استطعتم أو للإعداد ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الإضافة للعهد يعني كفار مكة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي من غير أهل مكة من الكفار وقال مجاهد ومقاتل: هم بنو قريظة، وقال السدي: هم أهل فارس وقال ابن زيد والحسن هم المنافقون ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لأنهم معكم يقولون لا إله إلا الله، وقيل: هم كفار الجن أخرجه أبو الشيخ من طريق أبي المهدي عن أبيه عن جده عن النبي

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٣، ومسلم في الإمارة حديث ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٣، ٤٤، ومسلم في الإمارة حديث ٩٧، ٩٨، والزكاة حديث ٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٥، والنسائي في الخيل باب ١١، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٤.

(٤) المرج الأرض الواسعة ذات نبات كثير تمرح فيه الدواب يخلى تسرح مختلطة وأصل المرج الاختلاط.

(٥) الطول الحبل الطويل يشد احد طرفيه في الوتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب بوجهه.

(٦) استنت شرفا أو شرفين أي عدت شوطاً أو شوطين وأشرف العلو المكان المرتفع.

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٨، ومسلم في الزكاة حديث ٢٤، ٢٦.

(٨) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٤٥، والنسائي في الخيل باب ٣، وأحمد في المسند ٣/ ٣٥٢، ٤/ ٣٤٥.

صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرج الطبراني مثله من حديث يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده مرفوعاً ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الجهاد ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ يوفر لكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ لا ينقص أجوركم، عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من جهز غازياً فقد غزا ومن خلف في أهله فقد غزا»[(١)] متفق عليه، وعن أبي مسعود الأنصاري قال: وجاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[(٢)] رواه مسلم، وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[(٣)] رواه أبو داود والنسائي والدارمي، وعن خزيم بن فاتك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنفق في سبيل الله كتب له بسبعمائة ضعف»[(٤)] رواه الترمذي والنسائي، وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «للغازي أجره وللجاعل أجره وأجر الغازي»[(٥)] رواه أبو داود وعن علي وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبي إمامة وعبد الله بن عمرو وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين رضي الله عنهم أجمعين كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أرسل نفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة دراهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[(٦)] [البقرة: ٢٦١] رواه ابن ماجه، وعن عبد الرحمٰن بن حباب قال: شهدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحث على جيش العسرة فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي مائة بعير بأحلاسها[(٧)] وأقتابها[(٨)] في سبيل الله ثم حضّ على الجيش فقام عثمان فقال: عليَّ مائتا بعير بأحلاسها في سبيل الله، ثم حض فقام عثمان فقال: عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وأقتابها في سبيل الله فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا ما على عثمان ما عمل بعد هذا»[(٩)] رواه الترمذي، وعن عبد الرحمٰن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بألف دينار في كمه حين جهز جيش العسرة نشرها في حجره فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقلبها في حجره، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٣٨، ومسلم في الجهاد ١٣٥، ١٣٦.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٣٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٧، والدارمي في الجهاد باب ٣٧.

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد باب ٤.

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٢٩، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٤.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الجهاد باب ٤.

(٧) يعني الأكسية التي تلي ظهر البعير.

(٨) القتب للجمل كالإكاف لغيره.

(٩) أخرجه البخاري في المناقب باب ١٨، وأحمد في المسند ٤/ ٧٥.

اليوم مرتين»[١] رواه أحمد ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ أي مالوا يعني الكفار ومنه الجناح ويعدي باللام وإلى ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي للصلح.

قرأ أبو بكر بكسر السين والباقون بالفتح ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي مل إليها وعاهد معهم وتأنيث الضمير لحمل السلم على نقيضه وهي الحرب قال: الحسن وقتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقال البيضاوي: الآية مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم، قلت: لا وجه لتخصيصها بأهل الكتاب ولا بالقول بكونها منسوخة بل الأمر للإباحة والصلح جائز مشروع إن رأى الإمام فيه مصلحة وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] ليس على عمومه بل خص منه أهل الذمة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ثق به ولا تخف من أبطانهم خداعاً فيه فإن الله يعصم من يتوكل عليه من مكر الأعداء ويحيفه بهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتهم ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح ليستعدوا لك ويغدروا أو يمكروا بك في الصلح ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ فحسبك الله وكافيك لدفع خداعهم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعاً ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعدما كان بين جماعة منهم أعني الأوس والخزرج من العداوة والضغينة والشر والفساد، كما ذكرنا في سورة آل عمران في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني كانت العداوة بينهم بمرتبة لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض جميعاً من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته البالغة فإن القلوب كلها بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ تام القدرة والغلبة لا يمكن تخلف مراده ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٨، وأحمد في المسند ٥/ ٦٣.

مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أكثر المفسرين: محله الجر عطف على الكاف على مذهب الكوفيين أو النصب على أنه المفعول معه كقول الشاعر(١):

حسبك والضحاك سيف مهند

والمعنى حسبك وحسب من اتبعك الله وهذا بعيد لفظاً قريب معنى، وقال بعض المفسرين محله الرفع عطفاً على اسم الله تعالى يعني حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين، وهذا قريب لفظاً بعيد معنى، لكن يؤيده ما رواه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد قال: لما أسلم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت هذه الآية وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما أسلم عمر أنزل الله في إسلامه ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية، وأخرج الطبراني وغيره من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أسلم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسع وثلاثون رجلاً وامرأة ثم إن عُمر أسلم فصاروا أربعين فنزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ﴾ الآية.

وروى البزار بسند ضعيف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم وأنزل الله هذه الآية، هذه الأحاديث تدل على أن الآية مكية وسياق الكلام يقتضي كونها مدنية فإن السورة نزلت بعد غزوة بدر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي: بالغ في حثهم عليه وأصل الحرض أن ينهكه المرض حتى يشرفه على الهلاك كان المبالغ في الحث على الأمر يجعل المأمور عاجزاً مضطراً إلى فعله كما يجعل المرض عاجزاً مضطراً إلى الهلاك ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجلاً ﴿صَٰبِرُونَ﴾ على القتال محتسبون ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ من عدوهم ويقهروهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ قرأ أبو عمرو والكوفيون بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية ﴿مِّا۟ئَةٌ﴾ صابرة محتسبة ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ يعني أن المشركين يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب جاهلين بالله واليوم الآخر فلا يثبتون إذا صبرتم على

---

(١) يروى البيت بتمامه:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا ... فحسبك والضحاك سيفٌ مهنّدُ

والبيت من الطويل، وهو لجرير في ذيل الأمالي ص١٤٠، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٧/ ٥٨١، ومغني اللبيب ٢/ ٥٦٣.

القتال لطلب الثواب والدرجات العلى فإنهم يخافون الموت، وهذا خبرٌ بمعنى الأمر بمصابرة الواحد في مقابلة العشرة ووعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأييده وكان هذا يوم بدر فرض الله تعالى على رجل واحد قتال عشرة من الكفار، أخرج إسحاق ابن راهوية في مسنده عن ابن عباس قال لما افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرة ثقل ذلك عليهم وشق فوضع الله عنهم وأنزل ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ في البدن وقيل: في البصيرة وكانوا متفاوتين فيها قرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد والباقون بالضم وهما لغتان، وقرأ أبو جعفر ضعفاء بفتح العين والمد والباقون بسكون العين ﴿فَإِن يَكُن﴾ قرأ الكوفيون بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية ﴿مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ صابرة ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بإرادته فرد الأمر من العشرة إلى اثنين فإن كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم الفرار، وقال سفيان قال: شبرمة وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا، قيل: كان فيهم قلة فأمروا بقتال واحد مع العشرة ثم لما كثروا خفف الله عنهم وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون ولم لا يصبرون، روى أحمد عن أنس وابن مردويه عن أبي هريرة وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن المنذر والطبراني وغيرهم عن ابن مسعود، وابن مردويه عن ابن عباس وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عمر أنه لما كان يوم بدر جيء بالأسرى وفيهم العباس رضي الله عنه أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم أنم الليلة من أجل عمي العباس وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر رضي الله عنه: فأتيتهم قال: نعم، فأتى الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس فقالوا: والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فكان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضاً، قالوا: فإن كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضاً فخذوه فأخذه عُمر فلما صار عباس في يده قال له: يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعجبه إسلامك.

وروى البخاري والبيهقي عن أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه؟ قال: «لا والله لا تذرن درهماً» فاستشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى إن الله قد مكنكم منهم وإنما هم إخوانكم؟» فقال أبو بكر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم هؤلاء بنو العم والعشيرة والأخوان استبقهم وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لما على الكفار وعسى أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تقول يا ابن الخطاب؟» قال: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك

وقاتلوك ما رأى ما أرى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البيت فقال: ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج فقال: «إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة. مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ابن مريم إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبرائيل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [الأنبياء: ٨٩] ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] لو اتفقتما ما خالفتكما أنتم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء وبضرب عنق، فقال: عبد الله بن مسعود: يا رسول الله إلا سهل ابن بيضاء فإنه سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فما رأيتني في يوم أخاف أن يقع على الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إلا سهل ابن بيضاء»، فلما كان الغد غدا عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله ما يبكيكما فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن كان يصبنا في خلاف ابن الخطاب عذاب أليم ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ﴾[1] قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية ﴿لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾[2] كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو جعفر أسارى ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يكثر القتل ويوهن الكفار ويذل الكفر من أثخنه المرض أثقله فالمفعول محذوف أي: يثخن

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٨٣.

(٢) قال القاضي أبو الفضل العياض رحمه الله في الشفا ليس في قوله تعالى ما كان للنبي ان يكون له أسرى إلا الزام ذنب النبي ﷺ بل فيه بيان ما خص به وفضل من سائر الأنبياء فكان هذا النبي كما قال رسول الله ﷺ أحلت لي الغنائم ولم يحل لنبي قبلي قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله خطاب لمن أراد ذلك منهم وتجرد غرضه الغرض الحياة الدنيا ولاستكثاره وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا عامة أصحابه بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلم وجمع الغنائم عن القتل حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو.

الأسرى في الأرض قال: في القاموس أثخن فلاناً أي أوهنه وأثخن في العدو وأي: بالغ بالجراحة فيهم ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذ الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ لكم ثواب ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ بقتل المشركين ونصركم دين الله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن عباس كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذٍ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم نسخ الله تعالى هذا الحكم بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فجعل لنبيه ﷺ والمؤمنين في أمر الأسارى خياراً إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا استعبدوهم وإن شاؤوا أفادوهم وإن شاؤوا أعتقوهم.

مسألة

أجمع العلماء على أنه يجوز للإمام في الأسارى القتل كما يدل عليه هذه الآية وكما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببني قريظة، وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صبر النضر بن الحارث وطعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط، قال: في سبيل الرشاد: قال عقبة بن أبي معيط يا محمد من للصبية قال: النار قتله ابن أبي الأفلح في قول ابن إسحاق وقال ابن هشام قتله علي بن أبي طالب.

مسألة

ويجوز استرقاق الأسارى أيضاً إجماعاً لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام، ومن هٰهنا قال أبو حنيفة: ليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه لأن الرأي فيه إلى الإمام ولكن لا يضمن بقتله شيئاً.

مسألة

واختلف العلماء في المنّ على الأسارى يعني: إطلاقهم إلى دار الحرب من غير شيء وفي الفداء بالمال وفي الفداء بأسير مسلم وفي تركهم ذمة لنا؟ فقال مالك والشافعي وأحمد والثوري وإسحاق وبه قال: الحسن وعطاء: يجوز المنّ والفداء بالمال وبالأسارى، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد والأوزاعي، وبه قال: قتادة والضحاك والسدي وابن جريج لا يجوز المنّ أصلاً وكذا الفداء بالمال لا يجوز على المشهور من مذهب أبي حنيفة وصاحبيه، وفي «السير الكبير» أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة.

وكذا المفاداة بالأسارى لا يجوز على رواية من أبي حنيفة وبه قال: صاحب القدوري والهداية، وأظهر الروايتين عنه ما قال: صاحباه: إنه يجوز المفاداة بالأسارى.

وأما تركهم أحراراً في دار الإسلام ذمة لنا فأجازه أبو حنيفة ومالك محتجين بما فعل عُمر بأهل العراق والشام، وقال الشافعي وأحمد لا يجوز ذلك لأنهم ملكوا، وجه قول أبي حنيفة في عدم المنّ والفداء أن ردّهم إلى دار الحرب إعانة للكفار فإنهم يعودون حرباً علينا فلا يجوز بالمال ولا بالأسير المسلم لأن الأسير المسلم إذا بقي في أيديهم كان في حقه ابتلاء من الله تعالى غير مضاف إلينا، والإعانة بدفع أسيرهم مضاف إلينا ووجه قوله

الجمهور قول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] قال: أبو حنيفة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وعند الجمهور قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] غير منسوخ لما ذكرنا من قول ابن عباس أنه لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ [محمد: ٤] الآية وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] المراد به غير الأسارى للإجماع على جواز استرقاقهم وقد قال: أبو حنيفة يجوز تركهم ذمة لنا.

أخرج مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين[1]، وأخرج أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن سلمة بن الأكوع قال: غزونا فزارة مع أبي بكر أمره علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرَسْنَا ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه، فانظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري فخشيت أن. . . يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم معها ابنة لها من أحسن العرب فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر فنفلني ابنتها فقدمنا المدينة ما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السوق فقال: «يا سلمة هب لي المرأة» فقلت: يا رسول الله قد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً، فسكت حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السوق فقال: «يا سلمة هب المرأة لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسول الله والله ما كشفت لها ثوباً فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة[2]، وروى ابن إسحاق بسنده وأبو داود من طريقه إلى عائشة قالت: لما بعث أهل مكة فداء أساراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا الذي لها فافعلوا»[3] ففعلوا ورواه الحاكم وصححه وزاد وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذ عليها أن يخلي زينب إليه ففعل.

وذكر ابن إسحاق أن ممن منَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المطلب بن حنطب أسره أبو أيوب الأنصاري فخلى سبيله، وأبو عزة الجمحي كان محتاجاً ذا بنات، فكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن عليه وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند ٤/٤٢٦، ٤٣٢.
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٤٦، وأبو داود في الجهاد باب ١٢٤، وابن ماجه في الجهاد باب ٣٢.
(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٢١، وأحمد في المسند ٦/٢٧٦.

وامتدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأبيات ثم قدم مع المشركين في أُحد فأسر فقال يا رسول الله أقلني فقال عليه السلام: «لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين» ثم أمر بضرب عنقه[١]، وذكر في سبيل الرشاد جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فداء الرجل أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف ومنهم من منَّ عليه لأنه لا مال له، وفي صحيح البخاري قوله صلى الله عليه وآله وسلم في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء لتركتهم له»[٢] وعن أبي هريرة قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيلاً قبل يمامة فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه في سارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم علي شاكر وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فتركه، حتى كان الغد ثم قال له «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: كما قال: بالأمس فتركه، حتى كان بعد الغد فقال «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك، قال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك. . . فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الأديان إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك فأصبح بلدك أحبُّ البلاد إليَّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت قال: لا ولكني أسلمت مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٣] والله أعلم.

روى أحمد عن أنس حال استشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس في الأسارى يوم بدر فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أضرب أعناقهم فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: ترى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفى عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني أنه لا يضل أي لا ينسب إلى الضلال ولا يعذبهم قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يأخذ قوماً فعلوا شيئاً قبل النهي، كذا قال: الحسن ومجاهد وسعيد بن جُبير في تفسير الآية، وأخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لم يحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن يحل لهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٨] يعني قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ أنه يحل لكم الغنائم كذا قال ابن عباس،

---

(١) أخرجه ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٥٣٠، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٦٥.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ١٢.
(٣) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٧٦، والخصومات باب ٧، وأبو داود في الجهاد باب ١١٤.

وقيل: معناه لولا حكم من الله سبق في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده وكان هذا اجتهاداً منهم بأن نظروا في استبقائهم ربما كان سبباً لإسلامهم كما وجد من كثير منهم وأن فدائهم يتقووا به على الجهاد وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم، وقيل: معناه لولا كتاب في اللوح المحفوظ أنه لا يعذب أهل بدر[١] ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنا ولكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء بالاجتهاد وقبل أن تؤمروا به ومن الغنائم ثم قبل أن يحل[٢] لكم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال ابن إسحاق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتل الأسارى وسعيد بن معاذ قال: يا نبي الله كان الإثخان في القتل أحبُّ إليَّ من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ»[٣] وروى ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه والنسائي وابن سعد وابن جرير وابن حبان والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال: جاء جبرائيل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد إن الله تعالى قد كره ما صنع قومك في أخذهم[٤] فداء الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين إما أن يقدموا فيضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا منهم الفداء على أن يقتل منهم عدتهم فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس فذكرهم ذلك، فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا نأخذ منهم الفداء فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس ذلك ما نكره[٥]، قال البغوي: روي أنه لما

---

(١) وقيل معنى الآية لولا إيمانكم بالقرآن وهو الكتاب السابق فاستوجبتم به الصفح لعوقبتم ويزاد تفسير أو بياناً بأن يقال لولا ما كنتم مؤمنين بالقرآن ولولا كنتم ممن أحلت لهم الغنائم لعوقبتم كما عوقب من بعدي قيل فهذه التأويلات كلها ينفي المعصية لأنه من فعل ما أحل له لم يعص الله.

(٢) قال القاضي بكر بن العلا أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتبه له من إحلال الغنائم والفداء وقد كان قبل هذا أفادوا في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم ابن كهنان وصاحبه فما عتب الله ذلك عليهم وذلك قبل بدر بأزيد من عام فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسرى كان على تأويل وبصيرة على ما تقدم قبل مثله فلم ينكره الله عليهم لكن الله تعالى أراد لعظم أمرهم وكثرة أسراهم والله أعلم إظهار نعمته وتأكيد منه بتقريعهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من جل ذلك لهم لا على وجه إنكار وعتاب وتذنيب هذا معنى كلامه كذا في الشفاء.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٠٣، والقرطبي في تفسيره ٨/٤٧، والطبري في تفسيره ١٠/٣٤.

(٤) قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم لكن بعضهم مال إلى ضعف الوجهين مما كان الأصح غيره من الإثخان والقتل فعوتبوا على ذلك يعني ترك الأولى وبين لم ضعف أحسارهم وتصويب أحسار غيرهم وكلهم غير عصاة وإلى نحو هذا أشار الطبري وقوله عليه السلام في هذه القصة لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر إشارة إلى هذا من تصويب رأيه ورأي من مثله يعني هذه القصة أوجبت عذاباً نجا منه عمر ومثله وعنى عمرلأنه أول من أشار بقتلهم ولكن لا يقدر عليهم في ذلك عذاباً بحله لهم فيما سبق قال الداودي والخير بهذه ألا يثبت لما جاز أن يظن أن النبي ﷺ حكم مما لا نص فيه ولا جعل الأمر لله وقد نزهه الله عن ذلك هذا الحديث دليل على نافلة.

(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

نزلت الآية السابقة كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزل ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الفاء للتسبيب والسببُ محذوف تقديره أبحت لكم الغنائم فكلوا ﴿حَلَٰلًا﴾ حالٌ من المغنوم أو وصفة للمصدر رأي أكلاً حلالاً وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب المعاتبة ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم من الفداء والمغنم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضلت على الأنبياء بست» وذكر فيه: «وأحلت لي الغنائم»[(١)].

رواه الترمذي عن أبي هريرة، وروى الطبراني بسند صحيح عن السائب بن يزيد: «فضلت على الأنبياء بخمس» وفيه: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» والبيهقي عن أبي أمامة بسند صحيح نحوه غير أنه قال: «فضلت بأربع» والطبراني عن أبي الدرداء نحوه، وروى البغوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم تحل الغنائم لأحد قبلنا وذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»، وقال البغوي: روينا عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» والله أعلم.

ذكر البغوي أن العباس بن عبد المطلب أسر يوم بدر وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر فكان يوم بدر نوبته وكان خرج بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا وبقيت العشرين أوقية معه فأخذت معه في الحرب فكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى وقال: أما شيء خرجت به تستعين فلا أتركه لك، وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال العباس: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله والفضل وقثم يعني بنيه الأربعة، فقال له العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي، فقال العباس: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك عبده ورسوله ولم يطلع عليه أحد إلا الله.

وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي وأبو نعيم وإسحاق بن راهويه والطبراني وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس وابن إسحاق وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسر يوم بدر سبعين من قريش منهم العباس وعقيل فجعل عليهم الفداء أربعين أوقية من الذهب، وروى البيهقي عن إسماعيل بن عبد الرحمٰن قال: كان فداء العباس وعقيل ونوفل وأخيه أربعمائة دينار، قال ابن إسحاق: وكان أكثر الأسارى فداء يوم بدر فداء العباس نفسه بمائة أوقية من ذهب، وروى أبو داود عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة وادعى العباس رضي الله عنه أنه لا مال عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فأين المال الذي دفعته أنت أم

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

الفضل وقلت لها إن أصبت في سفري هذا فهذا لبني الفضل وعبد الله والقثم» فقال: والله لأعلم أنك لرسول الله إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل والله أعلم.

وقال سعيد بن جبير: وجعل على العباس مائة أوقية وقالوا: أربعين وعلى عقيل ثمانين أوقية فقال العباس: لقد تركتني أفقر قريش ما بقيت فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الآية، وذكر محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد أنه قال: جماعة من الأسارى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم العباس رضي الله عنه إنا كنا مسلمين وإنما خرجنا كرهاً فعلام يؤخذ منا الفداء فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء بأن يضعفه لكم في الدنيا ويثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

روى الطبراني في «**الأوسط**» عن ابن عباس قال: قال العباس: والله نزلت حين أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي وجدت معي فأعطاني بها عشرين عبداً كلهم تاجر بمالي في يده مع ما أرجو من مغفرة الله، وذكر البغوي قول العباس إنه أبدلني الله عنها عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي، وذكر في سبيل الرشاد قول العباس حين أنزلت لوددت أنك كنت أخذت مني أضعافها فأتاني الله خيراً منها أربعين عبداً كل في يده مال يضرب به وإني أرجو من الله المغفرة والله أعلم.

روى البخاري وابن سعد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتي بمال من البحرين فقال: «انثروه في المسجد» إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله أعطني إني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال: «خذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: مر بعضهم يرفعه إليّ قال: لا... قال: «فارفعه أنت» قال: لا فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق وهو يقول: إنما أخذ ما وعد الله فقد أنجز فما زال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه فما قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثم منها درهم[(١)].

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ يعني نقض ما عهدوك عند انفكاكهم من الأسر بالافتداء أو بغيره ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ هذا بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بقوله: ألست ربكم أو بالعقل ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ يعني فأمكنك منهم يوم بدر جزاء الشرط محذوف أقيم دليله مقامه تقديره إن يريدوا خيانتك يعود عليهم وباله بدليل أنهم قد خانوا من قبل فأمكنك فإن عادوا فسنمكنك منهم مرة أخرى، كما ذكرنا عن ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وآله وسلم منّ على

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٤٢، والجزية باب ٤.

أبي غزة الجمحي يوم بدر بلا فداء وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدا فقام مع المشركين يوم أحد فاسر فقتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صبراً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في صدورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ قومهم وديارهم حباً لله ورسوله يعني الذين هاجروا من مكة ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فصرفوها في السلاح والكراع وأنفقوها في المحاويج ﴿وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمباشرة القتال وإتيان كل ما أمر الله به من العبادات البدنية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المهاجرين في ديارهم بالمدينة ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أعداء الله يعني الأنصار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ دون أقربائهم من الكفار يجوز للمؤمنين موالاة الكفار ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ولا مناصرتهم.

وقال ابن عباس هذا في الميراث كانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون يتوارثون دون ذوي الأرحام وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى فتحت مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا صار ذلك منسوخاً بقوله عز وجل ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٧٥]، قلت: وعندي إن هذه الآية غير منسوخة إن كان المراد به الميراث أيضاً فإنه متى أمكن الجمع بين الآيتين لا يجوز القول بنسخ إحداهما، ومعنى قول ابن عباس كان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام إن ذوي الأرحام الكفار لا يرثون من المهاجرين لاختلاف الدينين وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر لاختلاف الدارين حتى فتحت مكة وصارت دار إسلام انقطعت الهجرة وأسلم أهل مكة كلهم توارثوا بالأرحام، وكان وجه أخذ الأنصاري ميراث المهاجر عقد الموالاة، وذلك[١] سبب للإرث عند أبي حنيفة رحمه الله إذا لم يكن للميت وارث من النسب أو السبب بلا مانع من الإرث غير منسوخ، وأما أخذ المهاجر ميراث الأنصاري أو الأنصاري ميراث المهاجر مع وجود قريب الميت مؤمناً بالمدينة فلم يثبت ولا دلالة في الآية عليه فلا يجوز القول بكون الآية منسوخة والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ قرأ حمزة بكسر الواو تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكتابة والرياسة كان بتولية صاحبه يزاول عملاً والباقون بفتح الواو ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ نفي لولايته من لم يهاجر من المؤمنين بمعنى النهي لأجل فسقهم بترك فريضة الهجرة ومنه يظهر أنه يكره للمؤمن ولاية المؤمن الفاسق ما لم يتب، وإن كان المراد بالولاية الميراث فالآية حجة على كون اختلاف الدارين مانعاً من الميراث ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ يعني المؤمنين الذين لم يهاجروا استنصروكم ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ على أعدائهم من أهل الحرب

---

(١) فائدة لا يجوز لأحد تولية نفسه وإن يزعم لزوم فسق منه ومع هذا لا يجوز ولاية الفساق فالعدل للولاية أفضل من نفسه وصالحي المؤمنين.

﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم عليهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ فإنه لا يجوز نقض العهد، ولهذا لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا جندل وقصته في سورة الفتح ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تحذير عن تعدي حدود الشرع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ والمقصود منه أنه لا يجوز للمؤمنين موالاة الكفار ولا مناصرتهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»[1] رواه الشيخان في «**الصحيحين**» وأصحاب السنن الأربعة من حديث أسامة بن زيد، وقد ذكرنا المسألة في سورة النساء وفي تفسير آية الميراث.

مسألة

ذكر في «**المبسوط**» أنه لو أغار قوم من أهل الحرب على أهل الدار من الكفار التي فيها المؤمن من المستأمن من لا يحل له قتال هؤلاء الكفار إلا إن خاف على نفسه، لأن القتال لما كان تعريضاً لنفسه على الهلاك لا يحل إلا لإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دينه أو لدفع الضرر عن نفسه وهو إذا لم يخف على نفسه فقتاله لا يكون إلا لأهل الدار من الكفار لإعلاء كلمتهم وذاك يجوز.

مسألة

لو أغار أهل الحرب الذين فيهم مسلمون مستأمنون على طائفة من المسلمين فأسروا ذراريهم فمروا بهم على أولئك المستأمنين وجب عليهم أن يقاتلوهم ويخلصوا المؤمنين من أيديهم لأنهم لا يملكون رقابهم، فتقريرهم في أيديهم تقرير على الظلم ولم يضمنوا ذلك بخلاف الأموال لأنهم ملكوها بالإحراز عند أبي حنيفة وقد ضمنوا لهم أن لا يتعرضوا أموالهم وكذلك لو كان المأخوذ ذراري الخوارج لأنهم مسلمون ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ يعني أن لا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم والتناصر وقطع العلايق بينكم وبين الكفار حتى قطع التوارث ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يحصل فتنة عظيمة وهي ظهر الكفر ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ يعني ضعف الإسلام بترك الجهاد واختلاط المسلمين بالكفار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الكاملون في الإيمان الصادقون في ادعائهم إسلامهم ﴿حَقّٗاۚ﴾ حق ذلك الأمر حقاً لأنهم حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضياته من الهجرة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله ونصرة الحق بخلاف من آمن ولم يهاجر ولم يجاهد فإنه وإن صح عليه إطلاق المؤمن حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] لكنهم ليسوا كاملين في الإيمان ولم يتحقق صدقهم ويحتمل نفاتهم ولا تكرار لأن الآية الأولى للأمر بالتواصل، وهذه الآية واردة للثناء عليهم والوعد لهم بقوله ﴿لَهُم

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٤، والمغازي باب ٤٨، والفرائض باب ٢٦، ومسلم في الفرائض حديث ١، وأبو داود في الفرائض باب ١٠، والترمذي في الفرائض باب ١٥، وابن ماجه في الفرائض باب ٦، والدارمي في الفرائض باب ٢٩، ومالك في الفرائض حديث ١٠، وأحمد في المسند ٢٠٠، ٢٠٨.

﴿مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام يهدم ما كان قبله والهجرة تهدم ما كان قبلها»[١] وقد مر من حديث عمرو بن العاص، واعلم أنه كان بعض المهاجرين أهل الهجرة الأولى، وهم الذين هاجروا قبل الحديبية ومنهم من كان ذا الهجرتين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة منهم عثمان وجعفر الطيار وغيرهم.

وكان بعضهم أهل الهجرة الثانية وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة، والمراد بالآية الأولى أهل الهجرة الأولى لفضلهم ثم ألحق بهم أهل الهجرة الثانية فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي بعد صلح الحديبية ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ وكذا من أن يتسم بسمتهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ أيها المهاجرون الأولون والأنصار يعني من جملتكم ومن جنسكم يتولى بعضكم بعضاً ويرث بعضكم بعضاً ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ من المؤمنين ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ من الأجانب في التوارث وصلة الرحم وهذا لا ينافي ما سبق والمعنى أن المؤمن إن كان له ذا رحم فهو أولى به من سائر المؤمنين في التوارث فإن كان له ذا رحم الذين ذكر الله تعالى في سورة النساء فهو أولى من غيره يعطي له الميراث على ما أوصله الله تعالى في كتابه وإن لم يكن منهم أحد وكان ذو رحم من غيرهم فهو أولى من الأجانب بهذه الآية.

وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخال وارث من لا وارث له»[٢] وقد ذكرنا الحديث في سورة النساء فهذه الآية حجة على الشافعي حيث قال: يوضع ماله في بيت المال إن لم يكن للميت ذا فرض ولا عصبة ولا يرث غيرهم من ذوي الأرحام وقدم المسألة في سورة النساء، والمؤمن إن لم يكن له أحد من أولي الأرحام مؤمناً فأوليائه جماعة المؤمنين بما سبق من الآية الأولى فيوضع ماله في بيت المال لجماعة المسلمين، ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ يعني في حكم الله وقيمته أو في اللوح المحفوظ ﴿ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ ومنها المواريث والحكمة في إناطتها بالقرابة والإسلام والنكاح والولاء والله أعلم.

تم تفسير سورة الأنفال من التفسير المظهري ويتلوه
إن شاء الله تعالى تفسير سورة التوبة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الفرائض باب ٨، والترمذي في الفرائض باب ١٢، وابن ماجه في الديات باب ٧، والفرائض باب ٩، والدارمي في الفرائض باب ٣٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٨، ٤٦، ٤/ ١٣١.

سورة التوبة

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية أو مائة وثلاثون آية

عن أبي عطية[١] الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور قلت: لأن في البراءة الحث على الجهاد وفي النور الحث على الحجاب.

وعن[٢] عثمان بن عفان قال: كانت البراءة والأنفال تدعيان في زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جمعتهما في السبع الطوال.

ولها أسماء سميت براءة لأنها براءة عن الكافرين وسورة التوبة لأن فيها توبة على المؤمنين والمقشقشة، أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر لأنها تقشقش أي تبرأ من النفاق، والمبعثرة أخرجه ابن المنذر عن محمد بن إسحاق لما كشفت عن سرائر الناس والبحوث أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أبي رشد الحراني عن المقداد بن الأسود، والمثيرة أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن أبي حاتم عن قتادة لأنها تبعثر النفاق وتبحث عنها وتثيرها وتظهر عوراتهم وتخفر عنها والمنكلة والمدمدمة وسورة العذاب، أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه قال: التي تسمونها سورة التوبة هي سورة العذاب والله ما تركت أحداً إلا نالت فيه، وأخرج سورة العذاب أيضاً أبو عوانة وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس عن عمر والفاضحة لكونها فاضحة للمنافقين.

قال البغوي قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس سورة التوبة قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل وتنبئهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكرها فيها قال: قلت: سورة الأنفال قال: تلك سورة بدر، قال: قلت سورة الحشر قال: قل سورة النضير.

وفي وجه ترك البسملة عنها روى البغوي: بسنده وأحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه والترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قلت لعثمان رضي الله عنه ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمٰن الرحيم وضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فإذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتب عنده فيقول: «ضعوا

---

(١) عن ابن عطية للهمداني قال كتب عمر بن الخطاب تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة لأن في البراءة الحث على الجهاد وفي النور الحث على الحجاب.

(٢) وعن عثمان بن عفان قال كانت البراءة والأنفال تدعيان في زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جمعتهما في السبع الطوال.

هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا»[1] وكانت الأنفال مما نزلت بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزلت، وفي لفظ وكانت الأنفال من أوائل ما نزلت بالمدينة وكانت البراءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لها أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب سطر بسم الله الرحمٰن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال.

وقيل: وجه ترك البسملة أنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله الرحمٰن الرحيم أمان كذا أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت علي بن أبي طالب رضي الله عنه لِمَ لم يكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم في براءة؟ قال: لأن بسم الله الرحمٰن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف.

وقيل: اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت في القتال ويعد السابعة من الطوال وهي سبع، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان وتركت بسم الله الرحمٰن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

قال البغوي: قال: المفسرون لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجعون الأراجيف يعني يقولون أقوالاً يضطرب بها المسلمون اضطراباً شديداً وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، قلت: وذلك لزعمهم أن المسلمين لا يقاومون قتال قيصر ملك الشام فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بنقض عهودهم فقال:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٢٢، والترمذي في تفسير سورة ٩، باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٥٧، ٦٩.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[(١)] قال الزجاج: يعني قد برىء الله ورسوله إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نكثوا فقوله براءة حبر مبتدأ محذوف أي هذه براءة، وهي ضد المعاهدة وهي مصدر كالنشاءة والدناءة، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصلة من الله ورسوله ويجوز أن يكون براءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها خبره ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ أي عاهدتموهم أيها الرسول والمؤمنون ﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بيان للموصول علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالرسول والمؤمنين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهودهم ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. فيه التفات حيث خاطب المشركين بعد ما ذكرهم على الغيبته أو المعنى فقل لهم سيحوا أي: سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين والسياحة السير على مهل ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي: غير فائتين ولا سابقين وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي مذلهم بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

قال الزهري الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأن الآية نزلت في شوال وقال أكثر المفسرين ابتدائها يوم الحج الأكبر وانقضائها إلى عشر من شهر ربيع الآخر لقوله تعالى ﴿وَأَذَٰنٞ﴾ أي: إعلام فعال بمعنى الأفعال كالأمان والعطاء ومنه الأذان للصلاة يقال أذنته فأذن أي: أعلمته فعلم، وأصله من الأذن أي أوقعت في أذنه، ورفعه كرفع براءة على الوجهين ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾[(٢)].

قال البغوي: روى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة، قال وروي ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عمر وابن الزبير[(٣)] رضي الله عنهم وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن

---

(١) وقرىء رسوله بالجر للجوار عن ابن أبي مليكة قال قدم إعرابي في زمان عمر بن الخطاب فقال من يقرأني ما أنزل الله على محمد فأقرأه براءة فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله بالجر فقال الأعرابي لقد برئ الله من رسوله إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه فتبع عمر مقالة الأعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ قال يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني فأقرأني هذه السورة براءة فقال الله بريء من المشركين ورسوله وقال الأعرابي وأنا والله أبرأ مما بريء الله منه فأمر عمر بن الخطاب أن لا يقرأ الناس إلا عالم باللغة وأمر الأسود فوضع النحو.

(٢) وعن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال ذاك عام حج فيه أبو بكر استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج بالناس واجتمع فيه المسلمون والمشركون فلذلك سمي الحج الأكبر ووافق عيد اليهود والنصارى.

(٣) عن الشعبي أن أبا ذر والزبير بن العوام سمع أحدهما من النبي ﷺ أنه قرأها يوم الجمعة على المنبر فقال لصاحبه متى انزلت هذه الآية فلما قضى صلاته قال له عمر بن الخطاب لا جمعة لك فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك فقال صدق عمر.

المسيب، قلت: ومستند هذا القول قوله ﷺ: «الحج عرفة»[١] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الرحمٰن بن معمر، وأخرج ابن أبي حاتم عن مسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال يوم عرفة: «وهذا يوم الحج الأكبر»[٢].

قال البغوي قال: جماعة: هو يوم النحر، روي عن يحيى بن الخراز قال: خرج علي رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجُبانة فجاء رجل أخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال: يومك هذا خل سبيلها، أخرج الترمذي عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر؟[٣] قال:[٤] ويروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبي وسعيد بن جبير والسدي، قلت: وأخرج أبو داود والحاكم وصححه من حديث ابن عمر أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[٥] قال البغوي: وروى ابن جريح عن مجاهد يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها، وكان سفيان الثوري يقول: يوم الحج الأكبر أيام منى كلها مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث يراد به الحين والزمان فإن هذه الحروب دامت أياماً كثيرة ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة يسمى بالحج الأصغر كذا قال: الزهري والشعبي وعطاء والله أعلم.

قالوا: هذه الآية تدل على أن ابتداء الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر، قلت: ليس في آية الأذان يوم الحج الأكبر التقييد بأربعة أشهر حتى يدل على أن ابتداء الأشهر من ذلك اليوم بل قال الله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ * أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بأن الله ﴿بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ قرأ يعقوب رسوله بالنصب عطفاً على اسم أن أو لأن الواو بمعنى مع، والباقون بالرفع عطفاً على المستكن في بريء أو على الابتداء والخبر محذوف أي: ورسوله بريء وهذا تعميم بعد تخصيص فإن الآية الأولى فيها براءة مختصة بالذين عوهدوا والمراد به الناكثين منهم بدليل الاستثناء الآتي.

وفي هذه الآية براءة عامة إلى المشركين أجمعين عاهدوا ثم نكثوا أو لم يعاهدوا منهم ولذا قال: إلى الناس فلا تكرار غير أن الذين عاهدوا لم ينكثوا خارجون عن هذه البراءة أيضاً لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٤] وليس في هذه الآية الأمر بالسياحة أربعة أشهر حتى يلزم اعتبار ابتداء المدة من هذا اليوم، وعندي أن قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ و﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ﴾ وإن كانت نازلة في المشركين الموجودين في ذلك الوقت الناكثين

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٦٨، والترمذي في تفسير سورة ٢، باب ٢٢، وابن ماجه في المناسك باب ٥٧.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/٢١٢.

(٣) قال يوم النحر وله شاهد عن ابن عمر عند ابن جرير.

(٤) أخرجه الترمذي حديث ٣٥٧، ٧٧٣، ٣٠٨٨.

(٥) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٦٧.

عهودهم في غزوة تبوك وغير المعاهدين منهم لكن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص المورد فالآية محكمة ناطقة لوجوب قتال الناكثين وغير المعاهدين أبداً فالمراد بقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أربعة أشهر من كل سنة وهي الأشهر الحرم بدليل قوله تعالى ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: ٥] الآية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن قيل: قال: قوم القتال في الأشهر الحرم كان كبيراً ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] كأنه يقول فيهن وفي غيرهن، وهو قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري وقالوا لأن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف وحاصر في شوال وبعض ذي القعدة.

قلنا: هذا القول عندي غير صحيح لأن قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] من تتمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ولا بد في الناسخ من التراخي والقول بالتخصيص ههنا غير متصور، والقول بأن معنى قوله تعالى: قاتلوا المشركين كافة فيهن وفي غيرهن باطل لأنه يدل على تعميم الإفراد دون تعميم الزمان وحصاره ﷺ الطائف في بعض ذي القعدة ثابت بأحاديث الآحاد ولا يجوز نسخ الكتاب بها كيف وسورة التوبة نزلت بعد غزوة الطائف، وقد قال رسول الله ﷺ في خطبة يوم النحر في حجة الوداع قبل وفاته بثمانين يوماً: «إن الزمان استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»(١) الحديث رواه الشيخان في الصحيحين من حديث أبي بكرة، ويحتمل أن يكون جواز حصار الطائف في ذي القعدة مختصاً بالنبي ﷺ أبيح له القتال فيها كما أبيح له القتال في الحرم قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار»(٢) الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس، وفي الصحيحين من حديث أبي شريح العدوي: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فيها فقولوا له إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة باب ٩، وبدء الخلق باب ٢، والمغازي باب ٧٧، والأضاحي باب ٥، والتوحيد باب ٢٤، ومسلم في القسامة حديث ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الحج باب ١٣٢، ومسلم في الحج حديث ٤٤٥، ٤٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في العلم باب ٣٧، والصيد باب ٨، والمغازي باب ٥١، ومسلم في الحج حديث ٤٤٦.

قصة: لما نزلت هذه في شوال سنة تسع بعث رسول الله ﷺ علياً ليقرأها على الناس في الموسم، روى النسائي عن جابر أنه ﷺ بعث أبا بكر على الحج فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب بالصبح فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره ووقف عن التكبير، فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء لقد بد الرسول الله ﷺ في الحج فلعله أن يكون رسول الله ﷺ فنصلي معه فإذا علي عليها، فقال: له أبو بكر أمير أم رسول؟ قال: لا بل رسول أرسلني رسول الله ﷺ ببراءة أقرأها على الناس في مواقف الحج فقدمنا مكة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم عن مناسكهم حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها ثم خرجنا معه حتى إذا كان يوم عرفة قام أبو بكر فخطب الناس فعلمهم مناسكهم حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، ثم كان يوم النحر فأفضنا فلما رجع أبو بكر خطب الناس فحدثهم عن إفاضتهم وعن نحرهم وعن مناسكهم فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم كيف ينفرون وكيف يرمون يعلمهم مناسكهم فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها(١). قال البغوي: بعث أبا بكر(٢) تلك السنة أميراً على الموسم ثم بعث بعده علياً على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر سورة براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفات أن قد برءت ذمة الله وذمة رسوله من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء قال: لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على حوضي قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج وعلي رضي الله عنه ليؤذن براءة فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وورثهم عن مناسكهم وأقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمر وقرأ عليهم سورة براءة.

وقال زيد بن تبغ سألنا علياً بأي شيء أبعثت في الحجة؟ قال: بعثت بأربع(٣) لا

---

(١) أخرجه النسائي في الحج باب ١٨٧، والدارمي في المناسك باب ٧١.

(٢) عن عروة قال بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الناس سنة تسع وكتب سنن الحج وبعث معه علي بن أبي طالب بآيات من براءة فأمره أن يؤذن بمكة وبمنى وبعرفات في الناس كلاماً بأن بريت ذمة الله وذمة رسوله من كل مشرك حج بعد العام أو طاف بالبيت عرياناً وأجل من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد أربعة أشهر وسار على راحلة والناس كلهم يقرأ عليهم القرآن براءة من الله ورسوله وقرأ عليهم يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وأخرج الترمذي عن أنس قال بعث النبي ﷺ ببراءة مع أبي ثم دعاه فقال لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي فدعا علياً فاعطاه إياها وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله بعث أبا بكر ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث علياً على إثره فأخذها منه وقال أبو بكر وجد في نفسه قال النبي ﷺ يا أبا بكر لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني.

(٣) أخرج الترمذي وحسنه الحاكم وصححه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادي =

يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

روى الشيخان في الصحيحين عن حميد بن عبد الرحمٰن عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذني يوم النحر يؤذن بمنى ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمٰن ثم أردف رسول الله ﷺ علياً فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان(١).

فائدة: هذه القصة صريح في أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر عن إمارة الحج وإنما بعث علياً ينادي بهذه الآيات، وكان السبب في هذا أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العقود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم أو رجل من رهط فبعث علياً إزاحة للعلة لئلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه، فينا في نقص العهود وهذا معنى قوله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي»(٢) أخرج هذا اللفظ أحمد والترمذي وحسنه من حديث أنس رضي الله عنه، وما ذكرنا من القصة بعضها في مسند أحمد وبعضها في الدلائل للبيهقي من حديث ابن عباس وبعضها في تفسير ابن مردويه من حديث أبي سعيد الخدري وغيره رضي الله عنهم ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ رجعتم من الكفر وأسلمتم ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ في الدنيا والآخرة من كل شيء ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن التوبة والإسلام ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً وتقديراً لكلام وإن توليتم يعذبكم الله في الدنيا والآخرة لأنكم غير معجزيه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا وبالنار في الآخرة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من عهدهم الذين عاهدتموهم عليه ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾ أي: لم يعاونوا ﴿عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ من أعدائكم، قال البغوي: هم بنو حمزة من بني كنانة وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وهم لم ينقضوا العهد ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ أي: إلى تمام مدتهم الذي عاهدتموهم عليه ولا تجروهم مجرى الناكثين ولا مجرى من لا عهد بينكم وبينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ إلخ استثناء من المشركين بمعنى الاستدراك كأنه قيل: إنما أمرتم بنبذ العهد إلى الناكثين أو بقتال من لا عهد بينكم وبينهم من المشركين لا

= بهؤلاء الكلمات ثم أتبعه علياً وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات فانطلق فحجا فقام علي في أيام التشريق فنادى إن الله بريء من المشركين ورسوله فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ولا يحجن بعد العام مشركاً ولا يطوف بالبيت عرياناً ولا يدخل الجنة إلا مؤمن فكان علي ينادي فإذا أعيى قام أبو بكر فنادى بها.

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٦٧، والجزية باب ١٦، والمغازي باب ٦٦، ونفسير سورة ٩، باب ٢، ٣، ومسلم في الحج حديث ٤٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٩، باب ٥، وأحمد في المسند ١/ ٣.

بقتال المعاهدين مدة معلومة أو مؤيدة غير ناكثين.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ أي: انقضى وأصل الانسلاخ خروج الشيء ما هو لابسه من سلخ الشاة ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ قال مجاهد وابن إسحاق هي شهور العهد فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء الحرم خمسين يوماً، وقيل لها حرم لأن الله حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم، فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحرم والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ﴾ قيل: لما كان هذا القدر متصلاً بما مضى أطلق عليه اسم الجميع ومعناه مضت المدة المعلومة المضروبة التي يكون مع انسلاخ الأشهر الحرم ولا يخفي ما فيه من التكلف والظاهر ما قلنا: إن المعنى إذا انسلخ الأشهر الحرم من كل سنة ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ غير من عوهدوا ولم ينقضوا ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ قال أكثر المفسرين في تفسيره في حل أو حرم وهذا يناقض قوله ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال لأحد قبلي ولا يحل لي إلا ساعة من النهار» وقوله ﷺ: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له إن الله قد أذن رسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس» والحديثان في «الصحيحين» وقد ذكرناهما من قبل، وقوله عليه السلام: «إلى يوم القيامة» يمنع كونه منسوخاً فالأولى أن يقال: عموم الأمكنة المفهوم من هذه الآية مخصوص بما سوى الحرم.

مسألة

القتال في الحرم والأشهر الحرام يحل إن بدأ المشركون بالقتال لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] الآية، وقد ذكرنا في سورة البقرة ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: أسروهم والأخيذ الأسير ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد إن تحصنوا فاحصروهم أي: امنعوهم من الخروج حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام أو قبول الجزية وقيل: امنعوهم دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ على كل طريق والمرصد الموضع الذي يرصد فيه العدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته يريد كونوا لهم رصداً لتأخذوهم من كل وجه توجهوا ولا تتركوهم ينبسطوا في البلاد ويدخلوا مكة ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني قبلوا أقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾، قال: الحسن بن فضيل هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم أحد مرفوع بفعل مضمر يفسره ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبره فيظهر له صدقك بإعجازه ويعلم ما له وما عليه من الثواب ومن العقاب ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: موضع أمنه ودار قومه إن لم يسلم فإن قاتلك بعد ذلك فقاتله واقتله إن قدرت عليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن أو الأمر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ الحق من الباطل فلا بد لهم من سماع

كلام الله تعالى حتى يعلموا قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ خبر يكون كيف وقدم للاستفهام أو المشركين أو عند الله وهو على الأولين صفة للعهد أو ظرف له أو ليكون وكيف على الآخرين حال من العهد وللمشركين إن لم يكن خبراً فتبين والاستفهام للإنكار والاستبعاد على وجه التعجيب، استبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع كمال عنادهم وفسقهم أو لأن يفي الله ورسوله عهدهم وهم ينكثون ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ محله النصب على الاستثناء أو الجر على البدل، وجاز أن يكون الاستثناء منقطعاً إن كان المراد بالمشركين الناكثين منهم أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ على العهد ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء وما يحتمل الشرطية والمصدرية قال ابن عباس: المراد بالذين عاهدتم عند المسجد الحرام قريش، وقال قتادة هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية، أمر الله رسوله بالتبرص في أمرهم إن استقاموا على العهد يستقام لهم على الوفاء فلم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة فغزا عليهم رسول الله ﷺ حتى فتح مكة ثم جعل لهم الأمان وضرب لهم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم ما شاؤوا إلا أن يسلموا وإما أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا وإن اسلموا قبل الأربعة الأشهر، وقال السدي والكلبي وابن إسحاق هم من قبائل بكر بنو خزيمة وبنو مدلج وهو ضمرة وبنو الديل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة، قال البغوي: هذا القول أقرب للصواب لأن هذه الآية نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة فكيف يقول بشيء قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم فإنما هم الذين قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ثم لم ينقضوكم شيئاً كما نقضكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بنو بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ والاستقامة على إيفاء العهد من التقوى.

﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاء حكم إيفاء عهدهم مع التنبيه على علة الاستبعاد وحذف الفعل للعلم به يعني كيف يكون لهم عهد وحالهم أنه ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي لا يحفظوا.

وقال الضحاك: لا ينظروا، وقال قطرب: لا يراعوا ﴿فِيكُمْ إِلًّا﴾ قال قتادة حلفاً، وقال ابن عباس والضحاك: قرابة، وقال يمان رحماً، وقال السدي: هو العهد وكذلك الذمة إلا أنه كرر لاختلاف اللفظين وقيل: ربوبية، قال البيضاوي: لعله اشتق للحلف من الأل وهو الجوار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا أصواتهم وشهروه ثم استعير للقرابة لأنها لعقد بين الأقارب ما لا يعقد الحلف للربوبيته والتربية وقيل اشتقاقة من آل الشيء إذا حدده أو آل البرق إذا لمع، وقال أبو مجيز ومجاهد: الآل هو الله لفظ عبري وكان عبيد بن عمير يقرأ جبرآل بالتشديد يعني عبد الله وفي الخبر أن ناساً قدموا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذاب فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرؤوا فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا

الكلام لم يخرج من آل يعني الله عز وجل، والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة لا يرقبون في مؤمن إلا يعني الله عز وجل مثل جبرائيل وميكائيل وفي القاموس الإل بالكسر العهد والحلف والجار والقرابة والأصل الجيد والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله تعالى وكل اسم آخره آل وإيل فمضاف إلى الله تعالى، والوحي والأمان والجزع عند المصيبة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يقولون أقوالاً موجبة مرضائكم نفاقاً وتقية من الوعد بالإيمان والطاعة ووفاء العهد ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما يتفوهون به ويستبطنون الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا خالفوا ما تفوهوا به، جملة يرضونكم مستأنفة لبيان أحوالهم المنافية لثباتهم على العهد المقتضية لعدم مراقبتهم عند الظفر، ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقبوا فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون المؤمنين ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ المراد بالفسق هٰهنا نقض العهد وكان بعض المشركين يوفون العهود ويستنكفون من نقضها ولذلك خصص الفسق بأكثرهم دون كلهم.

﴿اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضاً يسيراً من أعراض الدنيا قال البغوي: ذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلة أطعمهم أبو سفيان قال مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفاؤه ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ يعني منعوا الناس من الدخول في دين الله والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أداهم إلى الصد قال ابن عباس: وذلك أن أهل الطائف أمددهم بالأموال ليقووا على حرب رسول الله ﷺ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عملهم هذا وما دل عليه قوله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لقوله ما كانوا يعملون لا تكرير، وقيل: الأول عام في المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود والأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون عن الحد في الشرارة ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿فِى الدِّينِ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ الْـَٔايَٰتِ﴾ تنبيهاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين والتائبين قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة، وقال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له.

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب فقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ١، ٤٠، والاعتصام باب ٢، والمرتدين باب ٣، والنسائي في الجهاد باب ١، والتحريم باب ١، وأحمد في المسند ١/١٩، ٣٦، ٤٨، ٢/٥٢٩.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله»[(١)] رواه البخاري، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[(٢)] إلا أن مسلماً لم يذكر «وحسابهم على الله».

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ أي: نقضوا عهودهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ كما نكث كفار قريش ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ بالتكذيب وتقبيح الأحكام قال البغوي: هذا دليل على أن الذي إذا طعن في دين الإسلام ظاهر ألا يبقى له عهد، قلت: وهذا الاستدلال ضعيف فإن الشرط مجموع الأمرين نقض العهد والطعن في الدين فلا يترتب الحكم على أحدهما ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بهمزتين محققتين حيث وقع وفي رواية عن هشام أنه أدخل بينهما ألفاً والباقون بهمزة وياء مختلسة الكسرة من غير مد، وضع أئمة الكفر موضع الضمير والمعنى فقاتلوهم للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاً بالقتل وقيل: المراد بأئمة الكفر رؤوس المشركين وقادتهم وهم أهل مكة ووجه تخصيصهم بالذكر إما أن قتلهم أهم وهم أحق به أو للمنع عن مراقبتهم، قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمر وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش يومئذٍ الذين نقضوا العهد، وهم الذين هموا بإخراج أهلها بعد ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي: لا عهود لهم جمع يمين يعني لا يجب عليكم وفاء عهودهم بعدما نكثوا وقال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد وقرأ لا إيمان لهم بكسرة الهمزة أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم وقيل: هو من الأمان أي: لا تؤمنوهم بل اقتلوهم حيث وجدتموهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقاتلوا وجملة أنهم لا إيمان لهم معترضة بينهما أي: ليكن غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه من الشرك والمعاصي لإيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين ولا إحراز لمال والملك كما هو دأب السلاطين ثم حث المسلمين على القتال فقال:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٢٨، والنسائي في الإيمان باب ٩، ١٥.
(٢) تقدم الحديث مع تخريجه.

مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ
رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى
ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ يعني نقضوا عهودهم ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ قيل: المراد به اليهود وغيرهم من المنافقين وكفار المدينة نكثوا عهودهم حين خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك وهموا بإخراجه ﷺ من المدينة حيث قالوا: لعنهم الله ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾ [المنافقون: ٨] ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالمعاداة حيث عاونوا المشركين عليه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قبل أن يقاتلهم رسول الله ﷺ وهذا أظهر لأن السورة نزلت بعد غزوة تبوك وقد أسلم أهل مكة قبل ذلك، وأيضاً هموا بإخراج الرسول يدل على أنهم هموا بذلك ولم ينالوا به بخلاف أهل مكة فإنهم هموا قتله واضطروه إلى الخروج، فأخرجوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقال بعض المفسرين المراد بالذين نكثوا أيمانهم الذين نقضوا صلح الحديبية وأعانوا بني بكر على خزاعة وهموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة وهم بدؤوكم بالقتال أول مرة، لأنه ﷺ بدأ بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة حتى اجتمعوا في دار الندوة، وأجمعوا على قتله، أو لأن أبا جهل قال يوم بدر بعدما سلم العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه، أو لأنهم بدؤوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وهذا التأويل لا يتصور إلا إذا كان نزول هذه الآيات قبل فتح مكة وحينئذٍ يستقيم ما قال ابن عباس: أن قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ [التوبة: ١٢] ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢] نزلت في أبي سفيان وغيره المذكورين من قبل وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾ [التوبة: ٧] المراد به أمر الله رسوله بالتربص في أمرهم إن استقاموا على العهد يستقام لهم لكنهم لم يستقيموا والله أعلم ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم استفهام للإنكار يعني لا ينبغي ذلك ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ في ترك امتثال أمره في قتال أعداءه، والفاء للسببية فإن كون الله تعالى أحق أن يخشى سبب للإنكار على الخشية من غيره ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط استغنى عن الجزاء بما مضى يعني إن كنتم مؤمنين فلا تخشوا إلا الله، فإن مقتضى الإيمان هذا لأن من يعتقد أن خالق الأشياء الجواهر والإعراض وإفعال العباد ليس إلا الله وأن أحداً لا يستطيع النفع

والضرر إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته لا يخشى أحداً غيره تعالى.

ثم لما وبخهم على ترك القتال جرد لهم الأمر به فقال: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويذلهم أسراً وقهراً ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعد لهم بالنصر والتمكن من قتل أعدائهم وإذلالهم، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني كربها ووجدها بمعونة قريش بني بكر عليهم، أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في خزاعة حين جعلوا يقتلون بني بكر بمكة، وأخرج عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وأخرج عن السدي ويشف صدور قوم مؤمنين قال: هم خزاعة خلفاء رسول الله ﷺ يشف صدورهم من بني بكر وفي الآية معجزات ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ابتداء أخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وكان ذلك أيضاً معجزة وقد هدى إلى الإسلام كثيراً من قريش مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما يكون ﴿حَكِيمٌ﴾ لا بفعل إلا بمقتضى الحكمة، قال البغوي: روي أن النبي ﷺ قال يوم الفتح: «ارفعوا إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر» ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، وقيل: للمنافقين وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة، والاستفهام للتوبيخ على الحسبان ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾ فلا تؤمروا بالجهاد ولاتمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ يعني لم يتحقق منكم من جاهد في سبيل الله، نفي العلم وأراد نفي المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه أو على طريق ذكر اللازم وإرادة الملزوم فإن وقوع شيء لا يمكن أن يتخلف من علم الله تعالى به ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟﴾ عطف على جاهدوا يعني ولما يعلم الله الذين لم يتخدوا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم.

وفي لما إشارة إلى توقع وجود المجاهدين المخلصين في أمة محمد ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»(١) متفق عليه من حديث معاوية وروى ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة نحوها والحاكم وصححه عن عمر بلفظ: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»(٢) ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه دفع لما يتوهم من ظاهر قوله تعالى ولما يعلم الله، قال البغوي: قال ابن عباس: لما أسر العباس يوم بدر غيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ على القول، فقال العباس مالكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا فقال... علي لكم محاسن قال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج فأنزل الله تعالى رداً على العباس ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية أخرجه ابن جرير

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٨، ومسلم في الإمارة حديث ١٧٠، ١٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ١٠، والتوحيد باب ٢٩، والمناقب باب ٢٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٤٧، والإمارة حديث ١٧٠، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧.

وأبو الشيخ عن الضحاك، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ قال العباس: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ولقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني ماصح للمشركين وما ينبغي لهم ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام فإنه يجب على المسلمين منهم من ذلك لأن مساجد الله إنما يعمر لعبادة الله وحده فمن كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمرها، فذهب جماعة إلى أن المراد منه لعمارة المعروفة من بناء المسجد ومرمته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا ينفذ وحمل بعضهم العمارة هٰهنا على دخول المسجد والقعود فيه. أخرج أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعامر المسجد فاشهدوا له بالإيمان»(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨] وقال الحسن ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام.

قرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب مسجد الله على التوحيد والمراد الجنس وقيل: أراد به المسجد الحرام لقوله وعمارة المسجد الحرام ولقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨] وذلك هو المراد بصيغة الجمع، قال: الحسن إنما قال: مساجد الله لأنه قبلة المساجد كلها فكان عمارته عمارة الجميع، وقال الفراء ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد ألا ترى أن الرجل يركب البرذون ويقول: أخذت في ركوب البراذين ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار يريد الدراهم والدنانير ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أي: مظهرين الشرك وتكذيب الرسول الله ﷺ وهو حال من ضمير يعمروا والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله وعبادة غيره، وقال الحسن لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر.

وقال الضحاك عن ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام وذلك أن كفار قريش نصبوا الأصنام خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا شوطاً سجدوا لأصنامهم، وقال السدي شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسأل فيقال: من أنت فيقول: نصراني واليهودي يقول: يهودي، ونحو ذلك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها ويزعمونها محاسن من سقاية الحاج وعمارة البيت وفك العاني لأنها ليست لله تعالى خالصاً ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لأجل الكفر والمعاصي وحبط الحسنات ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لم يخف في الدين غير الله ولم يترك أمر الله مخافة غيره وإلا فالخشية من المخاوف أمر جبلي لا يكاد العاقل يتمالك عنها خص الله سبحانه عمارة المسجد بالمؤمنين

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ٨، وتفسير سورة ٩، باب ٨، بلفظ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد...» وأخرجه أحمد في المسند ٣/٦٨، بلفظ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد...».

فإنهم هم الجامعون لهذه الكمالات العلمية والعملية وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول لأن الإيمان بالله كما ينبغي لا يتصور إلا أخذاً من الرسول ﷺ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[1] الحديث في الصحيحين عن ابن عباس في قصة وفد عبد القيس، والمراد بعمارة المسجد إدامة العبادة والذكر فيه ودرس العلم والقرآن.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد» وفي لفظ: «يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي والبغوي، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى مسجد أوراح أعد الله له منزلة من الجنة كلما غدا أو راح»[2] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ وذكر فيهم ـ رجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود فيه»[3] متفق عليه، وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله حق على المزور أن يكرم زائره»[4] رواه الطبراني وعبد الرزاق وابن جرير في تفسيرها وللبيهقي في **«شعب الإيمان»**، وعن عمرو بن ميمون قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن بيوت الله في الأرض المساجد وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها رواه البيهقي في «شعب الإيمان» وعبد الرزاق وابن جرير في تفسيرهما، ومن عمارة المسجد بنائها وتزيينها وتنويرها بالسرج وصيانتها مما لم تبن له، كحديث الدنيا والبيع والشراء وغير ذلك عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد فكره الناس وأحبوا أن يدعه قال عثمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة»[5] وفي رواية: «بنى الله له كهيئته في الجنة» وفي لفظ: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[6] رواه أحمد والشيخان في «الصحيحين» والترمذي وصححه وابن ماجه والبغوي وكذا روى ابن ماجه عن علي، وروى أحمد عن ابن عباس بسند صحيح «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة» والطبراني عن أبي أمامة بسند صحيح «من بنى لله مسجداً بنى الله له في الجنة أوسع منه».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ٥، ٧.
(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ٣٧، وأحمد في المسند ٢/٥٠٩.
(٣) أخرجه البخاري في الأذان باب ٣٦، ومسلم في الزكاة حديث ٩١.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٦/٣١١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٣١، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/٢١٤.
(٥) انظر الحاشية التالية.
(٦) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٦٥، ومسلم في المساجد حديث ٢٤، ٢٥، والمسافرين حديث ١٠٣.

فليقل لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا»[١] رواه مسلم، وعن عائشة قالت: أمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد في الدور وأن ينظف ويتطيب[٢] رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول الله ﷺ عن تناشد الأشعار في المسجد وعن البيع والاشتراء فيه وأن يتحلق الناس قبل الصلاة في المسجد[٣] رواه أبو داود والترمذي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا لا رد الله عليك»[٤] رواه الترمذي والدارمي والله أعلم.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ المتمسكين بطاعة الله التي يؤدي إلى الجنة، ذكر بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم في القطع بأنهم مهتدون فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان ابتداءهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم ومنعاً للمؤمنين بأن يغتروا بأعمالهم ويتكلوا عليها، أخرج أبو نعيم عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك: أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أنا أصيب عبد الحساب يوم القيامة أشاء أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك: أن لا تلقوا بأيديكم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»[٥] والله أعلم.

أخرج مسلم وابن حبان وأبو داود عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله تعالى:

﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾[٦] الآية وأخرجه الفريابي عن ابن سيرين قال: قدم علي بن أبي طالب مكة فقال للعباس أي عم ألا تهاجر ألا تلحق برسول الله ﷺ؟ فقال: أعمر المسجد الحرام وأحجب البيت فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال البغوي: قال ابن عباس: قال: العباس حين أسر يوم بدر لئن سبقتمونا بالإسلام

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٧٩.
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٣، والترمذي في الجمعة باب ٦٤، وأحمد في المسند ٦/ ٢٧٩.
(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة باب ١٢٣، والنسائي في المساجد باب ٢٣، وابن ماجه في المساجد باب ٥.
(٤) أخرجه الترمذي في البيوع باب ٧٦، والدارمي في الصلاة باب ١١٨.
(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٩٥.
(٦) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١١١، وأحمد في المسند ٤/ ٢٦٩.

والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ مما هم عليه، وقال البغوي قال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وكذا أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي إنها نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة افتخروا فقال: طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي ما أدري ما يقولون لقد صليت إلى القبلة ستة سنة يعني قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ السقاية والعمارة مصدران من أسقى وعمر فلا بد هٰهنا من تقدير أما أن يقال بحذف المضاف في المشبه أو في المشبه به فيقال: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن أو يقال أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كإيمان من آمن بالله وجهاد من جاهد، وإما أن يقال المصدر بمعنى الفاعل يعني ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] يؤيده قراءة عبد الله بن الزبير أجعلتم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام. . . على جمع الساقي والعامر، والاستفهام للإنكار فإن كان نزول الآية في اختلاف المؤمنين بالمشركين كما يدل عليه قول ابن عباس ومحمد بن كعب وغيرهما فلا خفاء في إنكار المشابهة بين المشركين وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة وإن كان نزولها في اختلاف المؤمنين كما روى مسلم عن النعمان بن بشير، فالمراد بعمارة المسجد بنائها دون إدامة الذكر والصلاة فيها فإن دوام الذكر أفضل من الجهاد لقوله ﷺ: «ما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»[(١)] رواه مالك والترمذي وابن ماجه من حديث معاذ بن جبل، ورواه البيهقي في الدعوات الكبير من حديث عبد الله بن عمر وزاد قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع» وقوله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم أرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى، قال: «ذكر الله»[(٢)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي الدرداء ورواه مالك موقوفاً على أبي الدرداء، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، قيل: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار حتى ينكسر أو يختضب دماً فإن الذاكر لله أفضل منه درجة»[(٣)] رواه أحمد والترمذي وقال: حديث غريب والله أعلم.

---

(١) أخرجه مالك في القرآن حديث ٢٤.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب باب ٥٣، ومالك في مس القرآن حديث ٢٤، وأحمد في المسند ٦/ ٤٤٧.
(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٥، وأحمد في المسند ٣/ ٧٥.

﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تقرير لعدم المشابهة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا يؤيد قول من قال: إن المراد عدم الاستواء بين فعل المؤمنين من الإيمان والجهاد وفعل المشركين من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، والمعنى والله لا يهدي القوم الظالمين بالشرك فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب، وقيل: المراد بالظالمين الذين يحكمون بالمساواة بينهم وبين المؤمنين والله أعلم.

قصة استقاء من زمزم

روى البخاري وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: «اسقني»، فقال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: «اسقني» فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: «اعملوا فإنكم على عمل صالح»، ثم قال: «لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه وأشار إلى عاتقه»[(١)] وروى مسلم عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنت جالساً مع ابن عباس رضي الله عنهما عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل؟ فقال ابن عباس: رضي الله عنهما: الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فقال: أحسنتم وأجملتم كذا فاصغوا» فلا نريد أن نغير ما أمر به رسول الله ﷺ[(٢)] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الذين افتتحوا بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج أو ممن لم يستجمع هذه الصفات من المؤمنين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الناجون من النار الواصلون إلى الجنة والدرجات العلى دون المشركين وإن كانوا سقاة الحاج وعمار المسجد ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ قرأ حمزة بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعل ﴿رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم تنكير المبشر به للإشعار بأنه وراء التعيين والتعريف ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأبيد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه ما استوجبوا لأجله أو نعم الدنيا والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ قال البغوي: قال: مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس لما أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون ننشدك بالله أن يقنعنا فيرق عليهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن ولايتهم وأنزل هذه الآية يعني لا

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٧٥، وأحمد في المسند ١/ ٢٤٩، ٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في الحج حديث ٣٤٧، وأبو داود في المناسك باب ٨٩، وأحمد في المسند ١/ ٣٧٢.

تتخذوهم أولياء بطانة وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة إن استحبوا أي: اختاروا الكفر على الإيمان كذا روى الثعلبي عنه. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ فيطلعهم على عورات المسلمين ويؤثرون المقام... معهم على الهجرة والجهاد ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الموالاة في غير موضعه فإن محل موالاة المسلمين المسلمون قال البغوي: لما نزلت الآية المذكورة قال: الذين أسلموا ولم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فنزلت ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلفين عن الهجرة ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم وعشيراتكم بالألف على الجمع والباقون بلا ألف يعني أقربائكم مأخوذ من العشرة ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: أكسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي: فوت وقت رواجها ونفاقها ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فقعدتم لأجله عن الهجرة والجهاد ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ جواب ووعيد، قال عطاء: بقضائه يعني بالعقوبة العاجلة والآجلة وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله تعالى أي: لا يرشدهم، قال البيضاوي: المراد الحب الاختياري يعني إيثار هذه الأشياء وترك امتثال أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ دون الحب الطبيعي فإنه لا يدخل تحت التكليف والتحفظ عنه، قلت: وكمال الإيمان أن يكون الطبيعة تابعة للشريعة فلا يقتضي الطبيعة إلا ما يأمره الشريعة، قال رسول الله ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» وفي رواية «فقد استكمل إيمانه»[1] رواه أبو داود عن أبي أمامة والترمذي عن معاذ بن أنس مع تقديم وتأخير، وفي «الصحيحين» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه[2] من والده وولده والناس أجمعين»[3]، والمراد لا يؤمن إيماناً كاملاً وفيهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لا يحب إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[4] قلت: وجد أن حلاوة الإيمان عبارة عن الاستلذاذ به كما يستلذذ الرجل بالشهوات الطبيعية، وذلك كمال الإيمان ولا يكتسب ذلك إلا من مصاحبة أرباب القلوب الصافية والنفوس الزاكية رزقنا الله سبحانه وهذه الآية وما ذكرنا من الأحاديث يوجب افتراض اكتساب التصوف من خدمة المشايخ رضي الله عنهم

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٥، والترمذي في القيامة باب ٦٠، وأحمد في المسند ٣/ ٤٣٠، ٤٣٩، ٤٤٠.

(٢) عن عبد الله بن هشام قال كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال والله لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء فقال النبي ﷺ لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٨، والأيمان باب ٣، ومسلم في الإيمان حديث ٦٩، ٧٠.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٩، والأدب باب ٤٢، ومسلم في الإيمان حديث ٦٦.

أجمعين، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى معرفته، قال البيضاوي: في الآية تشديد عظيم وقل من يتخلص عنه، قلت ذلك القليل هو الصوفية العلية، قال صاحب المدارك الآية تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين إذ تجد من أورع الناس من يستجب دينه على الآباء والأبناء والأموال وحظوظ الدنيا، قلت: إلا من أعطاه الله معرفته فيقول ما قال الشاعر بالفارسية:

انكس كه تراشناخت جان راچه كند فرزند وعيال وخان ومان راچه كند

ديوانه كنى هردوجها نش بخشى ديوانه توهر دوجها نراچه كند

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يوم بدر وقينقاع والأحزاب والنضير أو قريظة والحديبية وخيبر وفتح مكة وغيرها قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[١] ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ عطف على مواطن إما بتقدير المضاف في المعطوف يعني مواطن حنين أو في المعطوف عليه يعني في أيام مواطن كثيرة أو يفسر المواطن بالأوقات كمقتل الحسين رضي الله عنه ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وكانوا اثني عشر ألفاً أو أربعة عشر ألفاً كما سيجيء في القصة والكفار أربعة الآف كذا جزم غير واحد، وجزم الحافظ وغيره بأنهم كانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر من ذلك فعلى هذا كان المشركون أربعة وعشرين ألفاً أو ثمانية وعشرين ألفاً، وقوله إذ أعجبتكم بدل من يوم حنين ولم يمنع إبداله منه أن يعطف على موضع في مواطن فإنه لا يقتضي مشاركتهما فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابهم كثرتهم في جميع المواطن، وحنين وادٍ بين مكة والطائف إلى جنب ذي المجاز قريب من الطائف بينه وبين مكة بضع عشر ميلاً حارب فيه رسول الله ﷺ هوازن وهو قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون وهو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان بن إلياس بن مضر وثقيف بطن منها.

قصة غزوة حنين

قال أئمة المغازي: لما فتح رسول الله ﷺ مكة في رمضان سنة ثمان من الهجرة مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض وأشفقوا أن يغيروهم رسول الله ﷺ وقالوا: قد فرغ لنا فلاناً ناحية[٢] له دوننا والرأي أن نغزوه فأجمعوا أمركم فسيروا في الناس وسيروا إليه

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٥٦، والجهاد باب ١٢٢، ومسلم في المساجد حديث ٣، ٥ ـ ٨.

(٢) أي: لا مانع.

قبل أن يسير إليكم، فاجتمعت هوازن وجمعها مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة النضري وأسلم بعد ذلك واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ونصر وجشم كلها وسعد بن بكر ناس من بني هلال وهم قليل لا يبلغون مائة ولم يشهدها من قيس بن غيلان ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب مشى فيها ابن أبي براء فنهاها عن الحضور، وقال: والله لو نادى أي عادى محمد ما بين المشرق والمغرب لظهر عليهم، وكان في جشم دريد بن الصمة ابن ستين ومائة سنة أو عشرين ومائة سألوا دريد الرئاسة عليهم لرأيه قال: ما أبصر ولا استمسك على الدابة ولكن أحضر معكم لأن أشير عليكم برأي على أن لا تخالفوني فإن تخالفوني لا أخرج فجاءه مالك بن عوف وكان أمر الناس إليه وهو ابن ثلاثين سنة فقال: لا نخالفك، فلما أجمع مالك المسير إلى رسول الله ﷺ أمر الناس فخرجوا معهم بأموالهم ونسائهم ثم انتهى إلى أوطاس فعسكر به وجعلت الأمداد تأتيه من كل جهة وأقبل دريد بن الصمة فقال: مالي أسمع بكاء الصغير ورغاء البعير ونهيق الحمير ويعار الشاة وخوار البقر قالوا: ساق مالك مع الناس أبنائهم ونسائهم وأموالهم، فقال دريد لمالك: لم سقت؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل إنسان أهله وماله يقاتل عنهم فقال دريد: هذا راعي ضأن ماله وللحرب وصفق دريد إحدى يديه على الأخرى تعجباً هل يرد المنهزم شيء إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ارفع النساء والذراري والأموال إلى علياً قومهم وممتنع بلادهم ثم الق القوم على متون[1] الخيل والرجال فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت عليك فقد أحرزت أهلك ومالك، قال مالك: لا أفعل قد كبرت وكبر عقلك فغضب دريد ثم قال دريد: يا معشر هوازن ما فعلت كعب وكلاب، قالوا: ما شهد منهم أحد قال: غاب الحد[2] والجد[3] لو كان يوم علاء ورفعة[4] ما تخلفوا عنه يا معشر هوازن ارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء فأبوا عليه، قال: فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر، قال: ذانك جذعان[5] من بني عامر لا ينفعان ولا يقران، قال لدريد: هل من رأي غير هذا قد أمر القوم، قال دريد: نعم تجعل كميناً[6] يكونون لك عوناً إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد فذلك حين أمر مالك أن يكونوا كمناً في الشعاب وبطون الأودية فحملوا الأولى التي انهزم فيها أكثر أصحاب رسول الله ﷺ. ولما بلغ رسول الله ﷺ خبر هوازن وما عزموا عليه أراد التوجه إلى قتالهم

---

(١) متون جمع متن بمعنى الظهر.
(٢) الحد بفتح الماء المهملة المنع.
(٣) الجد بكسر الجيم الشجاعة.
(٤) عطف تفسير.
(٥) يعني أنهما ضعيفان في الحرب.
(٦) أي الجيش المختفي.

واستخلف عتاب بن أسيد أميراً على مكة وهو ابن عشرين سنة ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه.

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال حين أراد حنيناً: «منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»[(١)] واستعار من صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً فقال: أغصباً يا محمد أم عارية؟ قال: «بل عارية. . . مضمونة فأعطى له مائة درع بما يكفيهما من السلاح» كذا روى ابن إسحاق عن جابر وأبو داود وأحمد عن أمية بن صفوان، قال السهيلي واستعار من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال: كأني أنظر إلى رماحك هذه في تقصف ظهر المشركين. فخرج رسول الله ﷺ في اثني عشر ألف من المسلمين عشرة آلاف من أهل المدينة وألفين من أهل مكة يوم السبت بست خلون من شوال سنة، روى أبو الشيخ عن محمد بن عبيد الله الليثي كان مع رسول الله ﷺ من أهل المدينة عشرة الآف أربعة آلاف من الأنصار ومن كل من جهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع ألف ومن المهاجرين وغيرهم ألف، وقال عروة والزهري قدم رسول الله ﷺ مكة باثني عشر ألف وأضيف إليهم ألفان من الطلقاء فكانوا أربعة عشر ألفاً، قال ابن عقبة ومحمد بن عمر: لما خرج رسول الله ﷺ إلى حنين خرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحداً ركباناً ومشاة حتى خرجن معه النساء يمشين على غير دين نظاراً ينظرون ويرجون الغنائم ولا يكرهون أن يكون الصدمة لرسول الله ﷺ وكان معه أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وكانت امرأته مسلمة وهو مشرك لم يفرق بينهما ومع النبي ﷺ زوجتيه أم سلمة وميمونة ضربت لهما قبة.

روى ابن إسحاق والترمذي وصححه النسائي وابن حبان عن الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية وكانت لكفار قريش ومن سواهم شجرة عظيمة وعند الحاكم في الإكليل سدرة خضراً يقال لها ذات أنواط[(٢)] يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً قرابنا، ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراً عظيمة، فتنادينا يا رسول الله اجعل ذات نواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إنها لسنن لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذه»[(٣)]، وعن سهيل ابن حنظلة رضي الله عنه قال: جاء فارس فقال: يا رسول الله طلعت جبل كذا وكذا فإذا هوازن جاءت عن بكرة أبيها[(٤)] بظعنهم ونعمهم وشاءهم اجتمعوا فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله تعالى»، ثم

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٨٠، والتوحيد باب ٣١.

(٢) من ناط ينوط إذا علقه وكلما علق من شيء فهو نوط.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٢٥.

(٤) عن بكرة أبيها بفتح الموحدة وتسكين الكاف كلمة للعرب يريدون بها الكثرة يعني أنهم جاءوا جميعاً لم يتخلف منهم احد وليس هذا البكرة على الحقيقة وهي التي يستقى عليها الماء.

قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن مالك أبي مرثد: أنا يا رسول الله ﷺ: قال: «فاركب واستقبل هذا الشعب حتى تكون أعلاه ولا تغرن من قبلك» فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح فإذا هو قد جاء، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلا هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت طلعت الشعبين كلاهما فنظرت فلم أر أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها»[1] رواه أبو داود والنسائي.

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حدرد ليكشف خبر هوازن فدخل فيهم فأقام فيهم يوماً أو يومين فسمع من مالك يقول لأصحابه إن محمداً لم يقاتل قوماً قبل هذه المرة إنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ثم يكون الجملة منكم واكسروا جفون سيوفكم فتلقون بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً، كذا روى ابن إسحاق عن جابر بن عبد الله وعمرو بن شعيب وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وروى محمد بن عمر عن أبي بردة بن ديار قال: كنا بأوطاس نزلنا تحت شجرة عظيمة نزل رسول الله ﷺ تحتها فإذا رسول الله ﷺ جالس وعنده رجل جالس فقال: إن هذا الرجل جاءني وأنا نائم فسل سيفي ثم قام به على رأسي فانتبهت وهو يقول: يا محمد من يمنعك مني؟ فقلت: «الله» فسللت سيفي وقلت يا رسول الله دعني أضرب عنق عدو الله فإنه من عيون المشركين، فقال لي: «اسكت يا أبا بردة فما قال له شيئاً ولا عاقبه فقال: يا أبا بردة إن الله مانعي وحافظي حتى يظهر دينه على الدين كله».

وروى أبو نعيم والبيهقي أن رسول الله ﷺ انتهى حنيناً مساء الليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال وبعث مالك بن عوف ثلاثة من هوازن ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر فرجعوا إليهم وقد تفرقت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ فقالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق فوالله ما تماسكنا إن أصابنا ما ترى والله ما نقاتل أهل الأرض إنما نقاتل أهل السماء وإن أطعتنا رجعت بقومك فإن الناس إن رأوا مثل الذي رأينا أصابهم مثل الذي أصابنا، فقال: أف لكم بل أنتم أجبن أهل العسكر فحبسهم عنده فرقاً أن يشيع ذلك الرعب في العسكر، وقال: دلوني على رجل شجاع فأجمعوا على رجل فخرج ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم فقال مثل الذي قالت الثلاثة، قال محمد بن عمر لما كان ثلثا الليل عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبَّأهم في وادي حنين وهو واد أخوف خطوطه ذو شعاب ومضائق وفرق الناس فيها وقال لهم: أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حملة رجل واحد، وعبَّأ[2] رسول الله ﷺ أصحابه وصفهم صفوفاً في السحر ووضع الألوية والرايات في أهلها ولبس درعين والمغفر والبيضة واستقبل

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٦.

(٢) عبّا تعبية أي رتبهم في مواضعهم وهيأهم للحرب.

الصفوف وطاف عليها بعضها لخلف بعض يتحدرون فحضهم على القتال وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا، وقدم خالد بن وليد في بني سليم وأهل مكة وجعل ميمنة وميسرة وقلباً وكان رسول الله ﷺ فيه.

روى أبو الشيخ والحاكم وصححه والبزار وابن مردويه عن أنس قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل، ولفظ البزار قال غلام من الأنصار لن نُغْلَبَ اليوم من قلة فما هو إلا أن لاقينا عدونا فانهزم القوم وولوا مدبرين، وفي رواية يونس بن بكر في زيادات المغازي كره رسول الله ﷺ ما قالوا: وما أعجبتهم كثرتهم، وكذا روى ابن المنذر عن الحسن وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ أي: الكثرة ﴿عَنكُمْ شَيْئًا﴾ من الإغناء أو من أمر العدو ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ما مصدرية والباء بمعنى مع أي: مع رحبها أي: سعتها، أو المعنى ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور في موضع الحال كقولك دخلت عليه بثياب السفر أي: ملتبساً بها يعني أن الأرض من مع سعتها لا تجدون فيها مقراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تبؤون السفر ملتبساً بها يعني أن الأرض مع سعتها لا تجدون فيها كمن لا يسعه مكانه ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ الكفار ظهوركم خطاب إلى الذين انهزموا من المؤمنين ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين الأدبار الذهاب إلى خلف ضد الإقبال. روى ابن إسحاق وأحمد وابن حبان عن جابر وأبو يعلى ومحمد بن عمر عن أنس قال جابر لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا من واد أخوف ذو خطوط له مضائق وشعب، وقد كان القوم سبقونا إلى الوادي فكمنوا في شعابه وأخبائه ومضائقه وتهيئوا عدواً فوالله ما رأينا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وكانوا رماة، وقال أنس استقبلنا من هوازن شيء لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من الكثرة وله بسواد وقد ساقوا نساءهم وأبناءهم وأموالهم ثم صفوا صفوفاً فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا يفروا بزعمهم فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم فلما انحدرنا من الوادي، فبينا نحن فيه في غلس الصبح أن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت من مضيق الوادي وشعبه فحملوا حملة رجل واحد فانكشف أوائل الخيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه، قال جابر: وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: «أيها الناس هلم إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله».

روى البخاري وابن أبي شيبة وابن مردويه والبيهقي عن ابن إسحاق قال رجل للبراء بن عازب: يا أبا عمارة أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه حسراً ليس عليهم كثير سلاح فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام كأنها رجل[1] جراد ما

---

(١) بكسر الراء وسكون الجيم الجماعة الكثيرة من الجراد خاصة وهو جمع على غير لفظ الواحد ـ ١٢ ـ.

يكادون يخطئوون وأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث يقود به، فنزل رسول الله ﷺ ودعا واستنصر وقال: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»(١) وفي رواية قال البراء: كنا إذا احمر البأس نتقي به وإن الشجاع منا الذي يحاذيه يعني النبي ﷺ. قال ابن إسحاق لما انهزم الناس تكلم رجال في أنفسهم من الضغن(٢)، فقال: أبو سفيان بن حرب وكان إسلامه بعد مدخولاً لا ينتهي هزيمتهم دون البحر وأن الأزلام لمعه في كنانة وصرح جبلة بن الحنبل، وقال ابن هشام: كلدة بن الحنبل وأسلم بعد ذلك وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية وصفوان مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ إلا بطل السحر اليوم فقال له صفوان: أن أسكت فوالله لأن يرميني رجل من قريش أحب إلي من يرميني من هوازن.

روى ابن سعد وابن عساكر عن عبد المالك بن عبيد والطبراني والبيهقي وابن عساكر وأبو نعيم عن عكرمة قالا: قال شيبة بن عثمان: لما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكة عنوة وغزا حنيناً، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن فعسى إن اختلطوا أصيب محمداً غرة وتذكرت أبي وقتله حمزة وعمي وقتله علي بن أبي طالب فقلت: اليوم أدرك ثأري من محمد وأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها وأقول لو لم يبق من العرب والعجم إلا أتبع محمداً ما تبعته أبداً فكنت مرصداً لما خرجت، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما انهزم أصحابه جئته من عن يمينه فإذا بالعباس قائم عليه درع بيضاء فقلت: عمه لن يخذله فجئته عن يساره فإذا بأبي سفيان بن الحارث فقلت: ابن عمه لن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذا ارتفع إلي فيما بيني وبينه شواظ من نار كأنه برق فخفت أن يتخمشني(٣) فوضعت على بصري خوفاً عليه ومشيت القهقرى وعلمت أنه ممنوع، فالتفت إلي وقال: «يا شيبة ادن مني» فدنوت منه فوضع يده على صدري، وقال: «اللهم أذهب عنه الشيطان» فرفعت إليه رأسي وهو أحب إليّ من سمعي وبصري وقلبي، ثم قال: «يا شيبة قاتل الكفار» قال: فتقدمت بين يديه أحب والله أن أقيه بنفسي كل شيء فلما انهزمت هوازن ورجع إلى منزله دخلت عليه، فقال: «الحمد لله الذي أراد بك خيراً» ثم حدثني بما هممت به ﷺ.

وروى محمد بن عمر عن النضر بن الحارث كان يقول الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام ومنَّ علينا بمحمد ﷺ ولم نمت على ما مات عليه الآباء فذكر حديثاً طويلاً ثم قال: خرجت مع قوم من قريش هم على دينهم بعد وأبي سفيان بن حرب وسفيان بن أمية وسهيل بن عمرو ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير عليه، فلما تراءت الفئتان ونحن في خير المشركين حملت هوازن حملة واحدة ظننا أن المسلمين لا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٥٢، ٦١.

(٢) أي: الحقد.

(٣) أي يتخوفني.

يجترونها أبداً ونحن معهم وأنا أريد بمحمد ما أريد وعمدت له فإذا هو في وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء وحوله رجال بيض الوجوه فأقبلت عامداً إليه فصاحوا بي إليك إليك فرغب فؤادي وأرعدت جوارحي، قلت: هذا مثل يوم بدر إن الرجل لعلي حق إنه لمعصوم وأدخل الله قلبي الإسلام وغيَّره عما كنت أهم به الحديث بطوله.

وروى محمد بن عمر عن أبي قتادة قال: مضى سرعان الناس منهزمين حتى دخلوا مكة ساروا يوماً وليلة يخبرون أهل مكة بهزيمة رسول الله ﷺ، وعتاب بن أسيد يومئذٍ أميرٌ على مكة ومعه معاذ بن جبل فجاءهم أمر غمهم وسرَّ بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة، وقال قائل منهم: يرجع العرب إلى دين أبائها وقد قتل محمد وتفرق أصحابه فتكلم عتاب بن أسيد يومئذٍ فقال: إن قُتِلَ محمد ﷺ فإن دين الله قائم والذي يعبده محمد حي لا يموت فما أمسوا من ذلك اليوم حتى جاء الخبر أن رسول الله ﷺ أوقع هوازن، فسر عتاب بن أسيد ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وكبت الله من. . . هناك ممن كان يسر بخلاف ذلك فرجع المنهزمون إلى رسول الله ﷺ فلحقوه بأوطاس وقد راحل منها إلى الطائف.

فائدة

قال أنس رضي الله عنه بقي رسول الله ﷺ وحده وقال العباس فيما روى عنه مسلم وابن إسحاق وعبد الرزاق: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له شهباء، فلما التقى المسلمون والكفار ولي المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلة قبل الكفار وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها أن لا يسرع وهو لا يألوا ما أسرع نحو المشركين وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ، وفي أحاديث آخر أنه بقي مع رسول الله ﷺ جماعة قال محمد بن يوسف الصالحي: في الجمع بين الأقوال المراد أنه بقي وحده متقدماً مقبلاً على العدو والذين ثبتوا كانوا وراءه والوحدة بالنسبة لمباشرة القتال وأبو سفيان بن الحارث وعباس كانوا يخدمونه في إمساك البغلة ونحو ذلك. واختلفوا في عدد الثابتين يوم حنين، قال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلاثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وروى البيهقي عن حارثة بن النعمان لقد حزرت من بقي مع رسول الله ﷺ حين أدبر الناس فقلت: مائة، وروى أحمد والطبراني والحاكم وأبو نعيم برجال ثقات عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر، وروى البزار عن أنس أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم ضرب كل منهم بضعة عشر ضربة، وروى ابن مردويه عن أبي عمر لم يبق مع رسول الله ﷺ مائة رجلاً ولا منافاة بين نفي المائة وإثبات ثمانين، قال محمد بن عمر: يقال إن رسول الله ﷺ، قال لحارثة بن النعمان حين انكشف عنه الناس يوم حنين: «يا حارثة كم ترى الناس الذين ثبتوا» فنظرت عن يميني وعن شمالي فقلت هم مائة فما علمت أنهم مائة حتى كان يوم مررت على النبي ﷺ وهو يناجي جبرائيل

عند باب المسجد فقال جبرائيل: يا محمد من هذا، قال: حارثة بن النعمان، فقال جبرائيل: هو أحد المائة الصابرة يوم حنين لو سلمت لرددت عليه فأخبر رسول الله ﷺ حارثة، قال: ما كنت أظن إلا دحية الكلبي واقف معك، وذكر النووي: إن الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا معه كانوا عشرة فقط قوله[1]:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة ... وفر من قد فر عنه فاقشعوا

وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه ... لما مسه في الله لا يتوجع

قال الصالحي قال: الحافظ لعل هذا هو الأثبت ومن زاد على ذلك يكون عجل في الرجوع فعد فيمن لم ينهزم وثبت أربع من النساء أم سليم بنت ملحان وأم عمارة نسيت وأم سليط وأم الحارث، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: رحمته التي استقروا بها وآمنوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا وإنما ذكر الرسول لأن السكينة إنما نزلت على المنهزمين ببركة وجود رسول الله ﷺ وبتوسطه نزلت على غيره وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حالهما، وقيل: المراد بالمؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا. أخرج الطبراني والحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود، قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر وهم الذين نزلت عليهم السكينة، قال ابن عقبة: قام رسول الله ﷺ في الركابين وهو على البغلة فرفع يديه إلى الله تعالى يقول: «اللهم إني أنشدك ما وعدتني اللهم لا ينبغي لهم أن يظهر علينا» انتهى فقال رسول الله ﷺ: «يا عباس نادِ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة» قال: العباس: وكان رجلاً صيّتاً فقلت: بأعلى صوتي أين الأنصار أين أصحاب السمرة أين أصحاب سورة البقرة قال: فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، وفي حديث عثمان بن أبي شيبة عند أبي القاسم البغوي والبيهقي: «يا عباس اصرخ بالمهاجرين بايعوا تحت الشجرة وبالأنصار اللذين آووا ونصروا» قال: فما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها حتى نزل رسول الله ﷺ كأنه في خرجة فلرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار فقالوا: يا لبيك يا لبيك الحديث.

وروى أبو يعلى والطبراني برجال ثقات عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ يوم حنين كفاً من حصى أبيض فرمى به، وقال: «هزموا ورب الكعبة» وكان علي رضي الله عنه أشد الناس قتالاً بين يديه، وروى ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود. والبغوي وغيرهم في حديث طويل عن أبي عبد الرحمٰن يزيد الفهري واسمه كرز ولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس أنا عبد الله ورسوله» فاقتحم رسول الله

(١) البيتان من الطويل، والبيت الأول في تاج العروس (قشع).

ﷺ عن فرسه، وحدثني من كان أقرب إليه مني أنه أخذ حفنة من تراب فخشاه في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» قال يعلى بن عطاء أخبرنا أبناؤهم عن آبائهم قالوا: ما بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب وسمعناه صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست فهزمهم الله تعالى قال: الله تعالى.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ روى ابن أبي حاتم عن السدي الكبير قال: هم الملائكة، وروى أيضاً عن سعيد بن جبير قال في يوم حنين: أمد الله تعالى رسول الله ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وروى ابن إسحاق وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم فنظرت فإذا نمل أسود قد ملأ الوادي ثم أشك أنها الملائكة ولم يكن إلا هزيمة القوم، وروى محمد بن عمر عن يحيى بن عبد الله عن شيوخ قومه من الأنصار قالوا: رأينا يومئذٍ كالبجد الأسود هوت من السماء ركاماً فنظرنا فإذا نمل مبثوث فإن كنا لننفضه عن ثيابنا فكان نصر الله أيدنا به، وروى مسدد في مسنده والبيهقي وابن عساكر عن عبد الرحمٰن مولى أم برثن قال: حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال: التقينا أصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة إن كفيناهم فبينا نحن نسوقهم في أدبارهم إذ التقينا صاحب البغلة فإذا هو رسول الله ﷺ وفي رواية إذ بيننا وبينه رجال بيض حسان الوجوه قالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا وركبوا أكتافنا وكانت إياها، وروى ابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن شيبة بن عثمان الحجبي قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ما خرجت إسلاماً ولكن خرجت آنفاً أن يظهر هوازن على قريش فوالله إني لواقف مع رسول الله ﷺ إذ قلت يا رسول الله إني لأرى خيلاً بلقاً قال: «يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر» فضرب بيده على صدري وقال: «اللهم اهد شيبة» فعل ذلك ثلاث مرات فوالله ما رفع رسول الله ﷺ الثانية حتى ما أجد من خلق أحب إلي منه، فالتقى المسلمون فقتل من قتل ثم أقبل رسول الله ﷺ وعمر آخذ باللجام والعباس آخذ بالثغر فنادى العباس أين المهاجرين أين أصحاب سورة البقرة بصوت عال هذا رسول الله ﷺ فأقبل المسلمون والنبي ﷺ يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فجالدوهم بالسيوف فقال رسول الله ﷺ: «الآن حمي الوطيس»(١) وروى محمد بن عمر عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: حدثني عدة من قومي شهدوا ذلك اليوم يقولون لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصباء فما من أحد إلا يشكو القذى في عينه ولقد كنا نجد في صدورنا خفقاناً كوقع الحصا في الطساس ما يهدي ذلك الخفقان(٢) ولقد رأينا

---

(١) حمى الوطيس هو شيء كالتنور يخبز فيه، شبه شدة الحرب به وقيل حجارة مدورة إذا حميت منعت الوطء عليها فضرب مثلا للاحمرار الشديد.

(٢) اضطراب وتحرك.

يومئذٍ رجالاً بيضاً على خيل بلق عليها عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض كتائب أي لا يعقلون ما يليقون ولا تستطيع أن نتأملهم من الرعب منهم قال الله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن السدي الكبير قال: يعني قتلهم بالسيف، وروى البزار بسند رجاله ثقات عن أنس أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: «اجزروهم جزراً» وأومى بيده إلى الحلق، وروى البيهقي عن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال: قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل يوم بدر، يعني سبعين رجلاً واستشهد بحنين أيمن ابن أم أيمن وسراقة بن الحارث ويتيم بن ثعلبة ويزيد بن زمعة وأبو عامر الأشعري بأوطاس كما سيأتي، وروى محمد بن عمر عن محمد بن عبد الله بن صعصعة أن سعد بن عبادة جعل يصيح يا للخزرج ثلاثاً وأسيد بن حضير يا للأوس ثلاثاً فثابوا من كل ناحية كأنهم النحل يأوي إلى يعسوبها قال أهل المغازي: فلحق المسلمون على المشركين فقتلوهم حتى أسرع القتل في ذراري المشركين فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال «ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية ألا تقتل الذرية» فقال: أسيد بن الخضير يا رسول الله أولاد المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواه يهودانها وينصرانها» قال محمد بن عمر قال شيوخ ثقيف: ما زال رسول الله ﷺ في طلبنا في ما نرى حتى أن الرجل منا ليدخل حصين الطائف وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة قالوا: هزم الله تعالى أعداءه من كل ناحية وأتبعهم المسلمون يقتلونهم وغنمهم الله نسائهم وذراريهم وفر مالك بن عوف حتى بلغ حصين الطائف هو وأناس من أشراف قومه، وقال ابن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما: لما أهزم الله هوازن أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحور نخلة ولم يتتبع من سلك الثنايا وقتل ربيعة بن رفيع من بني سليم دريد بن الصمة، قال البغوي: فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأشعرين يقال له أبو عامر وأمره على جيش إلى أوطاس فسار إليهم فاقتتلوا وقُتِلَ الدريد بن الصمة، وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم وهرب مالك بن عوف النضري فأتى الطائف وتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ وقتل أمير المسلمين أبو عامر وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصر الله رسوله وإعزاز دينه.

ولما جمعت الغنائم أمر رسول الله ﷺ أن ينحدر إلى جعرانة فوقف بها إلى أن انصرف رسول الله ﷺ من حصار الطائف، قال ابن سعد وتبعه في العيون كان السبي ستة آلاف رأس والأهل أربعة وعشرون ألف بعير والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة، وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: سبي يومئذٍ ستة آلاف سبي بين امرأة وغلام فجعل رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وقال البلادري بديل بن ورقاء الخزاعي وقال ابن إسحاق: جعل على المغانم مسعود بن عمر الغفاري. قال ابن إسحاق:

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف فضرب عسكره وأشرف ثقيف على حصنهم ولا مثل له في حصون العرب وأقاموا وهم مائة رام فرموا بالسهام والمقاطيع من بعد حصنهم ومن دخل تحت الحصين ولوا عليه بسكك الحديد محماة من النار تطير منها الشرر فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجده اليوم الذي بنته ثقيف بعد إسلامهم، وقال عمرو بن أمية الثقفي وأسلم بعد ذلك لا يخرج إلى محمد أحداً إذا دعى أحداً من أصحابه إلى البراز ودعوه يقيم ما أقام ثم أقبل خالد بن الوليد فنادى من يبارز؟ فلم يطلع عليه أحد ثم دعا فلم ينزل إليه أحد، فنادى عبد ياليل لا ينزل إليك أحد ولكنا نقيم في حصننا خباءنا فيه ما يصلحنا لسنين فإذا أقمت حتى ذهب ذلك الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت فقاتلهم رسول الله ﷺ بالرمي وهم يقاتلونه بالرمي من وراء الحصين ولم يخرج إليه أحد وكثرت الجراحات له من ثقيف بالنبل وقتل جماعة من المسلمين، روى ابن إسحاق ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا: نادى رسول الله ﷺ: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً فأعتقهم رسول الله ﷺ، قال محمد بن عمر وشاور رسول الله ﷺ أصحابه فقال سلمان الفارسي: أرى أن تنصب المنجنيق فنصبه على حصين الطائف وهو أول منجنيق رمى به في الإسلام فأمر رسول الله ﷺ أن يقطع أعنابهم ونخيلهم، قال عروة أمر رسول الله ﷺ كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس حيلات فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً فنادت ثقيف لَم تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا وإما أن تدعها لله وللرحم فقال رسول الله ﷺ: «فإني أدعها لله وللرحم».

قال ابن إسحاق: وبلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: إني رأيت إن أهديت قعبة مملوءة زبد فنظرها ديك فهراق ما فيها فقال: أبو بكر ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: «ولا أرى ذلك» وروى محمد بن عمر عن أبي هريرة قال: لما مضت خمسة عشر من حصار الطائف استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلمي رضي الله عنه فقال: «يا نوفل ما ترى في المقام عليهم»؟ فقال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وروى الشيخان عن ابن عمر وعمر رضي الله عنهما لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ولم ينل منه شيئاً قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فثقل عليهم قالوا: تذهب ولا نقبح فقال: اغدوا فغدوا فقاتلوا قتالاً شديداً فأصابهم جراح فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى» قال: فأعجبهم فضحك رسول الله ﷺ، ذكر الصالحي أنه استشهد من المسلمين بالطائف اثنا عشر رجلاً، روى البيهقي عن عروة أمر رسول الله ﷺ أن لا يسرحوا ظهرهم فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه ودعا حين ركب قافلاً: «اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم» وروى الترمذي وحسنه عن جابر قالوا: يا رسول الله ﷺ أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم» قال ابن

إسحاق في رواية حاصر أهل الطائف ثلاثين ليلة أو قريباً من ذلك وفي رواية بضعاً وعشرين يوماً، وقيل: عشرين يوماً وقيل: بضع عشرة ليلة قال ابن حزم هو الصحيح بلا شك، وروى أحمد ومسلم عن أنس أنهم حاصروا الطائف أربعين ليلة، واستغربه في الهداية، قال البغوي: حاصرهم بقية الشهر يعني شوال فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، قلت: هذا يوافق ما قال: ابن حزم وعلى هذا لا دلالة فيه على القتال في الشهر الحرام كما ذكر من ادعى نسخ حرمة القتال فيها فأتى رسول الله ﷺ الجعرانة فأحرم منها بعمرة قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ أن يهديه إلى الإسلام ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قال ابن إسحاق في رواية يونس بن بكر عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صرد وفيهم بويرقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة وقد أسلموا، فقال: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا من الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله إن ما في الحظائر[1] من السبايا عماتك وخالاتك يعني من الرضاع وحواضنك[2] اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر يعني ملك الشام من العرب أو للنعمان بن المنذر يعني ملك العراق من العرب ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت يا رسول الله خير المكفولين ثم أنشد بعض الشعر.

وروى الصالحي عن زهير بن صرد الجشمي يقول؛ لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين ويوم هوازن وذهب يفرق السبي والشاة أتيته فإن شاءت أقول أمنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر وقرأ أشعاراً، قال: فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر قال: «ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» وقالت قريش ما كان لنا فهو لله ولرسوله وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لله ورسوله، قال الصالحي: هذا حديث جيد الإسناد عال جداً رواه أيضاً المقدسي في «صحيحه»، ورجح الحافظ ابن حجر أنه حديث حسن.

وروى البخاري في «الصحيح» حديث مروان ومسور بن مخرمة، قالا: إن رسول الله ﷺ حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم فقال رسول الله ﷺ: «معي من ترون وأحب الحديث إليّ أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال» قالوا: فإنا نختار سبياً فقام رسول الله ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب أن يكون على حظه نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا، فليفعل» فقال الناس: قد طبنا ذلك يا رسول الله ﷺ: «أنا لا أدري من أذن منكم في ذلك فمن لم

---

(١) جمع حظيرة وهو الذرب الذي يصنع للإبل والغنم وكان السبي في حظائر شهرًا.
(٢) الحاضنة المرضعة جمع حواضن.

يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس فكلمهم عرفاءهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا»[١] روى أبو داود والبيهقي وأبو يعلى عن أبي الطفيل قال: رأيت رسول الله ﷺ يقسم بالجعرانة لحماً فجاءت امرأة بدوية، فلما دنت من النبي ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه فقلت: من هذه؟ فقالوا: أمه التي أرضعته، وروى أبو داود في «**المراسيل**» عن عمرو بن السائب قال: كان رسول الله ﷺ جالساً يوماً فجاءه أبوه من الرضاعة فوضع بعض ثوبه فقعد عليه ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر ثم جاءه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه.

وقال محمد بن عمر لما هزم المشركون يوم حنين أمر رسول الله ﷺ بطلب العدو وقال لخيله إن قدرتم على بجاد رجل من بني سعد فلا يفلتن منكم وقد كان أحدث حدثاً عظيماً، كان أتى رجلاً مسلماً فأخذه فقطعه عضواً عضواً ثم حرقه بالنار وكان قد عرف جرمه فهرب فأخذته الخيل فضموه إلى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ، يعني من الرضاعة وأتبعوها في الساق فجعلت شيماء تقول: إني والله أخت صاحبكم فلم يصدقوها فأتوا بها رسول الله ﷺ، فقالت: يا محمد إني أختك فقال رسول الله ﷺ: وما علامة ذلك؟ فأرته عضة بإبهامها فقالت: عضة عضضتنيها وأنا متوركتك[٢] بوادي السرب ونحن نرعى بهم أبيك وأبي وأمك وأمي وقد نازعتك الثدي، فعرف رسول الله ﷺ العلامة فوثب قائماً وبسط رداءه ثم قال: «اجلسي عليه» وترحب بها ودمعت عيناه وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتهما فقال: «إن أحببت أقيمي عندنا محببة مكرمة وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك ورجعتك إلى قومك» قالت: بل أرجع إلى قومي فأسلمت فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية وأمر لها ببعير أو بعيرين وقال لها: ارجعي إلى الجعرانة تكونين مع قومك فإني أمضي إلى الطائف فرجعت إلى جعرانة، ووافاها رسول الله ﷺ وأعطاها نعماً وشاة ولمن بقي من أهل بيتها وكلمته في بجاد أن يهبه لها ويعفو عنه ففعل رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق في رواية يونس بن عمر: إن رسول الله ﷺ لما فرغ من رد سبايا هوازن ركب بعيره وتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئاً حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه فقال: «يا أيها الناس ردوا علي ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا كذاباً» الحديث، قال ابن إسحاق: أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافاً من أشراف العرب يأتلف بهم قلوبهم، قال محمد بن عمر بالأموال فقسمها وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، قال الصالحي: منهم من أعطى مائة بعير ومنهم من أعطى خمسين وجميع ذلك يزيد على

---

(١) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٥، والمغازي باب ٥٤.

(٢) متوركتك: أي جعلتك على وركي.

خمسين رجلاً، ثم ذكر الصالحي أسماءهم فذكرهم سبعاً وخمسين رجلاً.

روى الشيخان في «الصحيحين» عن حكيم بن حزام قال: «سألت رسول الله ﷺ بحنين مائة من الإبل فأعطانيها ثم سألته مائة فأعطانيها ثم قال رسول الله ﷺ: «يا حكيم إن هذا المال حلوة فمن أخذ بسخاوة نفس بورك فيه ومن أخذه بإسراف نفس لم يبارك فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» فقال حكيم: والذي بعثك بالحق لا أزري أحداً بعدك شيئاً[١]، فكان عمر بن الخطاب يدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذ فيقول عمر أيها الناس أشهدكم على حكيم بن حزام أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذ، قال ابن أبي الزياد: أخذ حكيم المائة الأولى فقط وترك الباقي، وأعطى رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو مائة وأبو سفيان بن حرب مائة من الإبل وأعطاه أربعين أوقية فضة وابنه معاوية مائة من الإبل وأربعين أوقية فضة ويزيد بن أبي سفيان مائة بعير وأربعين أوقية وهكذا، روى البخاري عن صفوان قال: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه» وفي صحيح مسلم أنه ﷺ: «أعطاه مائة من النعم ثم مائة ثم مائة» قال محمد بن عمر يقال: إن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ بتصفح الغنائم إذ مر بشعب مما أفاء الله على رسوله فيه غنم وإبل ورعاء مملوء فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه فقال رسول الله ﷺ عجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟ قال: نعم، قال: «هو لك بما فيه» فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبي.

روى أحمد ومسلم والبيهقي عن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من سبي حنين كل رجل منهم مائة من الإبل وذكر الحديث وفيه أعطى العباس بن مرداس دون المائة فأنشأ العباس يقول[٢]:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فما كان حصين ولا حابس يقومان مرداس في المجمع

إلى آخر الأبيات، فأتم له رسول الله ﷺ المائة وأعطى عثمان بن وهب وعدي بن قيس وعمير بن وهب وعلام بن جارية ومخرمة بن نوفل وغيرهم كل واحد منهم خمسين بعيراً ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فضها على الناس، فكانت سهمانهم لكل رجل منهم أربعة من الإبل أو أربعين شاة فإن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل أو عشرين ومائة شاة وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسهم له. قلت: عطاءه ﷺالمؤلفة قلوبهم يبلغ أربعة آلاف بعير أو زائداً عليه، وقد مر فيما سبق أن إبل المغنم كانت أربعة وعشرين ألف بعيراً، الغنم أكثر من أربعين ألف شاة وهي تساوي أربعة آلاف بعير فصار المجموع ثمانية وعشرون ألف بعير فخمسة يكون أقل من خمسة آلاف بعير

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٠، والوصايا باب ٩، والخمس باب ١٩.

(٢) البيت من المتقارب، وهو في ديوان العباس بن مرداس ص٨٤.

فعطاء المؤلفة لا يخلو إما أن يكون من رأس الغنيمة أو من جميع الخمس ولا يمكن أن يكون من خمس الخمس سهم رسول الله ﷺ فيلزم من هذا إما التنفيل بعد الإحراز بلا شرط سبق والصرف الخمس إلى صنف واحد وجعل المؤلفة صنفاً من الفقراء والله أعلم.

ولما كان رجال العسكر اثني عشر ألفاً أو ستة عشر ألفاً ومنهم الفرسان وصار سهم الراجل أربعة بعير والفارس اثني عشر بعيراً فهذا يقتضي أن يبلغ الغنيمة ستين ألف بعيراً وأكثر أو أقل ولعل ذلك بضم قيمة العروض والنقود إلى المواشي والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن الحارث التيمي أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ من أصحابه قال محمد بن عمر هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصين والأقرع بن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة بن حصين والأقرع بن حابس ولكني أتألفهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه»، وروى البخاري عن عمرو بن تغلب قال أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين فكأنهم عتبوا فقال: «إني لأعطي أقواماً أخاف هلعهم وجزعهم وأكِل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب»(١)، قال عمرو: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم، وفي هذا المقام قال رسول الله ﷺ: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار على وجهه»(٢) رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص.

روى ابن إسحاق وأحمد عن أبي سعيد الخدري وأحمد والشيخان من طرق عن أنس بن مالك والشيخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ لما أصاب غنائم حنين وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، وفي رواية طفق يعطي رجالاً المائة من الإبل ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم المقالة حتى قال قائلهم يغفر الله لرسول الله ﷺ إن هذا لهو العجيب يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا يقطر من دمائهم إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطي الغنيمة غيرنا ودوننا ممن كان هذا فإن كان من الله صبرنا وإن كان من رسول الله استعتبناه، فقال رجل من الأنصار: لقد كنت أحدثكم أن لو استقامت الأمور لقد أثر عليكم فردوا عليه رداً عنيفاً، قال أنس فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم فقال أبو سعيد فمشى سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، قال: فبم؟ قال: فيما كان من قسمك هذا لغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال: أين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، فقال رسول الله ﷺ: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»، فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم فجاء رجل

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٦٩.
(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢.

من المهاجرين فأذن له فيهم وجاء آخرون فردهم حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد خرج رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار ألم تكن ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم قالوا: بلى الله ورسوله أمن وأفضل، فما قال رسول الله ﷺ شيئاً إلا قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: لا تجيبون يا معشر الأنصار، قالوا: ما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ أمن لله تعالى ولرسوله ﷺ، قال: «والله لو شئتم لقلتم وصدقتم وصدقتم جئتنا طريداً فأويناك وعائلاً فآسيناك وخائفاً فأمناك ومخذولاً فنصرناك ومكذباً فصدقناك» فقالوا: المنّ لله ولرسوله، فقال: فما حديث بلغني عنكم؟ فسكتوا، فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أما رأسنا فلم يقولوا شيئاً وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً وتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم»، وفي رواية «إن قريشاً حديثو عهد لجاهلية ومصيبة وإني أردت أن أجبرهم»، في رواية من الجبر ضد الكسر، وفي رواية براء معجمة من الجابرة «وأتألفهم أوجدتم يا معشر الأنصار في نفوسكم في لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير؟» وفي لفظ «بالدنيا وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزورنه إلى بيوتكم فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، أنتم الشعار[2] والناس الدثار[3] الأنصار كرشي[4] وعيبتي[5] ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله وبرسوله حظاً وقسماً.

وذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أراد حينئذٍ أن يكتب بالبحرين يكون خاصة بعده دون الناس وهي يومئذٍ أفضل ما فتح عليه من الأرض فأبوا وقالوا: لا حاجة لنا بالدنيا بعدك فقال رسول الله ﷺ: «إنكم ستجدون بعدي أثرة[6] شديدة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» قال أهل المغازي قال رسول الله ﷺ لوفد هوازن: «ما فعل مالك بن عوف» قالوا: يا رسول الله هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أنه إن يأتي مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل» وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبد الله بنت أبي أمية فلما بلغ مالكاً ما صنع رسول الله ﷺ

---

(١) هي بقلة خضراء ناعمة، شبه بها الدنيا لقلة بقائها.
(٢) الثوب الذي يلي الجسد.
(٣) ما يجعل فوق الشعار من الثوب.
(٤) الكرش مجمع العلف من الحيوانات.
(٥) عيبته: مستودع الثياب.
(٦) أي يستأثر عليكم بما لكم فيه اشتراك في الاستحقاق.

وأن أهله وماله موفور وقد خاف مالك ثقيفاً على نفسه وخاف أن يسمعوا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال: فيحبسونه، فأمر براحلته فقدمت له بوحناء وأمر بفرس له فأتى به ليلاً فخرج من الحصن فجلس على فرسه ليلاً فركضه حتى أتى وحناء فركب بعيره فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه رسول الله ﷺ أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه، فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه من تلك القبائل من هوازن ودوساً وثقيفاً وثمالة وكان قد ضوى إليه قوم مسلمون واعتقد لواء فكان يقاتل بهم من كان على الشرك ويميل بهم على ثقيف فيقاتلهم بهم ولا يخرج لثقيف سرح إلا غار عليه وكان لا يقدر على سرح إلا أخذه ولا على رجل إلا قتله وكان يبعث إلى رسول الله ﷺ بالخمس مما يغنم مرة مائة بعير ومرة ألف شاة، ولقد أغار على سرح لأهل الطائف فاستاق لهم ألف شاة في غداة واحدة، قال ابن إسحاق في رواية يونس: قدم رسول الله ﷺ وفد ثقيف في رمضان سنة تسع فأسلموا وذلك بعد غزوة تبوك والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ
مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ
ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ مصدر من نجس ينجس على وزن سمع يسمع أو كرم يكرم ولذا لا يثنى ولا يجمع ويستوي فيه الذكر والأنثى، وحمله إما على المبالغة أو بتقدير ذو، في القاموس النجس بالفتح وبالكسر وبالتحريك وككتف وعضد... ضد الطاهر، قلت: وهو ما يستقذره الطبع السليم ويطلق عليه النجاسة الحقيقية كالقاذورات والدم وألحق بها الشارع النجاسات الحكمية من الحدث والجنابة وانقطاع الحيض والنفاس فهو ما يستقذره الشرع، فالكافر نجس شرعاً لأنه حبيث لخبث باطنه ليستقذره الشرع ويجب الاجتناب عنه كما يجب على المصلي الاجتناب عن النجاسة الحقيقية فلا يجوز موالاتهم قال الضحاك: وأبو عبيدة نجس يعني قذر، قال البغوي: أراد به نجاسته الحكم لا نجاسة العين سموا نجساً على الذم، وقال قتادة سماهم نجساً لأنهم يجتنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤون ولا يجتنبون من النجاسات.

وعن ابن عباس أن أعيانهم نجسة كالكلاب، أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفيه»[١] وهذا القول متروك بالإجماع ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، قالت الحنفية: المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً بدليل أن النبي ﷺ بعث علياً رضي الله عنه ينادي في الموسم: «لا يحج بعد العام مشرك»[٢] فظهر أن المراد منعهم عن الحج والعمرة فيجوز عنده دخول الكافر المسجد الحرام ودخول غيره بالطريق الأولى وورد النهي عن الاقتراب للمبالغة، وقالت الشافعية هو نهي عن دخولهم الحرم لأنهم إذا دخلوا بالحرم فقد اقتربوا من المسجد الحرام وهذا كما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أم هانىء.

قال البغوي رضي الله عنه جملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام أحدها: الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية وإذا جاء رسول من دار الكفار إلى الإمام والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم، والقسم الثاني من بلاد الإسلام الحجاز فلا يجوز للكافر الإقامة فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام لكن جاز له دخولها لما روي عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشت إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً»[٣] فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[٤] فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر رضي الله عنهما في خلافته وأجل لمن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً، وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى الشام في العرض، والقسم الثالث سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان ولكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم، وقال الحافظ ابن حجر المروي عن الشافعي التفضيل بين المسجد الحرام وغيره من المساجد فلا يجوز له دخول المسجد الحرام ويجوز له دخول غيرها من المساجد وعند المالكية والمزني لا يجوز للكافر دخول شيء من المساجد قياساً على المسجد الحرام، وعقد البخاري باباً على دخول المشرك المسجد يعني على جواز دخوله وذكر فيه حديث أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد وقد ذكرنا حديث قصة ثمامة بن أثال وإسلامه في

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ١٠، والحج باب ٦٧، والمغازي باب ٦٦، ومسلم في الحج حديث ٤٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٦٣، وأبو داود حديث ٣٠٣٠، والترمذي حديث ١٦٠٧، وأحمد في المسند ١/ ٢٩، ٣/ ٣٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في الجزية باب ٦، ومسلم في الوصية حديث ٢٠، والدارمي في السير باب ٥٤.

سورة الأنفال في مسألة جواز المن على الأسارى، وهذا الاستدلال ضعيف لأن قصة ثمامة بن أثال كان قبل فتح مكة وقد منع الكفار عن الحج أو الدخول في المسجد الحرام في سنة تسع حيث قال الله تعالى: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ يعني العام الذي نزلت فيه سورة التوبة وحج فيه أبو بكر ونادى علي ببراءة وهي سنة تسع من الهجرة، وقيل: يؤذن للكتابي خاصة بدخول المسجد قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري في باب دخول المشرك المسجد إن حذيث الباب يرد على هذا القول إن ثمامة بن أثال لم يكن من أهل الكتاب والله أعلم.

قال البيضاوي في هذه الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع نظراً إلى أنه سبحانه نهاهم عن اقتراب المسجد وهذا ليس بشيء فإن الخطاب في الآية للمؤمنين حيث قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية فالمؤمنون مأمورون بمنعهم عن المسجد الحرام وإن كان ظاهر الآية نهياً للكفار كيف ولو كان الكفار مخاطبين بالفروع كانوا مخاطبين مأمورين بالحج إذ الحج من الفروع مع أن الآية يمنعهم عن الدخول والحج فيلزم التناقض ولو كانوا مخاطبين بهذه الآية بعدم الدخول وترك الحج لكانوا ممتثلين بتركهم الحج فيلزم أن يكونوا إما مأجورين مثابين في ذلك وذلك باطل والله أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير وعكرمة وعطية العوفي والضحاك وقتادة وغيرهم أنه كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام فلما نهوا عن إتيان البيت ونزلت: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ شق على المسلمين وقالوا: من يأتينا بالطعام وبالمتاع فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون من أهل مكة ﴿عَيْلَةً﴾ يعني فقر لوفاقة يقال عال يعيل عيلة ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ قيده بالمشيئة لينقطع بالآمال إليه ولينبه على أنه متفضل في ذلك وأن الغنى الموجود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع قال عكرمة: فأغناهم الله بأن أنزل عليهم المطر مدرار فكثر خيرهم، وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها وذلك قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ قال مجاهد نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها عزوة تبوك. فإن قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ أجيب: بأنهم لا يؤمنون على ما ينبغي فإنهم إذا قالوا: عزير بن الله والمسيح ابن الله لم يكن إيمانهم بالله على حقيقته ولم يعتقدوا كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وإذا قالوا: لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأن النار لا يمسهم إلا أياماً معدودات، واختلفوا في نعيم الجنة أهو من جنس نعيم الدنيا أو غيره وفي دوامه وانقطاعه وقال بعضهم لا أكل فيها ولا شرب لم يكن إيمانهم بالآخرة على حقيقته فإيمانهم كلا إيمان، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾

أي: ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة.

وقيل: المراد برسوله الذي يزعمون اتباعه والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً فإن موسى وعيسى أمرا باتباع محمد ﷺ ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون الدين الحق أضاف الاسم إلى الصفة وقال قتادة الحق هو الله أي: لا يدينون دين الله فإن الدين عند الله الإسلام، وقيل: الحق الإسلام والمعنى دين الإسلام، وقال أبو عبيدة معناه لا يطيعون الله طاعة أهل الحق ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ بيان للذين لا يؤمنون يعني اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ وهي في اللغة الجزاء وإنما بنيت على فعلة للدلالة على الهيئة وهي هيئة الإذلال عند العطاء على ما ستعرف، والمراد به الخراج المضروب على رقابهم وقيل: هي مشتق من جزى دينه إذا قضاه ﴿عَن يَدٍ﴾ حال من الضمير أي: عن يد مواتية غير ممتنعة يعني منقادين أو عن يد من يعطي خراجه يعني مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم كذا قال ابن عباس: .

ولذلك يمنع من التوكيل في أداء الجزية أو المعنى عن قهر وذل، قال أبو عبيدة يقال لكل من أعطى شيئاً من غير طيب نفس أعطاه من يد وقيل: معنى عن يد نقداً لا نسيئة، وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم عوضاً عن القتل ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أذلاء مقهورون، قال عكرمة: يعطون الجزية قياماً والقابض جالس، وعن ابن عباس قال: يؤخذ ويوطأ عنقه، وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه، وقيل: يؤخذ بلحيته فيضرب في لهزمته وقيل: يليب ويجر إلى موضع الإعطاء بعنف وقيل: إعطاءه إياه وهو الصغار، وقال الشافعي: الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم ظاهر هذه الآية يقتضي أن انتهاء القتال بإعطاء الجزية مختص بأهل الكتاب ولأجل هذه لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر[(١)] رواه البخاري في «**صحيحه**» من حديث بجالة بن عبدة، واختلف كلام الشافعي في بجالة فقال: في الحدود مجهول وقال في الجزية حديث ثابت ولأجل هذا الحديث انعقد الإجماع جواز أخذ الجزية من المجوس.

مسألة

اختلف العلماء في باب الجزية؟ فقال أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب على العموم عربياً كان أو أعجمياً ومن مشركي العجم على العموم مجوسياً كان أو وثنياً إلا المرتدين، وقال أبو يوسف: يؤخذ من أهل العجم دون أهل العرب كتابياً كان أو مشركاً، وقال مالك والأوزاعي يؤخذ من كل كافر عربياً كان أو أعجمياً إلا مشركي قريش خاصة والمرتدين وذهب الشافعي إلى أن الجزية على الأديان لا على الإنسان فيؤخذ من أهل الكتاب عرباً وعجماً ولا يؤخذ من أهل الأوثان بحال، وأما المجوس فهم عنده أهل كتاب، لما روى

(١) انظر الحاشية التالية.

مالك في الموطأ والشافعي في الأم عنه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عمر قال: ما أدري ما أصنع في أمرهم يعني المجوس فقال له عبد الرحمٰن بن عوف أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنّوا بهم سنة أهل الكتاب»(١).

وقال الشافعي ثنا سفيان عن سعيد بن المرزبان عن نصر بن عاصم قال: قال فروة بن نوفل على ما يؤخذ الجزية من المجوس فليسوا بأهل كتاب، فقام إليه المستور فأخذ بلبته وقال باعد والله أتطعن أبا بكر وعمر وأمير المؤمنين يعني علياً وقد أخذوا منهم الجزية فذهب إلى القصر، فخرج عليهم علي فقال: اتئه أنا أعلم الناس بالمجوس، كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه وإن ملكهم سكر فوقع على ابنته أو أمه فاطلع عليه بعض أهل مملكته فلما صحا جاؤوا يقيمون عليه الحد فامتنع منهم فدعى أهل مملكته فقال: تعلمون ديناً خيراً من دين آدم قد كان آدم ينكح بنيه ببناته فأنا على دين آدم وما يرغب بكم عن دينه فبايعوه وقاتلوا الذين خالفوهم حتى قتلوهم فأصبحوا وقد أسرى علمائهم فرفع من بين أظهرهم وذهب العلم الذي في صدورهم أهل كتاب، وقد أخذ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر منهم الجزية، ذكر الحديث ابن الجوزي في التحقيق وقال سعيد بن مرزبان مجروح، قال يحيى بن سعيد لا استحل أن يروى عنه، وقال يحيى ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال القلاس متروك الحديث، وقال أبو أسامة كان ثقة، وقال أبو ذرعة صدوق مدلس، قلت: وذكر أبو يوسف في كتاب الخراج قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن نضر بن عاصم الليثي عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس وقال: أنا أعلم الناس بهم، كانوا أهل كتاب يقرؤونه وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم، قال أبو يوسف وحدثنا نصر بن خليفة أن فروة بن نوفل الأشجعي قال: إن هذا الأمر عظيم يؤخذ من المجوس الخراج وليسوا بأهل الكتاب، قال: فقام إليه مستورد بن الأحنف قال: طعنت على رسول الله ﷺ فتب وإلا قتلتك وقال: قد أخذ رسول الله ﷺ من مجوس أهل هجر الخراج، قال: فارتفعا إلى علي رضي الله عنه فقال: أنا أحدثكما بحديث ترضيانه جميعاً عن المجوس أن المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرؤونه وأن ملكاً شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه أربعة رهط فوقع عليها وهم ينظرون إليه، فلما أفاق من سكره قالت له أخته: إنك صنعت كذا وفلان وفلان وفلان ينظرون إليك فقال: ما علمت ذلك، قالت: إنك مقتول إلا أن تطيعني، قال: فإني أطيعك، قالت: فاجعل هذا ديناً وقل هذا دين آدم وقل حواء من آدم وادع الناس إليه وأعرضهم على السيف فمن بايعك فدعه ومن أبى فاقتله ففعل فلم يتابعه أحد فقتلهم يومئذٍ حتى الليل، فقالت له: إني أرى الناس قد اجترؤوا على السيف وهم على النار لكع فأوقد لهم ناراً ثم أعرضهم علينا ففعل وهاب الناس من النار فبايعوه، قال علي رضي الله عنه فأخذ رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه مالك في الزكاة حديث ٤٢.

الخراج لأجل كتابهم وحرم مناكحهم وذبائحهم لشركهم.

وروى ابن الجوزي في التحقيق أن ابن عباس قال: إن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية، والجواب: أن قوله ﷺ: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» لا يدل على كونهم من أهل كتاب ولا على أن يفعل بهم كل ما يفعل بأهل الكتاب بل يدل على جواز أخذ الجزية منهم للإجماع على أنه لا يجوز مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم، وما ذكر من حديث علي حجة لنا لا علينا لأنهم وإن كان أسلافهم أهل كتاب يدرسونه لكنهم منذ تركوا ذلك الدين والعمل بالكتاب ورفع العلم منهم وكتب لهم إبليس المجوسية لم يبقوا أهل كتاب، ومن ههنا اتفق العلماء على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب إلا في قول للشافعي وفي قول هو مع الجمهور إنهم ليسوا بأهل كتاب، قلت: ولو كفى كون أسلافهم من أهل الكتاب لكان عبدة الأوثان من أهل الهند أولى بهذا الاسم فإنهم يقرؤون الكتاب ويدرسونه ويسمونه بيد وهي أربعة أجزاء ويزعمونه من عند الله تعالى ويوافق أصولهم في كثير من الأمور بأصول الشرع وما يخالف الشرع فذلك من اختلاطات الشيطان كما تفرق فرق الإسلام إلى ثلاث وسبعين فرقة بتخليطه الشيطان ودعوتهم هذا مؤيد من الشرع حيث قال: الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] فهم أولى من المجوس في كونهم أهل كتاب لأن ملك المجوس لما سكر وزنا بأخته ترك دينه وكتابه وادعى دين آدم وهؤلاء الكفار لم يفعلوا ذلك إلا أنهم كفروا بتركهم الإيمان بالنبي ﷺ وقد ذكر لي أن في الجزء الرابع من بيد بشارة ببعثة خاتك النبيين محمد ﷺ حتى أسلم بعض من قرأ الجزء والله أعلم.

وقد يحتج للشافعي على أن الوثني لا يؤخذ منهم الجزية بأن القتال واجب بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٢] إلا أنا عرفنا جواز تركه حق أهل الكتاب بالكتاب وفي حق المجوس بالخبر، يعني أنه ﷺ أخذها من مجوس الهجر فبقي من ورائهم على الأصل، قلنا قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خص منه المجوس بالإجماع فجاز تخصيصه بالمعنى وبالحديث، أما المعنى فإن عبدة الأوثان في معنى المجوس فإنهم مشركون كهيئتهم وكون أصولهم من أهل الكتاب لا يفيدهم وأيضاً يجوز استرقاقهم بالإجماع فيجوز ضرب الجزية عليهم إذ كل واحد منهما يشتمل على سلب النفس منهم فإنه يكتسب ويؤدي إلى المسلمين ونفقته في كسبه، وأما الحديث فحديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة بتقوى الله. . . ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً وإذا ألقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار الهجرة فأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري

على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»(١) الحديث رواه مسلم، والحجة على جواز أخذ الجزية من الكتابي العربي حديث أنس قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فأخذوه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية(٢) رواه أبو داود، وروى أبو داود والبيهقي من حديث يزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أعيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكاً على دومة فذكره مطولاً وفيه أنه صالحه على الجزية.

قال: الحافظ: إن ثبت أن أكيدر كان كندياً ففيه دليل على أن الجزية لا يختص بالعجم من أهل الكتاب لأن أكيدر عربي، وإذا ثبت أن الجزية لا يختص بأهل الكتب ولا بأهل العجم ثبت مذهب أبي حنيفة ومالك غير أن أبا حنيفة يقول: لا يجوز الجزية من عبدة الأوثان من أهل العرب ولا استرقاقهم، أخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أنه ﷺ صالح عبدة الأوثان إلا من كان من العرب، قال أبو حنيفة: إن النبي ﷺ نشأ بين أظهر العرب والقرآن نزل بلغتهم فالمعجزة في حقهم أظهر فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف وكذا المرتد فإنه كفر بربه بعدما هدى إلى الإسلام ووقف على محاسنه فلا يقبل منه إلا الاستلام أو السيف، ذكر محمد بن الحسن عن مقسم عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «لا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو القتل»(٣) وإذا ظهر على عبدة الأوثان من العرب أو المرتدين يسترق نساءهم وصبيانهم لأن النبي ﷺ استرق ذراري أوطاس وهوازن وهم من مشركي العرب وكذا ذراري بني المصطلق وغيرهم وأبو بكر استرق ذراري بني حنيفة لما ارتدوا وقسمهم بين الغانمين وكانت منهم أم محمد بن علي بن أبي طالب وأم زيد بن عبد الله بن عمر ثم إن ذراري المرتدين ونساءهم يجبرون على الإسلام بعد الاسترقاق بخلاف ذراري عبدة الأوثان، وقال الشافعي: يسترق ذراري عبدة الأوثان من العرب والجواب لأبي يوسف إن أخذ الجزية من كفار العرب كتابياً كان أو مشركاً وإن ثبت بحديث أخذ الجزية من أكيدر لكنه نسخ بالأحاديث الواردة في إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وأن لا يترك فيها إلا مسلماً فإن أخذ الجزية من كفار العرب فرع تركهم فيها، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، أوصى بثلاث قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بما كنت أجيزهم» قال ابن عباس: وسكت عن الثالثة أو قال: نسيتها»(٤) متفق عليه، وعن جابر بن عبد الله قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٢.
(٢) أخرجه أبو داود في الإمارة باب ٣٠.
(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٤) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.

اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»[١] رواه مسلم، وروى مالك في الموطأ عن ابن شهاب مرسلاً: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»[٢] ووصله صالح بن أبي الأخضر... عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة أخرجه إسحاق في مسنده، وروى أحمد والبيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح آخر ما تكلم به النبي ﷺ قال: «أخرجوا اليهود من الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب».

مسألة

اختلفوا في قدر الجزية؟ فقال أبو حنيفة: إن وضع الجزية بالتراضي والصلح فيقدر بحسب ما يقع عليه الصلح كما صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة، روى أبو داود عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة النصف في صفر والنصف في رجب، وقال أبو يوسف في كتاب الخراج وأبو عبيدة في كتاب الأموال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران إلى أن قال: ألفي حلة كل حلة أوقية يعني قيمة أوقية، قال ابن همام: فقول الولوجي كل حلة خمسون درهماً ليس بصحيح لأن الأوقية أربعون درهماً والحلة ثوبان إزار ورداء ويعتبر هذه الحلل في مقابلة رؤوسهم وأراضيهم، قال أبو يوسف ألفا حلة على أراضيهم وعلى جزية رؤوسهم يقسم على رؤوس الرجل الذين لم يسلموا وعلى كل أرض من أراضي نجران وإن كان بعضهم قد باع أرضه أو بعضها من مسلم أو ذمي أو تغلبي والمرأة والصبي في ذلك سواء أراضيهم وأما جزية رؤوسهم فليس على النساء والصبيان، وروى ابن أبي شيبة أنه صالح عمر نصارى بني تغلب على أن يؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم المال الواجب. وإن غلب عليهم الإمام وأقرهم على أملاكهم فيضع على الغني الظاهر الغني في كل سنة ثمانية وأربعين درهماً يأخذ منهم في شهر أربعة دراهم وعلى وسط الحال أربعة وعشرون درهماً في كل شهر درهماً وعلى الفقير المعتمل اثنا عشر درهماً في كل شهر درهم إذا كان صحيحاً في أكثر السنة عند أبي حنيفة رحمه الله، وقال مالك في المشهور عنه على الغني والفقير جميعاً أربعة دنانير في السنة أو أربعين درهماً لا فرق بينهما، وقال الشافعي الواجب دينار يستوي فيه الغني والفقير، وعن أحمد أربع روايات أحدها كقول أبي حنيفة والثانية أنها مفوضة إلى رأي الإمام وليست بمقدرة وبه قال الثوري والثالثة أنه يقدر الأقل منها بدينار دون الأكثر، والرابعة أنها في أهل اليمن خاصة مقدر بدينار دون غيرهم اتباعاً لحديث ورد فيهم.

عن معاذ أن رسول الله ﷺ: «لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله من المعافر ثياب يكون باليمن»[٣] رواه أبو داود والترمذي والنسائي والدارقطني

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) أخرجه مالك في المدينة حديث ١٨، ١٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٥، والنسائي في الزكاة باب ٨، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤٧، والترمذي في الزكاة باب ٥.

وابن حبان والحاكم وبه أخذ الشافعي على الإطلاق، قال أبو داود: وحديثه منكر، وقال: بلغني عن أحمد أنه كان ينكره، وذكر البيهقي الاختلاف فيه فبعضهم رواه عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق، عن معاذ، وقال بعضهم عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق أن النبي ﷺ لما بعث معاذ الحديث، وأعله ابن حزم بالانقطاع وأن مسروقاً لم يلق معاذاً، وقال الحافظ بن حجر فيه نظر، وقال الترمذي حديث حسن، وذكر أن بعضهم رواه مرسلاً وأنه أصح ومذهب أبي حنيفة منقول عن عمر وعثمان وعلي ذكر الأصحاب في كتبهم عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن الحكم أن عمر بن الخطاب وجه حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف إلى السواد فمسحا أرضها ووضعا عليها الخراج وجعلا الناس ثلاث طبقات على ما قلنا فلما رجعا أخبراه بذلك ثم عمل عثمان كذلك، وروى ابن أبي شيبة ثنا علي بن مسهر الشيباني عن ابن عون محمد بن عبد الله الثقفي قال: وضع عمر بن الخطاب في الجزية على رؤوس الرجال على الغني ثمانية وأربعين درهماً وعلى المتوسط أربعة وعشرون وعلى الفقير اثني عشر درهماً وهو مرسل، ورواه ابن زنجويه في كتاب الأموال ثنا مندل عن الشيباني عن ابن عون عن المغيرة بن شعبة أن عمر وضع الحديث إلى آخره، وطريق آخر، رواه ابن سعد في الطبقات إلى نضرة أن عمر بن الخطاب وضع الجزية على أهل الذمة فيما فتح البلاد فوضع على الغني إلى آخر ما ذكر، ومن طريق آخر أسنده عبد القاسم بن سلام إلى حارثة بن مضر عن عمر أنه بعث عثمان بن حنيف فوضع عليهم ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنا عشر وقد كان ذلك بمحضر من الصحابة بلا نكير فحل محل الإجماع.

وقال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي أن عمر بن الخطاب مسح السواد فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب وأنه وضع على جريب الزرع درهماً وقفيزاً على الكرم عشرة دراهم وعلى الرطبة خمسة دراهم وعلى الرجل اثني عشر درهماً وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون درهماً، قال: وحدثني سعيد بن أبي عروية عن قتادة عن ابن مجلز قال: بعث عمر بن الخطاب عمار بن ياسر على الصلة والحرب وبعث عبد الله بن مسعود على القضاء وبيت المال وبعث عثمان بن حنيف على مساحة الأرض وجعل بينهم شاة كل يوم شطرها وبطنها لعمار وربعها لعبد الله بن مسعود والربع الآخر لعثمان بن حنيف وقال: إني أنزلت نفسي وإياكم بهذا المال بمنزلة وإلى اليتيم فإن الله قال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦] والله ما أرى أرضاً يؤخذ منها شاة في كل يوم إلا سيسرع ضرابها قال: فمسح عثمان الأرضين فجعل على جريب العنب عشرة وعلى جريب النخل ثمانية وعلى جريب القصب ستة وعلى جريب الحنطة أربعة وعلى جريب الشعير درهمين وعلى الرأس اثنا عشر درهماً وأربعة وعشرين وثمانية وأربعين، وعطل من ذلك النساء والصبيان، قال سعيد وخالفني بعض أصحابي فقال: على جريب النخل عشرة وعلى جريب العنب ثمانية، قال: وحدثني محمد بن إسحاق عن حارثة بن مطرف عن عمر أنه أراد أن يقسم السواد بين المسلمين فأمر بهم أن يحصوا فوجد الرجل

نصيبه الاثنين والثلاثة من العلاجين فشاور أصحاب محمد ﷺ فقال علي رضي الله عنه وعنهم: يكونون مادة للمسلمين فبعث عثمان بن حنيف فوضع عليهم ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنا عشر، وأجاب الحنفية عن حديث معاذ أنه محمول على أنه كان صلحاً فإن اليمن لم يفتح عنوة بل صلحاً فوقع على ذلك وبأن كان أهل اليمن أهل فاقة والنبي ﷺ يعلم ذلك ففرض عليهم ما على الفقراء، ويدل على ذلك ما رواه البخاري عن أبي نجيح قلت لمجاهد ما شأن أهل الشام عليهم أربعة دنانير وأهل اليمن عليهم دينار قال: جعل ذلك من قبل اليسار، ووجه قول الثوري وأحمد أنه ﷺ أمر معاذاً بأخذ الدينار وصالح نصارى نجران على ألفي حلة وجعل عمر الجزية على ثلاث طبقات كما قال أبو حنيفة وصالح بني تغلب على ضعف ما يؤخذ من المسلمين فهذا يدل على أنه لا تقدير فيه بل هو مفوض إلى رأي الإمام.

مسألة

لا يؤخذ الجزية من فقير غير معتمل عند أبي حنيفة ومالك وأحمد، وللشافعي فيه أقوال، أحدها: إنه لا يؤخذ منه والثاني: إنه يجب عليه لكن يطالب عند يساره والثالث إنه إذا حال عليه الحول ولم يتيسر له الحق بدار الحرب له إطلاق قوله ﷺ في حديث معاذ: «خذ من كل حالم»[١] ولنا أن عثمان بن حنيف لم يوظف الجزية على فقير غير معتمل روى ابن رنجويه في كتاب الأموال ثنا الهشيم بن عدي عن عمر بن نافع حدثني أبو بكر العنسي صلة بن زفر قال: أبصر عمر شيخاً كبيراً من أهل الذمة ليال فقال له: ما لك؟ قال: ليس لي مال وإن الجزية تؤخذ مني فقال له عمر ما أنصفناك أكلنا شبيبتك ثم نأخذ منك الجزية[٢] ثم كتب عمر إلى عماله أن لا تأخذوا الجزية من شيخ كبير، وقد جاء في بعض طرقه وعلى الفقير المكتسب اثنا عشر أخرجه البيهقي.

قال أبو يوسف: حدثني عمرو بن نافع عن أبي بكر قال: مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل شيخ كبير ضرير البصر فذكر نحوه وقال: فوضع عنه الجزية وعن ضربائه قال أبو بكر: أنا شهدت ذلك من عمر ورأيت ذلك الشيخ، وقال أبو يوسف: حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عمر بن الخطاب أنه مر بطريق الشام وهو راجع في مسيرة من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت فقال: ما بال هؤلاء؟ قالوا: عليهم الجزية لم يؤدوا فهم يعذبون حتى يؤدوا، قال عمر: فما يقولون ما يعتذرون في الجزية قالوا: يقولون لا نجد قال: فدعوهم لا تكلفوهم ما لا يطيقون فإني سمعت

(١) تقدم الحديث مع تخريجه، انظر الحاشية السابقة.

(٢) وروي عن عمر بن الخطاب أنه مر برجل من أهل الكتاب مطروح على باب قال استكدوني وأخذوا مني الجزية حتى كف بصري فليس أحد يعود علي بشيء فقال عمر ما أنصفناه إذًا ثم قال هذا من الذين قال الله إنما الصدقات للفقراء والمساكين ثم أمر له برزق يجري عليه.

رسول الله ﷺ يقول: «لا تعذبوا الناس فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة»[١] وأمر بهم فخلى سبيلهم، وقال أبو يوسف: وحدثني بعض المشيخة المتقدمين يرفع الحديث إلى النبي ﷺ أنه ولي عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة فلما ولي من عنده ناداه فقال: «ألا من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته أو ينقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيبة نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»[٢] وهذا الحديث يؤيد مذهب أحمد أن الجزية مفوض إلى رأي الإمام ينظر طاقة الذمي ولا يكلفه فوق طاقته.

مسألة

لو وجبت الجزية على كافر بتمام السنة بعد عقد الذمة فلم يؤدها حتى أسلم؟ فعند الشافعي يؤخذ منه جزية ما مضى لأن الجزية أجرة الدار وقد استوفى سكنى الدار كما هو أحد قوليه بدلاً عن العصمة الذي يثبت للذمي بعقد الذمة كما هو قوله الآخر وقد وصل إليه المعوض وهو حقن دمه، وسكناه فتقرر البدل ديناً عليه في ذمته فلا يسقط عنه كسائر الديون، وعند أبي حنيفة ومالك وأحمد يسقط الجزية بإسلامه لأن الجزية عقوبة على الكفر ولا عقوبة بعد التوبة وهي غاية للقتال منه لهذه الآية وقد انتهى القتال بالإسلام وكون الجزية أجرة الدار ممنوع فإنه يسكن دار ملكه.

لنا حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على المسلم جزية»[٣] رواه أحمد والترمذي وأبو داود، قال أبو داود: سئل سفيان الثوري عن هذا فقال: يعني إذا أسلم فلا جزية عليه، وباللفظ الذي فسر به سفيان الثوري رواه الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من أسلم فلا جزية عليه»[٤] وضعف ابن القطان من رواة حديث ابن عباس قابوس بن أبي الظبيان وليس قابوس في سند الطبراني، قال ابن همام: هذا الحديث بعمومه يوجب سقوط ما كان استحق عليه قبل إسلامه بل هو المراد بخصوصه لأنه موضع الفائدة إذ عدم الجزية على المسلم ابتداء من ضروريات الدين في الأخبار به من جهة الفائدة ليس كالأخبار بسقوطها في حال البقاء، قال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني شيخ من علماء الكوفة قال: جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمٰن كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة وتستأذن في أخذ الجزية منهم وأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه.

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٢) أخرجه أبو داود في الإمارة باب ٣٣.
(٣) أخرجه الترمذي في الزكاة باب ١١، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٣، ٢٨٥.
(٤) أخرجه الزيلعي في نصب الراية باب ٣/ ٤٥٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣١.

فإن قيل: ما الفرق بين الخراج والجزية والاسترقاق مع أن كل واحد منها عقوبة على الكفر فكيف يقولون بسقوط الجزية وعدم سقوط الخراج والرق؟ قلنا: في الجزية ذل ظاهر، ومبناه على الصغار والخراج فيه معنى المؤنة فإن صاحب الأرض لا يتمكن من الزراعة من غير حماية السلطان والمقاتلة فكأنه يعطي أجر مؤنتهم وأما الرقيق فقد تعلق به ملك شخص معين، بخلاف الجزية فإنه لم يتعلق بها ملك شخص معين بل فيه استحقاق للعامة والحق الخاص فضلاً عن العام ليس كالملك الخاص.

مسألة

الجزية يجب بأول الحول عند أبي حنيفة وهي رواية عن مالك فيجوز مطالبة جزية سنة فوراً بعد عقد الذمة، وقال الشافعي وأحمد يجب ماجزه وهو المشهور عن مالك فلا يملك المطالبة حتى يمضي السنة، فإن مات في أثناء السنة أو بعد تمامها ولم يؤد الجزية سقطت بموته عند أبي حنيفة وأحمد، وقال مالك والشافعي لا تسقط والوجه لهما ما ذكرنا أنه بدل للسكنى أو لحقن الدم وقد استوفى المعوض فصار البدل ديناً يؤخذ من تركته، ولنا أنه عقوبة دنيوية والعقوبات الدنيوية تسقط بالموت كالحدود.

مسألة

إذ لم يؤد الذمي الجزية سنتين أو أكثر يتداخل ويؤخذ منه جزية واحدة عند أبي حنيفة وأحمد وقال الشافعي يؤخذ لكل سنة جزية له ما ذكر أنه استوفى المعوض فصار العوض ديناً، ولنا أنها عقوبة محضة وليس الغرض منها المال بل الإذلال ولذلك لا يؤخذ من يد نائبه كما ذكرنا من قبل وكفارات الفطر مع أنها عبادة فيه معنى العقوبة تتداخل فكيف الجزية فإنها عقوبة محضة والإذلال يحصل يأخذها مرة والله أعلم.

مسألة

ولا جزية على الصبيان والمجانين اتفاقاً فإنهم ليسوا أهلاً للعقوبة ولا على النساء أيضاً إجماعاً، قال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثنا عبيد الله عن نافع عن أسلم مولى عمر قال: كتب عمر أن اقبلوا الجزية ممن جرت عليه المواشي ولا تأخذوا من امرأة ولا صبي ولا تأخذوا الجزية إلا أربعة دنانير أو أربعين درهماً يعني لا تأخذوا أكثر منه، وروى البيهقي من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر كتب إلى أمراء الأجناد لا تضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواشي وكان لا يضرب على النساء والصبيان، وروي من طريق آخر بلفظ لا تصنعوا الجزية على النساء والصبيان.

مسألة

ولا جزية على المملوك تناً كان أو مكاتباً أو مدبراً أو ابناً لأم الولد إذلال لهم ولا يحتمل عنهم مواليهم لأنهم تحملوا الزيادة لأجلهم يعني وجب عليهم جزية الاعتباء بسببهم وما روى أبو عبيدة في كتاب الأموال عن عروة قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن أنه

من كان على يهودية ونصرانية فإنه لا ينتزع عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكراً أو أنثى عبداً أو أمة ديناراً وقيمته، وروى ابن زنجويه عن الحسن فذكر نحوه مرسلان ضعيفان يقوي أحدهما الآخر لكن الأمة ترك العمل بهما إجماعاً فلا عبرة بهما، وكذا ما روى أبو عبيد عن عمر قال: لا تشتر رقيق أهل الذمة فإنهم أهل خراج يؤدي بعضهم عن بعض.

مسألة

إذ امتنع الذمي من أداء الجزية أو امتنع من إجراء حكم من أحكام الإسلام أو قتل مسلماً أو أجمع على القتال أو زنى بمسلمة وأصابها باسم نكاح أو فتن مسلماً عن دينه أو قطع عليهم الطريق أو صار للمشركين جاسوساً أو أعان على المسلمين بدلالة، أو كتب إلى المشركين إخبار المسلمين وأطلعهم على عوراتهم ينقض عهده عند أحمد في أظهر الروايتين، لما روى عبد الرازق عن ابن جريج أخبرت أن أبا عبيدة بن الجراح وأبا هريرة قتلا كتابيين أرادا امرأة على نفسها مسلمة، وروى البيهقي من طريق الشعبي عن سويد بن غفلة قال: كنا عند عمر وهو أمير المؤمنين بالشام إذا نبطي مضروب مسح يستعدي فغضب وقال لصهيب انظر من صاحب هذا فذكر القصة فجاء به وهو عوف بن مالك، فقال: رأيته يسوق بامرأة مسلمة فنخس الحمار ليصرعها فلم يصرع ثم دفعها فخرت عن الحمار فغشيها ففعلت به ما ترى قال عمر: والله ما على هذا عاهدناكم فأمر به فصلب ثم قال: أيها الناس فوابذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له، وفي رواية عن أحمد لا ينتقض إلا بالامتناع من بذل الجزية وإجراء أحكامنا عليه، وقال الشافعي: ينتقض بمنع الجزية وامتناع إجراء أحكام الإسلام وبالإجماع على قتال المسلمين لا غير إلا إذ شرط عند عقد الذمة هذه الأمور المذكورة فح ينتقض عهده بإتيانها، وقال مالك لا ينتقض بالزنا بمسلمة ولا بإصابتها باسم النكاح وبقطع الطريق وينتقض بما سوى ذلك وقال القاسم من أصحابه بقطع الطريق أيضاً، وقال أبو حنيفة ينتقض عهده بأن يلتحق بدار الحرب أو كان له منعة وغلب على موضع وأراد المحاربة لأنهم صاروا حرباً علينا فيعرى عقد الذمة عن الفائدة وفيما سوى ذلك لا ينتقض عهده لأن الغاية التي ينتهي به القتال التزام الجزية لا أدائها والالتزام باق ومن لا منعة له لا عبرة بامتناعه فإن الإمام يقدر عليه بالحبس والضرب وغير ذلك.

مسألة

وفي ذكر الله عز وجل بما لا يليق بجلاله أو ذكر كتابه المجيد أو ذكر دينه القويم أو ذكر رسوله الكريم بما لا ينبغي ينتقض عهده عند أحمد سواء شر طعنه ذلك أو لا وكذا.

قال مالك إنه إذا ذكر منهما بغير ما كفروا به ينتقض عهده، وقال أكثر أصحاب الشافعي إن لم يشترط لا ينتقض عهده وإن شرط ينتقض، وذكر صاحب الهداية مذهب الشافعي أنه ينتقض لأن المؤمن ينتقض به إيمانه فالذمي ينتقض به أمانه، إذ عقد الذمة خلف عن الإيمان، وذكر صاحب الهداية مذهب أبي حنيفة أن بسبب النبي ﷺ لا ينتقض عهده

لأن سبه عليه السلام كفر والكفر المقارن لا يمنعه فالطارىء لا يرفعه، قال ابن همام: يؤيده ما روي عن عائشة أن رهطاً من اليهود دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك فقال: «وعليكم» قالت: ففهمتها فقلت عليكم السأم واللعنة فقال ﷺ: «مهلاً يا عائشة فإن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» قالت: فقلت يا رسول الله ألم تسمع؟ ما قالوا: قال عليه السلام: «قد قلت وعليكم» وفي رواية «عليكم»[1] بغير واو متفق عليه، وفي رواية: «رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في» قال ابن همام: ولا شك أن هذا سب منهم له علية الصلاة والسلام ولو كان نقضاً للعهد لقتلهم، وفي الفتاوى من مذهب أبي حنيفة أن من سب النبي ﷺ يقتل ولا يقبل توبته سواء كان مؤمناً أو كافراً وبهذا يظهر أنه ينتقض عهده، ويؤيده ما روى أبو يوسف عن حفص بن عبد الله بن عمر أن رجلاً قال له: سمعت راهباً سب النبي ﷺ فقال له: لو سمعته لقتلته إنا لم نعطهم العهود على هذا، وقال ابن همام والذي عندي أن سبه عليه السلام أو نسبته إلى ما ينبغي إلى الله تعالى إن كان مما لا يعتقدونه كنسبة الولد إلى الله تعالى الذي يعتقده النصارى واليهود إذا أظهروا يقتل به وينتقض عهده وإن لم يظهروا ولكنه عثر عليه وهو يكتمه فلا لأن دفع القتل والقتال عنهم بقبول الجزية الذي هو المراد بالإعطاء مقيد بكونهم صاغرين أذلاء بالنص، ولا خلاف أن المراد استمرار ذلك لا عند مجرد القبول وإظهار ذلك منه ينافي قبول الجزية الدافع لقتله لأنه الغاية في التمرد، وعدم الالتفات والاستخفاف بالإسلام والمسلمين فلا يكون جارياً على العقد الذي يدفع عنه القتال وهو أن يكون صاغراً ذليلاً، وأما اليهود المذكورون في حديث عائشة فلم يكونوا أهل ذمة بمعنى إعطائهم الجزية بل كانوا أصحاب موادعة بلا مال يؤخذ منهم دفعاً لشرهم إلى أن أمكن الله منهم لأنه لم يوضع قط جزية على اليهود المجاورين من قريظة والنضير، قال ابن همام: هذا البحث يوجب أنه إذا استعلى ذمي على المسلمين على وجه صار مستمراً عليه حل للإمام قتله أو يرجع إلى الذل والصغار والله أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس ومحمد بن دحية وشاس بن قيس ومالك بن الضيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وإنك لا تزعم أن عزير ابن الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قرأ عاصم والكسائي ويعقوب عزير بالتنوين على أنه عربي مصغر وقيل: إنه أعجمي لكنه اسم خفيف يشبه المصغر ولذلك صرف مثل نوح وهود ولوط، وعزير مبتدأ ما بعده خبره وليس بصفة له، وقرأ الباقون بلا تنوين إما لمنع الصرف للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين تشبيهما للنون بحرف اللين أو لأن الابن وصف والخبر محذوف مثل معبود أو صاحبنا، قال البيضاوي: هذا القول مزيف لأنه يؤدي إلى

---

(١) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٥، ٣٨، والجهاد باب ٩٨، والاستئذان باب ٢٢، والدعوات باب ٥٩، ٦٣، ومسلم في السلام حديث ١٠، ١١، ١٣.

تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر، قال: عبيد بن عمير إنما قال: هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازورا وهو الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقال البغوي روى عطية العوفي عن ابن عباس إنما قالت اليهود عزير ابن الله لأجل أن عزيراً كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزيز وابتهل إليه أن يرد الذي نسخ من صدورهم فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله نزل نور من السماء فدخل فعاد إليه التوراة، فأذن في قومه وقال يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها فعلق الناس به يعلمهم فمكثوا أما شاء الله ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله فقالوا وما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله، وقال الكلبي: إن نجت نصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزير إذ ذاك صغيراً فلم يقتله فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيراً ليجدد لهم التوراة ويكون له آية بعدما أماته مائة عام وقد ذكرنا القصة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية.

يقال: أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم، قال: أنا عزير فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فاملي علينا التوراة فكتبها، ثم إن رجلاً قال: إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في جابية فدفنت في كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منه حرفاً فقالوا إن الله لم يقذف التوراة في رجل إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، قال البغوي: كانت النصارى بعدما رفع عيسى إلى السماء على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جملة من أصحاب عيسى، ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى فكفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار فإني أحتال داخلهم حتى يدخلوا النار وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرقب فرسه وأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب، فقال له النصارى: من أنت؟ قال: بولس عدوكم نوديت من السماء ليست لك توبة إلا أن تنصر وقد تبت فأدخلوه الكنيسة ودخل بيتاً سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً حتى تعلم الإنجيل، ثم خرج وقال نوديت أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه ثم مضى إلى بيت واستخلف عليهم نسطور وعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال لم يكن عيسى بأنس ولا بجسم ولكنه ابن الله، وعلم رجلاً يقال له يعقوب ذلك ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً فقال: إن الله لم يزل ولا يزال عيسى، فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً وقال لكل واحد منهم: أنت خالصتي وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني وقال لكل واحد منهم إني غداً أذبح نفسي فادع الناس إلى نحلتك ثم دخل المذبح نفسه وقال إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى فلما كان يوم ثالثة دعا كل واحد الناس

إلى نحلته فتبع كل واحد طائفته من الناس فاختلفوا واقتتلوا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني القول ببنوة عيسى ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي التجوز عنها أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد ما يصدق عليه في الأعيان ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزاً والباقون بضم الهاء غير مهموز وهما لغتان يقال ضاهية وضاهاته أي شابهه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أي يضاهي قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم، قال قتادة والسدي: ضاهى قول النصارى قول اليهود من قبل فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله، وقال مجاهد يضاهئون قول المشركين من قبل الذين قالوا: اللات والعزى ومناة بنات الله، وقال الحسن شبه كفرهم بكفر الأمم السالفة كما قال: في مشركي العرب كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم، وقال القتيبي يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أسلافهم يعني الكفر فيهم قديم ﴿ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك كذا قال ابن جريج وقال ابن عباس معناه لعنهم الله وقيل معناه التعجب من شناعة قولهم: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد قيام الأدلة والبراهين عليه.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ أي: علمائهم وقرائهم جمع حبر بفتح الحاء وكسرها ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ وهم أصحاب الصوامع من النصارى ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في معصية الله، قال البغوي: روي عن عدي بن حاتم كما أخرجه الترمذي في «**صحيحه**» قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك» فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حتى فرغ منها فقلت: إنا لسنا نعبدهم فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم»[1] قال عبد الله بن المبارك: وهل يبدل الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها واتخذوا ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ رباً ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟﴾ أي: ليطيعوا ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وهو الله تعالى ولا يطيعوا غيره في عصيانه وأما من أمر الله بطاعته كالرسول وخلفائه فطاعته طاعة الله تعالى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانيته أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أحداً غيره في العبادة والطاعة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ أي: يخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته عن الولد والشريك أو القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: بأقوالهم الباطلة الكاذبة فيه إشارة إلى أن حالهم في إرادة أبطال القرآن ونبوة محمد ﷺ بالتكذيب مثل حال من أراد أن يطفىء نور الشمس والقمر بنفخه فيه ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ أي: لا يريد ولا يرضى ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي: يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به محمد ﷺ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حذف جوابه لأنه ما قبله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بالقرآن

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٩، باب ١٠.

الناطق ببيان ما لنا وما علينا من الحلال والحرام والفرائض والأحكام الموصل إلى دار السلام ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ قال ابن عباس: الضمير المنصوب عائد إلى الرسول ﷺ والمعنى ليطلع الرسول ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يعني شرائع الدين كلها لا يخفى عليه منها شيء واللام للجنس، وقال الآخرون الضمير عائد إلى دين الحق يعني ذلك الدين ويغلبه على الأديان كلها فينسخها أو على أهلها فيدينون بها أو ينقادون لها، قال البغوي: قال: أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام، وقال روينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام» قلت: والظاهر أن المراد بالظهور غلبة دين الحق على الأديان كلها في أغلب الزمان كما يدل عليه حديث المقداد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل إما يعزهم الله، فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها»(١) قال المقداد: قلت فيكون الدين كله لله رواه أحمد، قلت: وقد أنجز الله وعده ذلك حتى انقاد لأهل الإسلام أهل الأديان كلها في أكثر الأقطار وأغلب الزمان ولا يقتضي هذه الآية تأبيد هذه الحالة فقد روى مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى يعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أن ذلك تاماً؟ قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله تعالى ثم يبعث الله تعالى ريحاً طيبة فتوفى كل من كان في قلبه مثقال خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»(٢) وقال الحسن بن الفضل معنى الآية ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة، وقيل: ليظهر على الأديان التي حول النبي ﷺ فيغلبهم، قال الشافعي: لقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمع أنه الحق وما خالفه باطل وقال: وأظهر بأن جماع الكفر دينان دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا ظهوره على الدين كله، وهذه الآية كالبيان لقوله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولذلك كرر ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ذلك غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤.
(٢) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٥٢، ١١٠.

مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي
كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا
النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ﴾ يعني العلماء من أهل الكتاب ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ عن النصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ أي: ينتفعون بها ويأخذونها ذكر الأكل وأراد به مطلقاً الانتفاع أو الأخذ نفسه لأن الأكل أحل الانتفاعات والغرض الأعظم من الأخذ، ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يأخذون الرشوة في أحكامهم ويحرفون كلام الله ويكتبون بأيديهم كتباً ويقولون هذه من عند الله ويغيرون نعت النبي ﷺ يخافون أنهم لو صدقوه لذهب عنهم المأكل التي كانوا يأكلونها من سفلتهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أي: يصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: دينه ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الظاهر أن المراد بالموصول الأحبار والرهبان، والموصول معطوف على مقدرة مفهوم مما سبق تقديره فهم يعني الذين يأكلون أموال الناس وينتفعون بها والذين يكنزونها ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ الضمير راجع إلى المعنى لأن كل واحد منها دراهم ودنانير أو أريد به الكنوز أو الأموال أو يكون الضمير راجعاً إلى الفضة لكونها أكثر استعمالاً في الإنفاق، وفيه إشارة إلى أن زكاة الذهب والفضة يضم أحدهما إلى الآخر في اعتبار النصاب فيؤدي الزكاة من أحدهما، قال أبو حنيفة رحمه الله يضم أحدهما إلى الآخر بالقيمة وقال صاحباه يضم بالأجزاء فمن كان عنده عشرة مثاقيل ذهب ومائة درهم يجب الزكاة إجماعاً. وإن كان عنده خمسة مثاقيل من ذهب قيمتها مائة درهم أو أكثر يعتبر نصاب الفضة، ويجب زكاتها عند أبي حنيفة دون صاحبيه وكذا إن كان عنده خمسة مثاقيل ذهب ومائة درهم قيمتها خمسة عشر مثاقيل ذهب أو أكثر يعتبر نصاب الذهب ويجب زكاتها أيضاً عند أبي حنيفة دون صاحبيه، وأيضاً فيه إشارة إلى أنه لا يجب إنفاق جميع المال بل يكفي إنفاق بعضها كالفضة مثلاً من الجنسين والله أعلم.

خص الله سبحانه النوعين بالذكر من بين سائر الأموال الظاهر لأنهما أثمان الأشياء وغيرهما من الأموال يقدر بهما من غير عكس، ولأجل هذا وجب الزكاة في عروض التجارة إذا بلغ نصاباً من ذهب أو فضة دون غيرهما من نصب أموال الزكاة فذكرهما يغني عن ذكر سائر الأشياء أو لأنهما يكنزان غالباً دون غيرهما ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قلت: عدم الإنفاق في سبيل الله يعم عدم الإنفاق أصلاً والإنفاق في غير سبيل الله بل في اتباع النفس والشيطان كالذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، لكن لما سبق في الآية ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ علم أن المراد ههنا عدم الإنفاق أصلاً كما يستدعيه قوله تعالى: ﴿يَكْنِزُونَ﴾ والإنفاق في سبيل الله يعم الزكاة المفروضة والصدقة النافلة والنفقات الواجبة المستحبة وكلما كان في طاعة الله تعالى، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنفق المسلم عن أهله وهو يحتسبها

كانت له صدقة»[(١)] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على المسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقتها على أهلك»[(٢)] رواه مسلم، وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه على دابة في سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»[(٣)] وعن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله ألي أجر إن أنفق على بني أبي سلمة إنما هم بني فقال: «أنفقي عليهم ذلك أجر ما أنفقت عليهم»[(٤)] متفق عليه، وعن زينب امرأة ابن مسعود سألت هي وامرأة أخرى رسول الله ﷺ أيجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما؟ قال: «لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة»[(٥)] متفق عليه ﴿فَبَشِّرْهُم﴾، يعني كلا الفريقين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل والذين يكنزون ولا ينفقون أصلاً ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فعلى هذا التأويل الذي ذكرت حكم الآية مختص بأهل الكتاب، وقال الحسن عن بعض الصحابة وفي غيرهم بدلالة النص، ويحتمل أن يكون قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ كلاماً مستأنفاً غير مختص بأهل الكتاب وبه قال أبو ذر، وعلى هذا التأويل سياق الكلام يقتضي أن يقدر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يذكر هناك اكتفاء بذكره في الجملة التالية.

فائدة

وفي تفريع بشارة العذاب على الكنز وعدم الإنفاق جميعاً إشارة إلى أنه لا بأس بالكنز لو أنفق منها في سبيل الله ما وجب فيها وعليه انعقد الإجماع أخرج الطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل وابن مردويه والبيهقي في سننه من حديث ابن عمر قوله ﷺ: «ما أدي زكاته فليس بكنز»[(٦)] يعني ليس بكنز أوعد عليه، قال البغوي: روى مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا لا يدع لولده شيئاً فذكر عمر لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»[(٧)] قلت: أخرج هذا الحديث أبو داود وأبو يعلى وابن أبي حاتم والحاكم وابن

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٤١، والنفقات باب ١، ومسلم في الزكاة حديث ٤٨.
(٢) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٣٩، وأحمد في المسند ٢/ ٤٧٢، ٤٧٣.
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٣٨، والترمذي في البر حديث ٤٢.
(٤) أخرجه البخاري في النفقات باب ١٤، ومسلم في الزكاة حديث ٤٧، وأحمد في المسند ٣/ ٥٠٣، ٦/ ٣١٠.
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٤٨، ومسلم في الزكاة حديث ٤٦.
(٦) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٣٢، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/ ٨، ١٠٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٥٧٦٦.
(٧) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٣٢.

مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس وزاد: «وإنما فرض المواريث ليكون لمن بعدكم» وقال البغوي قال ابن عمر: ما أبالي لو كان لي مثل أُحد ذهباً أعلم عدده أزكيه وأعمل بطاعة الله، وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وأبو الشيخ وابن حبان موقوفاً على علي بن أبي طالب أنه قال: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهي كنز أديت فيه الزكاة أو لم يؤد وما دونها نفقة، وقيل: ما فضل عن الحاجة كنز لحديث أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة» قلت: فداك أبي وأمي من هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم»(١) متفق عليه، وحديث أبي ذر أيضاً مرفوعاً: «من ترك صفراء وبيضاء كوي بها»(٢) أخرجه البخاري في تاريخه وابن جرير وابن مردويه، قلت: لعل المراد بهذا الحديث أنه كوي إن لم يؤد حقها وكذا بقوله ﷺ في الحديث السابق «إلا من قال: هكذا» المراد إلا من أدى ما وجب فيها فإن الأكثرين أموالاً يجب عليهم مالاً كثيراً، في الزكاة فلا بد أن ينفقوا من كل جانب وفي كل باب من أبواب الخير.

واحتج من قال: إن ما فضل عن الحاجة فكنز أيضاً بحديث أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي ﷺ: «كية» ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي ﷺ: «كيتان»(٣)، ذكره البغوي، وحديث ابن مسعود قال: توفي رجل من أهل الصفة فوجدوا في شملته دينارين فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «كيتان» وفي حديث مسعود بن عمر أنه أتي برجل يصلى عليه فقال رسول الله ﷺ: «كم ترك»؟ قالوا: دينارين أو ثلاثة، قال عليه السلام: «كيتين أو ثلاث كيات»(٤) فلقيت عبد الله أبا القاسم سوى أبي بكر فقال: ذاك رجل يسأل الناس تكثراً رواه البيهقي، من رواية يحيى بن عبد الحميد الحماني، قلت: وما ذكر أبو القاسم محمل لحديث أبي أمامة وابن مسعود أيضاً ويمكن أن يقال من التزم على نفسه التصوف وعاهد الله تعالى على الترك والتوكل ولا يكون ذا عيال عليه حقوق الناس لا يجوز له أن يمسك فوق حاجته قال: الله تعالى: ﴿أَوۡفُوا۟ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَأَوۡفُوا۟ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولࣰا﴾ [الإسراء: ٣٤] فكان أهل الصفة من هذا النوع من الرجال وقول علي رضي الله عنه محمول على صوفي ذا عيال وعلي رضي الله عنه أبو الصوفية أجمعين.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣، ومسلم في الزكاة حديث ٢٩، والترمذي في الزكاة باب ١، والنسائي في الزكاة باب ٢، وأحمد في المسند ٥/ ١٥٢، ١٥٨، ١٦٩.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٠/ ٨٤.

(٣) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٠١، ١٣٧، ١٣٨، ٤١٢، ٤١٥، ٤٢١، ٤٥٧، ٢/ ٣٥٦، ٤٢٩، ٤٩٣.

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٢٥، ١٠/ ٢٤١.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾(١) أي يدخل النار فيوقد النار عليها أي: على الكنوز أو على الدنانير والدراهم المفهومة من الذهب والفضة أو على الفضة وتحضيصها تقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم، وإنما ذكر الفعل لأنه مسند إلى الجار والمجرور أصله يوم يحمى عليها النار، في القاموس الشمس والنار حَميًا وحُميًّا اشتد صرهما، وقال البيضاوي أصله يحمى بالنار فجعل الإحماء للنار مبالغة فلما حذفت النار وانتقل الإسناد من النار إلى عليها ذكر الفعل كما يقال رفعت القصة إلى الأمير فإن لم يذكر القصة يقال رفع إلى الأمير والظرف متعلق بعذاب ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ يعني مقاديم أبدانهم ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ يعني إيمانهم وشمائلهم ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ يعني مأخراً أبدانهم فذكر الجهات كلها يعني يكوى بها أبدانهم من كل جهة، وقيل: إنما خص هذه الأعضاء بالذكر لأنهم إذا بصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم إياه مجلس أعرضوا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسة التي هي الدماغ والقلب والكبد يوسع جلودهم وأعضائهم حتى يوضع عليه كلها ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ حال مما أضيف إليه فاعل يكوى بتقدير القول يعني مقولاً لهم هذا المال ما كنزتموه لينتفع به أنفسكم وما علمتم أنكم كنزتموه ليستنصر به أنفسكم وهذا الكلام توبيخ ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: وبال كنزكم أو ما تكنزونه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما ردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» قيل: يا رسول فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يؤدي حقها ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطأه بأخفهافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أو لها رد عليه آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وقيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما مر عليه أولاها ردت أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(٢) الحديث رواه مسلم وهذا الحديث كأنه تفسير للآية وفيه تصريح بأن المراد بالكنز ما لم يؤد حقها،

---

(١) عن بريدة قال لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة الآية قال أصحاب رسول الله ﷺ نزل اليوم في الكنز ما نزل فقال أبو بكر يا رسول الله ماذا نكنز اليوم، قال: لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعين أحدكم على إيمانه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٢٤.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾[1] [آل عمران: ١٠٨] الآية رواه البخاري، وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما يكون وأسمنه تطأه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جاءت أخراها ردت عليه أولها حتى يقضي بين الناس»[2] متفق عليه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي: مبلغ عددها المعتدة بها للسنة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ متعلق بعدة لأنها مصدر ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، قرأ أبو جعفر اثنا واحد عشر وتسعة بسكون الشين والعامة بفتحها ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما في الظرف السابق من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً، يعني أن المعتبر عند الله تعالى لأجل الصيام والحج والزكاة الأشهر الهلالية وقد اعتبر الله سبحانه دورانها ومبلغها باثنا عشر لا مزيد عليه، جعل الله سبحانه منها شهراً للصوم وأشهراً وقتاً للحج، وعلق وجوب أداء الزكاة بتمام الاثني عشر ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ حرم الله تعالى فيها البداية بالقتال وهو رجب واحد فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة سرد ﴿ذَلِكَ﴾ اعتباراً للأشهر الهلالية واعتبارها اثنا عشر لا أقل ولا أكثر ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الدين القويم دين إبراهيم عليه السلام لا يجوز ترك اعتبارها كما ترك النصارى صوم رمضان وجعلوا مكانها خمسين يوماً في موسم الربيع اعتدال الشمس ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قيل: ضمير فيهن ينصرف إلى جميع شهور السنة يعني لا تفعلوا المعصية في شيء منها والظاهر أنه راجع إلى الأربعة لقربه ولأن كلمة الفاء التفريعية يقتضي ذلك فإن النهي عن الظلم متفرع على كونها محرمة، والمراد بالظلم هتك حرمتها والقتال فيها وقال: قتادة العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، وقال ابن عباس لا تظلموا فيهن يريد استحلال الحرام والغارة فيهن، وقال محمد بن إسحاق بن يسار لا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً كما فعل أهل الشرك وهو النسيء ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي جميعاً وهي مصدر كف عن الشيء فإن الجميع مكفوف عن الزيادة ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بكمال قربهم من الله تعالى ومعية بهم معية بلا كيف وضمان لهم بالنصرة بسبب تقويهم، قال البغوي: اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم؟ فقال قوم: كان كبيراً ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ كأنه يقول فيهن وفي غيرهن وهو قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري قالوا: لأن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٣.
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٣، ٤٣، ومسلم في الزكاة حديث ٢٤ ـ ٢٨.

وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة انتهى، وأنت خبير بأن ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ لا يصلح ناسخاً لقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ لأنه متصل ولا بد في النسخ من التراخي ولأنه لا عموم في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ من حيث الزمان حتى يصلح ناسخاً للحرمة الزمانية ولا عموم للمقتضي والتقدير بقوله فيهن وفي غيرهن لا دليل عليه، ولأن النبي ﷺ لما دخل ذو القعدة ترك حصار طائف ولو صح حديث قتاله في ذي القعدة فحديث الآحاد لا يصلح ناسخاً للكتاب ولأن هذه الآية نزلت في السنة التاسعة بعد غزوة الطائف وهي في سنة ثمان فكيف يتصور كونه ناسخاً ولأن النبي ﷺ بين حرمة الأشهر في خطبة في حجة الوداع قبل وفاته بثمانين يوماً، فالصحيح ما قال الآخرون إنه منسوخ، قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبي رباح ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها وما نسخت.

قلت: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ فعيل بمعنى المصدر كالسعير والحريق أو بمعنى المفعول كالجريح والقتيل، ومعناه التأخير أو المؤخر ومنه النسيئة في البيع يقال أنسأ الله أجله ونسأ في أجله أي: أخر، قرأه الجمهور ممدوداً مهموزاً لامُه وورش بتشديد الياء من غير همز وإذا وقف همزه إشمام وقفاً ووصلاً، وعلى قراءة ورش قيل: هو من النسيان على المعنى المنسي أي: المتروك، وقيل: أصله الهمزة فخفف والمراد من النسيء ما كان يفعله أهل الجاهلية من تأخير تحريم شهر إلى شهر، أخرج ابن جرير عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً فيجعلون المحرم صفراً فأنزل الله هذه الآية، قال البغوي: كان العرب معتقدين بتعظيم الأشهر الحرم وكان ذلك مما تمسكوا به من دين إبراهيم عليه السلام وكان عامة معايشهم من الصيد والغارة وكان يشق عليهم الكف ثلاثة أشهر على التوالي وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم فينسوا أي يؤخروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم إلى محرم إلى صفر فيحرمون صفر أو يستحلون المحرم فإذا احتاجوا إلى تأخيرهم تحريم صفر أخروه إلى ربيع وهكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عز وجل وذلك بعد دهر طويل، فخطب النبي ﷺ في حجة الوداع.

روى الشيخان في «**الصحيحين**» عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جُمادى وشعبان»، وقال «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس ذو الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس البلد الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟»

قلنا بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت»، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع»[١] قالوا: وقد كان قد استمر النسيء بهم وكانوا يحجون في بعض السنين في شهر ويحجون من قابل في شهر آخر» قال مجاهد: كانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذلك في الشهور فوافق حجة أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة ثم حج النبي ﷺ في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة ووقف بعرفة اليوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق الله السمٰوات والأرض وأمرهم بالمحافظة لئلا يبدل في مستأنف الأيام واختلفوا في أول من النسيء، فقال ابن عباس: والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسأ بنو مالك بن كنانة وكانوا ثلاثة أبو ثمامة وجنادة بن عوف وابن أمية الكناني، وقال الكلبي: أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يكون أميراً على الناس بالموسم فإذا هم الناس بالصدر، قام فخطب الناس فقال: لا مرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أحاب[٢]، فيقول له المشركون لبيك يسألونه أن ينسهم شهراً يغيرون فيه، فيقول: فإن صفر العام حرام فإذا قال: ذلك حلوا الأوتار[٣] ونزعوا الأسنة والأزجة[٤] وإن قال: حلال عقدوا الأوتار وشدوا الأزجة وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذي أدركه النبي ﷺ، وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم هو رجل من بني كنانة يقال له الغلمس وقال شاعرهم:

وفينا ناسي الشهر الغلمس

وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمع العرب للموسم، وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس أول من سن النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار»[٥] فهذا الذي ذكرنا هو الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ٨، وبدء الخلق باب ٢، والمغازي باب ٧٧، والأضاحي باب ٥، والتوحيد باب ٢٤، ومسلم في القسامة حديث ٢٩.

(٢) لا أحاب يعني لا ينسب إلى إثم والحواب الإثم.

(٣) الأوتار جمع وتر بمعنى القوس والأسنة جمع سنان.

(٤) الأزجة جمع زج يعني النصل.

(٥) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في المناقب باب ٩، وتفسير سورة ٥، باب ١٣، ومسلم في الكسوف حديث ٩، ١٠، والجنة حديث ٥٠، ٥١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٥، ٣٦٦، ٣/ ٣١٨، ٣٥٣، ٣٧٤، ٥/ ١٣٧.

﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر زائد على كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص يضل بضم الياء وفتح الضاء على النباء للمفعول كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧] وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاء من الأفعال وهي قراءة الحسن ومجاهد، يعني يضل به الذين كفروا الناس وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد على البناء للفاعل من المجرد لأنهم هم الضالون ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ الضمير راجع إلى الشهر المفهوم من النسيء يعني يحلون شهراً ﴿عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ والجملتان تفسير للضلال أو حال ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ متعلق بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين يعني يفعلون ذلك ليوافقوا والمواطأة الموافقة ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وهي الأربعة الأشهر ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ كيلا يزيد الأشهر الحرم على الأربعة قصدوا مراعاة العدد من غير مراعاة الوقت والله أعلم.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ قال ابن عباس: يريد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فحسبوا حسناً، أو المعنى زين الله تعالى سوء أعمالهم بمعنى أنه خذلهم فأضلهم يناسبه قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الحق ذكر محمد بن يوسف الصالحي أنه قال: محمد بن عمرو محمد بن سعيد أن جماعة من الأنباط الذين يقدمون المدينة بالزيت من الشام، ذكروا للمسلمين أن الروم جمعوا جموعاً كثيرة وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأخليت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من مستقر العرب وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء ولم يكن كذلك حقيقة فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فندب الناس إلى الخروج إلى الشام، وروى الطبراني بسند ضعيف عن عمران بن حصين قال: كانت نصارى العرب كتب إلى هرقل أن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن فبعث رجلاً من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفاً فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فأمر بالجهاد.

وروى ابن أبي حاتم وأبو سعيد النيسابوري بإسناد حسن أن اليهود قالت لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء فعزم غزواً لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله الآيات من سورة بني إسرائيل ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] الآيات، وروى ابن مردويه عن ابن عباس وابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد وابن جرير عن سعيد بن جبير أن الله سبحانه لما أمر بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره قالت قريش: ليقطعن عنا المتاجر والأسواق وليذبين ما كنا نصيب منها فعوضهم الله تعالى عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كما قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام، قال البغوي: لما رجع رسول الله ﷺ من

الطائف أمر بالجهاد بغزو الروم قال محمد بن يوسف الصالحي: لما عزم النبي ﷺ على قتال الروم عام تبوك وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب في البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على تلك الحال من الزمان، وكان رسول الله ﷺ قلَّ يخرج في غزو إلا كنّى عنها وورى بغيرها إلا ما كان من غزو تبوك فإنه ﷺ بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يعمد له ليتأهب الناس لذلك أهبة فأمر ﷺ للجهاد، وكذا روى ابن أبي شيبة والبخاري وابن سعد عن كعب بن مالك ودعى من حوله من أحياء العرب للخروج معه فأرغب معه بشر كثير وبعث إلى مكة وتخلف المنافقون وجماعة من المؤمنين المقصرين تثاقلوا فأنزل الله تعالى فيهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب للمؤمنين المقصرين وجاز أن يكون عاماً للمنافقين أيضاً فإنهم آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام توبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ أي: قال لكم رسول الله ﷺ ﴿ٱنفِرُواْ﴾ أخرجوا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ للجهاد ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ أصله تثاقلتم أي: تباطأتم ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باثاقلتم لتضمنه معنى الإخلاء الميل فعدي بإلى والمعنى لزمتم أرضكم ومساكنكم ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ببضاعتها ﴿ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ مستبدلين من نعيم الآخرة ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ليس تمتعات الحياة الدنيا في جنب نعيم ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: مستحق قدرها وسريع زوالها ثم أوعدهم على ترك الخروج للجهاد، أخرج ابن أبي حاتم عن نجدة بن نقيع عن ابن عباس قال: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عليه فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا﴾ بإدغام اللام في نون أن الشرطية في الموضعين ﴿تَنفِرُواْ﴾ إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة فعذبهم الله في الدنيا بأن أمسك عنهم المطر إذا ما لم ينفروا ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ مطيعين قيل: هم أهل اليمن وقال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ﴾ أي: لا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه شيئاً فإنه تعالى غني عن كل شيء في كل أمر وقيل: الضمير للرسول أي تضروا الرسول شيئاً فإن الله تعالى وعد له بالعصمة والنصرة وتخلف وعده محال ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تبديلكم وتغير الأسباب والنصرة بلا مدد، في الآية سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين واستبدل بهم قوماً غيرهم مطيعين وأنه غني عنهم في نصر دينه.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ﴾ يعني إن لا تنصروه فسينصره ﴿ٱللَّهُ﴾ كما نصره ﴿إِذْ

﴿أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من مكة ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ منصوب على الحال من الضمير المنصوب في نصره يعني نصره حال كونه بحيث لم يكن معه إلا رجل واحد وهو أبو بكر وهو ثانيهما فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل مقامه، أو المعنى أن لا تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصر في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في شيء من الأوقات، وأسند الإخراج إلى الذين كفروا لأنهم مكروا به أن يقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه في دار الندوة وقد مر قصته في سورة الأنفال وكان ذلك سبب لإذن الله سبحانه له بالخروج ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ وهو نقب في جبل أسفل مكة بدل من إذ أخرجه وبعده بدل ثانَ ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ يعني أبا بكر، روى الترمذي والبغوي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أنت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض»[١] وروى مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي ولكن اتخذ الله صاحبكم خليلاً»[٢] قال الحسن بن الفضل من قال: إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكارة نص القرآن وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً كافراً ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ معية غير متكيفة، قال الشيخ الأجل الشهيد مظهر فيوض الرحمٰن مرزاجان جانان رحمه الله تعالى رحمة واسعة كفى لأبي بكر فضلاً أن رسول الله ﷺ أثبت لأبي بكر معية الله سبحانه التي أثبتها لنفسه بلا تفاوت فمن أنكر فضل أبي بكر أنكر هذه الآية الكريمة وكفر ولم يكن حزن أبي بكر رضي الله عنه جبناً منه كما قالت الروافض لعنهم الله، بل كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ وقال إن أقتل فأنا رجل واحد وإن قتل، يعني النبي ﷺ هلكت الأمة وسنذكر في أحاديث الغار ما يدل على أن حزن أبي بكر كان إشفاقاً لرسول الله ﷺ لا لأجل نفسه.

قصة خروجه ﷺ من مكة

روى موسى بن عقبة وابن إسحاق وأحمد والبخاري وابن حبان عن عائشة وابن إسحاق والطبراني عن أختها أسماء رضي الله عنهما قالت عائشة فيما روى البخاري: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ في النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون قال النبي ﷺ: «رأيت دار هجرتكم ذات نخيل بين اللابتين»[٣] وهي الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك[٤] فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «نعم»،

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٦.
(٢) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٤٥، وفضائل الصحابة باب ٣، ٥، والفرائض باب ٩، ومسلم في المساجد حديث ٢٨، وفضائل الصحابة حديث ٢ ـ ٧.
(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٣٧، ٤٥، وأحمد في المسند ٦/١٩٨.
(٤) أي مهلك والرسل أيسر.

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر[١] وهو الخبط[٢] أربعة أشهر فبينا نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة[٣] قالت أسماء يا أبت هذا رسول الله ﷺ مقنعاً رأسه في ساعة لم يكن يأتيها فيها قال أبو بكر: فداه أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، فجاء رسول الله ﷺ واستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اخرج من عندك» فقال أبو بكر: لا عين[٤] عليك إنما هما ابنتاي، وفي لفظ إنما هم أهلك بأبي وأمي يا رسول الله فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج» فقال: أبو بكر الصحبة يا رسول الله قال: نعم، قالت عائشة: فرأيت أبا بكر يبكي وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر، فقال أبو بكر: يا رسول الله فخذ بأبي أنت إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن لا أركب بعيراً ليس لي» قال: هو لك ولكن بالثمن الذي ابتعتهما به، قال: أخذتها بكذا وكذا قال: أخذتها بذلك، قال: هي لك، وعند البخاري في غزوة الرجيع إنها الجدعاء، وأفاد الواقدي أن الثمن ثمان مائة. قالت عائشة فجهزوهما أحب الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب، وأفاد الواقدي أنه كان في السفرة[٥] شاة مطبوخة فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين، وفي رواية ذات النطاق[٦]، قال: محمد بن يوسف الصالحي المحفوظ في هذا الحديث أن أسماء شقت نطاقها نصفين فشدت بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر، ومن ثم قيل لها: ذات النطاق وذات النطاقين فالتثنية والإفراد بهذين الاعتبارين، وعند ابن سعد أنها شقّت نطاقها فأوكت بقطعة منه الجراب وشدت في القربة بالباقي فسميت ذات النطاقين واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو على دين كفار قريش وأسلم بعد ذلك وكان هادياً خريتاً يعني ماهراً بالهداية فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث براحلتيهما، وأعلم رسول الله ﷺ... علياً بخروجه وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته. قالت عائشة: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر في غار في جبل ثور في حديث عمر عند البيهقي أنهما خرجا ليلاً، وذكر ابن إسحاق والواقدي أنهما خرجا من خوخة[٧] في ظهر بيت أبي

---

(١) اسم شجرة أم غيلان.

(٢) والخبط ما يخبط بالعصا فيسقط.

(٣) يعني أول الزوال.

(٤) عين ديدبان وجاسوس ومردم، يقال بلد قليل العين أي قليل الناس.

(٥) سفرة: طعام السفر.

(٦) النطاق ما يشد به الوسط وكانت المرأة تلبس ثوبًا ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل فذلك الحبل هو النطاق.

(٧) باب صغير.

بكر، وروى أبو نعيم عن عائشة بنت قدامة أن النبي ﷺ قال: لقد خرجت من الخوخة متنكراً فكان أول من لقيني أبو جهل فأعمى الله عز وجل بصره عني وعن أبي بكر حتى مضينا، قالت أسماء وخرج أبو بكر بماله كله خمسة آلاف درهم، قال البلادري كان مال أبي بكر يوم أسلم أربعين ألف درهم فخرج إلى المدينة للهجرة وما ماله إلا خمسة آلاف درهم أو أربعة فبعثه ابنه عبد الله فحملها إلى الغار قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد ذهب بماله مع نفسه قالت: قلت: كلا يا أبت إنه ترك لنا خيراً كثيراً قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت كان أبي يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده، فقلت: ضع يا أبت يدك على هذا المال قالت فوضع يده عليه فقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ.

روى البيهقي أن أبا بكر لما خرج هو ورسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي مرة أمام النبي ﷺ ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: يا رسول الله ﷺ اذكر الرصد فأكون أمامك واذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك، فلما انتهيا إلى فم الغار قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق نبياً لا تدخله حتى أدخله قبلك ما إن كان فيه شيء نزل بي قبلك فدخله فجعل يلتمس بيده فكلما رأى حجراً قال بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع فبقي حجر فوضع عقبه عليه، ثم دخل رسول الله فجعلت الحيات يلسعن أبا بكر وجعلت دموعه يتحدر، وروى ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي بكر رضي الله عنه أنهما لما انتهيا إلى الغار إذا حجر فألقمه أبو بكر رجليه فقال: يا رسول الله ﷺ إن كان لدغة أو لسعة كان بي، وروى ابن مردويه عن جندب بن سفيان قال: لما انطلق أبو بكر مع رسول الله ﷺ إلى الغار قال أبو بكر: يا رسول الله لا تدخل الغار حتى استبرئه[١] فدخل أبو بكر الغار فأصاب يده شيء فجعل يمسح الدم عن يده ويقول: هل أنت إلا أصبع رميت وفي سبيل الله ما لقيت» وفي حديث أنس عند أبي نعيم أن رسول الله ﷺ لما أصبح قال لأبي بكر أين ثوبك فأخبر بالذي صنع فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: «اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة» فأوحى إليه قد استجاب الله لك»، وروى رزين عن عمر أنه ذكر عنده أبو بكر فبكى وقال: وددت أن عملي كله مثل عمله يوماً واحداً من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما ليلته فليلة سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار فلما انتهيا إليه قال: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك فدخل فكسحه ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به فبقي فيها اثنان فألقمها رجليه ثم قال: لرسول الله ﷺ، ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الحجر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ

(١) استبرأت الشيء طلبت آخره لقطع الشبهة عليه عني.

فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ[١] فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته، وأما يومه فلما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب وقالوا لا نؤدي زكاة فقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه، فقلت: يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم فقال لي أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام إنه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي.

روى ابن سعد وأبو نعيم والبيهقي وابن عساكر عن أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ لما دخل الغار أنبت الله شجرة الراة فنبت في وجه رسول الله ﷺ، فسترته وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بينها فسترت وجد رسول الله ﷺ وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا في فم الغار وأقبل فتيان[٢] قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على أربعين ذراعاً جعل بعضهم ينظر في الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين فعرف أنه ليس فيه أحد فسمع النبي ﷺ ما قال: فعرف أن الله تعالى قد درأ عنه بهما فبارك عليهما النبي ﷺ وفرض جزاء بهن وانحدرتا في الحرم فأفرخ ذلك الزوج كل شيء في الحرم، وروى أحمد بسند حسن عن ابن عباس أن المشركين قصوا[٣] أثره رسول الله ﷺ فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال، وروى الحافظ أحمد أبو بكر بن سعيد القاضي شيخ للنسائي في مسند الصديق عن الحسن البصري قال: جاءت قريش يطلب النبي ﷺ وكانوا إذا أرادُ أعلى باب الغار نسج العنكبوت قالوا لم يدخله أحد وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر يا رسول الله هؤلاء قومك يطلبونك أما والله ما على نفسي أبكي ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال له النبي ﷺ: يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا، وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق قال: «قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصر ما تحت قدمه فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[٤] وروى أبو نعيم في الحلية عن عطاء بن ميسرة قال: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ومرة على النبي ﷺ في الغار، وذكر البلاردي في تاريخه وأبو سعيد أن المشركين استأجروا رجلاً يقال له: علقمة بن كرز بن هلال الخزاعي وأسلم عام الفتح فقفا لهم الأثر حتى انتهى إلى غار ثور وهو بأسفل مكة، فقال: هنا انقطع أثره ولا أدري أخذ يميناً أو شمالاً ثم صعد الجبل فلما انتهوا إلى فم الغار قال أمية بن خلف: ما أرى لكم في الغار إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد ثم جاء قبال، وروى البيهقي عن عروة أن المشركين لما فقدوا رسول الله ﷺ ركبوا في

---

(١) فقال مالك يا أبا بكر، قال لُدغت فداك أبي وأمي فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) جمع كثرة للفتى وهو الشاب الحدث.

(٣) أي طلبوا آثار أقدامه.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٢، ومناقب الأنصار باب ٤٥، وتفسير سورة ٩، باب ٩، وأحمد في المسند ١/ ٤.

كل وجه يطلبونه وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الجعل العظيم وأتوا على الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلعوا فوقه وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم فأشفق أبو بكر وبكى وأقبل عليه الهم والحزن والخوف فعند ذلك قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لا تحزن إن الله معنا»(١).

أقسمت بالقمر المنشق إن له ... من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى(٢) الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصدق في الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت ... على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن آل من الأطم

قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: على النبي ﷺ حيث قال: «لا تحزن إن الله معنا» كذا ذكر البلاذري، وروى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال: فأنزل الله سكينته على أبي بكر يعني بقوله ﷺ: «لا تحزن»، فإن النبي ﷺ تنزل عليه السكينة من قبل وهذا أولى لأن فاء فأنزل يدل عليه، وأيضاً إرجاع الضمير إلى الأقرب أولى، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ وهم الملائكة يضربون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤية.

روى أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر أن أبا بكر رأى رجلاً مواجه الغار فقال: يا رسول الله إنه يرانا، قال: «كلا إن الملائكة يستره الآن بأجنحتها» فلم ينشب أن قعد يبول متقبلهما، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا» وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا، وقال مجاهد والكلبي أعانه الملائكة يوم بدر أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر، روى ابن عدي وابن عساكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لحسان: هل قلت في أبي بكر شيئاً قال: نعم، فقال: قل وأنا أسمع فقال(٣):

وثاني اثنين في الغار المنيف(٤) وقد ... طاف(٥) العدو إذ صاعدوا الجبلا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥، وفضائل الصحابة باب ٢، ومسلم في الزهد حديث ٧٥، وأحمد في المسند ١/٣.

(٢) جمع.

(٣) البيتان من البسيط، وهما في ديوان حسان بن ثابت ص٢١٤. ومطلع القصيدة:
إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقةٍ ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
ورواية عجز البيت الأول في الديوان:
طاف العدوّ به إذ صعَّد الجبلا

(٤) العالي.

(٥) أي يطلب لهما المكروه من الكيد.

وكان حب[١] رسول الله قد علموا من البرية[٢] لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «يا حسان هو كما قلت»: قالت عائشة فكمنا في الغار ثلاث ليال وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما وهو غلام شاب ثقف[٣] لقف فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش كبائت لا يسمع أمراً يكاد أن به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك اليوم حين يختلط الظلام، وعند أبي إسحاق أن أسماء بنت أبي بكر كانت تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما وكان عامر بن فهيرة يرعى غنماً لأبي بكر في رعيان أهل مكة فإذا أمسى راح عليهما حين يذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل[٤] ورضيفهما يفعل ذلك كل ليلة من الليالي فلما مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجرا ببعيرهما فركبا وانطلق معهما عامر بن فهيرة غلاماً لعبد الله بن الطفيل بن سنجرة أخو عائشة لأمها ليخدمها في الطريق فأخذ بهما الدليل طريق الساحل أسفل من عسفان ثم أجاز بهما حتى عارض الطريق على مج، روى أحمد والشيخان عن البراء بن عازب أنه قال لأبي بكر كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ قال: سرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يرى فيه أحد رفعت لنا صخرة طويلة بها ظل لم يأت عليه شمس بعد فنزلنا عندها فأتيت الصخرة سويت بيدي مكاناً ينام فيه رسول الله ﷺ في ظلها ثم بسطت له فروة كانت معي، ثم قلت يا رسول الله نم وأنا أنفض لك ما حولك فنام، وخرجت أنفض له ما حوله فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منه الذي أردنا فلقيته فقلت له لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل مكة فسماه فعرفته فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت فاحتلب لي قال: نعم، فأخذ شاة فقلت: أنفض[٥] الضرع من التراب والقذى فحلب في تعب معه كثبه[٦] من لبن ومعي أداوة[٧] أرتوي فيها للنبي ﷺ يشرب منها ويتوضأ وعلى فمها خرقة فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه فوقفت حتى استيقظه فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن فشرب حتى رضيت ثم قال: «ألم يأن الرحيل»، قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعدما زالت الشمس.

روى الطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم وأبو بكر الشافعي عن سليط بن عمرو الأنصاري أن رسول الله ﷺ حين خرج مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة ودليلهم مروا على خيمة أم معبد الخزاعية وهي لا تعرفه، وكانت برزة[٨] جلدة تجلس بفناء

---

(١) محبوب. (٢) الخلق.

(٣) أي يخرج من السحر.

(٤) رسل شبيرتازه رضيف شير كرم.

(٥) أي تجسس وتعرف ما فيه وفي النهاية أي أحرس وأطوف هل أرى طلباً يقال نفضت المكان واستنفضته إذا نظرت والنفضة بفتح الفاء وسكونها قوم يبعثون متجسسين بل يرون غدراً أو خوفاً.

(٦) كثب أي قدر قدح وقيل حلبة خفيفة.

(٧) ارتوى فيها أي آب مي أوردم دران.

(٨) برزة امرأة كهلة لا تحتجب كالشواب وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم.

القبة ثم تسقي وتطعم فسألوها لحماً وتمراً يشتروا منها فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك وإذا لقوم مرملون[١] مسنتون، فقالت: والله لو كانت عندنا شيء ما أعوزناكم فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: هل بها لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلبها فوالله ما ضربها من فحل قط فشأنك[٢] بها فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وظهرها وسمى الله ودعا لها في شأنها فتفاجت[٣] عليه ودرت ودعا بإناء يربض[٤] الرهط فحلب فيه ثجاً[٥] حتى علاه البهاء سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب ﷺ وقال: «ساقي القوم آخرهم شرباً»[٦] ثم حلب فيه ثانياً بعد بداء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم تابعها وارتحلوا عنها، وروى ابن سعد وأبو نعيم عن أم معبد قالت: بقيت الشاة التي لمس رسول الله ﷺ عندها حتى كان زمان الرمادة وهي سنة ثمان عشرة من الهجرة زمن عمر بن الخطاب وكنا نحلبهما صبوحاً وغبوقاً[٧] وما في الأرض قليل ولا كثير، وروى البيهقي من وجه آخر قصة أم معبد بزيادة ونقصان وفيه عند الماء جاء ابنها بأعنز يسوقها فقالت له: انطلق بهذه العنزة والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما: يقول لكما أبي اذبحا هذه وكلا وأطعما فقال له النبي ﷺ: «انطلق بالشفرة وجئني بالقدح» قال: إنها عنزة وليس بها لبن، قال: «انطلق» فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ثم حلب ملأ القدح الحديث. وفيه قال أبو بكر فلبثنا ليلتين ثم انطلقنا وكانت تسميه المبارك وكثرت غنمها حتى جلبت جلباً إلى المدينة فمر أبو بكر فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمته إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك فقامت إليه، فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: هو نبي الله قالت: فأدخلني عليه فأطعمها رسول الله ﷺ وكساها وأسلمت، قال هشام بن جيش فلما لبثت حتى جاءها زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً أحيالى[٨] عجافاً فلما رأى اللبن عجب وقال من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب[٩] ولا حلوب في البيت؟ قال: لا والله إلا أنه مر رجل مبارك من حاله كذا وكذا قال: صفيه يا أم معبد؟ قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج[١٠] الوجه

---

(١) مرملون هم الذين نفد زادهم وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل.

(٢) فشأنك منصوب بفعل مقدر أي أصلح أو نحو ذلك.

(٣) أي باعدت بين رجليها للحلب.

(٤) بربض أي برويهم وبثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض من ربض بالمكان إذا لصق به.

(٥) أي لنا كثيراً حتى علا الإناء بهاء اللبن وهو ربيص رغوته.

(٦) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٣١١، وأبو داود في الأشربة باب ١٩، والترمذي في الأشربة باب ٢٠.

(٧) صبوح ما يشرب أول النهار غبوق ما يشرب آخر النهار.

(٨) جمع حامل، وهي التي لم تحمل فيدل على العيا.

(٩) أي: بعيد المرعى.

(١٠) أي: مشرقه.

حسن الخلق لم تعبه نجلة ولم تزرئه متعلقة وسَيماً قَسَيماً في عينيه دعج وفي أشفاره وطف وفي صوته صحل أو قالت: صهل وفي عنقه سطح وفي لحيته كثافة أزج أقرن إن صمت فعليه الوقار وإن تكلم سما وعلاه البهاء أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب فصل لا نزر ولا هذر كان منطقه خرزات نظمن ينحدون ربعة لا يشناه طول ولا تفتحه عين من قصر غضباً بين غضين فهو أنظر الثلاثة منظراً أو أحسنهم قدراً له رفقاء يحفون به إن قال: أنصتوا لقوله وإن أمر ابتدروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا معتد، فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره بمكة ولقد همت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، قالت أسماء رضي الله عنها لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا رجال من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ قلت: لا أدري والله أين أبي فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي قالت ثم انصرفوا فمكثنا ثلاثة أيام ما ندري أين توجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غنا العرب وتبعه الناس يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول(١):

جزا الله رب العرش خير	جزاءة رفيقين قالا(٢) خيمة أم معبد
هما نزلاها بالهدي فاهتدى به	وقد فاز من أمسئ رفيق محمد
فيا لقصى ما زدى الله عنكم	به من فقال: لا تجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم	ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
وادعاه بشاة حائل(٣) فتحلبت	إليه بصريح ضرة الشاة مزيد
فغادرها رهناً لديه لحالب	يردها في مصدر ثم مورد

وفي رواية عند البيهقي بسند حسن في قصة أم معبد أنه طلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه فقالوا: أرأيت محمداً من خلفه كذا فوصفوه لها فقالت: ما تقولون؟ قد ضافنا حالب الحائل(٤) قالت قريش: فذاك الذي أردنا، قال: البيهقي: يحتمل أنه ﷺ رأى الشاة التي في كسر الخيمة ثم رجع ابنها بأعنز ثم جاء زوجها ووصفته له قلت: ولعل ذلك جاءت قريش في طلبه ﷺ.

قصة سراقة: روى أحمد والشيخان في الصحيحين عن سراقة بن مالك وأحمد ويعقوب بن سفيان عن أبي بكر: قال سراقة: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله

---

(١) الأبيات من الطويل، وهي لرجل من الجن في الدرر ٣/ ٨٧، وشرح شذور الذهب ص ٣٠٥.
(٢) قال من القيلولة، زوى جمع وقبض ضرع اللبن الخالص وأزبد أي علاه الزبد.
(٣) جمع حبالى.
(٤) يعني يحلبها مرة بعد أخرى.

ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة من الإبل لمن قتله أو أسره فبينا أنا جالس في مجلس من قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسودة[١] بالساحل، وفي لفظ ركبة ثلاثة ولا أراها إلا محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم فأوميت إليه أن اسكت فسكت حتى قمت فدخلت بيتي وأمرت جاريتي أن تخرج فرسي إلى بطن الوادي وأخرجت سلاحي من وراء حجرتي فخططت برمحي وخفضت عالية الرمح حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب فرأيت أسودتهما فلما دنوت منهم عثرت بي فرسي فخررت منها فقمت فأهويت بيدي كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أو لا أضرهم فخرج الذي أكره أن لا أضرهم وكنت أرجو أن أرده فآخذ المائة ناقة، فركبت فرسي وعصيت الأزلام فدفعتها تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يداها فلما استوت قائمة إذ لا تريد بها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره أن لا أضرهم فعرفت أنه قد منع مني وأنه ظاهر فناديتهما بالأمان، وقلت: انظروني فوالله لا أوذينكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «قل له ماذا تبغي»؟ قلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهما أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يرزأني[٢] ولم يسألني إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن قال: اكتب له يا أبا بكر وفي رواية فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ثم مضى رسول الله ﷺ فلما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من أهل حنين خرجت إلى رسول الله ﷺ لألقاه ومعي الكتاب الذي كتب لي فبينا أنا عامد له دخلت بين ظهري كتيبة من كتائب الأنصار، قال: فطفقوا يقرعونني بالرماح ويقول إليك حتى دنوت رسول الله ﷺ وهو على ناقته أنظر إلى ساقه في غرزة كأنها جمادة فرفعت يدي بالكتاب، فقلت يا رسول الله هذا كتابك وأنا سراقة بن مالك، فقال رسول الله ﷺ «وفاء وبرّ أدنه» فدنوت منه فأسلمت ثم ذكرت شيئاً أسأل عنه رسول الله ﷺ فلم أذكره إلا أن قلت: يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها من الإبل هل لي من أجر، قال: «نعم، في كل ذات كبد حرى أجر»، قال: فرجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي، وقال أبو بكر وتبعنا سراقة بن مالك فنحن في جلد الأرض فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا وبكيت قال: «وما يبكيك؟» قلت: أما والله ما على نفسي أبكي ولكن أبكي عليك، قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اكفناه بما شئت»، قال: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، ثم قال: يا محمد قد علمت إن هذا علمك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب

---

(١) أسودة جمع سواد وهو الشخص.

(٢) أي لم ينقصاني مما معي شيء.

وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك وغنمك» ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه لا يلقي إلا قال: قد كفيتم ولا يلقي أحد إلا رده ووفى لنا.

وعند ابن سعد أن سراقة لما رجع قال لقريش: قد عرفتم بصري بطريق وقد سرت فلم أر شيئاً فرجعوا. قال ابن سعد والبلاذري عارضهم السراقة بقديد يوم الثلاثاء وروى عروة والحاكم عنه عن أبيه أن النبي ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً، وروى البيهقي عن موسى بن عقبة أنه ﷺ لما دنا المدينة قدم طلحة بن عبيد الله من الشام عامداً إلى مكة فلما لقيه أعطاه الثياب فلبس رسول الله ﷺ وأبو بكر.

روى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر مدخله المدينة إلا غني الناس فإنه لا ينبغي لنبي أن يكذب، فكان أبو بكر إذا سئل من أنت قال: باغي حاجة، وإذا قيل: من الذي معك قال: هاد يهديني، ولما شارف رسول الله ﷺ المدينة لقيه أبو بردة الأسلمي في سبعين من قومه بني سهم فقال رسول الله ﷺ: «من أنت»؟ قال: بريدة، قال: يا أبا بكر برد أمرنا وصلح، ثم قال: ممن؟ قال: من أسلم، قال لأبي بكر: سلمنا؟ ثم قال: ممن؟ قال: من سهم، قال: خرج سهمك فلما أصبح قال: بريدة للنبي ﷺ لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء فحل عمامته ثم شدها في رمح ثم مضى بين يدي رسول الله ﷺ، قال: الحاكم تواترت الأخبار أن خروجه من مكة كان يوم الاثنين ودخول المدينة يوم الاثنين إلا أن محمد بن موسى الخوارزمي قال: خرج من مكة يوم الخميس، قال: الحافظ يجمع بينهما بأن خروجه من مكة يوم الخميس وخروجه من الغار ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج في أثناء ليلة الاثنين، قلت: ولعل ليلة الخميس هي الليلة التي أراد قريش قتله ﷺ بعدما مكروا به في دار الندوة، فخرج ﷺ من بيته إلى بيت أبي بكر واستصحبه ثم خرج من خوخة ظهر بيته والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كلمة الشرك أو دعوتهم إلى الكفر ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾ وذلك بتخليص الرسول ﷺ عن إيذاء الكفار إلى المدينة أو بتأييده إياه بالملائكة في المواطن أو بحفظه ونصره حيث حصروا ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ يعني كلمة التوحيد ودعوة الإسلام قرأ يعقوب بالنصب عطفاً على كلمة الذين كفروا والباقون بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ وفيه إشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلإثبات لتفوقه ولذلك وسط الفصل، وقيل: كلمة الذين كفروا ما قدروا بينهم في الكيد به ليقتلوه وكلمة الله وعده أنه ناصره ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدبيره قال الله تعالى:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٤٣) لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ
عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ (٤٦) لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا
زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧)
لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ
(٤٨) وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ
بِٱلۡكَٰفِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن
قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (٥١) قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ
ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا
لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ
كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ (٥٤) فَلَا
تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ
(٥٥) وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ (٥٦) لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـٔٗا أَوۡ
مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ (٥٧) وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ
وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ (٥٨) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا
ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ (٥٩)﴾

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ يعني حين يخف ويسهل لكم الخروج إلى الجهاد بصحة البدن والشباب والقوة والنشاط ووجود الزاد والراحلة والأعوان والأسلحة ﴿وَثِقَالٗا﴾ يعني حين يثقل عليكم لأجل المرض أو الشيب أو الضعف أو عدم النشاط أو شاغل من الأهل والمال والضيعات وقلة الزاد والسلاح والكراع والمتاع، وإلى ما ذكرنا يرجع ما قال: الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة شباباً وشيوخاً، وما قال ابن عباس: نشاط وغير نشاط أو أهل اليسر والعسر أو مقلين من السلاح ومكثرين منه، وما قال عطية العوفي في ركباناً ومشاة وابن زيد إن الثقيل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته والحكيم بن عتبة مشاغيل وغير مشاغيل والهمداني أصحاء ومرضى، ويمان عزاباً متأهلين أو مقلين الأتباع والحواشي ومستكثرين.

وقال أبو صالح: خفافاً من المال أي فقراء وثقالاً أي أغنياء، وقيل: خفافاً مسرعين خارجين ساعة سماع النفير وثقالاً بعد التروي فيه والاستعداد له، قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له إنك عليل صاحب ضر فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل وإن لم يمكنني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع، قال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نسخت هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة:

١٢٢] وقال السدي: لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١] الآية، لعل المراد بالنسخ في قول ابن عباس والسدي التخصيص لكون نزول الآيتين جميعاً بلا فصل في غزوة تبوك، فخرج من هذا الحكم من لا يستطيع الخروج من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون أو ما يركبون عليه ولا يستطيعون الشيء وبقي من يستطيع الخروج ولو بنوع مشقة وذلك لأجل النفير العام ويمكن أن يكون نزول قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ للآية بفصل يوم أو يومين ولو في غزوة تبوك بعدما اشتد شأنها على الناس فيكون نسخاً والله أعلم.

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الاستمتاعات الدنيوية وترك الجهاد ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير من الشر علمتهم إن خير لكم أو إن كنتم تعلمون إنه خير وإخبار الله به صدق فبادروا إليه، قال محمد بن عمر حث رسول الله ﷺ على الصدقة يعني لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك وكان أول من جاء بماله أبو بكر الصديق بأربعة آلاف درهم فقال رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً»؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بنصف ماله فقال رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً»؟ قال: نعم مثل ما جئت به، وحمل العباس طلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة وحمل عبد الرحمٰن بن عوف مائتي أوقية إلى رسول الله ﷺ وتصدق عاصم بن عدي تسعين وسقاً من تمر وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش حتى كان يقال ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم، قال محمد بن يوسف الصالحي كان ذلك الجيش زيادة على ثلاثين ألفاً فيكون رضي الله عنه جهز عشرة آلاف، وذكر أبو عمرو في الدرر وتبعه في الإشارة أن عثمان حمل على تسعمائة بعير ومائة فرس بجهازها، وقال ابن إسحاق: أنفق عثمان في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ونقل ابن هشام عمن يثق به أن عثمان أنفق في جيش العسرة عشرة آلاف درهم قال محمد بن يوسف الصالحي: يعني غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنه»(١).

وروى أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن عبد الرحمٰن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بألف دينار فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً(٢)، قال ابن عقبة وتخلف المنافقون عن غزوة تبوك وحدثوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لا يرجع إليهم أبداً فاعتذروا، وقال محمد بن عمرو جاءنا ناس من المنافقين إلى رسول الله ﷺ يستأذنوه في القعود من غير علة فأذن لهم وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فأنزل الله تعالى فيهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ اسم كان مضمر أي: لو كان ما دعوا إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي: متاعاً دنيوياً أو المعنى غنيمة قريبته المتناول ﴿وَسَفَرًا

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٨٤٢، وابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٤.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٨، وأحمد في المسند ٥/ ٦٣.

قَاصِدًا﴾ أي: متوسطاً ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك في الخروج طلباً للغنيمة، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ يعني المسافة فإنها تقطع بمشقة، وقيل: الشقة الغاية التي يقصدونها ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم، والقول مراد في الوجهين يعني سيحلفون بالله قائلين لو استطعنا لخرجنا أو سيحلفون المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين يقولون بالله ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا وهذه معجزة لكونه إخباراً عما وقع قبل وقوعه ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بدل من سيحلفون يعني أنهم يهلكونها بإيقاعها في العذاب بترك امتثال أمر رسول الله ﷺ والكذب واليمين الفاجرة، وجاز أن يكون حالاً من فاعل خرجنا يعني لخرجنا معكم وإن أهلكنا أنفسنا بالمسير في الحر وألقياها في التهلكة وجاء به على لفظ الغائب لأنه مخبر عنهم ألا ترى أنه لو قال: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا لكان أيضاً سديداً، يقال حلف بالله ليفعلن ولأفعلن فالغيبة على حكم الإخبار والتكلم على الحكاية ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ذلك لأنهم كانوا مستطيعين للخروج ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾(١) قال: سفيان بن عيينة بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب لطفاً به وإكراماً له، قلت: أو لأنه تعالى ذكر العفو قبل المعاتبة تحرزاً من أن يهلك رسول الله ﷺ لكمال خوفه وخشيته من الله تعالى، وقيل: افتتح الكلام بالدعاء كما يقول: الرجل لمن خاطبه إذا كان كريماً عنده عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي ورضي الله عنك ألا زرتني، وقيل: معناه أدام الله لك العفو ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في القعود حين استأذنوك وهلا توقفت ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الاعتذار ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيها يعني من لا عذر له.

قال ابن عباس لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذٍ، أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون قال: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بهما إذنه المنافقين في القعود وأخذه الفدية من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ في التخلف كراهة ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ والمعنى لا يستأذنونك في أن يجاهدوا بل يبادرون إليه ولا ينتظرون الإذن فضلاً أن يستأذنوا في التخلف ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى ووعدوا بثوابه ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلف ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ذكر الإيمان بالله اليوم الآخر في الموضعين إشارة إلى أن الإيمان يقتضي محبة الجهاد طمعاً في الثواب بحيث لا يستأذن في إتيانه وعدم الإيمان

---

(١) قال القاضي عياض في الشفاء ليس عفا ههنا بمعنى غفر بل كما قال النبي ﷺ عفا الله عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أي لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري وقال إنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب وقال معنى عفا الله عنك لم يلزمك ذنباً قال القاضي لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من الله نهي فيعد معصية ولا عد الله عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب إلى ذلك نفطويه وقال حاشاه الله من ذلك بل كان مخيرًا بين أمرين.

يقتضي تركه لعدم رجاء الثواب ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فشكت في الدين ونافقت ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون فتارة يريدون الخروج كيلا يردا من المسلمين أذى لو ظفروا وتارة عدم الخروج لزعمهم أن الرسول لا يرجع إليهم أبداً.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾ معك ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ﴾ ليهيؤوا للخروج أو للجهاد ﴿عُدَّةً﴾ ما يعد للسفر والجهاد من المتاع والسلاح والكراع ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾ كأنه قال: ما خرجوا ولكن تثبطوا لأنه تعالى كره ولم يرد نهوضهم للخروج ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ﴾ في بيوتكم ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ يعني مع المرضى والزمنا وقيل: مع النساء والصبيان، تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود أو حكاية قول بعضهم لبعض أو أذن الرسول لهم قصة خروجه ﷺ وتخلف أكثر المنافقين، خرج رسول الله ﷺ في رجب سنة تسع فعسكر بثنية الوداع ومعه زيادة من ثلاثين ألفاً قاله محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر وابن سعد وكذا روى الحاكم في الإكليل عن معاذ بن جبل، ونقل الحاكم في الإكليل عن أبي زرعة الرازي قال: كانوا بتبوك سبعين ألفاً وجمع بين الكلامين أن سبعين التابع والمتبوع وكانت الخيل عشرة آلاف فرس، روى عبد الرزاق وابن سعد أنه خرج إلى تبوك يوم الخميس وكان يستحب أن يخرج يوم الخميس، قال ابن هشام واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وذكر الدراوردي أنه استخلف عام تبوك سباع بن عرفظة زاد محمد بن عمر بعد حكاية ما تقدم، ويقال ابن أم مكتوم، قال: والثابت عندنا محمد بن مسلمة الأنصاري ولم يتخلف عنه في غزوة غيرها، وقيل: علي ابن أبي طالب، قال أبو عمر وتبعه ابن دحية وهو الأثبت.

روى عبد الرزاق في المصنف بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى تبوك استخلف على المدينة علي بن أبي طالب.

قال ابن إسحاق: وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم فأوجف به المنافقون وقالوا ما خلفه إلا استثقالاً له وتحققاً منه فلما قالوا: ذلك أخذ على سلاحه وخرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا ولكن خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك فلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» فرجع علي رضي الله عنه وهذا الحديث متفق عليه، وعسكر عبد الله بن أبي مع رسول الله ﷺ على حدة عسكرة أسفل منه نحو ذباب[1] فأقام إلى ما أقام رسول الله ﷺ فلما سار رسول الله ﷺ نحو تبوك تخلف ابن أبي راجعاً إلى المدينة فيمن تخلف من المنافقين وقال يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب والله

(١) ذباب: جبل بقرب المدينة.

لكأني انظر إلى أصحابه مقرنين في الجبال إرجافاً[١] برسول الله ﷺ وبأصحابه فأنزل الله. . . تعالى في ابن أبيٍ ومن معه قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: شراً وفساداً بإيقاع الجبن في المؤمنين بتهويل الأمر أو بإعانة الكفار في حالة الجهاد والعزة بالمؤمنين ونحو ذلك، ولا يستلزم الآية وجود الفساد الآن وزيادة الفساد عند خروجهم لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء ولأجل هذا التوهم جعل بعضهم الاستثناء منقطعاً وليس كذلك لأنه لا يكون حينئذٍ مفرغاً ﴿وَلَأَوْضَعُواْ﴾ أي أسرعوا ركائبهم بالنميمة أو الهزيمة أو التخذيل من وضع البعير وضعاً إذا أسرع ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: وسطكم وقيل: أوضعوا خلالكم أي: أسرعوا فيما يخل بكم ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب من العدو في قلوبكم والجملة حال من فاعل أو ضعوا ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: ضعفة يسمعون قولهم ويطيعون كذا قال قتادة: أو الجواسيس يسمعون حديثكم للنقل إليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي يعلمه ضمائرهم وما يتأتى منهم فيجازيهم عنه ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: طلبوا تشتت أمرك وتفرق أصحابك وتخذيل المؤمنين ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا اليوم يوم أحد حين انصرفوا عنك ابن أبي بأصحابه ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي: دبروا لك المكائد والحيل ودور والآراء في إبطال أمرك ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: جاء نصر الله وتأييده للدين الحق ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ إعلاء دينه على زعم منهم ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ ظهور الدين وعلوه ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين الذين استأذنوك في التخلف ﴿مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ وذلك جد بن قيس المنافق.

روى ابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ومحمد بن إسحاق ومحمد بن عمرو بن عقبة عن شيوخهم أن جد بن قيس أتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد معه نفر، فقال: يا رسول الله ائذن في القعود فإني ذو ضيعة وعلة فيها عذر لي فقال رسول الله ﷺ: «تجهز فإنك موسر لعلك تحقب من بنات بني الأصفر» قال الجد: أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي ما أحد أشد عجباً بالنساء مني وإني لأخشى إن رأيت بنات بني الأصفر لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنا لك» زاد محمد بن عمر فجاءه ابنه عبد الله بن جد وكان بدرياً وهو أخو معاذ بن جبل لأمه فقال لأبيه: لم ترد على رسول الله ﷺ قوله فوالله ما في بني سلمة أحد أكثر مالاً منك فلا تخرج ولا تحمل، فقال: يا بني مالي وللخروج في الحر الشديد والريح والعسرة إلى بني الأصفر والله ما آمن خوفاً من بني الأصفر وأنا في منزلي أفأذهب إليهم أغزوهم إني والله يا بني عالم بالدوائر فأغلظ له ابنه فقال: لا والله ولكنه النفاق، والله لينزلن على رسوله قوله أن يقرأ به فرفع نعله فضرب بها وجه ولده فانصرف ابنه ولم يكلمه فأنزل الله هذه الآية، للطبراني وابن مردويه وأبو نعيم أنه

---

(١) إرجافاً: يعني قالوا ذلك حتى يضطرب المسلمون.

قال عليه السلام لجد بن قيس: ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب النساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن فأذن لي ولا تفتني فنزلت، وذكر البغوي أنه ﷺ قال: «يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصيفاً؟» فقال جد: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء وأني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصير عنهن ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن واعينكم بمالي وأخرج الطبراني بوجه أخر عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال اغزوا نغتنموا بنات بني الأصفر فقال ناس من المنافقين: إنه ليفتنكم بالنساء فأنزل الله تعالى هذه الآية، ومعنى قوله لا تفتني على ما تقتضيه الروايات المذكورة أن لا تفتني ببنات بني الأصفر يعني أقع في الإثم والفتنة لأجل حبهن وعدم المصابرة عنهن، وقيل: معناه لا تفتني بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لها بعدي، وقيل: معناه ائذن لي في القعود ولا توقعني في الفتنة يعني العصيان لمخالفة أمرك بأن لا تأذن لي واقعد وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن به أو لا يأذن ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: الشرك والعصيان ﴿سَقَطُوا۟ۗ﴾ وقعوا يعني الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف وظهور النفاق ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ مطبقة بهم جامعة لهم يوم القيامة أو الآن لإحاطة أسبابها.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا محمد في بعض غزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ لفرط حدهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسرة أو شدة كما أصاب يوم أحد فرحوا بتخلفهم واستحمدوا آرائهم ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ أي ما كان أصلح لنا يعني القعود من الغزو ﴿مِن قَبْلُ﴾ وقوع هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم أو عن الرسول ﷺ، ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بمصيبة المؤمنين بعداوتهم ﴿قُل﴾ يا محمد لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ من النصرة أو الشهادة ولم يقل ما كتب الله لنا أو علينا للإشعار بكون كلا التقديرين خيراً لنا ﴿هُوَ﴾ يعني الله الذي كتب ﴿مَوْلَىٰنَا﴾ ناصرنا ومتولي أمرنا فكيف يكون تقديره شراً لنا، قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه أحمد ومسلم عن صهيب، وروى البيهقي عن سعد نحوه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ متعلق بمحذوف أي ليتوكل المؤمنون على الله فليتوكلوا عليه وفيه تأكيد وبالفاء إشعار بأنه لا ينبغي لهم أن يتوكلوا على غيره وهو وليهم والقدير على كل شيء ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ فيه حذف أحد التاءين أصله تتربصون يعني ما تنتظرون بنا أيها الكفار أو المنافقون ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: إحدى العاقبتين كل منهما حسنى العواقب وذلك القتل في سبيل الله وذلك وإن كان قبيحاً على زعمكم لكنه إحدى العاقبتين الحسنين في حقنا أحدهما هذه وهي شهادة مورثة للجنة والحياة المؤبدة، وثانيهما النصر والغنيمة.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه

إلا إيمان لي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة»[١] متفق عليه، والترديد مانعة الخلود دون الجمع ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوأتين أن لا تتوبوا أحد لهما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ يوم القيامة إن ظفرتم في الدنيا، وثانيهما ما قال: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر المفضي إلى عذاب النار وهذا على تقدير كون الخطاب لمطلق الكفار وعلى تقدير كونه للمنافقين خاصة فإحدى السوأتين: أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أي يهلككم أهلك الأمم الخالية فيعذبكم في النار إن متم على النفاق، وثانيهما: القتل على الكفر إن أظهرتم ما في قلوبكم ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم وقال الحسن تربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الرحمٰن من إظهار دينه.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ نصب على الحال أي: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله أو مكرهين أي ملزمين سمى الإلزام إكراهاً لأنهم كانوا منافقين فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه وهذا صيغة أمر بمعنى الخبر تقديره ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ نفقاتكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً وفائدته المبالغة في الحكم بتساوي الإنفاقين في عدم القبول كأنهم أمروا أن يمتحنوا فينفقوا مرة طوعاً ومرة كرهاً وينظروا هل يتقبل منهم شيء منها، وهو جواب لجد بن قيس حيث قال: ائذن لي ولا تفتني وأعينك بمالي، ونفى التقبل بوجهين أحدهما أنه لا يقبل منهم رسول الله ﷺ وكذا الأئمة بعده لا يقبلون الصدقة ممن يعلمون أنه منافق، وثانيهما: أنه تعالى لا يتقبل منهم ولا يثيب عليه ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين من زمرة المسلمين تعليل لعدم التقبل على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي أعني ﴿نَفَقَٰتُهُمْ﴾ أن يقبل مفعول لمنع وفاعلاً ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ يعني ما منع من قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ يعني متثاقلين لمرآة الناس عطف على كفروا ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ نفقة في سبيل الله ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً يعدون الزكاة مغرماً وتركها مغنماً فإن قيل: وصفهم بالطوع في قوله أنفقوا طوعاً أو كرهاً وسلبه هنا بالكلية فكيف التوفيق؟ قلنا: المراد بالطوع هناك بذلهم من غير إلزام الرسول كما ذكرنا وليس ذلك البذل إلا رياء فليس ذلك إلا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار، أو يقال وصفه بالطوع هناك على سبيل الفرض وسلبه ههنا على التحقيق.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ الإعجاب هو السر وربما يستحسن يعني لا يستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٦، والنسائي في الجهاد باب ١٤، والإيمان باب ٢٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣١، ٣٨٤، ٤٩٤.

﴿ٱللَّهُ﴾ بإعطائهم الأموال والأولاد ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بسبب ما يتكايدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب وفي إنفاقها من المكارة وفي تخليفها عند من لا يحمده من الحسرات، وقال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير تقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة على كسبها وجمعها وحفظها وإنفاقها على وجه غير مشروع ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وأصل الزهوق الخروج بصعوبة يعني تخرج أنفسهم متحسراً متأسفاً على تركها مشتغلون بالتمتعات عن النظر في المبدأ والمعاد فيكون ذلك استدراجاً، والآية دلت على بطلان القول بوجوب الأصلح لأنه تعالى أخبر أنه أعطى الأموال والأولاد للتعذيب والإماتة على الكفر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي: من المسلمين ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي حصناً يلجؤون إليه أو قوماً يأمنون فيهم ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ في الجبال جمع مغارة وهي الغار يعني الموضع الذي يغور فيه أي يستتر، وقال عطاء سراديب ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أصله مدتخل مفتعل من الدخول أي: موضع يدخلون فيه بصعوبته كنفق اليربوع ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأدبروا إليه هرباً منكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في آباء نفور لا يردهم شيء كالفرس الجموح ومعنى الآية أنهم كارهون من مصاحبتكم أشد الكراهة لو يجدون مخلصاً منكم لفارقوكم ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيبك يقال لمزه وهمزه إذا عابه قرأ يعقوب بضم الميم حيث كان ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: قسمتها يعني يقولون لا تعدل في القسمة، روى الشيخان والبيهقي عن ابن مسعود قال: لما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن يوم حنين آثر ناساً من أشراف العرب فقال: رجل من الأنصار: يعني من قومهم إن هذه لقسمة ما عدل فيها أو ما أريد فيها وجه الله، فقلت والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأخبرته فتغير وجهه حتى صار كالصرف[1]، وقال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2] قال محمد بن عمر الرجل المبهم هو معتب بن قشير المنافق، وروى ابن إسحاق عن ابن عمر والشيخان وأحمد عن جابر والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ بينما هو يقسم غنائم هوازن إذ قام إليه رجل، قال ابن عمر وأبو سعيد من تميم يقال له ذو الخويصرة فوقف عليه ﷺ قال: «فكيف رأيت»، قال: لم أرك عدلت اعدل، وفي رواية فقال الرجل يا رسول الله اعدل فغضب رسول الله ﷺ فقال: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»؟ وفي رواية: «إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون»؟ فقال: عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني

---

(١) الصرف: صبغ يصبغ به الأديم.
(٢) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٩، ومسلم في الزكاة حديث ١٤٠.

أقتل هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس أقتل أصحابي دعه فإن له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى أرصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نضيه[1] فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قدده فلا يوجد فيه شيء، وقد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدور ويخرجون على خير فرقة من الناس»[2].

قال أبو سعيد فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به فنظرت إليه على لفت النبي ﷺ.

قال البغوي: وصاحب أسباب النزول نزلت الآية في ذي الخويصرة التميمي يعني المذكور في هذا الحديث، واسمه خرقوص بن زهير أصل الخوارج، فظاهر الآية يأبى عن هذا القول لأن المذكور في الآية لمن الصدقات وقصتها ذي الخويصرة التميمي ومعتب بن قشير المذكورين في الحديثين الصحيحين المذكورين في قسمة غنائم حنين وهذه الآية نزلت في غزوة تبوك بعد غزوة حنين، وعندي الآية نزلت في قسمة صدقات جاء بها المسلمون لتجهيز جيش العسرة والله أعلم.

وقال الكلبي: نزلت الآية في رجل من المنافقين يقال له أبو الحواص قال: لم يقسم بالسوية قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ إذا للمفاجآت نائب مناب الفاء الجزائية قيل: معناه وإن أعطوا كثيراً رضوا وفرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا نظراً إلى قوله تعالى ﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني بما أعطاهم الرسول من الصدقة والغنيمة، وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن فعل الرسول الله ﷺ كان بأمره تعالى وعلى أنه يجب الرضا والتسليم بما فعل النبي ﷺ كما يجب الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كفانا من فضلهم ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من وجه آخر ما يحتاج إليه ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من صدقة أو غنيمة أخرى ﴿إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يغنينا من فضله والآية بأسرها في حيز الشرط والجواب محذوف تقديره لكان خيراً لهم.

ثم بين مصارف الصدقات قطعاً لأطماع رجال كانوا يطمعون فيها ولم يكونوا من أهلها وتصويباً لما فعل رسول الله ﷺ فقال.

﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) وهو قدحيه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥، والاستتابة باب ٦، ٧، ومسلم في الزكاة حديث ١٤٧، ١٤٨، وأحمد في المسند ٣/٥٦.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ قال البيضاوي: وهو دليل على أن المراد باللمز هم في قسمة الزكاة دون الغنائم، قلت: المراد بالآية والله أعلم أن مصرف الصدقات هم الفقراء فقط دون الأغنياء فالفقير هو المحتاج ضد الغني سواء كان له قليل من المال أو لم يكن وهو أعم من المسكين وغيره من الأصناف، وقال أكثر الحنفية الفقير من له دون النصاب، وما قلت أوفق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث يعتبر الفقر في الغارم والغازي وغيرهما، والدليل على ما قلت من عموم الفقر وشموله للأصناف قصة معاذ. روى الشيخان وأصحاب السنن من حديث ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١) وبهذا الحديث اعتبر صفة الإيمان في الزكاة المفروضة فلا يجوز دفع الزكاة إلى فقير كافر ذمياً كان أو حربياً لإجماع وأجاز الزهري وابن شبرمة الدفع إلى أهل الذمة ويؤيد قول الزهري وابن شبرمة ما روي عن عمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ قال: هم زمناً أهل الكتاب وقد اضمحل خلافهما بإجماع من بعدها.

فإن قيل: هذا حديث آحاد كيف يجوز على أصل أبي حنيفة زيادة الإيمان في الفقراء المنصوصين بنص الكتاب؟ قلنا: خص من ذلك الآية الحربي بالإجماع مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] فجاز تخصيصه بعد ذلك بخبر الآحاد، وجاز دفع الصدقة النافلة إلى الذمي إجماعاً لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] الآية وحديث معاذ في الزكاة المفروضة خاصة دون النافلة، وأما إلى الحربي فلا يجوز دفع النافلة أيضاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] وأما الصدقات الواجبة كالفطرة والكفارات والنذور فحكمها حكم المفروضة عند الأئمة الثلاثة فإنهم لا يفرقون بين الفرض والواجب، وعند أبي حنيفة يجوز دفعها إلى الذمي لانحطاط درجة الواجب عن الفريضة عنده وعدم شمول حديث معاذ إياها فإن معاذاً كان عاملاً لأخذ الزكاة فحسب والله أعلم.

وإذا كان الفقير أعم من المسكين وغيره من الأصناف فحينئذٍ عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وما بعده على الفقراء من قبيل عطف الخاص على العام كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فهو لزيادة الاهتمام، فلنذكر معاني الألفاظ من المساكين وغيرها حتى يظهر منها وجه الاهتمام بذكرها.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٤١، ٦٣، والمغازي باب ٦٠، والتوحيد باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩، ٣١.

أما المساكين فالمراد به الفقير الذي لا يسأل الناس إلحافاً مشتق من السكون والسكينة أي: لا يتحرك لأجل السؤال، والدليل عليه ما رواه الشيخان في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس»(١) فظهر أن المسكين نوع من الفقير وإعطاءه أولى من إعطاء غيره من الفقراء فهو أهم قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] وإلحاف الإلحاح، فإن قيل: قد يطلق المسكين على الفقير السائل أيضاً كما في حديث متفق عليه عن أبي هريرة في قصة ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى الحديث بطوله وفيه «رجل مسكين قد انقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً يبلغ في سفري»(٢) قلنا: إما أن يكون في الحديث السابق بيان المراد من الآية لا بيان الغني اللغوي وإما أن يكون في الحديث الثاني لفظ المسكين مجازاً وليس المأخوذ في مفهوم المسكين أن يكون له قليل من المال، كما قال به بعض الشافعية إن الفقير من ليس له مال أصلاً والمسكين من له قليل من المال لأن قوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩] ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] في الكفارات المراد به إجماعاً الفقير مطلقاً سواء كان له قليل من المال أو لم يكن له مال أصلاً، وأيضاً قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٦] يعني من لصق بالتراب من فقره يرد قول من قال: إن المسكين من له قليل من المال، وكذا ليس المأخوذ في مفهوم المسكين أن لا يكون له مال أصلاً كما قال به بعض الحنفية لأن قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] تدل على أن السفينة كانت لهم ملكاً ومع ذلك سماهم الله تعالى مساكين، والقول بأنها كانت لهم بالإجارة أو العارية أو أطلق عليهم لفظ المسكين ترحماً صرف للنص عن الظاهر بلا دليل، وقد يستدل على أن المساكين أحسن حالاً من الفقير بأن النبي ﷺ استعاذ من الفقر(٣) وذلك متفق عليه من حديث عائشة وفي الباب عن أبي هريرة عند أبي داود والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم وعندهما من حديث أبي بكرة وأبي سعيد وأنس وقد قال: النبي ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً»(٤) رواه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه عن أبي سعيد، والجواب أن الفقر المستعاذ منه هو فقر النفس وفي الصحيح عن رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٣، ومسلم في الزكاة حديث ١٠١.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥١، ومسلم في الزهد حديث ١٠.

(٣) في الحديث: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»، أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٠١، والنسائي عن السهو باب ٩٠، والاستعاذة باب ١٦، ٢٩، وأحمد في المسند ٣٦/٥، ٣٩، ٤٢، ٤٤.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٣٧، وابن ماجه في الزهد باب ٧.

ﷺ: «إنما الغنى غنى النفس»[1] أو المستعاذ منه فتنة الفقر لا حاله وكذا المسؤول ليس نفس المسكنة بل بعض صفاته من الصبر والتوكل والرضا أو يقال إسناد حديث أنس وأبي سعيد ضعيفان، كذا قال الحافظ ابن حجر وذكره ابن الجوزي في الموضوعات لما رآه مباينا للحال الذي مات عليه النبي ﷺ لأنه كان مكفياً وقد قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨] والله أعلم.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: الصدقات عدّ الله سبحانه من أصناف الفقراء عاملي الصدقة وأعوانهم مجازاً سواء كانوا أغنياء أو فقراء لأنهم وكلاء للفقراء في أخذ الصدقات وتقسيمها مشغولون بأمورهم فيجب عليهم مؤنتهم فهم فقراء حكماً. واختلفوا في قدر ما يعطىٰ للعامل من الزكاة؟ فقال الشافعي: يعطى له ولأعوانه الثمن من الصدقات قل عمله أو كثر بناء على أنه يجب عنده صرف الزكاة إلى الأصناف الثمانية على السوية وسنذكر الرد عليه، وقال أبو حنيفة وأكثر الأئمة يعطى له كفاية بقدر عمله فإن عمل يوماً يعطى له كفاية يومه وإن عمل سنة يعطى له كفاية سنة لأنه ليس للغني حق في الزكاة وإنما يعطي العامل أجر عمله الذي وجب على الفقراء فيعطي ذلك القدر من مال الزكاة الذي هو حقهم، ولا يجوز دفع جميع مال الزكاة إلى العامل إجماعاً وإن استغرقت كفاية جميع مال الصدقة بل حينئذٍ يعطى له النصف لا يزاد عليه إذ لو يعطى أكثر من النصف وللأكثر حكم الكل يكون هو عاملاً لنفسه لا للفقراء فيفوت المقصود ولا يجب عليه مؤنته قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قال البغوي: وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فأما المسلمون فقسمان قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه فكان النبي ﷺ يعطيهم تألفاً كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام وهم شرفاء في قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر، فكان يعطيهم تألفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة والفيء سهم النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الزكاة، والقسم الثاني من المؤلفة المسلمين أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع لا يبلغه جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيره وهم لا يجاهدون إما لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل: من سهم المؤلفة من الصدقات.

روي أن عدي بن حاتم جاء أبا بكر بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبا بكر منها ثلاثين بعيراً أما الكفار من المؤلفة فهو من يخشى شره منهم أو يرجى إسلامه فالإمام يعطي هذا حذراً من شره ويعطي ذلك ترغيباً له في الإسلام فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما رأى ميله إلى الإسلام وأما اليوم فقد أعز الله تعالى الإسلام وله الحمد وأغناه عن أن يتألف عليه رجال فلا يعطى مشرك تألفاً

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٥، ومسلم في الزكاة حديث ١٢٠.

بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم إن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط، روي ذلك عن عكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثوري وإسحاق بن راهويه وأصحاب الرأي، وقال قوم سهمهم ثابت يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام وأبي ثور، وقال أحمد يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك انتهى كلامه. وفي أكثر الكتب أنهم اختلفوا في حكم المؤلفة؟ قال أبو حنيفة قد سقط منهم المؤلفة قلوبهم لأنه تعالى أعز الإسلام وأغنى، وبه قال مالك وهي رواية عن الشافعي، وعن مالك رواية أخرى إن احتيج إليهم في بلد أو ثغر استأنف الإمام لوجود العلة، وهي رواية عن أحمد، وقال الشافعي وأحمد في أصح المختار عند أكثر أصحاب الشافعي ما في المنهاج أن المؤلفة من المصرف قال: وهو من أسلم ونيته ضعيفة أو له شرف يتوقع بإعطائه إسلام غيره، وقلت: وبهذا ظهر أن الشافعي أيضاً لا يجوز إعطاء الزكاة للكافر من المؤلفة كما لا يجوز للكافر من الفقراء والمساكين وغيرهم وأبو حنيفة ومن معه لا ينكرون إعطاء مسلم فقير من المؤلفة وإنما الكلام في المسلم الغني من المؤلفة فعند الشافعي يعطى له من الزكاة بناء على زعمه أن الفقر غير معتبر في سائر الأصناف، وعند أبي حنيفة لا يعطى له الزكاة بناء على اعتبار الفقر في سائر الأصناف فظهر أنه لا خلاف بينهم في أن حكم جواز إعطاء الزكاة للمؤلفة بات غير منسوخ وكيف يحكم بالنسخ مع عدم الناسخ، ولو حمل قول أبي حنيفة على إعطاء الكافر من المؤلفة منسوخ لكان له وجه لكن لم يثبت أن النبي ﷺ أعطى أحداً من الكفار للإيلاف شيئاً من الزكاة.

فإن قيل: روى مسلم والترمذي عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية في قصة فقال: أعطاني النبي ﷺ ولأنه أبغض الناس إلي فما برح يعطيني إنه لأحب الناس إلي[(١)]، وهذا صريح في أنه كان يعطيهم في حالة الكفر وقد جزم ابن أثير في الصحابة أنه أعطاه قبل إسلامه، قلت: قال النووي إعطاء النبي ﷺ صفوان بن أمية كان من غنائم حنين وصفوان يومئذٍ كافر، قال الحافظ ابن حجر ودعوى الرافعي أنه أعطى صفوان ذلك من الزكاة وهم والصواب أنه من الغنائم من خمس خمس التي كان للنبي ﷺ، وبذلك جزم البيهقي وابن سيد الناس وابن كثير وغيرهم، وقال ابن الهمام في بيان النسخ أسند الطبراني قول عمر بن الخطاب حين جاءه عيينة بن حصين الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر يعني ليس اليوم مؤلفة، وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي إنما كانت المؤلفة على عهد رسول الله ﷺ ولما ولى أبو بكر انقطعت، وقال ابن الهمام جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاً إلى أبي بكر فكتب له الخط فمزقه عمر، وقال: هذا شيء كان رسول الله ﷺ يعطيكموه ليتألفكم على الإسلام والآن فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا: الخليفة أنت أم عمر فقال: هو إن شاء ووافقه

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٥٩، والترمذي في الزكاة باب ٣٠.

ولم ينكر عليهما أحد من الصحابة، قلت: لا يخفى أن قول عمر لا يحتمل أن يكون ناسخاً وليس في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] دلالة على نسخ سهم المؤلفة كيف وهو أقدم ولا من آية سهم المؤلفة فإن سورة التوبة آخر القرآن نزولاً وسورة الكهف مكية وليست القصة في الزكاة بل في إقطاع الأرض فكيف يحكم بنسخ سهم المؤلفة وإذا ثبت أن حكمه باق غير منسوخ لكن الكافر من المؤلفة ليس بمراد بل الحكم مخصوص بالمسلمين منهم ولذا لم يثبت عن النبي ﷺ إعطائه من الزكاة كافراً من المؤلفة.

فنقول: إذا خص الكافر من المؤلفة فلا بد أن يخص الغني أيضاً بالأحاديث الواردة في عدم حل الزكاة للغني وبما ذكر في حديث معاذ قوله ﷺ: «تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم» وإذا خص المسلم الغني من المؤلفة بقي الحكم في المؤلفة الفقراء فظهر أن المؤلفة أيضاً صنف من الفقراء عطف عليه عطف الخاص على العام لزيادة الاهتمام.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ عدل عن اللام إلى في للإيذان بأن الأربعة اللاحقة أرسخ في استحقاق التصدق عليهم من المساكين والعاملين والمؤلفة لأن في للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن يوضع فيهم الصدقات، والمراد بهم المكاتبين عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد وهي رواية ابن وهب عن مالك وهم فقراء البتة وإن كانت عندهم نصاب لا يكفي لأداء كتابتهم فيعان في فك رقابهم قال الله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣] وقال مالك الرقاب العبيد الأرقاء فعنده يشتري من الزكاة رقبة كاملة فيعتق وهي رواية عن أحمد لكنه رجع أحمد عنها، واحتج مالك بأثر ابن عباس روى أبو عبيدة في كتاب الأموال من طريق أبي الأشرس عن مجاهد عنه أنه كان لا يرى بأساً أن يعطي الرجل من زكاة ماله في الحج وأن يعتق منه الرقبة أخرجه عن أبي معاوية عن الأعمش عنه، وأخرج عن أبي بكر بن أبي عياش عن الأعمش عن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: أعتق من زكاة مالك، قال: وتابع أبا معاوية عبدة بن سليمان رويناه في فوائد يحيى بن معين رواية أبي بكر بن علي المروزي عن عبدة عن الأعمش عن أبي الأشرس ولفظه كان يخرج زكاة ثم يقول جهزونا منها إلى الحج، وقال الميموني قلت لأبي عبد الله يشتري الرجل من زكاة ماله الرقاب فيعتق ويجعل في ابن السبيل قال: نعم ابن عباس يقول ذلك ولا أعلم شيئاً يدفعه.

قال: الجلالي أخبرنا أحمد بن هاشم قال: قال أحمد كنت أرى أن يعتق من الزكاة ثم رجعت عن ذلك فاحتج عليه بحديث ابن عباس فقال: هو مضطرب، ثم عند مالك الولاء للمسلمين وفي رواية عنه الولاء للمعتق قال الحافظ إنما وصف أحمد أثر ابن عباس بالاضطراب لاختلاف في إسناده عن الأعمش قال الحافظ وفي تفسير الرقاب قول ثالث أن سهم الرقاب يجعل نصفين نصف لكل مكاتب يدعي الإسلام ونصف يشتري بها رقاب من صلى وصام، أخرجه ابن أبي حاتم وأبو عبيدة في الأموال بإسناد صحيح عن الزهري، أنه كتب ذلك لعمر بن عبد العزيز والله أعلم، قلت قوله ﷺ لمعاذ: «تأخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» يأبى قول مالك فإن في شراء الرقيق لم يوجد الرد... على الفقراء وقول ابن

عباس مضطرب كما قال أحمد ولو صح فهو رأي ليس برواية فليس بحجة، وما ذكرنا في تفسير الرقاب بالمكاتبين يدل عليه ما أخرجه الطبراني في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن البصري أن مكاتباً قال: لأبي موسى الأشعري وهو يخطب يوم الجمعة فقال له أيها الأمير حث الناس عليَّ فحث عليه أبو موسى، فألقى الناس عليه هذا يلقي عمامة وهذا يلقي قلادة وهذا يلقي خاتماً حتى ألقى الناس عليه سواداً كثيراً فلما رأى أبو موسى ما ألقي عليه قال: اجمعوه ثم أمر به فبيع فأعطى المكاتب مكاتبة ثم أعطى الفضل في الرقاب ولم يرده على الناس وقال إن هذا أعطوه في الرقاب.

فإن قيل: روى أحمد وغيره أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يقربني إلى الجنة ويباعدني من النار فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة» فقال: أو ليسا سواء؟ قال: «لا عتق الرقبته أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»[١] قلت: هذا لا يدل على أن في الرقاب المذكور في الآية ما قاله مالك والله أعلم.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وهم المديونون بالاتفاق لكن الشافعي وأكثر الأئمة جعل المديون على ثلاثة أقسام قسم أدانوا أنفسهم من غير معصية فإنهم يعطون من الصدقة إذا لم يكن مالهم مال يفي بدينهم فإن كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يعطون من الصدقة ويقضي ديونهم وإن كانوا أغنياء، وقسم أدانوا في معصية الله والإسراف فلا يدفع إليه شيء، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدفع إلى كل مديون لم يكن مالكاً لنصاب فاضل عن وفاء دينه لعموم اللفظ، ولا شك أنه فقير فإن ماله مشغول بدينه والخلاف فيه كالخلاف في رخص السفر وكل مديون كان له نصاب فأضل عن وفاء دينه لا يجوز دفع الزكاة إليه عند أبي حنيفة ومالك وأحمد خلافاً للشافعي في مديون أدان في الطاعة، قوله تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرر كلمة في لترجيح الصنفين اللاحقين على الرقاب والغارمين، قال الشافعي: وأبو يوسف وجمهور العلماء المراد به منقطع الغزاة، وقال أحمد ومحمد بن الحسن منقطع الحاج، والحجة لأحمد ما رواه أحمد وأبو داود من حديث أم معقل قالت: كان أبو معقل حاجاً مع رسول الله ﷺ فلما قدم قالت أم معقل: قد علمت أن عليَّ حجة فانطلقا يمشيان حتى دخلا عليه ﷺ فقالت: يا رسول الله عليَّ حجة وإن لأبي معقل بكراً فقال أبو معقل: صدقة جعلته في سبيل الله، قال: رسول الله ﷺ: «أعطها فلتحج عليه فإن الحج في سبيل الله»[٢] وفيه إبراهيم بن مهاجر يتكلم فيه، وفي بعض الروايات أنه كان بعد وفاة أبي معقل رواه أبو داود وأحمد بسند آخر عن أم معقل قالت: لما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع وكان لنا جمل فجعل أبو معقل في سبيل الله وأصابنا مرض وهلك أبو معقل وخرج النبي ﷺ فلما فرغ من حجته جئته فقال: يا أم معقل ما منعك أن تخرجي معنا؟ قالت: لقد تهيأنا فهلك

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٩٩.
(٢) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٧٩، وأحمد في المسند ٦/ ٣٧٥.

أبو معقل وكان لنا جمل هو الذي يحج عليه فأوصى به أبو معقل في سبيل الله قال: «فهلا خرجت عليه فإن الحج في سبيل الله» واحتج الشافعي بحديث أبي هريرة المتفق عليه وفيه «وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً فإنه قد احتبس أدراعه وأعتده».

قلت: ولما كان الفقر مأخوذ في جميع الأصناف فالأولى أن لا يخص في سبيل الله بالحج ولا بالغزو بل يترك أعم منهما ومن سائر أبواب الخير فمن أنفق ماله في طلبة العلم صدق إنه أنفق في سبيل الله، قوله تعالى: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر فاعلم أن المسافر إما أن يكون مالكاً لنصاب يمنع أخذ الزكاة أو لا وعلى الثاني يعطي له الزكاة اتفاقاً سواء كان في أثناء السفر أو مريداً للسافر كمن لم يكن مسافراً لكونه فقيراً، وعلى التقدير الأول إن كان له مال في يده بقدر النصاب وبقدر ما يبلغ بلداً يريد دخوله لا يعطي له الزكاة اتفاقاً سواء كان في أثناء السفر أو لا وإن كان له مال كثير في وطنه لا معه وهو في أثناء السفر فقير يداً ليس عنده ما يبلغ نصاباً ولا ما يبلغ به وطنه الذي فيه ماله يعطي له الزكاة اتفاقاً وهو المراد بابن السبيل في هذه الآية عند أبي حنيفة ﷺ، فالفقر المعتبر لإباحة أخذ الزكاة هو الفقر يداً فمالكية المال لا ينافي جواز أخذ الزكاة إن لم يكن المال في يده فالمقيم في الوطن الذي له مال في وطنه بمنزلة ابن السبيل والدائن الذي مديونه مقر مفلس كابن السبيل كذا في المحيط وإن كان له مال كثير في وطنه وعنده مال قليل لا يبلغ نصاباً لكن يمكن أن يبلغ به مكانه الذي فيه ماله لا يجوز له أخذ الزكاة اتفاقاً لأنه قادر على الوصول إلى ماله فكأنه في يده، وإن كان له مال في يده يبلغ نصاباً لكن ليس بقدر ما يقطع به المسافة المقصورة سواء هو في أثناء السفر أو هو مريد للسفر وسواء كان له مال بعيد منه أو لا يكون لا يجوز له أخذ الزكاة عند أبي حنيفة، وقال الشافعي يجوز لأبي حنيفة أن المبيح لأخذ الزكاة إنما هو الفقر وهو ليس بفقير، وقال الشافعي إرادة السفر أيضاً مبيح لأخذ الزكاة إن لم يكن عنده ما يقطع به السفر لأن ابن السبيل صنف آخر غير الفقير لا يعتبر فيه الفقر والله أعلم.

قلت: الأصناف السبعة أنواع للفقراء والمصرف هم الفقراء ولا يجوز دفع الزكاة إلى هؤلاء الأصناف إلا بشرط الفقر إلا العاملين فإنه يجوز إعطاؤهم وإن كانوا أغنياء فإن المعطي لهم حينئذٍ في الحقيقة هم الفقراء وهم يأخذون من مال الفقراء ما يجب لهم مؤنتهم عليهم أجرة عملهم لهم، ولا تنحصر الفقراء في هذه الأصناف وإنما ذكر الله تعالى هذه الأصناف اهتماماً بها فإن لهذه الأصناف مزية على غيرهم من الفقراء فالمراد من الآية والله سبحانه أعلم أن المصرف هم الفقراء لكن الأولى أن يلتمس لإعطاء الزكاة سبباً يترجح به المعطي له على غيره من الفقراء فالمسكين الذي لا يسأل الناس أولى من السائلين لكونه أفقر والمسافر الفقير أفقر وأشد حاجة من المقيم، والغازي والحاج والكاتب والمؤلف للإسلام أحرى لأن يعطوا من غيرهم لأن في إعطائهم إعانة على الحج الذي هو أحد أركان الإسلام والجهاد الذي هو ذروة سنامه وعلى فك الرقبة الذي هو مفرغ لكثير من الخيرات، ولا دلالة في الآية على أن أسباب المزية منحصرة في هذه الأمور بل للمزية أسباب غيره

أيضاً وإنما ذكرت هذه الأمور تمثيلاً فإن منها القرابة قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول»(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث حكيم بن حزام، وقال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله ودينار تصدقته به على رقبة ودينار تصدقته به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجر الذي أنفقته على أهلك»(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وعن ميمونة بنت الحارث: أنها أعتقت وليدة في زمان رسول الله ﷺ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»(٣) متفق عليه، وعن سليمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»(٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي، وعن أنس قال: قال أبو طلحة إن أحب مالي إلي بيرحاء وإنه صدقة لله تعالى أرجو أبرها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله ﷺ: «أرى أن تجعلها في الأقربين» فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه(٥) متفق عليه.

غير أنه لا يجوز دفع الزكاة إلى من بينها ولاد أو زوجة عند أبي حنيفة رحمه الله لأن منافع أملاكهم متصلة شرعاً وعرفاً فلا يتحقق التمليك على الكمال قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨] يعني بمال خديجة وقال عليه السلام: «أنت ومالك لأبيك»(٦) قال ابن همام: وسائر القرابات غير الولاد يجوز الدفع معه بل أولى لما فيه من الصلة مع الصدقة فالأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ولو كان بعضهم في عياله ولم يفرض القاضي نفقته عليه فدفعها إليه ينوي الزكاة جاز عن الزكاة وإن فرضها فدفعها ينوي الزكاة لا يجوز عن الزكاة لأنه أداء واجب في واجب آخر فلا يجوز إلا إذا لم يحتسبها في النفقة لوجود التمليك على الكمال، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجوز دفع الزكاة إلى من يجب نفقته عليه وعلته المنع عندهم لزوم المؤونة ووجوب النفقة على المعطي وقد ذكرنا مسألة وجوب نفقة الأقارب في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ . . . وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال أبو يوسف ومحمد مثل ما قال: أبو حنيفة إن علة المنع اتصال الأملاك وذلك في الولاد والزوجية غير أنه يجوز عندهما للزوجة دفع زكاتها إلى زوجها على خلاف القياس اتباعاً لحديث زينب امرأة ابن مسعود قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي ﷺ قال: «تصدقن ولو من حليكن»(٧) وكانت

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ١٨، والنفقات باب ٢، ومسلم في الزكاة حديث ٩٥.

(٢) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة باب ١٥، ١٦، ومسلم في الزكاة حديث ٤٥.

(٤) أخرجه الترمذي في الزكاة باب ٢٦، والنسائي في الزكاة باب ٢٢، ٨٢، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٨، والدارمي في الزكاة باب ٣٨، وأحمد في المسند ٤/١٧، ١٨، ٢١٤.

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٤٤، والوصايا باب ١٧، ٢٦، ومسلم في الزكاة حديث ٤٢.

(٦) أخرجه أبو داود حديث ٣٥٣٠، وابن ماجه حديث ٢٢٩١، ٢٢٩٢، وأحمد في المسند ٢/٢٠٤.

(٧) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٣٣، ٤٨، ومسلم في العيدين حديث ٤، والزكاة حديث ٤٦، ٤٧.

زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها فقالت لعبد الله: سل رسول الله ﷺ أيجزىء عني أن أنفق عليك وعلى أيتام في حجري من الصدقة؟ قال: سلي أنت رسول الله ﷺ فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فوجدتُ امرأة من الأنصار حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال فقلنا سل النبي ﷺ أيجزىء عني أن أتصدق على زوجي وأيتام في حجري وقلنا لا تخبرنا فدخل فسأله، فقال: من هما؟ قال: زينب، قال: أي الزيانب؟ قال: امرأة عبد الله، قال: «نعم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة»[١] رواه البخاري ومسلم والنسائي والطحاوي وغيرهم، وفي رواية النسائي على أزواجنا وأيتام في حجورنا، وفي رواية للطيالسي أنهم بنو أخيها وبنو أختها، وللنسائي من طريق علقمة لأحدهما فضل مال وفي حجرها بنو أخ لها أيتام وللأخرى فضل مال ولها زوج خفيف[٢] ذات اليد، قالا: قولها أيجزىء عني يدل على أن الصدقة كانت واجبة لأن الإجزاء إنما يستعمل في الواجبة، وأجاب الحنفية بأن ذلك كان في الصدقة النافلة لأنها هي التي كان النبي ﷺ يتخول[٣] بالموعظة والحث عليها، وقولها يجزىء وإن كان في عرف الفقهاء الحادث لا يستعمل غالباً إلا في الواجب لكن في ألفاظهم لما هو أعم من الفضل لأنه بمعنى الكفاية فالمعنى هل يكفي للتصدق عليه في تحقق مسمى الصدقة وتحقيق مقصودها من التقرب إلى الله فسلم القياس من المعارضة، واحتج الطحاوي على هذا التأويل يعني أن الصدقة في الحديث صدقة التطوع بروايات أُخرى.

روى الطحاوي بسنده عن رايطة بنت عبد الله امرأة عبد الله بن مسعود وكانت امرأة صنعاء وليس لعبد الله بن مسعود مال وكانت تنفق عليه وعلى ولده منها، فقالت: لقد شغلتني والله أنت وولدك عن الصدقة فما استطيع معكم بشيء، فقال: ما أحب إن لم يكن لك في ذلك أجر أن تفعلي، فسألت رسول الله ﷺ هي وهو فقالت: يا رسول الله إنني امرأة ذات صنعة أبيع منها وليس لولدي ولا لزوجي شيء فيشغلوني ولا أتصدق فهل فيهم أجر؟ فقال: «في ذلك أجر ما أنفقت عليهم فأنفقي عليهم»[٤] قال الطحاوي رايطة هذه هي زينب امرأة عبد الله إذ لا يعلم أن عبد الله كانت له امرأة غيرها في زمن رسول الله ﷺ، وروى الطحاوي بطريقين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من الصبح يوماً فأتى على النساء في المسجد فقال: «يا معشر النساء ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لعقول ذوي الألباب منكن وإني قد رأيت أنكن أكثر أهل النار يوم القيامة فتقربن إلى الله عز وجل بما استطعتن» وكانت في النساء امرأة ابن مسعود فانقلبت إلى ابن مسعود فأخبرته بما سمعت من رسول الله ﷺ وأخذت جلبابها، فقال ابن مسعود: أين تذهبين بهذا الحلي؟ فقالت:

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) أي نقير قليل المال والحظ من الدنيا.

(٣) أي يتعهد من قولهم فلان خائل مال وهو الذي يصلحه ويقوم عليه.

(٤) أخرجه بنحوه البخاري في النفقات باب ١٤، ومسلم في الزكاة حديث ٤٧، وأحمد في المسند ٦/ ٣١٠.

أتقرب به إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ لعل الله لا يجعلني من أهل النار، قال: هلمي ويلك تصدقي به عليَّ وعلى ولديّ، فقالت: لا والله حتى أذهب به إلى رسول الله ﷺ الحديث، فقال رسول الله ﷺ: «تصدقي به عليه وعلى بنيه فإنهم له موضع»(١) وروى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «أيها الناس تصدقوا» فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار» قلن: وبما يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير» الحديث إلى أن قالت امرأة ابن مسعود: عندي حلي فأردت أن أتصدق به فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم، قال النبي ﷺ: «صدق ابن مسعود زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم»(٢) قال الطحاوي هذه الروايات تدل على كون الصدقة نافلة لأن في الحديث الأول كنت امرأة صنعاء أصنع بيدي فأبيع من ذلك وذلك صريح أنها لم تكن مالكة نصاب يجب فيه الزكاة والحديث الثاني يدل على أنها تصدقت بكل الحلي وذلك من التطوع دون الزكاة ولأن الأحاديث الثلاثة تدل على جواز دفع صدقتها على ولدها، وقد أجمعوا على أنه لا يجوز للمرأة أن ينفق على ولدها من زكاتها، وأجاب الحافظ ابن حجر عن استدلال الطحاوي بأن إجماعهم على أنه لا يجوز للمرأة أن ينفق على ولدها من زكاتها ممنوع لأن المانع من إعطاء الزكاة عند الجمهور وجوب نفقة المعطى له على المعطي وإلا لا يلزمها نفقة ولدها مع وجود أبيه، وعن الاستدلال يتصدق كل الحلي أن كل الحلي يمكن أن يكون قدر الواجب الذي وجب إخراجه عليها، قلت: حمل أحاديث امرأة ابن مسعود على قصة واحدة تكلف والظاهر أنها قصتان بل قصص كذا قال الحافظ لأن قصة خروج رسول الله ﷺ إلى المصلى في أضحى أو أفطر غير قصة وعظه ﷺ بعد الانصراف من صلاة الصبح في المسجد، وقصة الإنفاق على أيتام بنو أخيها وأختها غير قصة إنفاقها على أولادها، وفي بعض الطرق قال ابن مسعود تصدقي عليَّ وعلى أولادي وفي بعضها ما أحب إن لم يكن لك في ذلك أجرٌ أن تفعلي، وإذا فرضناها قصتان فالظاهر أن الرسول في أحدها عن الصدقة الواجبة إذ بعد العلم بالحكم في الصدقة التطوع لا يحتمل أن تسأل زينب عن رسول الله ﷺ في الصدقة التطوع مرة ثانية، وأيضاً إطلاق قوله ﷺ لها أجران في جواب قولها أيجزىء عني أن أتصدق على زوجي من غير فصل يدل على عموم أجزاء الصدقة والله أعلم.

ومن أسباب المزية الجوار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض باب ١٦، والزكاة باب ٤٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في الحيض باب ٦، ومسلم في الإيمان حديث ١٣٢، والعيدين حديث ٤، والزكاة حديث ٤٦، ٤٧.

يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[١] رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وكذا روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن عائشة، وقال رسول الله ﷺ: «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»[٢] رواه مسلم عن أبي ذر.

ومنها شدة الحاجة لأجل العيال أو نحوها، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تشبع كبداً جائعاً»[٣] رواه البيهقي في «**شعب الإيمان**»، ومنها سؤال السائل قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ١٠] وقال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[٤] رواه أحمد وأبو داود وأيضاً بسند صحيح عن الحسين وأبو داود عن علي والطبراني عن الهرماس بن زياد وعن أم عبيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»[٥] رواه مالك والنسائي ورواه الترمذي وأبو داود مرسلاً، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشرّ الناس؟ رجل يسأل بالله ولا يعطى به»[٦] ومنها اليتم والأسر قال: الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨] وغيرها من أسباب المزية يعرف بالآيات والأحاديث.

وما رويت أن الأصناف كلها أصناف للفقراء يوافق رأي أبي حنيفة وأكثر الأئمة حيث شرطوا الفقر في جميع الأصناف، وقال الشافعي الأصناف الثمانية المذكورة كل منها مستحق للزكاة برأسها ولا يعتبر في جميعها الفقر بل يجوز أن يعطي للمؤلف والمكاتب والمديون والغازي وابن السبيل مع كونهم أغنياء، واحتج على ذلك بحديث عطاء بن يسار مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة لغازي في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني»[٧] رواه مالك وأبو داود، قلت: في هذا الحديث اضطراب في السند والمتن أما السند فاختلف على زيد بن أسلم فقيل عنه عن عطاء مرسلاً كما قال مالك في الموطأ وروى عنه أبو داود وقيل: عن زيد قال: حدثني الليث وقيل: عن

---

(١) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٨، ومسلم في البر حديث ١٤٠، ١٤١، وأبو داود في الأدب باب ١٢٣، والترمذي في البر باب ٢٨، وابن ماجه في الأدب باب ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٨٥، ١٦٠، ٢٥٩، ٥١٤، ٥/ ٣٢، ٣٦٥، ٦/ ٥٢، ٩١، ١٢٥، ١٨٧، ٢٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ١٤٢، ١٤٣.

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٦٦، والتبريزي في مشكاة المصابيح ١٩٤٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٦٣٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٣٣، وأحمد في المسند ١/ ٢٠١.

(٥) أخرجه النسائي في الزكاة باب ٧٠، ومالك في صفة النبي ﷺ حديث ٨.

(٦) أخرجه بنحوه النسائي في الزكاة باب ٧٤، وأحمد في المسند ٣/ ٣٧، ٤١.

(٧) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٥، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٧، ومالك في الزكاة حديث ٢٩، وأحمد في المسند ٣/ ٥٦.

زيد عن عطاء عن أبي سعيد ذكر الروايات أبو داود، وأما في المتن ففي الرواية المذكورة كما ذكرنا وفي رواية لأبي داود عن عمران البارقي عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله عز وجل أو ابن السبيل أو جار فقير تصدق عليه فهدى لك أو يدعوك»(١) قال ابن همام: هذا الحديث قيل: لم يثبت ولو ثبت لم يقو قوة حديث معاذ فإنه رواه أصحاب الكتب الستة ولو قوي قوته ترجح حديث معاذ بأنه مانع وهذا مبيح مع أنه دخله التأويل عندهم حيث قيدوا إباحة الأخذ للغازي بأن لا يكون له شيء في الديوان ولا أخذ من الفيء وهو أعم من ذلك وذلك يضعّف الدلالة بالنسبة إلى ما لا يدخله التأويل.

وحديث زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته فذكر حديثاً طويلاً وفيه: «فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»(٢) رواه أبو داود، قلت: الحديث ضعيف لأنه من رواية عبد الله بن عمر بن غانم الإفريقي قال الذهبي مجهول الحال واتهمه ابن حبان وشيخه عبد الرحمٰن بن زياد ضعفه ابن معين والنسائي وقال الدارقطني ليس بالقوي ووهاه أحمد بن حنبل.

وإذا كان المصرف الفقراء والأصناف الباقية أنواع منه فعلى هذا لا شبهة في جواز دفع جميع مال الزكاة إلى صنف واحد منها أو إلى شخص واحد، وكذا لو فرضناها أصنافاً مغايرة للفقراء وقال الشافعي لا يجوز صرفها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف فعنده يجب استيعاب الأصناف إن قسم الإمام وهناك عامل وإلا فالقسمة على سبعة سوى العامل، وذكر البغوي أنه يقسم على ستة أصناف لأجل سقوط سهم المؤلفة فإن فقد بعضهم فعلى الموجودين، ويجب التسوية بين الأصناف في حصة كل صنف فإذا قسم الإمام استوعب من الزكاة الحاصلة عنده آحاد كل صنف وكذا يستوعب المالك إن انحصر المستحقون في البلد روفي بهم المال وإلا فيجب إعطاء ثلاثة إن وجد منهم ثلاثةً أو أكثر فإن لم يجد من بعض الأصناف إلا واحداً صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حد الاستحقاق، فإذا انتهت حاجته وفضل شيء رده إلى الباقين ويجب التسوية بين الأصناف لا بين آحاد الصنف إلا أن يقسم الإمام فيحرم عليه التفصيل مع تساوي الحاجات، وقال الشافعي في «الأم» اللام في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ للاستحقاق فقد ذكر الله سبحانه الاستحقاق لثمانية أصناف فوجب إعطاء كل صنف وذكر كل صنف بلفظ الجمع المحلي بلام الاستغراق فيجب استيعاب أفراد كل صنف إن أمكن ذلك بأن كان أفراد كل صنف منحصرة في البلد وكان المال يفي بهم وإن لم يكن الاستيعاب يصرف إلى ثلاثة لبقاء الجمعية على حالها، قلنا: لام التعريف في الآية ليست للاستغراق للإجماع على أنه لا يجب صرف كل صدقة على

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٥.
(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والإمارة باب ١٩.

فقراء العالم وتخصيص الاستغراق بفقراء بلده أمر اختراعي وأيضاً إذا لم يمكن حصر فقراء البلد ولا يجب صرف الزكاة إلى جماعة أكثر من الثلاثة إجماعاً ولو كان اللام للاستغراق لوجب استيعاب الكل واستيعاب ما أمكن منهم مثلاً لو كان مائة درهم حصة كل صنف ولا يمكن حصر فقراء البلد فلا بد أن يجب الصرف إلى مائة فقير مثلاً لا الاقتصار على ثلاثة، فظهر أن اللام للجنس ولام الجنس ينافي الجمعية فالمعنى يستحقها جنس الفقير أي فرد كان، ولو سلمنا أن الجمعية باق فمقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد وأيضاً كون لام الجر للاستحقاق ممنوع بل حقيقة اللام للاختصاص والاختصاص أعم من الملك والاستحقاق وكونهم مصرفاً دون غيرهم.

ويدل على ما ذهبنا إليه الأحاديث والآثار منها ما رواه البيهقي والطبراني عن ابن عباس وابن أبي شيبة عن عمر: «في أي صنف وضعته أجزأك» وروى الطبراني عن عمر أنه كان يأخذ الفرض من الصدقة فيجعله في صنف واحد، قال أبو عبيدة في كتاب الأموال، ومما يدل على صحة ذلك أن النبي ﷺ أتاه بعد ذلك مال فجعله في صنف واحد وهم المؤلفة قلوبهم أقرع بن حابس وعيينة بن حصين وعلقمة بن علاثة وزيد بن الجبل قسم فيهم الذوهيبة التي بعثها معاذ من اليمن وإنما يؤخذ من أهل اليمن الصدقة ثم أتاه مال آخر فجعله في صنف آخر وهم الغارمون، فقال لقبيصة بن المخارق حين أتاه وقد تحمل حمالة: «يا قبيصة أقم حتى يأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال ابن همام: ولم يرو عن غيرهم ما يخالفهم قولاً ولا فعلاً، قال البيضاوي: وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم جواز صرفها إلى صنف واحد وبه قال الأئمة الثلاثة، واختاره بعض أصحابنا يعني الشافعية وبه كان يفتي شيخي ووالدي رحمه الله، على أن الآية بيان أن الصدقة لا يخرج منهم لا إيجاب قسمتها عليهم.

مسألة

لا يجوز دفع الزكاة إلى غني ليس من الأصناف المذكورة إجماعاً وأما الغني من الأصناف المذكورة فقد مر الخلاف فيه، واختلفوا في حد الغنى الذي لا يجوز له أخذ الزكاة؟ فقال أبو حنيفة هو الذي يملك نصاباً من أي مال كان، وقال بعض العلماء من وجد ما يغديه ويعشيه لا يحل له الزكاة لقوله ﷺ: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار» وفي رواية: «من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله وما يغنيه؟ وفي رواية: وما الغناء الذي لا ينبغي معه المسألة؟ قال: «قدر ما يغديه ويعشيه»[١] رواه أبو داود من حديث سهيل بن حنظلة وصححه ابن حبان، وقال بعضهم: من ملك أربعين درهماً لا يحل له الزكاة لحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف» فقلت ناقتي الياقوتة

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والترمذي في الزكاة باب ٢٢، والنسائي في الزكاة باب ٨٧، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٦.

هي خير من أوقية فرجعت فلم أسأله زاد هشام وكانت الأوقية على عهد رسول الله ﷺ أربعين درهماً»[١] رواه أبو داود النسائي، وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله أربعون درهماً فهو الملحف»[٢] وقال بعضهم: من ملك خمسين درهماً لم يحل له الصدقة وهي رواية عن أحمد وبه قال إسحاق وأبو ثور لحديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وخموش[٣] أو خدوش أو كدوح في وجهه» فقيل: يا رسول الله ما الغنى؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب»[٤] رواه أبو داود والنسائي وغيرهما والحديث ضعيف، والجواب أن ما ذكرتم من الأحاديث يدل على حرمة السؤال لمن يجد ما يغديه ويعشيه أو أربعين درهماً أو خمسين لا عدم جواز أخذ الزكاة بغير سؤال، ونحن نقول بأن من يجد ما يكفيه في وقته لا يحل له السؤال لكن لو أعطاه أحد صدقة بلا سؤال جاز له أخذها لما في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب قال: «كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول أعطه من هو أفقر مني فقال: «خذه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف[٥] ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك»[٦] فإن هذا الحديث يدل على أن عمر كان يجد ما يغديه وما يعشيه وإلا لكان هو أفقر الناس وقد أمره رسول الله ﷺ بأخذ الصدقة من غير سؤال، وقال مالك والشافعي وأحمد: الاعتبار في حرمة الزكاة بالكفاية فله أن يأخذ مع عدمها وإن كان له قنطار وليس له أن يأخذها مع وجودها وإن قل ماله فيكون الرجل غنياً بدرهم مع الكسب قد لا يغنيه ألف مع ضعفه وكثرة عياله، وذكر البغوي مذهب مالك والشافعي أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة لحديث قبيصة بن مخارق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المسألة لا تحل إلا لثلاثة رجل تحمل حمالة قوم فسأل فيها حتى يؤديها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة[٧] اجتاحت ماله فسأل فيها حتى يصيب قواماً من عيش ثم يمسك، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذي الحجى من قومه لقد أصابت فلان فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتاً»[٨] رواه مسلم، وحديث حسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال: قال

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والنسائي في الزكاة باب ٨٩، وأحمد في المسند ٣/ ٧، ٩.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة باب ٨٩.

(٣) خموش خدوش كدوح بمعنى خراشها باندك نفاوت.

(٤) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، ٨٧، والترمذي في الزكاة باب ٢٢، ٢٣، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٦، والدارمي في الزكاة باب ١٥.

(٥) يقال اشرفت الشيء وأشرفت عليه أي اطلعت عليه من فوق أراد ما جاءك منه وانت غير متطلع لا طامع فيه.

(٦) أخرجه البخاري في الأحكام باب ١٧، والزكاة باب ٥١، ومسلم في الزكاة حديث ١١٠، ١١١.

(٧) الجائحة: التي تهلك الثمار.

(٨) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٦، والنسائي في الزكاة باب ٨٠، والدارمي في الزكاة باب ٣٧، وأحمد في المسند ٣/ ٤٧٧.

رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على الفرس» رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

وجه الاحتجاج أن الحديث الأول يدل على أن إباحة السؤال ينتهي بأن يصيب قواماً من عيش وهو الكفاية فمن كان له نكاية ولو لم يكن له أربعون درهماً لا يحل له الصدقة، والحديث الثاني يدل على أن السائل وإن كان على فرس فله حق ولا شك أن ذلك مع الحاجة فظهر أن من كان له حاجة وكان له ما كان ألف درهم مثلاً جاز الإعطاء له، والجواب أن هذين الحديثين لا مساس لهما بالمدعي لأن الحديث الأول في إباحة السؤال وحرمته، وحاصله أن السؤال بلا حاجة حرام ومع الحاجة جائز فمن أصابته فاقة يسأل حتى يصيب قواماً من عيش، قلت: وذا بكفاية يوم وليلة كما في حديث سهيل بن حنظلة فإذا أصاب قواماً من عيش لا يحل له المسألة ويحل له الصدقة إن أعطي بلا سؤال لعموم قوله تعالى: ﴿ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ وأما الحديث الثاني ففي بيان حق السائل وقوله: «ولو جاء على الفرس» محمول على المبالغة وأيضاً الفرس قد يكون من حوائجه الأصلية إذا كان الرجل غازياً وقد يكون صاحب الفرس مديوناً وقد لا يبلغه فرسه نصاباً وبمثل هذه الدلالة مع ما ذكرنا من الاحتمالات لا يمكن أن يقال لجواز الإعطاء من الزكاة للغني مع النصوص القاطعة على منعه، قال: أبو حنيفة الغني من لا يكون له نصاباً فاضلاً عن حوائجه الأصلية لحديث معاذ: «تأخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» فإنه يدل على أن من يرد عليه غير من يؤخذ منه فثبت أنه من يجب عليه الزكاة لا يجوز الدفع إليه غير أنه لا فرق في المال النامي وغير النامي في المنع عن دفع الزكاة إليه لما ثبت في حديث أبي سعيد وغيره أن الأوقية وما يكون على قيمته حكمهما سواء، وإنما الفرق بينهما في وجوب الزكاة لقوله عليه السلام: «ليس في العوامل ولا في الحوامل ولا في العلوفة صدقة»[(1)] فظهر أن الله سبحانه جعل القدرة الميسرة شرطاً لوجوب الزكاة، وإنما شرطنا في المنع من إعطاء الزكاة إليه كون النصاب فارغاً عن حوائجه الأصلية لأن النصاب المشغول بالحاجة كالمعدوم نظيره جواز التيمم مع وجود الماء المعد للعطش فجاز للمديون المالك للنصاب أخذ الزكاة إذا لم يكن نصابه فاضلاً عن دينه، وكذا الغازي وابن السبيل وفرس يركبه يبلغ نصاب أو عالم له كتب يحتاج إليها في المطالعة والتدريس أو رجل له بيت يبلغ نصاباً يسكنه وهذا محمل قوله ﷺ: «لا يحل الصدقة لغني إلا لخمسة الغازي في سبيل الله والغارم وابن السبيل» والله أعلم.

مسألة

الفقير إذا كان قادراً على الكفاية بالكسب يجوز دفع الزكاة إليه لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ وقال الشافعي وأحمد لا يجوز لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»[(2)] رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن

(١) أخرجه أبو حنيفة في مسنده ١/ ٤٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والترمذي في الزكاة باب ٢٣، والنسائي في الزكاة باب ٩٠، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٦.

حبان والحاكم، ورواه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بسند حسن، ورواه الدارقطني في العلل وأبو يعلى عن طلحة، وحديث جابر قال: جاءت رسول الله ﷺ صدقة فركبه الناس فقال: «أيها الناس لا يصلح لغني ولا لصحيح سوي ولا لعامل قوي»[(١)] رواه أحمد والدارقطني، وحديث عبيد الله بن عدي أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»[(٢)] رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وقال صاحب التنقيح: حديث صحيح وقال أحمد: ما أجوده من حديث هو أحسنها إسناداً، وفي الباب عن ابن عمر في كامل ابن عدي وعن حبشي بن جنادة في سنن الترمذي ورواه أحمد من طريق أبي زميل عن رجل من بني هلال به وعن عبد الرحمٰن في الطبراني، قلنا: قوله ﷺ: «إن شئتما أعطيتكما ولا حظَّ فيها لغني» صريح في أنه يجوز دفع الزكاة إلى فقير قوي وإلا لم يقل: إن شئتما أعطيتكما.

ولنا أيضاً حديث عمر بن الخطاب قال: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول أعطه من هو أفقر إليه مني قال: «خذه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك»[(٣)] متفق عليه من حديث سالم عن ابن عمر عنه وفي رواية لمسلم: «خذه فتموله وتصدق به» قال سالم: فمن ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أعطيه. فإن قيل: إن عطية النبي ﷺ لعمر كان بسبب العمالة لا لأجل الفقر، ولذا قال النبي ﷺ: «خذه فتموله وتصدق به» لما روى مسلم عن أبي حميد الساعدي أنه قال: استعملني عمر بن الخطاب على الصدقة فلما فرغت منها وأديتها إليه أمرني بعمالة فقلت: إنما عملت لله أجري على الله فقال: خذ ما أعطيت فإني عملت على عهد رسول الله ﷺ فعملني فقلت مثل قولك فقال لي رسول الله ﷺ: «إذا أعطيت شيئاً من غير أن تسأل فكل وتصدق».

قلت: العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص الحادثة واللفظ عام «إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه» ومن تتبع الأحاديث ظهر له صراحة أو دلالة أن النبي ﷺ أعطى من سأل الصدقة وهو صحيح سوي، روى مسلم من حديث أنس قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء، قال الحافظ ابن حجر وأكثر أحاديث الباب شاهدة لذلك، وقلت وما ذكرنا من الأحاديث جملتها تدل على أن دفع الصدقة إلى فقير قوي يجوز سواء سأل الفقير أو لا يجوز له إن لم يكن بسؤال لكن يكره له السؤال الأخذ بالسؤال فنفى حل الصدقة في قوله

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والنسائي في الزكاة باب ٩١، وأحمد في المسند ٤/ ٢٢٤، ٥/ ٣٦٢.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

ﷺ: «لا يحل الصدقة لذي مرة سوي» يرجع إلى نفي حل السؤال ونفي حل الصدقة التي تعطي بالسؤال والظاهر أن الأحاديث التي ينفي الحل وردت في حادثة السؤال والله أعلم.

مسألة

لم تكن الصدقة حلالاً للنبي ﷺ لا واجبة ولا نافلة عند أكثر الأئمة وحكي عن الشافعي في التطوع قولان وكذا في رواية أحمد، والحجة للجمهور حديث أنس قال: مر النبي ﷺ بتمرة في الطريق فقال: «لولا أني أخاف أن يكون من الصدقة لأكلتها»(١) متفق عليه، وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ إذا أتي به بطعام سأل عنه أهدية أم صدقة فإن قيل: صدقة، قال لأصحابه «كلوا» ولم يأكل وإن قيل هدية ضرب بيده فأكله معهم(٢) متفق عليه، وروى الطحاوي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده نحوه، وكذا لآل محمد ﷺ لم يكن الصدقة حلال لحديث أبي هريرة قال: أخد الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال النبي ﷺ: «كخ كخ»، ليطرحها ثم قال: «أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة»(٣) متفق عليه.

مسألة

اختلفوا في تحريم الصدقة على أقارب النبي ﷺ بعد وفاته ﷺ على أربعة أقوال:

الأول: الجواز مطلقاً فريضة كانت أو نافلة وهي رواية عن أبي حنيفة ورواية عن مالك وهذا قول لا يصاعده دليل شرعي غير أنهم يقولون: إن رسول الله ﷺ جعل خمس الخمس من الغنيمة لأقاربه عوضاً عن الصدقة فلما سقط خمس الخمس بعد وفاة رسول الله ﷺ حرمت الصدقة.

الثاني: المنع مطلقاً فريضة كانت أو نافلة وبه قال أبو يوسف ومحمد واختاره الطحاوي وابن همام لعموم قوله ﷺ: «إنا آل محمد لا نأكل الصدقة»(٤) وفي روايه: «لا يحل لنا الصدقة»(٥) رواه مسلم، والطبراني والطحاوي من حديث عبد الرحمٰن بن أبي ليلى ومن حديث رشد بن مالك وكذا عند أحمد والطحاوي في قصة الحسن بن علي من حديث الحسن نفسه.

الثالث: جواز الفريضة دون النافلة ولم يذهب إليه غير مالك يقول: إن الواجب حق لازم لا يلحق بأخذه ذلة بخلاف التطوع وهذا القول مردود بما ذكرنا من الأحاديث.

الرابع: جواز النافلة دون الفريضة وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة والمصحح عند الشافعي والحنابلة ورواية عن مالك، فعن مالك أربعة أقوال كلها مشهور.

---

(١) أخرجه البخاري في اللقطة باب ٦، ومسلم في الزكاة حديث ١٦٤، ١٦٥.
(٢) أخرجه البخاري في الهبة باب ٧، ومسلم في الزكاة حديث ١٧٥.
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٨٨، ومسلم في الزكاة حديث ١٦١.
(٤) انظر الحاشية التالية.
(٥) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ١٦١، وأبو داود في الزكاة باب ٢٩.

وجه هذا القول أن الأحاديث المذكورة محمولة على الصدقة المفروضة وكذا حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: اجتمع ربيعة والعباس بن عبد المطلب فقالا لو بعثنا هذين الغلامين لي وللفضل بن عباس إلى رسول الله ﷺ يأمرهما على هذه الصدقة فأصابا مما يصيب الناس، فقال علي: لا ترسلوهما فانطلقنا حتى دخلنا على رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ عند زينب بنت جحش، فقلنا: يا رسول الله قد بلغنا النكاح وأنت أبر الناس وأوصل الناس جئناك لتأمرنا على هذه الصدقة فنؤدي إليك كما يؤدي الناس ونصيب كما يصيبون، قال: فسكت طويلاً ثم قال: «إن الصدقة لا ينبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس أدعو إلى محمية بن جزء رجلاً من بني أسد كان رسول الله ﷺ يستعمله على الأخماس ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فقال: لمحمية «أنكح هذا الغلام ابنتك للفضل(١) بن العباس» فأنكحه وقال لنوفل بن الحارث أنكح هذا الغلام ابنتك فأنكحني فقال لمحمية: «أصدق عنهما من الخمس كذا وكذا»(٢) رواه مسلم.

وهذا الحديث يدل على أنه لا يحل الصدقة للهاشمي وإن كان عاملاً على الصدقات على طريق العمالة أيضاً فكيف إذا لم يكن عاملاً لكن الحديث في الصدقة المفروضة لأنها هي التي كان رسول الله ﷺ يبعث الناس لأخذها، والدليل على جواز الصدقة ما رواه الطحاوي من حديث ابن عباس، قال: قَدمت عيرٌ المدينة فاشترى منه النبي ﷺ متاعاً فباعه بربح أواق فضة فتصدق بها على أرامل بني عبد المطلب ثم قال: لا أعود أن أشتري بعدها شيئاً وليس ثمنه عندي، وما رواه الشافعي عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهم السلام أنه كان يشرب من سقايات بين مكة والمدينة فقال: أتشرب من الصدقة؟ قال: إنما حرم علينا الصدقة المفروضة، والقول بأن حكم صدقات الأوقاف خلاف حكم سائر الصدقات أمر لا دليل عليه وأيضاً لو كان كذلك لقال الإمام حكم صدقات الأوقاف خلاف حكم سائر الصدقات ولم يقل كذلك بل، قال: إنما حرم علينا الصدقة المفروضة وما روى البخاري وغيره قوله ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة»(٣) وقد كان رسول الله ﷺ يعطي أهل بيته في حياته نفقة سنتهم وما بقي يجعله مجعل مال الله وكذلك كان أبو بكر وعمر وعلي وعباس بعد وفاة رسول الله ﷺ يعملون بما عمل رسول الله ﷺ وظهر أنه ليس كل صدقة على بني هاشم حراماً.

مسألة

لا يجوز للهاشمي أن يأخذ الزكاة من الهاشمي عند أكثر الأئمة وقال أبو يوسف جاز ذلك لأن الصدقة إنما حرم عليهم لأنها من أوساخ الناس، والمراد بالناس غيرهم فلا بأس

---

(١) للفضل بن عباس فأنحكه وقال لنوفل بن الحارث أنكح هذا الغلام ابنتك.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ١٦٧، ١٦٨، وأبو داود في الإمارة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٤/١٦٦.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

لو أكلوا صدقات أنفسهم قلنا شرفهم يقتضي حرمة أوساخ الناس عليهم كلهم هاشمياً كان أو غيرهم.

مسألة

الذين يحرم عليهم الصدقة هم بنو هاشم خمسة بطون آل علي وعباس وجعفر وعقيل والحارث بن عبد المطلب عند أبي حنيفة ومالك، وقال الشافعي بنو المطلب أيضاً معهم حيث أشركهم النبي ﷺ في سهم ذوي القربى من الخمس كما ذكرنا من حديث جبير بن مطعم في مسائل الخمس.

مسألة

ويحرم الزكاة على مواليهم عند أبي حنيفة ومحمد وهو الأصح من مذهب الشافعي ومالك، وقال بعضهم: لا يحرم على مواليهم، وقال أبو يوسف: لا يصرف غير بني هاشم إلى مواليهم لنا حديث أبي رافع أن النبي ﷺ بعث رجلاً من بني مخزوم على الصدقة فقال لأبي رافع ألا تصحبني فتصيب منها، قال: فقلت حتى أذكرذلك لرسول ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «إنا آل محمد لا يحل لنا الصدقة وإن مولى القوم منهم» رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم ورواه الطبراني من حديث ابن عباس واسم أبي رافع أرقم بن أبي الأرقم والله أعلم.

مسألة

يكره نقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر لقوله ﷺ لمعاذ: «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» وحكي عن عمر بن عبد العزيز أنه رد صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الآية أي: فرض لهم الصدقات فريضة أو حال من الضمير المستكن في الفقراء ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة ﴿حَكِيمٌ﴾ في القسمة يضع الأشياء في مواضعها والله أعلم.

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم خلاس بن سويد بن الصامت ومخشي بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ فنهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع لكم فقال بعضهم: إنما محمد أذن نحلف فيصدقنا، قال الخلاس بل نقول: ما شئنا ثم نأتيه وننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن فأنزل الله تعالى.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ
عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ
كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ
نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ
وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى
جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ
ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن
يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ
يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى
ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ
لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي يغتابونه ويتقولون حديثه ويقولون فيه ما لا ينبغي ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه ﷺ ﴿هُوَ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿أُذُنٌ﴾ أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة للسماع كما يسمى الجاسوس عيناً أو تقديره ذو أذن سامعة أو يقال أذن مشتق فُعُلٌ مَن أَذِنَ أُذُناً إذا استمع، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه يسمع وينقل حديثه إلى المنافقين فأنزل الله هذه الآية، وقال محمد بن

إسحاق كان نبتل رجلاً أدلم[١] ثائر[٢] الرأس أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلق وقد قال النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فينظر إلى هذا»[٣] وكان يتم حديث رسول الله ﷺ إلى المنافقين فقيل له: لا تفعل فقال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئاً صدقه، فنقول: ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الله تعالى في جوابهم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ قرأ العامة بالإضافة وهو كقولك رجلُ صدق يريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نِعْمَ الأذن هو أو المعنى أنه مستمع خير لكم وصلاح لا مستمع شر وفساد فيسمع عذر من اعتذر ولا يسمع الغيبة والنميمة ونحو ذلك، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم»[٤] رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه عن أبي هريرة، ويجوز أن يريد هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بإذن في غير ذلك، وقرأ الأعمش والبرحمي عن أبي بكر أذن خير مرفوعين منونين على أن خير صفة أذن أو خبر ثان يغني أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذب قولكم ثم مدحه بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ﴾ أي: يصدق ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لمن يظهر الإيمان بناء على حسن الظن أو المعنى يصدق المؤمنين المخلصين دون المنافقين لكن يقبل أعذارهم إعراضاً، عنهم عدى فعل الإيمان بالباء إلى الله لأنه قصد ضد الكفر وباللام إلى المؤمنين لأنه قصد به التصديق لهم ضد تكذيبهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ قرأ حمزة بالجر عطفاً على خير يعني أذن خير ورحمة والباقون بالرفع عطفاً على أذن ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ يعني لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم ترفقاً وترحماً عليكم أو المعنى رحمة للذين آمنوا منكم مخلصين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان ويشفع لهم في الآخرة ويستنقذ من النار إلى الجنة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يفيد لهم تسليم رسول الله ﷺ قولهم واعتذارهم، قال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ويحلفون فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا: وتخلفوا ﴿لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ عنهم والخطاب للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ بالطاعة والإخلاص والضمير راجع إلى الله تعالى لأن إرضاء الله تعالى لا يتحقق بالأيمان الكاذبة بل بالطاعة والإخلاص فالتقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك، وقيل: الضمير راجع إلى كل منهما وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضاء الله ورضاء رسوله فكأنهما في حكم شيء واحد، وقيل: الضمير راجع إلى الرسول ﷺ لأن الكلام في إيذاء الرسول وإرضائه ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً شرط

---

(١) أي: الأسود الطويل.

(٢) ثائر الرأس أي منتشر شعر الرأس من ثار الشيء يثور إذا انتشر وارتفع ومشوه الخلق قبيحه ومنه شاهت الوجوه أي قبحت والسفع نوع السواد وليس بالكثير.

(٣) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٢٣٨.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٥، والترمذي في البر باب ٤١، وأحمد في المسند ٢/ ٣٩٤.

حذف جزاءه لما يدل عليه السياق يعني إن كانوا مؤمنين صدقاً فليرضوا الله ورسوله بالطاعة والإخلاص لكنهم لم يرضوا الله ورسوله ولم يخلصوا إيمانهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يخالف الله ورسوله بالمعصية والتخلف عن الغزو بعد الاستنفار ومفاعلة من الحد بمعنى الجانب فإن المخالف لأحد يكون في جانب مغائر لجانبه ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَآ﴾(١) على حذف الخبر أي: الحق أن له نار جهنم أو على تكرير أن للتأكيد، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجواب محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يهلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: دخول النار والهلاك ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ هذه الآية في مقام التعليل لقوله: الله ورسوله أحق أن يرضوه فإن عدم إرضاء الله ومخالفته يفضي إلى النار دون عدم إرضاء غيره وما أحسن قول الشاعر:

ليتك تحلو والحياة مريرة … وليتك ترضى والأنام غضاب
ليت الذي بيني وبينك عامر … وبيني وبين العالمين خراب

وذكر البغوي قول قتادة والسدي أن قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ نزلت في جماعة من المنافقين فيهم خلاس بن سويد وقعوا في النبي ﷺ وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير، وذكر عامر بن قيس رضي الله عنه هذه المقالة عند رسول الله ﷺ، وسنذكر القصة فيما بعد إن شاء الله ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ يعني المؤمنين ﴿بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين ويهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن يكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقرو ومحتج به عليهم قال البغوي: كانوا يقولون فيما بينهم ويستترون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم وذلك يدل على أنهم كانوا مترددين في أمر الرسول ﷺ ويحذرون الفضيحة على تقدير صدقه عليه السلام، وقيل: إنه خبر بمعنى الأمر والمعنى ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة وقيل: كانوا يقولون ذلك فيما بينهم استهزاء لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي: مظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم أو تحذرون إظهاره من مساوئكم قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء أبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين قال البغوي: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما

---

(١) عن يزيد بن هارون أنه خطب أبو بكر الصديق فقال في خطبته يؤتى بعبد قد أنعم الله عليه وبسط له في رزقه وأصح بدنه وقد كفر نعم ربه فوقف بين يدي الله فيقال له ماذا عملت ليومك هذا ما قدمت لنفسك فلا يجده قدم خيراً فيبكي حتى ينفذ الدموع ثم يعير ويجزى ما ضيع من طاعة الله فينتحب حتى يسقط صدقاته على وجنتيه وكل واحد منها فرسخ ثم يعير ويجزى حتى يقول يا رب ابعثني إلى النار وارخي من مقامي هذا وذلك قوله تعالى ﴿ومن يحاد الله ورسوله فإن له نار جهنم﴾ إلى الآية.

رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها فأخبر جبرائيل رسول الله ﷺ.

قصة: ذلك ما روى أحمد عن أبي الطفيل والبيهقي عن حذيفة وابن سعد عن جبير بن مطعم رضي الله عنهم وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك والبيهقي عن عروة وعن ابن إسحاق ومحمد بن عمر عن شيوخه، أن رسول الله ﷺ ببعض الطريق مكر به ناس من المنافقين وائتمروا بينهم أن يطرحوه من عقبة في الطريق، وفي رواية أجمعوا أن يقتلوه فجعلوا يلتمسون غرته فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، قالوا: إذا أخذ في العقبة رفعناه عن راحلته في الوادي فأخبر الله تعالى رسوله بمكرهم، فلما بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة نادى مناديه للناس أن رسول الله ﷺ أخذ للعقبة فلا يأخذها واحد واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع فسلك الناس بطن الوادي إلا النفر الذين مكروا برسول الله ﷺ لما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا(١) وسلك رسول الله ﷺ العقبة وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه، فبينا رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع حِس القوم فدعسوه(٢) فنفروا ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه وكان حمزة بن عمرو الأسلمي لحق برسول الله ﷺ بالعقبة وكانت ليلة مظلمة، قال حمزة فتور لي في أصابعي الخمس وأضاءت حتى كنا نجمع ما سقط السوط والحبل وأشباههما وأمر حذيفة أن يردهم فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن فجعل يضرب وجوه رواحلهم، وقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فعلم القوم أن رسول الله ﷺ قد اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار» فأسرعوا حتى استويا بأعلاها وخرج رسول الله ﷺ من العقبة ينتظر الناس، وقال لحذيفة هل عرفت أحداً من أولئك الذين رددتهم قال: يا رسول الله قد عرفت رواحلهم كان القوم متلثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل، قال: هل علمتم ما كان من شأنهم وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي فإذا طلعت العقبة دعوني فطرحوني منها إن الله تعالى قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبركم بهم إن شاء الله تعالى.

قال: أفلا تأمرهم يا رسول الله إذا جاءك الناس أن تضرب أعناقهم، قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمداً قد وضع يده في أصحابه، وذكر البغوي بلفظ أكره أن يقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفينا بالدبيلة(٣) فسماهم لهما ثم قال: اكتماهم، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن الخضير: يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي فقد كان أسهل من العقبة فقال: «يا أبا يحيى أتدري ما أراد بي المنافقون

---

(١) تلثموا أي شد الفم باللثام للغبار.

(٢) المداعسة المطاعنة بالرماح.

(٣) هي دمل كبير يظهر في الجوف تقتل صاحبها غالباً.

وما هموا به؟ قالوا: لنتبعه في العقبة فإذا أظلم الليل عليه قطعوا الشارع راحلتي وتحسوها حتى كادوا يطرحوني عن راحلتي»، قال: أسيد: يا رسول الله قد اجتمع الناس ونزلوا فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا فيكون الرجل في عشيرته هو الذي يقتله وإن أحببت والذي بعثك بالحق فنبئني فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم، قال: يا أسيد: «إني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقطعت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه»، فقال: يا رسول الله ليسوا بأصحاب، فقال رسول الله ﷺ: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله، قال: بلى ولا شهادة لهم، قال: فعديت عن قتل أولئك.

قال ابن إسحاق فلما أصبح رسول الله ﷺ قال لحذيفة أدع عبد الله بن سعد بن أبي السرح وأبا حاضر الأعرابي وعامر أبا عامر والجلاس بن سويد بن الصامت وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة، ولئن كان محمد وأصحابه خيراً منا إنا إذاً لغنم وهو الراعي ولا عقل لنا وهو العاقل وأمره أن يدعو مجمع بن حارثة ومليح التيمي وهو الذي سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام، فانطلق هارباً في الأرض فلا يدري أين ذهب وأمره أن يدعو حيصر بن نمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه، فقال له رسول الله ﷺ: ويحك ما حملك على هذا؟ قال: حملني عليه إني أظن أن الله لا يطلعك عليه فأما إذا أطلعك الله عليه فإني أشهد اليوم أنك لرسول الله ﷺ وإني لم أؤمن بك قبل الساعة، فعفا عنه رسول الله ﷺ بقوله الذي قال: وأمر حذيفة أن يأتيه بطعمة بن أبيرق وعبد الله بن عيينة وهو الذي قال لأصحابه: اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله فوالله ما لكم أمر دون أن يقتلوا هذا الرجل، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: ويحك ما كان ينفعك من قتلي لو أني قتلت، فقال: عدو الله يا نبي الله والله ما نزال بخيره ما أعطاك الله النصر على عدوك إنما نحن بالله وبك فتركه رسول الله ﷺ، وقال لحذيفة ادع مرة بن الربيع وهو الذي ضرب بيده على عاتق عبد الله بن أبي ثم قال: تمطي أو قال: تميطي والنعيم لنا من بعده كائن تقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: ويحك ما حملك أن تقول الذي قلت فقال: يا رسول الله إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك العالم به وما قلت شيئاً من ذلك، فجمعهم رسول الله ﷺ وهم اثني عشر رجلاً الذين حاربوا الله ورسوله ﷺ وأرادوا قتله فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم ومنطقهم وسرهم وعلانيتهم واطلع الله نبيه ﷺ على ذلك بعلمه وذلك قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

ومات الاثنا عشر منافقين محاربين الله ورسوله ﷺ، قال حذيفة: فيما رواه البيهقي ودعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم ارمهم بالدبيلة» قال شهاب: من نار يقع على نياط قلب[1] أحدهم فيهلك، وروى مسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في أصحابي اثنا عشر رجلاً منافقاً لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية تكفيهم الدبيلة سراج

---

(١) نياط القلب هو عرق به علق القلب من الوتين إذا انقطع مات صاحبه.

من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم» قال البيهقي: وروينا عن حذيفة أنهم كانوا أربعة عشر أو خمسة عشر وهذه القصة وقعت في مرجعه ﷺ من تبوك إلى المدينة قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ لام قسم أي: والله لئن سألتهم عن استهزائهم بك وبالقرآن وهم سائرون معك في غزوة تبوك ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني قل ذلك توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء وإلزاماً للحجة عليهم ولا نفياً باعتذارهم الكاذب فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم حتى وبخوا بأخطائهم الاستهزاء حيث جعل المستهزىء به يلي حرف التقرير وذلك يكون بعد ثبوت الاستهزاء كذا قالوا، قلت: قولهم إنما كنا نخوض ونلعب اعتراف منهم بالاستهزاء ومعناه كنا نقول ما يفهم منه الاستهزاء لقطع مسافة الطريق على سبيل اللعب لا على قصد الاستهزاء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال له رجل كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال ابن عمرو أنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنما كنا[1] نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، ثم أخرجه من وجه آخر عن ابن عمر نحوه وسمى الرجل عبد الله بن أبي كذا ذكر البغوي عن عمر رضي الله عنه، وأخرج ابن جرير عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا في غزوة تبوك يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت، قال البغوي: سبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة إن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزءان بالقرآن والرسول ﷺ والثالث يضحك، قيل: كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدا ينتهم وما بعده من ذلك وقيل كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين في المدينة قرآن وإنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال: احبسوا عَلَيَّ الركب فدعاهم فقال لهم: قلتم كذا أو كذا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب أي: كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب يقطع الطريق بالحديث واللعب، وهذه القصة وقعت في رواحه ﷺ من المدينة إلى تبوك. وقال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر كان رهط المنافقين يسيرون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك لم يخرجوا

---

(١) عن شريح بن عبيد أن رجلاً قال لأبي الدرداء يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأجهل إذا سئلتم وأعظم لقمًا إذا أكلتم فاعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد شيئاً فأخبر بذلك عمر بن الخطاب فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك فقال بثوبه وخنقه وقاده إلى النبي ﷺ قال الرجل إنما كنا نخوض ونلعب فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب.

الأرجاء الغنيمة منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف والجلاس بن الصامت ومخشي بن حمير من أشجع حليف لبني سلمة زاد محمد بن عمرو ثعلبة بن حاطب فقال: بعضهم بعضاً مكاني بكم غداً مقرنين في الجبال أرجافاً برسول الله ﷺ وترهيباً للمؤمنين، وقال الجلاس بن عمر وكان زوج أم عمير وكان ابنها عمير في حجره والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير فقال عمير: وأنت شر من الحمير ورسول الله الصادق وأنت الكاذب، فقال: مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا(١) مائة جلدة وإننا ننقلب من أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا فانطلق عمار إليهم فقال لهم ذلك فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت وقد أخذ حقب ناقة رسول الله ﷺ ورجلاه تنسفان الحجارة ورسول الله ﷺ على ناقته وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي: لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها معلومة الكذب ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ أي: أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول والطعن فيه ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، قال محمد بن إسحاق الذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشي بن حمير الأشجعي فقال: هو الذي كان يضحك ولا يخوض وكان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع فلما نزلت هذه الآيات تاب من نفاقه، قال: اللهم لا أزال أسمع آية تقر بها عيني وتقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره، وقال مخشي يا رسول الله فعد لي اسمي واسم أبي فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن أو عبد الله ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ قرأ عاصم نعف بفتح النون وضم الفاء ونعذب بضم النون وكسر الذال على صيغة المتكلم المبني للفاعل وطائفة بالنصب، والباقون بالياء المضمومة وفتح الفاء في الأول وبالتاء الفوقانية وفتح الذال في الثاني على صيغة الغائب المبني للمفعول وطائفة بالرفع ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بالإصرار على النفاق وإيذاء الرسول والاستهزاء.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن﴾ جنس ﴿بَعْضٍ﴾ في الشرك والنفاق والبعد عن الإيمان، وفيه تكذيب لحلفهم بالله إنهم لمنكم وتقرير لقوله وما هم منكم وما بعده كالدليل عليه فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وتشابه حال بعضهم لبعض ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ أي: بالشرك والمعصية ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي: عن الإيمان والطاعة يقولون لا تنفروا في الحر ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله وقبض اليد كناية عن

(١) يعني جلد كل منا مائة ولا ينزل فينا قرآن يفضحنا.

الشح ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ كأنهم لا يعلمون لهم خالقاً يسألهم عما يفعلون وغفلوا عن ذكره وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا ورحمته في الآخرة وتركهم في عذابه، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن دائرة الإيمان والطاعة بالكلية ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدرة الخلود ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء على كفرهم ونفاقهم أن يعذبوا في الدنيا فيه دليل على عظم عذابها وأنه بحيث لا يزاد عليه ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم من رحمة وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ دائم لا يقطع، والمراد به ما وعدهم في الآخرة أو ما معهم في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الكاف محلها رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: أنتم أيها المنافقون مثل الذين كانوا من قبلكم من كفار الأمم الماضية أو نصب على المصدرية تقديره تعلمتم أيها المنقون فعلاً مثل فعل الذين كانوا من قبلكم من العدول عن أمر الله فلعنتم كما لعنوا ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ بطشاً ومنعة ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ بيان لتشبههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾ يعني فتمتعوا وانتفعوا ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي: بنصيبهم من الدنيا ولذاتها واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإن الخالاقات قدر لصاحبه ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بالحظوظ الدنية الفانية الغير المرضية لله تعالى معرضين عن تحصيل لذائر الباقية القوية المرضية تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي: دخلتم في الباطل واللهو ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ يعني كالخوض الذي خاضوا أو كالفوج الذي خاضوا ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذي خسروا الدنيا والآخرة يعني كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطت أعمالكم وخسرتم، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[١].

وفي رواية أبي هريرة: «فهل الناس إلا هم» رواه البخاري، وروى الحاكم عن ابن عباس عنه ﷺ: «لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر ذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم ولو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه»[٢] قال البغوي، قال: ابن مسعود: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتاً وهدياً تتبعون عملهم حذو القدة بالقدة غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ يعني المنافقين التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنهم عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا فعذبناهم وأهلكناهم ثم ذكرهم

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، والاعتصام باب ١٤، ومسلم في العلم حديث ٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/١٢٩، ٤/٤٥٥.

فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ مع ما عطف عليه بدل من الموصول يعني أهلكوا: بالطوفان لكفرهم ﴿وَعَادٍ﴾ أهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بسبب النعمة وإهلاك نمرود بنملة وإهلاك أصحابه ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط أيتفكت بهم أي انقلبت فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة فكذبوهم، فأهلكوا ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: لم يكن عادة الله أن يعذبهم بلا جرم منهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث كذبوا الرسل وعصوهم كما فعلتم فأخذناهم بالعذاب فاحذروا أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يؤيد بعضهم بعضاً في طاعة الله وإعلاء دينه ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والنفاق ومعصية الرسول واتباع الشهوات ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما أمروا به ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة فإن السين مؤكدة للوقوع ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عنه أمر ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ يطيب فيها العيش أو يستطيبها النفس ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قيل: معناه إقامة وخلود يقال: عدن بالمكان إذا قام به، قال صاحب المدارك: عدن علم بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ [مريم: ٦١] وقد عرفت أن كلمة الذي والتي وضعتا لوصفت المعارف بالجمل فهي مدينة في الجنة، قلت: يؤيد كونه عَلَمًا ما أخرج ابن المبارك والطبراني وأبو الشيخ عن عمران بن حصين وأبي هريرة رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال: «قصر من لؤلؤ في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمرد خضراء وفي كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ويعطي المؤمن كل غداة من القوة ما يأتي على ذلك كله أجمع» وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عمر قال: خلق الله تبارك وتعالى أربعاً بيده العرش وعدن والقلم وآدم ثم قال: لكل شيء كن فكان، وأخرج البزار وابن جرير والدارقطني في «**المؤتلف والمختلف**» وابن مردويه من حديث أبي الدرداء قوله ﷺ: «عدن دار الله التي لن ترها عين لم يخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله طوبى لمن دخلك».

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(١) وأخرج أحمد والطيالسي والبيهقي هذا

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٦.

الحديث بلفظ: «جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب»[١] الحديث، قال: البيهقي في قوله رداء الكبرياء استتاره بصفة الكبرياء والعظمة لأنه لكبرياءه وعظمته لا يراه أحد من خلقه إلا بإذنه، قال البغوي: قال ابن مسعود هي يعني جنات عدن بطنان الجنة أي: وسطها، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص إن في الجنة قصر يقال له عدن حوله البروج والمروج[٢] له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا النبي أو صديق أو شهيد، وقال الحسن قصر من ذهب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل وقال عطاء بن السائب عدن نهر في الجنة جنانه على حافتيه، وقال مقاتل والكلبي: عدن أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله تعالى فيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فيدخل عليهم كثائب[٣] المسك الأبيض، قال: القرطبي قيل: الجنان سبع دار الخلد ودار الجلال ودار السلام وجنة عدن وجنة المأوى وجنة الفردوس، وقيل: أربع فقط لحديث أبي موسى فإنه لم يذكر فيه سوى أربع كلها يوصف بالمأوى وخلد وعدن والسلام وهذا ما اختاره الحكيم، فقال: إن الجنتين للمقربين والجنتين الأخريين لأصحاب اليمين وفي كل جنة درجات ومنازل وأبواب ومرجع العطف في الآية يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد أو للجميع على سبيل التوزيع أو إلى تغاير وصفه كأنه وصفه أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن يعرفونها ليميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التي لا يخلو عن شيء منها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار العليين لا يعتريهم فيها فناءه ولا تغير ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك، فقال: ﴿ورضوان من الله﴾ أي: شيء من رضوان الله ﴿أَكۡبَرُ﴾ نعمة من سائر النعم في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟[٤] فقال: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك قالوا: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»[٥] وأخرج

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤١٦.

(٢) المرج الأرض الواسعة ذات نبات كثير تمرح فيها الدواب أي تخلى وتسرح مختلطة كيف شاءت وأصل المرج الخلطة.

(٣) كثائب جمع كثيب وهو الرمل المستطيل المحدودب.

(٤) الظاهر أن المراد من الخلق في قوله اعطيتنا ما لم يعط أحداً من خلقك الملائكة إذ لا يجوز أن يرى أحد التفضيل على أهل النار من الإنس والجن ولا على ما لا يعقل والله أعلم.

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٧، والرقاق باب ٥١، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، والجنة حديث ٩.

الطبراني في «**الأوسط**» وصححه عن جابر يرفعه إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تعالى: هل تسألون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا فما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضوان من الله أكبر» ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرضوان أو جميع ما تقدم ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي يستحقر دونه ما سواه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال ابن عباس والضحاك يعني باللسان وترك الرفق وتغليظ الكلام، وقال الحسن وقتادة: بإقامته الحدود، وقال ابن مسعود: يجاهدهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وقال: لا يلقى المنافق إلا بوجه مكفهر ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هي قال: عطاء نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح والله تعالى أعلم.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينين شيطان فطلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا: حتى تجاوز عنهم فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الجلاس بن سويد بن الصامت ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وقال: لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير فرفع عمير بن سعد ذلك إلى رسول الله ﷺ فحلف بالله ما قلت فأنزل هذه الآية فزعموا أنه تاب وحسنت توبته، ثم أخرج عن كعب بن مالك نحوه وكذا أخرج ابن إسحاق عنه وأخرج ابن سعد في الطبقات نحوه عن عروة، وكذا ذكر البغوي قول الكلبي قال: نزلت في جلاس بن سويد وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين فسماهم رجساً وعابهم فقال: جلاس: لئن محمد صادقاً لنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل إن محمداً ﷺ الصادق وأنتم شر من الحمير فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس: كذب يا رسول الله عليَّ، فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب عليَّ عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبتُ عليه، ثم رفع عامر يديه إلى السماء وقال: اللهم أنزل على نبيك الصادق منا الصدق، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون آمين فنزل جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أَسْمَعُ الله قد عرض عليَّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه ثم تاب وحسنت توبته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك، قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يخطب إن كان هذا صادقاً لنحن شر من الحمير فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فجحد القائل فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلين أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار وظهر الغفاري على الجهني، فقال: عبد الله بن أبي الأوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمّن

كلبك يأكلك لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية، وهذه قصة غزوة بني المصطلق وقد ذكرنا القصة في سورة المنافقين ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قيل: هي سب النبي ﷺ، وقيل: هي قول الجلاس لئن كان محمد صادقاً لنحن شر الحمير. وقيل: قولهم لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: أظهروا الكفر بعدما أظهروا الإسلام ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قيل: هم اثنا عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق تبوك ليفتكوا[1] برسول الله ﷺ فجاء جبرائيل وأمره أن يرسل إليهم من يضرب رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك وقد مر القصة.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: هَمَّ رجل يقال له: الأسود بقتل النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد: همّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم لنحن شر من الحمير كيلا يفشيه وقيل: هموا بإخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من المدينة في قصة غزوة بني المصطلق، وقال السدي قالوا: إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجاً فلم يصلوا إليه ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ أي: ما كرهوا وما وجدوا ما يورث نقمتهم ويقتضي انتقامهم شيئاً ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني: إلا الإحسان بهم وذلك شيء محبوب عند القلوب يوجب المحبة والانقياد دون العداوة والانتقام والجملة حال من فاعل هموا بيان لكمال شرهم وخبثهم حيث أساؤوا في مقابلة الإحسان.

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة أن مولى ابن عدي بن كعب قتل رجلاً من الأنصار فقضى النبي ﷺ بالدية اثني عشر ألفاً، قال البغوي: مولى الجلاس قتل فأمر له رسول الله ﷺ بدية اثني عشر ألفاً فاستغنى وفيه نزلت هذه الآية وقال الكلبي: كان أهل المدينة قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش فلما قدم عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم، ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿يَكُ﴾ ذلك التوب ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قد مر أن هذه الآية حمل الجلاس على التوبة ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ أي: يعرضوا عن التوبة والإخلاص ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالخزي والفضيحة أو القتل ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ حتى ينجيهم من القتل والخزي، وروى البغوي بسنده: كذا ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في «**شعب الإيمان**» عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً لسارت»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق نبياً لأن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه

---

(١) الفتك أن يأتي الرجل حاجته وهو غافل فيقتله.

المدينة فتنحى عنها فنزلت وادياً من أوديتها وهي تنمو كما ينمو الدود وكان يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة يخرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ فات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة»؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح[1] ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» فأنزل الله تعالى آية الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان، وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب وبرجل من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزها للصدقة ثم استقبلهما فلما رأوها قالوا: ما هذا عليك، قال: خذاه فإن نفسي بذاك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي، قال: فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه قال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثم دعا للسلمي بخير فأخبراه بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله فيه.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فيه إدغام التاء في الصاد ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه يعني يعمل عمل أهل الصلاح من صلة الرحم وأداء الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة في سبيل الله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالمال ومنعوا حق الله ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: هم قوم عادتهم الإعراض عنها ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله والبخل أي: جعل عاقبة أمرهم ﴿نِفَاقًا﴾ أي: سوء اعتقاد ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ حيث لم يروا امتثال أمر الله تعالى في أداء الزكاة واجباً وأنكروا وأوجوب الزكاة وزعموها أخت الجزية ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي: جزاءه وهو يوم القيامة أو في القبر يعني حرمهم الله التوبة إلى أن ماتوا على النفاق ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: بسبب إخلافهم ﴿مَا وَعَدُوهُ﴾ من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي: بكونهم كاذبين فإن خلف الوعد متضمن لكذب مستقبح من الوجهين قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»[2] متفق عليه من حديث أبي هريرة، زاد مسلم بعد قوله ثلاث: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» ثم اتفقا وروى البغوي وابن جرير وغيره في حديث أبي أمامة المذكور فيما قبل أنه نزلت الآية وعند رسول

---

(١) هي كلمة ترحم وتوجع يقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها.

(٢) تقدم الحديث مع تخريجه.

الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثو على رأسه التراب فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك قد أمرتك لم تطعني فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله ﷺ، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: اقبل صدقتي فقال أبو بكر لم يقبلها رسول الله ﷺ وأنا أقبلها فقُبِضَ أبو بكر ولم يقبلها، فلما ولي عمر أتاه فقال: اقبل صدقتي لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أنا أقبلها منك فلم يقبلها، ثم ولي عثمان فأتاه فلم يقبلها وهلك ثعلبة في خلافة عثمان.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة... أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله أتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه وصلت منه القرابة فمات ابن عم له فورثه مالاً فلم يف بما قال: فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الحسن ومجاهد نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود وقالا والله لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾ أي: المنافقون أو من عاهد الله حين أظهروا خلاف ما أضمروا والاستفهام للتوبيخ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ يعني ما يسرون من النفاق أو العزم على الإخلاف ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم من المطاعن أو تسمية الزكاة جزية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا يعني المنافقين مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صدقة هذا فنزل ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون الموصول مرفوع على الذم أو منصوب أو بدل من الضمير في سرهم أو مبتدأ خبره سخر الله منهم ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أصله المتطوعين أي: الراغبين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى﴾ في إكثار ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ ما يتصدقون به ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: طاقتهم أي: ما يطيقون ويقدرون عليه من المال القليل، وقال البغوي: قال أهل التفسير: حث رسول الله ﷺ على الصدقة فجاء عبد الرحمٰن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله ﷺ مالي ثمانية الآف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك الله ما في ماله حتى أن خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهماً وفي رواية صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم وكان حقها أكثر مما صولحت عليه وتصدق يومئذٍ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحجاب بصاع من تمر فقال: يا رسول الله بت ليلتي أجر بجرير[1] الماء حتى نلت صاعين من تمر

---

(١) الجرير الحبل والمعنى استقاني الناس على أجرة صاعين.

فأمسكت أحدهما لأهلي وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمٰن وعاصم إلا رياء وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقة فأنزل الله هذه الآية، وعنى بالمطوعين عبد الرحمٰن وعاصم وبالذين لا يجدون إلا جهدهم أبا عقيل، قلت: روى القصة أحمد وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وقصة مصالحة إحدى امرأتيه الطبراني واسمعه تماضر من حديث أبي عقيل، وورد نحو هذه القصة من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي عقيل نفسه وعميرة بنت سهل بن رافع أخرجها كلها ابن مردويه قال: الله تعالى عز شأنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون بهم ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم على السخرية وأخرج البيهقي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لأحدهم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء غلق دونه فما زال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح الباب من أبواب الجنة فيقال لهم: هلم فما يأتيه منه إلا يأس» ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم واستهزائهم.

قال البيضاوي روى عن عبد الله بن عبد الله بن أبي المنافق كان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ في مرض موت أبيه المنافق أن يستغفر له ففعل فنزلت ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر بمعنى الإخبار بالتسوية بين استغفار الرسول الله ﷺ للمنافقين وعدمه في عدم الإفادة كما نص عليه بقوله ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لأزيدن على السبعين» فنزلت ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] كذا أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر معناه وأخرج ابن المنذر عن عروة ومجاهد وقتادة، وأخرج ابن المنذر من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: أسمع ربي وقد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فنزلت ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ قال البيضاوي: فهم النبي ﷺ من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ما وراءه فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد.

وقد شاع استعمال السبعة والسبعين وسبعمائة ونحوها في التكفير لاشتمال السبعة على حملة أقسام العدد فإن العدد قليل وكثير فالقليل ما دون الثلاث والكثير الثلاث فما فوقه وأدنى الكثير ثلاثة ولا غاية لأقصاه، وأيضاً العدد نوعان شفع ووتر أول الأشفاع اثنان وأول الأوتار ثلاثة وواحد ليس بعدد والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين لأن فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة، والعشرة كمال الحساب لأن ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة كقولك اثنا عشر ثلاثة عشر إلى عشرين والعشرون تكرير العشرة مرتين والثلاثون تكريرها ثلاث مرات وهكذا إلى مائة، فالسبعون بجمع الكثرة والنوع والكثرة منه وكمال الحساب والكثرة منه فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه ولا غاية لأقصاه فجاز تخصيص السبعين بهذا المعنى فكأنه العدد بأسره ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليأس عن المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ

كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني ليس ذلك بخل منا ولا لقصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المتمردين في كفرهم وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر إنما هو بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقطع ولا يهتدي.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا
وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم
مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ
وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ
آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا
بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ
وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا
عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا
أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي
رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن غزوة تبوك والمخلف المتروك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بعقودهم عن الغزو ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، قال أبو عبيدة أي بعد رسول الله ﷺ وقيل: خلاف بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال، يعني فرحوا لأجل مخالفة الرسول وحال

كونهم مخالفين له ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه تعريض بالمؤمنين الذين حصلوا رضاءه تعالى ببذل الأموال والأنفس وأثروا رضاه على الأموال والأنفس ﴿وَقَالُواْ﴾ أي قال بعضهم لبعض وللمؤمنين تثبيطاً ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجل: يا رسول الله الحر الشديد ولا تستطيع الخروج فلا تنفر في الحر فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة فيه استجهال لهم لأنه من يصون نفسه من مشقة ساعة ووقع بسبب ذلك في مشقة أشد وأغلظ المؤبد كان أجهل من كل جاهل، ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يعلمون، قال البغوي: كذلك هو في مصحف ابن مسعود يعني لو كانوا يعلمون أن ما بهم إليها أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة، قال محمد بن يوسف الصالحي جعل جد بن قيس وغيره من المنافقين يثبطون المسلمين عن الخروج وقال الجد لجبار بن منحر ومن معه من بني سلمة لا تنفروا في الحر زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً برسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك فقال رجل من بني سلمة لا تنفروا في الحر فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ الآية، وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر أبو قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم قال رجل من المنافقين: لا تنفروا في الحر فنزلت هذه الآية والله أعلم.

قال الله تعالى ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ أي: المنافقون حين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﴿قَلِيلًا﴾ يعني ضحكاً قليلاً أو في زمان قليل يعني في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ في الآخرة إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، والضحك والبكاء إما محمولان على الحقيقة أو هما كنايتين عن السرور والغم وجاز أن يكون المراد بيان حالهم في الآخرة والمراد من القلة العدم ﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدر فعل محذوف أي: يجزون جزاء، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ قال: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله فليستأنفوا البكاء بكاء لا ينقطع أبداً.

وأخرج ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي وهنا عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يرسل البكاء على أهل النار فيكون حتى ينقطع الدموع ثم يكون الدم ثم تؤتى في وجوههم كهيئة الأخدود ولو أرسلت فيها السفن لجرت»[(١)] وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت وإنهم يسكبون الدم»[(٢)] وأخرج ابن أبي الدنيا والضياء كلاهما في صفة النار

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٦٠٥.

عن زيد بن رفيع رفعه أن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم يكون القيح زماناً فيقول لهم الخزنة يا معشر الأشقياء تركتم البكاء في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به فيرفعون أصواتهم يا أهل يا معشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشى وكنا طول الموقف عطاشى ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيدعون أربعين لا يجيبهم ثم يجيبهم أنكم ماكثون فيئسوا من كل خير، قلت: وجاز أن يكون معنى الآية فليضحكوا أي: الناس أجمعين في دنياهم قليلاً أمر إباحة يشعر كراهة كثرة الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب وليبكوا في الدنيا كثيراً من خشية الله حتى يكون البكاء جزاء وعوضاً بما كانوا يكسبون يتهافت[1] به سيئاتهم.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[2] رواه أحمد والشيخان في الصحيحين والترمذي والنسائي وابن ماجه ورواه البخاري أيضاً عن أبي هريرة، ورواه الحاكم وصححه عن أبي ذر وزاد: «ولما ساغ لكم الطعام ولا الشراب» وروى الطبراني والحاكم والبيهقي عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون[3] إلى الله تعالى لا تدرون تنجون أو لا تنجون» وروى الحاكم عن أبي هريرة وصححه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، يظهر النفاق ويرتفع الأمانة ويقبض الرحمة ويتهم الأمين ويؤتمن غير الأمين أناخ بكم الشرف الجون الفتن كأمثال الليل المظلم» وروى البغوي بسنده عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى يسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى ينقطع الدموع فيسيل الدماء ويفرج العيون فلو أن سفناً أجريت فيها لجرت» وروى أحمد والترمذي وابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» وروى ابن ماجه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله ثم يصيب من خروجه إلا حرمه الله على النار ﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾ أي: ردك ﴿ٱللَّهُ إِلَىٰ﴾ المدينة وفيها ﴿طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من المخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين أو من بقي منهم بعدما تاب بعضهم وهلك بعضهم ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك، ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون بفتحها ﴿أَبَدٗا﴾ في سفر ﴿وَلَن

---

(١) أي يتساقط.

(٢) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الكسوف باب ٢، وتفسير سورة ٥، باب ١٢، والنكاح باب ١٠٧، والرقاق باب ٢٧، والأيمان باب ٣، ومسلم في الصلاة حديث ١١٢، والكسوف حديث ١، والفضائل حديث ١٣٤.

(٣) جأر إلى الله أي تضرع.

تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بسكونها ﴿عَدُوًّا﴾ إخبار في معي النهي للمبالغة ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني في غزوة تبوك، والجملة تعليل للنهي وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ مع النساء والصبيان والمرضى والزمنى لعدم لياقتهم للجهاد، وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل: مع المخالفين قال الفراء يقال صاحت خالف إذا كان مخالفاً، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله فقام ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوبه فقال رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «إنما خيرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين، فقال: إنه منافق فصلى عليه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ المراد بالصلاة الدعاء والاستغفار للميت فيشتمل صلاة الجنازة أيضاً لأنها مشتملة على الدعاء والاستغفار ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ ظرف لتصل، وقيل: ظرف لمات يعني مات موتاً مؤبداً على الكفر فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحيى، وبهذا المعنى قال الله لا يموت فيها ولا يحيى ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ للدفن أو للزيارة قيل: كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له ولذا ورد النهي عن القيام على قبره ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأييد الموت، وروى البخاري عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعا له رسول الله ﷺ ليصلي على ابن أبي وقد قال: يوم كذا كذا ويوم كذا كذا أعدد عليه قال: «إني خيرت فاخترت لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبته ونفث فيه ريقه وألبسه قميصه، وفي الصحيحين عن ابن عمر أن عبد الله بن عبد الله بن أبي كان من المصلحين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت، وروى الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن أسامة بن زيد أن ابن أبي دعا رسول الله ﷺ في مرضه فسأله أن يستغفر له ويكفنه في شعاره الذي يلي جسده ويصلي عليه فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه وذهب ليصلي فنزلت هذه الآية، وأخرج البخاري من حديث جابر أنه قال: لما كان يوم بدر وأتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه يعني كان ذلك مكافأة له، قال البغوي: روي أن النبي ﷺ كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه قال: وروي أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي ﷺ، قال البغوي: فما صلى رسول الله ﷺ بحل هذه الآية على منافق ولا قام على قبره حتى قبض ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ

وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغطبتة عليها، ويجوز أن يكون هذا في فريق غير الأول ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن، ويجوز أن يراد بها بعضها ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ بأن آمنوا ويجوز أن يكون أن مفسرة، والظاهر أن المراد بالإيمان ههنا امتثال أمره ﷺ في الجهاد ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ في القعود ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ أي: ذوو الغنى والسعة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ في رحالهم بعذر ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: النساء اللاتي يخلفن في البيوت جمع خالفة، وقد يقال: الخالفة الذي لا خير فيه فلان خالفة قومه إذا كان دونهم يعني مع أرذال الناس الذين لا خير فيهم ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ طبع الله عليها فلا يدركون حسن الخيرات وسوء السيئات ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في المخالفة عنه من الشقاوة.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ مخلصين ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ يعني أن تخلف الخوالف ولم يجاهدوا فلا منقصة في الدين فقد جاهد من هو خير منهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أي: منافع الدارين، وقيل: الخيرات الحور العين قال الله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٧٠] جمع خيرة وحكي عن ابن عباس أن الخير لا يعلم معناه إلا الله عز وجل كما قال: جل ذكره: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] قلت: مراد ابن عباس أنه يعم جميع المنافع ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ بيان لما لهم في الآخرة من الخيرات ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: المعتذرون بالجهد وكثرة العيال أدغم التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين كذا قال: الفراء أو المعنى المقصرون فيه الموهمون أن لهم عذر ولا عذر لهم عذر من التفعيل أي: قصر وقرأ يعقوب ومجاهد المعذرون بالتخفيف من أعذر إذا اجتهد وبالغ في العذر ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في القعود، قال محمد بن عمر جاء ناس من المنافقين إلى رسول الله ﷺ يستأذنونه في القعود من غير علة فأذن لهم، وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله استأذن رسول الله ﷺ رجال من المنافقين حين أذن لجد بن قيس يستأذنونه يقولون يا رسول الله ﷺ ائذن لنا فإنا لا نستطيع أن ننفر في الحر فأذن لهم وأعرض عنهم، ونزل هذه الآية فلم يعذرهم الله تعالى قال ابن إسحاق نفر من بني غفار وقال محمد بن عمر كانوا اثنين وثمانين رجلاً منهم خفاف بن إيما أنزل الله فيهم ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: الضحاك المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم وقالوا يا نبي الله إن نحن غزونا معك تُغير أعراب طي على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال رسول الله ﷺ: «قد نبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم» وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا العذر بإذن رسول الله ﷺ ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في إرعاء الإيمان يعني المنافقين فعلى هذا التأويل الفريق الأول غير مسيئين، والظاهر أن المراد بهؤلاء هم الأولون كذب الله المنافقين المعذرين بالباطل أو

يقال المعذرون أعم من هؤلاء فإن منهم من اعتذر بكسله لا لكفره، قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين مسيئين قوم تكلفوا عذراً بالباطل وهم الذين عناهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ وقوم تخلفوا من غير تكلف عذر فقعدوا جرأة على الله وهم المنافقون فأوعدهم الله تعالى بقوله ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الأعراب أو من المعذرين فإن منهم من اعتذر بكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ وكنت أكتب براءة وإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ قال ابن عباس يعني الزمنى والمشايخ والعجزة وقيل: الصبيان وقيل: النسوان ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ العميان وغيرهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لفقرهم ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيق في القعود عن الغزو ومأثم ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي والناصح أو بما يقدروا عليه فعلاً وقولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتبين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ إلى معاتبتهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن، قال البغوي: قال قتادة نزلت في عابد بن عمر وأصحابه وقال الضحاك نزلت في عبد الله ابن أم مكتون وكان ضرير البصر روى البخاري وابن سعد عن أنس وابن سعد عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا المدينة قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم سيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا: يا رسول الله ﷺ وهم بالمدينة؟ قال: هم بالمدينة حبسهم العذر»(١).

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على الضعفاء أو على المحسنين، قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المحضوفة ليفروا معه ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب إذا ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ أي: تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي: دمعها ومن للبيان، وهي مع مجرورها في محل النصب على التميز وهو أبلغ من تفيض دمعها لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً ﴿حَزَنًا﴾ نصب على العلة أو الحال أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله، ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ أي: لئلا يجدوا متعلق بحزناً أو بتفيض ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في غزوتهم، روى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن بكر وعاصم بن محمد بن عمر وقتادة وغيرهم رحمهم الله أن عصابة من أصحاب رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٣٥، والمغازي باب ٨١، وأبو داود في الجهاد باب ١٩، وابن ماجه في الجهاد باب ٦.

جاؤوه يستحملونه وكلهم معسر ذو حاجة لا يحب التخلف عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون» قال محمد بن يوسف الصالحي: اختلفوا في أسمائهم فالذي اتفقوا عليه سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف الأوسي وعُلية بن زيدُ أبو ليلى بن عبد الرحمٰن بن كعب وهرمي بن عبد الله والذي اتفق عليه القرضي وابن إسحاق والواقدي وتبعهم ابن سعد وابن حزم وأبو عمرو السهيلي ولم يذكر الأخير عرباض بن سارية جزم بذلك ابن حزم وأبو عمرو، ورواه أبو نعيم عن ابن عباس والذي اتفق عليه القرظي وابن إسحاق عمرو بن حمام بن الجموح، والذي اتفق عليه القرظي وابن عقبة وابن إسحاق عبد الله بن مغفل.

روى ابن سعد ويعقوب بن سفيان وابن أبي حاتم عن ابن مغفل قال: إني لأجد الرهط الذين ذكر الله تعالى ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم، وفي حديث ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم من طريق العوفي قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءت عصابة من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم عبد الله بن مغفل المزني قالوا: يا رسول الله احملنا فقال: والله ما أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم بكاء وَعَزَّ عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً فأنزل الله تعالى عذرهم» ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية، والذي اتفق عليه القرظي وابن عمر بن سلمة بن صخر ولفظ القرظي سلمان والذي اتفق عليه القرظي وابن عقبة عمرو بن عنمة بن عدي وعبد الله بن عمرو والمزني حكاه ابن إسحاق قولاً بدلاً عن ابن مغفل، وانفرد القرظي بذكر عبد الرحمٰن بن زيد أبو علية من بني حارثة وبذكر حرمي بن عمرو من بني مازن، وقال محمد بن عمرو يقال إن عمرو بن عوف منهم قال ابن سعد وفي بعض الروايات من يقول فيهم معقل بن يسار، وذكر فيهم الحاكم حرمي بن مبارك بن النجار وذكر ابن عابد فيهم مهدي بن عبد الرحمٰن وذكر فيهم محمد بن كعب سالم بن عمرو الواقفي، قال ابن سعد وبعضهم يقول: البكاؤون بنو مقرن السبعة وهم من مزينة انتهى.

وهم النعمان وسويد ومغفل وعقيل وسنان. ذكر ابن إسحاق في رواية يونس وابن عمر أن علية بن زيد لما فقد ما يحمله ولم يجد عند رسول الله ﷺ ما يحمله خرج من الليل فصلى من ليلة ما شاء الله تعالى ثم بكى وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ: أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم إليه أحد فقام إليه فأخبره فقال رسول الله ﷺ: «أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة» قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر: لما خرج البكاؤون من عند رسول الله ﷺ وقد أعلمهم أنه لا يجد ما يحملهم عليه بقي يامين بن عمرو النضري أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نقوى به على الخروج ونحن نكره أن يفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ فأعطاهما ناضحاً له وزود كل واحد منهما صاعين من تمر، زاد محمد بن عمرو حمل العباس بن عبد المطلب

منهم رجلين وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة نفر بعد الذي كان جهز من الجيش، قلت: لعله لما سقط السبعة من الستة العشر المذكورين وسقط اثنان منهم لأجل شك الراوي فبقي من لم يخرج إلى الغزو لفقد ما يحمله سبعة وهم الذين قال: الله تعالى فيهم إنه لا سبيل عليهم بالمعاتبة والله أعلم.

روى الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: «أتيت رسول الله ﷺ في نفر من الأشعريين ليحملنا وفي رواية أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان فقلت: يا رسول الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم فقال: «والله لا أحملكم على شيء وما عندي ما أحملكم عليه» ووافقته وهو غضبان ولا أشعر فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ وجد في نفسه عليَّ فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بالذي قال رسول الله ﷺ، ثم جيء رسول الله ﷺ بنهب إبل فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي أين عبد الله بن قيس فأجبته فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك، فلما أتيته قال: «هذين القرينين[1] وهذين القرينين لستة أبعرة أتباعهن حينئذٍ من سعد فانطلق بهن إلى أصحابك فقل إن الله أو قال: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوهن، قال أبو موسى فانطلقت إلى أصحابي فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء ولكن والله لا أودعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم ومنعه في أول مرة ثم إعطاءه إياي بعد ذلك لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله فقالوا: لي والله إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت، قال: فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ﷺ منعه إياهم ثم إعطاءه بعد ذلك فحدثوهم بمثل ما حدثهم أبو موسى، ثم قلنا: والله لا يبارك لنا فرجعنا فقلنا لرسول الله ﷺ فقال: «أنا ما حملتكم ولكن الله حملكم»، ثم قال: «والله إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منهما إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»[2].

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالعقاب والمعاتبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ واجدون الأهبة ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ استئناف ببيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذرهم وهو رضاهم بالدنيا والانتظام في جملة الخوالف ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ سوى ما اختاروه من القعود على الجهاد وموافقة الرسول.

﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ يعني المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وقد ذكرنا أنهم كانوا بضعة وثمانين نفر ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ أيها الرسول والمؤمنون ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ من غزوة تبوك إلى المدينة وفي الآية معجزة فإنهم جاؤوا بعد ذلك يعتذرون بالباطل قال الله تعالى ﴿قُل لَّا

---

(١) القرينين الجملان المشدودان أحدهما إلى الآخر.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان باب ١، ٤، ١٨، والكفارات باب ٩، ١٠، ومسلم في الأيمان حديث ٧، ٨، ٩.

تَعۡتَذِرُواْ﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾ لن نصدقكم علة للنهي لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ثم بين علة عدم التصديق وقال: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أعلمنا بالوحي إلى نبيه ﷺ بعض أخباركم وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد وما زورتم من الاعتذارات الكاذبة ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ في المستقبل من الزمان هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه فيه استتابة وإمهال للتوبة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بعد الموت وضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلتهم لا يفوت شيء من ضمائرهم وأعمالهم من علمه ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بالتعذيب ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ ولا تعاتبوهم ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تعاتبوهم ولا تصاحبوهم ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ﴾ أي: لأنهم أرجاس لخبث باطنهم فلا يجوز معهم المؤانسة والمصاحبة ولا ينفعهم المعاتبة لعدم صلاحيتهم للتطهر والمقصود عن المعاتبة إنما هو التطهير بالحمل على الإنابة ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل كأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار فلا تصاحبوهم ولا تعاتبوهم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدر الفعل محذوف أي: يجزون جزاء أو يكون علة لكون مأواهم جهنم، قال البغوي: قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما كانوا ثمانين رجلاً من المنافقين فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو أن لا يتحلف عنه بعدها وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه فأنزل الله هذه الآية ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ يحلفهم فتستديموا على ما كنتم تفعلون بهم ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: عنهم، وضع المظهر موضع المضمر ليدل على موجب عدم الرضا، يعني أن لبسوا عليكم ورضيتم بهم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله ويرضوه مع كفرهم ولا ينفعهم رضاءكم مع سخط الله تعالى فإنه ينزل بهم الهوان في الدنيا والعذاب في الآخرة والمقصود من الآية النهي عن الرضاء عنهم والاغتراب بمعاذيرهم ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ يعني أهل البادية ﴿أَشَدُّ كُفۡرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل البلد لتوحشهم وقساوتهم وعدم اختلاطهم بأهل العلم وقلة استماعهم الكتاب والسنة ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾ أي: أحق بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ من الشرائع فرائضها وسنتها ومباحاتها ومحرماتها ومكروهاتها لا يميزون بعضها من بعض لجهلهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال جميع خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم في الدنيا والآخرة ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي: يزعم ﴿مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿مَغۡرَمًا﴾ أي: غرامة وخسراناً، قال عطاء: لا يرجون لإعطائه ثواباً ولا على إمساكه عقاباً أمناً ينفقون خوفاً ورياء ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ أي: ينتظرون بكم تقلب الزمان بأن يموت الرسول ويظهر المشركون حتى يتخلصوا عن الإنفاق الذي ينفقونها رياء وخوفاً ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون بالمؤمنين، أو إخبار بما يقع بهم نحو ما يتربصون بالمؤمنين والدائرة في الأصل مصدراً واسم فاعل من دار يدور ورسمي عقبة الزمان التي يأتي بالخير مرة وبالشر أخرى.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو السوء هنا وفي سورة الفتح بالضم السين ومعناه الضر والمكروه والباقون بفتح السين وهو مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجل صدقٍ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند النفاق فيما بين شياطينهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون قال البغوي: نزلت الآية المذكورة في أعراب أسد وغطفان وبني تميم، وكذا أخرج أبو الشيخ عن الكلبي إلا أنه لم يذكر فيه بني تميم ثم استثنى الله سبحانه من الأعراب المذكورين حال بعضهم فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وقال البغوي: أخرج ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في بني مقرن من مزينة الذين نزلت فيهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ وأخرج عن عبد الرحمٰن بن معقل قال: كنا عشرة ولد مقرن وقال الكلبي أسلم وغفار وجهينة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وعطفان وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله وعصية عصت الله ورسوله»[(١)] وفيهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله» وفيهما عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلم وغفار ومزينة وجهينة خير من تميم ومن بني عامر والحليفين أسد وغطفان» وروى البغوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلم وغفار وشيء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان» ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ أي: يزعم ﴿مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله سبب ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ وهي ثاني مفعولي يتخذ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ صفة لقربات أو ظرف ليتخذ ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: سبب دعاءه ﷺ واستغفاره أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: صلوات الرسول استغفاره ﷺ وقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[(٢)] حين جاء عبد الله بن أبي أوفى بصدقته، كذا أخرج الجماعة إلا الترمذي من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أي: النفقة ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ عند الله تعالى قرأ نافع برواية ورش قربة بضم الراء والباقون بسكونها وهذه شهادة من الله تعالى بصحة معتقدهم وتصديق لرجائهم على الاستئناف مع حر في التنبيه والتأكيد ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ السين لتحقيق الوعد ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: جنته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٦، ومسلم في المساجد حديث ٣٠٧، ٣٠٨، وفضائل الصحابة حديث ١٣٢، ١٨٢ - ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٣٢، وأبو داود في الزكاة باب ٧، والنسائي في الزكاة باب ١٣، وابن ماجه في الزكاة باب ٨، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٨١، ٣٨٣.

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ
ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ
أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ
أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا
يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الذين هجروا قومهم وعشائرهم وفارقوا أوطانهم وأموالهم يعني: من قريش مكة.

﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ الذين نصروا رسول الله ﷺ وآووه وأصحابه، حين أخرجه قومه يعني من أهل المدينة. واختلفوا في السابقين من الفريقين؟ قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر، وقال الشعبي هم الذين شهدوا بيعة الرضوان بالحديبية، وقيل: هم المهاجرين ثمانية نفر للذين سبقوا إلى الإسلام ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام بعدهم وهم أبو بكر وعلي وزبير بن الحارثة وعثمان بن عفان وزبير بن العوام وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، قال البغوي: واختلفوا في أول من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة مع اتفاقهم على أنها أول من آمن برسول الله ﷺ فقال بعضهم: علي بن أبي طالب وهو قول جابر بن عبد الله ويؤيده قول علي رضي الله عنه(١):

سبقتكم إلى الإسلام طراً ... غلاماً ما بلغت أوان حلمي

قال مجاهد وابن إسحاق أسلم علي وهو ابن عشر سنين وقال بعضهم: أول من آمن به بعد خديجة أبو بكر الصديق وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي، ويشهده قول حسان بن ثابت في أشعاره في مدح أبي بكر وتسليم النبي ﷺ إياه، وقال بعضهم: أول من آمن به زيد بن حارثة وهو قول الزهري وعروة بن الزبير وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي ومن العبيد زيد بن الحارثة رضي الله عنهم أجمعين، قال ابن إسحاق فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب

---

(١) البيت من الوافر، وهو في ديوان علي بن أبي طالب، ومطلع القصيدة:

محمّد النبيّ أخي وصهري ... وحمزة سيّد الشهداء عمّي

قريش وأعلمها بما كان فيها وكان تاجراً ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه فأسلم على يديه فيما بلغني عثمان والزبير بن العوام وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين أسلموا وصلوا، ثم أسلم غيرهم حتى بلغ المسلمون من الرجال والنساء إلى تسع وثلاثين في سبع سنين ثم أسلم عمر بن الخطاب فهو منهم أربعين، فإذا أسلم عمر قال: المشركون اليوم انتصف منا.

ثم شاع الإسلام وتقوى بإسلام عمر بعد سبع سنين، ومن ههنا قال علي رضي الله عنه: صليت قبل الناس بسبع سنين والسابقون من الأنصار هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا ستة في العقبة الأولى وقيل: سبعة واثني عشر في العقبة الثانية والسبعون في العقبة الثالثة كما سنذكر، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة ومصعب بن عمير يعلمهم القرآن.فأسلم خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان.

قرأ يعقوب والأنصار بالرفع عطفاً على قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ وهي قراءة أبي أخرجها ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي والحاكم وأبو الشيخ عن أسامة ومحمد بن إبراهيم التيمي ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[1].

قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين. وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة، قلت: ويمكن أن يكون المراد من السابقين المقربين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٣] يعني من الصحابة والتابعين وأتباعهم فإنهم الأولون من هذه الأمة وقليل من الآخرين أي: آخر هذه الأمة يعني بعد الألف وهم أرباب كمالات النبوة فإنهم كثيرون في الصدر الأول، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه الصحابة كلهم كانوا من أرباب كمالات النبوة وأكثر التابعين وبعض من أتباع التابعين، وقيل: بعد الألف من الهجرة قلت: فعلى هذا قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ بيان للسابقين الأولين وليست كلمة من للتبعيض ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يشتمل السابقين الآخرين وأصحاب اليمين الذين هم ثلة ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الواقعة: ١٣] من الصدر الأول ومن بعدهم وثلة من الآخرين إلى ما بعد الألف إلى يوم القيامة، وقال عطاء الذين اتبعوهم بإحسان هم الذين يذكرون الصحابة بالترحم والدعاء، قال أبو صخر حميد بن زياد أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ فقال جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم وسيئهم فقلت له: من أين تقول هذا؟ قال: اقرأ قوله

(١) وعن حبيب الشهيد عن عمر بن عامر الأنصاري أن عمر بن الخطاب قرأ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان فرفع الأنصار ولم يلحق الواو في الذين فقال له زيد بن ثابت والذين فقال الذين فقال زيد أمير المؤمنين أعلم فقال ايتوني بأبي بن كعب فأتاه فسأله عن ذلك فقال والذين فقال فنعم إذا فتابع أبيا ـ ١٢ ـ.

تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ شرط في التابعين شريطة وهو أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة، قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب قلت: وأولى بالاحتجاج على كون جميع الصحابة في الجنة قوله تعالى ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠] فإنه صريح في أن جميع الصحابة أولهم وآخرهم وعدهم الله تعالى الحسنى يعني الجنة وقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري، وقال رسول الله ﷺ: «لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني»(٢) رواه الترمذي عن جابر وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة»(٣) رواه الترمذي من حديث بريدة وقال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم»(٤) رواه رزين من حديث عمر بن الخطاب.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ رباً وعن الإسلام ديناً ومحمد رسولاً ونبياً بما ألقى الله حبه في قلوبهم وبما نالوا من نعم الدنيوية والدينية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ قرأ ابن كثير من تحتها كما هو في سائر المواضع وكذلك في مصاحف أهل مكة والباقون بحذف من ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ وهم من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، أخرجه ابن المنذر عن عكرمة كان منازلهم حول المدينة وكون بعضهم منافقين كما يدل عليه من التبعيضية لا ينافي ما مر من الأحاديث في مناقب غفار وأسلم وأشجع وغيرها ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يعني من الأوس والخزرج عطف على ممن حولكم وقوله تعالى ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ صفة للمنافقين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر أو كلام مبتدأ بيان لتمرنهم في النفاق، وجاز أن يكون الظرف خبر المحذوف وجملة مردوا صفة لمبتدأ محذوف تقديره ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أي: مرنوا وثبتوا عليه يقال تمرد فلان على ربه أي: عتى ومرد على معصيته أي: مرن وثبت عليها واعتادها ومنه المريد والمارد، قال: ابن إسحاق: أي لجوا فيه وأبوا غيره وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا في القاموس مرد كنصر وكرم مرودا ومرادة فهو مريد ومارد ومتمرد أقدم وعتا أو هو يبلغ الغاية التي يخرج إليها من جملة ما عليها ذلك الصنف ومرد على الشيء مرن واستمر، وقال بعض أهل اللغة: المارد

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢١، ٢٢٢، وأبو داود في السنة باب ١٠، والترمذي في المناقب باب ٥٨، وابن ماجه في المقدمة باب ١١، وأحمد في المسند ٣/ ١١، ٥٤.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٥٦. (٣) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٥٨.

(٤) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ١٤٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٢٣.

المتعري من الخيرات ومردوا على النفاق يعني تعروا عن الخير وهم على النفاق.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ منافقاً يعني لا تعرفهم يا محمد بصفة النفاق مع كمال فطنتك وصدق فراستك فهو تقرير لمهارتهم وتوقيهم في تحامي مواقع التهم إلى حد خفي عليك ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ نطلع على سرائرهم إن قدروا إن لبسوا عليك فلا يقدرون أن يلبسوا علينا ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال الكلبي والسدي قام النبي ﷺ خطيباً يوم الجمعة، فقال: اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج ناساً من المسجد وفضحهم فهذا هو العذاب الأول والثاني عذاب القبر، وقال مجاهد الأول القتل والسبي والثاني عذاب القبر وعنه رواية أخرى عذبوا بالجوع مرتين، وقال قتادة الدبيلة في الدنيا وعذاب القبر، وقال ابن زيد الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا والأخرى عذاب القبر، وعن ابن عباس الأولى إقامة الحدود عليهم والأخرى عذاب القبر وقال ابن إسحاق هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير رغبة فيه ثم عذاب القبر، وقيل: أحدهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والأخرى عذاب القبر، وقيل: الأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار والأخرى إحراقهم بنار جهنم يعني في القبر، قلت: وملخص الأقوال إنهم يعذبون مرتين مرة في الدنيا بأي نوع من الأنواع المذكورة ومرة في القبور ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب جهنم يخلدون فيه ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ معطوف على قوله منافقون أو على محذوف موصوف مردوا يعني ممن حولكم من الأعراب قوم آخرون أو من أهل المدينة قوم آخرون ليسوا بمنافقين بل صفتهم أنهم، ﴿اعْتَرَفُوا﴾ أقروا ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني: بتخلفهم من غزوة تبوك بلا عذر وجاز أن يكون آخرون مبتدأ خبره ﴿خَلَطُوا﴾ يعني وقوم آخرون غير منافقين خلطوا ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ من الإيمان والصلاة والجهاد مع رسول الله ﷺ غير مرة وإظهار الندم والاعتراف بالذنب بعد افتراقهم إياه ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو التخلف عن الغزو وموافقة أهل النفاق والواو بمعنى الباء كما يقال بعت الشاة شاة ودرهماً أو التقدير خلطوا عملاً صالحاً بالسيىء حيث خلطوا الإيمان بترك امتثال أمر رسول الله ﷺ في النفر إلى الجهاد وآخر سيئاً بالصالح حيث خلطوا التخلف عن الجهاد بالندم والتوبة ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله اعترفوا بذنوبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس والبيهقي عن سعيد بن المسيب في هذه الآية قال ابن عباس: كانوا عشرة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك منهم أبو لبابة فلما قفل رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم فلما رآهم رسول الله ﷺ، قال: من هؤلاء الموثوقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله لا يطلقون أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم وقد اعترفوا بذنوبهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى

هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسملين» فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقنا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وعسى من الله تعالى واجب فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إليهم فأطلقهم وعذرهم، وقال ابن المسيب فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي لبابة ليطلقه فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فأطلقه بيده فجاؤوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم» فأنزل الله عز وجل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ يعني كفارة لذنوبهم، وقيل: هو الزكاة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب التاء للخطاب أو لغيبة المؤنث فإنه صفة لصدقة والتاء في ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ للخطاب البتة أي: تنمي حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين، وكذا أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه، وأخرج هذا القدر عن سعيد بن جبير والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم، قال البغوي: وروى عطية عن ابن عباس كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة وأخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: غزا رسول الله ﷺ فتخلف أبو لبابة وخمسة معه ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلكة وقالوا: نحن في الظلال والطمأنية مع النساء ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو يطلقها ففعلوا وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا الحديث، وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت في سبعة أربعة منهم ربطوا أنفسهم بالسواري وهم أبو لبابة ومرداس وأوس وجذام، وأخرج أبو الشيخ وابن مندة في الصحابة من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ أبو لبابة وأوس بن جذام وثعلبة بن وديعة وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية فجاء أبو لبابة وثعلبة فربطوا أنفسهم بالسواري وجاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله خذها هذا الذي حبسنا عنك فقال: لا أحلهم حتى يكون الله تعالى يحلهم فنزل ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية إسناده قوي، قال البغوي: فاتفقت الروايات أن أحدهم أبو لبابة وقال قوم نزلت في أبي لبابة خاصة، قال البغوي: واختلفوا في ذنبه؟ قال مجاهد نزلت حين قال: لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه وقد ذكرنا القصة في سورة الأنفال في تفسيره قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ٢٧] الآية وكذا زعم ابن إسحاق أن ارتباطه كان في وقعة بني قريظة قاله البيهقي، وقال الزهري نزلت في تخلفه عن غزوة تبوك قلت: لعله ربط نفسه في الوقعتين جميعاً ويدل عليه ما ذكر عن ابن عباس وسعيد بن المسيب، وأخرج ابن مردويه بسند فيه الواقدي عن أم سلمة أن توبة أبي لبابة نزلت في بيتي فسمعت رسول الله ﷺ يضحك في السحر فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: تيب على أبي لبابة فقلت: أؤذنه بذلك قال: ما شئت فقمت على باب الحجرة وذلك قبل أن يضرب الحجاب فقلت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس ليطلقوه

فقال: حتى يأتي رسول الله ﷺ فيكون هو الذي يطلقني فلما خرج إلى الصبح أطلقه فنزلت ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ﴾ الآية وهذا الحديث يدل على أن ذنبه ما مر في قصة بني قريظة لأن غزوة تبوك كان بعد نزول الحجاب بخلاف وقعة قريظة فالأولى أن يقال بتعدد الارتباط في القصتين جميعاً لصحة الروايتين جميعاً، ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: ادع لهم واستغفر.

قال البغوي: واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة؟ فقال بعضهم: يجب، وقال بعضهم يستحب وقال بعضهم: يجب في الصدقة المفروضة ويستحب في التطوع وقيل: يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي، روى البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: «اللهم صل عليهم» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»(١) واعلم أن الصلاة في اللغة الدعاء والرحمة والاستغفار وحسن الثناء من الله على رسوله كذا في القاموس فإذا أسند إلى العباد يراد بها الدعاء والاستغفار، وهو المراد بهذه الآية وبما قال رسول الله ﷺ: «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليأكل وإن كان صائماً فليصل»(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة أي: ليدعوا، وفي حديث جابر قالت امرأة: يا رسول الله صل على زوجي ففعل أخرجه أحمد وصححه ابن حبان، وإذا أسند إلى الله تعالى يراد به الرحمة والثناء الحسن وهو المراد بقوله ﷺ: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى» وقوله ﷺ: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة»(٣) رواه أبو داود والنسائي عن قيس بن سعد وسنده جيد، وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن صلى الله عليك وعلى جسدك»(٤) فباعتبار المعنى اللغوي ونظراً إلى ما ذكرنا من الأحاديث قال يحيى بن يحيى لا بأس بالصلاة على غير الأنبياء يعني الدعاء بهذا اللفظ المخصوص لمن أهل الشرع من المحدثين والفقهاء اصطلحوا على اختصاص لفظ الصلاة بالأنبياء أو بنبينا ﷺ إلا تبعاً وبناء على هذا الاصطلاح قال مالك: أكره الصلاة على غير الأنبياء، قال عياض: هذا قول مالك وسفيان وهو قول المتكلمين والفقهاء قالوا: يذكر غير الأنبياء بالرضى والغفران والرحمة وأما الصلاة على غير الأنبياء فلم يكن من المعروف وإنما أحدثت في دولة بني هاشم يعني الخلفاء العباسية وقال أبو حنيفة يجوز على غير الأنبياء تبعاً ولا يجوز استقلالاً وبه قال جماعة. وجه هذا القول إن الصلاة لما وضعت في اصطلاح أهل الشرع لتعظيم الأنبياء خصوصاً لتعظيم نبينا محمد ﷺ لا يجوز إطلاقها لغير الأنبياء لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام حديث ١٥٩، والترمذي في الصوم باب ٦٣، وابن ماجه في الصيام باب ٤٧، والدارمي في الصوم باب ٣١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٢، ٥٠٧.

(٣) أخرجه أبو داود حديث ٥١٤٧، وأحمد في المسند ٣/ ٤٢١.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٥٥.

ومن ههنا قال ابن عباس: ما أعلم الصلاة ينبغي من أحد على أحد إلا على النبي ﷺ» رواه ابن أبي شيبة من طريق عثمان بن حكيم عن عكرمة عنه وهذا سند صحيح.

قال البيهقي يحمل قول ابن عباس بالمنع على ما إذا كان على وجه التعظيم وأما إذا كان على وجه الدعاء فلا بأس به، وقال ابن القيم: المختار أن يصلي على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذريته وأهل الطاعة على سبيل الإجمال ويكره في غير الأنبياء لشخص معروف بحيث يصير شعاراً ولا سيما إذا ترك في حق مثله أو أفضل منه كما يفعله الرافضة كذا قال: الحافظ ابن حجر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] وكذا قرأ حمزة والكسائي في المؤمنين بالتوحيد ونصب التاء هنا والباقون فيهن بالجمع وكسر التاء هنا ولا خلاف في رفع التاء في هود ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم وقال أبو عبيدة تثبيت لقلوبهم وطمأنينة لهم بأن الله قد قبل توبتهم، قلت: أرباب القلوب الصافية إذا صدر من أحدهم مصيبة تغشي ظلماتها قلبه فيحصل له حالة كما يحصل الخفقان بصعود إلا تجرة من المعدة إلى القلب فإذا استغفر له رسول الله ﷺ وغفر الله له زال تلك الظلمات وحصلت له طمأنينة وسكون ومن ههنا قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم بذنوبهم وبدعاء الرسول الله ﷺ لهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم على ما صدر منهم.

قال البغوي: لما نزلت توبة لهؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ تعدية بعن لتضمنه معنى التجاوز ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ولا يصعد إلى السماء إلا الطيب ـ إلا كأنما يضعها في يد الرحمٰن فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى أن اللقمة ليأتي يوم القيامة وأنها كمثل الجبل العظيم ثم قرأ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ رواه الشافعي وفي الصحيحين بلفظ «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل»[1] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهم أو لجميع الناس، ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ما شئتم ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفى عليه شيء من الخير والشر ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى يظهر ما أخفيتم على رسوله فيطلع هو عليه والمؤمنين، قال مجاهد: هذا وعيد لهم قبل رؤيته النبي ﷺ بإعلام الله تعالى إياه ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح والبغض لأهل الفساد ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥ وَءَاخَرُونَ﴾ من أهل المدينة من المتخلفين

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٨، والتوحيد باب ٢٣، ومسلم في الزكاة حديث ٦٣، ٦٤.

﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر بغير همز والباقون مرجئون بالهمز وهما لغتان من أرجأته إذا أخرته ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يعني مؤخرون لأمر الله في شأنهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ فإن الله تعالى يعذب على الصغيرة إن شاء ويغفر الكبائر توبة إن شاء لا يجب عليه شيء فلا بد للعباد من الخوف والرجاء فأما التي هي للشك راجعة إلى العباد ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما يفعل بهم والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع الذين لم يوثقوا أنفسهم بالسواري من العشرة المتخلفة أَمَرَ رسول الله ﷺ أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموا هم فيما رأوا ذلك أخلصوا بنياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله أخرجه الشيخان من حديث كعب بن مالك مطولاً وسنذكر قصتهم والله أعلم.

روى ابن إسحاق عن أبي رهم[1] كلثوم بن الحصين الغفاري وكان ممن بايع تحت الشجرة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق آخر عن ابن عباس وابن المنذر عن سعيد بن جبير ومحمد بن عمر عن يزيد بن رومان أن بني عمرو بن عوف بنوا مسجداً فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فيصلي فيه فلما رأى ذلك ناس من بني غنم بن عوف حسدوهم فقالوا نبني نحن أيضاً مسجداً كما بنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: الفاسق قبل خروجه إلى الشام ابنوا مسجدكم واشهدوا فيه بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه فكانوا يرصدون قدوم أبي عامر الفاسق، وكان قد خرج من المدينة محار بالله تعالى ولرسوله ﷺ فلما فرغوا من مسجدهم أرادوا أن يصلي فيه رسول الله ﷺ ليروج لهم ما أرادوا من الفساد والكفر والعناد، فعصم الله تعالى رسوله ﷺ فأتى جماعة منهم رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، قال: إني على جناح[2] سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا لكم فيه فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ونزل بذي أوان مكان بينه وبين المدينة ساعة أنزل الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا﴾ قرأ أهل المدينة والشام بلا واو وكذلك في مصاحفهم والباقون بالواو عطفاً على وآخرون مرجون، أو مبتدأ خبره محذوف أي: ممن وضعنا الذين اتخذوا مسجداً أو منصوب على الاختصاص ﴿ضِرَارٗا﴾ أي: مضارة للمؤمنين، قال: ابن إسحاق وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً حذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره خرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني أمية بن زيد

(١) بضم الراء وسكون الهاء.
(٢) أي مفارقة الأوطان.

ومعتب بن قشير من بني صبيعة بن زيد وأبو حبيبة بن الأزعر من بني صبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف، وحارثة بن عامر وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة ونبتل بن الحارث من بني ضبيعة ونجاد بن عثمان من بني ضبيعة ووديعة بن ثابت ورجل يقال بخرج بنوا هذا المسجد يضارون به مسجد قباء ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله ورسوله ﷺ ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم مجمع بن حارثة ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي: انتظاراً وإعداداً ﴿لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، قال البغوي: وهو أبو عامر الراهب، وكان بني عمرو بن عوف وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئت به قال: «جئت بالحنيفة دين إبراهيم» قال أبو عامر: فأنا عليها فقال النبي ﷺ: «إنك لست عليها»، قال: بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال النبي ﷺ: «ما فعلت ولكن جئت بيضاء نقية» فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً، فقال النبي ﷺ: «آمين» وسماه أبا عامر الفاسق، فلما كان يوم أُحد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونا إلا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فات بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء.

﴿مِن قَبْلُ﴾ بناءه متعلق بحارب أو ما تخذوا أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف لأن بناءهم كان قبل غزوة تبوك الأول أظهر ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجداً لضرار ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما أردنا ببنائه إلا الخصلة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الرفق بالمسلمين في المطر والحر والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن المصير إلى مسجد الرسول الله ﷺ، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بخرج فبنوا مسجد النفاق فقال رسول الله ﷺ ليخرج ويلك ما أردت إلى ما أرى، قال يا رسول الله: والله ما أردت إلا الحسني فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم وحلفهم ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة كذا قال ابن عباس، قال ابن النجار: هذا المسجد بناه المنافقون مضاهاة لمسجد قباء وكانوا يجتمعون فيه ويعيؤون النبي ﷺ ويستهزئون به فلما نزلت هذه الآية وهو ﷺ بذي أوان، قال ابن إسحاق فيما روى عن الزهري عن أبي رُهم دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أخا عاصم بن عدي، وزاد البغوي: وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة ولم يذكر عاصماً، وزاد الذهبي في التجريد سويد بن عباس الأنصاري فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدموه وحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا سالم بن عوف فقال مالك لرفيقيه انتظروني حتى أخرج

إليكما فدخل على أهله وأخذ سعفاً[١] من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجوا يشتدون حتى أتوا المسجد بين المغرب والعشاء وفيه أهله فحرقوه وهدموه حتى وضعوه بالأرض وتفرق عنه أصحابه وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة يلقى فيه الجيف والنتن والقمامة، ومات أبو عامر الفاسق بالشام طريداً وحيداً غريباً.

وذكر محمد بن يوسف الصالحي أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عرض على عاصم بن عدي المسجد ليتخذ داراً فقال: يا رسول الله ما كنت لأتخذ مسجداً قد أنزل فيه، أنزل داراً ولكن أعطه ثابت بن أقرم فإنه لا منزل له فأعطاه رسول الله ﷺ ثابت بن أقرم فلم يولد له في ذلك البيت مولود قط ولم ينفق فيه حمام قط ولم تحضن فيه دجاجة قط، قال البغوي: روي أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة قيامهم في مسجدهم فقال ولا نعمت عين أليس بإمام مسجد الضرار، فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين لا تعجل علي فوالله لقد صليت فيه وإني لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون فصليت ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ولا أعلم ما في أنفسهم، فعذره عمر وصدقة وأمره بالصلاة في مسجد قباء ﴿لَّمَسۡجِدٌ﴾ اللام لام الابتداء وقيل: لام القسم ﴿أُسِّسَ﴾ أي بني أصله ﴿عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ من أيام بنائه ووضع أساسه أو من أول يوم حل النبي ﷺ بدار الهجرة كذا قال السهيلي ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ قال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري هو مسجد المدينة لما روى مسلم وأحمد وابن أبي شيبة والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال: إني دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله ﷺ: أي المسجد الذي أسس على التقوى؟ فأخذ كفاً من حصباء فضرب الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا لمسجد المدينة»[٢] وأخرج الطبراني والضياء المقدسي في المختارة عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: «هو مسجدي هذا» وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال: المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ، وقد ورد في فضل هذا المسجد ما رواه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي»[٣] رواه البغوي بلفظ «ما بين

---

(١) أغصان النخيل إذا يبست.

(٢) أخرجه بنحوه، أحمد في المسند ٣/٨، ٢٣، ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في مسجد مكة باب ٥، والمدينة باب ١٢، والرقاق باب ٥٣، والاعتصام باب ١٦، والترمذي في المناقب باب ٦٧، والنسائي في المساجد باب ٧، ومالك في القبلة حديث ١٠، ١١، وأحمد في المسند ٢/٢٣٦، ٣٧٦، ٣/٤، ٣٨٩، ٤/٣٩، ٤٠.

قبري ومنبري» وروى الشيخان وأحمد والنسائي عن عبد الله بن زيد المازني «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وكذا روى الترمذي عن علي وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»(١) رواه وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء وهو رواية عطية عن ابن عباس وهو قول عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء حين قدم المدينة مهاجراً من الاثنين إلى الجمعة، أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وأبو الشيخ عن الضحاك، وروى البخاري عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: «كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً وكان عبد الله يفعله، وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ فيصلي فيه ركعتين»(٢) قال الداودي وغيره وليس هذا اختلافاً لأن كلاً منهما أسس على التقوى كذا قال: السهيلي والحافظ ابن حجر.

قلت: يعني مورد نزول الآية وإن كان خاصاً فالعبرة لعموم اللفظ فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة من ألفاظ العموم يعني كل مسجد أسس على التقوى أحق أن تقوم فيه من غيره لكن الظاهر من سياق الآية أن مورد الآية هو مسجد قباء فإن مسجد الضرار كان للمضاراة مسجد قباء وبدليل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ من الأحداث والجنايات والنجاسات أو من المعاصي ورذائل الأخلاق ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أصله للمتطهرين أدغم التاء في الطاء، روى البغوي بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية وكذا روى الترمذي عنه، وروى ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال رسول الله ﷺ: «أمؤمنون أنتم»؟ فسكتوا فأعادها فقال عمر إنهم مؤمنون وأنا معهم فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتشكرون على الرخاء»؟ قالوا: نعم، قال عليه السلام: «مؤمنون ورب الكعبة» فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط» فقالوا: يا رسول الله ﷺ نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ وأخرج الطبراني في «**الأوسط**» صدر الحديث إلى قوله ورب الكعبة، وأخرج عمر بن شيبة في أخبار المدينة من طريق الوليد بن أبي سندر الأسلمي عن يحيى بن سهل الأنصاري عن أبيه أن هذه الآية نزلت في أهل قباء كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط،

(١) أخرجه مسلم في الحج حديث ٥٠٥ ـ ٥١٠، والترمذي في الصلاة باب ١٢٦، والنسائي في المساجد باب ٤، ٧، والحج باب ١٢٢، ومالك في القبلة حديث ٩.

(٢) أخرجه البخاري في مسجد مكة باب ٢، ٣، ٤.

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال: أحدث قوم الوضوء بالماء من أهل قباء فنزلت فيهم ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾، وروى ابن خزيمة في «**صحيحه**» عن عويمر بن ساعدة أنه ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم هذا فما الطهور الذي تطهرون به؟» قالوا: والله يا رسول الله لا نعلم شيئاً إنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، وفي حديث فقالوا: نتبع الحجارة الماء فقال: «هو ذاك فعليكموه».

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ سؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ يعني بنيان دينه أو بنيان ما بناه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ على قاعدة محكمة هي التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ قرأ نافع وابن عامر أسس في الموضعين بضم الهمز وكسر السين على البناء للمفعول وبنيانه بالرفع، والباقون بفتح الهمز والسين على البناء للفاعل والنصب ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بسكون الراء والباقون بضم الراء وهما لغتان ﴿هَارٍ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة وحفص وهشام والنقاس عن الأخفش بالفتح وورش بين اللفظين والباقون بالإمالة، يعني على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها والشفا الجرف والشفير وجرف الوادي جانبه الذي ينحفر بالماء وتجرفهَ السيول وتذهب به، والهار الهائر وهو المنصدع الذي أشفى على الهدم والسقوط وأصل هار هور فعل قصر عن فاعل كخلف من خالف نقلب الواو الفاء لتحركها وانفتاح ما قبلها، وقال البغوي: أصله هائر ثم فقيل: هار مثل شاك وعاق وعائق وقيل: هو من هار يهار إذا انهدم ومعناه الساقط الذي يتدامى بعضه في أثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ أي: سقط بالباقي ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ والمعنى أفمن أسس بنيانه على قاعدة محكمة وهو تقوى الله ورضوانه خيراً من أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك، فجعل شفا جرف مجازاً عن الشرك والنفاق الذي هو ضد التقوى على سبيل الاستعارة ثم أثبته الانهيار الذي هو لازم للجرف على سبيل الترشيح ليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فإنها ربه ذلك الجرف فهوى في قعرها، قال ابن عباس: يريد صيّرهم نفاقهم إلى النار، قال البغوي: يريد الله تعالى أن بناء هذا المسجد للضرار كالبناء على شفير جهنم ينهور بأهلها فيها، قال محمد بن يوسف الصالحي: قال ابن عطية: روي عن ابن عمر أنه قال: المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، والمراد بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ هو مسجد قباء وأما البنيان الذي أسس على شفا جرف هار فهو مسجد الضرار بالإجماع ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاح ونجاة، روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة وابن المنذر عن جريج رحمهم الله أنه ذكر لنا أنه حضر في مسجد الضرار بقعة فأبصروا الدخان يخرج منها، وقال البغوي: قال جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى

بَنَوۡا﴾ أي: بناءهم الذي بنوه، مصدر أريد به المفعول وليس يجمع ولذلك قد يدخله التاء ووصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رِيبَةً﴾ أي: شكاً ونفاقاً ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ يعني أن بنيانهم هذا لا يزال سبباً لشكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك وهم لا يزالون يحسبون أنهم كانوا في بنيانه محسنين كما حبب العجل إلى قوم موسى كذا قال ابن عباس: .

وقال الكلبي: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه، وقال السدي: لا يزال هدم بنيانهم ريبة أي: غيظاً في قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر وحفص وحمزة بفتح التاء والباقون بضمها والاستثناء مفرغ من أعم الأزمنة وقرأ يعقوب إلى أن على الغاية وتقطع بضم التاء والتخفيف المجرد يعني في كل زمان الأزمان تقطع ﴿قُلُوبُهُمۡ﴾ أو لا يزال إلى زمان قطعها يعني إلى وقت لا يبقى لقلوبهم قابلية الإدراك والإضمار وهو في غاية المبالغة، وقيل: المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار قال: الضحاك وقتادة لا يزالون في شك منه إلى أن يموتوا فيستيقظوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنائهم والله أعلم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾

قال أهل السير: خرج رسول الله ﷺ يعني من مكة في موسم الحج في السنة الحادية

عشر من البعثة فعرض نفسه على قبائل العرب فبينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا القرآن، ومن صنع الله أن اليهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب والأوس والخزرج أكثر منهم وكانوا أهل أوثان فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالوا: إن نبياً سيبعث الآن قد أظل زمانه فيتبعه فنقتلكم معه، فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت فقال بعضهم لبعض: إنه نبي لا يسبقنا اليهود إليه فأجابوه وأسلم منهم ستة نفر كلهم من الخزرج وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث أمه عفراء ورافع بن مالك وقطبة بن عامر بن جديدة وعقبة بن عامر بن نابي وجابر بن عبد الله بن رباب وقيل: عبادة بن الصامت مكان جابر رضي الله عنهم ومن قال: أسلم سبعة نفر فلعله عدهما جميعاً فقال لهم النبي ﷺ: «تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي» فقالوا: يا رسول الله إنما كان يوم بعاث عام الأول يوم من أيامنا أقتتلنا به فإن تقدم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع فدعنا نرجع إلى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا فعسى الله أن يجمعهم عليك فإن اتبعوك فلا أحد أعز منك وموعدك الموسم من العام القابل وانصرفوا إلى المدينة ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، فلما كان العام القابل وهي الثانية عشر من البعثة لقيه اثنا عشر رجلاً وقيل: أحد عشر رجلاً وهي العقبة الثانية فيهم خمسة من المذكورين غير جابر والسبعة معاذ بن الحارث أخو عوف المذكور وذكوان وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة بن نضلة رضي الله عنهم وهم من الخزرج ومن الأوس رجلان أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل وعويمر بن ساعدة فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق إلخ ورجعوا إلى المدينة، وكان أسعد بن زرارة رضي الله عنه يجمع بالمدينة من أسلم وكتبت الأوس والخزرج إلى النبي ﷺ ابعث إلينا من يقرأنا القرآن فبعث إليهم مصعب بن عمير وكانوا أربعين رجلاً فأسلم على يدي مصعب خلق كثير وأسلم سعد بن معاذ وأسيد بن خضير وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد الرجال والنساء ثم قدم في العقبة الثالثة سنة الثالثة عشر من البعثة فبايع النبي ﷺ في أوسط أيام التشريق منهم سبعون رجلاً وامرأتان وقيل: ثلاث وسبعون وامرأتان، وقال الحاكم خمسة وسبعون نفساً أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي، وكذا ذكر البغوي أنه قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: «اشترط لربي أن تعبدوه فلا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ قرأ الأعمش بالجنة مثل الله تعالى إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم بالشراء قال أهل السير: فأول من ضرب يده على يده ﷺ البراء بن معرور وأبو الهيثم أو أسعد على أنهم يمنعونه مما يمنعون

منه نساءهم وأبناءهم وعلى حرب الأحمر والأسود، فهذه أول آية في القتال ونزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] الآية، ولما تمت بيعة هؤلاء ليلة العقبة وكانت سراً عن كفار قريش مكة أمر رسول الله ﷺ من كان معه بالهجرة إلى المدينة وأقام بمكة ينتظر الأذن فأول من هاجر أبو سلمة بن عبد الأسد قبل بيعة العقبة الثالثة بسنة قدم من الحبشة إلى مكة فأذاه أهلها، وبلغه إسلام الأنصار فخرج إليهم ثم عامر بن ربيعة وامرأته ليلى ثم عبد الله بن جحش ثم المسلمون أرسالاً ثم عمر بن الخطاب وأخوه زيد وعباس بن ربيعة في عشرين راكباً فنزلوا في العوالي، ثم خرج عثمان بن عفان وكان الصديق رضي الله عنه كثيراً ما يستأذن في الهجرة فيقول النبي ﷺ لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً فيطمع أن يكون هو ثم اجتمع قريش في دار الندوة، وقد مر قصة مكرهم في سورة الأنفال وقصة خروج النبي ﷺ مهاجراً فيها وفي هذه السورة فهذه الآية مكية قال الله تعالى: ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول على المبني للفاعل والواو لا يوجب الترتيب وفعل البعض يسند إلى الكل، والباقون بتقديم المبني للمفعول والكلام استئناف بيان ما لأجله الشراء وقيل: يقاتلون بمعنى الأمر ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ أي: على الشراء مصدر مؤكد لفعل محذوف أي: وعد الله لهم وعداً أو مصدر لقوله اشترى من غير لفظه فإنه في معنى الوعد ﴿حَقًّا﴾ صفة لوعداً ومصدر لفعل محذوف أي حق حقاً ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ متعلق بفعل عامل في وعداً وفيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد ووعدوا عليه بالجنة ﴿وَمَنْ﴾ أي: لا أحد ﴿أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فإن خلف الوعد قبيح يستحيل على الله تعالى ووفاه كرم ولأحداً أكرم منه مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أي: فافرحوا غاية الفرح أيها المؤمنون المجاهدون فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فإنه لا صفقة رابحة حيث استبدلتم الحقير الفاني بالشريف الباقي، قال عمر رضي الله عنه: إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال قتادة: ثامنهم فأغلاهم، وقال الحسن اسمعوا إلى بيعة رابحة بايع الله بها كل مؤمن، وعنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البيع ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ النيل غاية المطلوب.

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ يعني الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق مرفوع على المدح خبر مبتدأ محذوف أي: هم التائبون والمراد بهم المؤمنون المذكورون فإنهم بايعوا النبي ﷺ على امتثال ما يأمرهم حيث قال الله تعالى في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] فهم الجامعون لهذه الخصال الحميدة، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين ترك الجهاد عند القدرة وإلا فتراض كذا قال الزجاج: كأنه وعد بالجنة لجميع المؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥].

وجاز أن يكون خبره ما بعده يعني التائبون عن الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ لله وحده غير مشركين به شركاً جلياً ولا خفياً ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ لله تعالى في

السراء والضراء قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء»[١] رواه الطبراني والحاكم والبيهقي في «**شعب الإيمان**» بسند صحيح عن ابن عباس ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ أي: الصائمون لما أخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين؟ قال: «الصائمون»[٢] وكذا أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: كلما ذكر الله في القرآن السائحين فهم الصائمون، وكذا ذكر البغوي: قول ابن مسعود، وأخرج ابن مردويه عن عائشة موقوفاً قالت: سياحة هذه الآية الصيام، قال: سفيان بن عيينة: إنما سمى الصائم سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي»[٣] الحديث متفق عليه، وقال عطاء السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله كما روى ابن ماجه والحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»[٤] وقال البغوي: روي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم يعني الذين يسيحون في الأرض لطلب العلم عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم وإن العالم يستغفر له من في السمٰوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٥] رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ هم المصلون ذكرهم باللفظين كان كرر ذكره للدلالة على فضل الصلاة على سائر العبادات عن ابن مسعود قال: سألت النبي ﷺ: «أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة لوقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[٦]

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٥٠٢، والطبراني في المعجم الصغير ١/١٠٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٩٥.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الصوم باب ٢، والتوحيد باب ٣٥، ٥٠، ومسلم في الصيام حديث ١٦٠، ١٦٢ ـ ١٦٤.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٦.

(٥) أخرجه أبو داود في العلم باب ١، والترمذي في العلم باب ١٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/٢٥٢، ٣٢٥، ٤٠٧.

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٨، ومسلم في الإيمان حديث ١٣٩.

متفق عليه وقال رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين»[١] رواه أبو نعيم عن الفضل بن دكين وقال: «الصلاة نور المؤمن»[٢] رواه ابن عساكر عن أنس، وقال: «الصلاة قربان كل تقي»[٣] رواه القضاعي عن علي، وقال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[٤] رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعصية وقيل: المعروف السنة والمنكر البدعة، ذكر العاطف بينهما للدلالة على أن مجموعهما خصلة واحدة ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: فيما بينه وبين الله تعالى من الحقائق والشرائع.

قيل: أورد العاطف ههنا للتنبيه على أن ما قبله تفصيل الفضائل وهذا إجمالها، قلت: لعل الله سبحانه أورد العاطف ههنا لأن الله سبحانه ذكر أولاً إتيان الحسنات المذكورات ثم ذكر محافظة حد كل منها بلا زيادة من قبل نفسه رهبانيته ابتدعوها وبلا نقصان صورة ولا معنى فكأن الأشياء المذكورة قبلها مجموعها شيء واحد يعبر عنها بإتيان الشرائع وهذا شيء آخر كناية عن الإخلاص والحضور التام المستفاد من صحبة أرباب القلوب فإن محافظة الحدود لا يتصور إلا بحضور تام دائم والله أعلم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الموصوفين بتلك الفضائل وضع المؤمنين موضع ضميرهم للدلالة على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للتعظيم كأنه قيل بشرهم بما لا يدركه الأفهام ولا يحبط الكلام ولم يسمعه الأذان والله أعلم.

روى الشيخان في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم قل لا إلٰه إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب، وزاد في رواية وأبى أن يقول: لا إلٰه إلا الله فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفر لك ما لم أنه عنك»[٥] فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣] بأن ماتوا على الكفر فيه دليل على جواز الاستغفار لإحيائهم فإنه طلب

---

(١) أخرجه ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ٤، والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٠٤.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٣٨٥.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٥٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٨٩١٧، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٧.

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢١٥، والنسائي في التطبيق باب ٧٨. والترمذي في الدعوات باب ١١٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢١.

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٨١، ومناقب الأنصار باب ٤٠، ومسلم في الإيمان حديث ٣٩.

لتوفيقهم للإيمان، وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة» قال: لولا أن يعير قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينيك[١] فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمه فقال: «لعله ينفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح[٢] من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»[٣] هذا الحديث المذكور يدل على أن الآية نزلت بمكة في أبي طالب. وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية[٤]، ولعل هذه القصة قارنت قصة موت أبي طالب فنزلت الآية فيهما.

وما يدل على أن الآية نزلت في آمنة أم النبي ﷺ وعبد الله أبيه فلا يصلح منها شيء وليس شيء منها ما يصلح أن يعارض ما ذكرنا في القوة فيجب ردها منها ما رواه الحاكم والبيهقي في الدلائل من طريق أيوب بن هانىء عن مسروق عن ابن مسعود، قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر وخرجنا معه فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم ارتفع باكياً فبكينا لبكائه ثم أقبل علينا فتلقاه عمر فقال: يا رسول الله ما الذي أبكاك فقد أبكاناها وأفزعنا، فجاء فجلس إلينا فقال: «أفزعكم بكائي»؟ قلنا: نعم، قال: «إن القبر الذي رأيتموني أناجي فيه قبر آمنة بنت وهب وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فاستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي ونزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيتين فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذلك الذي أبكاني»[٥] قال الحاكم هذا حديث صحيح ونعقبه الذهبي في شرح المستدرك وقال أيوب بن هانىء ضعفه ابن معين، ومنها ما أخرج الطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك واعتمر هبط من ثنية عسفان فنزل على قبر أمه فذكر نحو حديث ابن مسعود وفيه ذكر نزول الآية، قال السيوطي إسناده ضعيف لا تعويل عليه.

وقال البغوي قال أبو هريرة وبريدة لما قدم النبي ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية هذه، وكذا أخرج ابن سعد وابن شاهين من حديث بريدة بلفظ: لما فتح رسول الله مكة أتى قبر أمه فجلس فذكر نحوه وفي لفظ عند ابن جرير عن بريدة كما ذكر البغوي، قال ابن سعد في

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٤٢.

(٢) الضحضاح ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين فاستعاره للنار.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٤٠، ومسلم في الإيمان حديث ٣٦٠.

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٩، باب ١٦، والنسائي في الجنائز باب ١٠٢، وأحمد في المسند ١/ ١٣٠.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦٧١٤، والهيثمي في موارد الظمآن ٧٩٢.

الطبقات بعد تخريجه هذا غلط وليس قبرها بمكة وقبرها بالأبواء، وأخرج أحمد وابن مردويه واللفظ له من حديث بريدة قال: كنت مع النبي ﷺ إذ وقفت على عسفان فأبصر قبر أمه فتوضأ وصلى وبكى ثم قال: «إني استأذنت ربي أن أشفعه لها فنهيت» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية هذه قال السيوطي طرق الحديث كلها معلولة، وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري من حكم بصحة حديث ابن مسعود ليس لكونه صحيحاً لذاته بل لوروده من هذه الطرق وقد تأملت فوجدتها كلها معلولة وفي الحديث علة أخرى أنها مخالف لما في الصحيحين أن هذه الآية نزلت بمكة عقب موت أبي طالب وكذا ما ذكر البغوي قول قتادة أنه ﷺ قال: لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية هذه مرسل ليس بصحيح بل ضعيف ومخالف لما في الصحيحين كما ذكرنا فلا يجوز القول بكون أبوي النبي ﷺ مشركين مستندين بهذه الآية.

وقد صنف الشيخ الأجل جلال الدين السيوطي رضي الله عنه رسائل في إثبات إيمان أبوي رسول الله ﷺ وجميع آبائه وأمهاته إلى آدم عليه السلام وخلصت منها رسالة سميتها بتقديس آباء النبي ﷺ فمن شاء فليرجع إليه وهذا المقام لا يسع زيادة التطويل في الكلام. فإن قيل: ما ورد من حديث الصحيحين في قصة موت أبي طالب، قال: أبو جهل: أترغب عن ملة عبد المطلب وقول أبي طالب: أنا على ملة عبد المطلب يدل على كون عبد المطلب مشركاً؟ قلنا لا نسلم ذلك بل كان مؤمناً موحداً وقد ذكر ابن سعد في الطبقات بأسانيده أن عبد المطلب قال لأم أيمن وكانت تحضن رسول الله ﷺ يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة وإن أهل الكتاب يقولون إن ابني هذا نبي هذه الأمة، لكن لما كان هو في زمن الجاهلية جاهلاً بالشرائع وبما جاء به النبي ﷺ وإن كان التوحيد كافياً له في زمن الفترة زعم أبو جهل وأبو طالب أن محمداً ﷺ جاء بشيء منكر وحكماً يكون ملة عبد المطلب مخالفاً لما جاء به النبي ﷺ قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ يعني آزر وكان عماً لإبراهيم عليه السلام وكان إبراهيم ابن تارخ وقد ذكرنا الكلام فيه في سورة الأنعام، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»(١) رواه البخاري، فلا يمكن أن يكون كافر في سلسلة آبائه ﷺ ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ قال بعض المفسرين الضمير المرفوع عائد إلى أبيه والمنصوب إلى إبراهيم يعني أن أباه وعده أن يسلم فقال له إبراهيم: سأستغفر لك يعني إذا أسلمت، والأكثر على أن المرفوع راجع إلى إبراهيم والمنصوب إلى أبيه وذلك أن إبراهيم وعد إياه أن يستغفر له رجاء إسلامه وهو قوله سأستغفر لك ربي يدل على ذلك قراءة من قرأ وعدها أباه بالباء الموحدة، والدليل على أن الوعد كان من إبراهيم وكان الاستغفار في حال كون أبيه مشركاً قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى أن قال:

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٣، ٤١٧.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] فإنه صريح في أن إبراهيم عليه السلام ليس بقدوة في هذه الاستغفار فهو إنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي: لإبراهيم بموت أبيه على الكفر أو بما أوحي إليه بأنه لن يؤمن ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فقطع عن استغفاره، وقيل: فلما تبين له في الآخرة أنه عدو الله تبرأ منه، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»(١) وفي رواية «فتبرأ منه يومئذٍ».

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ الذي يكثر التأوه لكمال خشيته من الله تعالى كذا قال كعب الأحبار، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: آه من النار قبل أن لا ينفع آه وقيل: هو الذي يتأوه من الذنوب وما لهما واحد، وكذا ما قال البغوي: إنه جاء في الحديث الأواه الخاشع المتضرع فإن الخشوع يستلزم التأوه من الذنوب والنار وكذا ما قال عطاء الراجع عن كل ما يكره الله الخائف من النار، وقال ابن مسعود الأواه الدعاء وعن ابن عباس قال: المؤمن التواب، وقال الحسن وقتادة الأواه الرحيم بعباد الله، وقال مجاهد الأواه الموقن وقال عكرمة هو المستيقن بلغة الحبشة، وقال عقبة بن عامر: الأواه كثير الذكر لله تعالى وعن سعيد بن جبير قال: الأواه المسيح وروى عنه الأواه المعلم للخير، وقال النخعي هو الفقيه، وفي القاموس ذكر المعاني المذكورة فقال: الأواه الموقن أو الداعي أو الرحيم أو الفقيه أو المؤمن بالحبشية، وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقاً المتضرع يقيناً ولزوماً للطاعة، قال الزجاج انتظم قول أبي عبيدة جميع ما قيل: في الأواه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: صفوح عمن ناله بمكروه ومن ثم قال لأبيه عند وعيده بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] وقال ابن عباس الحليم السيد، وفي القاموس الحلم بالكسر الإناءة والعقل فهو حليم والجملة لبيان ما حمل إبراهيم على الاستغفار والله أعلم.

قال مقاتل والكلبي: إن قوماً قدموا على النبي ﷺ وأسلموا أو لم يكن الخمر حراماً ولا القبلة مصروفة إلى الكعبة فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضلال فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ أي: يحكم عليهم بالضلال ويسميهم الضالة ويؤاخذهم على فعل ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما يجب اتقاءه من الأعمال فلم يتقوه ويستحقون الإضلال وقيل: فيه بيان عذر لرسول الله ﷺ في قوله لعمه: لأستغفرن

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨.

لك ما لم أنه عنه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قبل النهي، قال مجاهد بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة وبيان لهم في مغصية وطاعة عامة يعني أن الآية نزلت في الاستغفار للمشركين لكن حكمها عام لعموم الصيغة ﴿ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني يعلم حال من فعل جهلاً ومن فعل تمرد أو من يستحق الإضلال ومن لا يستحقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من غيره ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يحفظكم منه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنع عنكم ضرراً يريد بكم فلا ينبغي لكم أن توالوا بالمشركين وتستغفروا لهم وإن كانوا أولي قربى حسبكم ولاية الله ونصرته.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ من إذن المنافقين في التخلف أو المعنى برأهم عن تعلق الذنوب لقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقيل: المراد بعث على التوبة والمعنى ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ وخاصة أصحابة لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١] إذ ما من أحد إلا له مقام يستنقص دونه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة، وفيه إظهار تفضل التوبة بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده، وقيل: افتتح الكلام بالنبي لأنه كان سبب توبتهم فذكره معهم كما ذكر كلمة لله في قوله تعالى لله خمسه وللرسول ولذي القربى ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ حين استغفرهم لغزوة تبوك ﴿فِى سَاعَةِ﴾ أي: وقت ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾ قال البغوي: كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش جيش العسرة أي الشدة لما كانت عليهم عسرة من الظهر والزاد والماء، قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد منهم يعنقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع رسول الله ﷺ على صدقهم ويقينهم، روى أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن عمر بن الخطاب قال: خرجنا إلى تبوك في يوم قيظ شديد فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا سينقطع حتى إذا كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته سينقطع وحتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله عز وجل قد عود لك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال: أتحب ذلك قال: نعم، فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعها حتى جالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر وروى ابن أبي حاتم عن أبي حرزة الأنصاري قال: نزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئاً ثم ارتحل ثم نزل منزلاً آخر وليس معهم ماء فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فصلى ركعتين ثم دعا فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال رجل من الأنصار الآخر من قومه متهم بالنفاق ويحك قد ترى ما رسول الله ﷺ فأمطر الله علينا السماء قال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا

فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ قرأ حفص وحمزة بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أي قلوب بعضهم ولو يرد لليل عن الدين بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف لأجل الشدة التي كانت عليهم قال الكلبي: هَمَّ ناس بالتخلف ثم لحقوه، وقال ابن إسحاق ومحمد عمر: كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ حتى تخلفوا عنه من غير شك ولا ارتياب منهم كعب بُن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة وأبو ذر الغفاري وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم، روى ابن إسحاق عن ابن مسعود قال: لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلف عنه الرجل فيقولون يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: دعوة فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أرى حكم الله فيه حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ بعيره فقال رسول الله ﷺ نحو ذلك وَتَلَوَّمَ أبو ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع إثر رسول الله ﷺ ماشياً.

قال محمد بن عمر كان أبو ذر يقول: أبطأت على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أجل بعيري وكان نضواً[1] أعجف فقلت: أعلفه أياماً ثم ألحق برسول الله ﷺ فعلفته أياماً ثم خرجت فلما كنت بذي المودة أذم بي فتلومت عليه يوماً فلم أر به حركة فأخذت متاعي فحملته وتطلعت على رسول الله ﷺ نصف النهار فنظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر» فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده»[2] قال محمد بن يوسف الصالحي: فكان كذلك فلما قدم أبو ذر على رسول الله ﷺ أخبره خبره فقال: «لقد غفر الله تعالى لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنباً إلى أن بلغتني».

وروى الطبراني عن أبي خيثمة وابن إسحاق ومحمد بن عمر عن شيوخهما قال: لما سار رسول الله ﷺ أياماً دخل أبو خيثمة على أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط وقد رشت كل واحدة منهما عريشها وبَرَّدت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: سبحان الله رسول الله ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حر في الضح والريح والحر يحمل سلاحه على عنقه وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ تهيأ لي زاداً ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حتى نزل تبوك وقد أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق لطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دنوا من

(١) النضو: الدابة التي هزلتها الأسفار وأذهبت لحمها.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٠.

تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني أتى رسول الله ﷺ ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناس: هذا راكب مقبل فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا والله هو أبو خيثمة، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك[١] يا أبا خيثمة» ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال: له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتأكيد أو أراد بالتوبة في صدر الآية التوبة من إذن المنافقين في التخلف وههنا من كيد ودتهم زيغ القلوب أو المراد في صدر الآية التوفيق للتوبة والإنابة وههنا قبول التوبة أو للتنبيه على أنه تاب عليهم لأجل ما كابد وأمن العسرة ﴿بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال البغوي: قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبداً يعني على ذلك الذنب.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ عظطف على عليهم ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ أي تخلفوا عن غزوة تبوك وقيل: خلفوا أي: أرجى أمرهم عن توبة أبي لبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار.

روى الشيخان في الصحيحين وأحمد[٢] وابن أبي شيبة وابن إسحاق وعبد الرزاق عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاقب الله أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة.

قلت: ليلة العقبة الثالثة. حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت البدر أكثر ذكراً في الناس منها كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتها في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها وكان يقول الحرب خدعة، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز وَعُدوّاً كثيراً فجلاً للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير وعند مسلم يزيدون على عشرة الآف» وروى الحاكم في إكليل عن معاذ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة عن ثلاثين ألفاً، وقال أبو زرعة لا يجمعهم كتاب حافظ، قال الزهري يريد الديوان فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الظلال والثمار وتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه فخرج يوم الخميس وكان

---

(١) أولى لك كلمة تهديد من دنا إلى الهلاك.
(٢) انظر البخاري في الجهاد باب ١٠٣، والمغازي باب ٧٩، ومسلم في التوبة حديث ٥٤، وأحمد في المسند ٣/٤٥٦، ٤٥٧.

يحب إذا كان سفر جهاد أو غيره أن يخرج يوم الخميس، فطفقت أعدوا لكي أتجهز معهم فارجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي الحال حتى اشتد بالناس الحر فأصبح رسول الله ﷺ غازياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت ولم أقض شيئاً فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أمعن القوم وأسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت ولم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أن لا أرى إلا رجلاً مغموصاً(١) عليه بالنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكر لي رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة وفي رواية من قومي قال محمد بن عمر: هو عبد الله بن أنيس السلمي يا رسول الله حبسه برداه(٢) ونظره في عطفيه، فقال: معاذ بن جبل ويقال: أبو قتادة بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمت عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ توجه قافلاً حضرني همي وطفقت أعد عذر الرسول الله ﷺ وأهيىء الكلام وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أن لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه وعرفت أنه لم ينجيني إلا الصدق وأصبح رسول الله ﷺ قادماً.

قال ابن سعد في رمضان، قال كعب وكان إذا قدم من سفر لا يقدم إلا في الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين فيقعد فيه ثم يدخل على فاطمة ثم على أزواجه فبدأ بالمسجد فركعهما ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجئته، فلما سلمت عليه تبسم بتبسم المغضب فقال: تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، وعند ابن عابد فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لم تعرض عني فوالله ما نافقت. ولا ارتبت ولا بدلت، فقال لي: ما خلفك ألم تكن قد ابتعت؟ فقلت: بلى إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله تعالى أن يسخطك ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه أني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يفضي الله فيك بما يشاء فمضيت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: ما علمناك كنت أذنبت ذنباً

(١) أي مطعوناً في دينه.
(٢) أي جانبيه كناية عن كونه معجباً متكبراً.

قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ فوالله ما زالوا يُؤَنِّبونَنِي حتى أردت، أن أرجع فأكذب نفسي، فقلت ما كنت أجمع أمرين أتخلف عن رسول الله ﷺ وكذبه، ثم قلت لهم: هل بقي هذا معي أحد قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل: لهما مثل ما قيل لك فقلت: من هما قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي.

وعند ابن أبي حاتم من مرسل الحسن أن سبب تخلف الأول أنه كان حائط حين زهى فقال في نفسه قد غزوت قبلها فلو أقمت عامي هذا فلما تذكر ذنبه، قال: اللهم إني أشهدك أني قد تصدقت به في سبيلك وأن الثاني كان له أهل تفرقوا ثم رجعوا، فقالوا: قمت هذا العام عندهم فلما تذكر قال: اللهم لك علي أن لا أرجع إلى أهلي ولا مالي قال كعب: فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة فمضيت حين ذكرها ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها[1] الثلاثة من بين من تخلف عنه فأجبنا الناس وتغيروا لنا.

وعند ابن أبي شيبة فطفقنا نغدوا في الناس لا يكلمنا أحد ولا يسلم علينا أحد ولا يرد علينا أحد سلاماً، وعند عبد الرزاق وتنكر لنا الناس حتى ما هم بالذي نعرف وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالتي نعرف انتهى، ومن شيء أهم إلى من أن أموت فلا يصلي عليّ رسول الله ﷺ أو يموت فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد ولا يصلي عليّ حتى تنكرت في نفسي الأرض حتى ما هي بالتي أعرف فلبثنا ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف الأسواق فلا يكلمني أحد ولا يرد علي سلاماً، وأتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا، ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل على ذلك فإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي يعني أنه من بني سلمة وليس هو ابن أخو أبيه الأقرب، قال كعب: وهو أحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة هل تعلمني أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فسكت فلم يكلمني حتى إذا كان في الثالثة أو الرابعة قال الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت من الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني ودفع إلي كتابا من ملك غسان.

---

(١) بالرفع ومحله النصب على الاختصاص أي خصوصاً الثلاثة الذين تخلفوا كقولهم اللهم اغفر لنا أيتها العصابة وقال أبو يوسف السيرافي إنه مفعول فعل محذوف أي أريد الثلاثة وخالفوا الجمهور وقالوا إنه منادى والثلاثة صفة له وإنما وجبوا ذلك لأنه في الأصل كان كذلك قبل الاختصاص وكل ما نقل من باب إلى باب فاعوا به بحسب أصله كأفعل التعجب.

وعند ابن أبي شيبة من بعض قومي بالشام كتب إلي كتاباً في سرقة[١] من حرير فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك ولم يجعلك الله بدار الهوان ولا مضيعة[٢] فإن كنت متجولاً فالحق بنا نواسيك[٣]، فقلت: لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء قد طمع في أهل الكفر فتيممت بها التنور فسجرته بها، وعند ابن عابد أنه شكى حاله إلى رسول الله ﷺ وقال: ما زال إعراضك عني حتى رغب في أهل الشرك. قال كعب: حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتيني، قال محمد بن عمر هو خزيمة بن ثابت وهو الرسول إلى مرارة وهلال بذلك فقال كعب فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب بن مالك فجاءت امرأة هلال بن أمية أي: خولة بنت عاصم رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، وعند ابن أبي شيبة إنه شيخ قد ضعف بصره انتهى، فهل تكره أن أخدمه قال: لا ولكن لا يقربك قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب فقال: لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن يخدمه، فقلت: والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذن فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، وعند عبد الرزاق وكانت توبتنا نزلت على النبي ﷺ ثلث الليل، فقالت أم سلمة يا نبي الله ألا نبشر كعب بن مالك قال: إذاً يحطمنكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليل، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى قد ضاقت علي نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك البشر وعند محمد بن عمر وكان الذي أوفى على جبل سلع أبا بكر الصديق فصاح: قد تاب الله على كعب يا كعب أبشر، وعند عقبة أن رجلين سعيا كعباً يبشّرانه فسبق أحدهما فارتقى المسبوق على سلع فصاح يا كعب أبشر بتوبة الله وقد أنزل الله عز وجل فيكم القرآن وزعموا أن الذين سبقا أبو بكر وعمر، قال كعب: فخررت ساجداً أبكي فرحاً بالتوبة وعرفت أنه قد جاء فرج وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبَلَ صاحبي مبشرون وركض إليّ رجل على فرس وعند محمد بن عمر هو زبير بن العوام وسعى ساع من أسلم قال: وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته وهو

(١) الأبيض من الحرير أو الحرير عامة.

(٢) حيث يضيع حقك.

(٣) مواساة، غمخوراى گرون.

حمزة الأسلمي يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياه ببشراه ووالله ما أملك غيرهما يومئذٍ واستعرت ثوبين من أبي قتادة كما عند محمد بن عمر فلبستهما قال: وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبة سعيد بن زيد فما ظننت أنه يرفع رأسه حتى تخرج نفسه أي: الجهد فقد كان امتنع من الطعام حتى كان يواصل الأيام صياماً لا يفتر من البكاء، وكان الذي بشر مرارة بن الربيع بتوبة سلكان بن سلامة أبو سلامة بن وقش، قال كعب: وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً يهنئوني بالتوبة يقولون لتهنئك توبة الله عليك قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قلت: يا رسول الله ﷺ أمن عندك أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله إنكم صدقتم الله فصدقكم الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله تعالى وإلى رسوله الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قلت: نصفه، قال: لا، قلت فثلثه قال: نعم، قال: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه[1] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما ابتلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقيت وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فوالله ما أنعم الله تعالى عليّ من نعمة بعد أن هداني للإسلام أعظم من نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبة فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال: لأحد[2] فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦] قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفروا لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله سبحانه فيه بذلك قال الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله تعالى ممن خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه عمن خلف واعتذر إليه فقبل منه، قال في النور: لعل الحكمة في هجران كعب وصاحبيه خمسين ليلة أنها كانت هذه مدة غيبته ﷺ في سفر تلك الغزو، قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ لإعراض الناس عنهم ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع رحبها وسعتها وهذا مثل لشدة الحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكاناً ليقرون فيه قلقاً واضطراباً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي:

---

(١) أي أنعم الله عليه.
(٢) شر ما قال لأحد بالإضافة به أي قال قولاً شر القول الكاين لأحد من الناس.

قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: علموا ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ﴾ أي: لا مفزع ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من سخطه ﴿إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: قبل توبتهم ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم سبقت، أو المعنى ليعدوا من جملة التوابين عن أبي بكر الوراق أنه قال: التوبة النصوح أن يضيق على التائب إذا أذنب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[(١)] رواه مسلم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً يتوب عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد آيسَ من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال: لشدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[(٢)] رواه مسلم وفي الباب أحاديث كثيرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ في إيمانهم وعهودهم أوفى دين الله نية وقولاً وعملاً يعني الزموا الصدق في كل شيء، قال ابن عباس: وكذا روي عن ابن عمر أي: كونوا مع محمد ﷺ وأصحابه الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص ونية دون المنافقين المتخلفين عنه، وقال سعيد بن جبير مع أبي بكر وعمر وقال الضحاك أمروا أن يكونوا مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وروى أنه قال ابن عباس مع علي بن أبي طالب عن سفيان قال: تفسير اختلاف إنما هو كلام جامع يراد به هذا وهذا، وقال ابن جريج: مع المهاجرين لقوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقيل: من الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، قال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبية شيئاً ثم لا ينجز له اقرأ إن شئتم وقرأ هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ ظاهره خبر ومعناه نهي كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ سكان البوادي مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ إذا غزا بنفسه الشريفة ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾ ولا أن يرغبوا ﴿بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: لا يضنوا أنفسهم عما لا يضمن نفسه عنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف يعني ذلك النهي ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ أي: شيء من العطش ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي معاونة رسوله والجهاد لإعلاء دينه ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ مصدر أو ظرف أي: يدوسون دوساً أو يذهبون أرضاً ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ وطئهم إياها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ قتلاً أو أسراً أو نهباً أو غنيمة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ أي: استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة والانتهاء عن التخلف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٣١. (٢) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٧.

إحسانهم وهو تعليل لكتب وتنبيه على أن الجهاد إحسان أما في حق الكفار فلأنه سعى تكميلهم وإنقاذهم من النار بأقصى ما يمكن كالضرب للمجنون وتأديب الصبي وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم.

عن أبي عبس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله تعالى على النار»(١) رواه البخاري في الصحيح وأحمد والترمذي والنسائي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»(٢) متفق عليه، قال البغوي: اختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة: هذه خاصة لرسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين يتخلف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة، وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعد بن عبد العزيز يقولون: هذه الآية لأول هذه الأمة وآخرها، وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباح التخلف لمن شاء وقال وما كان المؤمنون ليغزوا كافة، قلت: اتفق الأئمة على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به جماعة من المسلمين وحصل بهم الكفاية سقط عن الباقين، وعن سعيد بن المسيب أنه فرض عين للعمومات الواردة في الجهاد وما ورد التغليظ في المتخلفين عن غزوة تبوك قلنا عند النفير العام يكون فرضاً على الأعيان بالإجماع كما في غزوة تبوك وإلا فهو فرض كفاية لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] إلى قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ كما فعل عثمان بن عفان وعبد الرحمٰن بن عوف وغيرهما في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ في مسيرهم مقبلين ومدبرين ﴿وَادِيًا﴾ وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل اسم فاعل من ودي إذا سال فشاع بمعنى الأرض ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك الكتابة ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعني جزاء أحسن أعمالهم يعني الجهاد في سبيل الله أو أحسن جزاء أعمالهم، عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»(٣) رواه مسلم، وعن زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله فقد غزا(٤)» متفق عليه والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة باب ١٨، والجهاد باب ١٦، في الترجمة، والترمذي في فضائل الجهاد باب ٧، والنسائي في الجهاد باب ٩، وأحمد في المسند ٥/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٢، ومسلم في الإمارة حديث ١١٠.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٣٢.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٣٨، ومسلم في الجهاد حديث ١٣٥، ١٣٦.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى
ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم
مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن
يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ
فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

قال الكلبي: إن أحياء بني أسد بن خزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا بالمدينة فأفسدوا طرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها فأنزل الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ نفي بمعنى النهي واللام لتأكيد النفي والمعنى لا ينفروا كافة عن أوطانهم لطلب العلم فإنه مخلّ بالمعاش ومفضي إلى المفسدة ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة أو قرية ﴿طَآئِفَةٌ﴾ جماعة قليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: ليتكلفوا لطلب الفقاهة في الدين ويتجشموا المشاق في تحصيلها، قال صاحب النهاية: الفقه في الأصل الفهم واشتقاقه من الشق والفتح، وفي القاموس الفقه بالكسر المعلوم بالشيء والفهم له والفطنة وغلب على علم الدين لشرفه، وقال بعض المحققين: الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم الاستدلالي قال الله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] ولا يستنبطون مضمونه، قال أبو حنيفة رحمه الله: هو معرفة النفس مالها وما عليها والتخصيص بالعلم بفروع الدين اصطلاح جديد والظاهر أنه يشتمل علم المقلد أيضاً فالمقلد إذا أخذ العلم من المجتهد أو من كتابه فقد أدى ما وجب عليه بهذه الآية والله أعلم.

﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين لم ينفروا ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ في أوطانهم بعد تحصيل العلم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ بإنذارهم ما يجب عليهم اجتنابها وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي فأصابوا منهم معروفاً ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم ما نراكم إلا وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدنا في أنفسهم من ذلك حرجاً فأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا

فقهوا»[١] رواه الشافعي وكذا روى الشيخان في الصحيحين وأحمد عن أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما»[٢] رواه الطبراني عن ابن مسعود والله أعلم.

وهذه الآية دليل على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لينذر فرقتها كي يتذكروا فيحذروا فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يفسد ذلك.

اعلم أن الفقه في الدين ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، فالفرض العين هو العلم بالعقائد الصحيحة ومن الفروع ما يحتاج إليه كل أحد كالطهارة والصلاة والصوم وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على الآدمي يجب عليه معرفة أحكامها مثل علم الزكاة إن كان له مال وعلم الحج إن وجب عليه وكذلك من المعاملات يجب معرفة أحكام ما يتعاطى بها ويمارسها، فيجب معرفة أحكام البيع من الصحيح والفاسد والربا للتجار والأجارات لمن يتأتى بها ونحو ذلك قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٣] رواه ابن عدي والبيهقي بسند صحيح عن أنس والطبراني في الصغير والخطيب عن الحسن بن علي والطبراني في **«الأوسط»** عن ابن عباس وفي الكبير عن ابن مسعود وعند الخطيب عن علي وفي الطبراني في **«الأوسط»** والبيهقي عن أبي سعيد وزاد ابن عبد البر عن أنس «وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر» وفي رواية «والله يحب إغاثة اللهفان» والفرض الكفاية وهو أن يتعلم الرجل كل باب من العلم حتى يبلغ درجة الفتوى فإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً وإذا قام من كل بلد واحد بتعلمه سقط عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث وهو أفضل من كل عبادة نافلة قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجل»[٤] رواه صاحب سند الفردوس عن ابن عباس وروي أيضاً عنه: «طلب العلم ساعة خير من قيام ليلة وطلب العلم يوماً خير من صيام ثلاثة أيام»[٥] وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السمٰوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في الماء ليصلون على معلم الناس الخير»[٦] رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي أمامة، وقال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[٧] رواه الترمذي

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٩، والمناقب باب ١، ٢٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٩٩.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٢.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٤٠، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٠٩١.

(٤) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٦٥٥.

(٥) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٦٥٦، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٧٨.

(٦) أخرجه الترمذي في العلم باب ١٩.

(٧) أخرجه الترمذي في العلم باب ١٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧.

وابن ماجه عن ابن عباس، وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»(١).

وأما العلم اللدني الذي يسمون أهلها بالصوفية الكرام فهو مرض عين لأن ثمراتها تصفية القلب عن اشتغال بغير الله تعالى واتصافه بدوام الحضور وتزكية النفس عن رذائل الأخلاق من العجب والكبر والحسد وحب الدنيا والكسل في الطاعات وإيثار الشهوات والرياء والسمعة وغير ذلك وتجلِتها بكرام الأخلاق من التوبة والرضا بالقضاء والشكر على النعماء والصبر على البلاء وغير ذلك، ولا شك أن هذه الأمور محرمات وفرائض على كل بشر أشد تحريماً من معاصي الجوارح وأهم افتراضاً من فرائضها فالصلاة والصوم وشيء من العبادات لا يعبأ بشيء منها ما لم تقترن بالإخلاص والنية، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»(٢) رواه النسائي عن أبي أمامة وقال عليه السلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة وكل ما يترتب عليه من الفروض الأعيان فهو فرض عين والله أعلم.

وفي سبب نزول الآية وجه آخر وذلك ما قال البغوي: إنه قال ابن عباس: في رواية الكلبي وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ونحوه عن عبد الله بن عمير أنه لما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين في غزوة تبوك ونزلت: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] كان النبي ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعاً إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، وفي رواية عكرمة تخلف عن الغزو أناس من أهل البوادي فقالت المنافقون: هلك أصحاب البوادي فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني ما كان المؤمنون لينفروا إلى الغزو كافة فهلا نفر من كل فرقة عظيمة طائفة إلى الغزو وبقي طائفة مع النبي ﷺ ليتفقه القاعدون في الدين ويتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما نزل بعدهم فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم وينفر سرايا آخر حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة، ولذا قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»(٤) فيكون الضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفرق بعد الطائفة النافرة للغزوة وفي رجعوا للطائفة النافرة، قال السيوطي: قال ابن عباس: فهذه مخصوصة بالسرايا والتي من قبلها بالنهي عن تخلف أحد فيما إذا خرج النبي ﷺ، وقال الحسن هذه التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة معناه هلا نفر فرقة ليتفقهوا أي: ليبصروا بما يريهم

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية حديث ١٤، وأبو داود في الوصايا باب ١٤، والترمذي في الأحكام باب ٣٦، والنسائي في الوصايا باب ٨، وأحمد في المسند ٢/٣١٦، ٣٥٠، ٣٧٢.

(٢) أخرجه النسائي في الجهاد باب ٢٤، وأحمد في المسند ٤/١٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٣.

(٤) أخرجه البخاري في العلم باب ١٠، في الترجمة، وأبو داود في العلم باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، والدارمي في المقدمة باب ٣٢، وأحمد في المسند ٥/١٩٦.

من الظهور على المشركين ونصرة الدين ولينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا من الجهاد فيخبروهم بنصر الله رسوله والمؤمنين لعلهم يحذرون قتال رسول الله ﷺ فنزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار، وهذا يدل على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به جماعة سقطه عن الباقين إلا عند النفير العام حتى يصير فرضاً على الأعيان قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] أمر بقتال الأقرب منهم فالأقرب إليهم في الدور والنسب فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح ولذلك أمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، ولما هاجر إلى المدينة أمر بقتال قريظة والنضير وخيبر ونحوها وإذا فرغ من قتال العرب أمر بقتال الروم وهم المراد بهذه الآية لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق، فإذا نزلت هذه الآية عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم عام تبوك كما ذكرنا فيما سبق في رواية ابن مردويه عن ابن عباس وابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد وابن جرير عن سعيد بن جبير، وعلى مقتضى هذه الآية.

قالت الفقهاء: يجب على من يكون في الثغر الجهاد بمن يليهم من الكفار فإن لم يكن بهم كفاية أو تكاسلوا وعصوا يجب على من يقرب منهم وكذا من يقرب ممن يقرب إن لم يكن بهم كفاية أو تكاسلوا وهكذا إلى أن يجب على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً كذا جهاز الميت والصلاة عليه ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وحمية قال الحسن: صبراً على الجهاد وظاهر الآية أمر للكفار والمراد منه الأمر للمؤمنين بالتغليظ يعني أغلظوا عليهم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دون الكفار بالعون والنصر فلا تبالوا بقتالهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ما صلة مؤكدة ﴿فَمِنْهُم﴾ يعني من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لإخوانه استهزاء ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾ يقيناً وتصديقاً قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبير السورة بما فيها من الأعجاز وبانضمام الأيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب لزيادة علمهم وكمالهم وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة ﴿رِجْسًا﴾ كفراً بها مضموماً ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفرهم بغيرها ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فإن الإيمان أمر وهبي لا يفيد النذر والآيات ما لم يشاء الله قال مجاهد في هذه الآية دلالة على أن الإيمان يزيد وينقص، وكان عمر رضي الله عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزداد إيماناً، وقال علي رضي الله عنه: إن الإيمان يبدو لمظة[1] بيضاء في القلب كلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد حتى يسود القلب وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض لو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسوداً ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ قرأه حمزة ويعقوب بالتاء الفوقانية على خطاب المؤمنين والباقون بالياء التحتانية حكاية عن المنافقين المذكورين ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: المنافقون ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يبتلون بأصناف البليات من الأمراض

(١) اللمظة: النكتة من البياض.

والشدائد وقال مجاهد: بالقحط والشدة، وقال قتادة بالغزو والجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون ما يظهر من الآيات، وقال مقاتل بن حبان: يفضحون بإظهار نفاقهم وقال عكرمة ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقال يمان: ينقضون عهودهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نقض العهد ومن المعاصي والنفاق الجالب إليهم تلك البليات والفضائح ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أصله يتذكرون أي: لا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكرهم وقرأها النبي ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تغامزوا بالعيون إنكاراً لها سخرية أو غيظ لما فيها من عيوبهم وتفضيحهم ويريدون الهرب قائلاً بعضهم لبعض إشارة ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من زائدة يعني هل يريكم أحد من المؤمنين إن قمتم من عند رسول الله ﷺ فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحدهم يريهم أقاموا وثبتوا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ عن الإيمان بها، وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها يعني حضرة الرسول الله ﷺ مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان قال أبو إسحاق: أضلهم الله مجازاة على فعلهم ذلك ويحتمل الدعاء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفقهون الحق سوء فهمهم وعدم تدبرهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من جنسكم عربي مثلكم من بني إسماعيل عليه السلام تعرفون نسبه وحسبه، قال ابن عباس: ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ وله فيهم نسب، قال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شيء من أولاد الجاهلية من زمان آدم عليه السلام، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام»[١] وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن من أنفسكم بفتح الفاء أي: أي من أشرفكم وأفضلكم ﴿عَزِيزٌ﴾ شديد شاق ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قيل: ما زائدة معناه عنتكم، أي: دخول المشقة والمضرة عليكم وقال القتيبي: ما أعنتكم وضركم، وقال ابن عباس: ما ضللتم، وقال الضحاك والكلبي: أثمتم فما موصولة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانكم وصلاح شأنكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة شدة الرحمة، قدم الأبلغ منها لرعاية الفواصل قبل رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان بك وناصبوك للحرب ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ فإنه يكفيك مؤنتهم ويعينك عليهم، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو أو لا أخاف إلا منه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ خصه بالذكر لأنه أعظم المخلوقات.

أخرج عبد الله بن أحمد عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٩٠، والبغوي في تفسيره ٣/ ١٧١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢١٤، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٩٤.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة وقال[1] هما أحدث الآيات بالله عهداً والله أعلم.

فصل

ولما كان نزول أكثر هذه السورة في غزوة تبوك وقد ذكرنا بعض قصصها في ضمن تفسير السورة فلنذكر بقية قصص تلك الغزوة والمعجزات التي ظهرت فيها تتميماً للمقال، روى الطبراني عن عبد الله بن سلام أن رسول الله ﷺ لما مر بالخليجة في سفره إلى تبوك قال له أصحابه: المبرك يا رسول الله الظل والماء وإن كان فيها دوم[2] وماء، فقال: «إنها أرض زرع دعوها فإنها مأمورة» يعني ناقته فأقبلت حتى بركت عند الدومة التي كانت في مسجد ذي المروة، قال محمد بن عمر ولما نزل رسول الله ﷺ وادي القرى أهدى له بني عريض اليهودي هريساً فأكلها وأطعمهم أربعين وسقاً فهي جارية عليهم إلى يوم القيامة، وفي رواية فهي جارية عليهم إلى الساعة.

روى مالك وأحمد والشيخان في الصحيحين عن ابن عمر وأحمد عن جابر وأبي كبشة الأنماري وأبي حميد الساعدي: أن رسول الله ﷺ لما مر بالحجر تقنع بردائه وهو على الرحل فأوضع راحلته حتى خلف أبيات ثمود ولما نزل هناك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، واستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا ونصبوا القدور باللحم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنودي في الناس الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم ولا تشربوا من مائها ولا تتوضؤوا منه للصلاة وأهريقوا القدور واعلفوا العجين الإبل» ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة وقال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم آية فبعث الله تبارك وتعالى لهم الناقة فكانت ترد هذا الفج وتصدر[3] من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب مياههم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله تعالى من تحت أديم

---

(١) عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أنه قال أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن فقام في الناس فقال من كان تلا في زمن رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد به شاهدان فقتل وهو يجمع ذلك إليه فقام عثمان بن عفان فقال من كان عنده شيء من كتاب الله فليأتنا به وكان لا يقبل من ذلك حتى يشهد به شاهدان فجاء خزيمة بن ثابت فقال إني رأيتكم تركتم به آيتين لم تكتبوهما فقال ما هما قال تلقيت من رسول الله ﷺ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم الآيتين فقال عثمان وأنا أشهد أنهما من الله فأين نرى أن تجعلهما قال اختم بهما آخر ما نزل من القرآن فتحققت بها براءة الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله رؤوف رحيم.

(٢) الدوم: جمع دومة، وهي ضخام الشجر، أي شجر المقل.

(٣) تصدر أي ترجع بعد ورود.

السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال» فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم فناداه رجل منهم تعجب منهم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم بشيء تهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومن أحد ومن كان له بعير فليوثق غفاله ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له» ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ﷺ إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه(١)، وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته على جبل طيّىء فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «ألم أنهكم أن يخرج أحد إلا ومعه صاحب له»، ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي وأما الآخر فإن طيئاً أهدته إلى رسول الله ﷺ حين رجع إلى المدينة وقد مر قصة استسقاءه ﷺ»(٢).

وروى محمد بن عمر ومحمد بن إسحاق أنه ضلت ناقة رسول الله ﷺ وخرج الناس في طلبها، فقال زيد بن اللُّصبب أحد بني قينقاع كان يهودياً فأسلم ونافق وكان في رجل عمارة بن حزم محمد يزعم أنه نبي وهو يخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، فقال رسول الله ﷺ وكان عمارة بن حزم عنده أن منافقاً قال: كذا والله إني لا أعلم إلا ما علمني الله وقد أطلعني الله عليها وهي في الوادي في شعب كذا فذهبوا فجاؤوا بها فأقبل عمارة على زيد يجافي عنقه، ويقول اخرج يا عدو الله من رحلي فلا تصاحبني.

قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيداً تاب وقال بعض الناس لم يزل منافقاً حتى هلك. وفي تلك الغزوة ما روى مسلم عن المغيرة بن شعبة ذهاب رسول الله ﷺ قبل الفجر لحاجته فأسفر الناس حتى خافوا الشمس فقدموا عبد الرحمٰن بن عوف فصلى بهم وتوضأ رسول الله ﷺ وضاق كم جبته فأخرج يديه من تحت الجبة ومسح على خفيه وأدرك ركعة فصلى ركعة أخرى وسلم وقال: «أحسنتم صلوا الصلاة لوقتها وإنه لم يتوف نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمته» وروى أحمد والطبراني أنه ﷺ أردف سهيل ابن بيضاء على رحله ورفع صوته يا سهيل ثلاث مرات كل ذلك يقول سهيل: لبيك حتى عرف الناس أنه يريدهم فلما اجتمع الناس قال: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له حرمه الله على النار» روى محمد بن عمر وأبو نعيم في الدلائل أنه عارض الناس حية عظيمة ذكر من عظمها وخلقها فأقبلت حتى واقفت رسول الله ﷺ وهو على راحلته طويلاً والناس ينظرون إليه فقامت قائمة فقال رسول الله ﷺ: «هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إليّ

---

(١) أي الموضع يتغوط فيه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٧، والمغازي باب ٨٠، ومسلم في الزهد حديث ٣٩.

يسمعون القرآن وها هو ذا يقرئكم السلام». فقال الناس جميعاً وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، روى أحمد برجال الصحيح عن حذيفة عن معاذ قال عليه السلام: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار فمن جاء فلا يمس من مائها شيئاً حتى أتى فجئناها وسبق إليه رجلان والعين مثل الشراك تبض[(١)] بشيء من ماء فسألهما رسول الله ﷺ هل مسستما من مائها شيئاً قالا نعم، فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا من العين قليلاً حتى اجتمع في شن ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وتمضمض ثم أعاده فجرت العين بماء كثير، ولفظ ابن إسحاق فانخرق الماء حتى كان يقول من سمعه أن له حساً كحس الصواعق وذلك الماء فوارة بتبوك، ثم قال: يا معاذ يوشك أن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا يلي جناناً وفيما، روى البيهقي وأبو نعيم عن عروة ففارت عينها حتى امتلأت فهي كذلك حتى الساعة.

روى أحمد والنسائي عن أبي سعيد الخدري خطب رسول الله ﷺ تبوك وهو مسند ظهره إلى نخلة فنادى: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس إن من خير الناس رجل محمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت وإن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله لا يرعوي[(٢)] إلى شيء منه»[(٣)] وروى أبو داود عن ابن عمر قال: أتي رسول الله ﷺ بجبنة في تبوك فدعا بسكين فسمى وقطع»[(٤)]، روى أحمد وأبو داود أنه مر غلام بينه ﷺ وبين القبلة على حمار وهو يصلي فقال: «اللهم اقطع أثره» فصار مقعداً[(٥)]، روى محمد بن عمر عن رجل من بني سعد قال: جئت رسول الله ﷺ وهو جالس بتبوك في نفر فقال: «يا بلال أطعمنا» فأخرج بلال خرجات بيده من تمر معجون بسمن وأقط فقال رسول الله ﷺ: «كلوا» فأكلنا حتى شبعنا فقلت: يا رسول الله إن كنت لآكل هذه وحدي فقال رسول الله ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معاء واحد»[(٦)] ثم جئته من الغد فإذا عشرة نفر حوله فقال: هات أطعمنا يا بلال فجعل يخرج من جراب تمراً بكفه قبضة قبضة فقال: «اخرج ولا تخش من ذي العرش إقتاراً» فجاء بجراب فنشره فخرزته مدين فوضع رسول الله ﷺ يده على التمر وقال: «كلوا بسم الله» فأكلوا وأكلت معهم حتى ما أجد له مسلكاً قال: وبقي على النطع مثل الذي جاء به بلال كأنَّا لم نأكل منه تمرة واحدة ثم قال:

---

(١) أي: تسيل.

(٢) لا يرعوي أي لا ينكف ولا ينزجر من رعي يرعوا إذا انكف عن الأمر وقد ارعوى عن القبيح ارعواء وقيل الارعواء الندم على الشيء والانصراف عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الجهاد باب ٨، وأحمد في المسند ٣/ ٤٢، ٥٨.

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ٣٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٤، ٣٠٢.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٧٧.

(٦) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأطعمة باب ١٢، ومسلم في الأشربة حديث ١٨٢ ـ ١٨٦.

غدوت من الغد وعاد نفر فكانوا عشرة أو يزيدّ رجلاً أو رجلين، فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال أطعمنا» فجاء بلال بذلك الجراب بعينه أعرفه فنشره ووضع رسول الله ﷺ يده عليه وقال: «كلوا بسم الله» فأكلنا حتى نهمنا ثم رجع مثل الذي صب ففعل ذلك ثلاثة أيام.

وفي قصة أخرى: روى محمد بن عمر وأبو نعيم وابن عساكر عن عرباض بن سارية فذكر قصة أنه قال: كنا ثلاثة أنا وجعال بن سراقة وعبد الله بن مغفل المزني كلنا جياع إنما نعيش بباب رسول الله ﷺ فدخل رسول الله ﷺ قبة ومعه زوجته أم سلمة فطلب شيئاً فلم يجد فخرج فنادى بلالاً هل من عشاء لهؤلاء النفر، فأخذ الجرب ينفضها جراباً جراباً فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت في يده سبع تمرات ثم دعا بصفحة فوضع التمر فيها ثم وضع يده على التمرات وسمى الله تعالى فقال: «كلوا بسم الله» فأكلنا فأحصيت أربعاً وخمسين تمرة أكلتها أعدها عداً ونواها في يدي الأخرى وصاحباي يصنعان مثل ما أصنع وشبعنا وأكل كل واحد منا خمسين تمرة ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هي فقال: «يا بلال ارفعها فإنه لا يأكل منها أحد إلا تسهل شبعاً» فلما أصبح رسول الله ﷺ وصلى صلاة الصبح انصرف إلى فناء قبته فجل وجلسنا حوله وفقراء من المسلمين عشرة فقال رسول الله ﷺ: هل لكم من الغداء فدعا بلالاً بالتمرات فوضع يده عليهن في الصفحة ثم قال: «كلوا بسم الله» فأكلنا فوالذي بعثه بالحق حتى أشبعنا وإنا لشعرة ثم رفعوا منها أيديهم شبعاً وإذا التمرات كما هي، فقال: «لولا أني أستحيي من ربي لأكلنا من هذه التمر حتى نرد المدينة من آخرنا» وطلع غليم من أهل البلد فأخذ رسول الله ﷺ التمرات بيده فدفعها إليه فولى الغلام يلوكهن.

روى محمد بن عمر أنه هاجت ريح شديد بتبوك فقال رسول الله ﷺ: «لموت منافق عظيم النفاق» فقدموا المدينة فوجدوا منافقاً عظيم النفاق قد مات.

روى محمد بن عمر أنه قدم رسول الله ﷺ نفر من سعد هزيم فقالوا يا رسول الله إنا قدمنا إليك وتركنا أهلنا على بئر قليل ماؤها وهذا القيظ ونحن نخاف إن تفرقنا أن تقتطع لأن الإسلام لم يغش حولنا بعد فادع الله لنا في مائنا فإنا إن روينا به فلا قوم أعزّ منا لا يقربنا أحد مخالف لديننا، فقال رسول الله ﷺ: «أبغوني حصيات» فتناول بعضهم ثلاث حصيات فدفعهن إلى رسول الله ﷺ فعركهن بيده ثم قال: «اذهبوا بهذه الحصيات إلى بئركم فاطرحوا واحدة واحدة وسموا الله تعالى»، فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ ففعلوا ذلك فجاشت بئرهم بالرواء ونقوا من حاربهم من أهل الشرك ووطؤوهم فما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى أوطؤوا[1] من حولهم عليه ودانوا عليه بالإسلام.

روى الطبراني عن ابن عمر ومعاوية بن أبي سفيان والبيهقي وابن سعد عن أنس قال: طلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت فيما مضى فأتى جبرائيل فسأل عنها رسول الله ﷺ فقال: ذاك معاوية بن معاوية المزني مات بالمدينة اليوم فبعث الله سبعين ألف

---

(١) أي كلموا مع الغضب.

ملك يصلون عليه فهل لك في الصلاة عليه قال: نعم، فصلى رسول الله ﷺ وصف الملائكة خلفه صفين فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لجبرئيل: بم بلغ هذه المنزلة؟ قال: بحبه قل هو الله أحد يقرأها قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً وعلى كل حال، قال الحافظ هذا الحديث له طرق يقوي بعضها بعضاً.

روى الطبراني وأبو نعيم عن محمد بن حمزة عن عمرو الأسلمي عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وكنت على خدمته ذلك السفر فنظرت إلى نحي السمن قد قل ما فيه وهيأت للنبي ﷺ طعاماً فوضعت النحي في الشمس ونمت فانتبهت بحذير النحي فقمت فأخذت رأسه بيدي فقال رسول الله ﷺ ورآني: «لو تركته لسال الوادي سمناً»، روى الحارث بن أسامة عن بكر بن عبد الله المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «من يذهب بهذا الكتاب إلى قيصر وله الجنة؟ فقال: رجل وإن لم يقبل فانطلق الرجل فأتاه بالكتاب فقرأ فقال: اذهب إلى نبيكم فأخبره أني متبعه ولكن لا أريد أن أدع ملكي وبعث معه بدنانير إلى رسول الله ﷺ فرجع فأخبره فقال رسول الله ﷺ: «كذب» وقسم الدنانير، روى أحمد وأبو يعلى بسند حسن عن سعيد بن أبي راشد عن التنوخي رسول هرقل قال: قدم رسول الله ﷺ تبوك فبعث دحية الكلبي إلى هرقل فلما إن جاء كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي[1] الروم وبطارقتهم ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم وقد أرسل يدعوني إلى ثلاث خصال... أن أتبعه على دينه أو أن أعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا أو نلقي إليه الحرب والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب فهلم فلنتبعه على دينه أو نعطيه مالنا على أرضنا فنخروا نخرة[2] رجل واحد حتى خرجوا، وقالوا: تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو تكون عبيد الأعرابي من الحجاز فلما ظن أنهم أن يخرجوا من عنده فسدوا عليه الروم رقاهم[3] ولم يكد وقال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على دينكم وأمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تُجيب كان على نصارى العرب قال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان ابعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه فجاءني، فدفع إليّ هرقل كتاباً فقال: اذهب بكتابي هذا إلى هذا الرجل فما سمعته من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خِصال هل يذكر صحيفته التي كتب بشيء وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر إلى ظهره هل فيه شيء يريبك، قال: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء فقلت أين صاحبكم؟ قيل: هو ذا فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره ثم قال: ممن أنت؟ قلت: أنا من تنوخ قال: هل لك في الإسلام الحنيفة ملة أبيك إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم

---

(١) أي: علماء النصارى.

(٢) هو صوت الماء فاستعمله للنخر.

(٣) من الرُّقي بضم الراء بمعنى الصعود.

حتى أرجع إليهم فضحك رسول الله ﷺ وقال: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين، يا أخا تنوخ إني كتبت كتاباً إلى كسرى فمزقه وممزق ملكه وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فمزقها والله ممزقه وممزق ملكه وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير»، قلت: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني صاحبي بها فأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جفن سيفي، ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي تدعوني إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل؟ فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جنب سيفي فلما فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً وإنك رسول الله فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها إنا سفر[1] مرملون، قال: فناداه رجل من طائفة الناس أنا أجوزه ففتح رحله فإذا هو بحلة صفراء فوضعها في حجري قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: «أيكم ينزل هذا الرجل؟» فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ فقال: تعال يا أخا تنوخ فأقبلت أهوي حتى كنت في مجلسي الذي كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره وقال هنا امض لما أمرت له فجلست في ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة في موضع مصرف الكتف مثل المحجمة الضخمة، قال محمد بن عمر فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر ذلك له فدعا قومه إلى التصديق بالنبي ﷺ فأبوا حتى خافهم على ملكه وهو في موضعه بحمص لم يتحرك ولم يزحف[2] وكان الذي خير النبي ﷺ من تعبية أصحابه ودنوه إلى وادي الشام باطلاً لم يرد ذلك ولا هَمَّ به.

وذكر السهيلي أن هرقل أهدى هدياً فقبل رسول الله ﷺ وفرقها على المسلمين، وأن هرقل أمر منادياً ينادي ألا إن هرقل آمن بمحمد واتبعه فدخلت الأجناد في سلاحها وطافت بقصره تريد قتله فأرسل إليهم أني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم فقد رضيت عنكم فرضوا عنه، ثم كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً مع دحية رضي الله عنه يقول فيه: إني مسلم ولكن مغلوب على أمري، فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال: كذب عدو الله والله ليس بمسلم بل هو على نصرانية. وروى البيهقي عن ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان وعبد الله بن بكر والبيهقي عن عروة بن الزبير قال: «لما توجه رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة من تبوك بعث خالد بن الوليد بأربعمائة وعشرين فارساً في رجب سنة تسع إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل وكان أكيدر من كندة وكان نصرانياً، فقال خالد: كيف لي به وسط بلاد كلب وإنما أنا في أناس يسيرون، فقال رسول الله ﷺ: «ستجده يصيد البقر

(١) سفر جمع مسافر، كركب وراكب.
(٢) الزحف أن يتحرك حركة ضعيفة كالصبي على إسته.

فتأخذه فيفتح الله لك دومة فإن ظفرت به فلا تقتله وائت به إليَّ» فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صافية وهو على سطح له مع امرأته الرباب بنت أنيف بن عامر الكندية، فصعد أكيدر على ظهر الحصن من الحر وقينة تغنيه ثم دعى بشراب فشرب فأقبلت البقرة الوحشية تحك بقرونها باب الحصن الحديث فنزل أكيدر وركب فرسه وركب معه نفر من أهل بيته معه أخوه حسان ومملوكان له فخرجوا من حصنهم بمطاردهم فلما فصلوا من الحصن أخذته خيل خالد فاستأسر أكيدر وامتنع حسان وقاتل حتى قتل وهرب المملوكان ومن كان معه فدخلوا الحصن.

وكان على حسان قباء ديباج مخوص[١] بالذهب فاستلبه وقال خالد لأكيدر: هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتي بك رسول الله ﷺ على أن تفتح لي دومة، فقال أكيدر: نعم، فانطلق به خالد حتى أدناه من الحصن فنادى أكيدر أهله أن افتحوا باب الحصن فأرادوا ذلك فأبى عليهم فصاد أخو أكيدر، فقال أكيدر لخالد: تعلم والله إنهم لا يفتحون لي رأوني في وثاقك فخل عني فلك الله والأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتني على أهلي قال خالد: فإني أصالحك فقال أكيدر: إن شئت حكمتك وإن شئت حكمتني، قال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت فصالحه على ألفي بعير وثمان مائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح على أن ينطلق به وبأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيهما حكمه فلما قضاه خالد على ذلك خلى سبيله ففتح باب الحصن فدخل خالد وأوثق مصاداً أخا أكيدر وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح ولما ظفر خالد بأكيدر وبأخيه حسان، أرسل خالد عمر بن أمية الضميري إلى رسول الله ﷺ بشيراً وأرسل معه قباء حسان، قال أنس وجابر رأينا قباء حسان أخي أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسون بأيديهم ويتعجبون من هذا فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا والذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» ثم لما قبض خالد ما صالحه عزل للنبي ﷺ الصفح ثم خمس الغنائم ثم قسم الغنائم بين أصحابه، قال أبو سعيد الخدري: أصابني درع وبيضة وعشر من الإبل وقال واثلة أصابني ست فرائض، وقال عبد الله بن عمرو بن عوف كنا أربعين رجلاً من بني مزينة أصاب كل رجل خمس فرائض[٢] مع سلاح ودرع ورماح، قلت: وتفاوت السهم بتفاوت القيامة ثم إن خالداً توجه إلى المدينة ومعه أكيدر ومصاد.

روى محمد بن عمر عن جابر قال: رأيت أكيدر حين قدم به خالد عليه صليب ذهب وعليه الديباج فلما رأى النبي ﷺ سجد له فأومى رسول الله ﷺ بيده لا لامرأتين وأهدى لرسول الله ﷺ هدية فيها كسوة، قال ابن الأثير وبغلته وصالحه على الجزية وبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما، وكتب رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمانهم، ولما بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة أشفق ملك أيلة

(١) بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وفتح الواو المشددة والصاد المهملة، المنسوج بالذهب.

(٢) فرائض جمع فريضة سمي به لأنه يؤخذ في فريضة الزكاة ثم اتسع حتى قيل في غير الزكاة.

بحنة بن رؤبة أن يبعث إليه رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر فقدم على رسول الله ﷺ وقدم معه أهل جرباً وأذرح، قال أبو حميد الساعدي، قدم ملك أيلة على رسول الله ﷺ فأهدى إلى رسول الله ﷺ بغلة بيضاء فكساه رسول الله ﷺ برداً وكتب له كتاباً» رواه ابن أبي شيبة والبخاري.

وروى محمد بن عمر عن جابر قال: رأيت يحنة بن رؤبة يوم أتى رسول الله ﷺ وعليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية فأومىء برأسه فأومىء إليه رسول الله ﷺ أن ارفع رأسك وصالحه يومئذٍ وكساه برداً يمنية فاشتراه بعد ذلك أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار وأمر له بمنزله عند بلال انتهى.

قالوا: وقطع الجزية جزية معلومة ثلاثمائة دينار كل سنة وكانوا ثلاثمائة رجل وكتب لهم بذلك كتاباً وكتب ﷺ أذرح كتاباً وصالح رسول الله ﷺ أهل مقناً على ربع ثمارهم وربع عربهم، وروى ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم عن أبي حميد الساعدي قال: «جاء ابن العُلَما صاحب أيلة رسول الله ﷺ بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء فكتب إليه رسول الله ﷺ وأهدى له برداً» روى أحمد عن جابر بن عبد الله وابن سعد عن يحيى بن كثير أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة وعلى ذلك جرى محمد بن عمر وابن سعد وابن حزم وغيرهم، وقال ابن عقبة وابن إسحاق: بضع عشرة ليلة، قال محمد بن عمر: شاور رسول الله ﷺ أصحابه في التقدم يعني من تبوك إلى الشام فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إن كنت مأموراً فسر وإلا فللزوم جمعاً كثيراً وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا منهم وقد أفزعهم دنوك فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله تعالى لك أمراً.

روى أحمد والطبراني والطحاوي من طريق أن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذا كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها»[1] قال الحافظ في بذل الماعون لعله بلغه ﷺ أن الطاعون في الجهة التي كان يقصدها وكان ذلك من أسباب رجوعه من غير قتال، وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف من حديث شهر بن حوشب عن عبد الرحمٰن بن غنم أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا إن كنت نبينا فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق رسول الله ﷺ قولهم فغزا غزوة تبوك فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى آيات من بني إسرائيل ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] فأمره بالرجوع إلى المدينة، روى إسحاق بن راهويه عن أبي هريرة وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا: يا رسول الله لو أذنت فنخر من نواضحنا[2] فأكلنا فلقيهم عمر بن الخطاب

---

(١) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه أحمد في المسند ١/١٧٨، ١٨٠، ١٨٦، ٣/٤١٦، ٤/١٧٧، ١٨٦، ٥/٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٣٧٣.

(٢) نواضح جمع ناضح وهو البعير الذي يستقى عليها الماء ثم استعمل في كل بعير.

فأمرهم أن يمسكوا عن نحرها، فقال: يا رسول الله أذنت الناس في نحر حمولتهم يأكلونها، فقال رسول الله ﷺ: شكوا إليّ ما بلغ من الجوع فأذنت لهم بنحر الرفقة البعير والبعيرين ويتعاقبون فيما فضل فهم قافلون إلى أهلهم، فقال عمر: يا رسول الله إنك إن فعلت قل الظهر ولكن ادع بفضل أزوادهم جميعاً وادع الله لهم فيها بالبركة فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فدعا بنطع فبسط ونادى منادي رسول الله ﷺ من كان عنده فضل من زاد فليأت به، فجعل الرجل يأتي بكف ذرة ويجيء الآخر بكسرة وجعل الرجل بالمد الدقيق أو السويق، أو التمر وكان جميع ما جاؤوا به سبعاً وعشرين صاعاً، ثم قام رسول الله ﷺ فتوضأ وصلى ركعتين ثم دعا الله أن يبارك فيه، قال أبو هريرة: فما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأه وأكلوا حتى شبعوا وفضل فضلة، وقال عمر: فأخذوا حتى صدروا وإنه نحو ما كانوا يحرزون، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله لا يأتي بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة» وفي حديث أبي قتادة عند أبي نعيم ومحمد بن عمر أن رسول الله ﷺ عرش ليلة قافلاً من تبوك فنمنا فما انتبهنا إلا بحر الشمس فقلنا: إنا لله فاتنا الصبح فقال رسول الله ﷺ: «لنغيظن الشيطان كما غاظنا» فتوضأ من ماء إداوة معي ففضل فضلة، فقال: «يا أبا قتادة احفظ بماء في الإداوة» فصلى بنا الفجر بعد طلوع الشمس فقرأ بالمائدة فلما انصرف من الصلاة قال: «أما أنهم لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا» وذلك أن أبا بكر وعمر أراد أن ينزلا بالجيش على الماء فأبوا ذلك عليهما فنزلوا على غير ماء بفلاة من الأرض فركب رسول الله ﷺ فلحق الجيش عند زوال الشمس ونحن معه وقد كادت أعناق الخيل والرجال والركاب تقطع عطاشاً فدعا رسول الله ﷺ بالركوة فأفرغ ماء من الإداوة فيها ووضع أصابعه عليها فنبع الماء من بين أصابعه، وأقبل الناس فاستقوا وفاض الماء حتى ردّوا ورووا خيلهم وركابهم وكان في العسكر اثنا عشر ألف بعير والناس ثلاثون ألفاً والخيل اثني عشر ألف.

وروى ابن إسحاق ومحمد بن عمر قالوا: أقبل رسول الله ﷺ قافلاً حتى إذا كان بين تبوك وواد يقال له وادي الناقة كان فيه وشل يخرج منه في أسفله قدر ما يروي الراكبين أو ثلاثة فقال رسول الله ﷺ: من سبقنا إلى ذلك الوشل فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه، فسبق إليه أربعة من المنافقين معتب بن قشير، والحارث بن يزيد ووديعة بن ثابت وزيد بن اللصيب فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم يرقيه شيئاً فقال من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل: فلان وفلان فقال: «ألم أنهكم» فلعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل ثم مسحه بأصبعيه ثم اجتمع منه في كفه ماء قليل ثم نضحه به ثم مسحه بيده ثم دعا بما شاء الله أن يدعو فانخرق من الماء، قال معاذ بن جبل: والذي نفسي بيده لقد سمعت له من شدة انخراقه سيل الصواعق فشرب الناس ما شاؤوا واستقوا ما شاؤوا، ثم قال رسول الله ﷺ للناس: «لئن بقيتم لتسمعن بهذا الوادي وهو أخصب مما بين يديه ومما خلفه».

وروى محمد بن عمر وأبو نعيم عن جماعة من أهل المغازي قال: بينا رسول الله ﷺ يسير منحدراً للشنة وهو في قيظ شديد عطش العسكر حتى لا يوجد للشنة ماء قليل ولا كثير

فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل أسيد بن حضير وقال: عسى أن تجد لنا ماء فأدرك أسيد راوية من ماء مع امرأة فجاء أسيد بالماء ودعا رسول الله ﷺ بالبركة وقال هلم أسقيتكم فلم يبق معه سقاء إلا ملؤوه ثم دعا بركابهم وخير لهم فسقوها، ويقال: إنه ﷺ أمر بما جاء به فصبه في قعب عظيم فأدخل رسول الله ﷺ فيه يده وغسل وجهه ويديه ورجليه ثم صلى ركعتين ثم رفع يديه مداً ثم انصرف وإن القعب ليفور، فقال رسول الله ﷺ للناس رووا واتسع الماء وانبسط الناس حتى يصف عليه المائة والمئتان فارتوا فارتووا من القعب ليجيش بالروا، وروى الطبراني بسند صحيح عن فضالة عن عبيد أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك فجهد الظهر جهداً شديداً فشكوا ذلك إليه ورآهم يزجون[1] ظهورهم فوقف في مضيق والناس يمرون فيه فنفخ فيها، وقال: «اللهم احمل عليها في سبيلك فإنك تحمل على القوي والضعيف والرطب واليابس والبر والبحر» فاستمرت فما دخلنا المدينة إلا وهي تنازعنا أزمتها، ولما أشرف رسول الله ﷺ المدينة قال: «هذه طابة»[2] رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن جابر وأبي حميد الساعدي وغيرهم فلما رأى أحد قال: «هذا أُحد جبل يحبنا ونحبه»[3] روى البيهقي عن عائشة لما قدم النبي ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن: (شعر):

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ... وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

قال ابن سعد: وجعل الناس يبيعون أسلحتهم يقولون قد انقطع الجهاد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم وقال: «لا يزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال» وكان قدومه ﷺ بالمدينة في رمضان وقد خرج من المدينة إلى تبوك في رجب سنة تسع وكان بين المدينة وتبوك نحو أربعة عشر مرحلة، قال في النور: كذا قالوا: قد سرناها مع الحجيج في اثني عشرة مرحلة وبينها وبين دمشق إحدى عشر مرحلة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

قد وقع الفراغ من هذا التفسير المظهري وقت العصر يوم الشنبة في التاريخ الهفتم... الشهر لذي الحجة السنة ١٢٤٣ بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه أجمعين

---

(١) أي يسوقون.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٨١، ومسلم في الفضائل حديث ١١، وأحمد في المسند ٥/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ١٦، والجهاد باب ٧١، ٧٤، وأحاديث الأنبياء باب ١٠، ومسلم في الحج حديث ٥٠٣، والفضائل حديث ١٠.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يونس

مائة وتسع آيةً مكِّيّة إلا ثلاث آيات ﴿فإن كنتَ في شكٍّ﴾

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا
وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ
فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿الٓر﴾ الكلام عليه في أوائل سورة البقرة، قرأ ابن كثير وقالون وحفص[1] الرٰ والمٓرٰ بالفتح وورش بين اللفظين والباقون بالإمالة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة والقرآن من الآيات، وقيل: المراد بها الآيات التي نزلت قبل هذه السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن والإضافة بمعنى مِنْ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ وصف به لاشتماله على الحِكَم أو لأنه كلام حكيم، أو المعنى أنه محكم آياته لم ينسخ منها شيء إن كان المراد آيات هذه السورة، أو محكم عن

(١) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

الكذب والاختلاف، قال الحسن: حكم فيها بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغي وحكم فيها بالجنة لمن أطاعه والنار لمن عصاه.

أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عبّاس قال: لمّا بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب، وعجباً خبر كان واسمه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ واللام في للناس متعلق بمحذوف حال من قوله عجباً، وفي اللام دلالة على أنهم جعلوه عجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم، والعجب حالة يعتري للإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة وجه الإنكار على استعجابهم أن عادة الله تعالى جارية من بدء خلق آدم عليه السلام على بعث الرسل من البشر ومن ثَمَّ أنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩] وأيضاً عادة الملوك جارية بأن الكتاب والخطاب يكون بلسان المخاطبين والرسول من جنس من أرسل إليهم فإنه لا بد للإفادة والاستفادة من المناسبة بينهما، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥] ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني من آحاد رجالهم دون عظيم من عظمائهم، قالوا: وإن كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ[1] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أحد أشرف من محمد ﷺ يعنون الوليد بن مغيرة من مكة ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف فأنزل الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] الآية، وكان هذا من فرط حماقتهم وجهلهم بحقيقة الوحي، وقد كان رسول الله ﷺ أعظم وأتم وأكمل في كرائم الأوصاف وفي كل شيء إلا في المال، وخفةُ الحال أعون شيء في هذا الباب ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أنْ هي المفسرة أو المخففة من الثقيلة في موضع مفعول أوحينا ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عم الإنذار إذ قَلَّ من أحد ليس فيه ما ينبغي منه الإنذار، وخص البشارة بالمؤمنين لعدم استحقاق الكفار به ﴿أَنَّ﴾ أي بأنّ ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال عطاء: أي مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه، يعني منزلة رفيعة يسبقون إليها ويقيمون فيها، سمّيت قَدَماً لأن السبق والقيام يكون بالقَدَم كما سميت النعمة يداً لأنها تعطي باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحققها وللتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية، وأصدق القول شهادة أن لا إله إلا الله، ويعود إلى ما قلنا ما قال ابن عباس: في تفسير القَدَم أي أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم، وما قال الضحاك أي ثواب صدق فإن المنزلة عند الله يعبر بالأجر والثواب، وقال الحسن: يعني به عملاً صالحاً أسلفوهُ يقدمون عليه، فهو بشارة بأنهم يجدون عند ربهم ما قدموا من الأعمال فَالقَدَمُ بمعنى التقدم، وقال أبو عبيدة كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدمٌ يقال لفلان قدمٌ في الإسلام، وله عندي قَدَمُ صدق أو قَدَمُ سوء، وروى علي بن أبي طلحة عن

(١) في الأصل: لولا أُنزل.

ابن عباس هو السعادة في الذكر الأول، وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول ﷺ، قال البخاري قال زيد بن أسلم: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ محمد ﷺ ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعنتاً وعناداً لما رأوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة وسمعوا كلاماً معجزاً عن المعارضة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني الرسول ﷺ ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ على وزن فاعل كذا قرأ ابن كثير والكوفيون وقرأ الباقون لَسِحْرٌ بغير ألف، والإشارة حينئذٍ إلى القرآن، يعني أن هذا الكلام لكونه سحراً يمنعنا عن المعارضة وجاز أن تكون الإشارة إلى كل معجزة رأوْها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا أي في قدرها ولو شاء لخلقهن في لمحة وإنما فعل ذلك لتعليم خلقه التثبت ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أجمع أهل السنة من الخلف والسلف على[1] أن الله تعالى منزه عن صفات الأجسام وصفات الحدوث، فلهم في هذه الآية وأمثالها سبيلان: أحدهما: تأويلها بما يليق به تعالى بناءً على عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] على اسم الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وقد مر البحث عليه في سورة آل عمران، فقالوا معنى استوى استولى على العرش الذي هو أعظم المخلوقات ومحدد الجهات، وذا يستلزم استيلاءه تعالى على جميع الخلائق، وأسند البغوي تأويل الاستواء بالاستيلاء إلى المعتزلة وكلام السلف الصالح يأبى عن سبيل التأويل بل المختار عندهم الإيمان بتلك الآيات وتفويض علمه إلى الله تعالى والتحاشي عن البحث عنه، قال محمد بن الحسن: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب من غير تفسير ولا وصف ولا شبه، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، وقال مالك بن أنس: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والسؤال عنه بدعة، فبناءً على هذا السبيل نقل عن السلف القول باستوائه تعالى على العرش مع قولهم بالتنزيه الصرف قال أبو حنيفة «إن الله في السماء دون الأرض» رواه البيهقي، وروى عنه من قال: لا أعرف رَبيّ في السماء أو في الأرض فقد كفر لأن الله يقول ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وعرشه فوق سماواته، وروي عنه أنه قال: من أنكر الله في السماء فقد كفر، وقال الشافعي: إن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء وينزل كيف شاء، ومثل ذلك قال أحمد بن حنبل، وقال إسحاق بن راهويه: إنه أجمع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء وهو قول المزني والذهبي والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبيهقي وغيرهم من أئمة الحديث، وقال أبو زرعة الرازي: ما ينبئ عن إجماع أهل السنة على ذلك، وقال عثمان بن سعيد الدارمي الحافظ اتفقت الكلمة بين المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سماواته، وقال سهل بن عبد الله التستري: لا يجوز

---

(١) في الأصل: أن الله.

لمؤمن أن يقول كيف الاستواء لمن خلق الاستواء ولنا عليه الرضاء والتسليم لقول النبي ﷺ أنه تعالى على العرش، وقال محمد بن جرير: حسب امرئٍ أن يعلم أن ربه الذي على العرش استوى فمن يجاوز ذلك فقد خاب وخسر، وقال ابن خزيمة: من لم يقر أنّ الله على عرشه استوى فوق سبع سماواته بائن من خلقه فقد كفر فيستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

وقال الطحاوي: العرش والكرسي كما بيّن في كتابه وهو مستغن عن العرش وما دونه محيطُ بكل شيء وفوقه، وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري المتكلم في كتاب اختلاف المضلين ومقالات الإسلاميين مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث جملة قولهم الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئاً، وأن الله على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وله يدان بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقال أبو نعيم في الحلية طريقتنا طريقة السلف المتبعين الكتاب والسنة وإجماع الأمة ومما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملاً بجميع صفاته إلى أن قال: وإن الأحاديث التي ثبتت في العرش والاستواء عليه يقولون بها ويثبتونها من غير تكيف ولا تمثيل وأنه بائن من خلقه، وقال ابن عبد البر: إن الله في السماء على العرش من فوق سبع سماوات كما قالت الجماعة، وقال الخطيب: مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقال إمام الحرمين: والذي تُرضيه ديناً وتدين الله به عقيدة اتباع سلف الأئمة وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله، وقال البغوي: أما أهل السنة فيقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب الإيمان به، قال البيضاوي: معناه أن له استواء على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن، وقال أبو بكر علي بن عيسى الشبلي أعْلَمُ الصوفية في زمانه: الرب في السماء يقضي ويمضي، وقال شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري في أخبار شتى: إن الله في السماء السابعة على العرش، وللشيخ عبد القادر الجيلاني في الباب كلام كثير في الغنية هذه الأقوال كلها ذكرها الذهبي في كتاب العلو وذكر هذا المذهب عن جماعة كثيرة من أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن دونهم من الفقهاء والمحدثين والصوفية يطول الكلام بذكرهم وقد ذكرت هذه المسألة مختصراً في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد ذكرنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ما قال أصحاب القلوب: من تجليات الله تعالى في بعض مخلوقاته برقيات ودائميات غير مستدعيات حدوث أمر في ذاته تعالى وكونه محلاً للحوادث، ولا تنزلاً له سبحانه عن مرتبة التنزيه الصرف بل مبنيات على حدوث أمر في الممكن حتى يصير صالحاً لذلك التجلّي، وأيضاً ذكرنا مسألة التجلّي على قلب المؤمن والكعبة الحسناء والعرش العظيم في تلك السورة في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] فليرجع إليهما من غفل عنهما.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ التدبير النظر في إدبار الأمور حتى تأتي محمودة العاقبة، يعني يقدر أمر الكائنات على ما تقتضيه الحكمة ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ تقرير لعظمته وعز جلاله، ورد على النضر بن الحارث حيث قال: إذا كان يوم القيامة يشفعني اللات والعزى، وفيه إشارة إلى ثبوت الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف والجملة بدل مما سبق يعني هو ربكم لا غير، أو لا يشركه أحدٌ في شيء من ذلك ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ دون غيره من إنسان أو ملك فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتفكرون أدنى تفكر فيظهر لكم أنه المستحق للعبادة دون غيره مما تعبدون.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ مصدر أو ظرف ﴿جَمِيعًا﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره فاستعدوا للقائه ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه فإن قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعد من الله تعالى ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره وهو ما يدل عليه وَعْدَ الله ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ بالحياة الدنيا، قرأ العامة إنَّه بالكسر على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر بالفتح على معنى لأنه وهو تعليل لقوله ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويجوز أن يكون منصوباً بما نصب وَعْدَ الله أو مرفوعاً بما نصب حقًّا ﴿ثم يُعِيدُهُۥ﴾ بعد إهلاكه بالحياة الأخرى ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بعدله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأن الإيمان عدل قويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو أوجه لمقابلة قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ أي مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ معناه وليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غيّر النظم للمبالغة في استحقاقهم العذاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة إنما هو الإثابة وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، وأما تعذيب الكفار فهو واقع بالعرض كأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤمُ افعالهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ قرأ قنبل ضِئَاءً وبِضِئَاءٍ ههنا وفي الأنبياء والقصص على القلب بتقديم اللام على العين، والباقون بياء منقلبة عن واو لانكسار ما قبلها وهمزة متطرفة، وهو مصدر كقيام، أو جمع ضوء كسياط جمع سوط والمضاف محذوف أي ذات ضياء ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذات نور، والنور أعم من الضوء فإنه أقوى أفراد النور، وقيل: ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ والضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل، أو قدر كل واحد منهما ذا منازل أو للقمر وتخصيصه بالذكر لمعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع من الصوم والزكاة والحج به ولذلك علله بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ بعدّ الأشهر المنوطة بسير القمر ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ الخلق ﴿إِلَّا﴾ متلبساً[1] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾

---

(١) في الأصل: ملتبساً.

أي لإظهار صنعته ودلالة قدرته مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة ﴿يُفَصِّلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالياء على الغيبة لقوله تعالى ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ والباقون بالنون على التكلم والتعظيم الآيات ﴿لِلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يتدبرون.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في مجيء كل منهما خلف الآخر أو في اختلاف لونهما ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من أنواع الكائنات ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وتنزهه عن المناقص ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ العواقب فإنه يحملهم على التفكر والتدبر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي ثوابنا فإن أعظم المثوبات لقاء الله سبحانه ورؤيته ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اختاروها على الآخرة ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أي سكنوا إليها واقتصروا على لذائذها وزخارفها وتركوا ما يفيدهم للآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي عن الأدلة الدالة على وجود الصانع ﴿غَٰفِلُونَ﴾ فعلى هذا المراد بالأولين أهل الكتاب من الكفار الذين يعتقدون الصانع ويعلمون البعث والنشور ومع ذلك اختاروا الدنيا على الآخرة ويئسوا من ثواب الآخرة واقتصروا على لذائذ الدنيا، وبالآخرين الذين لم يوحدوا الله تعالى ولا يعرفون البعث والجزاء، وقال البيضاوي: المراد بالأولين من أنكر البعث ولا يرجون أي لا يتوقعون الجزاء ولم يروا إلا الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاهم حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له، وقيل العطف لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم أصلاً، وقال البغوي: الرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع فمعنى ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا، وقال ابن عباس ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يعني عن محمد ﷺ والقرآن غافلون معرضون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟﴾ أولئك مبتدأ مأواهم مبتدأ ثان والنار خبره والجملة خبر أولئك وجملة أولئك خبر إنَّ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي أي بما واظبوا عليه وتمرّنوا بالمعاصي، الباء في بما كانوا متعلق بمحذوف دل عليه الكلام أي جوزوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم ﴿رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي يرشدهم بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يُؤدي إلى الجنة، قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نوراً يمشون به، وقيل: معنى ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يهديهم ربهم لدينه يعني لإدراك حقائق الدين، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم»(١) رواه أبو نعيم في الحلية، وقيل: معناه يثيبهم ويجزيهم أو يهديهم لما يريدونه في الجنة، قال البيضاوي: مفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية الإيمان والعمل الصالح، لكن دل منطوق قوله بإيمانهم على استقلال الإيمان بالسببية فإن العمل الصالح كالتتمة والرديف

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٥، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٣، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٧٢، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٣٦٤.

له ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي بين أيديهم كقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه وجملة تجري مستأنفة أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على معنى يهديهم لإدراك الحقائق أو لما يريدونه في الجنة حال كونهم كذلك، وقال البغوي: فيه إضمار تقديره يهديهم أي يرشد ربهم بإيمانهم إلى جنات تجري من تحتهم الأنهار فعلى هذا جملة تجري صفة لجنات لكن يجب حينئذ تقدير ضمير في تلك الجملة إلا أن يقال في قوله تعالى ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وضع المظهر موضع الضمير مغن عنه يعني فيها وقال البيضاوي: هذا خبر أو حال آخر منه أو من الأنهار أو متعلق بتجري أو بيهديهم.

﴿دَعْوَاهُمْ﴾ أي دعاؤهم ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي اللهم نسبحك تسبيحاً أي ننزهك من كل سوء، قال البغوي: قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل في ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً وإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله ﷻ فذلك قوله تعالى ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقيل: دعواهم أي قولهم وكلامهم فيها تلذذاً سبحانك اللهم. روى مسلم وأحمد وأبو داود عن جابر في حديث مرفوع «أن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»[1] ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنّة ﴿سَلَامٌ﴾ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام وتدخل[2] عليهم الملائكة من كل باب يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] وتأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام ويقرأ الله تعالى عليه السلام. روى ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني والآجري عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قول الله تعالى ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[3] [يس: ٥٨]» الحديث، وروى أحمد والبزار وابن حبان عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسدّ بهم الثغور وتتقىٰ بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته إيتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم، قال: إنهم كانوا عبادي يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً وتسدّ بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام

(١) أخرجه مسلم في الجنة حديث ١٨، ١٩، والدارمي في الرقاق باب ١٠٤، وأحمد في المسند ٣/ ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٨٤.
(٢) في الأصل: ويدخلون.
(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[١] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة والله سبحانه بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات فحمدوا الله تعالى وأثنوا عليه بصفات الإكرام، وأن هي المخففة من الثقيلة، قلت: وجاز أن تكون مفسرة لأنّ في الدعاء معنى القول، قال البغوي: يفتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد ويتكلمون بينهما بما أرادوا.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ أي يسرعه إليهم ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس: هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده لعنكم الله ولا بارك فيكم كذا قال قتادة ومعنى الآية ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ الذي دعوه واستعجلوه تعجيلاً كتعجيله لهم الخير حين دعوه واستعجلوه فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه، وضع استعجالهم موضع تعجيله لهم للإشعار بسرعة إجابة لهم في الخير حتى كأنّ استعجالهم به تعجيل لهم وبأن المراد بالشر الشر الذي استعجلوه، قيل: نزلت الآية في النضر بن الحارث حين قال ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي لأميتوا وأهلكوا قرأ ابن عامر ويعقوب لقضى بفتح القاف والضاد على البناء للفاعل وأجَلَهم بالنصب على المفعولية والباقون بضم القاف وكسر الضاد على البناء للمفعول ورفع أجلهم ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يخافون البعث والعذاب ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ جملة فنذر معطوف على فعل محذوف دل عليه الشرطية تقديره ولكن لا تعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً واستدراجاً.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الشدة والبلاء ﴿دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ ملقياً بجنبه أي مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ فائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال يعني يدعو لإزالته كائناً على أي حال كان سواء كان قائماً أو قاعداً أو راقداً يعني يدعو فوراً ويستمر عليه في جميع الأحوال ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أي مضى على طريقه واستمر على كفره ولم يشكر ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أصله كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن يعني كأن لم يكن في ضر وبلاء ولم يدعنا قط ﴿إِلَىٰ﴾ كشف ﴿ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن الذكر والعبادات ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر واستعمال القوىٰ والجوارح فيما لا ينبغي لمّا ظرف لأهلكنا ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الواضحة عطف على ظلموا أو حال من فاعله بتقدير قد فالإهلاك ترتب على الكفر بعد تمام الحجة بمجيء الرسل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ أي القرون الظالمة عطف على ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ اللام

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٦٨.

لتأكيد النفي، أي ما استقام لهم أن يؤمنوا الفساد استعدادهم حيث كان مبادي تعيناتهم ظلال اسم المضل فخذلهم الله تعالى أو ما كانوا مؤمنين في علم الله الأزلي بل كان الله يعلم أنهم يموتون على الكفر، وقيل: مَا كَانوا معطوف على ظَلَموا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو الإهلاك بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم على الكفر بعد ما تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي نجزي كل مجرم أو نجزيكم فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم هم المستحقون لهذا الاسم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد القرون التي أهلكناهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ خيراً أو شراً فيعاملكم على مقتضى أعمالكم وهل تعتبرون بهم فتصدقوا رسلنا، وكيف منصوب بتعملون لا بننظر لأن معنى الاستفهام يقتضي صدر الكلام وفيه دلالة على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذواتها ولذلك يحسن الأفعال تارة ويقبح أخرى، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون».

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ
بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ
فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ
ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا
كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ
وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ
أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ
أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞
لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ

قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا﴾ قال قتادة: يعني على مشركي مكة، وقال مقاتل: وهم خمسة عبد الله بن أبيّ المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قبيس العامري والعاص بن عامر بن هشام ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات الدلالة على كونها من عند الله تعالى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يخافون البعث وينكرون القيامة ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ أي بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من الثواب والعقاب بعد الموت وما نكرهه من معايب آلهتنا ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ بأن تجعل مكان آيةٍ آيةً أخرى، قال مقاتل: قال النفر الخمسة المذكورة للنبي ﷺ إن تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند[1] نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو مكان حرام حلالاً وحلالٍ حراماً ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ قرأ الحرميان وأبو عمرو[2] بفتح الياء والباقون بإسكانها أي ما يصلح لي ﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو[3] بفتح الياء والباقون بإسكانها أي من قبل نفسي تلقاء مصدر استعمل ظرفاً اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر، أو لأن التبديل مقدور للإنسان بأن يقرأ آية الرحمة مكان آية العذاب بخلاف إتيان قرآن آخر معجز مثله، أو لأن المراد بالتبديل ههنا أعم من تبديل القرآن بقرآن آخر أو آية مكان آية ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ تعليل لقوله ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه بوجه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض وردٌّ لما عرّضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ وسماه عصياناً حيث قال: ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ الحرميان وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بالتبديل ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي يوم القيامة وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ غير ذلك أو عدم تلاوتي عليكم لم ينزل القرآن عليّ ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ

---

(١) في الأصل: من عندك نفسك.
(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ أي لا أعلمكم الله على لساني ﴿بِهِۦ﴾ قرأ البزي عن ابن كثير لأدراكم بالقصر على الإيجاب ولام التأكيد يعني لو شاء الله ما تلوته عليكم ولعلمكم به من غير قراءتي على لسان غيري، وفيه إشارة إلى أنه الحق الذي لا محيص عليه لو لم أرسل به لأرسل به غيري ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أي زماناً وهو أربعون سنة ﴿من قبله﴾ أي قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء ما لم يوح إليّ وفيه إشارة إلى كون القرآن معجزاً خارقاً للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنةً لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشأ شعراً ولا خطبةً، ثم قرأ عليهم كتاباً بدت فصاحته فصاحة كل منطيق وعلا كل منظوم ومنثور واحتوى على قواعد الأصول والفروع وأغرب عن قصص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه عُلِمَ أنه معلم به من الله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس من قبل نفسي بل من عند الله.

فائدة: لبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحي إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة كذا روى مسلم عن ابن عباس، قال محمد بن يوسف الصالحي: اتفق العلماء على أنه ﷺ أقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين وبمكة قبل النبوة أربعين سنة وإنما الخلاف في قدر إقامته بمكة بعد النبوة قبل الهجرة والصحيح أنه ثلاث عشرة سنة، وذكر البغوي برواية أنس أنه ﷺ أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وتوفي وهو ابن ستين سنة وكذا روى ابن أسعد وعمرو بن شيبة والحاكم في الإكليل عن ابن عباس قال البغوي: والأول أشهر وأظهر وقد روى مسلم عن أنس «أنه قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة»[1] وكذا أبو بكر وعمر، وروى أبو داود الطيالسي ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان قال: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة وكذا أبو بكر وعمر، وروى الشيخان عن عائشة قالت: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة[2]، قال النووي: وهو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء، وروى أحمد ومسلم عن عمار بن أبي عمار قال: قلت لابن عباس كم أتى على رسول الله ﷺ يوم مات؟ قال: أتحسب؟ قلت[3] نعم قال: أمسك أربعين بعث بها وخمس عشرة أقام بمكة يأمن ويخاف وعشرة مهاجره بالمدينة. وروى الحاكم في الإكليل عن علي بن أبي زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة، قال الحاكم في الإكليل والنووي: اتفق العلماء على أن أصح الروايات ثلاث وستين سنة وتأولوا الباقي على ذلك فرواية الستين اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ورواية الخمس

---

(١) انظر الحاشية التالية.

(٢) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في المناقب باب ١٩، والمغازي باب ٦٨، والترمذي في المناقب باب ١٣، ومالك في صفة النبي ﷺ حديث ١، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٣، ٣٥٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣/ ١٣٠، ٤/ ٩٦، ٩٧.

(٣) في الأصل: قال.

والستين متأوّلة عليها أو حصل فيها شك، وقد أنكر عروة على ابن عباس قوله خمس وستون سنة ونسبه إلى الغلط وأنه لم يدرك أول النبوة بخلاف الباقين، قال محمد بن يوسف الصالحي: أكثر الرواة عن ابن عباس حكوا عنه رواية ثلاث وستين فالظاهر أنه كان قال ذلك ثم رجع إلى ما عليه الأكثر والله أعلم، وحكى القاضي عن ابن عباس وسعيد بن المسيب رواية شاذة أنه بُعِثَ على رأس ثلاث وأربعين والصواب أربعون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفر بها ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا ينجوا المشركون ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي كفار مكة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادته ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه يعني الأصنام فإنها جمادات لا تقدر على نفع ولا ضر والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يشفع لنا فيما يَهِمُّنا من أمور الدنيا وفي الآخرة إنْ يكن بعث ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً وفيه تقريع وتهكم بهم إذ هؤلاء شفعاء وما لا يعلم الله لا تحقق له أصلا ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكد لنفيه، وفيه إشارة إلى أن ما يزعمونه إلهاً فهو إما سماوي كالملائكة أو أرضي كالأصنام وليس شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركون به. قرأ حمزة والكسائي تشركون بالتاء على الخطاب للكفار ههنا وفي سورة النحل في موضعين وفي سورة الروم والباقون بالياء على الغيبة.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ موحدين على الفطرة أو متفقين على الإسلام وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى قبيل بعثة نوح أو بعد الطوفان، أو من عهد إبراهيم إلى عمر بن لحي أو على الضلال في زمن فترة الرسل ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ باتباع الهوى والأباطيل أو ببعثة الرسل حين تبعهم طائفة وأصرت على الكفر أخرى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بأن جعل لكل أمة أجلاً وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأن لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بنزول العذاب في الدنيا وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فضلاً بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قال الحسن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ مضت في حكمه أنه لا يقضي بينهم ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ بالثواب والعقاب دون القيامة لقضي في الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ من الآيات التي اقترحوها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير أو المعنى الغيب يعني ما غاب عن الناس أي أمره تعالى عنده ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزول الآيات المقترحة أو فانتظروا بقضاء الله بيننا وبينكم بإظهار المحق على المبطل ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم على ما نزل عليّ من الآيات العظام واقتراحكم غيرها.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ﴾ أهل مكة ﴿رَحۡمَةً﴾ خصباً وسعة وصحة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ﴾ قحط وشدة ومرض ﴿مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ قال مجاهد: تكذيب واستهزاء، قلت: المكر عبارة عن إرادة الشر بغيره على وجه الإخفاء وإنما سمي تكذيب الآيات والاستهزاء بها مكراً لأن الظاهر فيه تكذيب الرسول وإرادة الشرّ به دون تكذيب الله سبحانه لكن الشر والتكذيب يعود إلى الله فإنها في الحقيقة كلامه تعالى، وقال مقاتل بن حبان مكرهم أنهم لا يقولون هذا رزقنا الله بل يقولون سقينا بنوء كذا وقيل مكرهم احتيالهم في دفعها والطعن فيها، قيل: قحط أهل مكة فلما كشف الله عنهم ورحمهم أسرعوا إلى الكفر والاستهزاء بآيات الله تعالى قبل أن يؤدوا شكر النعمة. روى البخاري «أن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»[1]، فأخذتهم سنة حصب كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف فأتى أبو سفيان فقال: يا محمد إنك تأمر بطاعة الله وصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم أن يكشف عنهم فدعا»، وفي رواية قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] فقيل له ان كشفت عنهم عادوا فدعا رسول الله ﷺ ربه فكشف الله عنهم» فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر ولَمَّا كانت كلمة إذا للمفاجأة دالة على سرعة مكرهم قال الله تعالى ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ منكم والمكر من الله تعالى إما الاستدراج كما يدل عليه قول علي رضي الله عنه من وسع الله عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله قلت: يعني من وسع الله عليه الدنيا وهو غير شاكر، وإما الجزاء على المكر وكونه تعالى أسرع مكراً من الناس أنه دبر عقابهم أو استدراجهم قبل أن يدبروا كيدهم وقيل معناه أن عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق فإن ما أراد الله بكم آت لا محالة وهو قادر على ما يريد وأنتم لا تقدرون على دفع الحق ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ أي حفظتنا ﴿يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ قرأ يعقوب يمكرون بالياء على الغيبة موافقاً لما سبق والباقون بالتاء الفوقية على الخطاب، تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف عن الحفظة فضلاً من أن يخفى على خالق الأشياء كلها من الأعراض والجواهر.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ أي يحملكم على السير ويمكنكم منه، كذا قرأ الجمهور وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ينشركم بالنون والشين من النشر ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي السفن الفلك لفظ مشترك بين الواحد والجمع والمراد ههنا الجمع بدليل قوله تعالى ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ أي بمن فيها عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة فإنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ أي لينة الهبوب الموصلة إلى المقصود ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا﴾ جواب إذا والضمير للفلك أو للريح الطيبة بمعنى تلقاها ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ ذات عصف أي شدة الهبوب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ وهو ما علا من الماء لشدة الريح ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ يجيء منه ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ لم يقل أيقنوا لأن اليقين لا يتصور فيما يكون في المستقبل بمجرد القرائن، ﴿أَنَّهُمۡ

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٥٨، والترمذي في تفسير سورة ٤٤، باب ١.

﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ يعني أحاط بهم الموج والمهلكات بحيث لا سبيل إلى الخلاص كمن أحاط به العدو ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله وكانت العرب لا يدعون في الشدائد إلا الله تعالى، وقوله ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ بدل اشتمال من ظنوا لأن دعاءهم من لوازم ظنهم ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا ربنا ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ الريح العاصف ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ هذه الجملة الشرطية إما على إرادة القول أو مفعول دعوا لأنه من جملة القول، وليس الكون في الفلك غاية للتسيير بل مضمون الجملة الشرطية بعد حتى بما في حيزها كأنّه قيل حتى إذا كان كيت وكيت مجيء الريح وتراكم الأمواج والظن بالهلاك والدعاء بالإنجاء.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ إجابة لدعائهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ يعني فاجئوا وسارعوا إلى ما كانوا عليه من البغي أي الظلم على الناس والتجاوز عن حدود الإباحة إلى الفساد، ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي مبطلين فيه تأكيد لقوله ﴿يَبْغُونَ﴾ فإن البغي لا يكون متلبساً[1] بالحق وفيه دفع لتوهم تخريب المسلمين ديار الكفار وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها بإذن الله تعالى ليجزى الفاسقين ويهديهم إلى الصلاح ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ فإن وباله راجع عليكم قال رسول الله ﷺ: «أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم»[2] رواه الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن عائشة، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهي راجعة على صاحبها: البغي والمكر والنكث»[3] رواه أبو الشيخ وابن مردويه في التفسير والخطيب عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما»[4] رواه ابن لال عن أبي هريرة ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي منفعة غير باقية، قرأ حفص بالنصب مصدر مؤكد أي تمتعون متاع الحياة الدنيا أو مفعول للبغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجار والمجرور من صلته والخبر محذوف تقديره بغيكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال، أو مفعول فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبر، وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر بغيكم بعد خبر أو هو خبر وعلى أنفسكم صلة أو خبر محذوف تقديره ذاك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ بالموت أو يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي حالها العجيبة في سرعة زوالها واغترار الناس ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ﴾ أي اشتبك وخالط بعضه بعضاً ﴿بِهِ﴾ أي بسبب الماء ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ من الحبوب والثمار والبقول ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ من الحشيش ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ

---

(١) في الأصل: ملتبساً.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٢٣، وأبو داود في الأدب باب ٤٣، والترمذي في القيامة باب ٥٧، وأحمد في المسند ٥/ ٣٦.

(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٧٨٠.

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٠٤، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢١٩.

﴿زُخْرُفَهَا﴾ حسنها وبهجتها بألوان النبات والأزهار ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أصله تزينت كذا قرأ ابن مسعود ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أي أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي على الأرض بمعنى أنهم متمكنون من تحصيل ثمرتها بالجزاز والقطاف والحصاد ورفع غلتها والانتفاع بها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ أي قضاؤنا بضرب زرعها ببعض العاهات بعد استيقانهم أنه قد سلم ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا﴾ أي زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ أي شبيهاً بالمحصود من أصله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أي كأن لم تلبث زرعها فحذف المضاف في الموضعين مبالغة وأقيم المضاف إليه مقامه مشتق من غنى بالمكان إذا أقام به ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ أي قبيل ذلك الزمان وهو مثل في الوقت القريب الماضي، والممثل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات وبهجتها فجاءةً وذهابها حطاماً بعدما كان غصناً وزين الأرض حين طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماءُ وإن كان متصلاً بحرف التشبيه لأنه من التشبيه المركب، قال قتادة: معناه المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون به.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟﴾ جميع الناس ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ أي دار السلامة عن الهلاك والآفات وهي الجنة، وقال قتادة السلام هو الله تعالى وداره الجنة وتخصيص هذا الاسم للتنبيه على ذلك. عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً قال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوّلوها له يفقهها قال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله محمد فرق بين الناس»(١) رواه البخاري ورواه الدارمي عن ربيعة الجرشي نحوه بلفظ «قيل لي سيد بنى داراً وصنع مأدبةً وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد قال: فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة»(٢) وقيل: المراد بالسلام التحية سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤] ﴿وَيَهْدِى﴾ من الناس ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام وطريق السنة وطريق الوصول إليه تعالى وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن الكافر لم يرد الله هدايته.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ العمل في الدنيا قال رسول الله ﷺ في حديث الإحسان: «أن تعبد

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢، والترمذي في الأدب باب ٨٦.

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ٢.

ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١] في الصحيحين من حديث عمر في قصة سؤال جبرائيل ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني المثوبة الحسنى أي الجنة، أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «للذين أحسنوا شهادة أن لا إله إلا الله الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى الله»[٢] ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهو النظر إلى وجه الله الكريم كذا روى ابن جرير وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الله تعالى يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنى وزيادة الحسنى الجنة وزيادة النظر إلى وجه الرحمن»[٣]، وكذا روى ابن جرير وابن مردويه واللالكائي وابن أبي حاتم من طرق عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ، ونحوه روى ابن مردويه وأبو الشيخ واللالكائي من طريقين عن أنس مرفوعاً وأبو الشيخ عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه، وابن جرير وابن مردويه وابن المنذر وأبو الشيخ في تفاسيرهم واللالكائي والآجري في كتاب الرؤية عن أبي بكر الصديق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ واللالكائي والآجري عن حذيفة بن اليمان في الآية نحوه.

وأخرج هناد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ واللالكائي عن أبي موسى الأشعري نحوه.

وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي من طريق عن عكرمة عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي من طريق السديّ عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن عروة عن ابن مسعود نحوه، وأخرج اللالكائي هذا التفسير بأسانيده عن سعيد بن المسيب وحسن البصري وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعامر بن سعيد البجلي وابن أبي إسحاق السبيعي وعبد الرحمن بن سابط وعكرمة ومجاهد وقتادة. قال القرطبي في كتاب الرؤية: هذا تفسير قد استفاض واشتهر فيما بين الصحابة والتابعين ومثله لا يقال إلا بتوقيف، روى مسلم وابن ماجه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم» ثم تلا هذه الآية، وروى البغوي بسنده هذا الحديث بلفظ قرأ رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ يا أهل الجنة إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فقالوا: ما هذا الموعد؟ ألم تثقل موازيننا وتبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتجرنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى الله عز وجل قال: فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[٤] قال القرطبي: قوله فيكشف الحجاب معناه يرفع الموانع عن الرؤية عن أبصارهم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ١، ٥ ـ ٧.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في المعجم الكبير ٨/٤٧.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٧، والترمذي في الجنة باب ١٦، وتفسير سورة ١٠، باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

حتى يروه على ما هو عليه من نور العظمة والجلال فذكر الحجاب إنما هو في حق الخلق لا الخالق تعالى وتقدس ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ أي لا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي غبرة فيها سواد كذا روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس وابن مسعود ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي هوان كما يرهق أهل النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون فيها لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على مذهب من يجوز في الدار زيد والحجرة عمرو، أو هو مبتدأ خبره ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ﴾ تقديره جزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها أي نجازي سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وجاز أن يكون خبره ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ أو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وما بينهما اعتراض وقوله ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي جزاء سيئة واقع أو مقدر بمثلها أو الخبر بمثلها على زيادة الباء ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ هوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ من زائدة، يعني ما لهم أحد يعصمهم من سخط الله أو ما لهم أحد من جهة الله أو من عنده من يعصمهم من عذاب الله ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ جمع قطعة مفعول ثان لأغشيت ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صفة لقطعاً ﴿مُظْلِمًا﴾ حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأن العامل في موصوفه عامل فيه أو معنى الفعل في من الليل، وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب قِطْعاً ساكن الطاء أي بعضاً كقوله تعالى: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] وعلى هذا يصح أن يكون مظلماً صفة لِقِطْعاً أو حال منه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ احتجت المعتزلة بهذه الآية على خلود أصحاب الكبائر في النار ورُدَّ قولهم بأن السيئات يعم الصغائر والكبائر والكفر فلو كانت الآية على عمومها لزم خلود أصحاب الصغائر أيضاً، ولم يقل به أحد وأيضاً يأبى عنه قوله تعالى ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ فإنه يقتضي أن يكون جزاء الكبائر دون الكفر فوق الصغائر فلا يتصور الحكم بالخلود على العموم فمرجع الإشارة ليس الذين كسبوا السيئات على العموم بل بعضهم وهم الكفار كما في قوله تعالى ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] بعد قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وجاز أن يقال المراد بالذين كسبوا السيئات الكفار لأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبائر من أهل القبلة فإن الإيمان رأس الحسنات فلا يتناولهم قسيمة ويمكن أن يقال: المراد بالذين كسبوا السيئات الموجودون[1] في زمن النبي ﷺ، والمؤمنون الموجودون في ذلك الزمان كانوا أصحاب رسول الله ﷺ عدول كلهم بالإجماع ما كسب أحد منهم سيئة إلا تاب وغفر والتائب من الذنب كمن لا ذنب له فالمسيء في ذلك الزمان لم يكن إلا كافراً والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني الفريقين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم حتى تنظروا ما نفعل بكم ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إلى قوله مكانكم من عامله

(١) في الأصل: الموحدون.

المحذوف أعني الزموا ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْۚ﴾ عطف على الضمير المذكور يعني الأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ أي فرقنا ﴿بَيْنَهُمْۖ﴾ يعني قطّعْنا الوصل التي كانت بينهم في الدنيا حتى تبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده وقيل معناه ميَّزنا بينهم وبين المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝﴾ [يس: ٥٩] ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿شُرَكَآؤُهُم﴾ يعني الأصنام ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ بطلبنا منكم العبادة ينطق الله بذلك الأصنام فيشافههم بالتبرّي مكان الشفاعة التي كانوا يرجون منها، .وقيل: المراد بالشركاء الملائكة والمسيح فإنهم ما أمروا بها ولا رضوا بها فإذا قالت المعبودون بالباطل ذلك، قالت الكفار بلى كنا نعبدكم فيقول الأوثان ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه هو العالم بكنه الأشياء ﴿إِن كُنَّا﴾ مخففة من الثقيلة يعني إنَّا كُنَّا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ إيانا ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ اللام هي الفارقة وجاز أن تكون إنْ نافية واللام بمعنى إلا يعني ما كنا إلا غافلين عن عبادتكم لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المقام ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ أي تختبر وتعلم ما قدمت من عمل فيعاين نفعها وضررها[١]، قرأ حمزة والكسائي[٢] تَتْلُوا بالتاءين الفوقانيتين من التلاوة أي تقرأ صحيفتها أو من العلو أي تتبع عملها فتقودها إلى الجنة أو إلى النار ﴿ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى حكمه أو إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ﴾ أي ربهم ومتولي أمورهم على الحقيقة لا ما اتخذوه أولياء فإن قيل: أليس الله قد قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] قلنا: المولى هنالك بمعنى الناصر وههنا بمعنى الرب والمالك ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي زال وبطل عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم يشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإنزال المطر والبركة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالإنبات وقيل من لبيان من الموصولة على حذف المضاف أي من أهل السماء والأرض ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فيسمعكم ويبصركم ما شاء إسماعه وإبصاره وجرى به عادته أو من أعطاكم السمع والأبصار ومن يستطيع خلقهما وتسويتهما أو من يحملهما عن الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وسرعة انفعالهما عن أدنى شيء ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾ الحيوان ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ من النطفة والبيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾ أي النطفة والبيضة ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ من الحيوان ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ﴾ أي يقضي الأمور ويعلم عواقبها ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الله يعني لا يقدرون على إسناد هذه الأمور إلى ما يدعونه آلهة لظهور بطلانه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يقدر على شيء مما ذكر ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ أي من يفعل هذه الأشياء ﴿ٱللَّهُ﴾ المستحق للعبادة ﴿رَبُّكُمُ﴾ الثابت ربوبيته بالوجدان والبرهان حيث خلقكم ورزقكم ودبر أموركم ﴿ٱلْحَقُّۖ﴾ الثابت المتحقق الذي لا شبهة في وجوده ولا في ألوهيته ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ استفهام إنكار أي ليس شيء غير الحق إلا الضّلال فمن يخطىء الحق الذي هو

(١) في الأصل: نفعه وضرره.
(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

عبادة الله تعالى وقع في الضلالة ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال مع قيام البرهان ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني كما تحققت الربوبية لله تعالى وأن ليس بعد الحق إلا الضلال أو كما صرف هؤلاء عن الإيمان ﴿حَقَّتۡ﴾ ثبتت ووجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه السابق ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [هود: ١١٩] قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر كلمات ربك على الجمع والباقون بالإفراد ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ خرجوا عن حد الاستصلاح وتمردوا في كفرهم ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيقتها والمراد بها العدة بالعذاب.

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٣٤) قُلۡ
هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ
إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ
وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٧) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ
ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩) وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا
يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ
أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ (٤١) وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ (٤٢)
وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ (٤٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ
شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٤٤) وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ
قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا
مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ
وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٨) قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا
إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٤٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ
عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ
تَسۡتَعۡجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٥٢) ۞
وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (٥٣) وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٥٤) أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٥٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ
لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٧) قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٥٨) قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ
ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ
(٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ

فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي
كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ
يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن كانوا منكرين لها، ولذلك أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ بعد إعدامه كما كان ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع قيام البرهان ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾ بنصب الدلائل وإرسال الرسل والتوفيق إلى النظر الصحيح وخلق الهداية، والهدى كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام أيضاً للدلالة على أن المنتهى هو المقصود بالهداية فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ لا يستطيع ذلك غيره ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ يعني الله سبحانه تعالى ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ مِمَّن لا يهدي ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ قرأ ابن كثير وورش وابن عامر[(١)] بفتح الياء والهاء وتشديد الدال وقالون وأبو عمرو كذلك إلا أنهما يخفيان حركة الهاء والنص عن قالون الإسكان[(٢)]، وقرأ اليزيدي عن أبي عمرو كأنَّ يشم الهاء شيئاً من الفتح وأبو بكر بكسر الياء والهاء وحفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء، والأصل في هذه القراآت يهتدي فأدغمت التاء في الدال وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وكسرت الياء على قراءة أبي بكر باتباع الهاء ولم يبال[(٣)] أبو عمرو بالتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك، وقرأ حمزة والكسائي[(٤)] بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال من المجرد من قولهم هدى بنفسه إذا اهتدى أو بمعنى لا يهدي غيره والمعنى من لا يهدي غيره أو لا يهتدي بنفسه فضلاً من لن يهدي غيره أحق بالإتباع ممن يهدي غيره ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ استثناء مفرغ منصوب على الظرفية يعني لا يهدي في شيء من الأوقات إلا أن يهديه الله أي إلا وقت هداية الله إياه فحينئذ يهتدي بنفسه ويهدي غيره وهذا حال أشراف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير، وقيل: معنى الهداية الانتقال من مكان إلى مكان آخر فيشتمل الأصنام أيضاً يعني إلا أن تحمل وتنقل يبين به عجز الأصنام ﴿فَمَا لَكُمۡ﴾ أيها الكفار ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ بما هو باطل بالبداهة ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ فيما يعتقدونه ﴿إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ غير مستند إلى برهان عقلي أو نقلي بل إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر المجموع أو من ينتمي منهم

---

(١) وابن حجاز بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.

(٢) كذا قرأ أبو جعفر بالإسكان بخلاف عن ابن حجاز ـ أبو محمد ـ.

(٣) من التوضيح متفرع على قراءة الإسكان لا على قراءة الاختلاس ـ أبو محمد ـ.

(٤) وخلف ـ أبو محمد ـ.

إلى تميز ونظر ولا يرضى بالتقليد الصرف ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي﴾ أي لا يفيد ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق ﴿شَيۡـًٔا﴾ من الإغناء أو لا يفيد شيئاً كائناً من الحق وفيه دليل على أنه لا يجوز في الاعتقاديات الاكتفاء بالظن والتقليد بل لا بد فيه من تحصيل العلم بالبرهان النقلي أو العقلي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ وعيد على الإعراض عن الحجج العقلية والنقلية إتباعاً للظن والتقليد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ المعجز ﴿أَن يُفۡتَرَىٰ﴾ مصدر بمعنى المفعول خبر كان ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ﴾ أي مصدق منصوب على أنه خبر لكان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره ولكن أنزله الله لتصديق ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ يعني محمداً ﷺ أو الكتب المنزلة المتقدمة أو القيامة أو البعث الذي أخبر بها الكتب المتقدمة فلا يكون كذباً ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي تبيين لما في اللوح المحفوظ من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ منتفياً عنه صلاحية الريب لكونه معجزاً مطابقاً للكتب المتقدمة خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك أو استئناف ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خبر آخر تقديره كائناً من ربّ العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل ولاَ رَيْبَ فِيهِ اعتراض أو بالفعل المعلل بهما أو حال من الكتاب أو من ضمير فيه وفي الآية تنبيه على ما يجب اتباعه بعد المنع عن اتباع الظن ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون ومعنى الهمزة فيه للإنكار ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ اختلقه محمد ﷺ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ردًّا لقولهم ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ الفاء جزاء لمقدر يعني إن افتريته فأتوا أنتم أيضاً بسورة ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ أي شبيهاً للقرآن في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرّناً في النظم والعبارة ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ مع ذلك ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ دعوته مِمّن يعينكم عليه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره تعالى فإن غيره تعالى لا يقدر علي إتيان مثله ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أن محمداً افتراه شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني فأتوا فلم يقدروا على ذلك، ولمّا كان في هذه الآية دعوتهم إلى المناظرة وطلب الحق بالتفكر في نظم القرآن ومعانيه قال الله تعالى ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ يعني أن كلامهم وإنكارهم للقرآن ليس مبتنياً على التحقيق والتفكر بل كذبوا به أول ما سمعوه قبل أن يتفكروا فيه ويحيطوا بالعلم بشأنه وإدراك أنه ليس من جنس أن يمكن إتيانه من البشر ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي لم يأتهم بعد العلم بعاقبة ما في القرآن من الوعد والوعيد والإخبار بالغيوب من المبدأ والمعاد وكان يمكنهم تحصيل ذلك العلم من علماء الكتب المنزلة المتقدمة حتى يتبين لهم صدق هذا الحديث، والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ظاهر صدقه على من يتأمل فيه أدنى تأمل ويتفكر ويبحث عن علومه لكنهم لم يفعلوا ذلك بل سارعوا في تكذيبه قبل أن يتدبروا في نظمه ويتفحصوا عن معناه، ومعنى التوقع في لَمَّا أنه قد ظهر لهم بالآخر إعجازه لما كرر عليهم التحدي وجرَّبوا أقوالهم في معارضته فتضالت دونها وشاهدوا وقوع بعض ما أخبر به مطابقاً لما أخبره مراراً كما في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] وقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١ - ٤]

وقوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ [المسد: ١] وغير ذلك فمنهم من آمن بعد ذلك ومنهم من لم يؤمن تمرداً وعناداً قال الله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما فعل هؤلاء بالقرآن كذلك ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ يعني كذب كفار الأمم الخالية كتبهم وأنبياءهم ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] فيه وعيد لهم إن لم يؤمنوا بمثل ما عوقب به من قبلهم ﴿وَمِنۡهُم﴾ أي من المكذبين ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي يصدق به في نفسه ويستيقن بعد التفكر في القرآن أو المعنى ومنهم من يؤمن به في الاستقبال بعد ما يتضح عليه حقيّة القرآن فيتوب عن كفره هذا ما دلت عليه كلمة لمّا من التوقع ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ لفرط غباوته وسبق قضاء الله تعالى بموته على الكفر ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرين.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يعني إن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة يا محمد ﴿فَقُل﴾ يعني فتبرّأ عنهم وقل ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أي جزاؤه ﴿وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ أي جزاؤه ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ يعني لا تؤاخذون على عملي ولا يضركم فعلي فلا تؤذوني ولا تهتموا بما فعلتُ ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ لا أؤاخذ بأعمالكم إنما أقول لكم ما أقول نصحاً لكم قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد كقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: ٦] ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ أي يلقون إليك أسماعهم الظاهرة إذا قرأت القرآن وتكلمت بالحِكَم والشرائع لكن لا يسمعون بقلوبهم فلا يدركون حقائقها ولطائفها لفساد استعدادهم كالأصم الذي يريد أن يسمع فلا يسمع لعدم القوة السامعة في صماخه ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي تقدر على إسماع الصم ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم فإن الأصم العاقل ربما تفرس بالقرائن فكما لا تقدر أنت على إسماع الصم المسلوب عنه العقل لا تقدر على استماع من سلب عن قلبه صلاحية سماع التفكر والتدبر ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ بأبصارهم ويعاينون أدلة الصدق وإعلام النبوة لكنهم لا يصدقون لعدم بصيرة في قلوبهم ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣﴾ أي ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإنه لا يهتدي بالطريق الأولى، فيه تسلية من الله تعالى لنبيه ﷺ يقول: إنك لا تقدر أن تسمع من سلبت عنه السمع ولا تهدي من سلبت عنه البصر ولا أن توفق للإيمان من حكمت عليه أنه لا يؤمن، وتعليل للأمر بالتبرّي والإعراض عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٦، والاعتصام باب ٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦.

فإنهم لسوء استعدادهم وفساد اختيارهم لا يقبلون هداية الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك من فقه في دين ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعَلَّمَ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به»[1] متفق عليه من حديث أبي موسى، وقيل: معناه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ بسلب آلات الاستدلال من العقول والحواس ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها وترك الاستدلال فالآية دليل على أن العبد له كسب وأنه ليس مسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت الجبرية، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله تعالى لا يظلمهم الله به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابها، قرأ حمزة والكسائي[2] بتخفيف لكن ورفع الناس والباقون بتشديدها والنصب.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ قرأ حفص بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الله والباقون بالنون على التكلم والتعظيم ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ قال ابن عباس: في قبورهم وقال الضحاك في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا والقبور لهول ما يرون والجملة التشبيهية في موقع الحال من الضمير المنصوب في يحشرهم أي يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره كأن لم يلبثوا قبله أو صفة لمصدر محذوف أي حشراً كأن لم يلبثوا قبله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما يتعارفون في الدنيا كأن لم يتفارقوا إلا قليلاً وهذا حال آخر مقدرة أو بيان لقوله ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون بينهم يوم يحشرهم، قال البغوي: هذه المعرفة حين بعثوا من القبور ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة، وفي بعض الآثار أن الإنسان يعرف من بجنبه ولا يكلمه هيبةً وخشيةً ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ بالبعث على إرادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان والنار بالجنة ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ بطرق استعمال ما أعطوا من أسباب تحصيل المعارف وكسب السعادة استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أخسرهم ﴿وَإِمَّا﴾ مركبة من أن شرطية وما زائدة يعني وَإنْ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ أي نُبصرنك ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ من العذاب في الدنيا كما أراه[3] يوم بدر ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك عذابهم ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ أي فنريكه في الآخرة فهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف نحو فذاك ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ٢٠، ومسلم في الفضائل حديث ١٥، وأحمد في المسند ٤/ ٣٩٩.
(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٣) في الأصل: رآه.

ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها مجازاً ولذلك رتبها على الرجوع بثم، والمعنى ثم الله يفعل بهم على مقتضى ما شهد منهم من أفعالهم وقيل: ثم ههنا بمعنى الواو، قال مجاهد: كان البعض الذي أراه قتلهم يوم بدر وسائر أنواع العذاب بعد الموت ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خلت ﴿رَسُولٌ﴾ أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإسلام ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ وبين الرسول ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل فأهلك المكذبون ويجيء الرسول والمؤمنون بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني ما ظلمناهم في تعذيبهم بل استحقوا ذلك، وقال مجاهد ومقاتل معناه لكل أمة من الأمم رسول أرسل إليهم فإذا كان يوم القيامة وجاء رسولهم ليشهد عليهم بالكفر أو الإيمان قضى بينهم بإنجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين كما قال الله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي كفار مكة ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يا محمد من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الرسول وأتباعه ﴿صَٰدِقِينَ﴾ فيما وعدتم به شرط حذف جزاؤه يعني فأتوا به قالوا ذلك تكذيباً واستهزاءً ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي دفع ضر أو جلب نفع فكيف أملك في جلب العذاب إليكم ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يقدرني فأملكه أو المعنى لكن ما شاء الله كائن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة مضروبة في علم الله تعالى لهلاكهم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الوقت المقدر لتعذيبهم ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي لا يتأخرون منه أدنى زمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوف على جملة ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني لا تستعجلوا عذابكم فسيجيء وقته وينجز وعدكم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ تعالى الذي تستعجلونه ﴿بَيَٰتًا﴾ وقت اشتغالكم بالنوم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وقت اشتغالكم بأمور معاشكم، وجواب الشرط محذوف يعني ندمتم على استعجالكم وعرفتم ما أخطأتم ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام تعجب من استعجالهم شيئاً من المكروه، إذ لا شيء من المكروه ما يلائم الاستعجال، وهو متعلق بأرأيتم وما بينهما اعتراض، والمجرمون مظهر موضع الضمير، وضع للدلالة على أن جرمهم يقتضي أن يفزعوا لا أن يستعجلوا جزاءه، قال البغوي: إنهم كانوا يستعجلون العذاب ويقول أحدهم ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فيقول الله ماذا يستعجلون أي أيّ شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه، قلتُ: وجاز أن يكون قوله ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ الخ جزاء للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني، والمعنى إن أتاكم عذاب الله أيّ شيء تستعجلون حينئذ هل تستعجلون مثل ذلك العذاب وتختارون بقاءكم فيه أو تستعجلون التفصي عنه يعني لا يستعجلون العذاب حينئذ ألبتة.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب الذي يستعجلونه الظرف متعلق بقوله ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ وهذا معطوف على جزاء الشرط محذوفاً كان أو مذكوراً، تقديره إن أتاكم عذابه ندمتم ثم آمنتم به أي بالعذاب أو بمن أخبر به إذا ما وقع يعني بعد وقوعه والهمزة لإنكار تأخير الإيمان إلى

وقت لا يفيد الإيمان حينئذ، أو تقديره إن أتاكم عذابه أيّ شيء تستعجلون حينئذ يعني لا تستعجلون حينئذ بالعذاب ثم تؤمنون بالعذاب أو بمن أخبر به حين لا ينفعهم وجاز أن يكون هذا جملة شرطية معطوفة على شرطية سابقة وقوله ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ معترضة أو جزاء شرطية سابقة والمراد بالعذاب ههنا عذاب الآخرة وبالعذاب السابق عذاب الدنيا والمعنى أرأيتم إن أتاكم عذاب الله في الدنيا ليلاً أو نهاراً تندموا أو أيّ شيء تستعجلوا حينئذ ثم إذا وقع بكم عذاب الآخرة هل تؤمنوا به حين لا ينفعكم الإيمان هلا تؤمنوا حين ينفعكم وذلك في الدنيا قبل الغرغرة ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ على إضمار القول يعني يقال لكم حين تؤمنوا بعد رؤية العذاب في الآخرة أو عند غرغرة الموت على وجه الإنكار ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بعد وقوعه حين لا ينفعكم، قرأ نافع(١) بحذف الهمزة(٢) وإلقاء حركتها على اللام، والباقون بإسكان اللام وهمزة بعدها، وكلهم سهل همزة الوصل التي بعد همزة الاستفهام، أو قلَّبها مدة في ذلك وشبهه، نحو قوله تعالى ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يونس: ٩١] و﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] و﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ [النمل: ٥٩] ولم يحققها أحد منهم، ولم يجعل أحد فصلاً بينها وبين التي قبلها بألف لضعفها ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاءً حال من فاعل آمنتم المقدر ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ عطف على قيل المقدر ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي أشركوا ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي ما تجزون ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي يستخبرونك يا محمد ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ يعني ما تدعيه من التوحيد والنبوة والقرآن وقيام الساعة والعذاب والثواب، أم باطل تهزل به، قوله حق مبتدأ من القسم الثاني والضمير مرتفع به على الفاعلية ساد مسد الخبر أو الضمير مبتدأ وحق خبر مقدم عليه والجملة في موضع النصب بيستنبئونك ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِى﴾ أي نعم ﴿وَرَبِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ لا شك فيه ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ يا كفار مكة ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين من الذاب لأن من عجز عن شيء فقد فاته.

﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ على الله سبحانه بالشرك أو على غيره بالتعدي ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خزائنها وما يحبُّه مما هو عليها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦٓ﴾ أي لجعلته فدية من العذاب من قولهم افتداه بمعنى فداه، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ قال أبو عبيدة: معناه أظهروا الندامة لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبّر وتصنّع وقيل: معناه أخفوا الندامة أي أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء وهم الأتباع خوفاً من ملامتهم وتعييرهم، وقيل: إنهم لمّا بهتوا من رؤية عذاب لم يكونوا يحتسبوه لم يقدروا أن ينطقوا، وقيل: أسروا الندامة يعني أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها أو لأنه يقال سر الشيء لخِلاصته من حيث إنها تخفى ويضين بها ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الظالمين والمظلومين دل عليهم ذكر الظلم يعني حكم للمظلومين

(١) وابن وردان ـ أبو محمد ـ.
(٢) أي الثالثة ـ أبو محمد ـ.

على الظالمين بالعذاب ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بالتعذيب بلا ذنب وليس هذا تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم وهذا مجازاة المشركين على شركهم والحكومة بين الظالمين والمظلومين ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والتعذيب ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ما وعده من الثواب والعذاب كائن لا خلف فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ به لأنهم لقصور عقلهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبى لأن القادر لذاته لا يزول قدرته والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت والبعث.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنها موعظة يعني تنبيه وتذكير يدعو إلى كل مرغوب ويزجر عن كل مرهوب، وذلك بالأوامر والنواهي فإن الأمر من الحكيم العليم الجواد يقتضي حسن المأمور به فيكون مرغوباً ويترتب عليه أجر مرغوب والنهي يقتضي قبحه فهو مرهوب يترتب عليه أجر مرهوب ﴿وَشِفَآءٌ﴾ أي دواء موجب للشفاء ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي في صدوركم من الأمراض القلبية يعني العقائد الفاسدة وتعلقات القلوب بما سوى الله تعالى، أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: إني أشتكي صدري قال: اقرأ القرآن يقول الله تعالى ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وله شاهد من حديث واثلة بن الأسقع أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ﴿وَهُدًى﴾ أي إراءة طريق إلى العقائد[١] الحقة وسبيل الجنة ومراتب القرب من الله سبحانه قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها»[٢] رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله تعالى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لمن آمن به منكم فإنهم هم المنتفعون به كاسبون رحمة الله بتلاوته واتباعه، قال البغوي: الرحمة النعمة على المحتاج فإنه لو أهدى ملِك إلى ملِك شيئاً لا يقال قد رحمه وإن كان ذلك نعمة لأنه لم يضعها في محتاج.

﴿قُلْ﴾ يا محمد شكراً له تعالى في جواب ما قال: منة عليكم ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ يعني جاءنا الموعظة والشفاء والهداية والرحمة بفضل الله تعالى ورحمة منه دون استحقاق منا ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل من الله والرحمة أو بمجيء القرآن ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ تقديره فبذلك ليفرحوا فليفرحوا، والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص مجيء الكتاب أو الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء في قوله ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليفرحوا بذلك، أو للربط بما قبلها والدلالة على أن مجيء الكتاب الموصوف بما ذكر موجب للفرح، وقيل: المراد بفضل الله ورحمته إنزال القرآن، وقال مجاهد وقتادة: فضل الله الإيمان ورحمته القرآن،

---

(١) في الأصل: عقائد.
(٢) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٠، والترمذي في ثواب القرآن باب ١٨، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٢.

وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله، أخرج أبو الشيخ وغيره عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بفضل الله أي القرآن وبرحمته أن جعلكم من أهله»[١] وقال ابن عمر: فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في القلوب، وقال خالد بن معدان: فضل الله الإسلام ورحمته السنن، وقيل: فضل الله الإيمان ورحمته الجنة، والباء على هذه الأقوال متعلقة بفعل يفسره ما بعده تقديره بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو ليفرحوا، وفائدة ذلك التكرير التأكيد والبيان بعد الإجمال، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح، قرأ يعقوب[٢] باختلاف عنه فلتفرحوا بالتاء الفوقانية على الأصل المرفوض لصيغة الخطاب في الأمر، أخرج أبو داود عن أبيّ بن كعب «أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾» بالتاء الفوقانية ﴿هُوَ﴾ الضمير راجع إلى ذلك، أي مجيء القرآن أو فضل الله ورحمته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب[٣] بالتاء الفوقانية على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ أي خلق لكم عبر عن الخلق بالإنزال لما نيط خلقها بسبب منزل من السماء يعني المطر، أو لأنه لما قدّر وكتب أولاً في اللوح المحفوظ ثم خلق على وفقه فكأنّه أنزل من اللوح، وما منصوب بأنزل أو أرأيتم فإنه بمعنى أخبروني ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ بيان لما يعني من زرع أو ضرع، وكلمة لكم دلت على أن المراد منه ما حَلّ ولذلك وبّخ على تشقيصه فقال: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ﴾ أي بعضه ﴿حَرَامًا﴾ وبعضه ﴿حَلَٰلًا﴾ قالوا هذه الأنعام وحرث حجر ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٨] وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا التحليل والتحريم فتقولون ذلك بحكمه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في نسبة تلك الأمور، والجملة متعلقة بأرأيتم وقل تكرير للتوكيد، وجاز أن يكون الاستفهام للإنكار وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير افترائهم على الله، والمعنى أن الله لم يأذن لكم بل على الله تفترون حيث تقولون ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي شيء ظنهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ منصوب بالظن، يعني أيحسبون أنهم لا يجازون عليه لا بل كائن لا محالة، وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، وهَدَاهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، ولو شكروها اتبعوا العقل والنقل ولم يفتروا على الله، وجاز أن يكون معنى الآية أن الله لذو فضل على الناس حيث لم يستعجل بعقوبتهم في الدنيا.

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِى شَأْنٍ﴾ أي أمر وحال، قال بعض المحققين: لا يقال الشأن

---

(١) أخرجه ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ٨٤.

(٢) برواية رويس ـ أبو محمد ـ.

(٣) أي برواية رويس ـ أبو محمد ـ.

إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور قال البيضاوي: أصله من شأنتُ شأنه أي قصدت قصده ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ أي من الشأن لأن تلاوة القرآن كان معظم شأن الرسول الله ﷺ، ولأن القراءة تكون لشأن عظيم فيكون التقدير من أجله أو من القرآن وإضماره قبل الذكر، ثم قوله ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ بياناً له تفخيم له أو المعنى ما تتلو من الله، ومِن في ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ تبعيضية، أو مزيدة لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها الناس ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر من أعماله أولاً ما فيه فخامة ثم عمم ما يتناول الجليل والحقير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي رقباء مطلعين عليه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تدخلون وتندفعون فيه أي في العمل وقيل معناه تكثرون فيه والإفاضة الدفع بكثرة ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاء والآخرون بضمها وهما لغتان معناه لا يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ﴾ مصدر ميمي بمعنى الثقل يعني الوزن ومن زائدة ﴿ذَرَّةٍ﴾ أي نملة صغيرة أو هباء ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الوجود والإمكان واقتصر على ذكر الأرض والسماء لأن أبصار العوام قاصرة عليهما وقدم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود بيان إحاطة علمه تعالى بالأشياء كلها ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله، ولا لنفي الجنس، وأصغر وأكبر اسمها، وفي كتاب خبرها. قرأ حمزة ويعقوب برفع أصغر وأكبر على الابتداء والخبر بإبطال عمل لا لأجل التكرير والباقون بالنصب على أعمال لا، وقيل لا ولا زائدتان وأصغر وأكبر معطوفان على مثقال ذرة، أو على ذرة والفتح بدل الكسر لامتناع الصرف، أو للحمل على مثقال ذرة مع الجار والرفع للعطف على مثقال ذرة حملاً على محله البعيد قبل دخول من والاستثناء[1] حينئذ منقطع، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو صحائف الأعمال للحفظة.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف الناس يوم القيامة من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حينئذ بفوات مأمول، اعلم أن الولاء والتوالي في اللغة أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ويستعار للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، وفي القاموس الوَلْيُ القرب والدُّنو والوَلِيُّ اسم[2] منه بمعنى القريب والمحِبِّ والصديق والنصير فاعلم أن الله سبحانه بعباده بل بجميع خلقه قرباً[3] غير متكيف كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وذلك القرب هو الموجب لوجود الممكنات فما لم يحصل للممكن ذلك القرب بالواجب تعالى لم يشم رائحة الوجود فإن له في نفسه ليس، وله سبحانه نجوا من

---

(١) هذا التوجيه ضعيف لأن الاستثناء المنقطع والاستدراك بعد النفي اثبات فيكون المعنى ولكن يعزب في كتاب مبين وهذا فاسد وسيجيء في سورة سبأ مثله ـ ١٢ ـ منه رحمه الله.

(٢) في الأصل: الاسم.

(٣) في الأصل: قرب.

عباده قرب آخر غير متكيف أيضاً وذلك قرب المحبة ويتمثل هذا القرب في عالم المثال بنظر الكشف بصورة القرب الجسماني، وهذان القربان لا اشتراك بينهما إلا من حيث الاسم، وهذا القرب الثاني له درجات ومراتب غير متناهية كما يدل عليه الحديث القدسيُّ: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحببته فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»[1] الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة.

وأدنى درجات هذا القرب يحصل بمجرد الإيمان قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] وأعلى درجاته نصيب الأنبياء ونصيب سيدنا محمد ﷺ، وله ﷺ ترقيات لا تتناهى إلى أبد الآبدين، وأدنى ما يعتد به ويطلق عليه اسم الولي في اصطلاح الصوفية والمراد بهذه الآية إن شاء الله تعالى من كان قلبه مستغرقاً في ذكر الله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] ممتلئاً بحب الله تعالى لا يسع فيه غيره: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فلا يحبّ أحداً إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فهم المتحابون في الله والصوفية العلية[2] يسمون هذه الصفة بفناء القلب، فكان ظاهره وباطنه متحلياً بتقوى يقي نفسه عما يكرهه الله تعالى من الأعمال والأخلاق، فكأن نفسه منزهة عن الرذائل من الشرك الجلي والخفي والأخفى من دبيب النمل ومن الحسد والحقد والكبر والهوى والهلع وغير ذلك متصفاً بمحاسن الأعمال والأخلاق، والصوفية العلية يسمون هذه الصفة بفناء النفس ويقولون حينئذ أسلَمَ شيطانه أشار الله سبحانه إلى الوصف الأول بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي حقيقة الإيمان فإن الإيمان محله القلب وكمال الإيمان أن يطمئن قلبه بذكر الله لا يغفل عنه ساعة ولا يلتفت إلى غيره[3] وإلى الوصف الثاني بقوله ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى بإتيان أوامره وانتهاء نواهيه[4] الظاهرة والباطنة، روى أبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله»، قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/٢٥٦.

(٢) وصفنا الصوفية بالعلية لعلوهم درجة لاستنادهم إلى علي رضي الله عنه فإنه قطب هذا المقام ـ ١٢ ـ منه رحمه الله.

(٣) هركس كه تراشنا خت جاد راجه كنده فرزند وعيال وخان ومان راجه كنده ديوانه كنى هردو جهالش بخشى ـ ديوانه توهردبجهان راجه كنده ـ منه برد الله مضجعه.

(٤) قال ابن عمر التقوى أن لا ترى نفسك خيراً من أحد ـ وقال المجدد للألف الثاني معرفة الله تعالى حرام على من يرى نفسه خيراً عن كافر الفرنج ـ ١٢ ـ منه برّد الله مضجعه.

هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾»[(١)] [يونس: ٦٢]» وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الأشعري نحو ذلك وكذا روى البيهقي في شعب الإيمان، أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ قال: «الذين يتحابون في الله»[(٢)] وورد مثله من حديث جابر بن عبد الله أخرجه ابن مردويه.

فصل: في أسباب حصول الولاية: وهذه المرتبة أعني ولاية الله تعالى إنما يستفاد بالانعكاس من رسول الله ﷺ إما بلا واسطة أو بواسطة أو بوسائط ولا بد فيه من كثرة المجالسة مع المحبة والانقياد بالنبي ﷺ، أو بمن ينوبه، فإنهما يثمران محبة الله تعالى وانصباغ قلبه وقالبه ونفسه بصبغ قلب رسول الله ﷺ وقالبه ونفسه الذي هو ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ [البقرة: ١٣٨] وكثرة الذكر على وجه مسنون يؤيد ذلك الانعكاس لكونه موجباً لصقالة القلب المستوجب للانعكاس، قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء صقالة وصقالة القلب ذكر الله»[(٣)] رواه البيهقي عن عبد الله بن عمر والله أعلم عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاودرين فيّ والمتباذلين فيّ»[(٤)] رواه مالك وأحمد والطبراني والحاكم والبيهقي وروى أحمد والطبراني والحاكم نحوه عن عبادة بن الصامت، وعن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم» قال: «المرء مع من أحبّ»[(٥)] متفق عليه، ومعنى قوله لم يلحق بهم أي لم يعمل مثل عملهم، وفي الصحيحين عن أنس نحوه. وعن أبي رزين أنه قال: له رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على ملاك هذا الأمر الذي تصيب منه خير الدنيا والآخرة؟ عليك بمجالس أهل الذكر وإذا خلوت فحرك لسانك ما استطعت بذكر الله وأحب في الله وأبغض في الله»[(٦)] الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الحب في الله والبغض في الله»[(٧)] رواه أحمد وأبو داود. ذكر المرادين ثم اعلم أن ما ذكرنا حال المريدين من أولياء الله تعالى، ومن أوليائه تعالى جماعة مرادون يدل عليه ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبرائيل فقال إني أحب فلاناً فأحبه قال: فيحبّه جبرائيل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٣.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٢٢٨٦.

(٤) أخرجه مالك في الشعر حديث ١٦، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣٣، ٢٤٧.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦، ومسلم في البر حديث ١٦٥.

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٦٧، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٠٢٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٣٢٩.

(٧) أخرجه أبو داود في السنة باب ٢، وأحمد في المسند ٥/ ١٤٦.

فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبرائيل فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه قال: فيبغضه جبرائيل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال: فيبغضونه ثم يوضع له البغضاء في الأرض»(١).

فصل: في علامة أولياء الله: ذكر البغوي عن النبي ﷺ أنه سئل من أولياء الله قال: «الذين إذا رأوا ذُكِرَ الله»(٢) وقال البغوي: يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: إن أوليائي من عبادي الذين يُذْكَرُون بذكري وأُذْكَرُ بذكرهم»(٣) وروى ابن ماجه عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أنبئكم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الذين إذا رأوا ذُكِرَ الله»(٤).

فائدة: والسر في ذلك أن أولياء الله تعالى لهم قرب ومعية بالله تعالى غير متكيفة، يقتضي ذلك أن تكون مجالستهم كالمجالسة بالله تعالى، ورؤيتهم مُذكراً لله تعالى، وذكرهم جالباً إلى ذكره تعالى، كالمرآة إذا قوبلت بالشمس وامتلأت بنورها حصلت لها حالة إذا قوبل شيء بذلك المرآة يستضيء بها كما يستضيء بمقابلة الشمس، بل تحترق القطنة بمقابلة المرآة دون مقابلة الشمس لقرب القطنة بالمرآة دون الشمس، وأيضاً أن الله سبحانه أودع في ذوات أوليائه استعداد تأثر من الله تعالى لقرب ومناسبة خفيةٍ غير متكيفة به تعالى، واستعداد تأثير في الناس لأجل مناسبة جنسية ونوعية وشخصية، فذلك التأثر والتأثير يقتضي حصول حضور بالله تعالى، وذكره تعالى فيمن رآهم وجالسهم بشرط عدم الإنكار نعوذ بالله منه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨] أي الخارجين عن الإيمان والانقياد، وقال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة، وفي الباب حديث حنظلة يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تدومون كما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات»(٦) رواه مسلم.

فائدة: وليست علامة الأولياء ما زعمت العوام من خرق العادات ولا العلم بالمغيبات، فإنها لا توجد في كثير من أولياء الله، وقد يوجد في غيرهم على سبيل الاستدراج وكونه في بعضهم نادراً لا يستلزم كون ذلك علامة للولاية كيف وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠

---

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ١٥٧.
(٢) انظر الحاشية ما بعد التالية.
(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣١٠.
(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٤.
(٥) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨.
(٦) أخرجه مسلم في التوبة حديث ١٢، والترمذي في القيامة باب ٥٩.

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال قل: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقال ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ونحو ذلك، وقد قالت الصوفية العلية: الكرامة حيض الرجال لا بد استتارها، ولا مزية لأحد على أحد بها، ومن ثم ندم بعض الرجال عن كثرة ظهور خرق العادات بأيديهم والله أعلم.

ومحل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ النصب على المدح أو على كونه وصفاً للأولياء، أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف يعني هم والجملة مادحة أو على أنه مبتدأ خبره ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك ما بشر رسول الله ﷺ أصحابه بالوحي عموماً وخصوصاً فقال: «أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة[1] بن الجراح في الجنة»[2] رواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف وابن ماجه عن سعيد بن زيد، وقال: «أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»[3] رواه أبو داود عن أبي هريرة، وقال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر»[4] رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: «لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان»[5] رواه الترمذي عن طلحة بن عبيد الله، وقال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[6] متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص، وقال: «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»[7] رواه أحمد والترمذي عن زيد بن أرقم، وقال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»[8] متفق عليه عن مسور بن مخرمة، وقال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[9] رواه الترمذي عن أبي سعيد، وقال: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[10] وقال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»[11] وقال: «إن عبد الله يعني ابن عمر رجل صالح» متفق عليه عن ابن عمر، وقال لعبد الله بن سلام: «إنه من أهل

---

(١) في الأصل: عبيدة.

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٤٦٥٠، والترمذي حديث ٣٧٤٧، وابن ماجه حديث ١٣٣، وأحمد في المسند ١/ ١٨٧، ١٨٨.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة باب ٨.

(٤) أخرجه الترمذي حديث ٣١٤٨، ٣٦٩٢.

(٥) أخرجه الترمذي حديث ٣٦٩٨، وابن ماجه حديث ١٠٩.

(٦) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٩، والترمذي في المناقب باب ٢٠.

(٧) أخرجه الترمذي حديث ٣٧١٣، وأحمد في المسند ١/ ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢.

(٨) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ١٢، ٢٩.

(٩) أخرجه الترمذي حديث ٣٧٦٨، وابن ماجه حديث ١١٨.

(١٠) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٤٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٦٩.

(١١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٣٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٠، ٨٩.

الجنة»[١] متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص، وقال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»[٢] وقال: «نعم الرجل أسيد بن حضير نعمَ الرجل ثابت بن قيس نعمَ الرجل معاذ بن جبل نعمَ الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح»[٣] وقال: «إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان»[٤] هكذا بشر رسول الله ﷺ كثيراً من الصحابة وفصلاً، وبشر الله سبحانه كلهم أجمعين بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] وبقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [محمد: ٢٩] الآية، وبقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[٥] متفق عليه عن أبي سعيد الخدري، وقال: «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم»[٦] رواه رزين عن عمر، وقال: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[٧] الحديث متفق عليه عن عمران بن حصين.

ثم إذا مات رسول الله ﷺ فالبشرى في الدنيا ما بشر الله سبحانه أولياءه بالكشف يعني أراه في عالم المثال في المنام أو اليقظة وهو المراد بالرؤيا الصالحة حيث قال رسول الله ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[٨] رواه البخاري عن أبي هريرة، وقال البغوي روي عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المرء أو ترى له»[٩] أخرج أحمد وسعيد بن منصور والترمذي وغيرهم عن أبي الدرداء أنه سئل عن هذه الآية ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: «ما سألني عنها غيرك منذ أنزلت هذه الآية الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له فهي بشراهُ في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة الجنة»[١٠] له طرق كثيرة، والمراد بالرؤيا رؤيا الأولياء والصلحاء لا رؤيا العوام، قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا ثلاث: فبشرى من الله

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ١٩، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٤٧، ١٤٨.
(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٢٩.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤١٩.
(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١١٧، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٦٢٢٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٣١١٢.
(٥) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢١، ٢٢٢.
(٦) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ١٤٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٢٣.
(٧) أخرجه البخاري في الشهادات باب ٩، وفضائل أصحاب النبي ﷺ باب ١، والرقاق ٧، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢١٠ ـ ٢١٤.
(٨) أخرجه البخاري في التعبير باب ٥، ومسلم في الصلاة حديث ٢٠٧، ٢٠٨.
(٩) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤٥٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤٠.
(١٠) أخرجه الترمذي حديث ٢٢٧٣.

وحديث النفس وتخويف الشيطان»[١] رواه الترمذي وصححه وابن ماجه عن أبي هريرة. فإن قيل: الرؤيا وإن كان من الأولياء والصلحاء لا يفيد القطع؟ قلنا: وإن كان لا يفيد القطع لكنه يفيد غلبة الظن وذلك كاف للبشارة، وقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[٢] رواه البخاري عن أبي سعيد ومسلم عن ابن عمرو عن أبي هريرة وأحمد وابن ماجه عن أبي رزين والطبراني عن ابن مسعود ونحوه ابن ماجه عن عوف بن مالك، وروى أحمد عن ابن عمر وابن عباس وابن ماجه عن ابن عمر «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزء من النبوة»[٣] وروى ابن النجار عن ابن عمر «جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» وليس المراد بالبشرى ههنا ما بشر الله تعالى المؤمنين به عموماً في كتابه من جنته وكريم ثوابه كقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٥] لأن البشارة بمثل هذه الآيات لا يتصور إلا بعد القطع بالتوفي على الأيمان وذلك غير متصور، وقيل البشرى في الدنيا هي الثناء الحسن لما روى البغوي بسنده عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يا رسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحبّه الناس؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[٤] وأخرج مسلم نحوه بلفظ «ويحمده الناس».

وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وكذا قال عطاء عن ابن عباس ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني عند خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله ويبشر برضوان الله وعند الخروج من القبر يوم القيامة، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، فقالت عائشة أو بعض أزواجه: إنّا لنكره الموت، قال: «ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله ورحمته فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»[٥] متفق عليه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور كأنيّ أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]»[٦] رواه الطبراني، وكذا أخرج الختلي في الديباج عن ابن عباس مرفوعاً ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني لا خلف لمواعيده ومن ههنا

---

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ٣٩٠٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير باب ٢، ٤، ١٠.

(٣) أخرجه ابن ماجة حديث ٣٨٩٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر حديث ١٦٦، وأحمد في المسند ٥/١٥٦، ١٥٧، ١٦٨.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤١، ومسلم في الذكر حديث ١٤ ـ ١٨.

(٦) أخرجه بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨٢، ٣٣٣، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٨٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٨، ١٧٦.

يمكن استنباط قول الصوفية الفاني لا يرد ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرط الاعتراض أن يقع بعده كلام متصل بما قبله.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ
الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم
مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً
ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا
لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا
لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا
لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ
أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ
فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا
بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ
زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاء من الأفعال والباقون بفتح الياء وضم الزاء من المجرد وكلاهما بمعنى ﴿قَوْلُهُمْ﴾ أي إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئناف بمعنى التعليل ويدل عليه ما قرىء بالفتح كأنه قيل لا تحزن ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتهم فيجازيهم عليها ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثقلين وإذا كان هؤلاء الذين هم أشراف الممكنات عبيداً إلا يصلح أحد للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ند ولا شريك فهو كالدليل على قوله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء فإن الشركة في الربوبية محال ويجوز أن يكون شركاء مفعول يدعون ومفعول يتبع محذوف دل عليه قوله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظنهم أي خيالهم أنها شركاء، ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على مَنْ أي لله ما يتبع الدين يدعون من دون الله شركاء أو استفهامية منصوبة بيتبع والمعنى أي شيء ﴿يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ﴾ يدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين يعني أنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] فيكون إلزاماً بعد برهان وما بعده مصروف عن خطابهم لبيان سندهم ومنشأ رأيهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون فيما ينسبون أو يحزرون ويعتدون أنها شركاء تقديراً باطلاً ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وتستريحوا من تعب التردد ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي مضيئاً سبباً لإبصار الأشياء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في خلق هذه الأشياء العظام على وفق الحكمة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دالة على كمال قدرة الله وعظيم نعمته وحكمته المتوحد بها المستحق للعبادة المختصة به ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله تعالى وكلام المذكّرين سماع تدبر واعتبار ﴿قَالُوا۟﴾ يعني المشركين ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وهو قولهم الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن التبني وتعجب من كلام الحمقاء حيث حكموا بأمر مستحيل لا يمكن ولا يتصور ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عما سواه لا يحتاج في شيء من الأمور إلى شيء من الأشياء وما سواه ممكن محتاج في وجوده وبقائه وفي كل صفة من صفاته إليه، فأي مناسبة بينه وبين ما يزعمونه ولداً فإن الولد يكون من جنس الوالد، أو يقال إنما يطلب الولد ضعيف يتقوى به أو فقير ليستعين به أو ذليل ليتشرف به أو من يموت لبقاء جنسه والكل أمارة الحاجة والله غني قديم ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً فكيف يتصور كون شيء مِمَّا فيهما ولداً له ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ ما عندكم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي برهان ﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلق بسلطان أو نعت له أو

بعندكم كأنه قيل ليس عندكم في هذا سلطان نفيُ لدليل معارض لِما أقام من البرهان على نفي الولد ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ توبيخ على جهلهم وتنبيه على أنه لا يجوز أن يقول أحد قولاً لا دليل عليه وأن العقائد لا بد لها من دليل قاطع يوجب العلم ولا يجوز التقليد فيها ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف يعني افتراءهم سبب تمتعهم في الدنيا يقيمون به رياستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ بالموت ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي اقرأ يا محمد على أهل مكة ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره مع قومه ﴿إِذۡ قَالَ﴾ متعلق باذكر ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾ قال البغوي: هم ولد قابيل وهذا لا يتصور لأن نوحاً عليه السلام كان من ولد شيث عليه السلام لا من ولد قابيل، فإضافة القوم إليه يدل على كونهم من أولاد شيث عليه السلام ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي شق ﴿عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ أي قيامي بينكم مدة مديدة، أو قيامي على الدعوة ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بحججه وبيناته أو آياته المنزلة ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ أي وثقتُ به ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ من أجمع الأمر إذا نواه أو عزم عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ قرأ يعقوب بالرفع عطفاً على الضمير المرفوع المستتر في أجمعوا وجاز للفصل يعني اعزموا أنتم وشركاؤكم على قتلي أو إصابة مكروه بي، والباقون بالنصب إما على أنه مفعول معه والواو بمعنى مع والمعنى ما مر كذا قال الزجاج، وإما على أنه معطوف على أمركم بحذف المضاف أي اقصدوا أمركم وأمر شركائكم، وإما أنه منصوب بفعل مقدر أي وادعوا شركاءكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ﴾ أي لا يكن شيء مما تقصدون بي ﴿عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ مشكوراً بل اجعلوه ظاهراً مكشوفاً من غمه إذا ستره، أو المعنى لا يكن حالكم عليكم غمّاً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ﴾ أي أدوا ﴿إِلَيَّ﴾ ما أردتم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني هذا أمر على سبيل التعجيز، أخبر الله تعالى عن نوح أنه كان واثقاً بنصر الله غير خائف من كيد قومه علماً منه بأنهم وآلهتهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾ حذف جزاء الشرط وأقيم علته مقامه، تقديره فإن توليتم عن تذكيري وأعرضتم عن قولي وقبول نصحي بعد ظهور صدقه هلكتم، أو يعذبكم الله لكون ذلك التولي عن الحق بلا مانع عن قبوله، إذ ما سألتكم من أجر يوجب توليكم ويمنع عن قبول الحق لثقته عليكم، أو اتهامكم إياي لأجله، أو المعنى إن توليتم ظلمتم أنفسكم وما أضررتموني بشيء إذ ما سألتكم من أجر يفوتني بتوليتكم بل إنما يفوت عليكم الهداية ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص[1] بفتح الياء وكذلك حيث وقع والباقون بإسكانها أي ليس ثوابي على الدعوة والتذكير ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا تعلق له بكم فهو

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

يثيبني آمنتم أو توليتم، فيه إشارة إلى أن أخذ الأجر على تعليم القرآن ونحو ذلك لا يصلح ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكم الله تعالى في الإيمان والأعمال ودعوة الناس إليه وقد فعلتُ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي أصروا على تكذيبه بعد وضوح الحق عناداً وتمرداً ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ يعني نوحاً من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وكانوا ثمانين ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ من الهالكين ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالطوفان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي آخر أمر من أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا، فيه تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذّب الرسل وتسلية للنبي ﷺ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي كل رسول إلى قومه ﴿فَجَآءُوهُم﴾ أي الرسل ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالدلائل الواضحة ﴿فَمَا كَانُوا۟﴾ أي أقوام الرسل ﴿لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي بما كذب به قوم نوح قبل مجيئهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما طبعنا على قلوب قوم نوح وأقوام الرسل بعده ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ من أمتك بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي بعد تلك الرسل ﴿مُّوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿وَ﴾ أخاه ﴿وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي أشراف قومه خص الملأ بالذكر تمهيداً لبيان استكبارهم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن اتباع موسى وهارون ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي معتادين بالإجرام ولذلك تهاونوا برسالة الله سبحانه واجترؤوا على ردها ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الدين الحق ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وعرفوا حقيقته بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي فرعون وملؤه من فرط تمردهم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما جاء به موسى من المعجزات ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أنه سحر أو فائق في فنه واضح فيما بين أشباهه ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ على سبيل التعجب والإنكار ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ للأمر الثابت المتحقق من عند الله ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ أنه سحر والسحر تمويه لا حقيقة له، فحذف محكي القول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون المحكي ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ لأنهم بتّوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير ويجوز أن يكون معنى ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ أتعنونه، من قولهم فلان يخاف القالة فيستغني عن المفعول كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي لا يظفر، من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر، فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة، ولأن العالم به لا يسحر أو تمام قولهم أن جعل أسحر هذا محكياً كأنهم قالوا: أجئتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني فرعون وقومه لموسى ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا موسى ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ أي لتصرفنا، وقال قتادة: لتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام أو عبادة فرعون ﴿وَتَكُونَ﴾ قرأ أبو بكر[1] بالياء التحتانية والباقون[2] بالتاء الفوقانية ﴿لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ الملك والسلطان سمي بها

---

(١) أي من طريق العليمي ـ أبو محمد ـ.
(٢) وكذا يحيى عن أبي بكر ـ أبو محمد ـ.

لاتصاف الملوك بالتكبر على الناس باستتباعهم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ مصدقين فيما تدَّعونه ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي(١) ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ حاذق فيه ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر و﴿ءَآلسِّحۡرُ﴾ بالمد على أن ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرها والسحر خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة بدل من قوله ما جئتم به تقديره أهو السحر أو السحر هو، وقرأ الجمهور بلا مد على الخبر يعني الذي جئتم به السحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله، ويؤيده قراءة ابن مسعود ما جئتم به سحر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ أي سيمحقه أو سيظهر بطلانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ﴾ أي لا يثبت ولا يقوى ﴿عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ﴾ أي يثبت ويقوي ﴿ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ أي لم يصدق موسى مع ما جاء به من الآيات وأبطل سحر السحرة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ قيل: ضمير قومه راجع إلى موسى يعني مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه، قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل هلك الآباء وبقي الأبناء ولذا سموا ذرية، وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون لمّا أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ولداً وهبته للقبطية خوفاً من القتل فنشؤوا عند القبط وأسلموا في اليوم الذي غلب موسى السحرة، وقال آخرون: الضمير راجع إلى فرعون روى عطية عن ابن عباس قال: هم أناس يسيرون من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته، كذا أخرج ابن جرير عنه وعن ابن عباس رواية أخرى أنهم سبعون أهل بيت من القبط من آل فرعون أمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله، قال الفراء: سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل كما يقال لأولاد أهل الفرس الذين سقطوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ أي مع خوف ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِمۡ﴾ الضمير لفرعون وجمعُه على ما هو المعتاد من ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر والمعنى مع خوف من آل فرعون وأشراف قومهم أو للذرية أو للقوم ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ أي يعذبهم فرعون وهو بدل من فرعون أو مفعول خوف وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ﴾ غالب متكبر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد حتى ادعى الربوبية مع كونه عبداً مخلوقاً محتاجاً، واسترقَّ أبناء الأنبياء.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما رأى خوف المؤمنين من فرعون ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي ثقوا به واعتمدوا عليه ولا تخافوا من فرعون وملئِهِ ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ جزاؤه محذوف دل عليه السياق يعني إن كنتم مستسلمين لقضاء الله مخلصين له توكلتم عليه، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضى له، والمشروط بالإسلام حصوله فإن التوكل على الله لا يحصل ما لم يسلموا نفوسهم لله أي يجعلوها له سالمة خالصة بحيث لا يكون حظ للهوى ولا للشيطان فيها، لأن التوكل لا يحصل مع التخليط وهو من مقامات الصوفية ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فإنهم كانوا مخلصين أصحاباً لرسول رب العالمين على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ثم دعوا ربهم وقالوا ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي موضع فتنة وعذاب ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنوننا ويعذبوننا، أو المعنى لا تجعلنا سبباً لزيادة طغيانهم وكفرهم بأن تعذبنا بعذاب من عندك أو بأيدي قوم فرعون فيقول قوم فرعون: لو كان هؤلاء على الحق ما عذبوا وظنوا أنهم خير منا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ من كيدهم وشؤم مشاهدتهم وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولاً ليجاب دعوته قلت: بل على أن التوكل من صفات اللازمة للصوفي والدعاء من عوارضِه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي تتخذا مباة ومرجعاً من غيرها من الأماكن إليها للسكنى والعبادة ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ قال البغوي: قال: أكثر المفسرين: كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبِيَعهم وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فيها فأمرهم الله أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويُصَلُّوا فيها خوفاً من آل فرعون هذا قول إبراهيم النخعي وعكرمة عن ابن عباس، وقال مجاهد: خاف موسى ومن معه من فرعون في الكنائس الجامعة فأمروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سِرّاً ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾ أنتما وقومكما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ التي تبوأتما لهم ﴿قِبْلَةً﴾ يعني مصلّى متوجهةً نحو القبلة يعني الكعبة، روى ابن جريج عن ابن عباس قال: كانت الكعبة قبلة موسى ومن معه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا موسى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يهلك الله عدوكم ويستخلفكم في الأرض في الدنيا، ويورثكم الجنة في العقبى، ثنّى الضمير أولاً لأن التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاورهم، ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد وإقامة الصلاة يجب على كل أحد، ثم وحّد لأن البشارة وظيفة صاحب الشريعة وقال البغوي ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي ما يتزين به الناس من اللباس والحلي والفرش والأثاث والمراكب والخدم والحشم وغيرها ﴿وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ اللام في ليضلوا للعاقبة متعلقة بآتيْتَ يعني حتى صار عاقبة أمرهم الضلال والطغيان كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وقيل: هي لام كي أي آتيتهم استدراجاً ليثبتوا على الضلال، أو لأنهم لما جعلوها سبباً

للضلال فكأنما أوتوها[1] ليضلوا، فتكون كلمة ربنا تكريراً للأول تأكيداً للإلحاح في التضرع، قال الشيخ أبو منصور الماتريدي: إذا علم منهم أنهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله، وهو كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] فتكون الآية حجة على المعتزلة في القول بوجوب الأصلح واللطف على الله تعالى، وقال البيضاوي: قوله ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾ أي امحق ﴿عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بإهلاكها كذا قال مجاهد، وقال أكثر أهل التفسير: امسخها وغيّرها عن هيئتها، قال قتادة: صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارةً منقوشةً كهيئتها صحاحاً وإنصافاً وأثلاثاً، ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر وقال السدي: مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة وكانت إحدى الآيات التسع ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني اقْسِها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، إنما دعا عليهم لمّا أيس من إيمانهم وعَلِمَ بالوحي أنهم لا يؤمنون، فأما قبل أن يعلم بأنهم لا يؤمنون فلا يجوز له أن يدعو بهذا الدعاء لأنه أرسل إليهم ليدعوهم بالإيمان فإن قيل: بعدما علم أنهم لا يؤمنون أيّ فائدة في الدعاء عليهم قلنا: لعل ذلك للبغض بأعداء الله في الله وذلك مقتضى طبيعة الإيمان، أو يكون ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى ونظير ذلك قولك لعن الله إبليس مع أن ذلك معلوم أنه ملعون امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ منصوب على أنه جواب للدعاء، أو على أنه معطوف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقال الفراء مجزوم على أنه دعاء بلفظ النهي كأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ بعد الموت كذا قال السدي ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى وهارون ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ نسبت الدعوة إليهما لأنه روي أن موسى كان يدعو وهارون يُؤَمِّنُ والتأمين دعاء، قال البغوي: وفي بعض القصص كان بين دعاء موسى والإجابة أربعين سنة ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على الرسالة والدعوة وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ نهي بالنون الثقيلة ومحله جزم، وقرأ ابن ذكوان بالنون الخفيفة، وكسر النون لالتقاء الساكنين ﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق وعدم الاطمئنان بما وعد الله سبحانه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي جوّزناهم وعبرناهم حتى بلغوا الشَّطَّ وفَاعَلَ ههنا بمعنى فَعَلَ نحو عاقب أمير اللص، وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي لحقهم وأدركهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقال أَتْبَعَه وَتَبِعَه إذا أدركه ولحقه واتَّبعَه بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به وقيل: هما واحد ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي باغين وعادين أو للبغي والعدو، وقيل بغياً في القول وعدواً في الفعل فلَمّا وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم

---

(١) في الأصل: أتوها.

جبرائيل عليه السلام على فرس أنثى وخاض البحر فاقتحمت الخيول خلفه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ وانطبق عليهم الماء لمّا دخل آخرهم وهمّ أولهم أن يخرج ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ أي بأنه وقرأ حمزة والكسائي[1] بكسر الهمزة على إضمار القول أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لآمنت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فدسَّ جبرائيل عليه السلام في فيه من حماة البحر فمات قبل أن تقبل توبته، نكب الشقي عن الإيمان أوان القبول وبالغ فيه حين لا يقبل فقال الله تعالى على سبيل الإنكار ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ يعني أنؤمن الآن حين أيست من الحياة ولم يبق لك اختيار ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ ذلك مدة عمرك ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان، قال البغوي: روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: لمّا أغرق الله تعالى فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فقال جبرائيل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة.

فائدة: زعم جلال الدين الدواني أن فرعون مات مسلماً حيث أتى بكلمة التوحيد حال حياته، وقد اتبع هو في هذا القول الشيخ الأجل محيي الدين بن[2] العربي قدّس الله سره حيث قال: مات فرعون طاهراً، والحق إن قول الشيخ هذا مصروف عن الظاهر وكثير من كلماته السكرية لا تطابق الشرع وهذا القول خارق للإجماع، ومخالف للصحاح من الأحاديث، قال الدواني: كل ما في القرآن من الوعيد بالنار إنما جاء في حق آل فرعون دون نفسه، قال الله تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وقال الله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: ٩٨] وقال ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥] وأما فرعون فلا يعذب على كفره فإنه قد آمن بل على عصيانه وظلمه في حق العباد فإن حقوق العباد لا يغفرها الله، قلت: وهذا ليس بشيء فإن الله سبحانه قال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥] فإنه صريح في كونه معذباً في الآخرة لأجل كفره وما قال الله تعالى حكاية عن موسى ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا﴾ [يونس: ٨٨] إلى قوله ﴿ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ [يونس: ٨٨] وقوله ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] صريح في أن موسى دعا على فرعون أن يموت على الكفر وقد أجيبت دعوته، فإنكار موته على الكفر إنكار لهذه الآية نعوذ بالله منه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع، أو المعنى نبعدك مما وقع قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً، وقرأ يعقوب نُنْجيكَ بالتخفيف من الأفعال ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي ببدنك عارياً من الروح أو كاملاً سويًا أو عرياناً عن اللباس أو بدرعك، وكانت له درع مشهور من ذهب مرصع بالجواهر، قال البغوي: لما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) في الأصل: محيي الدين العربي.

قصيراً كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل وعرفوه بدرعه فصدقوا ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أي من ورائك ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرة وعظةً، أو آية دالة على طريقة التوحيد مظهراً لعجز البشر وإن كان مَلِكاً فإنه كان في نفوس بني إسرائيل متخيّلاً متمكناً أنه لا يهلك حتى شكّوا في موته حين أخبرهم موسى عليه السلام إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك ونكالاً عن الطغيان ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أي أنزلنا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي منزلاً صالحاً يعني مصر وقيل: الأردن وفلسطين وهي الأرض المقدسة التي كتب الله ميراثاً لإبراهيم وذريته وقال الضحاك: هي مصر والشام ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ﴾ أي اللذائذ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ أي بنو إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ في أمر محمد ﷺ قبل مجيئه بل كان كلهم متفقين على أنه رسول الله منعوت بصفات مكتوبة في التوراة مبشرين الناس بقرب ظهوره مستفتحين به على الذين كفروا ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي معلومهم وهو محمد ﷺ كالخلق بمعنى المخلوق في قوله تعالى ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أو المعنى ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بأنه هو بمطابقة صفاته بما ذكرت في التوراة وظهور معجزاته فحينئذ اختلفوا فآمنت طائفة منهم وكفرت طائفة عناداً وحسداً ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميّز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك ﴿فَإِن كُنتَ﴾ أيها الإنسان ﴿فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن والهدى على لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال ابن عباس: ومجاهد والضحاك: يعني مَنْ آمن من أهل الكتب كعبد الله بن سلام وأصحابه يشهدون لك أنه موعود في التوراة والإنجيل مطابق في قصصه وأصول أحكامه بالكتب المتقدمة، فهذا خطاب مع أهل الشك من الناس، وكان الناس في عهد رسول الله ﷺ بين مصدق ومكذب وشاك، وفيه تنبيه على أنه من خالجه شبهة في الدين ينبغي أن يتسارع إلى حلها بالرجوع إلى الصالحين من أهل العلم، وقيل: هذا خطاب من النبي ﷺ على سبيل الفرض والتقدير أو لزيادة تثبيته، يدل عليه ما أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»، وقيل: خطاب مع النبي ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب فإنهم قد يخاطبون الرجل ويريدون به غيره كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] خاطب به النبي ﷺ والمراد به المؤمنون بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١] حيث لم يقل بما تعمل وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] وقال الفراء علم الله سبحانه أن رسوله ﷺ غير شاكّ لكنه ذكره على عادة العرب يقول أحدهم لعبده إن كنت عبدنا فأطعني ويقول لولده إن كنت ولدي فافعل كذا ولا يكون ذلك على وجه الشك ﴿لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ﴾ يعني ما أنزلنا إليك أمر ثابت متحقق ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ثبت ذلك عندك بالآيات الواضحة والبراهين القاطعة بحيث لا مدخل للمرية فيه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ

﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الخطاب في هذا كالخطاب في ما سبق إما للشاكين من الناس أو للرسول ﷺ والمراد به غيره أو للرسول على سبيل الفرض، أو الفرض منه التثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ
ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ
عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ
جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ
وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ
وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ
إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ
ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ
ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ﴾ أي وجبت ﴿عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني قوله حين أخذ الميثاق أن هؤلاء للنار، روى مالك والترمذي وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: «سئل عمر بن الخطاب عن هذه الآية ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يُسأَلُ عنها فقال: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[1] الحديث، وروى أحمد عن أبي نصر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى وقال: هذه لهذه يعني للجنة وهذه لهذه يعني للنار ولا أبالي»[2].

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إذ لا نقض لقضاء الله تعالى ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ دالة على الصدق موجبة للإيمان فإن السبب الأصلي لإيمانهم إنما هو تعلق إرادة الله تعالى به ولم

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في تفسير سورة ٧، باب ٢، ومالك في القدر حديث ٢.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٩.

يوجد، وجملة لو جاءتهم مع معطوفة عليها مقدرة في محل الحال من فاعل لا يؤمنون، تقديره لا يؤمنون لو لم يجئهم ولو جاءتهم كل آية يعني لا يؤمنون في حال من الأحوال حذف ما حذف لدلالة المذكور عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ في القبر أو في النار أو حالة الغرغرة وحينئذ لا ينفعهم الإيمان كما لم ينفع إيمان فرعون حالة الغرغرة ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ أي أهل قرية من القرى التي أهلكناها ﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل معاينة العذاب ولم يؤخر إلى حالة الغرغرة كما أخر فرعون ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي قبلها الله منها، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1] رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغفر لعبده ما لم يقع الحجاب» قالوا: يا رسول الله وما الحجاب؟ قال: «أن تموت النفس وهي مشركة»[2] رواه أحمد والبيهقي في كتاب البعث والنشور ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم، وجاز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه فيكون الاستثناء متصلاً، والمعنى ما آمن[3] أحد من أهل قرية عاصية قبل معاينة العذاب الأخروي حالة الغرغرة إلا قوم يونس فإنهم آمنوا قبل حالة الغرغرة وقبل رؤية العذاب الأخروي ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ في حالة الاختيار قَبِلْنا منهم الإيمان، أخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: لما آمنوا دعوا ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي وقت معين معلوم عند الله تعالى وهو وقت آجالهم، وقال البغوي: تأويل هذه الآية أنه لم يكن قرية آمنت عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في حالة البأس إلا قوم يونس، فإنهم نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، ثم قال: واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أو لا؟ فقال: بعضهم رأوا دليل العذاب والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله تعالى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ والكشف يكون بعد الوقوع، وكلام البغوي هذا يفيد أن الإيمان في حالة العذاب الدنيوي لا يقبل ولم يقبل إلا من قوم يونس وتسمى تلك الحالة حالة البأس، والصحيح أن المراد برؤية العذاب الأليم المانع من قبول الإيمان رؤية العذاب الأخروي عند حضور الموت حين يرى ملائكة الموت، ألا ترى أن الكفار عذبوا يوم بدر بالعذاب الدنيوي من القتل والأسر وغير ذلك ثم آمن بعض من بقي حيًّا، وكذا كان حال قوم يونس أنهم آمنوا قبل رؤية العذاب الأخروي فقبل الله تعالى إيمانهم بعدما رأوا العذاب في الدنيا، ثم لما آمَنُوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا وأما إيمان فرعون فلم يقبل إما لكونه عند الغرغرة وإما لعدم خلوصه إلى قلبه بسبب دعاء موسى ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] وقد كان من عادة فرعون وقومه أنهم كلّما وقع

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٩٨، وابن ماجه في الزهد باب ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٧٤، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٥٧.

(٣) في الأصل: ما آمنت.

عليهم الرجز ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وكان كلّما كشف الله ﴿عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] فلعله آمن فرعون حينئذ أيضاً بلسانه دون قلبه فلم يقبل منه، وقد ذكرنا مسألة قبول التوبة قبل حالة الغرغرة في سورة النساء في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾[1] [النساء: ١٧] الآية ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٨] الآية.

قصة يونس عليه السلام

على ما ذكره البغوي عن ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، فأرسل الله تعالى إليهم يونس ﷺ يدعوهم إلى الإيمان، فدعاهم فأبوا فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبّحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك، فقالوا إنا لم نجرّب عليه كذباً، فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبّحكم، فلما كان جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل، وقال وهب غامت السماء غيماً أسود هائلاً، يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى غشّى مدينتهم واسودت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام، فَحَنَّ بعضها إلى بعض وعلت أصواتها واختلطت أصواتها بأصواتهم وعجُّوا[2] وتضرّعوا إلى الله عز وجل وقالوا آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم وذلك يوم عاشوراء. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل فذكر نحوه، وفيه فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى كشف الله عنهم العذاب بعد ما تدلّى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال: تيب على قوم يونس يوم عاشوراء وكان يونس قد خرج ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئاً، وكان من كذب ولم يكن له بينة قتل فقال يونس: كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتباً على ربه مغاضباً لقومه، فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجر، فلما دخلها وتوسطت بهم ولججت[3] وقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم فقال أهل السفينة: إن لسفينتنا لشأناً قال

---

(١) في الأصل: إنما التوبة على الذين إلخ.
(٢) العج رفع الصوت.
(٣) أي دخلت في طلاطم أمواج البحر.

يونس قد عرفتُ شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا:[(١)] ومن هو؟ قال: أنا اقذفوني في البحر، قالوا: ما كنا لنطرحك من بيننا حتى نُعْذَرَ في شأنك، فاستهموا فأقرعوا ثلاث مرات فأدحض سهمه، والحوت عند رجل السفينة فاغرٌ فاه ينتظر أمر ربه فيه، فقال يونس: إنكم والله لتهلكن جميعاً أو لتطرحوني فيه، فقذفوه فيه فانطلقوا وأخذت الحوت. وروي أن الله تعالى أوحى إلى حوت عظيم حتى قصد السفينة فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فَغَرَ فاه ينظر إلى من في السفينة كأنَّه يطلب شيئاً خافوا فلما رآه يونس زخ[(٢)] نفسه في الماء. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه خرج مغاضباً لقومه فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة فركبها، فلما لججت السفينة تكافت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ههنا رجل عاص أو عبد آبق وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة في كلها على يونس، فقام يونس فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق فألقى نفسه في الماء، فابتلعه حوت ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذي منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم نجعله طعاماً لك.

وروي عن ابن عباس قال: نودي الحوت إنا لم نجعل يونس لك قوتاً وإنما جعلنا بطنك له حرزاً ومسجداً، وروي أنه قام قبل القرعة قال: أنا العبد العاصي الآبق، قالوا: من أنت؟ قال: يونس بن متّى، فعرفوا فقالوا لا نلقينك يا رسول الله ولكن نساهم، فخرجت القرعة عليه فألقى نفسه في الماء، قال: ابن مسعود ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فأجاب الله له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر كالفرخ الممعط[(٣)]، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهو الدباء فجعل يستظل تحتها ووكّل الله به وعلة[(٤)] يشرب من لبنها، فيبست الشجرة فبكى عليها، فأوحى الله تعالى إليه تبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردتَ أن أهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى فقال: من أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعتَ إليهم فأخبرهم أني لَقيتُ يونس، فقال الغلام: قد تعلم أنه إن لم تكن بينة قُتِلْتُ قال يونس: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال له الغلام: فمرهما، قال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا[(٥)] له قالتا نعم، فرجع الغلام فقال للملك: إني لقيتُ يونس فأمر

---

(١) في الأصل: قال.

(٢) أي دفع ورمى.

(٣) الذي سقط شعره.

(٤) الشاة الوحشي.

(٥) في الأصل: فاشهدوا.

الملك بقتله، فقال: إن لي بينة فأرسلوا معي فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكما بالله هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم فرجع القوم مذعورين[١] وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض فأخذ الملك بيد الغلام فأجلسه في مجلسه وقال: أنت أحق بهذا المكان مني فأقام لهم أمرهم ذلك أربعين سنة.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد أن يؤمِنَ من في الأرض كلهم ﴿لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشذ عنهم أحد ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان غير مختلفين فيه، وفيه رد لمذهب القدرية الذين قالوا: إن الله سبحانه يشاء إيمان جميع الناس لكنهم لا يؤمنون باختيارهم، فإنها تدل أنه لم يشأ إيمانهم وإنّ من شاء إيمانه يؤمن لا محالة لاستحالة تخلف مشيئة الله عما شاء والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ يعني الكفار ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يشأ الله ذلك منهم ترتب الإكراه على عدم المشيئة بالفاء وإدخال حرف الاستفهام للإنكار وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن ما لم يشأ الله مستحيل وجوده لا يمكن تحصيله بالإكراه فضلاً عن الحث والتحريض عليه، وذلك أنه ﷺ كان حريصاً على أن يؤمن جميع الناس فأخبره الله تعالى بأنه لا يؤمن منهم إلا من سبق علم الله فيه بالسعادة دون من سبق عليه بالشقاوة فلا تهتم في ذلك فالآية تسلية للنبي ﷺ.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ بالله تعالى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني إلا بإرادته وتوفيقه ﴿وَيَجْعَلُ﴾ قرأ أبو بكر بالنون على التكلم والباقون بالياء على الغيبة أي يجعل الله ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ أي العذاب أو الخذلان فإنه سببه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحق من الباطل يعني الكفار لما على قلوبهم من الطبع ولعدم تعلق مشيئة الله تعالى بتعقّلهم ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أيها الناس وتفكروا ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من عجائب الممكنات كالشمس والقمر والنجوم وحركاتها المنتسقة والجبال والبحار والأنهار والأشجار والمواليد الدالات على وجود صانع قديم قادر عليم متوحد بجلال ذاته وكمال صفاته، وكلمة ماذا إن جعلت استفهامية علقت انظروا عن العمل ﴿وَمَا تُغْنِي﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار في موضع النصب يعني لا تفيد ﴿ٱلْأَيَٰتُ﴾ الموجبة للعلم واليقين ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ جمع نذير يعني الرسل وغيرهم كالشيب وموت الأقران ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمه فإن الإيمان أمر وهبي ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي مشركو مكة ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ﴾ أي مثل وقائع ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم السابقة، قال قتادة: يعني وقائع الله تعالى في قوم نوح وعاد وثمود، والعربُ تسمي العذاب أياماً، والنعم أيضاً أياماً قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] فكلّما مضى عليك من خير أو شر فهو أيام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ يا أهل مكة هلاكي ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ هلاككم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطف على محذوف دل عليه قوله ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ كأنه قيل نهلك الأمم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ ومن آمن معهم على حكاية

---

(١) الذعر: الفزع.

الحال الماضية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني كما ننجي رسلنا من الأمم السابقة كذلك ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إنجاء مثل ذلك الإنجاء ننجي محمداً ﷺ وأصحابه حين يهلك المشركون، وحقًّا علينا اعتراض يعني وجب علينا وجوباً قرأ حفص والكسائي نُنْج مخففاً من الإفعال والباقون مشدداً من التفعيل.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ من صحته فإنهم كانوا في استبعاد من أمر النبوة، وكانوا إذا رأوا الآيات اضطروا إلى الإيمان فكانوا في شك وتردد لشقاوتهم الجبلية ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الحجارة المنحوتة بأيديكم ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يعني الذي يحييكم ويميتكم ويخلق ما يشاء ويختار، وإنما خص التوفي بالذكر للتهديد، جملة فلا أعبد إلى آخره وضع موضع الجزاء إقامة للسبب مقام المسبب، تقديره إن كنتم في شك من ديني فأزيلوا ذلك الشك بالتأمل والتفكر في ديني وهو هذا لا أعبد الحجارة المخلوقة التي لا تضر ولا تنفع وأَعْبُدُ الله الخالق القادر النافع الضار ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي بأن أكون ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل وثبت بالنقل من الكتب السماوية.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ عطف على أن أكون ذكر الصلة في المعطوف عليه بصيغة المضارع وفي المعطوف بصيغة الأمر لعدم الفرق بينهما إذ المقصود وصلها بما يتضمنه من المعنى المصدري وصيغ الأفعال كلها لذلك سواء، والمعنى أمرت بكوني على الإيمان والاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على أقم يعني أمرت بأن لا تكونن من المشركين ومعناه نهيت عن كوني على الشرك ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ عطف تفسيري على قوله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني لا تعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن خذلته ولا شك أن من تفكر ونظر بعين الإنصاف في هذا الدين المؤيد بالعقل والنقل حصل له اليقين بصحة الدين وزال عنه الشك إن شاء الله تعالى ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ عبادة ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حيث وضعت العبادة في غير موضعه جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة عبادة غير الله.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ أي يصيبك ﴿بِضُرٍّ﴾ أي بمرض أو شدة أو بلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ أي لا دافع له أحد ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ﴾ الله ﴿بِخَيْرٍ﴾ من خيرات الدنيا والآخرة ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ أي لا دافع ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾ أحد لعله ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات والضر إنما مسّهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريدهم من الخير لا لاستحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بكل واحد من الخير والشر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فتتعرضوا الرحمة بالطاعة ولا تتكلوا عليها ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية ولكن خافوا عذابه، روى أبو نعيم عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى

إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم إني لا أناصبُ عبداً لحساب يوم القيامة أشَاءُ أن أعذِبَه إلا عذبتُه وقل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديكم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»[1] قطع الله سبحانه بهذه الآية طريق الرغبة والرهبة إلا إليه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سبقت رحمته على غضبه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أهل مكة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ﴾ العلم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المطابق للواقع يعني العلم بالتوحيد والصفات وأحوال المبدأ والمعاد في القرآن وعلى لسان رسوله ﷺ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ولم يبق لكم عذر بالجهل، أو المراد بالحق ما ظهر تحققه وصدقه بالإعجاز يعني القرآن أو الرسول ﷺ ولم يبق لكم عذر ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بإذعان ذلك العلم والسلوك على مقتضاه وبقبول القرآن ومتابعة الرسول ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فإن نفعه عائد إليها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن طريق الحق بالإنكار والعناد ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وباله عائد عليها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إليّ أمركم حتى أؤاخذ بضلالكم ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ بامتثال الأوامر وترك المناهي ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الطاعة وتحمل أذيتهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بقتال الكفار وضرب الجزية عليهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين تم تفسير سورة يونس من التفسير المظهري التاسع والعشرين من رمضان السنة الأولى من المائة الثالثة عشر بعد الهجرة شوال سنة ١٣٠١ هجري[2]

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٠٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/١٩٥، والسيوطي في الدر المنثور ١/١٨٠.

(٢) هكذا في الأصل لعل المصنف رحمه الله فرغ من تسويده في رمضان وكتب هذا التاريخ بالحمرة في شوال ـ أبو محمد عفي عنه ـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود

مائة وثلاث عشرون آية مكية إلا قوله:

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ [هود: ١١٤] الآية

﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴿١﴾ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه
نذير وبشير ﴿٢﴾ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل
فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴿٣﴾ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴿٤﴾ ألا
إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم
بذات الصدور ﴿٥﴾ ۞ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في
كتاب مبين ﴿٦﴾ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء
ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن
هذا إلا سحر مبين ﴿٧﴾ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم
يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٨﴾ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم
نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴿٩﴾ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب
السيئات عني إنه لفرح فخور ﴿١٠﴾ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر
كبير ﴿١١﴾ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو
جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴿١٢﴾ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر
سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١٣﴾ فإلم يستجيبوا لكم
فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿١٤﴾ من كان يريد الحياة الدنيا
وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴿١٥﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار
وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد
منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار
موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿١٧﴾ يؤمنون
أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين
كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴿١٨﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم

بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ وخبر، أو كتاب خبر مبتدأ محذوف ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي نظمت آياته نظماً محكماً لا يقع فيه نقص من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، أو منعت من النسخ إن كان المراد آيات السورة فإنه ليس شيء منها منسوخاً، أو أحكمت بالحجج والدلائل، أو جعلت حكيمة منقول من حُكم بالضم إذا صار حكيماً لاشتمالها على أمهات الحكم العلمية والعملية ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي بينت بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار كما يفصل القلائد بالفرائد، أو فصلت بجعلها سُوَراً، أو بإنزالها نجماً نجماً، أو فصل أي بين فيها ولخص ما يحتاج إليه ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة للكتاب أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت أو لفصلت يعني فصلت من عنده أحكامها وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر من أمره وما خفي ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ أي لأن لا تعبدوا، أو بأن لا تعبدوا، أو في ذلك الكتاب أن لا تعبدوا، وقيل إن مفسرة لأنَّ في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ للإغراء كأنه قيل الزموا أن لا تعبدوا إلا الله ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي من الله تعالى ﴿نَذِيرٞ﴾ بالعقاب على الشركِ ﴿وَبَشِيرٞ﴾ بالثواب على التوحيد ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ عطف على أنْ لاَّ تَعۡبُدُوا يعني استغفروا ﴿رَبَّكُمۡ﴾ على ما سلف منكم من المعاصي ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ ثم ارجعوا بالطاعة ﴿إِلَيۡهِ﴾ وقال الفراء ثم ههنا بمعنى الواو والاستغفار هو التوبة يعني يلزم أحدهما الآخر﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي يعيشكم عيشاً حسناً في أمن وسعة فإن المعاصي جالبة للمصائب والبليات قال الله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] وقيل: العيش الحسن الرضاء بالمقسوم والصبر على المقدور ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي حين موت كل واحد منكم فإنها مدة معلومة عند الله تعالى بحيث لا يتغير ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ﴾ في دينه وعمله ﴿فَضۡلَهُۥۖ﴾ أي جزاء فضله في الدنيا بكثرة التوفيق وطمأنية القلب والالتذاذ والراحة بذكر الله والبشرى وفي الآخرة بكثرة الثواب ومدارج القرب ﴿ تَوَلَّوۡاْ﴾ حذفت إحدى التاءين أي تتولوا وتعرضوا عن عبادة الله والتوحيد، ﴿فَإِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ يعني يوم القيامة فإن مقداره خمسين ألف سنة بل ما لا نهاية لها ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي رجوع أموركم كلها في الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الإثابة والتعذيب في الدارين ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو تقرير لما مر من الآيات.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ أي من الله تعالى، روى البخاري عن ابن عباس قال: «كان ناس يعني من المسلمين يستحيون أن يتخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء وأن

يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم»(١) وكذا أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عباس، وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر من طريق ابن أبي مليكة قال: سمعت ابن عباس يقرأ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ قال: كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا ثيابهم كراهة أن يفضوا بفروجهم إلى السماء، وقال البغوي: قال عبد الله بن شداد: نزلت هذه الآية في بعض المنافقين كان إذا مرّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبي ﷺ، وكذا أخرج بن جرير وغيره عن عبد الله ابن شداد بن الهاد، وفي لفظ المنافقين نظرٌ فإن الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة وضمير منه على هذا راجع إلى النبي ﷺ، وقال البغوي: قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله ﷺ بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره ومعنى قوله ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يغطون صدورهم على الكفر والشحناء وعداوة رسول الله ﷺ، وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم لكي لا يسمعوا كتاب الله ولا ذكره، وقال السدي: معنى يثنون يعرضون بقلوبهم من قولهم ثَنَّيْتُ عناني، وقرأ ابن عباس فيما روى عنه البخاري تثنوني صدورهم بالتاء والياء بالإسناد إلى الصدور من أثنوني يثنوني، وهو بناء للمبالغة، وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه وهو يقول هل يعلم الله ما في قلبي فنزلت هذه الآية ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يغطون رؤوسهم بثيابهم ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم وفيما عداها ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بأسرار ذات الصدور أو بالقلوب وأحوالها وإذا لم يخف شيء من الله تعالى فسيظهر ما يشاء على رسوله وعلى المؤمنين.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وهي كل حيوان يدب على الأرض ﴿فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ لتكفله إياها تفضلاً ورحمةً، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه، ومن ههنا قيل إنَّ عَلى بمعنى مِنْ والإضافة في رزقها للعهد يعني أن الرزق المعهود المعلوم عند الله تعالى للعبد فالله تعالى متكفله إياه يأتي منه دون من غيره، قال مجاهد: هو ما جاء من رزق فمن الله وربما لم يرزقها حتى يموت جوعاً ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال البغوي: قال ابن مقسم: وروي ذلك عن ابن عباس مستقرها المكان الذي تأوي إليه وتستقر فيه ليلاً ونهاراً ومستودعها الموضع الذي تدفن فيه إذا مات، وقال ابن مسعود: المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء، ورواه سعيد بن جبير وعلي بن طلحة وعكرمة عن ابن عباس، وقيل: المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٧٦] و ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٦٦] ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الدواب وأحوالها وأرزاقها ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي مثبت في اللوح المحفوظ أو في كتب الحفظة،

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ١.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»[١] رواه مسلم، وعن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم تكون علقة مثل ذلك، ثم تكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد»[٢] الحديث متفق عليه، وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله فرغ إلى كل عبد من خلقه من خمس من أجله وعمله ومضجعه وأثره ورزقه»[٣] رواه أحمد، كأنّه أريد بالآية كونه عالماً بالمعلومات كلها وبما بعدها ببيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيهما، أو المراد بالسماوات ما هو في جهة العلو، وبالأرض ما هو في جهة السفل، وجمع السماوات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ قبل خلق السماوات والأرض ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قال البغوي: وكان ذلك الماء على متن الريح، وقال كعب الأحبار: خلق الله ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماءً يرتعد، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء، وقال ضمرة: إن الله كان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وخلق القلم فكتب به ما هو كائن من خلقه وما هو خالق من خلقه ثم إن ذلك سبح الله ومجّده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه، وروى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء»[٤] الحديث، وقد ذكرنا بعض ما ورد من الأخبار في العرش في تفسير آية الكرسي في سورة البقرة.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليعاملكم معاملة المبتلى المختبر لأحوالكم وهو أعلم بكم حتى يظهر فيكم استحقاق الثواب والعقاب فإن السماوات والأرض وما فيها أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما يحتاج إليه أعمالكم يستدعي أن تشكروا ربكم، ودلائل وأمارات تستدلون بها على صانعكم وتستنبطون منها معرفة ربكم، فقوله ليبلوكم متعلق بخلق وفيه إشارة إلى أن السماوات والأرض وما بينهما لم تخلق لأنفسها بل توطئةً وتمهيداً لخلق المكلفين بل لخلق المؤمنين بل لخلق أحسنهم عملاً وهو محمد ﷺ ومن يشبهه والمراد بالعمل ما يعم عمل الجوارح والقلب، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في التاريخ بسند واه عن النبي ﷺ قال: يعني في تفسير هذه الآية «أيكم

---

(١) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، وأحاديث الأنبياء باب ١، والقدر باب ٨٢، والتوحيد باب ٢٨، ومسلم في القدر حديث ١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/١٩٧.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١، والترمذي في تفسير سورة ١١، باب ٩.

أحسن عقلاً وأورع من محارم الله وأسرع في طاعته»[(١)] فإن أحسن الأعمال أعمال القلوب وأحسنها حب الله والاشتغال بذكره والاستغراق فيه فالمقصود من خلق السماوات والأرض وجود أهل الله وفيه تحضيض على الترقي دائماً في مراتب العلم والعمل كما تدل عليه صيغة التفضيل ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي كالسحر في الخديعة والبطلان، وقرأ حمزة والكسائي[(٢)] إلا ساحر على أن الإشارة إلى القائل والساحر كاذب مبطل.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نزلت ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] قال أناس: إن الساعة قد اقتربت فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم السوء فأنزل الله ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فقال أناس: هذا أمر الله قد أتى فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم السوء فأنزل الله ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الآية، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله يعني لئن أخرنا عنهم العذاب الموعود ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي إلى حين ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ ساعاته، ذكر في القاموس في معاني أمة الحين، وقال البغوي: أي إلى أجل معدود، وأصل الأمة الجماعة فكأنَّه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أخرى، وقال البيضاوي: إلى جماعة من الأوقات معدودة أي قليلة ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ أي الكفار استهزاءً ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي ما يمنعه من الوقوع ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب في علم الله كيوم بدر ﴿لَيْسَ﴾ ذلك العذاب ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي مدفوعاً عنهم ويوم منصوب بِمَصْرُوفاً يعني ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلونه ويقولون استهزاءً ما يَحْبِسُه فوضع يستهزئون موضع يستعجلون.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني الجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي من نعمة صحة وأمن وجدة واللام في لئن لتوطئة القسم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا﴾ أي سلبنا تلك النعمة ﴿مِنْهُ﴾ وجواب القسم وجزاء الشرط ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ أي شديد اليأس من أن يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله لقلة صبره وعدم ثقته به وعدم تسليم لقضائه ﴿كَفُورٌ﴾ عظيم الكفر إن لما سلف له من نعمة الله نَشَاءَ له ولما معه من نعمائه لأن الإنسان لا يخلو من نعماء الله تعالى من الوجود وتوابعه ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم مَسَّتْهُ صفة لضراء ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ جواب قسم وجزاء شرط ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾[(٣)] أي المصائب التي ساءتني يعني لا ينسب ذهاب السيئات إلى الله تعالى ولا يشكره بل ينسبه إلى عادة الدهر ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ أشِرٌ بطر بالنعمة مغتر بها والفرح لذة في القلب بنيل المشتهى ﴿فَخُورٌ﴾ على

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ٨٦.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) ليس في الأصل (عني).

الناس يزعم نفسه مستحقاً لتلك النعمة متعالياً على الناس يشغله الفرح والفخر عن الشكر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء من الإنسان يعني إلا المؤمنين فإنهم ليسوا بيؤوس ولا كفور عند سلب النعمة بل يرجون فضل الله ويشكرون نعماءه السابقة والباقية ولا فرحين بطراً وأشراً غير مفتخرين على الناس عند إنعامه بل يشكرون الله تعالى، وضع الله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ موضع المؤمنين إشعار بأنهم يصبرون في الضراء ويعملون شكراً في السراء، عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1] رواه مسلم، وقال الفراء: هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم إن نالهم شدة صبروا وإن نالوا نعمة شكروا، وعلى قول الفراء اللام في الإنسان للعهد يعني إذا أذقنا الإنسان الكافر الذي مر ذكره منا رحمة إلخ حتى ينقطع الاستثناء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الصابرون الشاكرون ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني رضوان الله وجنته، عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[2] رواه مسلم.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ يعني ما فيه سبّ آلهتهم وذلك حين قالوا: ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سبّ آلهتنا كذا قال البغوي، قال البيضاوي: ولا يلزم من توقع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسول عن الخيانة في الوحي والتقية في التبليغ ههنا، قلت: وبهذا يندفع ما قيل إن لعل من الله واجبة الوقوع ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ الضمير في به مبهم تفسيره ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد[3] ﴿كَنزٌ﴾ ينفقه في الاستتباع كالملوك ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدقه قاله عبد الله بن أمية المخزومي، يعني يضيق صدرك وتغتم بقولهم هذا، وجاز أن يكون المعنى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي تترك تبليغه إياهم لتهاونهم به وَضَائِقُ به أي يضيق بذلك الترك صَدْرُكَ فإن ترك ما أمر الله به يوجب ضيق الصدر كما أن إتيان ما أمر الله به يوجب انشراح الصدر، أن يقولوا أي تترك التبليغ مخافة ردهم واستهزائهم بأن يقولوا وضائق صدرك لأجل ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ إن كان رسولاً فقال الله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ يعني ليس عليك إلا إنذار بما يوحى إليك ولا عليك شيء إن ردوا أو اقترحوا أو قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: ١٥] فما بالك تترك بقولهم أو بمخافة ردهم أو يضيق صدرك بقولهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون فيجازيهم عليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة والاستفهام فيه للإنكار يعني بل أيقولون ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٤.
(٢) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٦٤، وأبو داود في الأدب باب ٤٠، وابن ماجه في الزهد باب ١٦، ٢٣.
(٣) في الأصل: إلى محمد.

من عند نفسه الضمير المنصوب عائد إلى ما يوحى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فإن قيل: قد قال في سورة يونس: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ فهو كرجل يقول لآخر أعطني درهماً فيعجز فيقول أعطني عشرة؟ أجيب بأن سورة هود نزلت أولاً فلما عجزوا عن إتيان العشرة أنزل بعد ذلك فَأْتُوا بسورة، وأنكر المبرد هذا الجواب وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً وأجاب بأن معنى قوله في سورة يونس ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] في الإخبار عن الغيب والإحكام والوعد والوعيد على طبق الكتب المنزلة المتقدمة فعجزوا عن ذلك فقال لهم في سورة هود ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] في مجرد البلاغة وحسن النظم، قلت: ثم قال: في سورة البقرة ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] وتوحيد المثل باعتبار كل واحد ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ مختلقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على ما أقدر عليه بل أنتم أقدر لتعلمكم وكثرة ممارستكم ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليعينكم على إتيان سور مثله ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم إنه مفترى وهذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه وجمع الضمير في لكم إما لتعظيم الرسول، أو لأن المؤمنين أيضاً كانوا يتحدّونهم، وكان أمر الرسول متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، أو للتنبيه على أن التحدي مما يوجب قوة يقينهم ورسوخ إيمانهم فلا يغفلون عنه ولذلك رتب عليه قوله ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي متلبساً(١) بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقه بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون مخلصون فيه إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين وللضمير المرفوع في لم يستجيبوا لمن استطعتم والمعنى، فإن لم يستجب لكم أيها الكفار من استطعتم دعوتهم إلى المعاونة على المعارضة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة وفي هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله وإحسانه ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي طول البقاء في الدار الدنيا والصحة ﴿وَزِينَتَهَا﴾ من الأموال والأولاد والأزواج والخدم والحشم ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي نوصل إليهم جزاء أعمالهم الحسنة وافياً ﴿فِيهَا﴾ أي في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في الدنيا ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾

(١) في الأصل: ملتبساً.

أي لا يُنقصون شيئاً من أجورهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ شيء من الجزاء ﴿إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ لأنهم استوفوا جزاء أعمالهم الحسنة في الدنيا وبقيت لهم أوزار الأعمال السيئة ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ من الحسنات يعني لم يبق لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى حتى يكون أجره على الله، والظرف إما متعلق بحبط والضمير يعود إلى الآخرة، وإما بصنعوا والضمير يعود إلى الدنيا ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ في نفسه ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من الحسنات في الدنيا لأنه لم يعمل على ما ينبغي وكأنَّ كلَّ واحدة من الجملتين علة لما قبلها، والظاهر أن هذه الآية في حق الكفار، روى البخاري عن عمر بن الخطاب في حديث طويل أنه قال: «رفعت بصري في بيته ﷺ فوالله ما رأيتُ فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: «أو في هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»(١) وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة، وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى عليها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطىٰ بها خيراً»(٢) رواه مسلم وأحمد، قلت: وقوله تعالى ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [يونس: ١٦] قرينة دلت على أن الآية في حق الكفار للإجماع على أن مآل المؤمن إلى الجنة البتة، وقيل: هذه الآية في حق أهل الرياء. عن أبي سعيد بن فضالة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»(٣) رواه أحمد، وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع الله شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب له»(٤) رواه الترمذي ورواه أحمد والدارمي عن أبان عن زيد بن ثابت، وقوله تعالى ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾(٥) لا ينافي قوله عليه السلام «لا يأتيه منها إلا ما كتب له» لأن إيفاء أعمالهم في الدنيا بحيث لا يبخسون مكتوب لهم ويأتيهم البتة ولا يأتيه ما يزيد عليه وإن كان طالب الدنيا يطلب ما لا نهاية له فإنه لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً، قلت: وإن كانت هذه الآية في أهل

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم باب ٢٥، والنكاح باب ٨٣، وأحمد في المسند ١/ ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في المنافقين حديث ٥٦، والترمذي في الإيمان باب ١٧، وأحمد في المسند ٣/ ١٢٣، ١٢٥، ٢٨٣.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٦٦، ٤/ ٢١٥.

(٤) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٣٠، وابن ماجه في الزهد باب ٢، وأحمد في المسند ٥/ ١٨٣.

(٥) في الأصل: أعمالهم وهم فيها.

الرياء فمعنى قوله تعالى ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ أنه ليس لهم جزاء ما يراؤون فيه إلا النار.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ برهان ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ يدله على الحق والصواب فيختار عبادة الله على عبادة الأوثان والدار الآخرة الباقية ونعيمها على الدار الدنيا الفانية ولذاتها، الموصول مبتدأ حذف خبره والفاء للتعقيب والهمزة لإنكار الحكم بمشابهة من هذا شأنه بهؤلاء المقصرين هممهم وأفكارهم على الدنيا بعد العلم بأن المقصرين ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ وهو الذي أغنى عن ذكر الخبر، والتقدير ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كمن كان يريد الحياة الدنيا، والمراد بالموصول المؤمنون المخلصون ومن قال: المراد به النبي ﷺ عنى به الرسول ﷺ وأتباعه للعموم وجمعية اسم الإشارة إليه في قوله ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أخرج أبو الشيخ عن أبي العالية وإبراهيم النخعي في قوله ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قال: ذلك محمد ﷺ وكذا أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب، والمراد بالبينة القرآن ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي يقرأ ذلك البرهان ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي من الله تعالى ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزوله ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ يعني التوراة شاهد من الله يصدق القرآن ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم وهما حالان من كتاب موسى، والمراد بالشاهد جبرائيل عليه السلام أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: جبرائيل، فهو شاهد من الله يتلو من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﷺ، ومن قبله تلا التوراة على موسى كما تلا القرآن على محمد ﷺ، وكذا ذكر البغوي قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير أنه جبرائيل عليه السلام، وقال الحسن وقتادة هو لسان محمد ﷺ يعني يقرأ ذلك البرهان الذي عليه المؤمنون شاهد من الله وهو محمد ﷺ، ومن قبله كتاب موسى شاهد له، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ عن محمد بن علي بن أبي طالب قال: قلت لأبي إن الناس يزعمون في قول الله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أنك أنت الشاهد، فقال: وددت أني أنا هو ولكنه لسان محمد ﷺ» وأخرجه أبو الشيخ من طريق أبي نجيح عن مجاهد.

وقيل: يتلو من التلو بمعنى التبعية والشاهد ملك يحفظه والضمير في يتلوه إما لمن أو للبينة باعتبار المعنى، ومن قبله كتاب موسى جملة مبتدئة، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قال: هو محمد ﷺ والشاهد منه قال: ملك يحفظه، وقيل: الشاهد هو علي بن أبي طالب. قال البغوي: قال علي رضي الله عنه: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية من القرآن فقال له رجل: وأنت أيّ شيء نزل فيك؟ قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾. فإن قيل: فما وجه تسمية علي بالشاهد؟ قلت: لعل وجه ذلك أنه أول من أسلم من الناس فهو أول من شهد بصدق النبي ﷺ، والأوجه عندي أن يقال أن عليًّا رضي الله عنه كان قطب كمالات الولاية وسائر الأولياء حتى

الصحابة رضوان الله عليهم أتباع له في مقام الولاية، وأفضلية الخلفاء الثلاثة بوجه آخر كذا حقق المجدد رضي الله عنه في مكتوب من أواخر مكتوباته فكان معنى الآية ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني على حجة واضحة وبرهان قاطع وهو محمد ﷺ، فإنه كان على حجة واضحة من ربه وبرهان قاطع يفيد العلم بالقطع أنه رسول الله، وذلك معجزاته أفضلها القرآن وعلومه المستندة إلى الوحي، ويتلوه أي يتبعه شاهد من الله على صدقة وهو عليٌّ ومن شاكَلهُ من الأولياء، فإن كرامات الأولياء معجزات للنبي ﷺ وعلومهم المستندة إلى الإلهام والكشف ظلال لعلوم النبي ﷺ المستندة إلى الوحي فتلك الكرامات والعلوم شاهدة على صدق النبي ﷺ فقوله ﷺ: «أنا دار الحكمة وعليٌّ بابها»[(١)] رواه الترمذي بسند صحيح عن علي، «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد العلم فليأت الباب»[(٢)] رواه ابن عدي في الكامل والعقيلي في الضعفاء والطبراني والحاكم عن ابن عباس وابن عدي والحاكم عن جابر، إشارة إلى علوم الأولياء دون علوم الفقهاء فإن أخذ علوم الفقهاء لم ينحصر على عليّ رضي الله عنه بل قال فيه رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[(٣)] وقيل: شاهد منه هو الإنجيل وقبله كتاب موسى التوراة شاهد له، وقيل البينة البرهان العقلي والشاهد القرآن، قال الحسين بن الفضل: الشاهد هو القرآن ونظمه وإعجازه، والمعنى أفمن كان قائماً على وفق البرهان العقلي ويتبع ذلك البرهان شاهد من الله يعني القرآن يشهد بصحة البرهان ومن قبل القرآن كِتَٰبُ موسى يعني التوراة أيضاً يشهد للبرهان والمراد بالموصول المسلم المخلص ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة بناءً على أن المراد به جماعة المسلمين وجاز أن تكون إشارة إلى شاهد من حيث المعنى إن كان المراد به عليٌّ رضي الله عنه فمن شاكله من الأولياء ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ حقيقة الإيمان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بمحمد ﷺ أو بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من أهل الملل كلها ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار»[(٤)] رواه مسلم ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الموعد أو من القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني لا أحد[(٥)] أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له ولداً أو شريكاً، أو أسند إليه ما لم ينزله ونفى عنه ما أنزله، وأسند إليه تحريم ما لم يحرّم وتحليل ما

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٢٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٨٢٦، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ١/١٩٣، ١٩٥، والطبراني في المعجم الكبير ١١/٦٦.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٤٠.

(٥) في الأصل: لا أظلم.

حرم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفترون ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ يعني الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم كذا أخرج أبو الشيخ عن مجاهد، وعن ابن عباس أنهم الأنبياء والرسل وهو قول الضحاك ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: ٤١] وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال: ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أمته غدوة وعشية فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم، وقال قتادة: الخلائق كلهم، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كتفه ويستره فيقول أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق»(١) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٨]» فيه تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ بظلمهم على الله بكذبهم عليه، قلت: وليست الأَشْهَادُ منحصرة في مَنْ ذكر بل من الأَشْهَاد أعضاء المكلف قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥] الآية وقال الله تعالى ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ [فصلت: ٢١] الآية، وقال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤] الآية وستذكر، وفي حديث أنس عند مسلم: «يقول الله كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهيداً فتختم على فيه ويقال لأركانه انطقي»(٢) الحديث، وسنذكر أحاديث الباب في تفسير الآيات المذكورة إن شاء الله تعالى، ومن الأشهاد الأمكنة والأزمنة وغير ذلك وقد ذكرنا بعض ما ورد فيها في سورة العاديات في تفسير قوله تعالى ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤﴾ [الزلزلة: ٤] قوله ﷺ: «أخبارها أن تشهد يعني الأرض على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها»(٣) وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس إلا شهد له يوم القيامة»(٤) ورواه ابن خزيمة بلفظ «لا يسمع صوته حجر ولا مدر ولا شجر ولا جن ولا إنس إلا شهد له»(٥) وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً عند أبي داود وابن خزيمة «للمؤذن يغفر له مدى صوته وشهد له كل رطب ويابس»(٦) وأخرج ابن المبارك عن عمر من سجد عند موضع عند شجر أو حجر شهد له يوم القيامة، وعن عطاء الخراساني نحوه، وأخرج أبو نعيم عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل

(١) أخرجه البخاري في المظالم باب ٢٧، وأحمد في المسند ٢/ ٧٤.
(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٧.
(٣) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٧، وتفسير سورة ٩٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٤.
(٤) أخرجه البخاري في الأذان باب ٥، والتوحيد باب ٥٢، وبدء الخلق باب ١٢.
(٥) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣٨٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ١٧٤.
(٦) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ٣١، والنسائي في الأذان باب ١٤، وابن ماجه في الأذان باب ٥.

عليك غداً شهيد، فاعمل فِيَّ خيراً أشهد لك به غداً، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليل مثل ذلك»[(١)] وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب لمسلم وهو لمن أعطى منه الأسير واليتيم وابن السبيل شهيد، وإنه من يأخذ بغير حق كالذي يأكل ولا يشبع فيكون عليه شهيداً يوم القيامة»[(٢)] وأخرج أبو نعيم عن طاوس قال: «يُجاء يوم القيامة بالمال وصاحبه فيتحاجان»[(٣)] الحديث.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس عن دينه ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يصفونها بالانصراف عن الحق والصواب، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ يعني والحال أنهم كافرون بالآخرة وتكرير كلمة هم لتأكيد كفرهم واختصاصهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال ابن عباس: سابقين، وقال قتادة: هاربين، وقال مقاتل: فائتين، والمعنى واحد يعني ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني أنصاراً يحفظهم من عذاب الله ولكن الله أخر عذابهم إلى يوم القيامة ليكون أشدو وأدوم ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ استئناف، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب[(٤)] يضَعَّفُ بالتشديد من التفعيل والباقون من المفاعلة، قيل تضعيف العذاب لإضلالهم الغير واقتداء الأتْباع بهم ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ يعني استماع الحق فإن الله تعالى لم يخلق فيهم[(٥)] استعداد سماع للحق فهم صم لا يسمعونه ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ الهدى لتعاميهم عن آيات الله لعدم خلق الله تعالى البصيرة في قلوبهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث اشتروا عبادة الحجارة بعبادة الله تعالى واشتروا النار بالجنة ﴿وَضَلَّ﴾ أي فات ﴿عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أن الأصنام يشفع لهم عند الله ﴿لَا جَرَمَ﴾ فيه أقوال أحدها أنَّ لاَ، ردٌّ لكلام سابق يعني ليس الأمر كما زعموا افتراءً، وجَرَمَ كلام مبتدأ معناه كَسَبَ وفاعله مضمر وقوله تعالى ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ في محل النصب على المفعولية يعني كسب الحكم بخسرانهم، وقيل: معنى جرم وجب وحق فعلى هذا أنهم في الآخرة في محل الرفع على الفاعلية، ثانيها أن لاَ جَرَمَ كلمتان ركبتا فصار معناهما حقاً وأنهم في الآخرة في محل الرفع على أنه فاعل يعني حق حقاً أنهم خاسرون، ثالثها أن معناه لا محالة، وفي القاموس لا جرم ولا ذا جرم ولا أن جرم ولا أن ذا جرم ولا جَرُم ككَرُم بالضم أي لا بد أو حقاً أو لا محالة، وهذا أصله ثم تحول إلى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام يقال لا جرم لأتينَّك، وكونهم من الأخسرين لأن خسران غيرهم بالكفر أو المعاصي وخسرانهم بالكفر وصد غيرهم عن الإيمان.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/٣٠٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣١٦١، والقرطبي في تفسيره ١٢/٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٩٦، ١٢٢. (٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٢٠٠٣١.

(٤) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٥) في الأصل: لم يخلق استعداد سماع.

﴿إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ قال ابن عباس: خافوا، وقال قتادة: أنابوا، وقال مجاهد: اطمأنوا، وفي القاموس أخبت خشع وتواضع والخَبِيتُ الشيء الحقير ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ دائمون ﴿مثل الفريقين﴾ المؤمنين والكافرين ﴿كالأعمى والأصم﴾ فإنه مثل الكافر فإن الكفار لا يستطيعون السمع يعني سماع الحق سماع قبول وما كانوا يبصرون الهدى ﴿والبصير والسميع﴾ وذلك مثل المؤمن: ﴿يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ [الزمر: ١٨] ويبصرون بنور الله في قلوبهم، فالكافر مشبه بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة ولذلك قال: ﴿هل يستويان﴾ ولم يقل هل يستوون كذا قال الفراء ﴿مثلا﴾ أي تمثيلاً أو صفةً أو حالاً ﴿أفلا تذكرون ﴿١٥٥﴾﴾ أي تتعظون بضرب الأمثال والتأمل فيها، فيه أدغمت التاء في الذال(١).

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ﴿٢٥﴾ أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم
عذاب يوم أليم ﴿٢٦﴾ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك
اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴿٢٧﴾
قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها
كارهون ﴿٢٨﴾ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم
ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ﴿٢٩﴾ ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون
﴿٣٠﴾ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري
أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴿٣١﴾ قالوا يا نوح قد جادلتنا
فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿٣٢﴾ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما
أنتم بمعجزين ﴿٣٣﴾ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم
وإليه ترجعون ﴿٣٤﴾ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون ﴿٣٥﴾
وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴿٣٦﴾ واصنع
الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴿٣٧﴾ ويصنع الفلك وكلما مر عليه
ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴿٣٨﴾ فسوف تعلمون من
يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴿٣٩﴾ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من
كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴿٤٠﴾ ۞ وقال
اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴿٤١﴾ رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال
ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴿٤٢﴾ قال سآوي إلى
جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من
المغرقين ﴿٤٣﴾ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي

---

(١) لأبي بكر ـ وغير الكوفيين ـ أبو محمد ـ.

وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي[١] بفتح الهمزة أي بأني والمعنى أرسلناه متلبساً[٢] بهذا الكلام وهو قوله ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح كَأني والمعنى على الكسر، والباقون بالكسر أي فقال: إني لأن في الإرسال معنى القول ﴿مُّبِينٌ﴾ أبيّنُ لكم موجبات العذاب والثواب ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدل من إني لَكُمْ أو مفعول مُبِينُ ويجوز أن تكون مفسرة متعلقة بأرْسَلْنَا أو بِنَذِير ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[٣] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أن تشركوا به شيئاً، وألِيمُ بمعنى مؤلم في الحقيقة صفة للمعذب يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جَدّ جِدُّه ونهارك صائم للمبالغة ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ يعني الأشراف والرؤساء لأنهم يملؤون القلوب هيبةً والمجالس أبهة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ آدمياً ﴿مِّثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا حتى تكون نبيًّا واجب الطاعة، كأنهم أرادوا أن يكون ملَكاً أو مَلِكاً ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي سفلتنا والرذل الدون من كل شيء وجمعه أرذل ثم جمع على أراذل مثل كلب وأكلب وأكالب لأنه بالغلبة صار مثل الاسم قال عكرمة: يعني الحاكة والأساكفة ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ الرأي النظر بالعين والقلب وأيضاً الرأي الاعتقاد كذا في القاموس، وبادي الرأي معناه ظاهر النظر من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها، وقرأ أبو عمرو بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بالياء، وانتصابه بالظرف على حذف المضاف أي وقت حدوث بادي الرأي، والعامل فيه اتَّبَعَك وإنما استرذلوه لذلك أو لفقرهم فإنهم لمّا لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان ذا حظ بها أشرف عندهم والمحروم فيها أرذل ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ يا نوح مع من تبعك ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ في حال أو غير ذلك يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أنت في دعوى النبوة واتباعك في دعوى العلم بصدقك فغلّب المخاطبين على الغائبين.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ حجة واضحة شاهدة

---

(١) وأبو جعفر ويعقوب وخلف ـ أللهو محمد ـ.

(٢) في الأصل: ملتبساً.

(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

بصحة دعوى ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ أي بينةً أو هدًى ونبوةً ﴿مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص[١] بضم العين وتشديد الميم من التفعيل بمعنى أُخْفِيَت والباقون بفتح العين وتخفيف الميم من المجرد بمعنى خَفِيَت عَلَيْكُم فلم تهتدوا إليها بالحجة[٢]، يقال: بصيرة ومبصرة إذا يهتدى بها، ويقال عمياء إذا لا يهتدى بها، وتوحيد الضمير لأن البينة في نفسها هي الرحمة، أو لأن خفاءها يوجب خفاء النبوة أو على تقدير فعميت به النبوة وحذفها للاختصار أو لأنه لكل واحد منهما ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي نلزمكم على الاهتداء بها أي بالبينة أو الرحمة ونجبركم على قبولها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تريدونها قال قتادة: لو قدر الأنبياء أن يلزموا قومهم الإيمان لألزموا ولكن لم يقدروا.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ فهو وإن لم يذكر لكنه معلوم مما ذكر ﴿مَالًا﴾ أي جعلا يثقل عليكم إن أديتم أو عليّ إن لم تؤدوا ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص[٣] بفتح الياء والباقون بإسكانها ـ يعني ليس ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ بناء على وعده تفضلاً ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أَنَفَةً من المجالسة معهم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمون طاردهم عنده، أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه، فكيف أطرد أولياء الله ومقربيه ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾ قرأ نافع والبزي وأبو عمرو[٤] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بلقائهم ربهم أو بمراتب قربهم من الله أو في التماس طردهم أو تتسفهون عليهم بأن، تدعوهم أراذل أو تجهلون عاقبة أمركم ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ يدفع انتقامه مني ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ بإدغام التاء في الذال يعني أفلا تتعظون وتعقلون لتعرفوا أن التماس طردهم ليس بصواب ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي خزائن رزقه وأمواله يعني لستُ مدعياً فضلي عليكم بالمال حتى تنكرونه وتقولون ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ عطف على ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ﴾ أقول أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني استبعاداً، أو حتى أعلم أن هؤلاء الذين اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب، وعلى الثاني يجوز عطفه على أقول ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تنكرونه وتقولون ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي تحتقره وتستصغره أعينكم يعني الذين قلتم فيهم أراذلنا لأجل فقرهم، افتعال من ذرا عليه إذا عابه، قلبت تاؤه دالاً لتجانس الراء في الجهر، وإسناده إلى العين للمبالغة والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادي الرأي من غير رؤية وبما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة مالهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم وخصالهم ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ بل ما

---

(١) في الأصل: إليه الحجة.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٤) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

أعطاهم في الدنيا من الإيمان والهداية، وفي الآخرة من الجنة والدرجات خير مما أعطاكم الله في الدنيا من المال ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ مني ومنكم ﴿بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ من محبة الله ومحاسن الأخلاق والعقائد ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِذٗا﴾ أي إذا طردتُهم وقلتُ فيهم ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ فأطَلْتَه إذ أتيت بأنواعه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوى النبوة والوعيد على ترك الإيمان فإن مناظرتك لا تؤثر فينا ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ ليس ذلك في وسعي لا إتيانه ولا تعجيله ﴿إِن شَآءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ الله بدفع العذاب أو الهرب منه إذا جاء عذابه ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ قرأ نافع[2] بفتح الياء وكذا أبو عمرو والباقون بإسكانها ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ شرط ودليل جواب، والجملة دليل جواب لقوله ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ وتقدير الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم فأردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي فيه دليل على أن إرادة الله يصح تعلقها بالإغواء وإن خلاف مراده تعالى محال وقيل: معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل إذا هلك ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ خالقكم وللتصرف فيكم ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ يعني بل أيقولون ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ قال ابن عباس: يعني يقولون افترى نوح وقال مقاتل: معناه تقولون افترى محمد ﷺ ﴿قُلۡ﴾ يا نوح أو يا محمد ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ أي وبال إجرامي والإجرام كسب الذنب ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ.

قال البغوي: روى الضحاك عن ابن عباس أن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً عليه السلام حتى يسقط فيلقونه في لبد ويبقونه في بيت يزعمون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وروي أن شيخاً منهم كان يتوكأ على عصا ومعه ابنه فقال: يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال: يا أبت أمكنني من العصا فأخذ العصا من أبيه حتى شج شجة منكرة فأوحىٰ الله تعالى إليه ما ذكر في كتابه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ افتعال من البؤس وهو الحزن ومعناه لا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ من التكذيب والإيذاء، أقنطه الله من إيمانهم حتى لا يتعب نفسه في دعوتهم ونهاه أن يغتم حيث وعده بأني مهلكهم ومنقذك منهم، فحينئذ دعا نوح عليهم بقوله ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون بنوح فيخنقونه حتى يغشى عليه وإذا أفاق قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى إذا عادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء انتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلا أخبث من الذي قبله، حتى كان الآخر

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

منهم ليقولون قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، فشكا إلى الله وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] حتى قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فأوحى الله إليه ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حال أي متلبساً بأعيننا، قال ابن عباس: بمراءٍ منا، وقال مقاتل: بعلمنا، وقيل: بحفظنا، عبر عن المبالغة في الحفظ بالأعين لكونها أكثر آلات الحفظ والمراعاة عن الاختلال من سائر الحواس ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنع أو بأمرنا بصنعه ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يعني لا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالطوفان حكمتُ عليهم في الأزل والإغراق فلا سبيل إلى كفّه.

قال البغوي في القصة أن جبرائيل عليه السلام أتى نوحاً فقال: إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك، قال: كيف أصنع ولستُ بنجار؟ فقال: إن ربك يقول اصنع فإنك بعيني فأخذ القدوم وجعل يصنع ولا يخطئ، وقيل: أوحي إليه أن يصنعها مثل جوءجوء[1] الطائر ﴿وَيَصْنَعُ﴾ نوح ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية، قال البغوي: أقبل نوح على عمل الفلك ولهي عن قومه، وأعقم الله أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد، وجعل نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيىء عدة الفلك من القار وغيره، وجعل قومه يمرون عليه وهو في عمله ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ استهزؤوا به بعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية لم يكن بقربها ماء أوان عزّته وكانوا يضحكون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعدما كنت نبيًّا، وروي أنهم كانوا يقولون له يا نوح ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتاً يمشي على الماء فيضحكون منه ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ إذا عاينتم عذاب الله في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالحرق، قيل: هذا على سبيل المشاكلة، والمعنى إن تستجهلوني فإني أستجهلكم إذا نزل العذاب، وقيل: معناه إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ يعني سخرية مثل سخريتكم منا عند رؤية الفلك ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ الموصول في محل النصب بتعلمون أي فسوف تعلمون الذي يأتيه ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهينه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي ينزل عليه أو يحل حلول الدين الذي لا انفكاك عنه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم فحل بهم عذاب الغرق حتى ماتوا وصاروا معذّبين في البرزخ إلى يوم القيامة ثم مردّهم إلى عذاب النار وبئس المصير.

قال البغوي: زعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يصنعه أعوج أزور[2] وأن يطليه القار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاث أطباق سفلاً ووسطاً وعلواً ويجعل فيه كوى، ففعله نوح كما أمره الله تعالى وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس بلفظ: إن نوحاً لمّا أمر أن يصنع الفلك، قال:

---

(١) الصدر.
(٢) الزور: الميل.

يا رب وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر فغرس الساج عشرين سنة، وكف عن الدعاء وكفوا عن الاستهزاء، فلما أدرك الفجر أمره ربه فقطعها وجفّها، وقال يا رب كيف أجعل هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور رأسه كرأس الديك وجوء جوئه كجوء جوء الطير وذنبه كذنب الديك، واجعلها مطبقة، واجعل لها أبواباً في جنبها وشدها بدُسُرٍ يعني مسامير الحديد وبعث الله جبرائيل فعلمه صنعة السفينة وكذا أخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب وقال البغوي: قال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والبهائم، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام ورَكِبَ هو ومن معه البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وأخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب قال: طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وسمكها ثلاثون ذراعاً، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس من غير ذكر العرض، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن طول السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وزادَ إنَّ بابها في عرضها، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس بلفظ كانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الطير وفي شرح خاصة السير أن الطبقة السفلى للطيور والبهائم والوحوش وغيرهم من الحيوانات والوسطى للطعام والشراب والثياب والعليا للناس، وقال الشامي: كان طول السفينة ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين وسمكها إلى السماء ثلاثين ذراعاً والذراع إلى المنكب، وعن ابن عباس أن طولها ستمائة ذراع، قال البغوي: وروي عن الحسن قال: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والمعروف هو الأول أن طولها ثلاثمائة ذراع، وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يعمل الفلك، وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجففه أربعين سنة وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة ثلاثين سنة، وروي أنها كانت ثلاث طبقاتٍ الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمر ذنب الفيل، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر تخرب السفينة تقرضها وحبالها فأوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه، لو حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ واختلفوا في التنور؟ أخرج أبو الشيخ عن عكرمة والزهري هو وجه الأرض كذا ذكر البغوي عنه، وكذا أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس، وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قال: أعلى الأرض وأشرفها، وأخرج ابن أبي

حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قال: العين التي بالجزيرة عين الوردة، وروي عن عليّ قال: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يعني طلع الفجر ونور الصبح، وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي تخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية عن ابن عباس، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس بلفظ إذا رأيت تنور أهلك تخرج منه الماء فإنه هلاك قومك، قال الحسن: كان تنوراً من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصارت إلى نوح فقيل لنوح إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضعه قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة، وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فوران الماء منه علماً لنوح أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عليّ بن أبي طالب قال: فار التنور من مسجد الكوفة من قِبَل باب كندة، وأخرج عنه أيضاً أبو الشيخ من طريق الشعبي بلفظ والذي فلق الحبة وبرئ النسمة إن مسجدكم هذا الرابع من أربعة مساجد المسلمين والركعتان فيه أحب إليّ من عشر مما سواها إلا المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ وإن من جانبه الأيمن مستقبل القبلة فار التنور، وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة، وروي عن ابن عباس أنه كان بالهند، أخرج عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه، والفوران الغليان.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ الزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر فيقال لواحد من خف أو نعل زوج خف وزوج نعل والمراد بالزوجين ههنا الذكر والأنثى، يعني من كل ذكر وأنثى ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ منصوب على المفعولية لِأَحْمِل يعني احمل اثنين من كل ذكر وأنثى أي من مجموعهما من كل واحد منهما واحداً، هذا على قراءة الجمهور بإضافة كل إلى زوجين، وقرأ حفص ههنا وفي سورة المؤمنين من كُلٍّ بالتنوين يعني من كل نوع من الحيوان زوجين يعني ذكراً وأنثى، فهو منصوب على المفعولية واثنين على هذا تأكيد، قال البغوي: وفي القصة أن نوحاً عليه السلام قال: يا رب كيف أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى فيحملهما في السفينة ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على المفعول به أعني اثنين أو زوجين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ من الله تعالى في الأزل بالهلاك يعني امرأته واعِلَةَ وابنه منها كنعان فإنهما كانا كافرين ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ من الناس غيرهم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلفوا في عددهم فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي لم يكن في السفينة إلا ثمانية نفر، نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام ويافث ونساؤهم، أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج قال: حدثت أن نوحاً حمل معه بنيه الثلاثة وثلاث نسوة لبنيه، وأصاب حام زوجته في السفينة فدعا أن يغير نطفته، فجاءت بالسودان وقال الأعمش: كانوا سبعة نوح وثلاث بنين له وثلاث كنائن، وهذان القولان يأباهما القرآن فإن عطف قوله ومن آمن على أهلك يدل على المغايرة

والسبعة المذكورون كانوا من أهله وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به سواهم وأزواجهم جميعاً يعني كانوا عشرةً من الرجال وعشراً من النساء، وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأة، وبنيه الثلاثة ونساءهم، فجميعهم ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء، وعن ابن عباس قال: كان في سفينة نوح ثمانين رجلاً أحدهم جرهم، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: حمل نوح معه في السفينة ثمانين إنساناً وكان لسانه عربيًّا، قال ابن عباس: أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذَنَبه فلم يستقل رجلاه فجعل نوح ﷺ يقول ويحك ادخل فنهض فلا يستطيع حتى قال: ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك، كلمة زلت عن لسانه فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان فقال نوح: ما أدخلك عليَّ يا عدو الله؟ قال: ألم تقل أدخل وإن كان الشيطان معك، قال: اخرج عني يا عدو الله؟ قال: ما لك بد من أن تحملني معك وكان فيمن يزعمون في ظهر الفلك، وروي عن بعضهم أن الحيّة والعقرب أتيا نوحاً فقالتا احملنا، فقال: إنكما سبب الضر والبلاء فلا أحملكما قالتا: احملنا فنحن نضمن لك أن نضر أحداً ذكرك، فمن قال حين خاف مضرتهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] ما ضرتاه، قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض فأما ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئاً.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أي صيروا فيها وجعل ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ حال من الضمير المرفوع في اركبوا، يعني: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسالها، أو مكانهما على أن المجرى والمرسى للوقت أو للمكان أو للمصدر والمضاف محذوف كقولهم آتيك خفوق النجم، وانتصابهما بما قدرنا حالاً ويجوز رفعهما ببسم الله على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ أو خبر أي إجراؤها بسم الله فبسم الله خبره أو صلته والخبر محذوف وهي إما جملة لا تعلق لها بما قبلها كأنّ نوحاً أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجريها ومرسيها بذكر اسم الله أي باسم الله إجراؤها وإرساؤها ولفظ الاسم مقحم، وإما حال مقدرة من الضمير المرفوع في اركبوا أو من الضمير المجرور في فيها قرأ حمزة والكسائي وحفص[1] مجراها بفتح الميم من جرى، وقرأ محمد بن محيصن مجراها ومرساها بفتح الميمين من جَرَت ورَسَت وكلاً يحتمل الثلاثة الزمان والمكان والمصدر، والباقون بضم الميمين من أُجْرِيَتْ وأُرْسِيَتْ وأمال حفص مجراها خاصة في القرآن لا غير ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لسيئاتكم ورحمته إياكم لما نجيتم، قال البغوي: قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة فقال: بسم الله جرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله رست.

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا يعني فركبوا مسمين وهي تجري بهم وهم فيها ﴿فِى مَوْجٍ﴾ جمع موجة كتمر وتمرة وهي ما ارتفع من الماء عند اضطرابه إذا اشتدت الريح ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ يعني كل موجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان وقال عبيد بن عميريام وكان كافراً ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه مفعل للمكان من عزله عنه إذا بعده ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ عاصم بفتح الياء اقتصاراً عليه بالألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك يا بنيا والباقون بكسرها اقتصاراً عليه من ياء الإضافة ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، قرأ[1] ابن عامر وحمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بإظهار الباء والآخرون يدغمونها في الميم وفي التيسير أظهر ورش وابن عامر وحمزة واختلف عن قالون وعن اليزيدي وعن خلاد، والتقدير يا بني أسلم واركب معنا، فإن الركوب يدل على الإسلام لتوقفه عليه ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الدين والانعزال فتهلك ﴿قَالَ﴾ له ابنه كنعان لا أسلم ولا أركب معك ولكن ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يمنعني من الغرق ﴿قَالَ﴾ له نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه المأمور به ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ قيل: مَنْ في محل الرفع يعني لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم، أو الإمكان مَن رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصم المؤمنين وهو السفينة، وقيل: من في محل النصب معناه لا معصوم إلا من رحمه الله كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] وقيل: الاستثناء منقطع يعني ولكن من رحمه الله يعصمه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا﴾ أي بين نوح وابنه أو بينه وبين الجبل ﴿ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ أي فصارا وكان في علم الله ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ يروى أن الماء علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً وقيل: خمسة عشر ذراعاً، قال البغوي: ويروى أنه لما كثر الماء في السكك وخشيت أم صبي عليه كانت تحبه حبًّا شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثُلُثَيه فلمّا بلغها ذهبت حتى استوت على رأس الجبل، فلمَّا بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي، قلت: لكن هذه القصة تنافي ما روي أن الله سبحانه أعقم لرحام نساء قوم نوح قبل غرقهم سنين حتى لم يكن فيهم صبي حين أغرقوا.

﴿وَقِيلَ﴾ يعني قال الله تعالى بعدما تناهى أمر الطوفان ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ اشربي ﴿مَآءَكِ﴾

---

(١) والصحيح من طرق النفر قرأ ورش وابن عامر وخلف عن حمزة في اختياره وأبو جعفر بإظهار الباء واختلف ابن كثير وعاصم وقالون وخلاد والوجهان صحيحان عن كل منهم والباقون أي أبو عمر والكسائي ويعقوب بالإدغام فعداد يعقوب في المظهرين وعداد أبو بكر وخلاد وبوجه واحد منهم وإخراج ابن كثير وقالون منهم تسامح ـ ومن طرق التيسير والشاطبية أظهر قالون والبزي وخلاد بخلاف عنهم وورش وابن عامر وخلف وأدغم الباقون. روى ابن مجاهد عن قنبل ويحيى عن أبي بكر وعبيد عن حفص الإدغام ـ وأبو جعفر وخلف مع ورش ومن معه ويعقوب مع أبو عمرو ـ والله أعلم ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

أي الماء الذي نبع منك فشربته دون ما نزل من السماء فصار أنهاراً وبحاراً ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أمسكي عن المطر يعني لا تمطري فأمسكت ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ يعني غاضه الله أي أنقصه الله وهو لازم ومتعد ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي أنجز ما وعد الله من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ أي استقرت السفينة ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل وقيل بالشام ﴿وَقِيلَ﴾ يعني قال الله تعالى ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بَعِدَ القوم الظالمون بعداً من رحمة الله وهلكوا هلاكاً ثم حذف الفعل وجعل ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصفاً للمصدر، قال البغوي: روي أن نوحاً عليه السلام بعث الغراب[1] ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع، فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجلها بالطين فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقيل إنه دعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت، وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم يألف بالبيوت، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: وذكر لنا أنها استقلت بهم في عشر خلون من رجب وكانت في الماء خمسين مائة يوماً ثم استقرت بهم على الجودي وأهبطوا إلى الأرض في عشر ليل خلون من الحرم، وأخرج ابن عساكر عن خالد الزيات بزيادة قال: في آخره فأرست السفينة يوم عاشوراء فقال نوح لمن معه من الجن والإنس: صوموا هذا اليوم، وكذا قال البغوي: إنه روي أن نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت فطافت به سبعاً وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا يوم عاشوراء فصام نوح وأمر من معه بالصوم شكراً لله ، وقيل: ما نجى من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق كان في الماء إلى حجرته. وكان سبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشب الساج للسفينة فلم يمكنه نقلها فحملها عوج إليه من الشام، فنجاه الله من الغرق لذلك قلتُ وقصة عوج ذلك يخالف ظاهر النصوص حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقال: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] وقال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣] فتخصيص عوج من العمومات القاطعة لا يجوز إلا بقاطع ولم يوجد والقصة يأبى عنه العقل والنقل.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ﴾ الفاء لتفسير النداء ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي﴾ يعني كنعان ﴿مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ لا خلف فيه وعدت أن تنجي أهلي فما له لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل الغرق ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم ولا يجوز خلف في حكمك وقد

---

(١) وعن عمر بن الخطاب أنه قال لما استقرت السفينة على الجودى لبث ما شاء الله ثم أذن له فهبط على الجبل فدعا الغراب فقال ايتني بخبر الأرض فانحدر الغراب على الأرض وفيه الغرقى من قوم نوح فأبطأ عليه فلعنه ـ فدعا الحمامة فوقف على كف نوح فقال اهبطي فتأتي الخبر فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاءت بنقص ريشة في منقارها فقالت اهبط فقد أثبتت الماء الأرض قال نوح بارك الله فيك وفي بيت يؤويك وحببك إلى الناس لولا أن يغلبك الناس على نفسك لدعوت الله أن يجعل رأسك من ذهب ـ ١٢ ـ إزالة الخفا ـ منه رحمه الله تعالى.

حكمت بهلاك قوم ونجاة أهلي، أو المعنى إنك أكثر حكمةً من ذوي الحكم والحكمة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ لقطع الولاية بين المؤمنين والكفار ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ تعليل لنفي كونه من أهله، قرأ الكسائي ويعقوب عَمِلَ بكسر الميم على الفعل الماضي وغَيرَ بالنصب على المفعولية أي عمل الشرك والتكذيب، والباقون بفتح الميم والتنوين على أنه مصدر مرفوع وهو خبر أن على حذف المضاف ونقل إعرابه إلى المضاف إليه، تقديره أنه ذو عمل غير صالح وفيه مبالغة حيث جعل ذاته ذات العمل، أو المعنى أن سؤالك إياي بإنجائه عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾ يا نوح، قرأ نافع وابن عامر بفتح اللام وكسر النون المشددة على أن أصله تَسأَلَنَّنِي بالنون المشددة ونون الوقاية فحذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكسرت المشددة للياء ثم حذفت الياء اكتفاء بالكسرة، وقرأ ابن كثير كذلك إلا أنه يفتح النون المشددة وليس في هذه القراءة نون الوقاية ولا ياء المتكلم للضمير المنصوب، وقرأ الباقون بإسكان اللام وكسر نون الوقاية وتخفيفها وحذف الياء وأثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش ويعقوب[١] الياء في الوصل فقط ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ أصواب هو أم خطأ سمي نداءه سؤالاً لتضمنه ذكر الموعد بنجاة أهله المشعر باستنجازه في شأن ابنه او استفساراً لمانع للإنجاز في حقه وسماه جهلاً وزَجَرَ عنه بقوله ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[٢] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لأن استثناء من سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْل من أهله قد دل على الحال وأغناه عن السؤال، قال البغوي: اختلفوا في هذا الابن؟ قال مجاهد والحسن: كان ولد خبث من غير نوح ولم يعلم بذلك نوح ولذلك قال: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ وقرأ الحسن ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام كان ابن امرأته ولذلك قال: من أهلي ولم يقل مني، وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون: إنه كان ابن نوح من صلبه، قال ابن عباس: ما بغت امرأة بني قط وقوله ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أي من أهل دينك لأنه كان كافراً، وقوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] أي في الدين والعمل لا في الفراش، وقوله ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ يعني أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر، وقال الشيخ أبو منصور: كان ابن نوح منافقاً لا يعلم نوح بكفره وإلا لا يحتمل أن يقول نوح ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ ويسأل نجاته وقد سبق من الله النهي عن سؤال مثله، بقوله ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] فأعلمه الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، وفي قول أبي منصور هذا نظر فإن قوله تعالى قال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ۝٤٣﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣] صريح في كونه مجاهراً بالكفر والله أعلم ﴿وقال نوح رب إني﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ فيما يستقبل ﴿مَا لَيۡسَ لِي

(١) الصحيح ويعقوب في الحالين ـ أبو محمد ـ.
(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ أي ما لا علم لي بصحته ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ سؤالي بنجاة الكافر بعد النهي عنه بخطاء في الاجتهاد ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ بالتوبة والعصمة والتفضل عليّ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أعمالاً.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ أي انزل من السفينة ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي مسلَّماً من المكاره من جهتنا، أو مسلَّماً عليك ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ البركة الخير النامي، والمراد بالبركات مراتب قرب الله تعالى ورحمته وفضله وكثرة ذريته وبقاؤهم إلى يوم القيامة وكون الأنبياء منهم والصالحين ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ من للبيان والمراد بالأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات أو لتشعّب الأمم منهم، أو لابتداء الغاية أي على أمم ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ قال محمد بن كعب: دخل فيه كل مؤمن إلى قيام الساعة فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧] يدل على حصر البقاء في ذرية نوح دون من معه في الفلك؟ قلنا كان معه في الفلك بنوه[1] الثلاثة فالمعنى على أمم تنشأ مِمَّن مَعَكَ من أبنائك ﴿وَأُمَمٌ﴾ مبتدأ حذف خبره يعني ومِمَّنْ مَعَكَ أمم لا بركة عليهم بل ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بما كتبنا لهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة لأجل كفرهم وقيل: المراد بهم قوم هود وصالح ولوط وشعيب والعذاب عذاب الدنيا.

﴿تِلْكَ﴾ يعني قصة نوح مرفوع على الابتداء خبره ﴿ذَٰلِكَ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي ما غاب عنك يعني بعضها ﴿نُوحِيهَآ﴾ الضمير للأنباء خبر ثان أو حال من الأنباء أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به أو حال من الضمير المنصوب فيه ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ هذا خبر آخر أي مجهولة عندك وعند قومك من قبل إيحائنا إليك أو حال من الضمير المنصوب في نوحيها، أو من الضمير المجرور في إليك أي جاهلاً أنت وقومك بها، تنبيه على كونه معجزة فإنه لم يتعلمه إلا من الله تعالى، فإنه لم يخالط غير قومه وقومه مع كثرتهم لما لم يسمعوه فكيف بواحد منهم فمطابقة هذا النبأ بالكتب المنزلة المتقدمة دليل واضح على نبوته ﷺ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ بعد ظهور أمرك على تبليغ الرسالة وما يلقاك أذًى من الكفار كما صبر نوح ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي الجملة تعليل للصبر وعدم الجزع والاستعجال.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ

(١) في الأصل: بنيه.

﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ
ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّعَادٖ
قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّٗا
قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٖ
﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ
ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ
ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ
فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا
تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ
﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ
ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ
ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ
أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ عطف على قوله إلى نوح يعني وأرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء له في العبادة وجعلها شفعاء ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على لا تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًاۖ﴾ يمنعكم ثقل أدائه عن قبول الرسالة، أو يبعثني طمعه على الكذب ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها، يعني ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ أي خلقني قرأ نافع والبزيّ بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا أن من هذا شأنه يجب تصديقه ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ يعني اطلبوا منه تعالى مغفرة ما سلف منكم من الشرك والمعاصي، وذلك بالإسلام «فإن الإسلام يهدم ما كان قبله»[1] رواه مسلم عن عمرو بن

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

العاص في حديث مرفوع ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ أي ارجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى ربكم بطاعته وترك عبادة غيره ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدر أي السيلان ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي يضاعف قوتكم وذلك أن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم كما ذكرنا القصة في سورة الأعراف، فقال لهم هود: إن تستغفروا ربكم وتوبوا إليه يرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالاً، ويعيد أرحام النساء فيلدن أولاداً فتزدادون قوة بالأموال والأولاد، وقيل تزدادون قوة إلى قوة بدنكم ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ عطف على استغفروا، يعني لا تعرضوا عما دعوتكم إليه مصرين على جرائمكم.

﴿قَالُواْ﴾ يعني قومه ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجة تدل على صحة دعواك، وذلك لفرط عنادهم بعد ما جاءهم به من المعجزات ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي بقولك فهو صلة، أو صادرين عن قولك فهو حال من الضمير في تاركي ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين إقناط من الإجابة والتصديق ﴿إِن نَّقُولُ﴾ أي ما نقول قولاً ﴿إِلَّا﴾ قولنا هذا ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ من عراه يعروه إذا أصابه يعني أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي بجنون وخبل حتى تتكلم بالخرافات، وذلك إنك تسبّ آلهتنا وتمنع عن عبادتهم فانتقم بعضهم منك بالتخبيل، وجاز أن يكون معناه ما نقول في حقك قولاً إلا قولنا اعتراك يعني سيعتريك بعض آلهتنا لأجل سبك إياهم بسوء أي بإضرار وإهلاك، عبر عن المستقبل بالماضي مبالغة في التحقيق والتهديد يعني أنه واقع لا محالة كأنه وقع، وهذا التأويل يناسب قول هود في الجواب حيث ﴿قَالَ إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ على ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أنتم يا قوم ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يعني من الأوثان لا أعبدهم ولا أخاف منهم أصلاً ﴿فَكِيدُونِى﴾ فاحتالوا في إضراري وإهلاكي أنتم وشركاؤكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين يعين بعضكم بعضاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي تمهلوني، فيه استهانة لهم وثقة بالله تعالى وإظهار لعجز آلهتهم، فإنها حجارة لا تضر ولا تنفع وفيه معجزة فإنهم بعد هذه المقالة عجزوا عن آخرهم وهم الأقوياء الأشداء الجبابرة العطّاش إلى إراقة دمه من أن يضروه ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أي اعتمدت عليه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ﴾ يعني الله سبحانه ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الأخذ بالناصية تمثيل لقهر القاهر على المقهور وذل المقهور بين يديه يتصرف فيه كيف يشاء، قال البغوي: خص الناصية بالذكر لأن العرف يستعمل ذلك إذا وصف إنساناً بالذلة فيقول ناصية فلان بيد فلان، قال الضحاك: يعني يميتها ويحييها، وقال الفراء: مالكها والقادر عليها، وقال القتيبي: يقهرها لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهَرته ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني أنه على الحق والعدل فيجازي المحسن على إحسانه والمسيء على عصيانه ولا يضيع عنده معتصم به ولا يفوته ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ حذفت إحدى التاءين يعني أن تعرضوا عمّا دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني إن أعرضتم يهلككم الله، ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه، حيث لم يبق لكم عذر بعدما ﴿أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ﴾ ولا بأس به عليّ فإني قد أدّيت ما عليّ من البلاغ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ تعالى

بأعراضكم ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر إنما تضرون أنفسكم، وقيل معناه لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب لا يخفى عليه ما تصنعون ولا يغفل عن مجازاتكم أو حافظ مستول على كل شيء فلا يمكن أن يضره شيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب أو عذابنا ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ بنعمة ﴿مِّنَّا﴾ أي بفضل منا لا بعملهم أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُم﴾ نجينا للتأكيد والتعظيم والتهويل ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو الريح التي أهلك بها عاداً، وقد مرت قصتها في سورة الأعراف ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة، وقيل إشارة إلى آثار عاد يعني فسيحوا في الأرض وانظروا إليها ثم وصف إليها أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هوداً وغيره من المرسلين فإن كلهم يدعون إلى التوحيد ويصدق بعضهم بعضاً فعصيان واحد منهم عصيان بجميعهم ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ متكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ لا يقبل الحق يقال عند الرجل يعند عنوداً إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه، وقال أبو عبيد: العنيد والعنود والمعاند المعارض لك بالخلاف، يعني اتبعوا كبراءهم الطاغين يعني عصوا من دعاهم إلى الإيمان وتركوا ما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وأتوا بما يهلكهم ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي دعاء باللعنة من الناس والملائكة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيضاً يتبعون باللعن من الله تعالى أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين واللعنة هي الإبعاد والطرد عن الرحمة ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي جحدوه أو كفروا نعمة فحذف الجار ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ قيل: بعداً من رحمة الله وقيل: هلاكاً، قال البغوي: للبعد معنيان أحدهما ضد القرب والآخر بمعنى الهلاك، وكذا في القاموس والجملة دعاء عليهم باللعن والهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكي عنهم، وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعاً لأمرهم وحثًّا على الاعتبار بحالهم ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان وفائدته الإيماء إلى أن استحقاقهم البعد بما جرى بينهم وبين هود عليه السلام.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم﴾ أي بدأ خلقكم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني خلقكم من آدم وآدم من التراب ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ يعني عمَّركم واستبقاكم من العمر وقال الضحاك: أطال عمركم حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك قوم عاد ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض، وقيل معناه قدركم على عمارتها وجعلكم عمّارها وسكانها وقال مجاهد: استعمركم من العمري أي جعلها لكم ما عشتم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ من عباده قرباً لا كيف له حتى أفاض عليهم الوجود، أو قريب بالذات بلا كيف أو بالرحمة لأوليائه ﴿مُّجِيبٌ﴾ لدعائهم ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي كنا نرجو أن تكون سيداً فينا، وقيل: أي كنا نرجو أن توافقنا في الدين وتعود إلى ديننا ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ القول يعني دعاءك إيّانا إلى ترك عبادة الأوثان، فلمّا سمعنا منك هذا القول انقطع رجاؤنا عنك ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ

ءَابَآؤُنَا﴾ على حكاية الحال الماضية ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبرّي عن الأوثان ﴿مُرِيبٍ﴾ أي ذي ريبة على الإسناد المجازي من أراب في الأمور، أو موقع في الريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنية ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي بيان وبصيرة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ أدخل حرف الشك باعتبار المخاطبين، وجاز أن تكون إنْ مخففة من المثقلة اسمه ضمير الشأن أو ضمير المتكلم محذوفاً يعني إنيّ كُنْتُ أو إنَّه أي الشأن كُنْتُ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي نبوة وحكمة ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ يمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعريض لعذابه، وقال الحسين بن الفضل: لم يكن صالح في خسارة حتى قال: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ وإنما المعنى ما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إيَّاكم إلى الخسارة فإن التفسيق والتفجير في اللغة النسبة إلى الفسق والفجور فكذلك التخسير النسبة إلى الخسران، وقال ابن عباس: معناه ما تزيدونني غير بصارة في خسارتكم.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ انتصبت آية على الحال وعاملها معنى الإشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها، وذلك أن قومه طلبوا منه أن يخرج من صخرة معينة ناقة عشراء آية لنبوته، فدعا صالح فخرجت منها ناقة وولدت في الحال مثلها وقد مرت القصة في سورة الأعراف ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ترع نباتها وتشرب ماءها ليس عليكم مؤنتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ﴾ إن مَسَّسْتموها بسوء ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ في ثلاثة أيام ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني عقر بأمرهم قذار بن سالف ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ عيشوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أي في الدنيا أو في بلدكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة تصبحون اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي الثالث مسودة ثم تهلكون ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه، أجرى الظرف مجرى المفعول به مجازاً، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول، أو غير مكذوب على المجاز على أن الواعد كأنّه قال له: أفي بك فإن وفى به صدقه وإلا كذبه، فكان كما وعد، وأتاهم العذاب في اليوم الرابع ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يعني ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة بغضب الله، قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي ههنا وفي المعارج ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ [الأعراف: ١١] بفتح يوم على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه والباقون بالكسر جرًّا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء والقاهر عليه ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي كفروا ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ وذلك أن جبرائيل صاح صيحة واحدة، وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ صرعى هلكى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ أي لم يقيموا ﴿فِيهَآ﴾ أي في ديارهم ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟﴾ قرأ حفص ويعقوب وحمزة هنا والفرقان والنجم بفتح الدال من غير تنوين ووقفوا بغير ألف والباقون بالتنوين ووقفوا بالألف

عوضاً عنه ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ قرأ الكسائي ثَمُودٍ بكسر الدال مع التنوين والباقون بفتح الدال من غير تنوين.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ من الملائكة قال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، وقال محمد بن كعب: كان جبرائيل ومعه سبعة، وقال الضحاك: كانوا تسعة وقال مقاتل: كانوا اثني عشر ملَكاً، وقال السدي: كانوا أحد عشر ملَكاً على صورة الغلمان الوضاء وجوههم ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي بالبشارة بإسحاق ويعقوب وقيل: بإهلاك قوم لوط ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي أمركم[1] أو جوابي سلام، أو عليكم سلام رفعه إجابة بأحسن من تحيتهم، فإنها جملة اسمية تدل على الدوام والاستمرار بخلاف الفعلية، قرأ حمزة والكسائي ههنا وفي الذاريات سِلْمُ بكسر السين بلا ألف وهما لغتان نحو حِلٌّ وحلال وحِرْمُ وحرام، وقيل المراد به الصلح أي نحن صلح لكم غير حرب ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي فما أبطأ إبراهيم ﴿أَن جَآءَ﴾ أي في أن، أو ما تأخر عن المجيء والجار مقدر أو محذوف، وجاز أن يكون إن جاء في محل الرفع على الفاعلية يعني فما أبطأ مجيء إبراهيم ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي مشوي على الحجارة، في القاموس الشاة يحنذها حَنْذاً أو تحناذاً شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ، وقيل: الحنيذ ما تقطر ودكاً من حنذتُ الفرس إذ عرقته بالجلال، وفي القاموس الفرس إذا ركضه وأعداه شوطاً أو شوطين ثم ظاهر عليه الجلال في الشمس ليعرق فهو حنيذ، فعلى هذا معناه السمين مجازاً فيوافق قوله ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم البقر ﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ يعني لا يمدون إليه أيديهم ولا يأكلون ﴿نَكِرَهُمْ﴾ يعني أنكرهم قال البيضاوي: نكر وأنكر واستنكر بمعنى، وفي القاموس التَّنَكُّر التَّغَيُّرُ عن حال تسرك إلى حال تكرهها ﴿وَأَوْجَسَ﴾ يعني أحس وأضمر كذا في القاموس، وقال مقاتل: وقع في قلبه وقال البغوي: أصل الوجوس الدخول كأنّ الخوف دخل قلبه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الأضياف حين لم يأكلوا ﴿خِيفَةً﴾ خوفاً، قال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنما جاء بشر، قيل وذلك لأنه كان عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، فخاف أن يريدوا به مكروهاً وظنهم لصوصاً، والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة وخاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه.

﴿قَالُواْ﴾ يا إبراهيم ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ﴾ ملائكة الله ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هاران بن ناخور وهي ابنة عم إبراهيم عليه السلام ﴿قَآئِمَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل: كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم جالس معهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال مجاهد وعكرمة: أي حاضت في الوقت، تقول العرب ضحكت الأرنب أي حاضت وكذا

(١) في الأصل: أمرك.

في القاموس، ويقال ضحكت السمرة إذا سال صمغها، والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف. واختلفوا في سبب ضحكها؟ قيل: ضحكت سروراً بزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا: لاَ تَخَفْ، وقال السدي لمّا قرب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا فخاف إبراهيم وظنهم لصوصاً، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١] قالوا: إنا لا نأكل الطعام إلا بثمن، قال إبراهيم: فإن له ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبرائيل إلى ميكائيل عليهما السلام وقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجباً لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا، وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقيل ضحكت لإصابة رأيها فإنها كانت تقول لإبراهيم اضمم إليك لوطاً فإني أعلم أن العذاب ينزل بهذا القوم وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه، وقيل: ضحكت سروراً بالبشارة بالولد وولد الولد أو بهلاك أهل الفساد وقال ابن عباس: ووهب ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، وعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره وامرأته قائمة ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فضحكت، قرأ ابن عامر وحمزة وحفص يَعْقُوبَ[1] بالنصب بفعل مضمر يفسره ما دل عليه الكلام، وتقديره ووهبنا لها ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ وقيل: إنه معطوف على موضع بإسحاق أو على لفظ إسحاق وفتحته للجر فإنه غير منصرف ورد للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف، والباقون بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف أي ويَعْقُوبُ مولود من بعد إسحاق، وقيل: تقديره ومن بعد إسحاق يولد يعقوب، وقيل الوراء ولد الولد ولعله سمي به لأنه بعد الولد، وعلى هذا إضافته إلى إسحاق ليس من حيث إن يعقوب وراءه بل وراء إبراهيم من جهته، قال البيضاوي: فيه نظر والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيى، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا به، وتوجيه البشارة إليها وتخصيصها بها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها، ولأن النساء تكون أعظم سروراً بالولد من الرجال، ولأنها كانت عقيمةً حريصةً على الولد فبشرت بالولد وولد الولد وعلى[2] أنها يعيش ولدها حتى يولد له وتعيش هي حتى ترى ولد ولدها.

فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت تعجباً و﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ يا عجباً أصله كلمة ندبة يقال في الشر، فأطلق في أمر فظيع وعند رؤية ما يتعجب منه والألف مبدلة من ياء الإضافة يدل عليه قراءة الحسن يا ويلتي بالياء على الأصل، وقيل: الألف ألف الندبة أصله يا ويلتاه ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ كانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق وتسع وتسعين سنة في قول مجاهد ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ زوجي وأصله القائم بالأمر ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة وعشرين

---

(١) في الأصل: ويعقوب.
(٢) في الأصل: على بغير واو.

سنة في قول ابن إسحاق ومائة سنة في قول مجاهد، وكان بين البشارة والولادة سنة، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى الإشارة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني الولد من الهرمين ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني خلاف العادة ﴿قَالُوٓا﴾ يعني الملائكة منكرين عليها في الاستعجاب ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي من قضائه وقدرته، فإن الله إذا أراد شيئاً كان، فإن قيل العجب حالة يعتري للإنسان عند رؤية أمر بديع مخالف للعادة والأمر كذلك، وكونه مقدوراً الله تعالى لا ينافي الاستعجاب، إذ كل شيء مقدور لله تعالى وإن كان بديعاً مخالفاً للعادة فما وجه إنكارهم عليها في الاستعجاب؟ قلنا: خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم لمزيد النعم والكرامات ليس ببديع، ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلاً عن من نشأتْ وشابَّتْ في ملاحظة الآيات ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: هذا على معنى الدعاء من الملائكة، وقيل على معنى الخبر، والرحمة النعمة أو المحبة من الله ، والبركة النماء والزيادة في كل خير، وقيل الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن أنبياء بني إسرائيل منهم وكلهم من أولاد سارة، وجملة رحمة الله وبركاته مستأنفة في مقام التعليل للإنكار على التعجب، كأنه قيل إياك والتعجب فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله تعالى عليكم، هذا على تقدير كونه خبراً ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ منصوب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقوله اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، وفي الآية رد على الروافض حيث لا يزعمون أزواج النبي ﷺ من أهل البيت مع أن أهل البيت من حيث اللغة هي الأزواج وغيرهن أتباع لهن ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد ﴿مَّجِيدٌ﴾ في الصحاح المجد السعة في الكرم والجلالة، والكرم يوصف به الله تعالى لإحسانه وإنعامه المتظاهرة، ويوصف به الإنسان للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال البغوي: وأصل المجد الرفعة، وقال البيضاوي: كثير الخير والإحسان وفي القاموس المجيد الرفيع العالي والكريم والشريف الفعّال.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي الخوف والفزع ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب بدل الروع ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ جواب لِلمّا جيء به مضارعاً على حكاية الحال، أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترى على خطابنا أو شرع في جدالنا، أو متعلق بجواب محذوف أقيم مقامه مثل أخذ أو ظل أو أقبل يجادلنا، قيل معناه يكلمنا لأن إبراهيم لا يجادل ربه وإنما يسأله ويطلب، وقال عامة أهل التفسير معناه يجادل رسلنا ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ وكان مجادلته أنه قال للملائكة أرأيتم لوكان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم قالوا: لا قال: أو أربعون قالوا: لا قال: أو ثلاثون قالوا: لا حتى بلغ خمسة قالوا: لا قال: أرأيتم لوكان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا: لا قال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس، وفي القاموس

الموقن أو الدّعاء أو الرحيم الرقيق أو الفقيه أو المؤمن بالحبشية ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله والمقصود من بيان صفاته ذلك بيان الحامل على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترحمه وعدم إرادة الانتقام من المسيء فقالت الرسل عند ذلك المجادلة ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي حكمه بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ غير مصروف بجدال ولا بدعاء ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ يعني تلك الملائكة ﴿لُوطٗا﴾ على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي ساء مجيئهم لوطا، وحزن لوط بظنه إيّاهم أناساً، فخاف عليهم أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم، قرأ نافع وابن عامر والكسائي[1] ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ و ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ﴾ بإشمام السين[2] الضم هنا وفي العنكبوت والملك، والباقون بإخلاص كسرة السين ﴿وَضَاقَ﴾ لوط ﴿بِهِمۡ﴾ أي بسببهم ﴿ذَرۡعٗا﴾ تمييز من النسبة يعني ضاق ذرعه قال البغوي: قلبه، وقال البيضاوي: ضاق بمكانهم صدره، قلت والذرع في الأصل اليد إلى المرفق أو الساعد، ويطلق على القوة كاليد، والمعنى ههنا ضاقت أي ضعفت بهم طاقته ولم يجد من المكروه مخلصاً كذا في القاموس، قال البيضاوي: هو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ شديد، قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوا لوطاً نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها، وقيل: إنه يحتطب، وقد قال الله لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشى ساعة قال لهم ما بلغكم أمر هذه القرية قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله، وروي أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمر على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط: إن قومي شر خلق الله، ثم مر على قوم آخرين فغمزوا فقال: مثله، ثم مر بقوم آخرين ففعل مثله، فكان كلما قال لوط: هذا القول قال جبرائيل عليه السلام للملائكة:

---

(١) وأبو جعفر ورويس ـ أبو محمد ـ.

(٢) أي بإشمام كسرة السين الضم ـ أبو محمد ـ.

اشهدوا حتى أتى قومه، وروي أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط عليه السلام ولقوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يسرعون، وقال مجاهد: يُهَرْوِلُونَ وقال الحسن: مشيءٌ بين مشيئين، وقال شمر بن عطية: بين الهرولة والجفر[١]، وفي القاموس مشيء في اضطراب وسرعة، وبناء الفعل للمفعول للدلالة على كمال الإسراع والاضطراب، فالمعنى يسرعون إليه كمال إسراع كأنهم يدفعون إلى الإسراع وذلك لكمال طلبهم للفاحشة ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ ذلك الوقت ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كانوا يأتون الرجال في أدبارهم ويعملون الفواحش فتمرّنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يهرعون لها مجاهرين ﴿قَالَ﴾ لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾يعني فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم، لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارٍ، وكان في ذلك الوقت تزويج المسلمة من الكافر جائزاً، كما زوج النبي ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي وكانا كافرين، وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبير قوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ أراد به نساءهم[٢] أضاف إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته، وفي قراءة أبيّ بن كعب «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وهذا القول يرجح من حيث المعنى بأن ابنتيه لا تصلحان لنكاح جماعة من الرجال، وقيل في جواب هذا الترجيح إنه كان لقوم لوط سيدان مطاعان، فأراد لوط أن يزوجهما ابنتيه، وقيل: إنما قال لوط: هؤلاء بناتي على سبيل الدفع مبالغة في تناهي خبث ما يقصدونه، يعني أن ذلك أهون عليه منه لا على التحقيق ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يعني أنظف لكم فعلاً أو أقل فاحشة كقولك الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه وقوله هؤلاء مبتدأ أو بناتي عطف بيان وهن فصل وأطهر خبر المبتدأ أو بناتي خبر هؤلاء وهنَّ أَطْهَرُ مبتدأ أو خبر ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك الفواحش ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ قرأ أبو عمرو بإثبات الياء وصلاً فقط أي لا تفضحوني من الخزي أو لا تخجلوني من الخزاية بمعنى الحياء ﴿فِى ضَيْفِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالإسكان يعني لا تخزوني في شأن أضيافي فإن أخزاء ضيف الرجل إخزاؤه ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويجتنب عن القبيح وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا لوط ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ يعني لسن أزواجاً لنا فنستحقهن بالنكاح، وقيل معناه ما لنا فيهن من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذُكران ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ لوط حينئذ ﴿لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ في البدن على دفعكم لوقيت بنفسي

---

(١) الجفر سرعة السير.

(٢) في الأصل: أراد نساءهم.

﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ أي انضم إلى عشيرة مانعة قوية امتنع به عنكم لامتنعت به عنكم حذف جواب لو، شبه العشيرة بركن الجبل في شدته أي جانبه القوي قال في القاموس: الرُّكن بالضم الجانب الأقوىٰ وما تقوى به من ملك أو جند وغيره والعز والمنعة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد» وفي لفظ «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد»(١).

أخرج إسحاق وابن عساكر من طريق جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس وكذا ذكر البغوي عنه أنه قال: أغلق لوط بابه وأضيافه يعني الملائكة في الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسوّر الجدار فلما رأت الملائكة ما يلقي لوط منهم ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ إن ركنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب ودخلوا فاستأذن جبرائيل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه، وعليه وشاح(٢) من در منظوم وهو براق الثنايا أجلىٰ الجبين ورأسه حُبُك حُبُك(٣) مثل المرجان كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم، فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء(٤)، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون يا لوط كما أنت حتى تصبح ونصبح وسترى ما تلقى منا غداً، يوعّدونه فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم، قالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن فقالوا أليس الصبح بقريب ثم قالوا: ﴿فَأَسۡرِ﴾ يا لوط ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ قرأ الحرميان(٥) فاَسر وأن اَسر بوصل الألف حيث وقع من المجرد والباء حينئذ للتعدية، والباقون بقطعها من الإفعال والباء زائدة ومعناه السَّير في الليل ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل، وقال الضحاك ببقيته، وقال قتادة بعد ما مضى أوله، وقيل إنه السحر الأول ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ أي لا ينصرف منكم أحد من السير فيتخلف عنك، في القاموس لفته يلفته لواه وصرفه عن رأيه ومنه الالتفات والتلفّت، قلت فالمجرد منه متعد والالتفات لازم بمعنى الانصراف، وقيل معنى لا يَلْتَفِتُ لا ينظر من ورائه، فالأمر بالإسراء متوجه إلى لوط والنهي عن الانصراف أو النظر إلى الوراء متوجه إلى من تبعه.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالرفع على أنه بدل من أَحَدُ، فهي مستثناة من

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٦، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٢، ١٥٣.

(٢) الوشاح شيء ينسج عريضاً من أديم وربما يرصع بالجواهر والخرز وتشده المرأة على عاتقها وكشحيها ـ ١٢ ـ منه رحمه الله.

(٣) ورأسه حبك أي شعر رأسه منكسر من الجعودة مثل الماء الساكن والرمل إذا هبّت عليهما الريح فتجعدان ويطيران طرائق واصل حبك جمع حباك ومعناه الطريق ومنه قوله تعالى والسماء ذات الحبك أي طرق النجوم ـ ١٢ ـ منه رحمه الله.

(٤) النجاشدة النظر يقال للرجل الشديد الإصابة بالعين إنه لنجوونجي ـ ١٢ ـ نهاية منه رحمه الله.

(٥) الحرميون ـ أبو محمد ـ.

النهي عن الانصراف والتخلف أو من النظر إلى الوراء، قال البغوي: معنى الآية على هذه القراءة لا يلتفت أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت فتهلكَ، وكان لوط قد أخرجها معه ونهى من تبعه ممن أسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته، فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر وقتلها، وقرأ أكثر القراء بالنصب على الاستثناء فاختلفوا فقال البغوي: وغيره استثناء من الإسراء أي فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها وخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم وتصدقه[1] قراءة ابن مسعود ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ومقتضى هذا الكلام أن في إخراجها مع أهله روايتان، إحداهما أنه أخرجها معهم وأمروا أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي فالتفتت وقالت يا قوماه، وثانيهما أنه أمر بإسراء غيرها من أهله، فإن هواها إليهم فلم يسر بها، واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين، كذا قال صاحب المدارك وهذا القول غير سديد فإن الروايتين متناقضتان لا يمكن جمعهما فإن خروجها وعدم خروجها نقيضان، فإحداهما باطل بيقين والقراءتان قطعيتان ولا يصح حمل القواطع على المعاني المتناقضة، ولهذا قال البيضاوي: الأولى جعل الاستثناء في القراءتين عن قوله ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ومثله قوله تعالى ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٦٦] وإلا قليلا على القراءتين، ويرد عليه أن مختار النحويين في كلام غير موجب البدل وإن كان الجائز النصب أيضاً، فحمل قراءة أكثر القراء على غير الأفصح غير ملائم، وأجاب عنه البيضاوي بأنه لا بعد أن يكون أكثر القراء على غير الأفصح لكونه فصيحاً أيضاً، ولا يلزم من ذلك يعني من الاستثناء من النهي عن الالتفات أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً، ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ قلتُ وعلى ما ذكر البيضاوي محمل قراءة ابن مسعود أنه من كلام ابن مسعود قاله تفسيراً للقرآن على رأيه، يعني جعل الاستثناء من الأهل كما هو رأي أكثر المفسرين والله أعلم، قلتُ وجاز أن يكون الاستثناء على قراءة النصب منقطعاً، فإن امرأة لوط لم تكن من أهله لأنها كانت كافرة على غير عمل صالح، وقد قال الله تعالى لنوح في ابنه الكافر ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] فلم تكن من أهله في المخاطبين بقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ وأما على قراءة الرفع فاعتبرت من أهله من زمرة المخاطبين نظراً على وصلة النكاح، ولا منافاة بين الاعتبارين، قلت: ويمكن أن يقال قراءة النصب على الاستثناء من الأهل وقراءة الرفع على الاستثناء من أحد ولا منافاة بينهما، وليس بناء القراءتين على روايتي خروج امرأة لوط وعدم خروجها بل يصح معنى القراءتين على كل من الروايتين فإنه على تقدير الاستثناء من الأهل معنى الآية أسر بأهلك إلا بامرأتك ومقتضاه كون لوط مأموراً بحملهم جميعاً على السير غير امرأته وذالاً يستلزم خروجهم ولا عدم خروجهم، فكيف يقتضي خروجها وهي لم تكن مؤتمرة بلوط، ولم يكن لوط مأموراً بإخراجها، ولا يقتضي أيضاً عدم خروجها وإن كان لوط لم

(١) في الأصل: وتصديقه.

يأمرها بالخروج، وعلى تقدير الاستثناء من الالتفات النهي من الالتفات متوجه إلى لوط ومن معه غير امرأته وذا أيضاً لا يستدعي خروجها ولا عدم خروجها، فإن المستثنى في حكم المسكوت عنه فلعلها[١] خرجت والتفتت كما روي ولعلها لم تخرج أصلاً، وإن كان لوط أمرها بالخروج فإنها لم تكن مؤتمرة له، ولعل البيضاوي نظر إلى ما قلت حتى قال: والأولى جعل الاستثناء في القراءتين عن قوله لا يلتفت ولم يقل فالواجب ذلك والله أعلم ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ كأنه علة للأمر بالإسراء أي موعد هلاكهم وقت الصبح فقال لوط: أريد أسرع من ذلك فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا أو أمرنا به ويؤيده جعل التعذيب مسبباً عنه بقوله ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ كان حقه جعلوا ﴿عَٰلِيَهَا﴾ أي الملائكة المأمورون به، فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر، قال البغوي: وذلك أن جبرائيل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدن وفيها أربعة مائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونياح الكلاب ولم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وكذا أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي على المدن يعني على شواذها ومسافريها وقيل بعد قلبها أمطر عليهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال ابن عباس: وسعيد بن جبير معربة، سند كل، وقال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات: ٣٣] وقال مجاهد أولها حجارة وآخرها طين، وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشدت، وقال الضحاك يعني الآجر، وقيل: إنه من أسجله إذا أرسله وإذا أعطيته، والمعنى من مثل شيء المرسل أو من مثل العطية في الإدراد، أو من السجلّ أي مما كتب الله أن يعذبهم به، وقيل: أصله من سجين أي من جهنم فأبدلت نونه لاماً، وقيل: السجيل اسم للسماء الدنيا، وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] ﴿مَّنضُودٍ﴾ قال ابن عباس متتابع مفعول من نضد وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ منصوب على الحال من حجارة ومعناه معلمة، قال ابن جريج: عليها سيماً لا يشاكل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجُزُع، وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم ومكتوب على كل حجر اسم من رمي به ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي الحجارة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من مشركي مكة، وقال البغوي: قال قتادة وعكرمة: يعني من ظالمي هذه الأمة، وكذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن يمطروا حجارة، قال قتادة وعكرمة: والله ما أجار الله منها ظالماً بعد، قال البغوي: وفي بعض الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة، وفي البيضاوي أنه ﷺ سأل جبرائيل

---

(١) في الأصل: فلعله.

فقال: «يعني ظالمي أمتك ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة» قال السيوطي ذكره الثعلبي بغير إسناد ولم أقف له على إسناد، وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع في الآية قال: كل ظالم فيما سمعنا قد جعل بحذائه حجر ينتظر متى يؤمر أن يقع به، وقيل: الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون عليها في أسفارهم إلى الشام فليعتبروا بها، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ
اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن
نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ
أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ
إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ
﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا
تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي
أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ
رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ
﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا
الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا
يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو أهل مدين وهو بلد بناه فسمي باسمه ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أمرهم أولاً بالتوحيد فإنه ملاك الأمر، ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة المعارضة ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع والبزي وأبو عمرو[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ قال ابن عباس: يعني مؤسرين في نعمة وسعة ليست بكم حاجة في أن تبخسوا حقوق الناس، أو المعنى أنتم في نعمة حقها إن تشكروا الله وتتفضَّلوا على الناس لا أن تنقصوا حقوقهم، وقال لمجاهد حذرهم زوال النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة إن لم يتوبوا ﴿وَإِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالإسكان ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ يحيط بكم ويهلككم جميعاً لا يشذ منه أحد منكم، وقيل: عذاب مهلك من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال وصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه ﴿وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ صرح الأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف بل يلزمهم السعي بالإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى دونها، ولذلك قال أبو حنيفة من اشترى مكيلاً مكائلةً أو موزوناً موازنةً لم يجز للمشتري منه أن يبيعه ولا أن يأكله حتى يعيد الكيل والوزن «لما نهى رسول الله ﷺ عن بيع الطعام حتى يجري فيه الصاعان صاع البائع وصاع المشتري»[2] رواه ابن ماجه وإسحاق بن أبي شيبة من حديث جابر، وأعل بعبد الرحمن بن أبي ليلى، ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه ومن حديث أنس وابن عباس من طريقين ضعيفين، قال ابن همام: هذا الحديث حجة لكثرة تعدد طرقه وقبول الأئمة إياه، فإنه قد قال بقولنا هذا مالك والشافعي وأحمد، وقال رسول الله ﷺ: «زن وأرجح فإنا معاشر الأنبياء هكذا نزن»[3] رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه وابن حبان من حديث سويد بن قيس ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره وكذا قوله ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد، وقيل: المراد بالبخس المكس كأخذ العشور من المعاملات ومن العثو السرقة وقطع الطريق والغارة ﴿مُفْسِدِينَ﴾ قيل فائدته إخراج ما يقصد به الصلاح كما فعله الخضر عليه السلام وقيل: معناه ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أمر دينكم ومصالح آخرتكم

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في التجارات باب ٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع باب ٧، والترمذي في البيوع باب ٦٦، والنسائي في البيوع باب ٥٤، وابن ماجه في التجارات باب ٣٤، والدارمي في البيوع باب ٤٧، وأحمد في المسند ٣٥٢/٤.

والظاهر أنه حال مؤكدة لمعنى عاملها لأن عثى بمعنى أفْسَدَ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد: بقية الله طاعة الله خير لكم، نظيره قوله تعالى ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٤٦] ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني خيريتها مشروطة بالإيمان، إذ لا أجر على الخيرات إلا للمؤمنين ويحبط الله أعمال الكافرين، وقيل: معناه إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم فافعلوا ما أمرتكم من إيفاء الكيل والوزن ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها إنما أنا ناصح مبلّغ وقد أعذرت حين أنذرت، أو لست بحافظ عليكم نعمة الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص على الإفراد والباقون صَلَوَاتُكَ على الجمع، قال ابن عباس: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة لذلك قالوا: هذا القول وقال الأعمش يعني أقراءتك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ﴾ عبادة ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأوثان والمعنى أصلاتك تأمرك تكليفك إيانا أن نترك فحذف المضاف، ووجه هذا التقدير أن الرجل لا يؤمر بفعل غيره أجابوا أمرهم بالتوحيد بالاستهزاء والتهكم بصلاته والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه، وكان كثير الصلاة كذا قال ابن عباس: ولذلك جمعوا لفظ الصلاة وخصوها بالذكر ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ عطف على الموصول يعني أو نترك أن نفعل ما نشاء وهو جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء ﴿إِنَّكَ﴾ يا شعيب ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس: أرادوا السفيه الغاوي كما أن العرب تصف الشيء بضده فتقول للديغ سليم وللفلاة مفازة، وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء وقصدوا وصفه بضده والفرق بين التأويلين أن اللفظ على التأويل الأول مجاز وعلى الثاني حقيقة كناية عن الذم، وقيل معناه ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ بزعمك، وقيل: هو على الحقيقة من غير كناية والمعنى إنك أنت الحليم الرشيد في زعمنا ما كنا نزعم بك أن تقول مثل ما قلت كما قال: قوم صالح ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بصيرة وبيان واضح ﴿مِّن رَّبِّى﴾ بالوحي والنبوة ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ أي من الله بلا كد مني في تحصيله حال من رزقاً قدم عليه لكونه نكرة ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً قيل كان شعيب عليه السلام كثير المال، وجواب الشرط محذوف تقديره فهل يجوز لي أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره ونهيه، وهو اعتذار عما أنكروا عليه من مخالفة دين القوم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يعني ما أريد أن أرتكب ما أنهاكم عنه فلو كان ثواباً ما تركته ولكني أحب لكم ما أحب لنفسي وأكره لكم ما كرهت لنفسي، يقال خالفت زيداً إلى كذا إذا قصدت شيئاً وهو تاركه، وخالفته عنه إذا تركت ما هو فاعله ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ بالنهي عن الإشراك والتطفيف والأمر بالتوحيد والإيفاء ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ يعني إصلاحكم وإخلاء العالم من الفساد ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما مصدرية واقعة موضع الظرف أي مدة استطاعتي

للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا آلو جهداً، أو موصولة بدل من الإصلاح أي المقدار الذي استطعته أو إصلاح ما استطعته فحذف المضاف ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر(١) بفتح الياء والباقون بإسكانها والتوفيق جعل الأسباب موافقاً للمطلوب الخير، يعني ما يتيسر لي إصابة الحق والصواب ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي بهدايته ومعونته ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ فإنه القادر المتمكن على كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محضر التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ، والتوكل من مقامات الصوفية العلية رحمهم الله ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من النوائب، وقيل: في المعاد وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل، والإنابة طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتي ويذر من الله والاستعانة في مجامع الأمور والإقبال عليه بشرا شره، وفيه قطع لأطماع الكفار وإظهار لعدم المبالاة بهم وتهديد لهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ أي يكسبنكم ﴿شِقَاقِيٓ﴾قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو(٢) بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني خلافي وعداوتي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من العذاب ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٍۚ﴾ من الرجفة والصيحة، وأن يصيبكم ثاني مفعولي يجرم فإنه يتعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ بالزمان فإنهم أقرب الهالكين منكم زماناً حتى تعلمون ما حاق بهم، أو المعنى ما ديار قوم لوط منكم ببعيد بالمكان فإنهم كانوا جيرانهم، أو المعنى ما قوم لوط منكم ببعيد فيما تستحقون به العذاب من الكفر والمعاصي، وإفراد البعيد لأن المراد وما إهلاكهم أو ما هم بشيء بعيد أو ما مكانهم ببعيد، وقيل القريب والبعيد والقليل والكثير يستوي فيها المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصّهيل والنهيق ونحوهما ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ لما صدر منكم في الماضي بالإيمان والندامة على المعاصي وطلب المغفرة ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي ارجعوا إليه وإلى امتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه في المستقبل ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ عظيم الرحمة للمؤمنين التائبين ﴿وَدُودٞ﴾ فعول من الوُد يجيء بمعنى الفاعل والمفعول يعني محب للمؤمنين ومحبوبهم وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ أي لا نفهم ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس وما ذكرتَ دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقلهم وعدم تفكرهم، وقيل قالوا ذلك استهانة لكلامه أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم، قلت: بل لما طبع الله على قلوبهم فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يطلعها على ما يشاء ويصرفها عما يشاء ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً أو مهيناً لا عز لك فينا، قال البغوي: وذلك أنه كان ضرير البصر فأرادوا ضعف البصر، وقيل: الضعيف بلغة حمير هو الأعمى والتقييد بالظرف يأبى عن هذا المعنى.

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ. (٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

فائدة: منع بعض المعتزلة كون الأعمى نبيًا قياساً على القضاء والشهادة، والفرق بيّن، وذهاب بصر يعقوب عليه السلام ثابت بالنص قال الله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] وقال ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ يعني لولا قومك لقتلناك برمي الحجارة، قال البغوي: كان شعيب في منعة من قومه، وقال البيضاوي معناه لولا عزة قومك عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة قلتُ ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨] وفي الصحاح الرهط العصابة دون العشرة وقيل: بل إلى الأربعين وقال الجزري: في النهاية الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل: إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة، وفي القاموس الرهط قوم الرجل وقبيلته ومن ثلاثة إلى سبعة أو إلى عشرة أو ما دون العشرة وما فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه، قلت: وكلام البغوي يشعر أنه قوم الرجل مطلقًا كما فسره صاحب القاموس أولاً والله أعلم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فيمنعنا عزتك عن الرجم وهذا دأب السفيه المحجوج يقابل الحجج والبينات بالسبّ والتهديد وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه ولذلك ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ يعني تركتم قتلي لأجل رهطي وما باليتم بنسبتي من الله بالرسالة وجعلتم الله كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به وإهانة رسوله، والاستفهام يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب والظِّهْرِيُّ المنسوب إلى الظهر والكسر من تغيرات النِّسَبِ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه شيء منها فيجازي عليها.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على تمكنكم من عداوتي مطيعين لها ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على تمكني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها كأنّه قيل سوف تعلمون أيّنا يأتيه عذاب يخزيه أنا أو إياكم أي يفضحه وأيّنا هو كاذب، أو موصولة قد عمل فيها كأنّه قيل سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه العذاب، وقد سبق مثل هذه الآية في الأنعام، لكن أورد الفاء هناك للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سبب لذلك، وحذفها ههنا فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لأنه جواب سائل كأنه قال: فماذا يكون بعد ذلك وهذا أبلغ في التهويل ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له بل لأنهم أوعدوه وكذبوه فقال: سوف تعلمون مَن المعذّب والكاذب أنا أو أنتم، وقيل: كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه، لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم، وقيل محل مَنْ الرفع تقديره ومن هو كاذب يعلم سوء عاقبته ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر فَعِيلُ بمعنى الراقب كالصريم، أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ ذكر ههنا بالواو كما في

---

(١) وأبو جعفر وهشام بخلاف عنه.

قصة عاد، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له، بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذكر بعد الوعد وذلك قوله: ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] ولذلك جاء بفاء السببية ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيل: إن جبرائيل عليه السلام صاح صيحة فخرجت أرواحهم، وقيل أتاهم صيحة من السماء فأهلكتهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ ميتين وأصل الجثوم اللزوم في المكان ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ كأن لم يقيموا فيها أحياء متصرفين مترددين ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ هلاكاً ﴿لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ شبّههم بهم لأن عذابهم كان أيضًا بالصيحة غير أن صيحة ثمود كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم، أصله بَعُدَت بضم العين والكسر لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك، والبُعْد بضم الباء مصدر لهما وبفتح الباء والعين مصدر المكسور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي بالمعجزات وليس المراد آيات التوراة لنزولها بعد هلاك فرعون ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي غلبة ظاهرة غلب بها مع كونه رجلاً واحداً على فرعون وجنوده، ولم يقدر فرعون على إهلاكه مع حرصه على ذلك، قيل المراد به العصا وأفردها بالذكر لكونه أبهرها، ويجوز أن يراد بهما واحد، يعني ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياه، فإن أبَانَ جاء لازماً ومتعدياً، والفرق بين الآية والسلطان أن الآية تعم الإمارة والدليل القاطع، والسلطان يخص القاطع والمبين يخص بما فيه جلاء ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ في الكفر والطغيان والانهماك في الضلال ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي ذي رشد وإنما هو غيّ وضلال والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، ضد الغيّ فإنه يستعمل في كل ما يذم، وفيه تجهيل لمتبعيه حيث اتبعوه على أمره مع كونه بديهي البطلان، حيث ادعى الألوهية مع كونه بشرًا مثلهم، وجاهر بالظلم والكفر والشرك، وترك متابعة موسى الهادي إلى الحق المؤيد بالعقل والنقل والمعجزات الظاهرة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أي يتقدمهم يقال قدم بمعنى تقدم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ونزل النار لهم منزلة الماء حتى سمي إتيانها وروداً ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي بئس الورد الذي وردوه فإنه يراد لتبريد الكبد وتسكين العطش، والنار بالضد والآية كالدليل على قوله ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] فإن من هذا عاقبته لا يكون في أمره رشد أو تفسير له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ يعني لعنوا على ألسنة الأنبياء والمؤمنين في الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يلعنون أيضاً ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ اللعنة أي بئس العون المعان أو العطاء المعطى، وأصل الرفد ما يضاف إلى غيره ليعمده وفي القاموس الإرفاد الإعانة والإعطاء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبره يعني هذا النبأ الذي أنبأناك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي بعض أخبار القرى المهلكة ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ مقصوص نبأه عليك خبر بعد خبر ﴿مِنْهَا﴾ أي بعض ذلك ﴿قَآئِمٌ﴾ أي باق آثارها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الآثار كالزرع المحصود، قال مقاتل:

قائم يرى له أثر وحصيد لا يرى له أثر، وقيل: منها قائم يعني عامر وحصيد يعني خراب، والجملة مستأنفة وليس بحال من ضمير نَقُصُّهُ لعدم الواو والضمير ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ الضمير عائد إلى القرى والمراد بها أهلها يعني ما ظلمناهم بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن عرّضوها له بارتكاب ما يوجبه من الكفر والمعاصي ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ يعني ما نفعتهم ولا قدرت على أن يدفع عنهم العذاب ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ من الإغناء ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابه ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غير تدمير وتخسير ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا الأخذ الذي ذكرنا في القصص المذكورة ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ مبتدأ كذلك خبره مقدم عليه ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلها ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال من القرى وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامهم أجريت عليها، وفائدتها الإشعار بأنهم إنما أخذوا بظلمهم ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع لا يرجى الخلاص منه، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال: ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾»(١) الآية رواه الشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما نزل بالقرى الهالكة وما قصه الله عليك ﴿لَءَايَةً﴾ لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فإنه يعتبر به عظمته ويعلم(٢) بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين أو المعنى ينزجر به عن المعاصي لعلمه بأنها من إله مختار ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١] وأما من أنكر الآخرة فهو كالأنعام لا بصر له ولا بصيرة فلا يعتبر بل يحيلها إلى الاتفاق ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة دل عليه عذاب الآخرة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يجمع له الناس أي لما فيه من المحاسبة والمجازاة والتغير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وإنه من شأنه لا محالة وإن الناس لا ينفكون عنه ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه يشهد فيه الشهداء على الناس، أو مشهود فيه الخلائق الموقف لا يغيب منهم أحد، واتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي ذلك اليوم قرأ يعقوب بالياء(٣) على الغيبة أي ما يؤخر الله ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي إلا لانتهاء مدة معدودة معلومة عند الله على حذف المضاف وأراد مدة التأجيل كلها بالأجل لا منتهاها فإنه لا تعدد(٤) فيه ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي الجزاء أو اليوم على اليوم بمعنى حين أو الله تعالى كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة(٥) يَأْتِ بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة ونافع وأبو عمرو والكسائي(٦) بالياء أصلاً فقط وابن كثير(٧) في الحالين، والظرف

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٥، ومسلم في البر حديث ٦٢، والترمذي في تفسير سورة ١١، باب ٢.
(٢) في الأصل: يعلم بغير واو.
(٣) والصحيح أن يعقوب مع الجمهور في نون العظمة ـ أبو محمد عفا الله عنه.
(٤) في الأصل: أن لا تعدد فيه.
(٥) وخلف ـ ابو محمد ـ.
(٦) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٧) وكذا يعقوب ـ أبو محمد ـ.

متعلق باذكر أو بانتهاء المحذوف أو بقوله ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ بحذف إحدى التاءين أي لا تتكلم ﴿نَفْسٌ﴾ ما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي إلا إذن الله نظيره: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨] ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف دل عليهم قوله ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ [هود: ١٠٥] أو للناس في قوله تعالى ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] ﴿شَقِيٌّ﴾ كتب عليه الشقاوة ﴿وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] كتب له السعادة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرجنا على جنازة فبينا نحن بالبقيع إذ خرج علينا رسول الله ﷺ وبيده مخصرة، فجاء ثم جلس فنكت بها الأرض ساعة ثم قال: «ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة أو النار وإلا قد كتب شقي وسعيد» قال: فقال رجل: ألا نتكل على كتابنا يا رسول الله وندع العمل؟ قال: «لا ولكن اعملوا فكل ميسر فأما أهل الشقاء فيسروا لعمل أهل الشقاوة وأما أهل السعادة فيسروا لعمل أهل السعادة قال: ثم تلا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾[1] [الليل: ٥ ـ ٦]» الآية رواه البغوي وفي الصحيحين نحوه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦﴾ قال ابن عباس: الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف، وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول نهيق الحمار والشهيق آخره إذا ردّده في جوفه، وكذا في القاموس، وقال أبو العالية الزفير في الحلق والشهيق في الصدر، وقال البيضاوي الزفير إخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما في أول النهيق وآخره، وفي القاموس أيضًا زَفَرَ يَزْفِرُ زَفراً وزَفِيراً أخرج نفسه بعد مده إياه والجملة في موضع الحال والعامل فيها الظرف المستقر ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[2] قال الضحاك: أي ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما، وكل ما علاك سماء وكل ما استقر عليه قدمك أرض، ولا شك أن اجتماع الناس المذكور فيما سبق يدل على أن لهم مظل ومقل، وقال أهل المعاني: هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا يأتيك ما دامت السماوات والأرض يعنون أبدًا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ظاهر هذه الآية يقتضي انقطاع استقرارهم في النار، ويؤيده ما روي عن ابن مسعود قال: «ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً» وعن أبي هريرة مثله وبه قال: من الصوفية الشيخ محيي الدين ابن العربي[3]، لكن هذا القول مردود بالإجماع والنصوص قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠﴾ [المائدة: ٨٠] أخرج الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون عدد كل حصاة لفرحوا بها، ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد»[4] وأخرج

(١) أخرجه بنحوه البخاري في الجنائز باب ٨٢، ومسلم في القدر حديث ٦، وأبو داود في السنة باب ١٦، وأحمد في المسند ١/ ١٢٩.

(٢) ليس في الأصل خالدين فيها.

(٣) في الأصل محيي الدين العربي.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٢٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦٩، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٤١.

الطبراني في الكبير والحاكم وصححه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله ﷺ إليكم يخبركم أن المردّ إلى الله إلى جنة أو نار خلود بلا موت وإقامة بلا ظعن في أجساد لا تموت وأخرج الشيخان عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه»[(١)] وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»[(٢)] وحديث ذبح الموت والنداء بقوله «يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت»[(٣)] أخرجه الشيخان عن ابن عمر وأبي سعيد والحاكم وصححه عن أبي هريرة، قال البغوي: معنى قول ابن مسعود وأبي هريرة ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد عند أهل السنة إن ثبت أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان، وأما مواضع الكفار فممتلئة أبدًا وقد ذكرتُ في تفسير قوله تعالى ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: ٢٣] أنها في حق أهل الأهواء من أهل القبلة وعند أكثر المفسّرين المراد بالأحقاب أحقاب[(٤)] غير متناهية، ولما كان الإجماع على خلود الكفار في النار اختلفوا في تفسير هذه الآية وتأويل هذين الاستثناءين.

والمختار عندي أن الاستثناء في هذه الآية محمول على أنهم يخرجون من الجحيم إلى الحميم ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢] وهكذا أبداً، قال البغوي: في تفسير قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤] إنهم يسعون بين الحميم وبين الجحيم، فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآني الذي صار كالمهل قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] أو من النار إلى الزمهرير. روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكَلَ بعضي بعضًا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر من حرها وأشد ما تجدون من الزمهرير من زمهريرها»[(٥)] وكذا أخرج البزار عن أبي سعيد وأخرج أبو سعيد مثله من حديث أنس، وقال بعض المحققين الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم مؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها، عن أنس أن النبي ﷺ

---

(١) روي الحديث بطرق وبأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٢، ٥٠، ٥١، ومسلم في الجنة حديث ٤٢، ٤٣، والترمذي في الجنة باب ٢٠، وابن ماجه في الزهد باب ٣٨، والدارمي في الرقاق باب ٩٠، وأحمد في المسند ١١٨/٢، ١٢١، ١٣٠، ٢٦١، ٣٤٤، ٣٦٩، ٣٧٨، ٤٢٣، ٩/٣.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) انظر الحاشية ما قبل السابقة.

(٤) في الأصل: أحقاباً.

(٥) أخرجه البخاري في المواقيت باب ٩، وبدء الخلق باب ١٠، ومسلم في المساجد حديث ١٨٥، ١٨٧، والدارمي في الرقاق باب ١١٩.

قال: «ليصيبن أقواماً سفع[١] من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته فيقال لهم الجهنميون»[٢] رواه البخاري، وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميون»[٣] رواه البخاري ونحوه عن المغيرة بن شعبة عند الطبراني وزاد «فيدعون الله أن يمحو عنهم الاسم فيمحو الله عنهم» وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناسًا من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾[٤] [الحجر: ٢] وقد روي معناه في حديث طويل عن أبي موسى الطبراني والبيهقي وابن أبي حاتم، وعن أبي سعيد الطبراني، وفي دخول المؤمنين المذنبين النار وخروجهم منها أحاديث بلغت حد التواتر، قال البيضاوي: فُساق المؤمنين يخرجون من النار وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم يفارقون عن الجنة أيام عذابهم فإن التأبيد من مبدأ معينٍ ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيمًا صحيحًا لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه، لأن ذلك الشرط إنما يكون في الانفصال الحقيقي أو مانع الجمع والمراد ههنا منع الخلوّ، والمعنى أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين ولا يخرج حالهم عن الشقاوة والسعادة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين انتهى، وقيل ما شاء ههنا بمعنى من شاء والمراد بهم أيضًا عصاة المؤمنين في الاستثناءين، ومرجع هذا القول إلى القول الثاني وقيل المستثنى في الفريقين زمان توقفهم في الموقف للحساب لأن الظاهر يقتضي أن يكونوا في النار أو في الجنة حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقًا غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت في كلام البيضاوي المذكور سابقًا، وقيل: هو استثناء من قوله تعالى ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، وقال السيوطي في البدور السافرة: أشبه الأقوال بالصواب أنه ليس باستثناء وإنما إلا بمعنى سوى كما تقول لك عليّ ألف درهم إلا الألفان القديمان أي سوى الألفين، والمعنى خالدين فيها مدة دوام السماوات والأرض في الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها مما لا منتهى له، وذلك عبارة عن الخلود، والنكتة في تقديم ذكر مدة السماوات والأرض التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولاً، ثم إردافه

---

(١) أي علامة تغير ألوانهم، يعني أثراً من النار.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥١، والتوحيد باب ٢٥، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٩.
(٣) انظر الحاشية السابقة.
(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٧٩، والسيوطي في الدر المنثور ٤/٩٢.

بما لا إحاطة للذهن به، وقيل: إلا بمعنى الواو يعني ما دامت السماوات والأرض في الدنيا وما شاء ربك من الخلود وكقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ١٥٠] يعني ولا للذين ظلموا، وقال الفراء: هذا استثناء استثناه ولا يفعله كقولك والله أضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه، فالمعنى إلا ما شاء ربك يعني لو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لم يشأ، وقال قتادة: الله أعلم بثنياه ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي(١) بضم السين على البناء للمفعول من سعد الله بمعنى أسعده، والباقون بالفتح على البناء للفاعل فهو لازم ومتعد﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قد ذكرت الأقوال في هذا الاستثناء فيما سبق، والمختار عندي أن أهل الجنة ينعمون في بعض أحيانهم بما هو أعلى من الجنة، وذلك هو الاستغراق في رؤية الله تعالى، وكمال الاتصال بجناية بلا كيف قال المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] إن تقديم الجار والمجرور يقتضي الحصر ويفيد أنهم إذا رأوا ربهم يستغرقون في رؤيته تعالى لا ينظرون حينئذ إلى غيره، وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قوله تعالى ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»(٢) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني، وقال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه في المكتوب المائة من المجلد الثالث في تحقيق سر اشتغال قلب يعقوب بمحبة يوسف عليه السلام: إن جنة كل رجل عبارة عن ظهور اسم من اسماء الله تعالى الذي هو مبدأ لتعيّن ذلك الرجل، وإن ذلك الاسم يتجلى بصورة الأشجار والأنهار والقصور والحور والغلمان، واستحكم هذا المكشوف بقوله ﷺ: «إن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وإنها قيعان وإن غراسها هذه يعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»(٣) ثم قال المجدد رضي الله عنه: إن تلك الأشجار والأنهار قد تصير في حين من الأحيان على هيئة الإجرام الزجاجية، فتصير وسيلة إلى رؤية الله سبحانه غير متكيفة ثم تعود إلى حالها الذي كانت عليه، فيشغل المؤمن بنفسها وهكذا إلى أبد الآبدين، وقد ذكرنا زيادة الكلام في المقام في تفسير سورة القيامة في شرح آية الرؤية ﴿عَطَآءً﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد يعني أعطوا عطاءً، أو على الحال من الجنة، قلت: ويمكن أن يكون منصوبًا على أنه مفعول به لقوله تعالى ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] يعني هم في الجنة إلا وقت مشيئة ربك ﴿عَطَآءً غَيْرَ

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢١٤.

﴿مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع يعني الوصال والرؤية بلا حجاب، ووجه تعبير ذلك بعطاء غير مجذوذ مع أن كل نعيم في الجنة عطاء غير مجذوذ، أن ذاته تعالى موجود متأصل بنفسه وغيره موجود بوجود ظل وجوده، فالموجود بنفسه هو الله وحده ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] كالمستعير ثوب غيره عار بالنسبة إلى المالك، فعطاؤه تعالى اتصالاً بذاته كأنَّه هو المتأصل الغير المنقطع وما عداه من النعيم مجذوذ وجوده في نفسه بالنسبة إليه والله أعلم، قال ابن زيد: أخبرنا الله بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولم يخبرنا بالذي يشأ لأهل النار بل قال: هناك ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك بعدما أخبرناك من مال الناس ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصته عليك سوء عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه لا يضر ولا ينفع ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا﴾ كان ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ حذف كان لدلالة قبل عليه، والجملة مستأنفة معناه تعليل النهي عن المرية في أنهم وآباؤهم سواء في الشرك أي ما يعبدون عبادةً إلا كعبادة آبائهم، أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم فسيلحقهم مثله، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من العذاب كآبائهم أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام موجبه ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ من النصيب تأكيد للتوفية، فإنك قد تقول وفيتُه حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن تسلية للنبي ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ الإنظار إلى يوم القيامة ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المحق والمبطل بإنزال العذاب على المبطل ليميز به عن المحق ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من القرآن أو من العذاب ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريب ﴿وَإِنَّ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر مخففة من الثقيلة عاملة اعتباراً للأصل والباقون مشددة ﴿كُلًّا﴾ التنوين بدل من المضاف إليه يعني أن كل واحد من المختلفين المؤمنين منهم والكافرين ﴿لَّمَّا﴾ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة ههنا وفي يٰس ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾ [يس: ٣٢] وفي الطارق ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] بتشديد الميم، والباقون بتخفيفها، فمن قرأها بالتخفيف فلام الأولى موطئة للقسم والثانية للتأكيد أو بالعكس، وما مزيدة بينهما للفصل، وقيل ما معنى مَنْ كما في قوله تعالى ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣] أي من طاب لكم، والمعنى والله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ أو والله لمن ليوفينهم ﴿رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي جزاء أعمالهم، ومن قرأها بالتشديد فأصله لَمَنْ مَا، فقلبت النون ميماً للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت أولاً عن، والمعنى لمن ليوفيهم وما مزيدة، وقيل إنه من لممت لماً أي جمعته، ثم وقف على الألف عوض التنوين فصار لَمًّا، ثم أجري الوصل مجرى الوقف، وجاز أن يكون مثل الدعوى والبشرى وغيرها من المصادر التي فيها ألف التأنيث، وقرأ الزهري ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمًّا﴾ بالتنوين وهو يؤيد هذا القول، والمعنى وإن كلاً جميعاً، وقال صاحب الإيجاز لما فيه معنى

الظرف وفي الكلام اختصار تقديره وإن كلاً لما بعثوا ليوفينهم ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ﴿خَبِيرٌ﴾ فلا يفوت منه شيء وإن خفي.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ استقامة ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي مثل استقامة أمرت بها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ من الشرك وآمن عطف على المستكن في استقم وإن لم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، لمّا بين الله سبحانه أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد، أمر رسوله ومن تبعه بالاستقامة مثل ما أمر بها، وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالوسط بين التشبيه والتعطيل، والجبر والاختيار وغير ذلك، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك؟» وفي رواية «غيرك»، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»(١) رواه مسلم، فالاستقامة لفظ جامع قال عمر بن الخطاب: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب يعني لا تميل عن الطريق المستقيم ميلاً أصلاً، وهي في غاية العسر ولذلك قالت الصوفية الاستقامة فوق الكرامة قال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على عهد رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال: «شيّبتني سورة هود»(٢) قلت: قول ابن عباس يدل على أن اشتداد هذه السورة على رسول الله ﷺ حتى شيّبته، إنما كانت لأجل هذه الآية الآمرة بالاستقامة، فإنه ﷺ وإن كانت نفسه الشريفة مجبولة على الاستقامة مخلوقة على خلق عظيم، لكنها شاقة على من تبعه فلذلك شيّبته شفقة على أمته، والظاهر عندي أن

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٦٢.
(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٥٦، باب ٦.

قوله ﷺ «شيَّبتني سورة هود» مبني على اشتمالها على قصص هلاك الأمم المشعر بالوعيد بالهلاك للظالمين من أمته وذكر يوم القيامة كما سنذكر في آخر السورة إن شاء الله تعالى ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ يعني لا تجاوزوا عن حدود الشرع، وقيل معناه لا تغلوا فتزيدوا على ما أمرتُ ونهيتُه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسد ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة[1] والروحة[2] وشيء من الدلجة[3]»[4] رواه البخاري والنسائي، قلت: وهذا الحديث أيضاً يدل على أن تشييب السورة رسول الله ﷺ ما كان لثقل الاستقامة والله أعلم.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قال ابن عباس: أي لا تميلوا والركون المحبة والميل بالقلب، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، وقال السدي: لا تداهنوا الظلمة، وقال عكرمة: لا تطيعوهم، وقيل لا تسكنوا إلى الذين ظلموا قال البيضاوي: لا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الميل اليسير كالتزين بزيّهم وتعظيم ذكرهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بركونكم إليهم، قال البيضاوي: وإذا كان الركون إلى الظالمين كذلك فما ظنك بالميل كل الميل إليهم، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، روي أن رجلاً صلى خلف الإمام فلما قرأ هذه الآية غشي عليه فلما أفاق قيل له فقال: هذا فيمن ركن إلى الظلم فكيف بالظالم، وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين لا تطغوا ولا تركنوا، وعن الأوزاعي: «ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور ظالماً» وعن أوس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام»[5] وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال أبو هريرة: بلى والله حتى الحبارىٰ لتموت في وَكرها هزلاً بظلم الظالم، روى الحديثين في شعب الإيمان. قال البيضاوي: خطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بهذه الآية للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط أو تفريط ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي من أنصار يمنعون عنكم العذاب والواو للحال من مفعول فتمسكم النَّار ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم فيه وثم لاستبعاد النصر من الله تعالى، أو لاستبعاد النصر مطلقاً فإنه لما ذكر أنهم يعذبهم الله وكل من يعذبه الله لا يقدر على نصره أحد غيره أنتج أنهم لا ينصرون أصلاً والله أعلم.

---

(١) السير أول النهار.
(٢) السير آخر النهار.
(٣) السير بالليل.
(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٩، والنسائي في الإيمان باب ٢٨.
(٥) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٥١٣٥.

أخرج الترمذي والنسائي عن أبي اليسر قال البغوي: هو عمرو بن غزية الأنصاري، قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلتُ إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلت معي البيت فأهويتُ إليها فقبلتُها ثم ندمتُ فأتيتُ أبا بكر رضي الله عنه فذكرتُ ذلك فقال: استر على نفسك وتب، قال: فأتيتُ عمر فقال: استر على نفسك وتب، فلم أصبر فأتيتُ رسول الله ﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال: «أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا» حتى ظن أنه من أهل النار فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحي إليه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: «بل للناس عامة»[1]، قال صاحب لباب النقول: وورد نحو حديث أبي اليسر من حديث أبي أمامة وابن عباس وبريدة وغيرهم، وانتصاب طَرَفي على الظرف لأنه مضاف إليه ومعناه غدوةً وعشيةً ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ أي طائفةً من الليل أو ساعات منه قريبةً من النهار، فإنه من أزلفه إذا قربه وهو جمع زلفة، قرأ أبو جعفر بضم اللام، قال ابن عباس: طرفا النهار يعني صلاة الصبح والمغرب وزلفاً من الليل حينئذ العشاء، وقال الحسن: طرفا النهار الصبح والعصر وزلفاً من الليل المغرب والعشاء، وقال مجاهد: طرفا النهار الصبح والظهر والعصر وزلفاً من الليل المغرب والعشاء، وهذا القول يشعر أن وقت الظهر والعصر واحد ولو عند الضرورة وكذا وقت المغرب والعشاء، ومن ههنا قال مالك وأحمد والشافعي إذا أسلم الكافر أو طهرت الحائض أو بلغ الصبي آخر وقت العصر وجبت عليه الظهر والعصر، وإذا أسلم أو طهرت أو بلغ آخر وقت العشاء وجبت عليه المغرب والعشاء، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله فإنه لا يجب عنده إلا العصر والعشاء، لنا الأحاديث الواردة في أوقات الصلوات التي ذكرتُها في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] فإنها تدل على أن وقت كل صلاة مباين للأخرى، ولأجل ذلك لا يجوز عند أبي حنيفة رحمه الله جمع صلاة الظهر والعصر ولا المغرب والعشاء بعلة سفر أو مرض أو مطر كما لا يجوز جمعهما بغير علة إجماعاً، وقال الشافعي ومالك وأحمد: يجوز الجمع في السفر، وعند مالك وأحمد يجوز الجمع لأجل المطر في العشاءين خاصة، وعند الشافعي بين الظهرين أيضاً، وجاز عند أحمد الجمع لأجل المرض، احتجوا بأن رسول الله ﷺ أمر حمنة بنت جحش حين استحاضت بالجمع وقال: «تؤخرين الظهر وتعجلين العصر ثم تغتسلين وتجمعين بين الصلاتين»[2] رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح، وأنه ﷺ جمع في السفر بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، في الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجمع بين الصلاتين في السفر المغرب والعشاء والظهر والعصر[3]، وفيهما عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ثم ينزل

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١١، باب ٧. (٢) أخرجه الترمذي في الطهارة باب ٩٥.
(٣) أخرجه البخاري في التقصير باب ١٣، ومسلم في المسافرين حديث ٤٧، ٤٨.

فيجمع بينهما، وإذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب»[١] وروى مسلم من حديث معاذ بن جبل قال: «جمع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قال: فقلت له ما حمله على ذلك؟ قال: أراد أن لا يحرج أمته»[٢].

وأجاب أبو حنيفة عن هذه الأحاديث أن المراد من هذه الأحاديث الجمع الصوري، يعني كان يصلي الظهر في آخر وقتها والعصر في أول وقتها وكذا العشاءين، فيجمع بينهما صورة وكان يصلي كل صلاة في وقتها كما هو مصرح في حديث حمنة، ويدل عليه ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ جمع بالمدينة من غير خوف ولا سفر[٣]، وفي بعض ألفاظ مسلم جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء من غير خوف ولا مطر، قيل لابن عباس ما أراد إلى ذلك؟ قال: أراد أن لا يحرج أمته، وفي رواية للطبراني جمع بالمدينة من غير علة، قيل: ما أراد بذلك؟ قال: التوسع على أمته، فإن هذا الحديث محمول على الجمع الصوري البتة للإجماع على عدم جواز الجمع من غير علة، وقد جاء صريحاً في الصحيح عن عمرو بن دينار قال: قلت يا أبا الشعثا أظنه أَخَّرَ الظهر وعَجَّلَ العصر وأَخَّرَ المغرب وعجّل العشاء، قال: وأنا أظن ذلك فإن قيل: يمكن حمل ما يدل على جمع التأخير على الجمع الصوري ولكن من الروايات ما يدل على جميع التقديم ولا يمكن حملها على الجمع الصوري أما حديث ابن عباس فرواه أحمد والبيهقي والدارقطني من طريق حسين بن عبيد الله بن عبد الله بن عباس عن عكرمة وكريب عن ابن عباس قال: كان إذا زاغت الشمس في منزله جمع بين الظهر والعصر قبل أن يركب، وإذا لم تزغ له في منزله سار إذا جاء العصر نزل فجمع بين الظهر والعصر، وإذا جاءت في منزله جمع بينها وبين العشاء، وإذا لم يجيء في منزله ركب حتى إذا جاءت العشاء نزل فجمع بينهما، وأما حديث أنس فرواه الإسماعيلي والبيهقي من حديث إسحاق بن راهويه بلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا كان في السفر وزالت الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم ارتحل قال النووي: اسناده صحيح، وأما حديث معاذ فرواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث قتيبة عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عنه «أن رسول الله ﷺ كان في غزوة تبوك إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر فإن ارتحل قبل أن تزيغ أخر الظهر حتى ينزل للعصر»[٤] وفي المغرب مثل ذلك الحديث.

قلنا: أما ما ذكرتم من حديث ابن عباس فحسين ضعيف كذا قال ابن معين، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في التقصير باب ١٥، ١٦، ومسلم في المسافرين حديث ٤٦.
(٢) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤.
(٣) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ٤٩، وأبو داود في السفر باب ٥، والنسائي في المواقيت باب ٤٧، ومالك في السفر حديث ٤، وأحمد في المسند ١/ ٢٨٣.
(٤) أخرجه أبو داود في التطوع باب ١٠، والترمذي في الجمعة باب ٤١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥.

النسائي: متروك وأما ما ذكرتم من حديث أنس فإنه وإن قال النووي إسناده صحيح، لكن قال الذهبي إن أبا داود أنكر على إسحاق لكن له متابع رواه الحاكم في الأربعين وفيه إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر والعصر ثم ركب وهذه زيادة غريبة صحيحة الإسناد رواه الطبراني في الأوسط أن النبي ﷺ «كان إذا كان في سفر فزاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر والعصر جميعاً، وإن ارتحل قبل أن تزيغ الشمس جمع بينهما في أول العصر، وكان يفعل ذلك في المغرب والعشاء» وقال تفرد به يعقوب بن محمد الزهري وأما حديث معاذ قال الترمذي: تفرد به قتيبة والمعروف ما رواه مسلم، وقال أبو داود: هذا حديث منكر وليس في جمع التقديم حديث قائم، وقال أبو سعيد بن يونس: لم يحدث بهذا الحديث إلا قتيبة، ويقال إنه غلط وعلله أبو حاتم وأطنب الحاكم في بيان علته وأعله البخاري وابن حزم، وفي الجمع في السفر حديث علي رواه الدارقطني بسند له من حديث أهل البيت وفي إسناده من لا يعرف، وفيه أيضاً المنذر القابوسي وهو ضعيف. واحتج أبو حنيفة بحديث ابن مسعود في الصحيحين قال: ما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة لغير وقتها إلا بجمع فإنه جمع بين المغرب والعشاء بجمع وصلى صلاة الصبح من الغد قبل وقتها[(١)] يعني غلس بها فكأنّه أراد قبل وقتها المعتاد، وكأنّه ترك ذكر جمع عرفة لشهرته، وبما روى مسلم في حديث ليلة التعريس قوله ﷺ «ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة أن يؤخر الصلاة حتى يدخل وقت صلاة أخرى»[(٢)] والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي يكفرنها أخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لسيئة قديمة»[(٣)]، ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾» وأخرج أحمد عن أبي ذر قال: «قلت يا رسول الله أوصني» قال: «إذا علمت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»، قال: قلت: يا رسول الله من الحسنات لا إله إلا الله، قال: «هي أفضل الحسنات»[(٤)] عن ابن مسعود «أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية، فقال الرجل: ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم» وفي آدابه «لمن عمل بها من أمتي»[(٥)] متفق عليه، وفي رواية لمسلم نحوه وفيه قال له عمر: لقد سترك الله لو سترتَ على نفسك الحديث، وأخرج الحاكم والبيهقي من حديث معاذ بن جبل نحوه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة باب ٦، ١٤، ومسلم في المسافرين حديث ٩٣، ٩٦.
(٢) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٣١١.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٧٤.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٥٣، ١٥٨.
(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٦، ومسلم في التوبة حديث ٣٩، ٤٠.

لما بينهن ما اجتنب الكبائر»[1] رواه مسلم، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[2] متفق عليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله فَاسْتَقِمْ فما بعده وقيل: إلى القرآن ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي عظة للمتعظين ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد على الطاعات وعن المعاصي وعلى ما أصابك من الأذى، وقيل: على الصلاة نظيره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] عدل من المضمر ليكون كالبرهان على المقصود وفيه دليل على أن الصلاة والصبر أختان، وإيماء بأنه لا يُعْتَدُّ بهما بدون الإخلاص.

﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ التي كانت ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي أولو رأي وعقل وفضل، وإنما سمي بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما عنده، يقال: فلان ذو بقية إذا كان فيه خير، ومنه ما يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، وقيل: معناه أولو طاعة كما ذكرنا في ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦] ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٤٦] وقيل: معناه أولو بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة، ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية، في القاموس بقي يبقى بقاءً وبقاً وبقياً يعني ذو إبقاءً على أنفسهم وصيانة لها من العذاب ﴿يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ويأمرون بالمعروف ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم، وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إذا جعل من النفي اللازم للتحضيض، ومِن في ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾ للبيان لا للتبعيض ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي التاركون للنهي عن المنكر ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات، فاهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال مقاتل بن حبان: ما حولوا، وقال الفراء: ما عودوا وجملة. واتّبع معطوف على فعل مقدر أي إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾ اللام لتأكيد النفي وأن المصدرية مقدرة يعني ما كان صفة ربك إهلاك ﴿الْقُرَىٰ﴾ أو ما كان ربك مهلكها ﴿بِظُلْمٍ﴾ حال من ضمير الفاعل في يهلك أي ما كان الله مهلكهم ظالماً لهم ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قوم ﴿مُصْلِحُونَ﴾ مسلمون تنزيه لذاته تعالى عن الظلم، وقيل: الظلم الشرك والمعنى وما كان الله مهلك القرى بسبب شركهم في حال يكون أهلها مصلحون فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، أخرج الطبراني وأبو الشيخ عن جرير بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ «وأهلها يُنصف بعضهم بعضاً»، وذلك لفرط رحمة ومسامحة في حقوقه ولذلك قدم الفقهاء عند تزاحم

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ١٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٥٩، ٤٠٠، ٤١٤.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت باب ٦، ومسلم في المساجد حديث ٢٨٣، ٢٨٤.

الحقوق حقوق العباد، ومن ههنا قيل: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مسلمين صالحين وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل واحد وأن ما أراد يجب وقوعه ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ عن الحق تاركيه إلى الباطل على أنحاء شتى، فمنهم يهودي ونصراني ومجوسي ووثني، ومنهم جبري وقدري وروافض وخوارج وغير ذلك ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ هداهم الله من فضله إلى صراط مستقيم، فهم متفقون على أصول العقائد الصحيحة وامتثال أوامر الله والانتهاء عن المناهي، عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مستقيماً، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾(١) [الأنعام: ١٥٣]» رواه أحمد والنسائي والدارمي ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال ابن عباس: ومجاهد وقتادة والضحاك يعني للرحمة خلقهم، فالضمير راجع إلى من رحمهم والإشارة إلى الرحمة، وقال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم، قال أشهب سألتُ مالكاً عن هذه الآية؟ فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقال أبو عبيدة الذي أختاره قول من قال: خلق فريقاً لرحمته وفريقاً لعذابه وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف، فالضمير راجع إلى الناس والإشارة إلى الاختلاف والرحمة جميعاً، واللام للعاقبة ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي حكم ربك القديم أو قوله للملائكة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي عصاتهما ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو المعنى منهما جميعاً لا من أحدهما.

﴿وَكُلًّا﴾ أي كل نبإ ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي أخبارهم ومن أخبار أممهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بيان لكلاً أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص، وهو زيادة يقينه وتقوية قلبه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول وكلاً منصوب على المصدر أو الظرف، أي كل نوع من أنواع الاقتصاص أو كل وقت من الأوقات نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل والأمم ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ قال الحسن: وقتادة في هذه الدنيا، وقال غيرهما في هذه السورة والظاهر أن الإشارة إلى الأنباء، يعني جاءك في هذه الأنباء المقتصة عليك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده التامة العامة ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي حالكم وجهتكم التي أنتم عليها وعلى قدرتكم فيه تهديد ووعيد ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على حالنا وقوتنا ﴿وَٱنتَظِرُوٓا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل على أمثالكم إن لم تؤمنوا ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له تعالى خاصة علم ما غاب عن العباد فيهما، لا يخفى عليه خافية مما بينهما فلا يخفى عليه أعمالكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ﴾ قرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول، والباقون بفتح الياء وكسر الجيم على البناء للفاعل ﴿ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ في العباد يعني

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١، والدارمي في المقدمة باب ٢٣.

يرجع إليه تعالى لا محالة أمرك وأمرهم فينتقم لك منهم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع التوكل مع العبادة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب(١) هنا وفي آخر النمل بالتاء الفوقانية على الخطاب والباقون بالياء التحتانية على الغيبة فيهما.

قال البغوي: قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر يا رسول الله قد شبتَ، قال ﷺ: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»(٢) رواه الترمذي والحاكم وصححه والبغوي، ورواه الحاكم عن أبي بكر وابن مردويه عن سعد ورواه ابن مردويه عن أبي بكر بلفظ: «شيّبتني هود وأخواتها قبل المشيب»(٣) ورواه أبو يعلى بسند ضعيف عن أنس وابن مردويه عن عمران بلفظ «شيَّبتني هود وأخواتها من المفصل» ورواه ابن مردويه عن أنس بلفظ «شيَّبتني سورة هود وأخواتها الواقعة والقارعة والحاقة وإذا الشمس كورت وسأل سائل» وروى الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر وأبي جحيفة بلفظ «شيَّبتني سورة هود وأخواتها» وفي الطبراني عن سهل بن سعد بسند ضعيف بزيادة «الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت» وروى ابن عساكر عن محمد بن علي مرسلاً بلفظ «شيَّبتني هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبلي» وروى عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو الشيخ في تفسيره عن أبي عمران الجوني مرسلاً «شيَّبتني هود وأخواتها وذكر يوم القيامة وقصص الأمم» وألفاظ الأحاديث المذكورة صريحة في أن التشييب مبني على ذكر يوم القيامة وهلاك الأمم السابقة لا على الأمر بالاستقامة له ولمن تاب معه وإلا لاقتصر على سورة هود ولم يذكر معها أخواتها.

والله أعلم

تم تفسير سورة هود من التفسير المظهري

ويتلوه تفسير سورة يوسف عليه السلام إن شاء الله تعالى

سادس عشر ذي القعدة من السنة الأولى بعد المائتين والف سنة ١٢٠١هـ.

تم الجزء الثالث ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٢) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٣) وعن أبي سعيد الخدري قال عمر بن الخطاب يا رسول الله أسرع إليك الشيب قال شيّبتني هود وأخواتها الواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت فقط إزالة الخفا ـ ١٢ ـ منه رحمه الله.

فهرس المحتويات

تفسير سورة الأعراف

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة التوبة

تفسير سورة يونس

تفسير سورة هود